واحدة من أعظم روائيّات زماننا The New York Times

إيلينا فيرّانتي

حكاية الاسم الجديد

صديقتي المذهِلة II

ترجمة : معاوية عبد المجيد

20.9.2017 (25)

مكتبة سومر

دار الآداب رواية

حكاية الاسم الجديد

سنّ الشباب

Telegram: Somrlibrary

Telegram: Somrlibrary

إيلينا فرّانتي

حكاية الاسم الجديد

سنّ الشباب

ترجمة: معاوية عبد المجيد

رواية

دار الآداب ـ بيروت

Telegram: Somrlibrary

حكاية الاسم الجديد / سنّ الشباب

إيلينا فرّانتي / كاتبة إيطاليّة

الطبعة الأولى عام 2017

ISBN 978-9953-89-550-5

STORIA DEL NUOVO COGNOME

Elena Ferrante

Copyright © 2012 by Edizioni e / o

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، من دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana@daraladab.com

info@daraladab.com

/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

Telegram: Somrlibrary

كلّ الشخصيّات والأحداث في هذا العمل الأدبيّ، وما يحويه من أسماءٍ وحوارات، هي من نسج خيال الكاتبة وتعبيرها الحرّ. وأيّ تشابهٍ، أو إشارةٍ، أو تطابقٍ مع الأحداث الواقعيّة والأشخاص الحقيقيين والأسماء والأماكن الحقيقيّة، هو محضُ صُدفةٍ وغيرُ مقصود.

وحتى عندما تذكر الكاتبة مؤسَّساتٍ موجودةً في الواقع، فإنّ هذا محصور بما تقتضيه تقنيَّات التخييل الأدبيّ في معالجة الشخصيَّات والأحداث.

Telegram: Somrlibrary

Telegram: Somrlibrary

فهرس الشخصيّات وأهم الأحداث التي وقعت في الجزء الأول

عائلة شيرولّو (عائلة الإسكافيّ):

فرناندو شيرولّو، إسكافيّ. والد ليلا. يُرغمها على عدم إكمال دراستها بعد المرحلة الابتدائيَّة.

نونتسيا شيرولّو، والدة ليلا. قريبة من ابنتها، لكنَّها لا تملك سلطة كافية لتساندها في وجه أبيها.

رافايلا شيرولّو، تُدعى لينا أو ليلا. وُلدت في أغسطس ١٩٤٤. وكان عمرها ستَّةً وستِّين عامًا حين اختفت من ناپولي من دون أن تترك أثرًا. تلميذة ذكيَّة ومتألِّقة. تؤلِّف قصَّة بعنوان «الساحرة الزرقاء» في سنّ العاشرة. تنقطع عن الدراسة بعد حصولها على الشهادة الابتدائيَّة، وتتعلَّم مهنة الإسكافيّ.

رينو *شيرولّو*، شقيق ليلا الأكبر، إسكافيٌّ أيضًا. بالتعاون مع أبيه فرناندو، وبفضل ليلا وأموال ستيفانو كارّاتشي، يفتتح ورشة شيرولّو لصناعة الأحذية. يرتبط بشقيقة ستيفانو، بينوتشا كارّاتشي. وتسمّي ليلا ابنها الأوَّل على اسمه: رينو.

Telegram: Somrlibrary

أبناءٌ آخرون.

عائلة غريكو (عائلة البواب):

إيلينا غريكو، تُدعى لينوتشا أو لينو. وُلدت في أغسطس ١٩٤٤، وهي مؤلِّفة هذه الرواية الطويلة. تشرع إيلينا في كتابتها حين يبلغها خبرُ اختفاء صديقة الطفولة، لينا شيرولّو، التي تنفرد إيلينا في تسميتها «ليلا». بعد المرحلة الابتدائيَّة، تواصل إيلينا الدراسة بنجاح متصاعد. تقع في غرام نينو سارّاتوري منذ طفولتها المبكرة، وتحتفظ بهذا الحبّ سرًّا في قلبها.

بيبّي وجانّي وإيليزا، أشقّاء إيلينا الصغار.

الأب، بوّابٌ في البلديَّة.

الأم، ربّة منزل. مشيتها العرجاء تشكِّل هاجسًا مقلقًا لإيلينا.

عائلة كارّاتشي (عائلة الدون آخيل):

الدون آخيل كارّاتشي، غول الحكايات. مُرابٍ وتاجرٌ في السوق السوداء/ الحقيبة السوداء. يلقى مصرعه ذبحًا.

ماريّا كارّاتشي، زوجة الدون آخيل ووالدة ستيفانو وبينوتشا وألفونسو. تعمل في ملحمة العائلة.

ستيفانو كارّاتشي، نجل الراحل الدون آخيل، وزوج ليلا. يُدير الأملاك التي كدّسها والده، ويشارك شقيقته بينوتشا ووالدته ماريّا وأخاه ألفونسو، في ملكيّة الملحمة المربحة.

بينوتشا، ابنة الدون آخيل. تعمل في الملحمة. ترتبط برينو، شقيق ليلا.

Telegram: Somrlibrary

ألفونسو، ابن الدون آخيل. رفيق إيلينا على مقعد الدراسة. مرتبط بماريزا سارّاتوري.

عائلة بيلوزو (عائلة النجّار):

ألفريدو بيلوزو، نجّار. شيوعيّ. متّهم بقتل الدون آخيل، حُكم عليه بالسجن.

جوزيبينا بيلوزو، زوجة ألفريدو. عاملة في مصنع التبغ. تتفرَّغ كلّيًّا لرعاية أبنائها وزوجها المسجون.

باسكوالي بيلوزو، نجل ألفريدو وجوزيبينا. عامل بناء ومناضل شيوعيّ. كان أوّل من انتبه لجمال ليلا واعترف لها بحبّه. يحقد على آل سولارا. ومرتبط بآدا كابوتشو.

كارميلا بيلوزو، تُدعى كارمن أيضًا. شقيقة باسكوالي. بائعة في محلٍّ خياطة، ثم تعيِّنها ليلا في ملحمة ستيفانو الجديدة. مرتبطة بإنتسو سكانو.

عائلة كابوتشو (عائلة الأرملة المجنونة):

ميلينا، من أقارب نونتسيا شيرولُّو. أرملة. تنظِّف سلالم البنايات في الحيّ القديم. كانت عشيقة دوناتو سارّاتوري، والد نينو. وبسبب هذه العلاقة تحديدًا، تنتقل عائلة سارّاتوري من الحيّ، وتفقد ميلينا صوابها.

زوج ميلينا، كان حمَّالًا للصناديق في سوق الخضروات والفاكهة. توفِّي في ظروف غامضة.

آدا كابوتشو، ابنة ميلينا. ساعدتْ والدتها في تنظيف السلالم في

Telegram: Somrlibrary

طفولتها. وبفضل ليلا، ستعيَّن بائعةً في ملحمة الحيّ القديم. مرتبطة بباسكوالي بيلوزو.

أنطونيو كابوتشو، شقيق ميلينا. ميكانيكيّ. مرتبط بإيلينا وشديد الغيرة عليها من نينو سارّاتوري.

أبناءٌ آخرون.

عائلة سارّاتوري (عائلة الموظَّف في السكك الحديديَّة/شاعر):

دوناتو سارّاتوري، مراقب تذاكر، شاعر، وصحافيّ. زير نساء كبير، وكان عشيق ميلينا كابوتشو. حين تذهب إيلينا إلى إيسكيا لقضاء الإجازة، وتنزل في البيت ذاته الذي تُقيم به عائلة سارّاتوري، تُرغَم على مغادرة الجزيرة هربًا من تحرُّشات دوناتو الجنسيَّة.

ليديا سارّاتوري، زوجة دوناتو.

نينو *سارّاتوري*، أكبر أبناء دوناتو وليديا الخمسةِ. تلميذ متألِّق للغاية. يكره والده.

ماريزا سارّاتوري، شقيقة نينو. لا تُحرز نتائج كبرى خلال دراستها التجهيز الوظيفي. مرتبطة بألفونسو كارّاتشي.

بينو، *كليليا*، *شيرو سارّاتوري*، أبناء دوناتو وليديا الأصغرُ سنًّا.

عائلة سكانّو (عائلة بائع الفواكه):

نيكولا *سكانّو*، بائع فواكه.

آسونتا سكانّو، زوجة نيكولا.

إنتسو سكانّو، ابن نيكولا وآسونتا، بائع فواكه أيضًا. تكنّ له ليلا مودَّةً منذ الطفولة. بدأت علاقتهما حين أبرز إنتسو جدارة مفاجئة في

Telegram: Somrlibrary

الرياضيَّات في أثناء منافسة مدرسيَّة. مرتبط بكارمن بيلوزو.

أبناءٌ آخرون.

عائلة سولارا (العائلة المالكة للمقهى/محلّ الحلويات الذي يحمل اسم العائلة):

سيلڤيو سولارا، مالك المقهى / محلّ الحلويات. من أنصار الفاشيَّة والمَلَكيَّة، وأحد رجالات مافيا الكامورا. يُدير التجارة غير المشروعة في الحيّ. وكان مناهضًا لافتتاح ورشة شيرولُّو لصنع الأحذية.

مانويلا سولارا، زوجة سيلڤيو. مرابية، يهاب الحيّ دفترها الأحمر.

مارتشيلو وميكيلي سولارا، ابنا سيلڤيو ومانويلا. متغطرسان ومتجبِّران، لكنَّهما محطّ إعجاب فتيات الحيّ، ما عدا ليلا طبعًا. مارتشيلو يُغرم بليلا لكنَّها تصدّه. ميكيلي، أصغر من مارتشيلو بقليل لكنَّه يتفوَّق عليه بالذكاء والعنف وبرودة الأعصاب. مرتبط بجيليولا ابنة صانع الحلويات.

عائلة سبانيولو (عائلة صانع الحلويات):

السيِّد سبانيولو، صانع الحلويَّات في مقهى سولارا.

روزا سبانيولو، زوجته.

جيليولا سبانيولو، ابنة صانع الحلويَّات. مرتبطة بميكيلي سولارا.

أبناءٌ آخرون.

Telegram: Somrlibrary

عائلة آيروتا:

آيروتا، بروفسور في الأدب الإغريقيّ.

آديلي، زوجته.

مارياروزا آيروتا، الابنة الكبرى، وأستاذة تاريخ الفنّ في ميلانو.

بييترو آيروتا، طالب جامعيّ.

المعلمون:

فيرارو، معلِّم وأمين مكتبة. كرّم ليلا وإيلينا، في طفولتيهما، لدأبهما على القراءة.

أوليڤييرو، معلِّمة. أوَّل من فطن إلى قدرات ليلا وإيلينا. ألّفتْ ليلا قصَّة «الساحرة الزرقاء» في سنِّ العاشرة، فأُعجبت بها إيلينا كثيرًا، فأعطتها للمعلِّمة أوليڤييرو كي تقرأها. لكنّ المعلِّمة لم تُبدِ أيّ رأي في القصَّة، إذ كانتْ مستاءة من والدَيْ ليلا، لأنَّهما قرَّرا عدم السماح لابنتهما بالالتحاق بالمرحلة المتوسِّطة. بل أهملتْ ليلا لتركِّز في نجاحات إيلينا فقط.

جيراتشي، أستاذٌ في المرحلة الأولى من المدرسة الثانويّة.

السيِّدة غالياني، أستاذةٌ في المرحلة الثانية من المدرسة الثانويّة. وهي مثقَّفةٌ للغاية. شيوعيّة. أُعجبتْ على الفور بذكاء إيلينا. فأعارتها الكتبَ، ودافعتْ عنها في صدامها مع أستاذ التربية الدينيَّة.

شخصيّات أخرى:

جينو، ابن الصيدلانيّ. أوّل عشيق لإيلينا.

Telegram: Somrlibrary

نيلا إنكاردو، ابنة عمّ المعلِّمة أوليڤييرو. تُقيم ببارانو في جزيرة إيسكيا، وقد استضافَتْ إيلينا في إجازتها البحريَّة.

أرماندو، طالب في كلِّيَّة الطبِّ، ابن الأستاذة غالياني.

ناديا، طالبة، ابنة الأستاذة غالياني.

برونو *سوكافو*، صديق نينو سارّاتوري، وابن أحد رجال الصناعة الأثرياء في بلدة سان جوفاني آتيدوتشو.

فرانكو *ماري*، طالب جامعيّ.

Telegram: Somrlibrary

Telegram: Somrlibrary

سنِّ الشباب

Telegram: Somrlibrary

Telegram: Somrlibrary

١

في ربيع العام ١٩٦٦، ائتمنتني ليلا على علبة معدنيَّة تحتوي على ثمانية دفاتر. كانت في حالة توتُّر عصيبة. قالت إنَّها لم تعد قادرة على الاحتفاظ بتلك الدفاتر في البيت، إذ تخشى أن تقع بين يدَيْ زوجها فيقرأَها. أخذتُ العلبة من دون أيّ تعليق، سوى بعض الإشارات الساخرة من كثرة الخيوط السميكة التي أحكمتْ بها إغلاق العلبة. في تلك المرحلة، كانت علاقتنا في أسوأ حالاتها؛ ثم تبيَّن لاحقًا أنّني كنت أعتبرها كذلك بمفردي. فهي لم تُظهر تجاهي أيّ حيرة في أثناء لقاءاتنا النادرة، بل كانت تفيض مودّةً، ولم يزلّ لسانها بأيّ كلمة جارحة.

وحين طلبتْ منّي القَسَم على أنَّني لن أفتح العلبة أيًّا يكن السبب، أقسمتُ على ذلك. لكنَّني ما إن صعدتُ إلى القطار حتى حللتُ الخيوط الثخينة وأخرجتُ الدفاتر وشرعتُ في قراءتها. لم تكن مذكّراتٍ يوميَّةً على الرَّغم من احتوائها على الملخَّصات المفصَّلة عن حياتها انطلاقًا من نهاية المرحلة الابتدائيَّة؛ إنَّما تبدو تدريبًا ذاتيًّا على الكتابة لا يعرف الكلل. وتمتاز بغزارة الوصف: غصن شجرة؛ المستنقعات؛ صخرة ما؛ ورقة نبات بعروقها البيضاء البارزة؛ القدور المنزليَّة؛ أجزاء آلة تحضير القهوة؛ الموقد؛ الفحم والرماد؛ خارطة مفصَّلة للفِناء؛ الشارع العامّ؛ الهيكل الحديديّ الصَّدِئ خلف

Telegram: Somrlibrary

المستنقعات؛ الحديقة الصغرى والكنيسة؛ إزالة المساحة الخضراء عند السكك الحديديَّة؛ البنايات الجديدة؛ منزل عائلتها؛ الأدوات التي يستخدمها أبوها وشقيقها في تصليح الأحذية؛ حركاتهما في أثناء العمل؛ الألوان على وجه الخصوص، ألوان أيّ شيءٍ في أوقات متفاوتة تحت ضوء النهار. وليس التوصيف فحسب، بل كانت هنالك كلمات معزولة بالعاميَّة والفصحى، غالبًا ما تحيط بها الدوائر ولا يعقبها أيّ تعليق. وثمَّة تمارين على الترجمة من اللاتينيَّة والإغريقيَّة، وفقرات طويلة مكتوبة بالإنكليزيَّة تتحدَّث عن متاجر الحيّ والبضائع، والعربة المليئة بالخُضَر والفواكه والتي يجرّها إنتسو سكانّو من درب إلى آخر وهو يمسك برسن الحمار، إضافة إلى كثير من الخواطر التي راودتها في أثناء قراءة الكتب أو مشاهدة الأفلام في صالة الخوري. وكثير من الأفكار التي تبنّتها في نقاشاتها مع باسكوالي، وحواراتها معي. لم تكن الفقرات منسجمة في تسلسلها طبعًا. وفي المقابل، فإنّ أيّ شيء يقع أسيرًا لتعبيرها يحظى ببيان وإيضاح قلّ مثيلهما؛ حتى إنَّني لم أعثر على سمات طفوليَّة في أيّ سطر في الصفحات التي كتبتها في سنّ الحادية عشرة أو الثانية عشرة.

كانت عباراتها مفرطةً في الدقَّة، وعلاماتُ الترقيم فائقةَ العناية، وخطُّها أنيقًا كما علّمَتْنا المعلِّمة أوليڤييرو. وأحيانًا تبدو كأنَّها تجرّعتْ مخدِّرًا، فسرى في عروقها، ليفقد أسلوبُها التوازنَ الذي دأبت عليه، فتكتنف الكآبة كلّ شيء، وتتّخذ العبارات إيقاعًا مضطربًا، وتتلاشى النقاط والفواصل. وسرعان ما تستعيد مسارَها الهادئ والبليغ. وقد يحدث أيضًا أنَّها تتوقَّف بشكل فجّ، أو تملأ بقيَّة الصفحة برسوم صغيرة لأشجار ملتوية ووجوه متجهِّمة وجبال محدَّبة يلفّها الدخان. ولا أنكر أنّني سُحرتُ بالتوازن بقدر ما سحرَتْني الفوضى، بل كلَّما تعمّقتُ في القراءة شعرتُ بأنَّني مخدوعة. فكم تمرَّنتْ ليلا قبل أن ترسل إليّ تلك

Telegram: Somrlibrary

الرسالةَ حين كنت في إيسكيا قبل أعوام، فبدت مكتوبةً بإتقان! أعدتُ الدفاتر إلى العلبة، وأقسمتُ على عدم الانجرار وراء الفضول ثانيةً.

لكنَّني استسلمتُ على الفور؛ فقوَّة الإغواء، التي تشعّ من ليلا منذ الطفولة، كانت تتدفَّق كالسيول من تلك الدفاتر. لم تأخذها رحمة ولا شفقة في وصفها الدقيق لأهلها وسائرِ الحيّ وعائلة سولارا وستيفانو وأيّ شخص أو شيء آخر، ناهيك بجسارتها في الحديث عنِّي وعن أقوالي وأفكاري والأشخاص الذين أحبّهم، بل حتى مظهري الجسدي. كانت تركِّز في لحظاتٍ تعتبرها حاسمة من دون أن تكترث لأيِّ أحد أو أيّ شيء. فها هي سعيدة كلَّ السعادة حين ألَّفت تلك القصَّة القصيرة، «الساحرة الزرقاء»، قبل أن تتمّ عشرة أعوام. وها هي حزينة كلَّ الحزن حين عرفت أنّ المعلِّمة أوليڤييرو لم تعبِّر ولو بكلمة واحدة عن رأيها في القصَّة، بل تجاهلتها كلِّيًا. وها هي تتألَّم غاضبةً، لأنَّني تخلَّيتُ عنها وذهبتُ إلى المدرسة المتوسِّطة من دون الاكتراث لمصيرها. وها هي حماستها المتأجِّجة تدفعها إلى تعلُّم مهنة الإسكافيّ، وتحثُّها على تعويض المدرسة برسم تصاميم لأحذية جديدة، وتمدّها بالعزم على تطبيق أفكارها في صنع أوّل حذاء مع شقيقها رينو. وها هو الإحباط ينال منها حين انتقد والدها ما أنجزتْ جملةً وتفصيلًا. كانت تلك الصفحات تشمل كلّ شيء، لاسيّما حقدها على الأخوين سولارا ورباطة جأشها في التصدِّي لمارتشيلو العاشق البغيض، واللحظة التي اتَّخذت فيها القرار بالارتباط باللحَّام اللطيف ستيفانو كارّاتشي الذي أراد أن يشتري أوّل حذاء صنعتْه بنفسها، حبًّا بها، وهو يُقسم إنَّه سيحتفظ به إلى الأبد. وما أبهى تلك اللحظات التي شعرتْ بأنَّها سيِّدة راقية، في الخامسة عشرة من عمرها، وثريَّةٌ وأنيقة، تشبك ذراع خطيبها الذي موَّل ورشة أبيها وأخيها؛ ورشةَ شيرولّو للأحذية، ليثبت حبّه لها ليس إلَّا!

وكم شعرتْ بالهناء، فها هي الأحذية التي جادت مخيِّلتُها بتصاميمها ستُباع في الأسواق، والبيتُ في الحيّ الجديد في انتظارها بعد حفل زفاف باهر يملأ ربيعها السادس عشر نورًا. كم كانت سعيدة بذلك الحفل إلى أن ظهر مارتشيلو سولارا، برفقة أخيه ميكيلي، منتعلًا ذلك الحذاءَ الذي وصفه زوجها بأنَّه غالٍ على قلبه. زوجها! أيّ نوع من الرجال تزوَّجتْ؟ وهل كان سينزع قناع اللطف، بعد أن أصبح زوجَها، ليكشف عن وجهه الحقيقي المريع؟ أسئلةٌ ووقائع، عارية من أيّ تجميل، تفضح بؤسنا. تفرَّغتُ طويلًا لقراءة تلك الصفحات، أيَّامًا وأسابيعَ. درستُها واحدةً واحدة، حتى انتهى بي الأمر إلى حفظ المقاطع التي أعجَبَتْنِي، والفقراتِ التي استفزّتْنِي، والعباراتِ التي سحرَتْنِي، وتلك التي أذلَّتْنِي، عن ظهر قلب. لا شكّ في أنّ عفويَّتَها تُخفي وراءها شيئًا مصطنعًا، لكنَّني عجزتُ عن اكتشافه.

وفي النهاية، ذات مساء من شهر نوڤمبر، خرجتُ ساخطة وحاملة معي تلك العلبةَ. لم أعد أقوى على احتمال طيف ليلا يُثقل كاهلي وصدري، وخصوصًا أنَّني كنت مُحاطة بالتقدير آنذاك، وأعيش حياة ناجحة خارج ناپولي. توقَّفتُ عند جسر سولفيرينو أنظر إلى الأضواء الغارقة في ضبابٍ جليديّ. وضعتُ العلبة على سياج الجسر، ودفعتها برفق، شيئًا فشيئًا، حتى هَوَتْ في النهر. وكأنَّني أرى ليلا ذاتها تسقط، بكلِّ أفكارها وكلماتها ولؤمها الذي تردّ به على أيّ أحد ضربةً بضربة؛ وكأنَّني أتخلَّص من سيطرتها عليّ بأسلوبها الذي تستخدمه مع أيِّ شخص، أو أيِّ شيء، أو أيِّ حَدَثٍ يتعلَّق بها: الكتب والأحذية، الرقّة والعنف، الزفاف وليلة العرس، العودة إلى الحيّ بدورٍ جديدٍ تؤدّيه باسم السيِّدة رافايلا كارّاتشي.

Telegram: Somrlibrary

٢

لم أصدّق أنّ ستيفانو، العاشقَ الطيِّب، قد أهدى مارتشيلّو سولارا الحذاءَ الذي صنعته ليلا في طفولتها، شاهدًا على جهدها المبذول.

نسيتُ وجود ألفونسو وماريزا اللذين كانا يتهامسان وهما يجلسان إلى الطاولة، وعيونُهما تشعّ بريقًا. لم أعد أنتبه لقهقهة أمّي الثملة. تبدَّدَتِ الموسيقى، وصوتُ المطرب، والأزواج الذين يرقصون. تلاشى أنطونيو الذي خرج إلى الشرفة، بعدما أنهكَتْه الغيرة، ووقف خلف الزجاج يرنو إلى البحر والمدينة التي كانت تكتسي باللون البنفسجيّ. وتلاشَتْ صورة نينو الذي ترك الصالة للتوّ كملاكٍ بلا بشارة. كنت حينها لا أرى إلَّا ليلا وهي تهمس بغيظ في أذن زوجها، ولم يزدها فستان العرس إلَّا بياضًا شاحبًا؛ وأرى كيف تلاشَتِ ابتسامة ستيفانو في حين ارتسم الانزعاج على جبينه وعينيه بقعةً مصفرَّةً، وقناعًا كرنفاليًّا يُسدَل فوق وجهه المتوقِّد. ما الذي يحدث، وما الذي كان سيحدث؟ كانت صديقتي تشدّ إليها ذراع زوجها بيديها الاثنتين، وتضغط بقوَّة، حتى شعرتُ ـ وأنا التي أعرفها حقَّ المعرفة ـ بأنَّها لو استطاعتْ لانتزعتْ ذراعه من جسده، واجتازَتِ الصالةَ حاملةً تلك

Telegram: Somrlibrary

الذراعَ فوق رأسها لتقطر دماؤه على ذيل فستانها؛ وكانت ستستعين بأداة ما ـ هراوةٍ حادَّة أو فكِّ حمار ـ لتهشّم بها وجه مارتشيلو بضربة صائبة. أجل! كانت ستفعل ذلك. راح قلبي يخفق على إيقاع تلك الفكرة، وفمي يجفّ. ثم كانت ستفقأ عيونهما معًا، وتسلخ اللحم عن عظام وجهيهما وتلوكه. أجل، أجل. شعرتُ بأنَّني أريد أن يقع هذا ليضع نهاية لذلك الحبّ وتلك الحفلةِ التي لا تُحتمل، فلا ينعمان بعناق طويل على السرير في أمالفي. رغبتُ في أن نرتكب مجزرة بنسف بيوت الحيّ وتقطيع أجساد سكَّانه إربًا إربًا، ثم نلوذ بالفرار أنا وليلا، ونذهب لنعيش منعزلتين في مكان بعيد ومدن مجهولة، ونبالغ معًا في هبوط درجات الوضاعة بسعادة لا حدود لها. بدا لي ذلك الأمرُ مَخْرجًا سليمًا من ذلك اليوم الفظيع. فكم كان من الصواب أن ندمِّر كلّ شيء حالًا، ما دام أيّ شيء غيرَ قادر على إنقاذنا، لا المالُ ولا الرجال ولا حتى الدراسة. امتلأ صدري بغضب ليلا، وانتابتْني قوَّة غامضة تدفعني إلى تقبُّل الضياع. أملتُ أن يُعزّز ذلك الإحساسُ بالشجاعة، لكنّني لاحظتُ أنَّني كنت مذعورة أيضًا. ولم أدرك إلَّا لاحقًا أنَّني ماهرة في الحفاظ على تعاستي بكلِّ ما أوتيت من رباطة جأش، لا لشيء سوى لأنَّني عاجزة عن ردّة فعل عنيفةٍ أخشى عواقبها، فأفضّل البقاء مسمَّرةً في مكاني لأضمر الحقد. أمَّا ليلا، فلا. نهضتْ عن كرسيّها بعزيمةٍ زعزعَتِ المائدة والملاعق في الأطباق القذرة، وارتمتْ إحدى الكؤوس في إثرها. وبينما هرع ستيفانو بعفويَّة ليعترض سيل النبيذ المتدفِّقَ نحو لباس السيِّدة سولارا، خرجت ليلا بخطوات مسرعة من باب فرعيّ، وهي ترفع الفستان كلَّما انقبض.

فكَّرتُ في أن أركض خلفها، وأشدّ على يدها وأهمس لها: فلنذهب من هنا فورًا، لكنَّني لم أتحرَّك؛ فقد تحرَّك ستيفانو، بعد

Telegram: Somrlibrary

لحظة من التردُّد، ولحق بها وهو يمرّ بين الأزواج الراقصين.

نظرتُ حولي، فرأيتُ جميع الحاضرين قد انتبهوا إلى أنّ شيئًا ما أغضب العروس. غير أنّ مارتشيلو كان يواصل ثرثرته مع رينو، بما يوحي بوجود تواطؤٍ بينهما، كما لو كان من الطبيعيّ أن ينتعل ذلك الحذاءَ. وما انفكّ تاجر المعادن يشرب النخب بتلميحات مُعيبة أكثر فأكثر؛ في حين أنَّ أولئك المتحلِّقين، الذين يشعرون بأنَّهم في قاع طبقيّة الموائد والحضور، بذلوا قصارى جهدهم في الحفاظ على ريائهم. في المحصّلة، لم يبدُ أنّ أحدًا غيري قد فطن إلى أنّ هذا الزواج الذي بدأ للتوّ ـ ومن الوارد أن يستمرّ حتى وفاة الزوجين، واهبًا إيّاهما كثيرًا من الأبناء والأحفاد، مرورًا بالسرّاء والضرّاء إلى أن يُتمّ عيدَه الفضّي وربَّما الذهبي ـ كان قد انتهى بالنسبة إلى ليلا، مهما طرق زوجُها من سبل الغفران.

Telegram: Somrlibrary

٣

خيَّبت الوقائع أملي للوهلة الأولى. جلستُ قرب ألفونسو وماريزا من دون اهتمام لحديثهما. وانتظرتُ دلالات على ثورة ما، لكنّ شيئًا لم يحدث. كالعادة، من الصعب التكهُّن بما يدور في خلد ليلا. لم أسمع صياحها ولا تهديداتها. ظهر ستيفانو ثانية بعد نصف ساعة والبهجة تملأ مُحيّاه. كان قد غيّر بذلته، واختفتْ تلك البقعة المصفرّة من على جبينه وحول عينيه. جال بين الأقارب والأصدقاء منتظرًا وصولَ زوجته، ثم اتَّجه إليها حالَ عودتها إلى الصالة بلا فستان العرس. كانت قد ارتدتْ ملابس السفر، وهي عبارة عن بذلة تايور سماويَّةِ اللونِ بارزة الأزرار، وقبّعةٍ صغيرة زرقاء. وزّعت ليلا السكاكر على الأطفال، غارفةً إيَّاها بملعقة فضِّيّة من الوعاء الزجاجيّ، ثم طافت بين الطاولات لتوزّع حلوى اللوز على أهلها أوَّلًا، ثم على أهل ستيفانو. تجاهلت عائلةَ سولارا بأكملها، وأخاها رينو أيضًا، فسألها بابتسامة متشنِّجة: هل زال ودّك لي يا أختاه؟ لم تجبه ليلا، واكتفت بتقديم كيس الحلوى إلى بينوتشا. كانت نظراتها باهتة وعظامُ وجنتيها ناتئةً أكثر من المعتاد. وحين وصلت إليّ، أعطتني السلَّة الخزفيَّة المليئة بالحلوى المغلَّفةِ بالنسيج الأبيض الناعم، وكانت شاردة بلا ابتسامة

Telegram: Somrlibrary

تشير إلى تفاهم ما بيننا.

امتعض آل سولارا من فظاظة ذلك السلوك، لكنّ ستيفانو عالج المشكلة بمعانقتهم واحدًا واحدًا في تعبير مسالمٍ ووديّ، قائلًا:

«إنَّها منهكة، تحلّوا بالصبر.. أرجوكم».

وقبّل رينو الذي تأفّف باستياء، وسمعتُه يقول:

«ليس لأنَّها منهكة يا ستيفانو. يؤسفني القول إنّها وُلدتْ عوجاء».

ابتسم ستيفانو، وقال بجدِّيّة:

«لا بدّ لكلّ الأشياء المعوجّة من أن تستقيم».

ثم رأيتُه يركض خلف زوجته التي وقفتْ عند الباب، بينما كانت الفرقة تصدح بألحانها الثملة، وتجمّع الكثيرون ليقدِّموا التحيَّات الأخيرة.

لم يندلع الشجار إذن، ولم نكن لنهرب معًا في شوارع الأرض. تخيَّلتُ أنّ العروسين يركبان تلك السيَّارة المكشوفة، بكامل أناقتيهما ووسامتيهما. سيصلان بعد قليل إلى شاطئ أمالفي، وينزلان في فندق فخم، لتتحوّل الشتائمُ النابية إلى عتابٍ بسيط. لن تتمعَّن ليلا في ما جرى؛ كانت تنفصل عنِّي بشكل نهائيّ، وبدا لي فجأة أنّ المسافة بيننا باتت أكبر ممَّا كنت أتخيَّل حقًّا. لم تكن متزوِّجة فحسب، ولن تكتفي بالنوم دومًا إلى جانب بعلها كما تقتضي الطقوس الزوجيَّة، بل ثمَّة شيء لم أفهمه من قبل، وها هو يتبدّى لي بوضوحٍ صارخٍ في تلك اللحظة. إنّ رضوخ ليلا للأمر الواقع ـ ومن يدري أيّ صفقةٍ أُبرمتْ بين مارتشيلو وزوجها الذي ضحّى بشقاء طفولتها ـ كان يعني أنَّها متعلِّقة بستيفانو أكثر من أيِّ شيء أو أيّ شخص آخر في الدنيا. والوثاق الذي يربطها به كان مقدَّسًا فعلًا ما دامتِ استسلمتْ بهذه السهولة وامتصَّتْ تلك الصدمةَ بهذه السرعة. كانت تحبُّه، وتعشقه

Telegram: Somrlibrary

كالفتيات في الروايات المصوَّرة. ستضحّي بكلِّ مزاياها لأجله طوال الحياة، وهو بالكاد سيفطن لتلك التضحيات، بل سيستحوذ على عواطفها الغزيرة وذكائها الحادّ وخيالها الخصب، من دون أن يُدرك قيمتها فيبذّرها تبذيرًا. فكَّرتُ في أنَّني لست قادرة على عشق أحد إلى هذا الحدّ، حتى لو كان نينو. لست فالحة إلَّا في قضاء الوقت مع الكتب. ورأيت نفسي، خلال جزء من الثانية، شبيهةً بوعاء بالٍ وضعتْ فيه أختي إيليزا شيئًا ما لتُطعم القطّ الصغير حتى اختفى القطّ وظلّ الوعاء فارغًا ومغبرًّا عند عتبة الدار. وفي تلك اللحظة، انتابني إحساسٌ أليم بالكآبة، واتَّضح لي أنَّني ذهبتُ في خيالي بعيدًا جدًّا. عليّ أن أعود إلى الخلف، قلت لنفسي، وأن أفعل كما فعلت كارميلا وآدا وجيليولا، وحتى ليلا نفسها. عليّ أن أتقبّل الحيّ، وأطهّرَ ذاتي من الاستعلاء، وأشفى من التبجّح، وأكفَّ عن إهانة مَنْ يحبّني. عندما انصرف ألفونسو وماريزا لبلوغ نينو بحسب الموعد المحدَّد، قمتُ بدورة كبيرة كي أتجنَّب أمّي، واتَّجهتُ إلى الشرفة لأصل إلى عشيقي.

شعرتُ بالبرد، فالشمس قد غابت وثيابي خفيفة جدًّا. ما إن رآني أنطونيو حتى أشعل سيجارة، وعاد يتظاهر بالنظر صوب البحر.

«فلنذهب من هنا»، قلت له.

«اذهبي مع نجل سارّاتوري».

«أريد أن أذهب معك».

«أنتِ كاذبة».

«لماذا؟»

«لو أنّه أعطاك ريقًا حلوًا لتركتِني هنا حتى من من دون تحيَّة وداع».

هذا صحيح، لكنَّني غضبتُ لأنَّ أنطونيو يقولها هكذا بكلِّ صراحة، من دون أن يأبه لقسوة كلماته. قلت له:

Telegram: Somrlibrary

«ما دمتَ لا تعي الخطورة التي تترتّب عليّ من وجودي معك، ولا تعي احتمال قدوم أمّي لتنهال عليّ صفعًا وتوبيخًا بسببك، فهذا يعني أنَّك لا تفكِّر إلَّا في نفسك، ولا يهمّك من أمري أيّ شيء».

أحسّ أنطونيو ببلاغة كلامي وجزالة عباراتي، ففقد صبره. رمى السيجارة وأمسك معصمي بقوَّةٍ تُخرجه عن طوره تدريجيًّا، وقال لي ـ بصرخة تُبَحّ في حلقه ـ إنّه كان هناك لأجلي فقط، وأنا التي طلبتُ منه ألَّا يفارقني في الكنيسة وخلال الحفل، وقد جعلته يقسم لي على ذلك، أجل. سمعتُ حشرجته: ألم تطلبي منِّي ألَّا أتركك أبدًا؟ ذهبتُ لأفصّل البذلة عند الخيَّاط، أثقلتني ديون السيِّدة سولارا، هذا كلُّه لأجلكِ، لأفعل ما طلبته منِّي. لم أجلس مع أمِّي وإخوتي دقيقة واحدة، لأجلكِ. ثم بِمَ تكافئينني؟ ها أنتِ تكافئينني بأنَّك تتصرَّفين معي كما لو أنَّني وضيع، ورحتِ تهذرين مع ابن الشاعر فأهنتِني أمام كلّ الأصدقاء، واسودّ وجهي بسببكِ، لأنَّني لا أعني لكِ شيئًا؛ لأنَّك متعلِّمة وأنا جاهل؛ لأنَّني لا أفهم ما تقولين، وهذا صحيح، أنا لا أفهمك فعلًا. لكن، أَصغي إليّ جيِّدًا يا لينو، انظري إليّ. اللعنة... تحسبين أنَّك قادرة على قيادتي بالعصا. تحسبين أنَّني لا أقوى على ردعك. لكنّك مخطئة. تعلمين كلّ شيء، لكنَّك لا تعرفين أنَّني سأقتلك إن تصافينا الآن وخرجنا من هذا الباب معًا، ثم اكتشفتُ أنَّك تلتقين ذلك الخسيس نينو سارّاتوري في المدرسة أو في أيٍّ مكان آخر. قسمًا بالعذراء سأقتلكِ يا لينو. لذا فكِّري في الأمر مليًّا واغربي عن وجهي. ثم أردف يائسًا: اتركيني، فهذا خيرٌ لكِ. وما زال يرمقني بعينين جاحظتين محمرّتين، وينطق الكلمات ملءَ فمه، يصرخ بلا صياح، ومنخاراه كفوَّهتين عريضتين في غاية السواد، والعذابُ منحوتٌ على وجهه، حتى أدركتُ أنَّه يكبت الألم في صدره؛ فالكلمات التي

Telegram: Somrlibrary

تغلي في فمه على ذلك النحو، من دون أن تنفجر في الهواء، أشبهُ بشظايا حديديَّة مدبَّبة تمزّق رئتيه وبلعومه.

كنت في حاجة إلى ذلك الانفعال ولو أنَّني لم أشعر به. ارتحتُ إلى قبضة يده على معصمي، وأثلج الخوفُ فؤادي، وخمدتْ نيراني بأنين كلامه المتدفِّق كنهرٍ جارف. بدا لي أنَّه متعلِّقٌ بي على الأقلّ.

«إنَّك تؤلمني»، غمغمتُ.

خفَّف من وطأة قبضته، لكنَّه ظلّ يحدّق إليَّ وفمه مفتوح. وبينما كان معصمي يتَّشح بلون بنفسجيّ، كنت أفكِّر في أن أُعطيه الحجم الذي يستحقّ والسلطةَ التي ينشد، وأن أرسو عند مرفئه.

«ماذا قرَّرتِ؟» سألني.

«أريد البقاء معك»، أجبته مقطَّبة الأسارير نوعًا ما.

أغلق فمه، واغرورقت عيناه بالدموع. نظر صوب البحر ليكسب بعض الوقت في لجم دموعه.

وبعد قليل، كنَّا في الشارع. لم ننتظر أحدًا، لا باسكوالي ولا إنتسو ولا الفتيات. لم نودّع أحدًا. كان همّنا الوحيد ألّا ترانا والدتي، لذا انسحبنا خلسة، وسرنا على الأقدام بعد أن حلَّ الظلام. مشينا جنبًا إلى جنب من دون أن نشبك أيدينا، ثم وضع أنطونيو ذراعه على كتفي متردِّدًا. كانت إشارة إلى أنَّه ينتظر أن أسامحه، كما لو كان هو المذنب. وبما أنَّه كان يودّني، قرَّر أن يعتبر الساعات، التي أمضيتُها تحت ناظريه مع نينو وأنا مسحورة بكلامه، أضغاثَ أحلام.

«هل آذيتُكِ؟» سألني، محاولًا أن يتحسَّس معصمي.

لم أُجبه. شدّ على كتفي بيده العريضة، فتحرَّكتُ بانزعاجٍ دفعه إلى تخفيف قبضته حالًا. انتظر فانتظرتُ. وحينما حاول إظهار رضوخه ثانية، وضعتُ ذراعي حول خصره.

Telegram: Somrlibrary

٤

تبادلنا القبلات باستمرارٍ.. خلف شجرة ما، في مدخل إحدى البنايات، في أزقَّة مظلمة. ثم ركبنا الحافلة، وبدَّلناها بأخرى حتى وصلنا إلى المحطَّة. اتَّجهنا نحو المستنقعات، وما برحنا نتبادل القبلات على طول الطريق المحاذية للسكك الحديديَّة والخالية من البشر.

كنت أشعر بأنَّني أشتعل على الرَّغم من ثيابي الخفيفة وبرودة المساء التي تنعش جلدي بقشعريرة مباغتة. وبين الحين والآخر، كان أنطونيو يلتصق بي في الظلام، ويعانقني بشدَّةٍ تؤلمني. كانت شفتاه مستعرتين، وحرارة فمه تلهب أفكاري وتضرم النار في مخيِّلتي. فأقول في سرّي: لعلّ ليلا وستيفانو وصلا إلى الفندق؛ وربَّما كانا يتناولان العشاء؛ لعلَّهما تجهّزا نفسيًّا لتلك الليلة؛ آهٍ.. ما أجمل النوم في حضن رجلٍ ما، حيث الدفء والهناء. كنت أشعر بلسان أنطونيو يتخبَّط في فمي، وبينما كان يضغط على صدري من فوق الثياب، كنت أتلمَّس قضيبه من أحد جيبي بنطاله.

امتلأت السماء السوداء بالنجوم المتلألئة، وكانت رائحة الطحالب وأرض المستنقعات النتنة تستسلم أمام شذى الربيع. العشب مبتلٌّ،

Telegram: Somrlibrary

والمياه تطلق غصّة مفاجئة كلّ حين، كأنّ جوز البلُّوط، أو إحدى الحصى، أو ضفدعًا ما، يسقط فيها. سلكنا دربًا نعرفه جيِّدًا، يُفضي إلى مجموعة من الأشجار اليابسة ذات الجذوع الرفيعة والأغصان المهشَّمة بقسوة. على بعد أمتار من هناك، يقع مصنع الكونسروة القديمُ، وهو عبارة عن مبنًى مدمَّر السقف، ولم يبق منه سوى الدعامات الحديديَّة والصفائح المعدنيَّة. انتابني شعورٌ طارئ بالمتعة. شيء ما يشدّني من الداخل كخيط مخمليّ مشدود للغاية. وددتُ لو أنّ الرغبة تعثر على ضالّتها بعنفٍ خارقٍ يمحق ذلك النهار مَحْقًا. وها أنا أحسّ بالشهوة تداعب أسفل بطني، وتقرصني بقوّة أكثر من ذي قبل. كان أنطونيو يهمس لي بكلماتٍ غراميَّة بالعامِّيّة، وفمه يتلظّى على عنقي. كنت صامتة، ولطالما بقيتُ صامتة في أثناء تلك اللقاءات، واكتفيتُ بالشهيق.

«قولي لي إنَّك تودِّينني»، توسّل في لحظة ما.

«أجل».

«قوليها».

«أجل».

لم أُضف شيئًا آخر. عانقته وشددتُ عليه بكلِّ ما أوتيت من قوَّة. ورغبتُ في أن يداعب كلّ مسامٍ في جسدي ويقبِّله. شعرتُ بضرورة أن يسحقني ويعضّني حتى أفقد أنفاسي. أبعدني عنه قليلًا، وأرسل يده في حمّالة صدري وهو ما زال يقبّلني. لكنَّني أردتُ المزيد، فذلك المساء يستحقّ الطيش والتهوُّر. بدت لي تلك الملامسات، التي استمتعنا بها حتى تلك اللحظة، والتي فرضها عليّ بحذر فوافقتُ عليها بحذر مماثل، بدت لي حينذاك مضجرة وخاطفة ولا تهبني اللذَّة. وعلى الرَّغم من هذا، لم أجد الكلمات المناسبةَ لأخبره بأن يزيدني شبقًا.

Telegram: Somrlibrary

كنَّا نقيم طقسًا صامتًا في كلٍّ لقاءاتنا السرِّيَّة، محطَّةً خلف محطَّة. وكان يداعب صدري ويرفع تنُّورتي ويفرك ما بين فخذيَّ؛ وفجأة ـ كأنه يتلقّى إشارة ما ـ يجذبني إلى قضيبه المنتفض والملفوف بجلدٍ أملس غضروفيّ ترتجّ فيه العروق والدماء. لكنَّني في تلك المناسبة تأخَّرتُ في إخراج قضيبه، إذ كنت متأكِّدة من أنَّه سينسى أمري، ما إن أفعل ذلك، ويكفُّ عن مداعبتي. كان سينشغل عن جسّ صدري وخاصرتيّ ومؤخّرتي وعانتي، ليركِّز في يدي فقط، بل كان سيسرع إلى شبك يدي بيده كي يشجِّعني على تحريكها وضبط إيقاعها. ثم كان سيخرج المنديل في انتظار اللحظة التي يُصدر فيها فمُه أنينًا خافتًا وينفث قضيبه السائلَ الخطير. وبعدها، سترتسم ملامح النفور على وجهه، ربَّما حياءً، وسنعود إلى المنزل. خاتمة معتادة، لكنَّني كنت أشعر بضرورة تغييرها حينذاك: لا يهمّني أن أحبل بلا زواج. لا تهمّني الخطيئة. لا أكترث للمراقبين الذين علّقهم الله في الكون ليرصدوا تحرّكاتنا، ولا للروح القدس أو كائنٍ من كان. أدرك أنطونيو ما يدور في رأسي، فتشوَّش ذهنه. وبينما كان يقبّلني بانفعال مفرط، حاول مرارًا أن يأخذ يدي إلى الأسفل، لكنَّني رفعتُها وضغطتُ بأصابعه على عانتي. كرَّرتُ الحركة بقوَّة متصاعدة وأنفاس طويلة. سحب يده، وحاول أن يفكّ أزرار بنطاله.

«انتظرْ»، قلت له.

سحبتُه نحو مبنى مصنع الكونسروة القديم. كان الظلام أشدّ حلكة هناك، والمكانُ متواريًا عن الأنظار، لكنّه مليء بالفئران. سمعتُها تتحرَّك بحذر ثم تركض. أخذ قلبي ينبض بشدَّة. كنت خائفة من المكان ومن نفسي، ومن التوق إلى تطهير صوتي وأفعالي من ذلك الشعور بالاغتراب الذي اكتشفتُه قبل ساعات. كنت أرغب في

Telegram: Somrlibrary

الغطس في الحيّ ثانية، والعودة إلى ما كنت عليه. أردتُ التخلّي عن الدراسة وما تمثّله من دفاتر مليئة بالتمارين. أتمرّن لمواجهة ماذا، أصلًا؟ كلّ ما كنت أطمح إليه، خارج نطاق ليلا، لم يكن ذا قيمة. فمَن أنا بالمقارنة معها وهي ترتدي فستان العرس وتستقلّ السيّارة المكشوفة بقبّعة زرقاء وذاك اللباس السماويّ؟ ومَن أكون الآن مع أنطونيو، أمارس الجنسَ خلسة، بين حطام مصنع صدئ وجرذان قذرة، وتنُّورة مرفوعة إلى الخصر، وسروال مرخيّ، أسبح في بحرٍ من الغثيان والكآبة والخطيئة، بينما تتعرّى ليلا بغنجٍ ولامبالاة، وتستلقي على فراش من كتّان وثير في فندقٍ يُشرف على البحر، وتسمح لستيفانو بأن يدكّها ويلجها حتى العمق، ويغرس بذرته في رحمها فتحمل منه شرعيًّا وبلا أيّ مخاوف؟ مَن أنا، وأنطونيو يتحايل كي يُخرج قضيبه بينما يمسح عانتي العارية بجسمه الذكوريّ الخشن، ويضغط على ردفيّ، ويتحرَّك بأنفاس مشتعلة إلى الأمام وإلى الخلف؟ لا أعرف. لا أعرف سوى أنَّني لست ما كنت أريد أن أكونه في تلك اللحظة. لم يكن يكفيني أن يدعك جسمي فقط. كنت أريد أن يدخل بي، كي أقول لليلا حين عودتها: وأنا أيضًا لم أعد عذراء، أفعل مثلما تفعلين، لن تسبقيني أبدًا. لذا شبكتُ ذراعيّ حول رقبة أنطونيو وقبّلته، ووقفتُ على رؤوس أصابعي، وبحثتُ بفرجي عن قضيبه من دون أن ألفظ أيّ كلمة، لأجسّ النبض. انتبه لذلك فاستخدم يده، وشعرتُ بأنّ رأس عضوه بالكاد يطرق بابي، فانتفضتُ ذعرًا وفضولًا. ثم رأيتُ أنَّه يبذل جهدًا كي يكفّ عمّا كان يفعل، ويكبت تدفّق كلّ العنف الذي كان يهتاج في صدره خلال يوم كامل ولا يزال. لاحظتُ أنَّه يتراجع، فشددتُ عليه أكثر كي أقنعه بالمواصلة. لكنَّه ابتعد عنّي بنفَس عميق، وقال بالعاميّة:

Telegram: Somrlibrary

«كلَّا يا لينو. أريد أن أفعلها كما يفعلها الزوج مع زوجته، ولا هكذا».

أمسك يميني ولفّ بها قضيبه، وهو يصدر ما يشبه الشهقة المكبوتة، فأذعنتُ لاستمنائه.

وحين خرجنا من منطقة المستنقعات، قال مستاءً إنَّه يكنّ لي فائق الاحترام، ولم يكن ليسبِّب لي فعلة أندم عليها، في مكانٍ غير لائق، وبطريقة نجسة وغير صحِّيَّة. قالها، كما لو كان هو الذي تمادى كثيرًا، وربَّما كان يعتقد أنّ الأمور جرت على هذا النحو حقًّا. لم أنطق بأيّ كلمة طوال مسيرنا، وودّعتُه بارتياح. طرقتُ باب البيت، ففتحتْ أمِّي. استقبلتني صفعًا ولكمًا بلا صراخ أو توبيخ، ولم يُجدِ معها توسّلُ إخوتي. طارتْ نظَّارتي وحطّتْ على الأرض، فصرختُ في وجهها بفرحة مريرة، بجملةٍ فصحى لا تشوبها العامِّيّة:

«أرأيتِ ماذا فعلتِ؟ لقد حطّمتِ نظَّارتي، لم يعد في وسعي الدراسةُ بسببك الآن، ولن أذهب إلى المدرسة».

تجمّدتْ أمِّي، وظلَّتْ يدها، التي ضربتني بها، معلّقةً في الهواء كشفرة فأس. حملتْ أختي الصغيرة إيليزا النظَّارةَ، وقالت بصوت منخفض:

«خذي يا لينو، نظَّارتك سليمة».

٥

حلّ بي إعياءٌ لا يزول على الرَّغم من كلّ محاولات الراحة. أهملتُ المدرسة للمرَّة الأولى، وتغيَّبتُ عنها من دون مبرِّر خمسة عشر يومًا، على ما أذكر. ولم أقل حتى لأنطونيو إنَّني ضقتُ ذرعًا بالدراسة، وأفكِّر في الكفّ عنها نهائيًّا. كنت أخرج في الساعة المعتادة، وأتسكَّع في المدينة على قدميَّ طوال الصباح. تعرّفتُ إلى ناپولي جيِّدًا في تلك الفترة. كنت أنبش بين الكتب المستعملة والمرصوفة على المصاطب في بورتالبا «باب الفجر»، وأنظر إلى عناوينها وأسماء الكتّاب على مضض، ثم أمضي إلى شارع طليطلة، فالبحر، أو أمشي في شارع سالڤاتور روزا لأصعد إلى حيّ ڤوميرو، وأصل حتى دير سان مارتينو ثم نزولًا إلى حيّ بيترايو، أو أذهب لاستكشاف حيّ دوغانيلا، أبلغ المقبرة وأتجوَّل بين المسالك الصامتة، وأقرأ أسماء الموتى. وأحيانًا يعترضني شبّانٌ سيِّئون، وشيوخٌ متصابون، وحتى سادةٌ محترمون وناضجون، يطاردونني بأبشع التلميحات، فأسرع الخطى مطأطئة الرأس، وأركض حين أشعر بالخطر؛ لكنّني لم أقلع عن التصعلك خلال تلك الصباحات الطويلة. وكلَّما أهملتُ الدراسة توسّعت الفجوة بيني وبين الواجبات المدرسيَّة

Telegram: Somrlibrary

التي كنت مجبرة عليها منذ سنّ السادسة. وعندما ينقضي الوقت، أعود إلى البيت، ولا أحد كان يشكّ في أنَّني، أنا المثابرة، لا أذهب إلى المدرسة. أمضي الظهيرة في قراءة الروايات، ثم أهرع إلى المستنقعات لملاقاة أنطونيو الذي كان سعيدًا بحضوري الدائم أيّما سعادة. كان يودّ أن يسألني إن قابلتُ ابن سارّاتوري. كنت أقرأ سؤاله هذا في عينيه، لكنّه لم يجرؤ على طرحه، تلافيًا للشجار بيننا. كان يخشى أن أغضب فأحرمه دقائق المتعة القليلة. فإذا هو يعانقني ليتأكّد من رضاي عن جسده، ويطرد شكوكه بعيدًا، إذ كان في تلك اللحظات يستبعد أنَّني سأخدعه وأقابل ذلك الشابّ أيضًا.

كان مخطئًا. ففي الحقيقة، لم أكن أفعل شيئًا سوى التفكير في نينو، على الرَّغم من شعوري بالذنب. كنت أرغب في أن ألقاه وأتكلَّم إليه بقدر ما أخشى لقاءه. كنت أخشى أن يُذلّني باستعلائه. خشيتُ أن يعود بطريقة أو بأخرى إلى الحديث عن الأسباب التي حالت دون نشر مقالتي عن صدامي مع أستاذ التربية الدينيَّة. خشيتُ أن ينقل إليّ انتقادات هيئة التحرير اللاذعة. لم أكن لأسامحه إن فعلها. فسواء أكنت أطوف في المدينة صباحًا، أم أتقلَّب في سريري ليلًا في انتظار النعاس، كانت عقدة النقص تتجلَّى أمامي بوضوح، فأفضّل التفكير في أنّ مقالتي أُهملتْ لضيق المجال، لا أكثر ولا أقلّ. عليَّ أن أدع الأمور على عواهنها، لكنّ هذا صعبٌ للغاية. لم أكن في مستوى نينو من حيث التفوُّقُ، فلم يكن في وسعي أن أتكلَّم إليه وجهًا لوجه وأعبّر عن أفكاري أمامه. ثم أيّ أفكار؟ لم تكن لديّ أيّ فكرة. من الأفضل أن أستبعد نفسي بنفسي، كفى للكتب والنتائج والتهاني. كنت آمل نسيان كلّ شيء تدريجيًّا: المفاهيم التي تصدع رأسي، واللغات الحيَّة والميّتة، الإيطاليَّة الفصيحة نفسها، وقد بات يزلّ بها لساني حتى في

Telegram: Somrlibrary

محادثاتي اليوميّة مع إخوتي. كان الذنب ذنب ليلا، فهي التي دفعتني إلى هذا الدرب، أقول لنفسي، وعليّ أن أنساها أيضًا. فلطالما عرفتْ ليلا ما تريد، بشكلٍ يمكّنها من الحصول عليه. أنا لا أريد شيئًا ولست نافعة في شيء. كنت أتمنّى أن أستيقظ في صباحٍ ما بلا أيّ رغبة. فقرَّرتُ أن أكتفي بالمودّة المتبادلة مع أنطونيو، ما إن أُفرّغ ما في داخلي.

وفي يوم ما، كنت عائدة إلى البيت، فالتقيتُ بينوتشا شقيقة ستيفانو. أخبرتني بأنّ ليلا عادت من شهر العسل، وقد أعدّت وليمة كبيرة على الغداء احتفاءً بخطوبة أخيها من نسيبتها.

«هل خطبكِ رينو؟» سألتُ متظاهرة بالمفاجأة.

«أجل»، قالت وأشرق وجهها، ثم أرتني الخاتم الذي أهداها إيّاه رينو.

أذكر أنّ هاجسًا راودني، بينما كانت بينوتشا تتحدَّث: أقامت ليلا حفلة في بيتها الجديد ولم تدعُني إليها. هذا أفضل، أنا في غاية السعادة، لم أعد أريد رؤيتها ولا مقارنتي بها. وبعد أن أخذت بينوتشا وقتها في استعراض كلّ تفاصيل الخطوبة، سألتها بحذر عن صديقتي. ارتسمت على وجهها ابتسامة لئيمة، وأجابت بعبارة عامِّيَّة: «إنَّها تتعلَّم». لم أسألها ماذا تتعلَّم بالضبط. وحين عدت إلى المنزل، غفوتُ طوال فترة العصر.

وفي اليوم التالي، خرجتُ كالعادة في السابعة صباحًا للذهاب إلى المدرسة، أو لأتظاهر بذلك بالأحرى. وما إن عبرتُ الشارع العامّ، حتى رأيتُ ليلا تنزل من السيَّارة المكشوفة، وتتَّجه إلى فنائنا من دون أن تلتفت لتودِّع ستيفانو الذي كان يقود السيَّارة. كانت متأنِّقة الثياب، وتضع نظَّارةً شمسيَّة سوداء مع أنّ النهار لم يكن مشمسًا. لفت انتباهي

Telegram: Somrlibrary

شالُها السماويّ المعقود بما يُخفي شفتيها أيضًا. ففكَّرتُ، بنقمة، في أنَّه أحد أساليبها الجديدة. لم تعد تريد الظهور مثل جاكلين كينيدي، بل كسيِّدة ضبابيَّةٍ كنّا نتوق في طفولتنا لنصبح مثلها. تقدَّمتُ في طريقي من دون أن أحيّيها.

لكنَّني عدت إلى الخلف بعد بضع خطوات، ليس لأنَّني قرَّرتُ شيئًا ما، بل لأنَّني لم أستطع سوى فعل هذا. كان قلبي يخفق بشدَّة ومشاعري مضطربة. ربَّما أردتُ أن أسمعها تصارحني، وجهًا لوجه، بانتهاء صداقتنا. ربَّما أردتُ الجهر بأنَّني قرَّرت الكفّ عن الدراسة كي أتزوَّج أنا أيضًا، وأعيش في بيت أنطونيو مع أمِّه وإخوته، وأنظِّف السلالم مثل ميلينا المجنونة. اجتزتُ الفناء بخطوات سريعة، ورأيتها تدخل بناية حماتها. صعدتُ السلالم، السلالم نفسها التي صعدناها معًا في طفولتنا كي نطلب من الدون آخيل أن يُرجع إلينا دميتينا. ناديتها، فاستدارت.

«لقد عدتِ»، قلت.

«أجل».

«ولماذا لم تبحثي عنّي؟»

«لا أريدك أن تريني».

«هل في وسع الآخرين أن يروك وأنا لا؟»

«لأنّ الآخرين لا يهمّونني، أمَّا أنت فبلى».

تفحَّصتُها حائرةً: ما الذي لم يكن عليّ أن أراه؟ صعدتُ الدرجات التي تفصلنا، وأزلتُ عنها الشال برفق، ثم نزعتُ النظّارة.

٦

سأستخدم المخيِّلة الآن في إعادة صياغة ما جرى خلال رحلة زفافها، ليس وفقًا لما روته لي عند الطابق الأوَّل يومها فحسب، بل كما قرأتُه من دفاترها لاحقًا. لقد ظلمتُها. أردتُ أن أعتقد أنَّها خضعت للطاعة كي أحطّ من شأنها، مثلما شعرتُ بالتهافت حين غادر نينو صالة الحفل. أردتُ أن أستصغرها كي لا أتذوّق مرارة فقدانها. لكنْ، ها هي هناك، بعد أن انتهى الاستقبال، تصعد إلى السيَّارة المكشوفة بقبّعتها الزرقاء وبذلتها السماويَّة. كان الغضب يستعر في عينيها، وما إن تحرَّكتِ السيَّارة حتى انهالتْ على ستيفانو بكلمات وعبارات لا تقوى الجبال على تحمُّل قسوتها، هي أشنع ما قد يُوجَّه إلى ذكَرٍ من حيّنا.

ابتلع العريس الإساءات بطريقته المعهودة وابتسامته الرقيقة، من دون أن يردّ بكلمة واحدة، حتى سكتت في النهاية. لكنّ السكوت لم يدم طويلًا، إذ استأنفت ليلا الهجوم، بهدوءٍ لا يخلو من نبرة انزعاج. قالت له إنّها لم تعد تحتمل البقاء في تلك السيَّارة ولا لدقيقة إضافيّة، وإنَّها تشعر بالاشمئزاز من الهواء الذي تستنشقه وهو جالس إلى جانبها، وتريد أن تنزل حالًا. رأى ستيفانو الاشمئزاز جليًّا في وجهها،

Telegram: Somrlibrary

وعلى الرَّغم من هذا تابع قيادة السيَّارة من دون أن يقول شيئًا. فرفعتْ صوتها مجدَّدًا كي تفرض عليه التوقُّف. ركنَ السيَّارة جانبًا، وحين رآها تحاول فتح الباب، أمسك ذراعها بشدّة.

«الآن أصغي إليّ جيِّدًا»، قال بهدوء، «ثمَّة أسباب جدِّيَّة لما حدث».

شرح لها بسكينةٍ كيف سارت الأمور. كان من الضروريّ التعاقد مع سيلڤيو سولارا وأبنائه تجنّبًا لإغلاق ورشة الأحذية قبل افتتاحها بشكلٍ فعليّ؛ فهم الوحيدون الذين في وسعهم، لا ضمان توزيع الأحذية في أفضل متاجر المدينة فحسب، بل افتتاح محلّ في ساحة الشهداء أيضًا، خلال الخريف، ينفرد في بيع أحذية شيرولّو.

«وما همّني أنا وضرورات عملك»، قاطعته ليلا وهي تتلوَّى.

«نحن شريكان في الضرورات، فأنت زوجتي».

«أنا؟ أنا لم أعد أمثّل أيّ شيء لك، ولا أنت تعني لي شيئًا. دع ذراعي».

أفلت ستيفانو ذراعها.

«وهل أبوكِ وأخوكِ أيضًا لا يمثّلان شيئًا لكِ؟»

«إيَّاك أن تتحدَّث عنهما بسوء، لستَ أهلًا حتى لنطق اسميهما».

لكنّ ستيفانو نطق اسميهما. قال إنّ فرناندو شخصيًّا هو الذي سعى إلى الاتِّفاق مع سيلڤيو سولارا، وإنّ العقبة الكبرى كانت مارتشيلو، لأنَّه ما زال غاضبًا من ليلا وكلّ أفراد عائلتها، بل ما زال محتقنًا من باسكوالي وأنطونيو وإنتسو الذين حطّموا سيَّارته وأشبعوه رفسًا ولكمًا. وأضاف أنّ رينو هو الذي هدّأ خاطره، ولم يكن هذا بالأمر الهيّن، وحين قال مارتشيلو: «أريد الحذاء الذي صنعته ليلا في مقابل الصلح»، أجابه رينو: «حسنًا، خذ الحذاء».

Telegram: Somrlibrary

كانت لحظة قاسية. شعرت ليلا بطعنة في صدرها. لكنَّها صرختْ:

«وماذا فعلتَ أنتَ؟»

ارتبك ستيفانو قليلاً.

«وماذا في وسعي أن أفعل؟ هل أتشاجر مع أخيك، وأقضي على عائلتك، وأترك أصدقاءك عرضة لحربٍ طاحنة، وأخسر كلّ الأموال التي أنفقتها؟»

بدت كلّ كلمة على مسمع ليلا كأنَّها اعتراف جبان بالذنب، بسبب طبقة الصوت التي استخدمها ستيفانو. لم تدعه يكمل كلامه، وأخذتْ تضربه بيدها على كتفه وهي تصيح:

«حين وافقتَ أنت، ذهبتَ لتحضر الحذاء وأعطيتَه إيَّاه».

تركها ستيفانو تفرّغ غلّها، وحين حاولت مجدَّدًا أن تفتح باب السيَّارة لتلوذ بالفرار، قال لها بفتور: اهدئي. التفتت إليه على حين غرّة. هل يطلب منها الهدوء بعد أن تبرّأ متَّهمًا أباها وشقيقها؟ كيف تهدأ بعد أن استخدمها الثلاثة خرقةً بالية لمسح الأرض؟ «لا أريد أن أهدأ أيُها اللعين»، صرختْ، «أعدني إلى بيتي حالًا، عليك أن تُعيد ما قلتَه الآن أمام ذينك الرجلين الخرائيين مثلك». أدركت أنّها تجاوزت الخطّ الأحمر في استخدام الألفاظ مع الزوج، حين لفظت ذلك التعبير العامِّيّ «الرجلين الخرائيين مثلك». ولم تنقض الثانية حتى صفعها ستيفانو، بيده الغليظة، صفعةً عنيفة مدوِّية بدت لها كانفجار الحقيقة. شهقتْ من شدَّة المفاجأة وممَّا لحق بخدّها الملتهب من ألم كبير. نظرتْ إليه مصعوقة، بينما كان يشغّل المحرّك ويقول بصوته الذي فقد ميزة الطمأنينة للمرَّة الأولى، منذ أن راح يتقرّب منها؛ ارتجف صوته سخطًا:

Telegram: Somrlibrary

«أرأيتِ إلى أيِّ أمر تدفعينني؟ ألا تدركين أنَّك تبالغين؟»

«لقد أخطأنا في كلِّ شيء»، غمغمتْ.

لكنّ ستيفانو نفى بشدَّة، كأنَّه لا يرغب في أن يأخذ هذا الاحتمال في الاعتبار، وألقى عليها خطابًا طويلًا يجمع فيه بين الوعظ والترهيب بنبرة تثير الشفقة. هذا ما قاله تقريبًا:

«لم نخطئ في شيء على الإطلاق يا لينا، علينا أن نوضّح بعض الأمور فقط. أنتِ لم يعد اسمك شيرولّو. أنتِ السيِّدة كارّاتشي من الآن فصاعدًا، ويجب أن تفعلي ما أُمليه عليك. أعرف أنَّك لست عمليَّة، ولا تعرفين كيف تكون التجارة، وتحسبين أنَّني أعثر على النقود في الشارع. لكنّ الأمر ليس كذلك. لا بدّ من أن أخلق الأموال كلَّ يوم، عليّ أن أستثمرها في مشاريع تضمن الأرباح. لقد صمَّمتِ الأحذية، ووالدك وشقيقك يعملان بمهارة، صحيح. لكنّكم، أنتم الثلاثة معًا، لستم قادرين على تنمية الأموال؛ خلافًا لآل سولارا. اسمعيني جيِّدًا: لا يهمّني أبدًا إن كانوا لا يعجبونك. أنا نفسي لا أطيق مارتشيلّو؛ وكلّما رماكِ بنظرة خاطفة، أو تذكَّرتُ ما قاله عنك، ملأتني الرغبة في غرس سكِّين في بطنه. لكنّه، إذا كان يفيدني في تنمية أموالي، يصبح أعزّ صديق لي. هل تعلمين لماذا؟ لأنّ الأموال، إذا ركدت من دون تنمية، فلن تعود هذه السيَّارة ملكنا، ولن أستطيع أن أشتري لك هذه الثياب، وقد نخسر البيت بكلّ ما فيه من أثاث وأغراض، ولن يعود في مقدورك التصرّف كسيّدة، وسينشأ أبناؤنا كأولاد المتسوِّلين. تجرّئي على تكرار ما قلته في حقِّي اليوم مرّة أخرى لأهشّم وجهك الجميل، فتُرغَمي على المكوث في المنزل. هل فهمتِ؟ أجيبي».

ضيّقت ليلا عينيها كثقبين. مال لون خدّها إلى البنفسجيّ، لكنّ سائر وجهها ظلّ على شحوبه الفاقع. ولم تُجبه.

Telegram: Somrlibrary

٧

وصلا إلى أمالفي مساءً. كانا يتصرّفان بِحيرةٍ واضحة، إذ لم يدخل أيٌّ منهما فندقًا من قبل، ولاسيّما ستيفانو الذي تخوّف من نبرة صوت عامل الاستقبال المبطّنة بالاستهزاء، فلجأ إلى أسلوبٍ مستكين من دون أن يتعمّد ذلك. وحين انتبه لنفسه، أخفى حياءه بفجاجة متعنِّتة، والتهبت أذناه ما إن طلب منه إظهار الوثائق الشخصيَّة. وجاء الحمّال. كان رجلًا يناهز الخمسين من عمره وله شارب ضعيف، لكنّ ستيفانو دفعه كما لو كان لصًّا، ثم فكّر في الأمر وأعطاه بقشيشًا باهظًا بغرور، على الرَّغم من أنَّه استغنى عن خدماته. أمّا ليلا، فتبعتْ زوجها الذي حمل الحقائب كلّها على السلالم، وقالت لي إنّها شعرتْ للمرّة الأولى بأنَّها أضاعت الشابّ الذي تزوَّجت به في الصباح، وكانت تصعد خلف رجل مجهول حينذاك. هل كان ستيفانو بدينًا حقًّا، وساقاه قصيرتين ومكتنزتين، وذراعاه طويلتين، وبراجمُ يديه بيضاء؟ من كان هذا الرجل الذي ارتبطت به إلى الأبد؟ تحوّل غضبها، الذي رافقها خلال الرحلة، إلى قلقٍ مفزع.

وعندما اختلى بها في الغرفة، حاول أن يستعيد طبعه الطيّب، لكنَّه كان متعبًا، وما زال نادمًا على الصفعة التي أرغمتْه عليها. تكلَّم

Telegram: Somrlibrary

بنبرة مصطنعة. امتدح الغرفة واتِّساعَها. فتح النافذة وخرج إلى الشرفة، وقال لها تعالي واستمتعي بهذه النسمات العطرة. انظري إلى لمعان البحر. لكنّها كانت تفكِّر في الخروج من تلك الورطة، فأومأتْ بالرفض عمومًا، وتذرَّعتْ بأنَّها تشعر بالبرد. أغلق ستيفانو النافذة على الفور، وقال إنّه ينبغي بها ارتداء ثياب ثقيلة في حال خرجا للتنزُّه وتناول العشاء في مكان ما. وأضاف: آتيني بكنزة قطنيَّة إن خرجنا، كما لو أنَّهما يعيشان معًا منذ عدَّة أعوام وكأنَّها تعلم جيِّدًا في أيّ حقيبة تفتِّش عن كنزة قطنيَّة، تمامًا كما لو أنَّها تفتِّش عن كنزة ملائمة لها. بدت ليلا راضية، لكنَّها لم تفتح أيّ حقيبة، ولم تبحث عن أيِّ كنزة. خرجتْ إلى الممرِّ حالًا، فهي لم تعد تحتمل البقاء في الغرفة دقيقة واحدة. فتبعها وهو يغمغم: في وسعي الخروج هكذا، لكنَّني أقلق عليك، فقد يصيبك الزكام.

تمشّيا في أمالفي حتى وصلا إلى الكاتدرائيَّة، ثم صعدا إلى الحديقة وعادا إلى النافورة. كان ستيفانو يبذل جهدًا كي يسلّيها، لكنّ التسلية لم تكن من مزاياه التي يُحسَد عليها أساسًا. كان ماهرًا في الحديث بنبرة عاطفيَّة، أو الإدلاء بأقوال مأثورة كرجلٍ ناضج يعرف ما يريد. وكانت ليلا بالكاد تجيبه، حتى اقتصرت وظيفته على الإشارة إلى هذا وذاك وهو يهتف: انظري. ولئن كانت، في الحالة الطبيعيَّة، تصبّ جلّ انتباهها على أيّ حجرة تصادفها، فإنَّها في تلك اللحظة لم تكن لتهتمّ بعمران الأزقَّة، ولا بعطر الحدائق، ولا بتاريخ أمالفي وفنونها؛ لم تكن لتلتفت خصوصًا إلى صوته المزعج وهو يكرِّر بشكل مملّ: جميل، ها؟

وسرعان ما بدأت ليلا ترتجف، لا من برودة الطقس إطلاقًا، بل بسبب التوتُّر. انتبه ستيفانو لحالتها، واقترح العودة إلى الفندق،

Telegram: Somrlibrary

وجازف قائلًا: نتعانق وننعم بالدفء. لكنّها أرادت الاستمرار في التنزُّه، حتى أنهكها التعب ودخلت أحد المطاعم على الرَّغم من عدم شعورها بالجوع، وأيضًا من دون أن تستشير زوجها الذي دخل وراءها متمالكًا أعصابه.

طلبا كلّ ما يقدّمه المطعم، وبالكاد تناولا شيئًا. نفد صبره في لحظة ما، وسألها إن كانت لا تزال غاضبة. أومأتْ ليلا بالنفي، وكانت صادقة حقًّا. وفوجئتْ هي نفسها، عند ذلك السؤال، بأنَّها لا تضمر أيّ ذرَّة حقد تجاه عائلة سولارا، وتجاه أبيها وأخيها، وتجاه ستيفانو. تغيّر ترتيبُ الأمور في رأسها خلال وقت قصير، وشعرتْ، على حين غرَّة، بأنَّها لم تعد مهتمّة بشيء من قصَّة الحذاء؛ أو بالأحرى لم تكن تفهم سبب ذلك السخط الذي انتابها حين رأت الحذاء في قدمَيْ مارتشيلّو. أمّا ما كان يشغلها ويؤرّقها حينئذ، فهو ذلك الخاتم الثخين الذي يتلألأ حول إصبعها. تسلسلتْ أحداث النهار في ذهنها على نحو أثار دهشتها: الكنيسة؛ الطقس الدينيّ؛ الحفل. «ماذا فعلتُ بنفسي»، راح النبيذ يلسع أفكارها. وما هذه الدائرة الذهبيَّة الفارغة، أيُّ صِفرٍ برّاقٍ، عديم القيمة، كبّلتُ به إصبعي؟ هنالك خاتم آخر في يد ستيفانو، يشعّ بين أصابعه المكسوَّة بالزغب، كما يُقال في الكتب. تذكَّرتْ مظهره في لباس السباحة عندما كانا يذهبان إلى الشاطئ. كان صدره عريضًا، وركبتاه ضخمتين كصخرتين مقلوبتين. لم يراودها أيّ شعور بالإثارة من أصغر تقاسيمه إلى أكبرها حين استحضرتْه في ذاكرتها. وبات كائنًا يصعب أن تشاركه في أيّ شيء، لكنَّه كان هناك قربها مرتديًا سترةً أنيقة وربطة عنق، محرِّكًا شفتيه المنفوختين، ويحكّ شحمة أذنه، وغالبًا ما يغرف بشوكته من صحنها كي يتذوَّق الطعام. لم يكن يذكِّرها ببائع اللحوم الذي لفت انتباهها؛

Telegram: Somrlibrary

بالشابِّ الطموح والشهم والواثق بنفسه؛ بالعريس الذي تزوَّجت به في الكنيسة صباحًا. كانت أسنانه كأنياب حيوانٍ مفترس ولسانُه أحمرَ اللون في عتمة جوف فمه؛ تحطّمت هالة الصفاء التي كانت تحيط به. وصولها إلى أمالفي غير مترابط منطقيًّا، كانت ليلا تفكِّر وهي جالسةٌ إلى تلك الطاولة وسط حركة النُدُل، ومع ذلك كان ما تعيشه حقيقيًّا بشكلٍ لا يُطاق. وبينما كانت نظرات ذلك الكائن المجهول تستعيد بريقها حين بدا له أنّ العاصفة قد هدأت وأنّ زوجته تفهّمتْ مبرِّراته وتقبَّلتها، خطر في بالها أن تسرق سكِّينًا من الطاولة لتغرسها في عنقه إذا حاول أن يلمسها في الغرفة.

لم تفعلها في النهاية. إذ راودها انطباعٌ، وهي غارقةٌ في غمائم النبيذ، وجالسةٌ إلى تلك الطاولة من ذلك المطعم، بأنّ زواجها برمّته، بدءًا بفستان العرس وصولًا إلى الخاتم، كان خاليًا من أيّ معنًى. لذا، فإنّ أيّ مطلبٍ جنسيّ محتمل، من جانب ستيفانو، سيكون بلا معنى بالنسبة إلى ستيفانو نفسه. لذلك درست الطريقة التي ستحمل بها السكِّينَ أوَّلًا (لفّته بالمنديل الذي كان على ركبتيها ووضعته في حضنها، ثم حضّرت حقيبتها بحيث تُسْقِط السكِّين فيها وتُعيد المنديل إلى الطاولة)؛ لكنَّها عدلتْ عن هذا، إذ فكَّرتْ في أنّ المسامير التي ترسِّخ حالتها الجديدة كزوجة، كانت تتزعزع مع وجودها في ذلك المطعم في أمالفي، إلى درجة أنَّها في نهاية العشاء لم تعد تسمع صوت ستيفانو، بل كادت أذناها تنفجران من ضجَّة الأشياء والأحياء والأفكار التي لا تخضع لمفهوم محدَّد.

وفي الطريق، أخذ ستيفانو يتحدَّث عن الجوانب الإيجابيَّة لآل سولارا. قال لها إنّ لديهم معارف وعلاقات بشخصيَّات مهمَّة في البلديَّة، ولديهم صلات وثيقة باليمين الوطني وتنظيم «النجمة والتاج».

Telegram: Somrlibrary

وكان سعيدًا في الكلام كما لو أنَّه على دراية تامَّة بتحرُّكات سولارا وأبنائه. اتَّخذ نبرة الرجل الخبير، وأكَّد قائلًا: السياسة سيِّئة، لكنَّها ضروريَّة لتنمية الأموال. فتذكَّرتْ ليلا نقاشاتها مع باسكوالي منذ وقت مضى، ونقاشاتها مع ستيفانو نفسه في أثناء الخطوبة، والسعي للانفصال كلِّيًّا عن أهليهما وعن البغي والنفاق والظلم الذي كان ساريًا في الماضي. وتذكَّرتْ أنَّه كان يقول لها: أجل، أجل؛ لكنَّه لم يكن يصغي إليها. مع مَنْ كنتُ أتحدَّث، تساءلتْ ليلا، إنَّني لا أعرف هذا الشخص، لا أعرف من يكون.

وعلى الرَّغم من هذا، لم تصدّه حين راح يشبك يدها ويهمس في أذنها بأنَّه يودّها. ربَّما كانت تريده أن يصدِّق أنَّ كلّ شيء على ما يرام، وأنَّهما كانا حقًّا عروسين في شهر العسل، كي تجرحه بعمق حين تقول له بكلِّ ما أوتيت من اشمئزازٍ تتوجَّع بسببه في معدتها: النوم معك ومع حمّال الفندق عندي سواء، فكلاكما مقزِّز، وأصابعكما مصفرّة بفعل التدخين؛ أو ربَّما كانت مذعورة جدًّا إلى درجة أنَّها أجّلت ردّة الفعل هذه إلى وقت آخر، وهذا ما كان أكثر احتمالًا.

حاول ستيفانو أن يقبِّلها، عندما دخلا الغرفة، فابتعدتْ عنه. وبكلِّ جدِّيَّة، فتحت الحقيبة وأخرجتْ قميص النوم، وأعطت زوجها ثياب النوم، فابتسم لها سعيدًا باهتمامها به، وحاول أن يمسك بها مرَّة أخرى، لكنَّها أغلقت على نفسها باب الحمّام.

وحين باتت وحيدة، غسلت وجهها طويلًا كي تمحوَ تأثير النبيذ وإحساسَها بتآكل العالم. لكنَّها أخفقتْ، بل ازداد قلقها حتى شعرتْ بأنّ حركات يديها تفتقد أيَّ انسجام. ماذا أفعل؟ فكَّرتْ. أبقى حبيسة هنا طوال الليل؟ ثم ماذا؟

ندمتْ، لأنَّها لم تأخذ معها السكِّين؛ بل ظنَّتْ لوهلة أنَّها أخذته

Telegram: Somrlibrary

ثم سلّمتْ بأنَّها لم تفعل ذلك. جلستْ على حافَّة حوض الاستحمام، وقارنته بالحوض في بيتها الجديد، فابتهجتْ حين رأت أنّ حوضها أجملُ كثيرًا. حتى المناشف كانت ذات جودة أفضل. بيتها أم بيته؟ لمن كانت تلك المناشف وذاك الحوض، وكلُّ شيء؟ انزعجتْ من فكرة أنّ ملكيَّة الأغراض الجميلة والجديدة مرتهنة بكنية ذلك الشخص المجهول الذي ينتظرها خارجًا. أغراض كارّاتشي! هي أيضًا غرضٌ من أغراض كارّاتشي. طرق ستيفانو الباب.

«ماذا تفعلين؟ هل أنت بخير؟»

لم تجب.

انتظر الزوج قليلًا ثم طرق ثانية. ولأنَّها لم تردّ، حرَّك المقبض بعصبيَّة، وقال بنبرة مجاملة مزيَّفة:

«هل عليّ أن أخلع الباب؟»

لم تشكّ ليلا في أنَّه قادر على ارتكاب حماقةٍ كهذه. هذا الغريب الذي ينتظرها خلف الباب قادرٌ على فعل أيِّ شيء. وأنا أيضًا قادرة على كلِّ شيء، فكَّرتْ. نزعت ثيابها، استحمّت، ولبست قميص النوم وهي تحتقر نفسها على العناية التي أولتها في اختيار ذلك القميص قبل أشهر. ستيفانو؛ لم يعد هذا الاسم يتطابق مع الألفة والمودّة الماضيتين. كان جالسًا على طرف السرير بثياب النوم. وثب واقفًا على قدميه حينما ظهرتْ.

«لقد بقيتِ وقتًا طويلًا».

«الوقت اللازم».

«ما أجملك».

«إنَّني متعبة جدًّا وأريد أن أنام».

Telegram: Somrlibrary

«سننام في ما بعد».

«بل الآن. أنت في جانب من السرير، وأنا في الآخر».

«حسنًا، تعالي».

«أتحدَّث جدِّيًا».

«وأنا أيضًا».

ضحك ستيفانو قليلًا، ثم حاول أن يمسك يدها. ابتعدتْ عنه فتجهّم وجهه.

«ما بكِ؟»

تردَّدت ليلا. بحثت عن التعبير الأفضل، وقالت بصوت منخفض:

«لا أرغب فيك».

حرّك ستيفانو رأسه مرتبكًا، كما لو أنّ تلك الكلمات الثلاث قيلت بلغة أجنبيَّة. غمغم قائلًا إنَّه كان ينتظر تلك اللحظة منذ زمن، ليلًا نهارًا. أرجوكِ، قال لها بنبرة إغواء، وحرّك يديه بما يدلّ على الانزعاج، أشار إلى بنطاله القرمزيّ، وقال بابتسامة ماكرة: انظري ماذا يحدث لي ما إن أراكِ. نظرتْ من دون قصد، فارتجفتْ مشمئزَّة وحرفتْ نظرها مباشرة.

فهم ستيفانو عندئذٍ أنَّها تنوي الانعزال في الحمّام ثانية، فقفز قفزة حيوانيَّة وأمسك بخصرها، رفعها عاليًا وألقاها على السرير بقوَّة. ما الذي يحدث؟ من الواضح أنَّه لا يريد أن يعي ما يفعل. ظنّ أنَّهما طويا الصفحة في المطعم، وكان يتساءل حينها: لماذا تتصرَّف لينا على هذا النحو الآن، يا لها من طفلة! وقف عندها يضحك فعلًا، محاولًا أن يُطمئنها.

«سنفعل أمرًا ممتعًا»، قال، وأضاف: «عليكِ فقط ألَّا تخافي.

إنّني أودّك أكثر من أمّي وأختي».

لكنْ عبثًا. نهضتْ ثانية لتفلت من بين يديه. ما أصعب الوصال مع هذه الصبيّة: تقول نعم وتقصد لا، وتقول لا وتقصد نعم. قال هامسًا: والآن كفاكِ تمنّعًا. وضيّق عليها مجدّدًا واعتلاها، وثبّت معصميها على غطاء السرير.

«قلتِ إنَّه ينبغي لنا الانتظار فانتظرنا»، قال، «على الرَّغم من أنَّني عانيتُ كثيرًا، فمن الصعب البقاء قربك من دون لمسكِ. الآن وقد تزوّجنا، اعقلي ولا تقلقي».

انحنى ليلثم ثغرها، فراحت تحرّك وجهها بعصبيَّة يمنة ويسرةً، وهي تنتفض وتتلوّى وتكرِّر:

«دعني. لا أرغب فيك. لا أرغب فيك. لا أرغب فيك».

علا صوت ستيفانو حينذاك، خارجًا عن طوره:

«لقد أرهقتِ قضيبي يا لينا».

أعاد هذه الجملة مرَّتين أو ثلاثًا، بكامل وعيه، كأنَّه يمْتثل لأوامر آتية من البعيد البعيد، من قبل أن يولد ربَّما. الأوامر هي: عليك أن تثبت فحولتك يا ستيفانو؛ فإن لم تكسر شوكتها الآن فلن تنجح في كسرها أبدًا؛ وعلى زوجتك أن تعي حالًا أنَّها الأنثى وأنت الذكر، ولهذا ليس أمامها من خيار سوى طاعتك. أمَّا ليلا، فعندما سمعتْ هذا التكرار السوقيّ ـ لقد أرهقتِ قضيبي، أرهقتِ قضيبي، أرهقتِ قضيبي ـ وعندما رأته مكتنزًا وثقيلًا يعتلي خصرها الهزيل، وقضيبه المنتصب يشدّ على نسيج سرواله كعماد الخيمة، تذكَّرتْ كيف أراد أن يمسك لسانها منذ أعوام بعيدة ليثقبه بالإبرة ردًّا على تجرُّئها على إذلال ألفونسو في أثناء المنافسة المدرسيَّة. بدا لها أنَّها تكتشف فجأة أنَّه لم يكن ستيفانو يومًا، بل كان دومًا نجل الدون آخيل. فإذا وجهه الفتيّ

Telegram: Somrlibrary

ينصهر جرّاء هذه الفكرة، لتطغى عليه ملامحُ كان يخفيها في دمائه تحسّبًا، تترقّب اللحظة المناسبة للظهور. هكذا إذن، كم جاهد ستيفانو ليبدو في مظهر آخر طوال ذلك الوقت، كي ينال رضى الحيّ وإعجابَها: رقّتْ تقاسيم وجهه ليتظاهر بالبشاشة، وتكيَّفتْ نظراته على اللطف المزيَّف، واتَّخذ صوته نبرة متَّزنة، كما تعوَّد جسمه وأصابعه ويداه، على تمالك أعصابه. أمّا حينذاك، فكانت أطرافه، التي لطالما حافظ على وداعتها، توشك على الانحلال؛ ما جعل ليلا فريسة لخوف طفوليّ أشدّ وطأة من الرهبة التي ساورتنا حين نزلنا إلى القبو لنسترجع دميتينا. كان الدون آخيل يُبعث من رغام الحيّ متغذِّيًا على المادّة الحيّة لابنه. كان الأب ينهش جلد ابنه ويعدِّل نظراته لتغدو أكثر شراسة، وينبثق منفجرًا من جسم ستيفانو. وها هو فعلًا يمزِّق قميصها ويعرّي صدرها ويدعكه بضراوة، وينحني ليلوك حلمتيها متلذِّذًا. وحينما تجرّأت على مصارعة الخوف، كما كانت معتادة، همّتْ لتقذفه عن جسمها وهي تشدّ شعره وتحرّك فمها بعنف كي تعضّه شرّ عضّة؛ فأفلت منها وأمسك بذراعيها وحجزهما تحت ثقل ساقيه المثنيّتين، وقال لها باحتقار: ماذا تفعلين؟ أنتِ أوهن من عودٍ يابس، لو أردتُ كسرك لكسرتكِ. لكنّها لم تستسلم، عادت تعضّ الهواء وتقوّستْ كي تتخلَّص من وزنه الثقيل.. لكن هيهات. باتت يداه طليقتين حينها، فانحنى عليها ليوجّه إليها صفعاتٍ خفيفةً برؤوس أصابعه، ويُعيد على مسمعها بفظاظة: أتودِّين رؤية كم هو ضخم، ها، قولي أجل، قولي أجل. ثم أخرج قضيبه الغليظ، فبدا لها، وهو ممدَّد عليها، كدميةٍ على شكل طفلٍ رضيع، بلا ذراعين وبلا ساقين، محتقنٍ بصياحٍ مكتوم ويتوق إلى الانفصال عن تلك الدمية الكبرى التي تقول بصوتٍ أجشّ: الآن، سأدعك تتذوّقينه يا لينا، انظري ما أجمله، لا أحد لديه قضيبٌ

Telegram: Somrlibrary

كهذا. أصرّت على المقاومة، فصفعها مرَّتين، بكفّ يده ثم بظاهرها؛ وكانت الصفعة مدوِّية، حتى أدركت ليلا أنَّه سيقتلها بلا شكّ لو قاومتْه مجدَّدًا، أو كان سيفعلها الدون آخيل على الأقلّ، إذ لطالما خشيه جميع أهالي الحيّ لقدرته على قذف أيّ أحد على شجرة أو جدار. لذا تخلّتْ عن تمرُّدها وأسلمتْ نفسها لخوفٍ أخرس، في حين كان يتراجع ويرفع عنها قميص النوم، ويهمس في أذنها: لا تتصوَّرين مدى هيامي بكِ، لكنَّك ستعين هذا قريبًا؛ وبدءًا من صباح الغد، ستطلبين بنفسكِ منِّي أن أثبت حبِّي لك كما سأفعل الآن وأكثر، بل ستسجدين وتتوسَّلين إليّ، وسأقول لكِ لا بأس شرط أن تكوني مطيعة، وستسارعين إلى تقديم الطاعة.

وبعد أن باءت محاولاتها بالفشل، استطاع ستيفانو أن يمزّق لحمها بهمجيّة. فغابت ليلا وهي تختزل الليل والغرفة والسرير وقبلاته ويديه وكامل وعيها، في شعورٍ واحد: كانت تكره ستيفانو كارّاتشي، تكره قوّته، تكره جسمه الثقيل القابع فوقها، وتكره اسمه وكنيته.

٨

عادا إلى الحيّ بعد أربعة أيَّام. وفي المساء نفسه، دعا ستيفانو حمويه ونسيبه إلى البيت الجديد؛ وطلب من فرناندو، بلهجة متواضعة أكثر من المعتاد، أن يروي على ليلا كيف سارت الأمور مع سيلڤيو سولارا. أكَّد فرناندو رواية ستيفانو، بعبارات مجزَّأة تطفح بالضيق. وبعد ذلك، طلب من رينو أن يشرح السبب الذي دفعهم ـ مُكرهين ـ إلى تقديم الحذاء إلى مارتشيلو الذي ادَّعى أحقِّيَّته فيه. استهلّ رينو خطابه بجملةٍ تليق بالماكرين: هنالك ظروف تجبرنا على اتِّخاذ خيار ما. ثم عرّج إلى المأزق الخطير الذي أقحم باسكوالي وأنطونيو وإنتسو أنفسهم فيه حين اعتدوا على الأخوين سولارا وحطَّموا سيَّارتهما.

«أتعلمين مَن الذي كاد يفقد حياته؟» قال متوجِّهًا إلى أخته وهو يرفع صوته تدريجيًّا. «أصدقاؤك. الفرسان الصناديد. عرفهم مارتشيلّو، وكان متيقِّنًا من أنَّك أنت التي كنتِ وراءهم. فماذا كان علينا أن نتصرَّف أنا وستيفانو؟ هل تريدين أن يتلقَّى أولئك الحمقى أضعاف اللَّكمات التي أمطروها على مارتشيلّو؟ هل تريدين أن يسحقهم؟ وفي سبيل ماذا في النهاية؟ في سبيل حذاء من مقاس ٤٣ لا يستطيع زوجك أن ينتعله بسبب ضيقه وضعف مقاومته للماء؟ لقد أحللنا السلام،

Telegram: Somrlibrary

وقرَّرنا أن نعطي مارتشيلّو ذلك الحذاء ما دام متعلِّقًا به إلى هذا الحدّ».

يا لمرونة الكلمات! في إمكانك أن تبني وتهدم كما تشاء، باستخدام الكلمات. خلافًا للمتوقَّع، لم تنبس ليلا ببنت شفة على الرَّغم من براعتها في صياغة الكلمات دفاعًا عن مواقفها. انتعش رينو وذكّرها بنبرة لئيمة بأنَّها هي نفسها، منذ الطفولة، كانت تؤرّق رأسه بضرورة الثراء. والآن، دعينا نصبح أغنياء ولا تزيدي حياتنا تعقيدًا، قال ضاحكًا.

وإذا بأحدٍ يطرق الباب ليفاجئ مالكة المنزل، من دون أن يفاجئ الآخرين بالتأكيد: بينوتشا وألفونسو وأمّهما ماريّا، تحمل سلَّة مليئة بالحلوى التي حضّرها سبانيولو، صانع الحلويات في مقهى سولارا، شخصيًّا.

بدت الزيارة بادئ الأمر مبادرةً للاحتفال بعودة العروسين من رحلة الزفاف، حتى إنّ ستيفانو مرّر صور العرس التي جاء بها من المصوِّر للتوّ (موضحًا أنّ الفيلم يتطلَّب الانتظار مزيدًا من الوقت). وسرعان ما تبيّن أنّ زواج ستيفانو وليلا بات حدثًا قديمًا، وكان الهدف من الحلوى الاحتفال ببشرى جديدة: خطوبة رينو وبينوتشا. أُزيحت كلُّ الاضطرابات جانبًا، واستبدل رينو أرقّ العبارات العامِّيَّة بالنبرة العصبيَّة التي كان يتحدَّث بها منذ دقائق؛ وأخذ يبالغ بأعذب كلمات الغرام، ويشدِّد على الاحتفال بخطوبته حالًا في بيت شقيقته الجميل. ثم أدّى حركات مسرحيَّة ليُخرج من جيبه علبة صغيرة؛ ويزيل غلافها ليكشف عن حافظة محدّبة وغامقة اللون؛ ثم يفتحها ليُخرج منها خاتم الخطوبة.

لاحظتْ ليلا أنّ الخاتم لم يكن مختلفًا عن ذلك الملتفّ حول

Telegram: Somrlibrary

إصبعها إلى جانب خاتم الزواج، وتساءلتْ من أين لأخيها ثمن تلك الجوهرة. تبادل الجميع العناق والقبلات، وتحدَّثوا عن المستقبل طويلًا. وعبّروا عن آرائهم متسائلين عمّن سيدير شؤون المحلّ الجديد في ساحة الشهداء، حيث ستُعرض أحذية شيرولّو، في إبَّان افتتاحه في الخريف من قِبل الأخوين سولارا. افترض رينو أنّ بينوتشا قد تكون قادرة على تولّي المهمَّة، بمفردها ربّما، أو مع جيليولا سبانيولو التي كانت قد ارتبطت رسميًّا بميكيلي وتطمح إلى عملٍ كهذا. ألقت الحميميَّة نورها على اللقاء بين العائلتين، وامتاز الجوّ بالبهجة والتمنِّيات السعيدة.

ظلَّت ليلا واقفة طوال الوقت، إذ كانت تتوجَّع من الجلوس. ولا يبدو أنّ أحدًا من الحاضرين، بمن فيهم أمُّها التي التزمت الصمت كلِّيًّا، قد انتبه لعين ليلا اليمنى المنتفخة والمسودّة، أو لشفتها السفلى المفلوقة، أو حتى للرضوض على ذراعيها.

Telegram: Somrlibrary

٩

كانت غارقة في تلك الحالة عندما نزعتُ نظّارتها وأزلتُ عنها الشال على السلالم التي تُفْضي إلى شقَّة حماتها. الجلد حول عينيها يميل إلى الاصفرار، وشفتها السفلى عبارة عن بقعة بنفسجيَّة تتخلَّلها شروخٌ شديدة الاحمرار.

قالت لأهلها وأصدقائها إنَّها سقطتْ على الصخور في أمالفي خلال أصبوحة مشمسة وهانئة، حين استقلَّت القارب بصحبة زوجها للوصول إلى شاطئ تحت جدار أصفر تمامًا. وخلال وليمة الغداء التي أُعِدَّت احتفالًا بخطوبة شقيقها من بينوتشا، استعانت ليلا بلهجة ساخرة لتَحُوك تلك الكذبة، فصدّقها الجميع بسخرية أيضًا، ولاسيّما الإناث، لأنَّهنّ يعرفن جيِّدًا ما عليهنّ قوله حين يلجأ الذكور ـ الذين تجمع بينهم وبينهنّ مودّة متبادلة ـ إلى ضربهنّ ضربًا مبرّحًا. وعلاوة على ذلك، لا أحد من أهالي الحيّ، والإناث على وجه الخصوص، كان يشكّ يومًا في ضرورة تلقين ليلا درسًا قاسيًا. وهكذا، فإنّ الضربات الموجعة لم تسبِّب فضيحة، بل أكسبت ستيفانو مزيدًا من المودّة والاحترام، لأنَّه برهن على أنّه فحلٌ لا يُشقّ له غبار.

أمّا أنا، حين رأيتها في تلك الحالة السيِّئة، فقد تسارعت دقّات

Telegram: Somrlibrary

قلبي، وعانقتُها. وفاض الدمع في عينيّ عندما أخبرتني بأنَّها لم تبحث عنّي كي لا أراها في هذا الوضع المزريّ. وتألَّمتُ وغضبتُ من قصَّة شهر العسل، كما يُسَمَّى في الروايات المصوَّرة، مع أنَّه كان كئيبًا وجامدًا. لكن عليّ أن أُقرّ بأنَّني كنت سعيدة نوعًا ما، إذ اكتشفتُ أنّ ليلا في حاجة إلى مساعدة، وربَّما إلى وقاية؛ وتأثَّرتُ باعترافها بالضعف، ليس بالمقارنة مع الحيّ، بل معي تحديدًا. شعرتُ بأنّ المسافة بيننا تتضاءل على غير ما توقَّعتُ؛ وكنت سأخبرها حالًا بأنَّني قرَّرت الكفَّ عن الدراسة، وأنّ الدراسة لا جدوى منها، وأنَّني لستُ أهلًا لإكمالها. بدا أنَّني سأنجح في مواساتها بذلك الخبر.

غير أنّ حماتها أطلَّتْ من سياج الطابق الأخير، ونادتها. أنهت ليلا حكايتها ببضع جمل مستعجلة، قالت إنّ ستيفانو استطاع خداعها، وكان نسخة طبق الأصل عن أبيه.

«هل تذكرين أنّ الدون آخيل أعطانا المال بدلًا من الدميتين؟» سألتني.

«أجل».

«لم يكن ينبغي لنا قبول ذلك المال».

«اشترينا رواية «نساء صغيرات»».

«بئس ما ارتكبنا. بدءًا بتلك اللحظة، أخطأتُ في كلِّ شيء».

لم تكن متوتِّرة، بل كانت حزينة. وضعت النظَّارة ثانية، ولفّت الشال عليها من جديد. أسعدتني صيغة الجمع التي استخدمتها، «نحن» (لم يكن ينبغي «لنا» قبول المال، بئس ما «ارتكبنا»)، ثم أزعجني استخدامها الحادّ للأنا: (أخطأتُ في كلِّ شيء). نحن، كلتانا، أخطأنا في كلِّ شيء، أردتُ أن أصحِّح لها، لكنَّني عدلتُ عن هذا، إذ بدا لي أنَّها تحاول تقويم ظرفها الجديد، وضرورة أن تعرف ما يسعها التشبُّث

Telegram: Somrlibrary

به كي تواجه المأزق. سألتني قبل أن تهمّ بالصعود:

«هل تريدين المجيء للدراسة في بيتي؟»

«متى؟»

«عصر اليوم، غدًا، كلَّ يوم».

«قد ينزعج ستيفانو».

«إن كان هو مالك كلِّ شيء، فإنَّني زوجة المالك».

«لا أعلم يا ليلا».

«سأعطيك غرفة تنعزلين فيها».

«وماذا ستستفيدين؟»

أبدت عدم اكتراثها.

«لأتأكَّد من وجودكِ معي».

لم أُجبها بنعم أو لا. انصرفتُ، وتسكَّعتُ في المدينة كالمعتاد. كانت ليلا واثقة بأنَّني لم أكن لأكفّ عن الدراسة. فرضتْ عليّ مظهر الصديقة ذات النظّارة الطبِّيَّة والبشرة المليئة بالبثور، والمنحنيةِ على الكتب دومًا، والمتألِّقةِ في المدرسة، ولم تكن تقوى حتى على تصوُّر أنَّني قد أتغيَّر. لكنَّني كنت أنوي التخلِّي عن أداء ذلك الدور. كنت أدرك نقصي، بفضل المَهانة التي منيتُ بها جرّاء عدم نشر المقالة. لم أكن مثل نينو البارع في استخدام الدراسة بذكاء، على الرّغم من أنَّه وُلِد وترعرع في نطاق هذا الحيّ البائس مثلي ومثل ليلا. كفاني أوهامًا إذن، كفاني مكابرة. عليّ أن أتقبّل مصيري كما فعلت كارميلّا وآدا وجيليولا منذ زمن، كلٌّ على طريقتها، بل حتى ليلا نفسها. لم أذهب إلى بيتها عصر ذلك اليوم ولا في الأيَّام اللاحقة، وواصلتُ تغيّبي عن المدرسة، وتركتُ الغيظ ينال منِّي.

Telegram: Somrlibrary

ذات صباح، لم أبتعد عن المدرسة كثيرًا، كنت أتجوَّل حول كلِّيَّة العلوم البيطريَّة، خلف الحديقة البيئيَّة. وأفكِّر في آخر نقاشاتي مع أنطونيو: كان يأمل التملُّص من الخدمة العسكريَّة كونه نجلَ أمٍّ أرملة، والمعيلَ الوحيد لعائلته، وأراد أن يطلب زيادةً على راتبه في الورشة كي يوفِّر بعض النقود ليُدير محطَّة وقود عند الشارع العام؛ وهكذا، كنَّا سنتزوَّج. كنت سأساعده في محطَّة الوقود. خيار لحياة بسيطة. كانت أمِّي ستوافق على الفور. «لا أستطيع أن أُسعد ليلا طوال الوقت»، قلت لنفسي. وكم كان صعبًا أن أفرّغ رأسي من الطموحات التي جاءتني بها الدراسة. في إبَّان ساعة الانصراف، رحت أجول قرب المدرسة من دون قصد منِّي. كنت أخشى أن يراني الأساتذة؛ وعلى الرَّغم من هذا انتبهتُ إلى أنَّني أريد أن يروني. كنت أرغب في أن يلاحظوا أنَّني لم أعد التلميذة النموذجيَّة، وما من سبيل إلى العودة كما كنت؛ وفي المقابل كنت أرغب في العودة إلى الدراسة اضطراريًّا قبل فوات الأوان.

خرجت المجموعة الأولى من التلاميذ. سمعتُ أحدًا يناديني. ألفونسو. كان ينتظر ماريزا، لكنَّها تأخّرت.

«هل أنتما مرتبطان؟» سألته بتهكُّم.

«لا، لا. هي التي تصرّ على ذلك».

«كاذب».

«بل أنت الكاذبة. أخبرتِني بأنَّك مريضة، وها أنت هنا بصحَّة جيِّدة. غالياني تسأل عنك دومًا، قلت لها إنَّك تعانين حمّى شديدة».

«إنَّني أعاني الحمّى فعلًا».

«وكيف لا! واضح جدًّا».

كان يتأبَّط الكتب المربوطة بالمطَّاط، ووجهه مرهق من طول

Telegram: Somrlibrary

ساعات المدرسة. هل يُخفي ألفونسو أيضًا في باطنه أباه الدون آخيل، على الرَّغم من هيئته اللطيفة؟ هل من المعقول أنّ الآباء لا يموتون أبدًا، وأنّ كلَّ ولد يخزِّن طباع والده لا محالة؟ وإن كان هذا صحيحًا، فهل قُدِّر عليّ أن تظهر والدتي من بين جوانحي، وتورثني مشيتها العرجاء؟

سألته:

«أرأيت ماذا فعل أخوك بلينا؟»

ارتبك ألفونسو.

«أجل».

«ولم تقل له شيئًا؟»

«لا بدّ من أن نعرف ما الذي فعلته به لينا أوَّلًا».

«هل ترى أنَّك قد تتصرَّف على ذلك النحو مع ماريزا؟»

ضحك بخفّة وحياء.

«لا».

«هل أنت واثق بكلامك؟»

«أجل».

«لماذا؟»

«لأنَّني أعرفك؛ لأنَّنا نتحدَّث؛ لأنَّنا نذهب إلى المدرسة معًا».

لم أفهم مراده في لحظتها، أي ما الذي يعنيه أنَّه يعرفني ويتحدَّث معي ونذهب إلى المدرسة معًا. رأيتُ ماريزا في آخر الشارع، كانت تركض لأنَّها متأخِّرة.

«وصلت خطيبتك»، قلت.

لم يلتفت. أبدى عدم اكتراثه، وغمغم قائلًا:

Telegram: Somrlibrary

«عودي إلى المدرسة، أرجوك».

«لستُ على ما يرام» أجبته، وغادرتُ.

لم أشأ أن أبادل شقيقة نينو تحيَّة واحدة؛ كان يقلقني أيّ شيء يذكّرني به. لكنّ كلمات ألفونسو الضبابيَّة تركتني في شعورٍ حسن، ورحت أقلّبها في الطريق. قال إنَّه لم يكن ليفرض سلطته بالعنف على أيِّ فتاة يتزوَّج بها، لأنَّه يعرفني ويتحدَّث إليّ ويشاطرني المقعد نفسه في المدرسة. عبّر عن رأيه ببراءة صادقة، من دون أن يخشى ملامة، لأنَّه نسب إليّ، بطريقة أو بأخرى، القدرة على التأثير فيه، وهو الذَّكَر، إلى درجة تعديل سلوكه. كنت ممتنَّةً له على تلك الرسالة اللطيفة التي طمأنتني وخفَّفت من نقمتي على نفسي. فالقناعة التي أساسها الوهم تسقط بسهولة. في صباح اليوم التالي، زوّرتُ إمضاء والدتي وعدت إلى المدرسة. وفي المساء، عند المستنقعات، وعدتُ أنطونيو، وأنا في حضنه هربًا من البرد: سأنهي العام الدراسيّ ونتزوَّج.

١٠

لم يكن سهلًا تعويضُ ما فاتني، في الموادِّ العلميَّة خصوصًا، ما دفعني إلى التخفيف من لقاءاتي أنطونيو كي أركِّز في الكتب. وفي حال تغيَّبتُ عن موعدٍ ما لكثرة الواجبات، كان يتجهَّم ويسألني متوجِّسًا:

«ما بكِ؟»

«لديّ واجباتٌ كثيرة».

«وما الذي وقع لتتكاثر الواجبات على عاتقك فجأة؟»

«الواجبات كانت كثيرة دومًا».

«لم تكوني مشغولة إلى هذا القدر في الآونة الأخيرة».

«كان استثناءً».

«ما الذي تخفينه عنِّي يا لينو؟»

«لا شيء».

«أما زلتِ تودِّينني؟»

كنت أطمئنه، لكنّ الوقت كان يمرّ مسرعًا، فأعود إلى البيت غاضبة من نفسي لأنَّني أهملتُ الكثير من الدروس.

الهاجس المؤرّق الذي ما انفكّ يراود أنطونيو كان ابن

Telegram: Somrlibrary

سارّاتوري. كان يخشى أن أكلِّمه أو حتى أن أراه. وبالطبع، كنت أُخفي عنه، كي لا أدعه يتألَّم، أنَّني أصادف نينو دومًا حين الدخول إلى المدرسة، وعند الانصراف منها، وفي ممرَّاتها أيضًا. لا شيء مهمًّا. كنَّا نتبادل تحيَّة خاطفة، ثم يمضي كلٌّ إلى شأنه. ولو كان صاحبي عقلانيًّا لما تردَّدتُ لحظة في إخباره بذلك. لكنّ أنطونيو لم يكن عقلانيًّا، وفي الواقع لم أكن عقلانيَّةً أنا أيضًا. فرؤية نينو من مسافة بعيدة كانت تكفي لتبقيني سارحة البال في أثناء الدرس، مع أنَّه لم يبادر بأدنى خطوة تجاهي. ومجرّد التفكير في أنَّه قريبٌ في قاعة مجاورة، حيٌّ وحيويٌ وشجاعٌ ومتمرِّدٌ ومثقَّفٌ أكثر من الأساتذة، كان يفرّغ الدرس، والكتب، ومشروع الزواج، ومحطَّة الوقود عند الشارع العام، من أيِّ معنًى.

وكنت أستصعب الدراسة في البيت أيضًا. كأنَّ كلّ الأفكار المتخبِّطة عن نينو وأنطونيو والمستقبل لا تكفي حتى أُبْتلى بعصبيَّة أمِّي وصياحِها إذا أهملتُ إتمام هذه أو تلك، ناهيك بإخوتي الذين يأتونني بوظائفهم المدرسيَّة، واحدًا تلو الآخر. لم يكن هذا الإزعاج المتواصل حدثًا جديدًا، فلطالما تعوَّدتُ على الدراسة في خضمّ الفوضى. لكنَّني كنت أشهد حينذاك أفولَ عزيمتي القديمة التي كانت تحثّني على الاجتهاد لتقديم الأفضل في أسوأ الظروف؛ خمدتْ همّتي وذبلتْ رغبتي في التوفيق بين المدرسة ومتطلِّبات الجميع. لذا، كنت أمضي فترة العصر في مساعدة أمِّي والاهتمام بواجبات إخوتي، لأدرس ولو شيئًا في ما يتبقّى من الوقت. وإن كنت في السابق أضحّي بلذَّة النعاس في سبيل الكتب، أصبحتُ حينئذ أهمل الواجبات للخلود إلى السرير في المساء، إذ بات النوم يبدو لي هدنةً مستحقَّة من شدَّة الإرهاق.

Telegram: Somrlibrary

وهكذا، صرت أظهر في الصفّ مشوَّشةً الذهن ومن دون تحضير كافٍ، يستنزفني الخوف من أيِّ مذاكرة قد يفاجئنا بها الأساتذة، الأمر الذي لم ينتظر كثيرًا حتى وقع: ذات مرَّة، حصلتُ على علامتين فقط في الكيمياء، وأربع علامات في تاريخ الفنِّ، وثلاث في الفلسفة. حدث هذا في يوم واحد. أحسستُ بما يشبه انهيارًا عصبيًّا، وهطلت دموعي أمطارًا على مرأى الجميع حين علمتُ بآخر علامة متدنِّية. كانت لحظة مريعة، شعرتُ فيها بالفزع ولذَّة الضياع، بالقلق والفخر بالانحدار.

قال لي ألفونسو، في أثناء الانصراف، إنّ نسيبته أوصته بأن ينقل إليّ رغبتها في دعوتي إلى بيتها. اذهبي، هتف مضطربًا، فهناك ستدرسين أفضل من بيتك بلا شكّ. فقرَّرتُ في عصر ذلك اليوم أن أتّجه نحو الحيّ الجديد. لكنَّني لم أكن واثقة بإيجاد حلٍّ لمشكلتي في بيت ليلا، إذ كان من البديهي أنَّنا سندردش طوال الوقت، وستتدهور صورتي كتلميذة نموذجيَّة أكثر من ذي قبل. قلت لنفسي: أفضّل الانحدار بسبب الثرثرة مع ليلا على صراخ أمِّي ونكد إخوتي وشرودي في ابن سارّاتوري واتّهامات أنطونيو؛ ستفيدني ليلا على الأقلِّ في التعرُّف إلى الحياة الزوجيَّة التي كنت واثقة بضرورة دخولها مبكرًا.

استقبلتني ليلا ببشاشة ملحوظة. كان الالتهاب قد زال عن عينها، وشفتها تتماثل إلى الشفاء، وتتحرَّك في الشقّة بهندام أنيق وشعرٍ مسرّح وزينةٍ كاملة، كما لو أنّ بيتها يبدو لها مكانًا غريبًا يُشعرها بأنَّها ضيفة فيه. تكدَّست هدايا الزفاف عند المدخل، في حين كانت رائحة الجصّ والطلاء الحديث العهد تنبعث من الغرف، ممزوجة بعبير كحوليّ غامض يصدر من الأثاث الحديث في صالة الطعام، كالمائدة وطاولة الحائط المزوَّدة بمرآة مزركشة الجوانب على شكل أوراق شجر من

Telegram: Somrlibrary

خشب غامق اللون، والخزانة المليئة بالأدوات الفضِّيَّة والأطباق والكؤوس وقوارير المشروبات الروحيَّة الملوَّنة.

حضّرت ليلا القهوة، واستمتعتُ كثيرًا بالجلوس معها في المطبخ الواسع، لنؤدِّي دور السيِّدات كما كنَّا نفعل في طفولتنا عند نافذة القبو. يا له من مكان مريح، فكَّرتُ، لقد أخطأتُ في عدم المجيء من قبل. كان لديّ صديقة في عمري تملك منزلًا مليئًا بالأغراض الفاخرة والكيِّسة. وبدت صديقتي سعيدة بوجودي، وهي التي لم يكن لديها شيءٌ تفعله طوال النهار. ظلّ الدفء سيِّد علاقتنا على الرَّغم من أنَّنا تبدَّلنا، ولا نزال نتبدَّل في تلك الآونة. فَلِمَ لا أسترخي إذن؟ شعرتُ بأنَّني في أفضل حال للمرّة الأولى منذ يوم زواجها.

«كيف الحال مع ستيفانو؟» سألتُها.

«لا بأس».

«هل تصارحتما؟»

ابتسمتْ بتلذُّذ.

«أجل. كلُّ شيء واضح».

«ماذا تقصدين؟»

«مقرف».

«مثلما كان في أمالفي؟»

«أجل».

«هل ضربكِ ثانية؟»

تلمّستْ وجهها.

«لا. هذه لكمة قديمة».

«ما الذي جرى إذن؟»

Telegram: Somrlibrary

«المذلّة».

«وماذا ستفعلين؟»

«أفعل ما يريد».

فكَّرتُ قليلًا، ثم سألتها ملمِّحة:

«لكنْ على الأقلِّ، حين تنامان معًا، أليس شيئًا جميلًا؟»

تأفَّفت ليلا وأصبحت جدِّيَّة. أخذت تحدِّثني عن زوجها بما يشبه الرضوخ البغيض. لم تكن محتدَّة، ولا تشعر بالنقمة ولا حتى بالانزعاج، بل كانت تعيش حالة من النفور الهادئ تتمثَّل في انعدام التقدير لكلِّ ما تشمله شخصيَّة ستيفانو، كأنَّه مياهٌ نجسة على الأرض.

كنت أُصغي إليها، أفهم ولا أفهم. في وقت سالف، هدَّدتْ مارتشيلّو بالسكِّين، لأنَّه تجرّأ على الإمساك بمعصمي وفكّ سواري فقط. وكنت على يقين، منذ تلك الحادثة، بأنَّها قادرة على قتل مارتشيلّو لو حاول أن يلمسها فقط. لكنَّها حينئذ، لم تكن تُظهر أيّ دلالة على عدوانيَّة واضحة تجاه ستيفانو. التفسير بسيط بالتأكيد: رأينا أبوَيْنا يضربان والدتينا منذ كنَّا صغيرتين. كنَّا قد نشأنا وترعرعت لدينا فكرة أنّ الغريب لا يحقّ له أن يلمس شعرة منَّا، في حين أنّ الوالد والخطيب والزوج يحقّ لهم أن يصفعونا متى أرادوا، بدافع الحبّ أو التربية أو إعادة التربية. وبالتالي، ها هي تتحمَّل تبعات خيارها، ما دام ستيفانو ليس بمارتشيلُّو الكريه، إنَّما بالشابِّ الذي كنّتْ له كثيرًا من المودَّة فتزوَّجت به، وقرَّرت أن تعيش معه إلى الأبد. وعلى الرَّغم من هذا، لم تتَّضح الصورة. إذ لم يكن في وسعي أن أرى ليلا سوى على أنَّها ليلا، وليست أُنثى من إناث الحيّ. لم تكن أمَّهاتنا يتَّخذن هذه الملامح الدالَّة على النفور الهادئ بعد أن يتلقَّين صفعات أزواجهنّ، بل كنّ يُصَبن بالإحباط، يبكين، يواجهن الرجال بوجوه عابسة،

Telegram: Somrlibrary

وينتقدنهم في غيابهم. ومع هذا، يحافظن على الإعجاب بهم، بِنَسب متفاوتة (أمّي، على سبيل المثال، كانت معجبة أيَّما إعجاب بمهارة أبي في الخداع والمراوغة). أمَّا ليلا، فكانت تؤدِّي الطاعة من دونما تبجيل. قلت لها:

«أنا على ما يرام مع أنطونيو، مع أنَّني لا أودّه».

أملتُ أن يستفزّها هذا التأكيد بطرح جملة من الأسئلة المبيَّتة، كما جرت عليه طقوسُنا القديمة. حتى لو كنت أحبّ نينو ـ كان المغزى من كلامي ـ فإنَّني أشعر باللذَّة والهيجان بمجرَّد أن أتذكَّر أنطونيو وقبلاته وعناقه ومداعباته عند المستنقعات. في حالتي، يمكن الاستغناء عن الحبِّ ببلوغ المتعة، بل قد أستغني عن الإعجاب أيضًا. فهل من المعقول إذن أنّ «النفور» و«المذلَّة» يبدآن «في ما بعد»، حين يمتهنكِ الذكر ويغتصبكِ متى شاء، لا لشيء سوى لأنَّك بتِّ تنتمين إليه، بمعزل عن الحبِّ من عدمه، وعن الإعجاب من عدمه؟ ما الذي يحدث عندما تجتمعين في السرير مع رجل قادرٍ على سحقكِ؟ كانت ليلا قد جرّبت هذا، وددتُ لو تحدّثني عنه. لكنَّها اكتفت بالردّ ساخرة: رائع شعورك بأنَّك على ما يرام. واقتادتني إلى غرفة صغيرة تطلّ على السكك الحديديَّة. كان العراء يميِّز تلك الغرفة، ثمَّة منضدة وكرسيّ وسرير مطويّ، ولا شيء على الجدران.

«هل يعجبك هنا؟»

«أجل».

«ادرسي إذن».

خرجتْ، وأغلقت الباب وراءها.

كانت الغرفة تضجّ برائحة رطوبة الجدران أكثر من أيِّ مكان آخر في البيت. نظرتُ من النافذة. كنت أفضِّل مواصلة الثرثرة معها، لكن

Telegram: Somrlibrary

تبيّن لي فورًا أنّ ألفونسو أخبرها بغيابي عن المدرسة، وربَّما بعلاماتي المتدنِّية أيضًا؛ فأرادت أن تُعيد إليَّ هالة الحكمة التي لطالما وصفتني بها، حتى لو اضطرَّت إلى فرضها عليّ فرضًا. هكذا أفضل. سمعتها تتحرَّك في البيت، وتتَّصل بالهاتف. فأثارني أنَّها لا تقول «مرحبًا، أنا لينا»، أو «أنا لينا شيرولُّو» مثلًا، بل «مرحبًا، أنا السيِّدة كارّاتشي». جلستُ إلى المنضدة، فتحتُ كتاب التاريخ، وأرغمتُ نفسي على الدراسة.

Telegram: Somrlibrary

١١

وقع كثير من المجريات المؤسفة في المدَّة الأخيرة من ذلك العام الدراسيّ. كانت مدرستنا رديئة البناء، تتسرَّب الأمطار إلى داخل قاعاتها؛ وحدث أن تعرّض أحد الشوارع للانزلاق، على بُعد أمتار قليلة عنَّا، في إثر عاصفة عنيفة، فأُرغمنا على الذهاب إلى المدرسة في أيَّام متناوبة فترةً من الزمن، فأصبح الاعتماد على الواجبات المنزليَّة أكبر من الاعتماد على الدروس العاديَّة، وأثقلَنا الأساتذةُ بمهمّاتٍ إلى حدّ لا يُطاق. وهكذا، اعتدتُ الذهاب إلى ليلا بعد المدرسة مباشرة، كي أَسْلَم من نكد أمّي.

كنت أصل في الثانية ظهرًا، أرمي الكتب في مكان ما، في حين تحضِّر لي ليلا شطيرة محشوَّة باللحم المقدَّد والجبن وشرائح السلامي وأيّ شيء أشتهيه. لم أَرَ هذه الوفرة بالطعام في بيت أهلي يومًا. كم كانت رائحة الخبز الطازج لذيذة، ونكهة الطعام في داخله، لاسيَّما اللحم المقدَّد الممتاز أحمر اللون ذو الحوافّ الدهنيَّة البيضاء. كنت آكل بشراهة، بينما تحضِّر ليلا القهوة. وبعد ثرثرة مكثَّفة، تغلق عليّ في الغرفة الصغيرة ولا تدخل إليّ إلّا نادرًا، لتأتيني بالأطعمة الشهيَّة فقط، فنأكل ونشرب معًا بعض الوقت. وبما أنَّني لم أكن أرغب في

Telegram: Somrlibrary

لقاء ستيفانو، الذي اعتاد إغلاق الملحمة نحو الثامنة مساء، كنت أنصرف في تمام السابعة.

أخذتُ أتآلف مع البيت وأضوائه والأصوات الصادرة من محطَّة القطارات. كانت النظافة تطغى على كلِّ شيء في تلك الشقَّة، وخصوصًا الحمّام، الذي كان يحتوي على المغسلة والمرحاض وحوض الاستحمام. طلبتُ من ليلا، ذات عصر مملٍّ جدًّا، أن أجرّب الاستحمام عندها، إذ كنت لا أزال أستحمّ تحت الصنبور أو خلف المعجن النحاسيّ. فقالت إنَّني مخوَّلة فعل كلّ ما أريد، وهرعتْ لتحضر لي المناشف. تركتُ المياه تملأ الحوض، كانت تخرج من الصنبور ساخنة بما فيه الكفاية. نزعتُ ثيابي وغصتُ حتى عنقي.

يا للدفء! لم أكن أتوقَّع أنَّني سأحصل على ذلك الهناء كلِّه. وبعد قليل، اتَّجهتُ إلى القوارير المكتظَّة عند زوايا الحوض، واتَّشح جسمي برغوة بخاريَّة تفيض بي تدريجيًّا. آهٍ، كم كانت ليلا تمتلك أشياء عجيبة! لم أشعر بأنَّني أرغب في الاستحمام فحسب، بل صار الأمر أشبه بلعبةٍ أنجرّ إليها بلا وازع. اكتشفتُ أحمر الشفاه وموادَّ الزينة ومجفِّفَ الشعر الكهربائيّ، والمرآةَ الكبيرة التي تعكس الصورة بلا أيِّ تشويه. وفي النهاية، حصلتُ على بشرة ناعمة للمرَّة الأولى، ونفش شعري الأشقر وازداد لمعانًا. لعلّ هذا هو الثراء الذي حلمنا به في طفولتنا: ليست صناديق الجواهر والدنانير الذهبيَّة، بل حوض استحمامٍ نغوص فيه كلَّ يوم، إضافة إلى تناول الخبز وشرائح السلامي واللحم المقدَّد، ناهيك بالرحابة حتى في الحمّام، ووجود الهاتف والخزانة والحافظة المليئة بشتَّى أنواع الأطعمة، وصورة كبيرة لها إطار فضّي تعتلي جدار الصالة الكبرى تظهرين فيها بفستان العرس. أن يكون هذا البيت «كلُّه» ملكًا لكِ، بما فيه المطبخ وغرفةُ النوم وصالةُ

Telegram: Somrlibrary

الطعام والشرفتان والغرفةُ الصغيرة ـ التي أدرس فيها ـ حيث سينام المولود المنتظر، حتى لو أنّ ليلا لم تخبرني بهذا.

ذهبتُ إلى المستنقعات في المساء. كنت أتلهَّف ليلمسني أنطونيو ويشمّ رائحتي ويُبهَر بي، ويستمتع بأثر النظافة التي تُبرز معالم الجمال. كانت بمثابة هديَّةٍ أردتُ أن أقدِّمها إليه. لكنَّه ما لبث ينصاع لمسبِّبات اضطرابه، قال: لا يسعني أن آتيكِ بهذه الأشياء كلّها يا لينو؛ فأجبته: ومن قال لك إنَّني أريد هذه الأشياء؛ فردّ: أنت تريدين أن تقلّدي ليلا في كلِّ شيء. شعرتُ بالإهانة، فتشاجرنا. أنا مستقلَّة، أفعل ما يحلو لي فقط، وأخوض في أمور ليس له ولا لليلا القدرة على الخوض فيها. أنا أدرس، يُحدودب ظهري ويُغشى على بصري من قراءة الكتب. صرختُ فيه بأنَّه لا يفهمني، ويحاول الاستخفاف بي وإهانتي دومًا، وانصرفتُ على عجل.

لكنّ أنطونيو في الواقع كان يفهمني جيِّدًا. فبيت صديقتي يسحرني يومًا بعد يوم، وأصبح مكانًا سحريًّا أحصل فيه على كلِّ ما أريد، بعيدًا جدًّا عن الأبنية القديمة المحفوفة بالبؤس والشؤم، والقائمة على جدران متآكلة وأبواب مهشَّمة وأغراض تدوم دهرًا، لا تتبدَّل أبدًا مهما طالها السحق والتفتيت. كانت ليلا تتجنَّب إزعاجي، وكنت أنا من يناديها: أشعر بالعطش، أشعر بالجوع، فلنشغّل التلفاز، هل لي أن أرى هذا، هل لي أن أجرّب ذاك. وكانت الدراسة تسبِّب لي السأم والتعب. وأحيانًا أطلب منها أن تصغي إليّ حين أراجع الدروس بصوت مرتفع. كانت تجلس على السرير وأنا إلى المنضدة. أشير لها إلى الصفحات التي عليّ مراجعتها، وأباشر بالإلقاء، فتتابع ليلا سطرًا تلو الآخر.

وفي تلك المناسبات، أدركتُ كم تبدَّلت علاقتها بالكتب. كانت

Telegram: Somrlibrary

تشعر حينها بالضعف. لم يعد يحدث أن تفرض عليّ أمرًا ما، أو وتيرة تناسبها، وكان يكفيها بعض الجمل كي تفهم السياق العام وتتأكَّد منه حتى تقول لي: هذا هو المفهوم المهمّ، انطلقي من هنا. وإذا تولّد لديها انطباعٌ بأنَّني أخطأتُ ـ بينما تتابع ما أقول من الكتاب المدرسيّ ـ تسارع إلى التصحيح، بتبرير مثل: «ربّما لم أفهم الفكرة، من الأفضل أن تتأكّدي بنفسك». كانت تبدو غير واثقة بأنَّها لا تزال قادرة على التعلُّم من دون بذل أيّ جهد. لكنَّني كنت واثقة بهذا. فمثلًا، رأيتُ أنَّ الكيمياء، المملَّة بالنسبة إليّ، تدفعها إلى تصويب نظرتها الثاقبة، وكانت ملاحظاتها القليلة تكفيني لأستيقظ من بلادتي وأستوقد عنفواني. ولاحظتُ أنَّها تكتفي بنصف صفحة من كتاب الفلسفة المدرسيّ، كي توطّد روابط مبهرة بين أناكساغوراس والنظام الذي يفرضه العقل على فوضى الأشياء، وبين الجداول الدوريَّة لديمتري مندلييف. وغالبًا ما شعرتُ بأنَّها تُدرك حدود إمكاناتها وسذاجة ملاحظاتها، فتنكفئ بمحض إرادتها. وما إن تجد نفسها قد تورَّطت كثيرًا حتى تنسحب، كأنَّها تخرج من مصيدة، وتغمغم قائلة: هنيئًا لكِ لأنَّك تفهمين، أنا لا أعلم عمّا تتحدَّثين.

ذات مرَّة أغلقت الكتاب بعنف، وقالت غاضبة:

«كفى».

«لماذا؟»

«لأنَّني ضجرت، المسألة نفسها تتكرَّر دومًا: داخل شيء صغير ثمَّة ما هو أصغر يحاول أن يتدفَّق خارجًا، وخارج ذلك الشيء الكبير ثمَّة ما هو أكبر منه يريد أن يُبقيه سجينًا. سأذهب للطبخ».

قالت هذا، على الرَّغم من أنَّني لم أنوِ دراسة ما يخصّ الكبير والصغير. كلّ ما في الأمر أنَّها تضايقت، أو ربَّما ارتعدت، من عدم

Telegram: Somrlibrary

قدرتها على التعلُّم، فذهبتْ.

«إلى أين؟»

قالت بصوت منخفض كي لا تزعجني: إلى تحضير العشاء وتلميع الأثاث ومشاهدة التلفاز، والتمعُّن في السكك وازدحام القطارات وبركان الفيزوف الناتئ في سراب الأفق؛ ذهبت تراقب شوارع الحيّ الجديد الخالية حينئذ من الأشجار والمتاجر، والسيَّارات القليلة التي تجول فيه، والأولاد المتشبِّثين بتنانير أمَّهاتهم اللواتي يَجْرُرْنَ عربات التسوُّق. وكانت بين حين وآخر، بطلب من ستيفانو فقط، تذهب إلى المحلِّ الذي ستُفتتح فيه الملحمة الجديدة. كان يقع على بعد أقلّ من أربعمئة مترٍ عن بيتها. ذهبتُ معها ذات مرَّة. وكان ستيفانو أحيانًا يطلب منها أن ترافقه إلى هناك، أو تذهب بمفردها كي تأخذ المقاييس بماسورة النجّار وتخطّط لتنصيب الرفوف والمعدَّات.

هذا كلّ شيء. لم يكن لديها ما تقوم به. لاحظتُ فورًا أنَّها كانت وحيدة كمتزوِّجة أكثر ممَّا كانت عليه حالتها وهي عزباء. أمَّا أنا، فكنت أخرج بعض الأحيان مع كارميلَّا، وآدا، ومع جيليولا أيضًا. وفي المدرسة بنيتُ علاقات مع بعض تلميذات صفِّي وصفوف أخرى؛ وأحيانًا، كنت ألتقيهنَّ لتناول المثلَّجات في شارع فوريا. ليلا لم تكن تلتقي أحدًا عدا نسيبتها بينوتشا. أمَّا الشبَّان، فإن كانوا يتوقَّفون ليتبادلوا معها محادثة مختصرة حين كانت مخطوبة، فأصبحوا يحيُّونها إذا صادفوها في الشارع كحدّ أقصى بعد أن تزوَّجتْ. هذا، على الرَّغم من أنَّها كانت في منتهى الجمال، وترتدي أزياء تليق بالسيِّدات على صفحات المجلَّات التي كانت تشتريها بكثرة. لكنّ وضعها الجديد كزوجة حبسها في ما يشبه القارورة الزجاجيَّة، وغدتْ كسفينة تبحر بأشرعة مسدلة في فضاء منغلق، ليس فيه بحر. لم يكن

Telegram: Somrlibrary

لباسكوالي وإنتسو، وأنطونيو أيضًا، أن يفكِّروا مجرَّد تفكير في قصد تلك الدروب البيضاء، التي لا ظلّ للبيوت محدثة التشييد فيها، والوصول إلى بوَّابة بنايتها والصعود إلى شقّتها، ليدردشوا معها أو يدعوها إلى التنزُّه. كان أمرًا لا يخطر في بالهم. حتى الهاتف، ذلك الجهاز الأسود المعلَّق على الحائط في المطبخ، غدا مجرّد قطعة زينة لا جدوى منها. ونادرًا ما رنّ في أثناء فترة دراستي عندها، وغالبًا ما يتَّصل بها ستيفانو، وقد وضع هاتفًا في الملحمة أيضًا كي يتلقَّى طلبات زبائنه. وكانت المكالمة بين المتزوّجين حديثًا موجزًا، وهي تجيب بنعم أو بلا على مضض.

كانت تستخدم الهاتف للشراء على وجه الخصوص. في تلك الآونة، كانت تُقِلّ من خروجها من المنزل. انتظرت كي تختفي آثار اللَّكَمات من وجهها، لكنّها اشترت الكثير من الأغراض. مثلًا، بعد أن رأت سعادتي بالاستحمام الممتع، ورأت كيف تحسّن شعري، سمعتُها تطلب مجفِّفًا كهربائيًّا جديدًا، وحين استلمتْه أهدتني إيَّاه. كانت تلفظ تلك الجملة كأنَّها عبارة سحريَّة (مرحبًا، أنا السيِّدة كارّاتشي)، ثم تفاوض على السعر، وتناقش، وترفض، وتشتري. لم تكن تسدِّد الثمن، فالباعة من أهل الحيّ، ويعرفون ستيفانو جيِّدًا. كانت تكتفي بالإمضاء، «لينا كارّاتشي»، اسمًا وكنيةً كما علّمتنا المعلِّمة أوليڤيرو، وتخطّ التوقيع كأنَّه تمرين فرضته على نفسها، بابتسامة لبقة، من دون أن تلقي نظرة على الأغراض، كما لو كانت تلك الإشارة على الورق أهمَّ عندها من الأغراض التي تشتريها.

اشترت أيضًا ألبومات ضخمة، ذات أغلفة خضراء مزوَّقة بزخارف مزهرة، رتَّبتْ فيها صور العرس. وطلبت نَسخ العديد من الصور لتهديني إيَّاها، كلّ الصور التي أظهر فيها أنا، وأبواي، وإخوتي،

Telegram: Somrlibrary

وحتى أنطونيو. كانت تتصل بالمصوِّر وتطلب منه كذا وكذا. وذات مرَّة، اكتشفتُ صورة يتراءى فيها نينو: كان فيها ألفونسو وماريزا، ونينو يظهر في الجهة اليمنى مقطوعًا بحافَّة الإطار، ولا يبدو منه سوى غرَّة شعره وأنفه وفمه.

«هل يمكنني أن آخذ هذه أيضًا»، ارتجلتُ دونما اقتناع.

«لا تظهرين فيها».

«إنَّني هناك في الخلف».

«حسنًا، إن كنت تريدينها، فسأطلب نَسخها».

غيّرتُ رأيي بانفعال.

«لا، انسي الأمر».

«لا توجد مشكلة».

«لا، لا».

إلَّا أنّ واحدًا من أكثر المشتريات التي أذهلتني كان العارض. حين أتمّوا تحميض فيلم العرس، جاء المصوِّر ذات مساء ليعرضه على العروسين وذويهما. استعلمتْ ليلا عن ثمن الجهاز، واشترته، ودعتني إلى مشاهدة الفيلم. وضعت العارض على المائدة في صالة الطعام، ونزعت من أحد الجدران لوحة تمثِّل عاصفة في بحر هائج، وأدخلت الشريط بكفاءة عاليَة. أخفضت درفات النوافذ، فشرعت الصورُ تتسلسل على الجدار الأبيض. شيء عجيب: كان الفيلم ملوَّنًا، يدوم عدَّة دقائق، تركني في حالة من الذهول. رأيتُ من جديد دخولها الكنيسة وهي تشبك ذراع فرناندو، وخروجَها إلى الباحة بصحبة ستيفانو، ونزهتَهما البهيجة في حديقة ريميمبرانزي، والتي انتهت بقبلة طويلة، ودخولَهما صالة المطعم، والرقصَ الذي تلاه، والأقاربَ وهم يأكلون ويرقصون، وتقطيعَ قالب الحلوى، وتوزيعَ سكاكر اللوز، والتَّحايا

Telegram: Somrlibrary

الموجَّهةَ إلى العدسة، وسعادةَ ستيفانو وعبوسَ ليلا حين كانا يرتديان ملابس السفر.

في العرض الأوَّل، كنت مذهولة من رؤيتي نفسي خصوصًا. التقطتني العدسة مرَّتين. الأولى، في الباحة مع أنطونيو: رأيتُ نفسي بدينة وغاضبة، والنظَّارةُ الطبِّيَّة تلتهم كامل وجهي؛ والثانية، وأنا جالسة إلى الطاولة مع نينو. تعرَّفتُ إلى نفسي بصعوبة: كنت أضحك، وأحرِّك يديّ وذراعيّ بلباقة ممتَهنة، وأُلامس شعري، وألهو بسوار أمِّي. بدوتُ جميلة وناعمة. هتفت ليلا بالفعل:

«انظري، كم أنت جميلة».

«ليس صحيحًا»، كذبتُ.

«تبدين هكذا حين تكونين سعيدة».

في العرض الثاني، (قلت لها: أُعيدي الشريط، ففعلتْ بلا تذمُّر)، أكثر ما أذهلني كان مشهد دخول الأخوين سولارا الصالة. إذ التقط المصوِّر اللحظة التي أثّرتْ فيَّ كثيرًا: لحظة مغادرة نينو الصالة متزامنةً مع دخول ميكيلي ومارتشيلُّو. كان الأَخَوَان يتقدَّمان بملابس الاحتفالات، جنبًا إلى جنب، وكانا طويلي القامة، بعضلات مفتولة لكثرة تردُّدهما إلى صالة رفع الأثقال؛ في حين كان نينو ينسحب مطأطئ الرأس، ويصطدم بخفَّة بذراع مارتشيلُّو؛ وبينما يلتفتَ الأخير بحركة خاطفة متأفِّفًا كمافياويٍّ متغطرس، يمضي نينو إلى شأنه غير مكترث لما فعل، ومن دون أن يلتفت أيضًا.

بدا لي التناقض صارخًا. ليس بسبب الفقر الواضح على ثياب نينو، والذي يتعارض مع الثراء الجليّ على ملابس الأخوين سولارا، ناهيك بالذهب الذي يشعّ من عنقيهما والمعصمين واليدين، ولا حتى بسبب هزاله الشديد الذي يفضحه طول قامته ـ كان أطول من الأخوين

Telegram: Somrlibrary

بخمسة سنتمترات على الأقلّ، وهما الطويلان أصلًا ـ والذي يوحي بهشاشةٍ وضيعة إذا ما قورنت بالاكتناز المهيب الذي يُبرز كلًّا من مارتشيلّو وميكيلي في المشهد بارتياح كبير، إنَّما اللامبالاة هي التي تعزِّز ذلك التناقض. ففي حين أنّ صلف الأخوين سولارا كان يُعَدّ أمرًا طبيعيًّا، لم يكن من الطبيعيّ مطلقًا ذلك الشرود المتعالي الذي واكب اصطدام نينو بمارتشيلّو ومتابعة مسيره من دون أدنى انتباه. حتى أولئك الذين يكرهونهما، كباسكوالي وإنتسو وأنطونيو، كانوا يحسبون لهما ألف حساب. أمَّا نينو، فلم يقدّم أيَّ اعتذار، بل لم يتنازل بنظرة تجاه مارتشيلّو.

بدا لي المشهد دليلًا موثّقًا على ما كنت قد أدركته وأعيشه في الواقع. كان ابن سارّاتوري ـ الذي نشأ في بنايات الحيّ القديم مثلنا تمامًا، وقد رأيتُه مذعورًا جدًّا حين كان يوشك على هزيمة ألفونسو في المنافسة المدرسيَّة ـ يظهر في ذلك المقطع منسلخًا كلِّيًّا عن هرميَّة القيم التي يتربَّع الأخَوَان سولارا على قمّتها. كانت عبارة عن مملكةٍ لا تعني له شيئًا، وربَّما لم يعد يفهمها أيضًا.

نظرتُ إليه مسحورة. بدا لي أميرًا زاهدًا في وسعه أن يُرهب ميكيلي ومارتشيلّو بنظراته فقط، ومع ذلك لم يكن يراهما. وأملتُ لبرهة أن يفعل الآن، في الفيلم، ما لم يفعله في الحقيقة: أن يأخذني معه بعيدًا.

انتبهتْ ليلا إلى وجود نينو حينها فقط، وقالت بفضول:

«هل هذا هو نفسه الذي كنت تجلسين معه إلى الطاولة بصحبة ألفونسو؟»

«أجل. ألم تعرفيه؟ إنَّه نينو، نجل سارّاتوري».

«هل هو نفسه الذي سمحتِ له بتقبيلك حين كنت في إيسكيا؟»

Telegram: Somrlibrary

«كان طيشَ مراهقة».

«هذا أفضل».

«لماذا؟»

«لأنّه يبدو مغرورًا إلى درجة لا تُحتمل».

قلت، كي أبرِّر انطباعها:

«سيحصل على الكفاءة هذا العام، وهو أفضل تلميذ في المدرسة كلّها».

«ألهذا يعجبكِ؟»

«لا أبدًا».

«انسي أمره يا لينو. أنطونيو أفضل».

«هل ترين ذلك؟»

«أجل. فهذا فظّ وقبيح، ولاسيّما أنَّه متبجِّح».

أحسستُ بتلك الصفات الثلاث كإهانة، وكدت أردّ عليها: ليس صحيحًا. إنَّه وسيم، وعيناه تقدحان تألُّقًا، ويؤسفني أنَّك لا تنتبهين لهذه الخصال، إذ ليس لشابّ مثله وجودٌ في السينما ولا في التلفاز ولا حتى في الروايات؛ وأنا سعيدة لأنَّني أحبّه منذ الطفولة، وحتى لو كان صعب المنال، حتى لو تزوَّجتُ بأنطونيو، وأمضيتُ عمري في تزويد السيَّارات بالوقود، فإنَّني أحبّه أكثر من حبّي نفسي، وسأظلّ أحبّه إلى الأبد.

لكنَّني قلت لها، بنبرةٍ يغلبها الحزن:

«كان يعجبني في السابق، حين كنَّا في الابتدائيَّة. أمَّا الآن فلم يعد يعجبني».

١٢

جاءت الأشهر التالية بوقائع صغيرة، لكنّ تأثيرها السلبيّ كان كبيرًا، إلى درجة أنَّني لا أستطيع حتى اليوم أن أضعها في سياقها المناسب. على الرَّغم من الوتيرة العفويَّة والنحو الصارم اللذين سرتُ عليهما، كنت أتقهقر باستمرار أمام أمواج عاتية من التعاسة، يرافقها شعورٌ مؤلم بالإذعان. بدا أنّ كلّ شيء يتآمر عليّ. ففي المدرسة، لم أعد أحرز النتائج التي اعتدت على إحرازها في الماضي، مع أنَّني استأنفتُ الدراسة. وكانت الأيَّام تمضي ولا تجود عليّ بلحظة ارتياحٍ واحدة. والدروب وعرة كلّها، سواء أكانت تلك التي تُفضي إلى المدرسة، أم إلى بيت ليلا، أم إلى المستنقعات. ازدادت عصبيَّتي وضعفت ثقتي بنفسي، وكنت أعزو كلّ تعاستي ـ من دون أن ألاحظ ـ في جزء كبير منها، إلى أنطونيو.

وكان أنطونيو متوتِّرًا جدًّا أيضًا. كان يرغب في رؤيتي باستمرار، وأحيانًا يترك عمله كي ينتظرني على الرصيف المواجه لبوَّابة المدرسة، ما يجعلني في حيرة من أمري. كان قلقًا بسبب اضطرابات أمّه ميلينا، ومذعورًا من احتمال سَوْقِه إلى الخدمة العسكريَّة. لم يتوانَ يومًا عن تقديم طلبٍ في إثر طلبٍ إلى مركز الناحية، يوثِّق فيه وفاة والده

Telegram: Somrlibrary

وظروفَ أمّه الصحّيَّة، وكونه المُعيلَ الوحيد للأسرة؛ حتى بدا أنّ الجيش قد سئم من رسائله، وقرّر أن ينسى أمره. لكنّ أنطونيو علم حينئذ بأنّ إنتسو سكانو سينطلق في الخريف إلى الخدمة، لذا خشي أن يأتي دوره أيضًا. «لا أستطيع أن أترك والدتي وآدا وإخوتي من دون ليرة واحدة ومن دون رعاية»، كان يردِّد خائب الرجاء.

ذات يوم، ظهر عند المدرسة مقطوع الأنفاس، إذ عرف بقدوم عناصر الشرطة ليحصلوا على بعض المعلومات عن وضعه.

«اسألي لينا»، قال منهارًا، «واستعلمي منها إن كان ستيفانو قد حصل على الإعفاء بما أنَّه ابن امرأة أرملة، أو لأيٍّ سبب آخر».

هدّأتُ روعه وحاولتُ أن أُلهيه، نظَّمتُ سهرة في أحد مطاعم البيتزا، خصِّيصًا من أجله، مع باسكوالي وإنتسو ومحبوبتيهما آدا وكارميلًا. كنت آمل أن يجد سبيلًا إلى السكينة إذا ما قارن نفسه بأصدقائه، لكنّ الأمور ازدادت تعقيدًا. لم يُظهر إنتسو، كعادته، أيَّ تأثّرٍ بخصوص الالتحاق، ولم يأسف سوى على أبيه الذي سيضطرّ، خلال تلك المدَّة التي سيمضيها مع السلاح، إلى العودة ثانية إلى التجوال في الشوارع يجرّ العربة، على الرَّغم من أنّ وضعه الصحِّي لا يساعد على ذلك. أمّا باسكوالي، فباح لنا بأنّ الناحية أعفته من خدمة العلم، لأنَّه أُصيب بالسلّ في صغره. لكنَّه أعرب عن أسفه، فكان لا بدّ من التجنيد، ليس خدمةً للوطن طبعًا. نحن وجميع الذين يشبهوننا، قال، لا بدّ من أن نتمرَّن على استخدام السلاح، فعاجلًا أم آجلًا، ستحين تصفية الحسابات، وكلّ من أخطأ سيدفع الثمن غاليًا. وهكذا، انتقلنا إلى الحديث عن السياسة. وللدقَّة، انفرد باسكوالي في الحديث، بأسلوب يدلّ على نفاد صبره. قال إنّ الفاشيِّين كانوا ينوون العودة إلى السلطة بمساعدة الحزب «الديموقراطي المسيحي»، وإنّ

Telegram: Somrlibrary

أفراد الجيش وقوّات حفظ النظام منحازون إليهم. وأردف بأن لا مناصَّ من التأهُّب لخوض المعركة، متَّجهًا بكلامه إلى إنتسو خصوصًا، وكان الأخير يومئ موافقًا، بل ارتجل ضاحكًا، وهو الذي كان عادةً ما يلتزم الصمت: لا تقلق، حين أعود سأعلِّمك كيف تطلق النار.

غلبت الدهشة على وجه آدا، وكارميلَّا أيضًا، وبدا أنَّهما سعيدتان بالارتباط برجلين خطرين إلى هذا الحدّ. أردتُ التدخُّل في النقاش، لكنَّني لم أكن أعرف سوى القليل عن التحالفات بين الفاشيِّين والديموقراطيِّين المسيحيِّين وقوّات حفظ النظام. لم يكن لديّ أدنى فكرة عن ذلك. كنت أنظر بين الحين والآخر إلى أنطونيو آملة أن يتفاعل مع المسألة، لكن عبثًا. حاول أن يعود إلى هواجسه ليس إلّا. سأل أكثر من مرَّة: كيف تكون الحالة مع السلاح؟ فأجابه باسكوالي، وهو الذي لم يعش تلك التجربة أساسًا: حالة في منتهى السوء، لهم الحقّ في قتل أيّ جنديٍّ لا يذعن لأوامرهم. ظلّ إنتسو صامتًا كالعادة، كأنَّ المسألة لا تعنيه؛ أمَّا أنطونيو، فكفّ عن الطعام وراح يعبث بقطعة البيتزا التي في طبقه، وقال بشكل متقطِّع شيئًا ما كهذا: إنّهم لا يعرفون مع مَن يتعاملون، فليتجرّأوا على المساس بي، سأقتلهم جميعًا.

وحين بقينا بمفردنا، قال لي بغتة، بنبرة كئيبة:

«أعلم بأنَّك لن تنتظريني، حالما ألتحق سترتبطين برجل آخر».

أدركتُ مخاوفه حينها. المشكلة لم تكن ميلينا، ولا آدا، ولا إخوته الذين سيغدون بلا معيل، ولم تكن حتى مساوئ الخدمة العسكريَّة أيضًا. كنت أنا المشكلة. لم يكن يريد أن يتركني دقيقة واحدة. وبدا لي أنَّه لن يصدِّقني مهما قلت أو فعلتُ لأُطمئنه. فضّلتُ أن أؤدِّي دور التي تلقّت إهانة. قلت له أن يعتبر إنتسو مثالًا: إنَّه يثق بآدا، وإن توجّب عليه

Telegram: Somrlibrary

الالتحاقُ التحق بلا تباكٍ، مع أنَّه ارتبط بها منذ فترة قصيرة؛ أمّا أنت، فتشتكي بلا سبب، أجل، بلا سبب يا أنطونيو، ومن الوارد كثيرًا ألَّا يستدعوك حتى، فإذا كان ستيفانو كارّاتشي قد حصل على الإعفاء لكونه ابن امرأة أرملة، فتخيّل ألَّا يعفوك أنت أيضًا.

هدأ حين سمع نبرتي تحتدّ من دون لؤم. لكنّه قبل أن يودِّعني، كرَّر عليّ مرتبكًا:

«اسألي صديقتك».

«إنَّها صديقتك أيضًا».

«أعلم، لكن اسأليها أنتِ».

تحدَّثتُ في اليوم التالي مع ليلا، فاستنتجتُ أنَّها لا تعرف شيئًا بخصوص خدمة زوجها العسكريَّة، ووعدتني على مضض بأنَّها ستستعلم عن الأمر.

ولم تستعلم على الفور كما كنت أتمنَّى. فالعلاقة مع ستيفانو، وأهله، كانت لا تزال مشوبة بالتوتُّرات. إذ قالت ماريّا لابنها إنّ زوجته تبذّر الكثير من المال. وتأفَّفت بينوتشا بشأن الملحمة الجديدة، قائلة إنَّها لن تشتغل فيها، بل يتعيّن على نسيبتها أن تعمل فيها. وكان ستيفانو يتصدّى لأمِّه وأخته، وفي الوقت نفسه يؤنّب زوجته على تبذيرها، ويحاول أن يستفهم منها إن كانت مستعدَّة للعمل على الصندوق في المحلِّ الجديد.

في تلك المرحلة، كانت ليلا لا تصدُق في كلامها، وحتى أنا كنت أراها كذلك. كانت تعده بأن تخفِّض من مشترياتها، وتوافق برحابة صدر على العمل في الملحمة، لكنَّها كانت تنفق أكثر من ذي قبل. وإن كانت في السابق تزور المحلّ الجديد مكرهة أو لإشباع فضولها، فإنَّها لم تعد تقوم بذلك أيضًا، مع أنّ الرضوض اختفت عن

Telegram: Somrlibrary

وجهها. وكانت مولعة بالخروج للتنزُّه، ولاسيّما في الصباح حين أكون في المدرسة.

كانت تتمشّى مع بينوتشا، وتتنافسان في أفضل تسريحة شعر وفي شراء الكثير من الأغراض التافهة. وكانت بينا تفوز عادةً، ولاسيّما أنَّها تستخدم غنجها الطفوليّ كي تحصل على النقود من رينو الذي يضطرّ غالبًا إلى منافسة صهره بالسخاء.

«أنا أعمل طوال اليوم»، يقول الخطيب لخطيبته، «فاستمتعي نيابة عنِّي أيضًا».

ثم يُخرج من جيب بنطاله أوراقًا نقديَّة مكدّسة، بكبرياء ولامبالاة على مرأى من أبيه والعمَّال الآخرين، ويعطيها لبينا، ويسارع إلى الإتيان بحركة مغرورة تُظهر أنَّه يريد أن يعطي أخته أيضًا.

وكانت ليلا تصف تلك التصرُّفات بالمزعجة، كضرب الرياح التي تصفع بابًا وتوقع الأغراض من على الرفوف. وفي المقابل، كانت ترى فيها دليلًا على أنّ ورشة الأحذية باتت تسير على ما يرام، ثم إنَّها في النهاية كانت سعيدة بأنّ أحذية شيرولّو تُعرض في كثير من متاجر المدينة، وأنّ التصاميم الربيعيَّة تُباع بشكل جيِّد، والتوصيات تزداد. حتى اضطرّ ستيفانو إلى فحص القبو، أسفل ورشة الأحذية، وحوَّل نصفه إلى مخزن ونصفه الآخر إلى مشغل؛ بينما تعجّل فرناندو ورينو في تعيين مساعد آخر، وكانا يعملان في أثناء الليل في بعض المناسبات.

ولا يخلو الأمر من بعض الإشكاليَّات بالطبع. فمحلّ الأحذية، الذي تكفّل آل سولارا بافتتاحه في ساحة الشهداء، سيؤثِّث على نفقة ستيفانو، لكنّ الأخير شكّك في أنَّهم لم يبرموا اتِّفاقًا مكتوبًا بعد، ما دفعه إلى منازعة مارتشيلّو وميكيلي. وحينها، بدا أنَّهم توصَّلوا إلى إبرام عقد يحدِّد المبلغ (الكبير نوعًا ما) الذي سينفقه كارّاتشي في

Telegram: Somrlibrary

التأثيث. وكان رينو أكبر الراضين عن تلك النتيجة: فحيثما يستثمر صهره الأموال، كان يتصرَّف كعرّاب، وكأنَّه هو مَن أنفقها.

«إن سار كلّ شيء على ما يرام، فسنتزوَّج العام المقبل»، كان يعد خطيبته، ما دعا بينا إلى الرغبة في الذهاب، ذات صباح، إلى الخيَّاطة نفسها التي صمَّمت فستان ليلا، كي تلقي نظرة ليس إلَّا.

استقبلتهما الخيَّاطة بحفاوة كبيرة، لكنَّها طلبت من ليلا، وهي المولعة بجمالها، أن تروي عليها حفل الزفاف بكلٍّ تفاصيله، وأصرّت على أن تحصل على صورة كبيرة تظهر فيها بفستان العرس. نسخت لها ليلا صورة مناسبة، واتَّجهت مع بينا إلى الخيَّاطة في صباح يوم آخر وأعطتها الصورة.

في تلك المناسبة، وبينما كانتا تتمشَّيان في شارع ريتيفيلو، سألت ليلا نسيبتها كيف استطاع ستيفانو التملُّص من الخدمة العسكريَّة: تُرى هل استعلمت الشرطة عن وضعه كنجل أمٍّ أرملة، أم هل وصله الإعفاء من الناحية عبر البريد، أم ذهب شخصيًّا ليسأل عن الطريقة.

نظرت إليها بينوتشا ساخرة:

«نجل أمٍّ أرملة؟»

«أجل، أنطونيو يقول إنّ الشبَّان في هذه الحالة لا يلتحقون بالخدمة».

«أنا أعرف أنّ الوسيلة الوحيدة لتجنُّب الالتحاق هي الرشوة».

«ومَن يرتشي؟»

«الموظَّفون في الناحية».

«هل دفع ستيفانو مبلغًا ما؟»

«أجل، لكن لا ينبغي لهذا السرّ أن يُفشى».

«وكم دفع؟»

Telegram: Somrlibrary

«لا أعرف بالتحديد. آل سولارا هم الذين تولّوا المهمّة».

صُعقتْ ليلا.

«ماذا تقصدين؟»

«ربَّما تعلمين بأنّ مارتشيلّو وميكيلي لم يلتحقا بالخدمة أيضًا. أُعفيا بسبب عطب في عظام الصدر».

«الأَخَوان سولارا؟ وكيف تمكّنا من ذلك؟»

«عن طريق المعارف».

«وستيفانو؟»

«مارتشيلّو وميكيلي توسَّطا لستيفانو عبر معارفهما. تدفعين لهم مبلغًا ما فيَسُدون إليكِ معروفًا».

نقلتْ إليّ صديقتي كلّ شيء في مساء ذلك اليوم، لكنَّها بدتْ لا تعي الشؤم الذي تحمله هذه الأخبار لأنطونيو. كانت مصعوقة جدًّا ـ أجل مصعوقة ـ إذ اكتشفت أنّ التفاهم بين زوجها وآل سولارا لم يكن ضرورةً اقتضتها التجارة، بل كان قديمًا ويسبق خطوبتهما أيضًا.

«كان يخدعني منذ البداية» كرَّرت غير مرَّة مقتنعةً بذلك، كأنَّ مسألة الخدمة العسكريَّة تقدّم برهانًا دامغًا على طبيعة ستيفانو الحقيقيَّة، وكأنَّها خرجت من هذا المأزق ما إن حصلت على البرهان. مضى وقتٌ معيَّن حتى استطعتُ أن أسألها:

«هل ترين أنّ الأَخَوَين سولارا قد يُسْديان هذا المعروف إلى أنطونيو أيضًا، في حال لم تُعفه الناحية من الالتحاق؟»

رمتني بنظرتها الشرِّيرة كأنّني تفوَّهتُ بجملة سمجة، وختمتْ على عجل:

«أنطونيو يأنف من التذلُّل لهما».

Telegram: Somrlibrary

١٣

لم أُعْلِم أنطونيو بأيّ كلمة من ذلك النقاش. تجنّبتُ لقاءه، وقلت له إنَّني غارقة حتى أذنيّ في الواجبات والتحضير للمذاكرات المقبلة.

ولم تكن تلك ذريعةً، فالمدرسة كانت أشبه بالجحيم حقًّا. المفتّشون المنتدَبون من وزارة التعليم يضغطون على مدير المدرسة، والمدير يضطهد الأساتذة، والأساتذة يجورون على التلاميذ، والتلاميذ يعذّب بعضهم بعضًا. والأغلبيَّة العظمى منّا لم تكن تحتمل كثرة الواجبات، لكنَّنا كنَّا سعداء بالذهاب إلى المدرسة في أيَّام متناوبة. وثمَّة أقلِّيَّة كانت مستاءة من الظروف المتردِّية التي وصل إليها مبنى المدرسة، ومن خسارة كثير من ساعات الدروس، وتريد العودة إلى التوقيت الاعتياديّ. وكان زعيم هذه الجماعة نينو سارّاتوري، ما زاد في أموري تعقيدًا.

كنت أراه يتهامس مع غالياني، وأمرّ قربهما عسى أن تناديني الأستاذة. لكنّ هذا لم يحدث أبدًا. فتمنَّيتُ أن يبادر نينو إليّ بالكلام، ولم يحدث هذا أيضًا. شعرتُ بأنَّني لم أعد شخصًا موثوقًا؛ لم أعد قادرة على إحراز النتائج كما في السابق، فأضعتُ في وقت قصير جدًّا ما أضفيتُه حولي من تقديرٍ واحترام. وماذا كنت سأدّعي بالتالي؟

Telegram: Somrlibrary

جلدتُ ذاتي وأنا أتخيَّل لو أنّ غالياني أو نينو طلبا منّي رأيًا عن مشكلة القاعات غير المستخدمة أو كثرة الواجبات؛ ماذا سأقول؟ لم يكن لديّ رأي في الواقع. حتى ظهر نينو قبالتي فجأة ذات صباح، وهو يحمل ورقة مطبوعة بالآلة الكاتبة ويسألني متجهّمًا:

«هلّا قرأتِها؟»

خفق قلبي بشدَّة، فلم أستطع سوى أن أقول:

«الآن؟»

«لا، سأستعيدها منك وقت الانصراف».

تخبَّطتْ مشاعري. هرعتُ إلى الحمّامات وقرأتُ بارتباك متصاعد. كانت الورقة مليئة بأرقام وإحصائيَّات عن شؤون لم أكن أعرف عنها شيئًا: الموازنة العامَّة؛ الإنشاءات المدرسيَّة؛ الدستور الإيطاليّ وبعض بنوده الأساسيَّة. لم أفهم سوى ما كنت أعرفه مسبقًا، أي أنّ نينو كان يطالب بالعودة مباشرةً إلى الدوام الاعتياديّ.

وحين عدت إلى الصفّ، مرّرتُ الورقة إلى ألفونسو.

«لا تعيريه اهتمامًا»، نصحني من دون أن يقرأ، «نحن في نهاية العام، والامتحانات النهائيَّة وشيكة، وذاك يريد أن يُقحمك في المتاعب».

لكنَّني كنت متوتِّرة كالمجانين، اشتدَّ النبض في صدغيّ وجفّ فمي. لم يكن أحد في المدرسة كلّها يجرؤ على التعبير عن نفسه مثل نينو، لا خوف يساوره من أيّ أستاذ أو مدير. لم يكن الأفضل في جميع الموادّ فحسب، بل أيضًا كان مطَّلعًا على قضايا لا تُدَرَّس في أيِّ مكان، ولم يكن يعلم بها أيّ تلميذ حتى لو كان مجتهدًا أو نجيبًا. وكان يتمتَّع بشخصيَّة قويَّة، ووسيمًا. بقيتُ أعدّ الساعات والدقائق والثواني. كنت أرغب في الركض نحوه لأسلّمه الورقة وأُثنيَ على

Telegram: Somrlibrary

رأيه، وأعلنَ أنَّني موافقة قلبًا وقالبًا على كلّ ما جاء فيها، وأُعرب عن استعدادي لمساعدته.

لم أعثر عليه عند السلالم في زحمة الانصراف، ولم أجده في الشارع. خرجتُ مع آخر التلاميذ مكفهرّة الوجه أكثر من العادة. وحين رأيته، ذهبتُ نحوه مبتهجة الأسارير وأنا ألوّح بالورقة، وبالغتُ في امتداح كلامه. ظلّ يصغي إليّ مستغربًا، ثم أخذ الورقة، فتّتها غاضبًا ورماها.

«غالياني تقول إنّ المقال سيِّئ»، غمغم.

لم أفهم.

«ما السيِّئ فيه؟»

تأفَّف منزعجًا وأدلى بحركة تعني: فلننسَ الأمر، لا يستحقّ الحديث فيه.

«بكلِّ الأحوال، شكرًا لكِ»، قال مكرهًا بعض الشيء، وانحنى فجأة وقبّل وجنتي.

لم يحدث بيننا أيّ تماس منذ تلك القبلة في إيسكيا، ولا حتى مصافحة باليد؛ لذا فوجئتُ بطريقة الوداع هذه التي لم تكن مألوفة إطلاقًا حينئذ. لم يطلب منّي أن نمشي قليلًا من الدرب معًا. لم يقل وداعًا، ولا أيّ شيء. نظرتُ إليه وهو يبتعد، قواي خائرة وصوتي مسحوق.

في تلك اللحظة، وقع أمران في منتهى السوء، أحدهما تلو الآخر. ظهرتْ فتاةٌ ما من أحد الأزقّة، أصغر منّي بلا شكّ، عمرها خمسة عشر عامًا كحدّ أقصى، أذهلتني بجمالها ونظافتها ومظهرها اللائق، شعرها الأسود الناعم والمسدل على طول ظهرها. لها من الرقّة ما يشمل أيّ حركة أو إشارة تصدر عنها، وكلّ قطعة من ملابسها

Telegram: Somrlibrary

الربيعيَّة تنمّ عن اعتدال مدروس. بلغتْ نينو، شبك كتفيها بذراعه، فرفعتْ وجهها وهيّأتْ شفتيها، ليتبادلا قبلة حارّة؛ قبلة مختلفة جدًّا عن تلك التي تركها على خدّي. وفي اللحظة نفسها، استدرتُ لأجد أنطونيو واقفًا عند التقاطع. يُفترض أن يكون في العمل، لكنَّه جاء ليصطحبني. كان واقفًا هناك منذ مدَّة.

Telegram: Somrlibrary

١٤

كان من الصعب إقناعه بأنّ ما شهده بأمّ عينيه ليس ما كان يتخيَّله منذ زمن، وإنَّما تصرُّفٌ ودِّيٌّ بلا غايات أخرى. «إنَّه مرتبط أساسًا»، قلت له، «وقد رأيتَهما بنفسك». لكنَّه التقط أثرًا لألمي في تلك الكلمات وراح يهدِّدني، وكانت يداه وشفته السفلى ترتجف. فأجبته بأنَّني تعبتُ من هذه الحال، وصرّحتُ بأنَّني أريد أن أهجره. تراجع عن موقفه، وتصالحنا. لكنّه فَقَدَ الثقة بي منذ تلك اللحظة، وتخوَّف من أنَّني سأستغلّ التحاقه بالجيش كي أهجره وأرتبط بنينو. كان غالبًا ما يترك عمله ويأتي ليسلّم عليّ، كما يزعم. وفي الواقع، كان يريد أن يقبض عليّ متلبِّسة، ليثبت لنفسه أوَّلًا أنَّني كنت أخونه حقًّا؛ حتى لو أنَّه لم يكن يعرف ما الذي سيفعله بي في تلك الحالة.

وذات مساء، رأتني أخته آدا أمرّ قبالة الملحمة حيث عُيِّنت للعمل، وأحسَّت بسعادة بالغة تغمرها كما تغمر ستيفانو. بلغتني راكضة. كانت ترتدي مئزرًا أبيض متَّسخًا بالدهون يغطّي جسمها حتى ركبتيها، لكنَّها كانت جميلة كالعادة، ويتَّضح من أحمر الشفاه الذي تضعه، وكحل عينيها، ولفافات الشعر، أنَّها ترتدي تحت المئزر ملابس تصلح للسهر. أخبرتني بأنَّها تودّ الحديث إليّ، فاتَّفقنا على أن نلتقي في الفناء قبل ساعة العشاء. وصلتْ من المحلّ مقطوعة

Telegram: Somrlibrary

الأنفاس، برفقة باسكوالي الذي كان ذاهبًا ليصطحبها.

تحدَّثا إليّ معًا، وطغى الارتباك على كلامهما معًا، ففهمتُ أنَّهما كانا قلقين بشأن أنطونيو، لأنَّه أصبح يغضب من أيّ شيء، ولم يعد يتحلَّى بالصبر لخدمة أمِّه، ويتغيَّب عن العمل بلا مبرِّر. حتى غاليزي، مالك الورشة، كان مضطربًا بشأنه، لأنَّه يعرفه منذ كان صغيرًا ولم يره في تلك الحالة أبدًا من قبل.

«إنَّه خائف من الخدمة العسكريَّة»، قلتُ.

«بكلِّ الأحوال، عليه أن يلتحق مرغمًا إذا تمّ استدعاؤه» قال باسكوالي، «وإلَّا اعتبروه فارًّا من الجنديَّة».

«حين تكونين قربه تزول مخاوفه»، قالت آدا.

«ليس لديّ الوقت الكافي»، قلت.

«البشر أهمّ من الدراسة»، قال باسكوالي.

«اقضي وقتًا أقلّ مع لينا، وسترين أنَّك ستجدين الوقت»، قالت آدا.

«إنَّني أفعل ما في وسعي»، أجبت مغتاظة.

«إنَّه يعاني توتّرًا في الأعصاب نوعًا ما»، قال باسكوالي.

وختمت آدا بانفعال:

«إنَّني أعين مجنونة منذ كنت صغيرة، ولا يسعني الانشغال بمجنونين يا لينو».

تضايقتُ وشعرتُ بالذعر، وأنّبني ضميري، فعدت لألتقي أنطونيو غالبًا، حتى لو لم أكن أرغب في ذلك، وحتى لو كنت مقصِّرة في الدراسة. ولم يكن هذا كافيًا. ذات مساء عند المستنقعات، انفجر بالبكاء وأراني بطاقة تحتوي على تبليغ: لم يوافقوا على إعفائه، وعليه أن يلتحق مع إنتسو حينما يحلّ الخريف. وحينذاك، أقدم على حركةٍ أرعبتني: وقع أرضًا، وأخذ يملأ فمه بالتراب بجنون هائج. فعانقته

Telegram: Somrlibrary

وأنا أغمغم بأنّني أحبّه، وأنزع التراب من فمه بأصابعي.

أيّ مصيبةٍ حلّت بي، فكّرتُ وأنا في السرير أحاول عبثًا أن أنام، وأحسستُ فجأة بأنّني لا أرغب في الكفّ عن الدراسة وتقبُّل ذلك المصير: أن أتزوّج به وأعيش مع إخوته في بيت أمّه وأزوّد السيّارات بالوقود. لذا، قرّرتُ أنّه لا بدَّ من عمل شيء ما كي أساعده، ثم أنسحب من هذه العلاقة حالما تتحسّن نفسيّته.

ذهبتُ إلى ليلا في اليوم التالي، وكنت خائفة ومتوتّرة. وجدتُها في غاية السعادة، مع أنَّ القلاقل لم تكن تنقص أيًّا منّا في تلك الفترة. حدّثتها عن أنطونيو، وعن التبليغ، وقلت لها إنّني اتّخذتُ قرارًا: كنت أنوي التوجُّه إلى مارتشيلّو، وميكيلي أيضًا، كي أطلب منهما أن ينتشلا أنطونيو من تلك المحنة، وذلك خلسة عنه، لأنّه لم يكن ليسمح لي بهذا مطلقًا.

وبالغتُ في صرامة قراري، مع أنّني في الواقع كنت مشوّشة: من جهة، كانت المحاولة تبدو لي إجباريّة بما أنّني كنت سبب آلام أنطونيو؛ ومن جهة أخرى، كنت أستشير ليلا من دون غيرها، لأنّني على يقين بأنّها ستنصحني بعدم الذهاب إلى الأخوَين سولارا. لكنّني كنت حائرة بسبب مشاعري المشتّتة، فلم آخذ في الحسبان اضطراب مشاعرها.

كانت ردّة فعلها غامضة. سخرتْ منّي بادئ الأمر، واتّهمتني بأنّني كاذبة، فكيف لا أكنّ مودّة صادقة لأنطونيو، وأنا مستعدّة للتذلُّل شخصيًّا للأخَوين سولارا لأجله؟ مع أنّها متأكّدة من أنّهما لن يحرّكا ساكنًا لأجله بعد كلّ المشاحنات التي حدثت بينهم في الماضي. ثم سرعان ما بدأت تراوغ بشأن المسألة بانفعال واضح، وتضحك باستهزاء، ثم تستعيد الجدّيّة، لتعود إلى الضحك ثانية. إلى أن قالت في النهاية: حسنًا، اذهبي إليهما لنرى ما الذي سيحدث. ثم أردفت:

Telegram: Somrlibrary

«بكلِّ الأحوال يا لينو، ما الفرق بين أخي وميكيلي سولارا، أو بالأحرى بين ستيفانو ومارتشيلّو؟»

«ماذا تقصدين؟»

«أقصد أنَّه كان عليّ أن أتزوَّج بمارتشيلُّو».

«لا أفهمك».

«مارتشيلُّو ليس تابعًا لأحد على الأقلّ، يفعل ما يطيب له».

«هل تتكلَّمين جدِّيًا؟»

سارعتْ إلى النفي وهي تضحك، لكنَّها لم تقنعني. من المستحيل أنَّها تُعيد تقويم مارتشيلُّو، قلتُ لنفسي: هذا الضحك كلُّه ليس حقيقيًّا، إنَّما إشارة إلى أفكار سيِّئة تدور في رأسها ودلالة على المعاناة، لأنّ علاقتها بزوجها ليست بخير.

حصلتُ على البرهان مباشرة. أصبحتْ جدِّيَّة، ضيّقتْ عينيها كثقبين صغيرين، وقالت:

«سأرافقكِ».

«إلى أين؟»

«إلى الأخَوَين سولارا».

«لماذا؟»

«كي أرى إن كان في وسعهما مساعدة أنطونيو».

«لا».

«لماذا؟»

«ستُغضبين ستيفانو».

«ومن يهتمّ بهذا. إن كان يلجأ بنفسه إليهما، ففي إمكاني فعل ذلك. فأنا زوجته».

Telegram: Somrlibrary

١٥

أخفقتُ في ثنيها عن قرارها. وذات يوم أحد، وكان يوم عطلةٍ ينام فيه ستيفانو حتى منتصف النهار، خرجنا معًا نتنزَّه حتى ساقتْني ليلا إلى مقهى سولارا. صعقني مظهرها، حين رأيتها في ذلك الدرب الجديد الذي ما زال الجصّ ناصع البياض فيه. كان هندامها يلفت الانتباه، ناهيك بزينتها الصارخة. لم تعُد تبدو تلك الطفلة المعدَمة، ولا تلك الفتاة الشبيهة بجاكلين كينيدي، إنَّما كنجمة سينمائيَّة، من تلك الأفلام التي أعجبتْنا، مثل جينفير جونس في «مبارزة تحت الشمس»، أو آفا غاردنر في «ثم تشرق الشمس».

أحسستُ بحياءٍ وخطورة من المشي معها. بدا لي أنَّها ستؤلّب على نفسها التهكُّم والتجريح الشنيع، وسأكون عرضة للتهكُّم والتجريح أنا أيضًا، كأنَّني كلبٌ يلهث خلف صاحبه ويحرص على الذود عنه. كان مظهرها غريبًا في شوارع الحيّ الكئيبة، من تسريحة شعرها، إلى لمعان قرطيها، فقميصها المتأنّق وتنُّورتها الضيِّقة ومشيتها الهوينى. وكانت نظرات الذكور جيّاشة برؤيتها كأنَّهم يشعرون بالإهانة. والنساء، ولاسيّما المتقدِّمات سنًّا، لم يكتفين بتعبيرٍ عن الدهشة، بل توقَّفت إحداهنّ على حافَّة الرصيف، وظلّت ترمقها بضحكة قصيرة تجمع بين

Telegram: Somrlibrary

الغبطة والحزن، كما كنّ ينظرن إلى ميلينا وهي تستعرض جنونها في الطريق.

وعلى الرَّغم من هذا، حين دخلنا مقهى سولارا المزدحم بالرجال، الذين أتوا لشراء حلويات يوم الأحد، لم تتلقَّ ليلا إلّا النظرات المحترمة وبعض إشارات التحيَّة الرزينة، وإعجابًا صادقًا من جيليولا سبانيولو التي كانت خلف المصطبة، وتحيّةً من ميكيلي الذي كان خلف الصندوق: صباح الخير، قالها بنبرةٍ هاتفة توحي بانشراح الصدر. ثم تلتها محادثة كلّها بالعامِّيَّة، كما لو أنّ التوتُّر يمنع المرء من بذل الجهد في انتقاء لفظه ومفرداته واستخدام كلمات فصيحة.

«هل تودّين شراء شيء ما، يا سيِّدتي؟»

«أعطني اثنتي عشرة قطعة من المعجَّنات».

هتف ميكيلي لجيليولا، وهذه المرَّة بإيحاء ساخر نوعًا ما:

«اثنتا عشرة قطعة من المعجَّنات... للسيِّدة كارّاتشي».

وحين انبثق هذا الاسم، اهتزّ الستار الذي يعزل المشغل ليظهر مارتشيلُّو. وبمجرَّد رؤيتها، تحديدًا هناك، في محلِّه، انصعق وتراجع إلى الخلف. ثم ظهر ثانية بعد بضع ثوانٍ، وجاء ليُحيّينا. غمغم متوجِّهًا إلى صديقتي:

«أيّ انطباعٍ غريب يراودني إذ يدعونكِ بالسيِّدة كارّاتشي».

«وأنا أيضًا»، قالت ليلا، فأدهشتني، أنا والأخَوَين على حدّ سواء، بشبه ابتسامتها البهيجة وانعدام الجفاء كلِّيًا من لهجتها.

حدَّق إليها ميكيلي بإعجاب، ومال برأسه جانبًا كأنَّه يتأمَّل لوحة ما.

«لقد رأيناكِ»، قال، ثم وجَّه الكلام إلى جيليولا، «أليس صحيحًا

Telegram: Somrlibrary

يا جيليولا أنَّنا رأيناها مساء أمس؟»

هزّت جيليولا رأسها موافقةً بفتور. وأقرّ مارتشيلُّو أيضًا ـ رأيناك، أجل، رأيناك ـ لكن دونما سخرية كما فعل ميكيلي، بل كأنَّه مشدوه خلال عرضٍ للسحرة.

«مساء أمس؟» سألت ليلا.

«مساء أمس» أكّد ميكيلي، «في ريتيفيلو».

فقاطعه مارتشيلُّو، غاضبًا من نبرة أخيه:

«كنتِ معروضة على واجهة محلّ الخيَّاطة، ثمَّة صورة لك بفستان العرس».

تحدَّثوا عن تلك الصورة قليلًا، مارتشيلُّو برزانة، ميكيلي بتهكُّم، لكنَّهما تشاركا في الرأي ـ بإصرارٍ وصياغات متعدِّدة ـ وقالا إنّ الصورة تُظهر جمال ليلا في يوم زفافها بأبهى ما يكون. عارضتْهما، لكن بغنج، لم تخبرها الخيَّاطة بأنَّها قد تعرض الصورة على الواجهة، وإلّا لما أعطتها إيَّاها.

«وأنا أيضًا أريد أن تُعلَّق صورتي على الواجهة»، هتفت جيليولا من خلف المصطبة، وهي تقلِّد صوت طفلة غنوج.

«إن تزوّج بكِ أحد ما»، قال ميكيلي.

«تتزوّج بي أنتَ»، ردّت مقطَّبة الأسارير، وظلّ الوضع هكذا حتى قالت ليلا بجدِّيَّة:

«ولينوتشا تريد أن تتزوَّج أيضًا».

توجّه اهتمام الأخَوَين سولارا إليّ على مضض، إذ كنت خفيّة حتى تلك اللحظة، ولم ألفظ كلمة واحدة.

«ليس صحيحًا»، تضرّج وجهي خجلًا.

Telegram: Somrlibrary

«وكيف لا. أتزوّج بك أنا حتى لو كنتِ بأربع عيون»، قال ميكيلي، فرمقته جيليولا بنظرة لئيمة.

«تأخّرتَ كثيرًا، فهي مرتبطة مسبقًا»، قالت ليلا. وشيئًا فشيئًا، استطاعت أن تجرّ الأخَوَين سولارا إلى الحديث عن أنطونيو، وإمكان تدهور وضعه العائليّ إن التحق بخدمة السلاح. لم تفاجئني بقدرتها على صياغة الكلمات، فتلك أعرفها من قبل. إنّما فوجئتُ بالنبرة التي كانت تستخدمها، خليط من الوقاحة والحشمة، ممزوج بعناية فائقة. ها هي، فمها مضرّج بأحمر الشفاه. كانت توهم مارتشيلُّو بأنّها طوت صفحة الماضي؛ وتوهم ميكيلي بأنَّه يسلّيها بغروره الماكر. وكانت، أمام استغرابي الشديد، تستخدم عبارات المرأة الخبيرة بالذكور، لتظهر حينذاك كأنَّه لم يعد لديها شيء تتعلَّمه، بل كان في وسعها أن تعلّم هذه الحيل للآخرين: لم تكن تلقي حديثها كما كنَّا نفعل في طفولتنا، إذ نقلِّد النسوة الهائمات في الروايات، بل كان يبدو أنّ معارفها حقيقيَّة، وأنّ هذا الأمر لا يُثير حياءها البتَّة. تتقوقع فجأة، وتلوّح بما يدلّ على نفورها: أعلم بأنَّكما ترغبان فيَّ لكنَّني لا أرغب فيكما. ثم تنفتح ثانية لتشتِّت تركيزهما وتضع مارتشيلُّو في حيرةٍ من أمره، بينما يضطرب ميكيلي وتقدح عيناه شررًا، كأنَّه يقول: حذار يا سيِّدة كارّاتشي، أو مهما يكن اسمك، أن أُشبعكِ صفعًا أيَّتها العاهرة. وهكذا تعدّل ليلا نبرتها من جديد، وتعود إلى جذبهما إليها، وتتظاهر بالاستمتاع معهما فيستمتعان. والنتيجة؟ لم يختلّ توازن ميكيلي؛ أمّا مارتشيلُّو فقال:

«أنطونيو لا يستحقّ مساعدة، لكن كرمى للينوتشا لأنَّها فتاة طيّبة، سأسأل أحد الأصدقاء لعلّه يستطيع فعل شيء ما».

شعرتُ بالسعادة، وشكرته.

Telegram: Somrlibrary

اختارت ليلا المعجَّنات، وكانت لطيفة مع جيليولا وأبيها أيضًا، صانع الحلويات، إذ أطلّ برأسه من ستار المشغل ليقول لها: أبلغي ستيفانو سلامي. وحين اتَّجهتْ إلى الصندوق، أدلى ميكيلي بحركة نقيَّة تعبّر عن الرفض، فسانده أخوه وإن كان متردِّدًا. ثم اتَّجهنا للخروج، فإذا ميكيلي يقول لها بلهجة جدِّيَّة، بنبرته البطيئة التي يستعملها حين يريد شيئًا ما ويغلق أيّ باب للنقاش:

«تبدين جميلة جدًّا في تلك الصورة».

«شكرًا».

«يظهر حذاؤك فيها أيضًا».

«لا أذكر ذلك».

«أمَّا أنا فأذكر ذلك، لذا أردتُ أن أطلب منك شيئًا».

«أتريد صورة أنت أيضًا، هل تريد أن تعلِّقها هنا في المقهى؟»

حرّك ميكيلي رأسه بابتسامة باردة.

«لا. لعلَّك تعلم بأنَّنا نؤثِّث المحلّ في ساحة الشهداء».

«لا أعلم شيئًا بخصوص أعمالكم».

«حسنًا، ينبغي لك أن تستعلمي عنها، فهذه أمور في منتهى الأهمِّيَّة، ونعرف جميعنا أنَّك لست غبيَّة. أنا أفكِّر في أنّ الخيَّاطة إذا استغلَّت تلك الصورة لتروّج فستان العرس، فربّما في وسعنا أن نستخدمها بشكل أفضل في ترويج أحذية شيرولُّو».

انفجرتْ ليلا ضاحكة، وقالت:

«هل تفكِّر في تعليق الصورة على واجهة المحلّ في ساحة الشهداء؟»

«لا، بل أريد نسخة كبيرة منها، عملاقة، كي أعلّقها داخل المحلّ».

Telegram: Somrlibrary

فكَّرتْ في الأمر لبرهة، ثم تنهَّدتْ غير مكترثة.

«عليك أن تسأل ستيفانو، فهو الذي يقرِّر ولست أنا».

رأيتُ الأخَوَين يتبادلان نظرتين حائرتين، فأدركتُ أنَّهما قد تشاورا في الفكرة مسبقًا، وكانا يتوقَّعان أنَّ ليلا لن توافق، لذا لم يصدِّقا أنَّها لم تنفعل وتثور أو تسارع إلى الرفض والصدّ في اللحظة ذاتها، إنَّما كانت تسلّم لإرادة زوجها بلا نقاش. لم يعرفاها هكذا، حتى أنا استغربتُ منها هذا التصرُّف في تلك اللحظة.

رافقنا مارتشيلُّو إلى الباب، وحين أصبحنا في الخارج لجأ إلى لهجة راقية، وقال شاحب الوجه:

«هذه المرَّة الأولى التي نتحدَّث فيها بعد انقطاع طويل يا لينا، إنَّني متأثِّر جدًّا. لم نتزوَّج أنا وأنت، حسنًا؛ هذا ما جرى. لكنَّني لا أريد أن تبقى الأمور بيننا من دون توضيح؛ ولاسيَّما أنَّني لا أريد أن تحمّليني ذنبًا لم أرتكبه. أعرف أنّ زوجك يقول للناس إنَّني طالبت بذلك الحذاء كتعويض. لكنَّني أقسم لك، في حضور لينوتشا، إنّ ستيفانو وأخاك هما اللذان أهدياني الحذاء ليثبتا لي صفاء القلوب. أنا لا شأن لي».

بقيتْ ليلا تصغي من دون أن تقاطعه بحرف، ورفرفت على وجهها ملامح المجاملات. ثم ما إن أنهى كلامه حتى عادت إلى طبيعتها، وقالت باحتقار:

«أنتم كما الأطفال، يتّهم أحدهم الآخر».

«ألا تصدّقينني؟»

«بل أصدّقك يا مارتشيلُّو. كلّ ما في الأمر أنّ ما تحدَّثتَ به، وما يتحدَّثون به، أمر لم يَعُد يعني لي شيئًا».

Telegram: Somrlibrary

١٦

سحبتُ ليلا معي إلى فنائنا القديم، وكنت متلهِّفة لأنقل إلى أنطونيو ما فعلتُ لأجله. وقلتُ لها بحماسة: سأتركه ما إن يهدأ باله قليلًا؛ لكنَّها لم تعلِّق، وبدت شاردة الذهن.

ناديتُ أنطونيو فأطلّ برأسه، ونزل إلينا والجدِّيَّةُ ترتسم على محيّاه. حيّا ليلا على مضض من دون أن يلتفت لملابسها الأنيقة وزينتها المبهرجة، بل بذل جهده لينظر إليها أقلّ وقت ممكن. ربَّما خشي أن تقرأ في وجهه اضطرابًا لا يليق بالذكور. قلتُ له إنَّه لا وقت لديّ، لكنَّني أردتُ أن أزفّ إليه خبرًا سارًّا. أصغى إليّ جيِّدًا، غير أنَّه بدا مرتبكًا بينما كنت أتكلَّم، كأنَّه يواجه حدّ سكِّين مدبَّبًا. وعدني بأن يساعدك، شدَّدتُ على هذه النقطة بحماسة متأجِّجة، وطلبتُ تأكيدًا من ليلا:

«مارتشيلُّو قال ذلك، أليس صحيحًا؟»

اكتفت ليلا بالإيماء موافقة؛ في حين اصفرّ وجه أنطونيو، مركِّزًا نظره في الأرض. وغمغم بصوت مخنوق:

«لم أطلب منك أبدًا أن تتحدَّثي إلى الأخَوَين سولارا».

تدخَّلت ليلا كاذبة:

Telegram: Somrlibrary

«كانت فكرتي».

أجاب أنطونيو من دون أن ينظر إليها:

«شكرًا، لم يكن للأمر ضرورة».

ودّعها ـ ودّعها هي وليس أنا ـ وأدار ظهره واختفى خلف البوَّابة.

شعرتُ بألم في معدتي. فيمَ أخطأتُ؟ ولماذا جاءت ردّة فعله على هذه الشاكلة؟ وفي الطريق، فرّغتُ كلّ شيء على مسمع ليلا. قلت لها إنّ حالة أنطونيو كانت أسوأ من حالة أمِّه ميلينا، وقد أورثته اللوثة العقليَّة ذاتها. لم أعد أطيق هذا الوضع. وتركتني ليلا أسترسل في الحديث، ورافقتُها، على هذه الحال، حتى بنايتها. وحين وصلنا دعتني إلى الصعود.

«ستيفانو هناك»، اعترضتُ. لكنّ السبب لم يكن ذلك، كنت مضطربة من ردَّة فعل أنطونيو، وأريد البقاء بمفردي، لعلّي أفهم أين أخطأتُ.

«ابقي خمس دقائق وانصرفي».

صعدتُ معها. كان ستيفانو في لباس النوم، وشعره مهمل ولحيته مشعَّثة. صافحني باحترام، ورمت زوجته بنظرة، ثم نظر إلى كيس المعجَّنات.

«هل كنتِ في مقهى سولارا؟»

«أجل».

«بهذه الملابس؟»

«هل أبدو في مظهر سيِّئ؟»

حرّك ستيفانو رأسه بمزاج مكدّر. فتح الكيس.

Telegram: Somrlibrary

«هل تريدين قطعة يا لينو؟»

«لا شكرًا، سأذهب لتناول الغداء».

أخذ قطعة، واتَّجه إلى زوجته قائلًا:

«مَن رأيتما في المقهى؟»

«أصدقاءك»، قالت ليلا، «قدّموا إليّ أطيب التهاني. أليس كذلك يا لينو؟»

وروت عليه كلّ كلمة قالها الأخَوَان سولارا، ما عدا مسألة أنطونيو، أي السبب الأساسيّ لذهابنا إلى المقهى، كما بدا لي السبب الوحيد الذي رافقتْني لأجله. ثم ختمتْ بنبرة متأثِّرة عنوة:

«ميكيلي يريد أن يكبِّر الصورة ويعلِّقها في المحلّ في ساحة الشهداء».

«وهل قلتِ له إنَّك موافقة؟»

«قلت له إنَّه ينبغي له أن يتحدَّث معك».

ابتلع ستيفانو قطعة المعجَّنات مرَّة واحدة، ثم لحس أصابعه، وقال، كأنَّ هذا هو الشيء الوحيد الذي أغاظه:

«أترين ما الذي تجبرينني عليه؟ غدًا، بسببك، عليّ أن أذهب لأهدر وقتي مع الخيّاطة في الريتيفيلو». تنهّد، وتوجّه إليّ: «أنتِ يا لينو فتاة عاقلة، حاولي أن تُقنعي صديقتك بأنَّني أعمل في هذا الحيّ، ولا ينبغي لها أن تسوّد وجهي. أتمنَّى لك يوم عطلة سعيدًا. أبلغي أباك وأمّك سلامي».

وذهب إلى الحمّام.

تأفَّفت ليلا بازدراء خلف ظهره، ثم رافقتْني إلى الباب.

«إن أردتِ منِّي البقاء، بقيتُ»، قلت.

Telegram: Somrlibrary

«يا له من وغد. كوني مطمئنَّة».

افتعلتْ صوتًا مضخّمًا كصوت الذكور لتقلِّد زوجها: «*حاولي أن تقنعي صديقتك، لا ينبغي لها أن تسوّد وجهي*»، فاستعادت عيناها البهجة بهذا التقليد الساخر.

«وماذا لو ضربك؟»

«وما الذي سيحدث لي؟ يمرّ وقت قصير وأعود أفضل ممَّا كنت».

وعند العتبة قالت لي، وهي تقلِّد صوت ستيفانو مرَّة أخرى: «*يا لينو، عليّ أن أعمل في هذا الحيّ*». وحينها شعرتُ بأنَّني مجبرة على تقليد أنطونيو فهمستُ: «*شكرًا، لم يكن للأمر ضرورة*». وفجأة، بدا لنا كأنَّنا نرى أنفسنا من الخارج، كلٌّ منَّا تخوض مصاعب مع شريكها، واقفتين هناك في البناية نؤدِّي دورًا نسائيًّا بامتياز؛ فانفجرنا من الضحك. قلت لها: كلَّما تحرَّكنا خطوة أخطأنا، مَن في وسعه فهم الرجال ها؟ وكم من العذاب يسبِّبونه لنا. عانقتُها بقوَّة وغادرتُ. لم أكد أصل إلى آخر السلالم، حتى سمعتُ صوت ستيفانو يصرخ عليها بأقذع الكلمات. كان صوته حينئذ أشبه بصوت غول، كصوت والده تمامًا.

Telegram: Somrlibrary

١٧

كنت متوَجِّهة إلى البيت، حين ساورني قلق كبير عليَّ وعليها: ماذا لو قتلها ستيفانو؟ وماذا لو قتلني أنطونيو؟ شعرتُ بالذعر، فأسرعتُ خطواتي وسط ذلك القيظ المغبرّ والشوارع التي توشك أن تغادرها كلّ حركة، كما في كلِّ يوم أحد، وساعة الغداء توشك على الاقتراب. ما أصعب اتِّخاذ وجهة ما! ما أصعب توخِّي الحذر في عدم خرق القواعد الصارمة التي يسنّها الرجال! أهانت ليلا زوجها بالتبختر والغنج على مرأى الجميع، ربَّما بعد أن أجرت بعض الحسابات في سرِّها، أو لا لشيء سوى لنشر البلاء؛ هي السيِّدة كارّاتشي مع مارتشيلُّو سولارا الذي طلب يدها من قبل. أمَّا أنا، بلا قصد، بل على اقتناع بأنَّني أفعل خيرًا، فقد ذهبتُ لأرفع قضيَّة أنطونيو إلى ذينك الرجلين اللذين أساءا إلى أخته منذ عدَّة أعوام، وأشبعاه ضربًا سيّل الدماء من وجهه، وردّ عليهما بعنف مماثل ويزيد. حين دخلتُ الفناء، سمعتُ أحدًا يناديني فارتعدتُ. كان أنطونيو، ظلَّ على النافذة ينتظر عودتي.

نزل إليّ، فتملَّكني الخوف. فكَّرتُ: ربَّما يحمل سكِّينًا. لكنَّه تحدَّث إليَّ طوال الوقت ويداه غارقتان في جيبيه، كي يضبط أعصابه

Telegram: Somrlibrary

ويلتزم الهدوء، ويحافظ على مسافة بين نظراتنا. اتَّهمني بأنَّني تسبَّبتُ له بمذلَّة من أكثر شخصين يبغضهما في العالم، وجعلتُه يبدو رجلًا رخيصًا يرسل امرأته لتطلب معروفًا من الآخرين. قال إنَّه لن يركع لأحد، وعلى استعداد لخدمة العلم ألف مرَّة بدلًا من الواحدة، بل قد يموت في أثناء تأدية الجنديَّة بكلِّ سرور، على أن يقبِّل يد مارتشيلُّو. وقال إنّ باسكوالي وإنتسو، لو عرفا بالأمر، لبصقا في وجهه. وأضاف أنَّه سيتركني غير آسف عليّ، لأنَّه أخيرًا حصل على البرهان بأنَّني لا أهتمّ بأمره ولا بعواطفه. وقال إنَّني حرَّة في الكلام وفعل ما يحلو لي مع ابن سارّاتوري، وإنَّه لم يعد يودّ رؤيتي أبدًا.

لم أستطع أن أردّ عليه. فجأة، أخرج يديه من جيبيه، وسحبني إلى بهو البناية، ولثم ثغري ضاغطًا شفتيه على شفتيّ ولسانه يتغلغل يائسًا في فمي. ثم ابتعد عنِّي، وأدار ظهره ومضى.

صعدتُ السلالم مشتَّتةَ الفكر. فكَّرتُ في أنَّني محظوظة أكثر من ليلا، فأنطونيو لم يكن كستيفانو. لم يكن ليُلحق بي الأذى. كان قادرًا على إلحاق الأذى بنفسه فقط.

١٨

لم ألتق ليلا في اليوم التالي، لكنَّني أُرغمتُ على حين غرّة على لقاء زوجها.

ذهبت في الصباح إلى المدرسة، بإحباط لا يوصف. كان الطقس حارًا، ولم أحضِّر شيئًا في اليوم السابق، ولا نمت في الليل إلَّا قليلًا. مرَّت الساعات في المدرسة بشقِّ الأنفس. كنت قد بحثتُ عن نينو خارج المدرسة كي أصعد السلالم معه، لعلَّنا نتبادل جملة أو اثنتين، لكنَّه لم يكن موجودًا. ربَّما كان يتسكَّع في المدينة مع صاحبته؛ ربَّما كان معها في إحدى صالات السينما التي تفتح أبوابها صباحًا، يقبِّلها في جنح الظلام، ربَّما كان في غابة كابوديمونتي يرغمها على أن تفعل له ما فعلته لأنطونيو قبل أشهر. في الساعة الأولى، أجريتُ مذاكرة الكيمياء، فقدّمت إجاباتٍ مشوَّشة وناقصة، ومن يدري أيّ نتيجة سأنالها. لم يكن ثمَّة وقت للتفكير، كنت عُرضة لإعادة الامتحان في سبتمبر. صادفتْني غالياني في أحد الممرَّات، وألقتْ على مسمعي خطبة عصماء تُفيد بالتالي: ما الذي يحدث لك يا غريكو، لماذا توقَّفتِ عن الدراسة؟ لم أستطع أن أقول شيئًا سوى: إنَّني أدرس يا أستاذتي، أدرس جيِّدًا، أقسم لك على ذلك. أصغتْ إليّ قليلًا، ثم تركتني وحدي هناك واتَّجهت إلى قاعة الأساتذة. أجهشتُ ببكاء مرير

Telegram: Somrlibrary

في الحمّام، بكاءٍ أشفق فيه على نفسي من حياتي التي كانت تتدهور إلى حدٍّ فظيع: كنت خسرتُ كلّ شيء، نجاحاتي المدرسيَّة، وأنطونيو الذي لطالما أردتُ أن أهجره وفي النهاية تخلّى هو عنّي وكنت مشتاقة إليه حينذاك. وخسرتُ ليلا التي منذ غدتِ السيِّدةَ كارّاتشي، صارتْ، يومًا بعد يوم، تبدو لي امرأة أخرى. وبعد أن أضناني صداع في الرأس، عدت إلى البيت سيرًا على قدميَّ وأنا أفكِّر فيها، وأنَّها استغلَّتني ـ استغلَّتني أجل ـ لتستفزّ الأخَوَين سولارا وتنتقم من زوجها ليظهر أمام عينيّ رجلًا مجروحًا، فتساءلتُ خلال العودة: هل من المعقول أن يتغيَّر المرء إلى هذه الدرجة، إلى حدّ أن لا شيء بات يميِّزها من امرأة أخرى، مثل جيليولا مثلًا؟

حالما وصلتُ إلى البيت وقعت المفاجأة. لم تؤنِّبني أمّي كما تفعل عادة حين أتأخَّر، فتشكّ في أنَّني التقيتُ أنطونيو، أو حين أهمل ما أمرتني به من الأعمال المنزليَّة. بل قالت لي بعبوس رقيق:

«طلب منِّي ستيفانو أن أسمح لك بمرافقته ظهر اليوم إلى الخيَّاطة في الريتيفيلو».

ظننتُ أنَّني لم أفهم جيِّدًا، فقد كنت مشتَّتة الذهن بفعل التعب والإهانة. ستيفانو؟ ستيفانو كارّاتشي؟ يريد منِّي أن أرافقه إلى الريتيفيلو؟

«ولماذا لا ترافقه زوجته؟» قال والدي ممازحًا من الغرفة الأخرى. كان يتظاهر بالمرض، لكنَّه حريص دومًا على مراقبة بعض الشؤون السرِّيَّة. «كيف يُمضي الوقت هذان الاثنان؟ يلعبان ورق الشدّة؟»

انزعجتْ أمِّي. قالت له إنّ لينا قد تكون مشغولة بأمر آخر، وعلينا أن نتعامل بلطف مع آل كارّاتشي، ثم أضافتْ أن لا أحد يعجبه

Telegram: Somrlibrary

شيء. وفي الحقيقة، كان والدي في غاية السعادة: فالعلاقة الطيِّبة مع اللحَّام تعني أنَّنا سنستطيع الشراء بالدَّيْن، ونؤخِّر الدفع أكثر وقت ممكن. لكنَّه كان يحبّ أن يتظارف. وكان منذ زمن لا يفوِّت مناسبة إلَّا ويستغلُّها ليسخر من احتمال إصابة ستيفانو بخمول جنسيّ. فكان يسأل ونحن جالسون إلى المائدة بين الحين والآخر: ماذا يفعل كارّاتشي، هل يشاهد التلفاز فقط؟ ويضحك. ولا حاجة إلى الذكاء لفهم مغزى سؤاله: كيف يُعقل أنّ هذين الاثنين لا ينجبان الأطفال؟ هل ستيفانو يستطيع فعلها أم لا؟ وكانت أمِّي تجيبه، وهي الضليعة في تلقُّف هذه الرسائل: لا تستعجلِ الأمور، دعهما وشأنهما، ما الذي يعنيك في هذا؟ لكنَّها في الواقع، كانت تستمتع بتلميحاته عن عجز اللحَّام كارّاتشي، على الرَّغم من ثرائه.

كان الغداء جاهزًا على الطاولة، وكلُّهم في انتظاري كي يتناولوا الطعام. جلس والدي وهو يتنهَّد تنهيدة تنمّ عن مَكرِهِ، وتابع مزاحه متوجِّهًا إلى أمِّي:

«هل قلتُ لك يومًا: متأسِّف، إنَّني متعب هذا المساء، تعالي نلعب ورق الشدّة؟»

«لا، فأنت لست حسن السلوك».

«وهل تريدينني أن أصبح حسن السلوك».

«أجل، لكن لا تبالغْ».

«من هذه الليلة فصاعدًا، سأصبح حسن السلوك، مثل ستيفانو».

«قلت لا تبالغْ».

كم كنت أكره هذه الحوارات. كانا يتحدَّثان كأنَّهما متأكِّدان من أنَّني وإخوتي لن نفهم إشاراتهما؛ أو ربَّما كانا متيقِّنين من أنَّنا نفهم تلك التلميحات، ويعتقدان أنَّها أفضل طريقة ليعلِّمانا كيف يكون الذَّكَر

Telegram: Somrlibrary

ذَكَرًا والأنثى أنثى. كانت مشكلاتي تعصف بي حتى وددتُ أن أنفجر بالصراخ، وأرمي الطبق وأهرب، وألّا أرى عائلتي ولا الرطوبةَ في زوايا السقف، ولا تفسّخَ تلك الجدران، وألّا أشمّ رائحة ذلك الطعام؛ أن أهرب من كلّ شيء. أنطونيو. يا لغبائي حين أضعتُ أنطونيو! غلبني الندم سريعًا، وتمنّيتُ أن يسامحني. إن رسبتُ وتوجّب عليّ إعادة الامتحان في سبتمبر، قلت لنفسي، فلن أذهب، سأرسب عمدًا وأتزوَّج به فورًا. ثم خطرت ليلا في بالي ثانية. كم تغيَّرت نحو الأسوأ، ويا لتلك النبرة التي تحدَّثت بها إلى الأخوين سولارا. ما الذي كان يدور في رأسها؟ كم جعلها الألم والذلّ شرّيرةً! أمضيتُ الظهيرة كلّها في هذه الحال، تحت رحمة أفكار متلاطمة. حوض الاستحمام في بيتها الجديد، القلق من طلب ستيفانو، كيف أُخبر صديقتي به، ماذا يريد منّي زوجها. والكيمياء. وإيمبيذوكليس. والدراسة، والكفّ عن الدراسة. ألمٌ صاعق. لا مناصّ. أجل، لا أنا ولا ليلا كنّا لنصبح كتلك الفتاة التي جاءت لتنتظر نينو خارج المدرسة. كان ينقصنا شيءٌ غامض، لكنّه جوهريّ، ويبدو أنّ تلك الفتاة تملكه، عرفت ذلك بمجرّد رؤيتها من مسافة بعيدة؛ وذلك الشيء إمّا يكون لديكِ وإمّا لا يكون. ولا يكفي تعلُّم اللاتينيَّة والإغريقيَّة أو الفلسفة للحصول عليه، ولا تنفع أموال الملحمة، ولا الأحذيةُ، لنيله.

ناداني ستيفانو من الفناء، فهممتُ بالنزول. سرعان ما رأيت ملامح اليأس على وجهه. دعاني إلى مرافقته إلى الخيَّاطة لاسترجاع الصورة التي علَّقتها على واجهة محلّها من دون إذن. لطفًا منكِ، قال بأسلوب رقيق بعض الشيء. ثم أصعدني في سيَّارته المكشوفة من دون أن ينبس بكلمة، ومضينا والرياح الحارّة تجلدنا بشدَّة.

وما إن صرنا خارج الحيّ، حتى بادر بالكلام ولم يتوقَّف إلّا حين وصلنا إلى الخيَّاطة. تحدَّث بعامّيَّة لطيفة من دون كلمات جارحة أو

Telegram: Somrlibrary

لهجة استهزاء. بدأ كلامه طالبًا منّي معروفًا، لكنَّه لم يوضح لي ما هو هذا المعروف في الحال، واكتفى بالقول مراوغًا بأنَّني إذا أسديتُ إليه هذا المعروف، فكأنَّني أسديته إلى صديقتي. ثم أخذ يتحدَّث عن ليلا؛ كم هي ذكيَّة وجميلة. لكنَّها متمرِّدة في طبعها وأضاف، إمّا نفعل كما تريد وإمّا تعذِّبنا. ليس لديك فكرة عمَّا أعانيه يا لينو، أو ربَّما تعرفين كلّ شيء، لكنَّك تعرفين ما ترويه عليك لينا فقط. فاسمعيني إذن. لينا مصرَّة على فكرة أنَّني لا أفكِّر إلَّا في المال. قد يكون صحيحًا، لكنَّني أفكِّر في المال من أجل العائلة، من أجل أخيها وأبيها وكلّ أقربائها. هل أنا مخطئ؟ أنت فتاة متعلِّمة، فقولي إن كنت مخطئًا. ما الذي تريده منِّي، هل تريد أن تجرّني إلى الشقاء الذي تنحدر منه؟ هل الأموال من اختصاص آل سولارا؟ هل نترك الحيّ تحت سطوتهم؟ إن قلتِ أنت إنَّني على باطل، فأنا لا أجادلك، بل أقرّ حالًا بأنَّني على باطل. أمّا معها، فلا بدّ من أن أجادلها دومًا. لا ترغب فيَّ، أسمعتْني إيَّاها وكرّرتها مرارًا. أشعر كأنَّني أخوض حربًا لأفسِّر لها أنَّني زوجها، ومنذ تزوَّجتُ باتت حياتي لا تُحتمل. فأنا أراها في الصباح والمساء، وأنام إلى جانبها، فتخيَّلي كم هو سيِّئ أنَّني لا أستطيع أن أعبِّر لها عن مدى هيامي بها، ولا أستطيع استخدام ما أنا قادرٌ عليه.

نظرتُ إلى يديه الغليظتين اللتين تشدّان على المقود، ثم إلى وجهه. كانت عيناه تلمعان. اعترف بأنَّه ضربها في ليلة العرس، وأنَّه أُرغم على ذلك، بل إنَّها تستفزُّه صباح مساء عنوة كي تجعله يضربها لتحطّ من شأنه وتجبره على العنف، فيصبح ما لا يريد أن يكون في أيّ يوم من الأيَّام. اتَّخذ نبرة مرتعدة نوعًا ما: لقد أرغمتني على ضربها مجدَّدًا، لا يجدر بها الذهاب إلى الأخوين سولارا وهي في تلك الملابس. إنَّها تمتلك قوَّة باطنيَّة لا أقوى على هزمها. وهذه قوَّة شرِّيرة تعطِّل كلّ الوسائل الحَسَنة، تعطّل كلّ شيء. كالسمّ. أترين أنَّها لا

Telegram: Somrlibrary

تحبل؟ تمرُّ الأشهر ولا يحدث شيء. أقاربي، أصدقائي، والزبائن يسألونني بضحكة ساخرة: هل من جديد؟ فأضطر إلى الإجابة: أيّ جديد؟ متظاهرًا بأنَّني لم أفهم المقصود. لأنَّني لو فهمتُ جيِّدًا، فعليّ أن أجيب. وبمَ أجيب؟ ثمَّة أشياء تعرفينها ولا يسعك البوح بها. لينا، بتلك القوَّة الباطنيَّة، تقتل أطفالي وهم أجنَّة في أحشائها يا لينو، وتفعل ذلك عمدًا، كي يصدِّق الآخرون أنَّني لست فحلًا ولا أعرف التصرُّف معها، كي تسوّد وجهي أمام الجميع. ما رأيك؟ هل أنا أبالغ؟ ليس في وسعك أن تتخيَّلي حجم المعروف الذي تُسدينه إليّ بمجرَّد أنَّك تصغين إلى كلامي.

احترتُ بما أجيبه. كنت مشدوهة، فتلك هي المرَّة الأولى التي أسمع فيها رجلًا يتحدَّث عن نفسه بهذا الأسلوب. تكلَّم بعاميَّةٍ مشحونة بالعواطف ـ حتى عندما أشار إلى عنفه ـ والمأساويَّة، تشبه كلمات الأغاني. وإلى هذا اليوم، لا أفهم لماذا تصرَّف هكذا. طبعًا، ها هو يفصح عمَّا يريد. كان يريدني أن أتحالف معه لإقناع ليلا. قال إنَّها في حاجة ماسّة لتعي كم من الضروري أن تتعامل معه كزوجة، لا كعدوٍّ له. وطلب منّي أن أُقنعها بأن تساعده في الملحمة الثانية، وخصوصًا في الحسابات. لكنّه لم يكن مضطرًّا إلى ذلك الاعتراف كلّه كي يطلب ذلك الطلب. من الوارد أنَّه ظنَّ أنَّ ليلا قصّت عليّ كلّ شيء بالتفصيل، فرأى أنَّه لا بدّ من عرض روايته للأحداث؛ أو ربَّما لم يكن قد خطَّط للبوح الصريح لأفضل صديقة لزوجته، إنَّما أغرقته موجةُ العواطف فباح بكلِّ شيء؛ أو ربَّما افترض أنّه إذا استطاع أن يؤثِّر فيّ، فإنَّني أستطيع أن أؤثِّر في ليلا إذا ما نقلتُ إليها كلامه. من المؤكَّد أنَّني أصغيتُ إليه بتقبُّل كبير؛ فأحببتُ ذلك التسليم في ائتماني على أسرار حميميَّة شيئًا فشيئًا. لكنَّني أعترف بأنَّني أُعجبتُ بأهمِّيَّة مكانتي لديه خصوصًا. وحين أوضح بالكلمات ذلك الهاجس الذي كان يساورني منذ الطفولة، أي أنّ ليلا

Telegram: Somrlibrary

تمتلك قوَّة تجعلها قادرة على فعل أيّ شيء، بما فيه منع جسمها من الحمل، بدا لي كأنَّه ينسب إليّ قوَّة حميدة قادرة على هزم القوَّة الخبيثة التي تمتلكها ليلا، وهذا ما أغواني. نزلنا من السيَّارة، وبلغنا محلّ الخيَّاطة. شعرتُ بأنّ ذلك التقدير يواسيني حقًّا. ووصل بي الأمر إلى أن وعدتُه، باللغة الفصحى، بأنَّني سأفعل ما في وسعي كي أساعدهما ليكونا زوجين سعيدين.

وسرعان ما عاودني التوتُّر ونحن واقفان عند واجهة محلّ الخيَّاطة. توقَّفنا للنظر إلى صورة ليلا الموضوعة ضمن إطار بين الأنسجة متعدِّدة الألوان. كانت ليلا جالسة، وتضع ساقًا فوق ساق، وفستان العرس مرفوع بما يكشف حذاءها وكاحليها، وتسند ذقنها على راحة يدها. نظرتها جدِّيَّة ومكثَّفة وموجَّهة إلى العدسة بصفاقة، وتاج أزاهير البرتقال يشعّ من بين خصلات شعرها. كم كان المصوِّر موفَّقًا. شعرتُ بأنَّه التقط القوَّة التي كان ستيفانو يتحدَّث عنها؛ بدا لي أنَّها قوَّةٌ ليس في وسع ليلا نفسها أن تلجمها. استدرتُ كي أقول له بتأسُّف وإعجاب معًا: ها هو الشيء الذي كنت تتحدَّث عنه؛ لكنَّه دفع الباب وأفسح لي المجال للدخول.

تلاشى الأسلوب اللطيف الذي استخدمه معي، وتوجَّه إلى الخيَّاطة بنبرة قاسية. عرّف عن نفسه بأنَّه زوج لينا، قال ذلك حرفيًّا. وأوضح أنَّه هو أيضًا كان يعمل في التجارة، لكن لم يخطر في باله أن يقوم بالإعلان على هذا النحو. وقال أيضًا: حضرتكِ سيِّدة جميلة، تُرى ما رأي زوجك لو التقطتُ لك صورة ووضعتها بين جبن البروفولون وشرائح السلامي؟ ثم طلب منها أن تعطيه الصورة.

ارتبكت الخيَّاطة. حاولت أن تدافع عن موقفها، ثم لانت واستسلمت. لكنَّها عبّرت عن أسفها؛ ولتبرهن عن نزاهة مبادرتها وصدق أسفها، روت علينا ثلاث وقائع أو أربعًا، تحوّلت في الحيّ مع

Telegram: Somrlibrary

مرور السنوات إلى أسطورة مصغّرة. ففي الفترة التي علّقتْ فيها الصورة على الواجهة، جاء المغنّي الشهير ريناتو كاروزوني ليستعلم عن العروس الشابَّة، ثم تلاه أمير مصريّ، ثم المخرج الكبير فيتوريو دي سيكا وصحافيٌّ في صحيفة «روما» طلب التحدُّث إلى ليلا ليرسل إليها مصوِّرًا يصوِّرها في ثياب السباحة كملكات الجمال. أقسمت الخيَّاطة إنَّها لم تُعطِ العنوان أحدًا منهم، مع أنَّها رأت أنَّ رفضها غير لائق، وخصوصًا في حالة كاروزوني ودي سيكا، نظرًا إلى مكانَتي الشخصين.

انتبهتُ إلى أنّ ستيفانو كان يستعيد لطفه كلَّما تحدَّثت الخيَّاطة. أصبح ودودًا، وطلب من المرأة أن تقصّ عليه كلّ تفاصيل تلك الوقائع. وحين انصرفنا والصورة معنا، تبدَّل مزاجه، فكان مونولوج الإياب خاليًا من نبرة الأسى التي تميَّز بها مونولوج الذهاب. انتعشت أساريره، وراح يتحدَّث عن ليلا بخيلاء أولئك الذين يمتلكون غرضًا نادرًا يمنح صاحبه الأبَّهة والعظمة. ومع ذلك، أكَّد طلب المساعدة منِّي. وقبل أن يتركني قرب البيت، جعلني أقسم مرارًا إنَّني سأستخدم كلّ قدراتي لأُظهر لليلا درب الصواب ودرب الخراب. لكنّ ليلا في كلماته الأخيرة لم تعد ذلك الشخص العصيّ على السيطرة، بل أشبه بسائل ثمين مغلق في قنِّينةٍ من أملاكه. وفي الأيَّام اللاحقة، قصّ ستيفانو على مسامع الجميع عن كاروزوني ودي سيكا، وفي الملحمة أيضًا، حتى انتشر الخبر؛ وظلَّت نونتسيا، والدة ليلا، طوال حياتها، تردِّد وتعيد على الجميع أنّ ابنتها كان من الممكن أن تصبح مغنِّية وممثِّلة، وأن تظهر في فيلم «زواج على الطريقة الإيطاليَّة»، وتشارك في برامج التلفزيون، وربّما أصبحت أميرة مصريَّة، لو أنّ الخيَّاطة في شارع الريتيفيلو لم تكن كتومة إلى ذلك الحدّ، ولو أنّ القدَر لم يجعلها تتزوَّج بستيفانو كارّاتشي وهي بنت الستَّة عشر عامًا.

١٩

تكرَّمت عليّ أستاذة الكيمياء (بمساعي غالياني ربَّما) ومنحتني الحدّ الأدنى للنجاح. نجحتُ في كلِّ الموادّ الأدبيَّة بتسع علامات، وستّ علامات في الموادّ العلميَّة، والحدّ الأدنى في مادَّة التربية الدينيَّة، وثماني علامات للمرَّة الأولى في السلوك، إشارةً إلى أنَّ الراهب وقسمًا كبيرًا من هيئة التدريس لم يسامحاني على فعلتي يومًا. تأسَّفتُ لهذه النتائج المتردِّية، وبتّ أرى صدامي القديم مع أستاذ التربية الدينيَّة، بشأن دور الروح القدس، دليلًا على تبجُّحي، وندمتُ لأنَّني لم أسمع من ألفونسو الذي حاول أن يثنيني عن ثورتي حينئذ. وبالطبع، لم أحصل على المنحة الدراسيَّة، فغضبت والدتي، وصرخت بأنّ الذنب سببه الوقت الذي أضعته مع أنطونيو. استفزَّني كلامها، وقلت إنّني لم أعد أريد الدراسة. رفعتْ يدها لتصفعني، فخشيتْ أن تكسر نظّارتي الطبِّيَّة، وغادرت لتبحث عن مضرب الغبار. كانت أيَّامًا عصيبة، وتزداد سوءًا. والشيء الوحيد الذي بدا لي إيجابيًّا أنّ الآذن، غداةَ ذهبتُ لأتفقَّد الجداول، لحق بي وأعطاني طردًا تركته الأستاذة غالياني لي. كان الطرد يحتوي على كتب، لا روايات بينها: كتب تتمحور حول طرائق التفكير، الأمر الذي بدا دليلًا على ثقتها بي، لكنَّه لم يكن كافيًا ليرفع معنوياتي.

Telegram: Somrlibrary

كنت محاطة بشتّى أنواع القلق، فضلًا عن انطباعٍ بأنَّني سأخطئ في أيِّ شيء أفعله. بحثتُ عن صديقي السابق، في بيته وفي مكان عمله، لكنَّه كان بارعًا في تجنُّب اللقاء بي. مررتُ بالملحمة أطلب عون آدا، فتعاملتْ معي بفتور، وقالت إنّ أخاها لم يعد يودّ رؤيتي أبدًا، ومنذ ذلك اليوم، راحت تحيد نظرها عنّي إذا التقينا صدفة. وكان الاستيقاظ صباحًا في تلك الفترة بلا مدرسة يُتعبني، وبات أشبه بصداع مستمرّ ومؤلم. في البدء، أجبرتُ نفسي على قراءة بعض الصفحات من كتب غالياني، لكنَّني كنت أضجر سريعًا، وبالكاد أفهم شيئًا. فعدتُ إلى استعارة الروايات من المكتبة العامَّة، وقرأتها واحدة تلو الأخرى. لكنَّها لم تكن تكفيني في المدى الطويل، إذ كانت الروايات تفترض حياة مكثَّفة وحوارات عميقة وطيف حقيقة أكثر جاذبيَّة من حياتي الحقيقيَّة. وهكذا، كي أشعر بأنَّني لم أكن حقيقيَّة، توجَّهتُ إلى المدرسة أحيانًا آملة لقاء نينو الذي كان منشغلًا بالتحضير لامتحانات الكفاءة. وفي يوم امتحان اللغة الإغريقيَّة، انتظرته ساعات حتى نفد صبري. لكن، في اللحظة التي خرج فيها أوّل المرشَّحين، متأبِّطًا قاموس روتشي، ظهرتِ الفتاة الجميلة والنظيفة التي رأيتها تعرض فمها لقبلات نينو. توقَّفت لانتظاره، على بعد أمتار عنّي، وفي لحظة واحدة، رحت أتخيَّل أنّنا، نحن الاثنتين، سنظهر كتلك الوجوه المعروضة في أحد الجداول، أمام ابن سارّاتوري حين يخرج من البوّابة. شعرتُ بأنَّني قبيحة وقذرة، فمضيتُ بعيدًا.

هرعتُ إلى ليلا أبحث عن مواساتها، لكنَّني كنت متأكِّدة من أنَّني أخطأت معها أيضًا؛ لقد ارتكبتُ خطأً غبيًّا: لم أُخبرها بأنَّني ذهبت مع ستيفانو لاسترداد الصورة. لماذا سكتُّ عن الأمر؟ هل لأنَّني أحببتُ دور حمامة السلام الذي أوكله إليّ زوجها، وفكَّرتُ في أنَّني سأؤدِّيه

بشكل أفضل إذا أخفيتُ عنها ذهابي بالسيَّارة إلى الريتيفيلو؟ هل خشيتُ أن أخون ثقة ستيفانو، لأكتشف أنَّني خنت ثقتها؟ تساؤلاتٌ محيّرة. من المؤكَّد أنّ قراري لم يكن صادقًا، بل كان بالأحرى مُحاطًا بتردُّدٍ تحوّل إلى سهو مصطنع، عزَّز اقتناعي بأنّ إخفاء الأمر عنها، وإخبارها به لاحقًا، سيعقِّدان الموضوع أكثر، وربَّما لم يكن التأجيل مُجْديًا. ما أسهل الإيذاء. كنت أبحث عن تبريرات تقنعها، في حين أنَّني لم أكن مقتنعة بها أساسًا. كنت أكتشف خللًا عميقًا في تصرُّفاتي، وألتزم السكوت.

ومن جهة أخرى، لم تبدِ ليلا فضولًا لمعرفة شيء عن ذلك اللقاء. كانت ترحِّب بقدومي دومًا، وتسمح لي بالاستحمام في حوض الحمّام كالعادة، واستخدام مستحضرات التجميل الخاصَّة بها. كانت بالطبع تعلِّق، أو تكاد، على قصص الروايات التي أسردها عليها، وتفضِّل أن تحيطني علمًا بأتفه المعلومات عن حياة الممثِّلين والمغنِّين التي تصادفها في مجلَّات الموضة. ولم تعد تُطلعني على أيِّ فكرة من أفكارها، أو أيّ مشروع من مشاريعها السرِّيَّة. كانت تنظر إليّ باستهزاء، تشدّ كتفيها، ثم تنصرف كلَّما انتبهتُ لبعض الرضوض على جسمها، أو حاولتُ أن أستجوبها عن الأسباب التي تدفع ستيفانو إلى العنف؛ قلت لها إنّه غاضبٌ ربّما لأنَّه يودّ أن تكون سندًا له، وأن تعينه في كلّ معاركه. وفي غضون وقت قصير، اكتشفتُ أنَّها قرَّرت أن تسحب منِّي الثقة، على الرَّغم من أنَّها لم تفعل شيئًا من شأنه أن يهدم العلاقة بيننا. هل كانت تعرف بخصوص ذلك اللقاء حقًّا، وكفّت عن اعتباري صديقتها المخلصة؟ وصل بي الأمر إلى التقليل من زياراتي لعلَّها تشتاق إليّ وتعاتبني، حتى نتفاهم على كلّ شيء. لكنَّني شعرتُ بأنّ الموضوع لا يعنيها مطلقًا. فلم أقاوم، وعدت إلى لقائها

Telegram: Somrlibrary

باستمرار، الأمر الذي لم تُظهر حياله حزنًا ولا فرحًا.

في ذلك اليوم الحارّ من شهر يوليو، وصلتُ إلى بيتها مكسورة الجناح. ومع هذا، لم أحدِّثها بشيء عن نينو ولا عن رفيقته، لأنَّني من دون أن أدري ـ جميعنا يعرف كيف تسير هذه الأمور ـ عملتُ مثلها على تخفيض مستوى الثقة بيننا إلى أدنى الدرجات. استقبلتْني بحفاوة كالعادة. حضّرتْ مشروب اللوز المنعش، واسترخيتُ على الأريكة لأستمتع به في صالة الطعام، وقد أزعجني صرير السكك الحديديَّة، والعرقُ المتصبِّب منِّي، وكلُّ شيء.

راقبتُها بصمت وهي تتحرَّك في البيت، وحسدتُها على مهارتها في التجوُّل داخل أشدّ المتاهات ضيقًا ويأسًا، وهي تخفي في صدرها قرار الحرب بأسلوبٍ يجعل التكهُّن فيه أمرًا مستحيلًا. فكَّرتُ في ما قاله لي زوجها، وكلامه على قوَّتها الكامنة كأنَّها محرِّك آلة خطيرة. نظرتُ إلى بطنها، وتخيَّلتُ أنَّها تخوض حربًا ضارية، في أحشائها، كلّ يوم، وكلّ ليلة، لتفتك بالحياة التي كان ستيفانو يطمح إلى زرعها في رحمها. إلى متى ستصمد؟ تساءلتُ، ولم أجرؤ على طرح أسئلة واضحة، إذ كنت على يقين بأنَّها ستعتبر أسئلتي غير لائقة.

وبعد قليل، وصلتْ بينوتشا. بدت زيارتها زيارة عائليَّة شكليًّا. لكنْ، بعد عشر دقائق، انضمَّ رينو أيضًا، وأخذ يتبادل القبلات مع بينا تحت أعيننا بأسلوب مفرطٍ، جعلنا أنا وليلا نتبادل نظرات ساخرة. وحين قالت بينا إنَّها تودّ رؤية الإطلالة، لحق بها رينو وانعزلا في إحدى الغرف لنصف ساعة.

كان هذا يحدث غالبًا، حدَّثتني ليلا بالأمر بمزيج من السخرية والاستياء، فحسدتُ اندفاعهما: لا مخاوف تعترض دربهما، ولا إحراجَ يعتريهما. وحين عادا ثانية، كانا أكثر سعادة من قبل. ذهب

Telegram: Somrlibrary

رينو إلى المطبخ ليتسلّى بأكل شيء ما، وعندما عاد تحدَّث عن الأحذية مع شقيقته، وقال إنّ المشروع يسير بنجاح، وحاول أن يسرق منها بعض النصائح ليلقيها على مسامع الأخَوَين سولارا، فينال إعجابهما.

«هل تعرفين أنّ مارتشيلُّو وميكيلي يريدان تعليق صورتك في المحلّ في ساحة الشهداء؟» سألها بغتة بنبرة لئيمة.

«لا يبدو لي ذلك مناسبًا»، تدخَّلتْ بينوتشا على الفور.

«لماذا؟» سألها رينو.

«أيّ سؤال هذا؟ إن أحبّت لينا الفكرة، ففي وسعها تعليق صورتها في الملحمة الجديدة، أليست هي التي ستدير شؤونها؟ أمَّا إذا تولّيتُ إدارة المحلّ في ساحة الشهداء، فهلّا سمحتَ لي بأن أقرِّر أنا ما الذي يلائم ذلك المحلّ؟»

تحدَّثتْ كأنَّها تدافع عن حقوق ليلا ضدَّ مطامع رينو. وفي الحقيقة، كنَّا نعرف جميعًا أنَّها كانت تدافع عن نفسها ومستقبلها. لقد سئمت من التبعيَّة لستيفانو في كلّ شيء، كانت تريد الخروج من أجواء الملحمة ليطيب لها أن تتخيَّل نفسها مديرة محلّ في وسط المدينة. وهذا أشعل حربًا صغيرة، بين رينو وميكيلي لمدَّة، محورها إدارة محلّ الأحذية، وكانت خطيبتاهما توقدان سعيرها: رينو يصرّ على أن توكل الإدارة إلى بينوتشا، بينما يلحّ ميكيلي على تعيين جيليولا. غير أنّ بينوتشا كانت أشدّ نزقًا، ولم يكن لديها أيّ شكّ في هزم جيليولا، وكانت تعرف كيف تجمع بين صلاحيَّات خطيبها ومكانة شقيقها. لذا، لم تفوّت مناسبة إلَّا أظهرت فيها طباع من سبق وأحدث القفزة النوعيَّة، وطوت صفحة الحيّ خلفها، ومضت إلى الأمام تقرِّر ما كان مناسبًا من عدمه بما يتلاءم مع زبائن وسط المدينة.

Telegram: Somrlibrary

انتبهتُ إلى أنّ رينو كان يخشى هجمة مباغتة من جانب أخته، لكنّ ليلا لم تعر الموضوع أدنى اكتراث. فنظر إلى الساعة ليرينا أنَّه كان مشغولًا للغاية، وقال بنبرة من يمتاز ببعد النظر: «أرى أنّ تلك الصورة مفيدة من حيث مزاياها الترويجيَّة»، ثم قبّل بينا التي سرعان ما صدّته لترسل إشارات على عدم موافقتها، وانصرف.

بقينا نحن الفتيات وحدنا. سألتني بينوتشا مكفهرَّة الوجه، آملة أن تستخدم صلاحيَّاتي لتنهي المسألة:

«ما رأيك يا لينو؟ هل تجدين ضرورةً لتعليق صورة لينا في ساحة الشهداء؟»

فقلت بالإيطاليَّة الفصحى:

«على ستيفانو وحده أن يقرِّر، وما دام أنَّه ذهب عنوةً إلى الخيَّاطة لينتزع الصورة من على الواجهة، فإنَّني أستبعد أن يوافق على تعليقها هناك».

أشرق وجه بينوتشا بالرضا، وكادت تصرخ:

«يا إلٰهي، كم أنت شاطرة يا لينو»!

انتظرتُ أن تدلي ليلا بدلوها. ساد الصمت طويلًا، ثم توجَّهتْ إليّ وحدي بالكلام:

«بكم تراهنين أنَّك مخطئة؟ ستيفانو سيوافق».

«لا».

«بلى».

«بمَ تراهنين؟»

«إن خسرتِ الرهان فعليكِ أن تنجحي دومًا بمعدّلٍ أعلى من ثماني درجات».

نظرتُ إليها بحياء. لم نتحدَّث عن نجاحي المتواضع من قبل، بل كنت أظنّ أنَّها لا تعلم شيئًا عنه، لكنَّها كانت على دراية تامَّة. وها هي تؤنِّبني. لم تتفوَّقي، كانت تقصد بكلامها، وحصلتِ على نتائج متدنِّية. بمعنى آخر، كانت تطالبني بما يسهل عليها فعله لو كانت مكاني. كانت حقًّا تريد منِّي أن أمضي حياتي بين الكتب، في حين كانت تمتلك النقود وأبهى الملابس، وبيتًا وتلفازًا وسيَّارة. كانت تسمح لنفسها بكلِّ شيء، وتحصل على كلّ شيء.

«وإن خسرتِ أنت؟» سألتها بنقمة مبطَّنة.

انبثقت نظرتها المعهودة على حين غرَّة، وضيّقت عينيها كثقبين غامقين.

«إن خسرتُ، التحقتُ بمدرسة خاصَّة وعدت إلى الدراسة، وأقسم إنَّني سأنال الكفاءة معك، بل أفضل منك».

«معكِ وأفضل منكِ». هل هذا ما كان يدور في خلدها؟ شعرتُ بنفسي كأنَّ شهقة طويلة تبتلع كلّ الاضطرابات التي كانت تعصف بي خلال تلك الحقبة المشؤومة: أنطونيو، نينو، التعاسة من الفراغ الذي ينهش حياتي.

«هل تتكلَّمين جدِّيًا؟»

«منذ متى كان الرهان مزاحًا؟»

تدخَّلتْ بينوتشا بعدائيَّة واضحة:

«كفّي عن جنونك المعتاد يا لينا. لديكِ الملحمة الجديدة، لن يقوى ستيفانو على كلّ شيء بمفرده». وضبطتْ نفسها حالًا، وأضافت بلطف مزيّف: «فضلًا عن أنَّني أتوق لأصبح عمّة بمساعيك أنتِ وستيفانو».

وعلى الرَّغم من لجوئها إلى تلك العبارة المبهجة، فإنّ لهجتها

بدت لي حاقدة، وأحسستُ بأنّ أسباب ذلك الحقد تندمج بأسباب حقدي على نحوٍ أزعجني. كانت بينوتشا تقصد: لقد تزوَّجتِ، أخي يعطيك كلّ شيء، والآن عليك أن تفعلي ما يتوجَّب عليك فعله. وفعلًا، ما معنى أن تُكنّى بالسيِّدة كارّاتشي وهي توصد كلّ الأبواب، وتتمترس وتعاند، وتخزّن غيظها السامّ في بطنها؟ هل يعقل أنَّك مستعدَّة دومًا للتسبُّب بالضرر يا ليلا؟ متى ستتخلِّين عن هذا الطبع؟ هل ستنهار قواك، هل ستخور، هل ستسقط في النهاية كحارسٍ يغلبه النعاس؟ متى سيحدث أن تخرجي من القوقعة وتجلسي خلف الصندوق، في ملحمة الحيّ الجديد، وبطنك تنتفخ رويدًا رويدًا، وتمنحي لقب العمّة لبينوتشا؟ وأنا، أنا، متى تتركينني أمضي في حال سبيلي؟

«ومن يدري»؟ أجابت ليلا وعيناها تستعيدان ألقهما.

«قد أصبح أمًّا قبلك؟» قالت نسيبتها ضاحكة.

«هذا ممكن، إن بقيتِ ملتصقة برينو».

دخلتا في نقاش قصير، ولم أعد أصغي إليهما.

٢٠

رحت أبحث عن عمل صيفيّ كي أهدّئ روع أمّي. طرقتُ باب بائعة القرطاسيَّة بالطبع. رحَّبتْ بي كما يليق بآنسة في المدرسة أو بطبيب العائلة، ونادت بناتها الصغيرات اللواتي كنّ يلعبن في المستودع الخلفيّ، فهممن بعناقي وتقبيلي، وأردن أن ألاعبهنّ قليلًا. وحين أخبرتُها بأنَّني أبحث عن عمل قالت إنَّها مستعدَّة لإرسال بناتها إلى سي غاردن على الفور، من دون انتظار أغسطس. فما أحلى أن يقضين أوقاتهنّ بصحبة شابَّة طيِّبة وذكيَّة مثلي!

«على الفور، متى؟» سألتها.

«الأسبوع المقبل؟»

«جيِّد جدًّا».

«سأعطيك أجرًا أعلى من السنة الماضية».

وأخيرًا حصلتُ على خبر سارّ. عدت إلى المنزل سعيدة إلى درجة أنّ مزاجي لم يتكدَّر حين وصفتني أمّي بأنَّني محظوظة كالعادة، فالسباحة والاستجمام تحت الشمس ليسا عملًا حقيقيًّا.

استعدتُ حيويَّتي، وذهبتُ في اليوم التالي لزيارة المعلِّمة أوليڤييرو. كان يعزّ عليّ أن أخبرها بأنَّني لم أتفوَّق في المدرسة ذلك العام، لكنَّني كنت مضطرَّة إلى لقائها، لا بدّ من أن أذكِّرها ضمنيًّا بأن

Telegram: Somrlibrary

تؤمّن لي كتب المرحلة الثانية. كما كنت أظنّ أنَّها ستُسَرّ بفكرة أنّ ليلا، بعد أن وُفِّقتْ في زواجها وكان لديها وقت فراغ طويل، قد تعود إلى الدراسة. فأن أقرأ في عينيها ردّة فعلٍ على هذا الخبر أمر قد يساعدني على مسح آثار الإحراج الذي منيتُ به بسببها.

طرقتُ الباب أكثر من مرَّة، لكنّ المعلِّمة لم تفتح. سألتُ جيرانها، وسألتُ في الحيّ، وعدت بعد ساعة، لكنَّها لم تفتح أيضًا. لم يرها أحدٌ وهي خارجة، ولم يقابلها أحدٌ في شوارع الحيّ أو في متاجره. عدتُ أسأل الجيران، فهي امرأة وحيدة ومسنَّة ولا تتمتَّع بصحَّة جيِّدة. قرَّرت إحدى السيِّدات، التي تسكن قبالة المعلِّمة، أن تطلب عون ابنها. فتسلَّل الشابّ إلى الشقَّة من شرفة بيته الصغيرة إلى إحدى نوافذ بيت المعلِّمة. وجدها مرميَّة على أرض المطبخ، بلباس النوم وقد أُغمي عليها. استدعوا الطبيب، فقرَّر نقلها إلى المستشفى على جناح السرعة. أنزلوها محمولةً على الأذرع. ورأيتها بينما كانت تخرج من البوَّابة، وحالتها متدهورة ووجهها منتفخ، وهي التي كانت تأتي متأنِّقة إلى المدرسة يوميًّا. كانت عيناها ترتعدان. أشرتُ إليها بتحيَّة، فأخفضت بصرها. أراحوها في سيَّارةٍ انطلقتْ ببوقٍ متوحِّش.

لا بدّ من أنّ حرارة ذلك العام كان لها تأثير سلبيّ في الأجساد الضعيفة. عصر ذلك اليوم، سمعنا أبناء ميلينا ينادون أمّهم في الفناء بأصوات مضطربة وخائفة. وحين انتبهتُ إلى أنَّ أصواتهم تتعالى، قرَّرتُ أنَّ أذهب لأرى ما الذي كان يحدث، فالتقيتُ آدا مصادفة. قالت بانفعال، وعيناها تلمعان، إنّ ميلينا اختفت. وصل أنطونيو حالًا، متعبًا وشاحب الوجه. لم ينظر إليّ أبدًا، وركض بعيدًا. وسرعان ما انضمَّ نصف سكَّان الحيّ للبحث عن ميلينا، بمن فيهم ستيفانو الذي كان لا يزال يرتدي لباس العمل، فاستقلَّ سيَّارته وأركب آدا إلى جانبه، وراح يبحث بين الدروب بسيرٍ بطيء. أمَّا أنا، فلحقتُ

Telegram: Somrlibrary

بأنطونيو، وركضنا هنا وهناك من دون أن نتبادل كلمة واحدة، إلى أن وجدنا نفسينا في منطقة المستنقعات. ومشينا معًا بين الأعشاب الطويلة ونحن ننادي أمّه. كان وجهه منهكًا وقد ازرقّ ما حول عينيه. أمسكتُ يده، أردتُ أن أتضامن معه، لكنَّه صدّني. قال جملة كريهة: دعيني وشأني، فأنتِ لست أنثى. شعرتُ بألم يحرق صدري، ألم قويّ، لكنَّنا في تلك اللحظة نفسها عثرنا على ميلينا. كان وجهها وعنقها يبرزان فوق سطح المياه المخضرّة، وشعرها مبلَّلًا، وعيناها حمراوين، وشفتاها ملطَّختين بالوريقات والطين. كانت صامتة وهي التي اعتادت منذ عشرة أعوام على الصراخ أو الغناء كلَّما باغتتها لحظات الجنون.

اقتدناها إلى المنزل، أنطونيو يسندها من جانب، وأنا من الجانب الآخر. تنفَّس أهالي الحيّ الصعداء، وراحوا ينادونها وهي تلوِّح بيدها بصعوبة ردًّا للتحيَّة. رأيتُ ليلا قرب بوَّابة البناية، لم تشارك في البحث، ولا بدّ من أنَّ الخبر وصل إليها متأخِّرًا نظرًا إلى عزلتها في بيتها في الحيّ الجديد. كنت أعلم بوجود رابط قويّ يجمعها بميلينا، لكن ما أذهلني هو وجودها هناك على انفراد بملامح يصعب تفسيرها، بينما كان الجميع مسرورين، وآدا تركض وهي تهتف «أمّاه»، يتبعها ستيفانو الذي ترك سيَّارته وسط الشارع العام، مشرَّعة الأبواب، وكان سعيدًا كمن غاص في خواطر تثير التشاؤم، فإذا به يكتشف أنّ كلّ شيء على ما يرام. كانت ليلا تبدو متأثِّرة بالمشهد الأليم الذي تؤدِّيه الأرملة، المتَّسخة، بابتسامتها الواهنة وثيابها الخفيفة المصبوغة بالوحل والمياه، وتحت الثياب آثار جسد منهك، ويدها المرتخية التي تحيِّي الأصدقاء والمعارف، إضافة إلى أنَّها كانت تبدو مجروحة ممَّا ترى، بل مذعورة، كأنَّ صدرها يعيش ألم الأرملة أو يكاد. لوّحتُ بيدي لها فلم تردّ. أوكلتُ ميلينا إلى ابنتها، وحاولتُ التوجُّه إلى ليلا، أردت أن أحيطها علمًا بما جرى للمعلِّمة أوليفييرو أيضًا، وأن أخبرها عن جملة أنطونيو الكريهة، لكنَّني لم أجدها. كانت قد انصرفتْ.

Telegram: Somrlibrary

٢١

عندما التقيتُ ليلا ثانيةً، أدركتُ فورًا أنّها لم تكن بخير، وتميل إلى نقل سوء حالتها إليّ أيضًا. أمضينا أصبوحة في بيتها في أجواء مرحة في الظاهر. وفي الواقع، كانت تفرض عليّ، بلؤم متصاعد، أن أجرِّب كلّ ملابسها على الرَّغم من إصراري على أنَّها لا تليق بي. فتكشَّفَ المرح عن عذاب أليم. كانت أطول منِّي، وجسمها أكثر رشاقة من جسمي، وكلَّما جرّبتُ قطعة من ثيابها بدوتُ أضحوكة. لم تكن تريد أن تقتنع بذلك. كانت تقول إنَّه يكفي أن نعدِّل من هنا أو هناك، لكنَّها أخذت تعاملني بمزاج متكدِّر، كأنَّ مظهري يُنقص من قدرها.

وفي لحظة ما، صرخت: كفى، وارتسمت ملامح من شاهد شبحًا على وجهها ونظراتها. ثم استدركت واتَّخذت نبرة نزقة، لتقول لي إنَّها ذهبت لتناول المثلَّجات مساء أمس الأوَّل بصحبة باسكوالي وآدا.

كنت بملابسي الداخليَّة، أساعدها في ترتيب الثياب على المشاجب.

«مع باسكوالي وآدا؟»

«أجل».

Telegram: Somrlibrary

«وستيفانو أيضًا؟»

«أنا وحدي».

«هل هما اللذان دعواك؟»

«لا، أنا من طلب منهما».

ثم أردفت، كأنَّها أرادت أن تفاجئني، بأنَّها لم تكتفِ بتلك النزهة القصيرة التي كانت تقوم بها في مراهقتها، بل ذهبت في اليوم التالي لتناول البيتزا مع إنتسو وكارميلا.

«وحدك أيضًا؟»

«أجل».

«وماذا قال ستيفانو؟»

تنهَّدتْ بلامبالاة.

«الزواج لا يعني أن نعيش كالطاعنين في السنّ. إن أراد المجيء معنا فهذا جيِّد، أمَّا إذا كان يعود متعبًا في المساء فأخرج بمفردي».

«وكيف كان المشوار؟»

«استمتعتُ حقًّا».

أملتُ ألَّا تقرأ الانزعاج على وجهي. فنحن التقينا مرارًا، وكان في وسعها أن تقول لي: سأخرج هذا المساء مع آدا وباسكوالي وإنتسو وكارميلَّا، هلَّا أتيتِ معنا؟ غير أنَّها لم تخبرني بشيء، وقد نظَّمتْ تلك اللقاءات ودبَّرتْها بمفردها، سرًّا، كما لو أنَّهم لم يكونوا «أصدقاءنا»، بل هم أصدقاؤها فقط. وها هي تروي عليّ بالتفصيل، وبهناء تامّ، كلّ الأمور التي تحدَّثوا بها: آدا كانت قلقة بشأن أمِّها التي بالكاد تأكل شيئًا لتتقيَّأ ذاك القليل الذي أكلته؛ باسكوالي كان مضطربًا بشأن أمِّه، جوزيبينا، لأنَّها لا تستطيع النوم وتشعر بثقل في ساقيها وتعاني اختلاج

Telegram: Somrlibrary

القلب، وحين كانت تعود من زيارة زوجها في السجن كانت تنفجر بالبكاء ولا يواسيها أيّ شيء. بقيتُ أستمع. لاحظتُ أنَّها كانت متأثّرة في كلامها أكثر من المعتاد. تختار كلماتٍ مشحونة بالعواطف، وتصف ميلينا كابوتشو وجوزيبينا بيلوزو، كما لو أنَّ جسميهما تلبّسا جسمها ونقلا إليه أمراضهما وكلّ ما يعانيانه من أشكال الانقباض أو الغثيان. وبينما كانت مندمجة في سردها، تلمَّستْ وجهها ونهديها وبطنها وخاصرتيها كأنَّها تتأكَّد من انتماء أعضاء جسمها إليها؛ وبالتالي أظهرتْ معرفتها بكلٍّ ما تكابده تانك المرأتان، بأدقِّ التفاصيل، كي تثبت لي أنَّهما تُطلعانها على كلّ شيء، وأنَّ أيًّا منهما لا تبوح لي بشيء؛ أو كي تجعلني أشعر بأنَّني معزولة في غيمة ما ولا أعير اهتمامًا لآلام الناس من حولي. تحدَّثتْ عن جوزيبينا كأنَّها لم تغب عن عينها لحظة واحدة على الرَّغم من دوَّامة الخطوبة والزواج. وتحدَّثتْ عن ميلينا كما لو أنّ والدة آدا وأنطونيو كانت في بالها منذ الأزل، وأنَّها ملمّة بكلٍّ جوانب جنونها. ثم راحت تعدِّد عليّ شخصيَّات أخرى من الحيّ بالكاد أعرف أسماء أصحابها، بينما كانت تبدو على علم بحكاياتهم بفضل ما يشبه المشاركة عن بعد. وفي النهاية، صرّحت:

«تناولتُ المثلَّجات مع أنطونيو أيضًا».

فاستفاق ألمٌ في معدتي عند سماع هذا الاسم.

«كيف حاله؟»

«بخير».

«هل قال شيئًا عنِّي؟»

«لا، لا شيء البتَّة».

«متى يلتحق بالجيش؟»

«في سبتمبر».

Telegram: Somrlibrary

«أَلَمْ يفعل مارتشيلُّو شيئًا لمساعدته؟»

«هذا كان متوقَّعًا».

«متوقَّعًا؟ إن كان من المتوقَّع أنّ الأَخَوين سولارا لن يفعلا شيئًا، فلماذا أخذتِني إليهما؟ ولماذا تريدين أن تلتقي الأصدقاء ثانية، هكذا بمفردك مع أنَّك متزوِّجة؟ ولماذا تناولتِ المثلَّجات مع أنطونيو ولم تخبريني بشيء، مع أنَّك تعلمين بأنَّه صديقي السابق ولا يودّ رؤيتي بينما كنت أتلهَّف إلى لقائه؟ هل تريدين أن تنتقمي منِّي، لأنَّ زوجكِ اصطحبني بالسيَّارة ولم أخبركِ بكلمة واحدة عمّا تحدَّثنا عنه؟» ارتديتُ ثيابي بعصبيَّة، وقلت إنَّني تأخَّرتُ عن أمرٍ ما وعليّ الذهاب.

«عليّ أن أخبرك بشيء آخر».

قالت بجدِّيَّة إنّ رينو ومارتشيلُّو وميكيلي طلبوا من ستيفانو المجيء إلى ساحة الشهداء لتفقُّد تأثيث المحلّ؛ وحينذاك دعوه إلى رؤية الجدار الموازي للمدخل، بين أكياس الإسمنت وأوعية الطلاء والريشات، وقالوا له إنَّهم يفكِّرون في تعليق نسخة كبيرة عن صورتها بفستان العرس هناك تمامًا. أصغى ستيفانو إلى النهاية، ثم أجاب بأنَّها دعاية إعلانيَّة للأحذية لا غبار عليها، لكنَّها لا تبدو فكرة مناسبة. وأصرّ الثلاثة، فقال لا لمارتشيلُّو، لا لميكيلي، ولا لرينو أيضًا. باختصار، ربحتُ الرهان: لم يرضخ زوجها للأخوين سولارا.

فقلت وأنا أتظاهر بالحماسة مكرهة:

«أرأيتِ؟ وأنت لا تكفِّين عن انتقاد ستيفانو المسكين. وها أنذا على صواب، عليك أن تعودي إلى الدراسة».

«فلننتظر».

«ننتظر ماذا؟ الرهان هو الرهان، وأنت خسرتِ».

«فلننتظر»، ردَّدتْ ليلا.

Telegram: Somrlibrary

ازداد مزاجي تكدُّرًا. لا تعرف ماذا تريد، فكَّرتُ. كانت حزينة، لأنَّها لم تكن على صواب في ما يخصّ زوجها. أو ربَّما أبالغ، ربَّما تلقّت رفض ستيفانو بتقدير، لكنَّها ترغب في أن يتنازع الرجال بشأن صورتها، فأحبطها عدم إصرار الأَخَوين سولارا بما فيه الكفاية. رأيتها تمرِّر يدها بارتجاف على خاصرتها ثم على طول ساقها، كأنَّها لمسة الوداع، وظهر في عينيها ذاك الخليط من الألم والخوف والتقزُّز، والذي لاحظته عليها مساء اختفاء ميلينا. ففكَّرتُ: ماذا لو كانت تسعى سرًّا لتعليق صورتها حقًّا، صورة كبيرة في وسط المدينة، وكانت حزينة لأنّ ميكيلي أخفق في فرض رأيه على ستيفانو؟ ولمَ لا؟ تريد أن تتفوَّق في كلّ شيء، هذه طبيعتها، فهي الأجمل والأغنى والأكثر أناقة. ثم قلت لنفسي: وهي الأذكى بصورة خاصَّة. فساورني أسفٌ بغيض لاحتمال أن تعود إلى الدراسة حقًّا. كانت قادرة على تعويض كلّ ما فاتها من أعوام مدرسيَّة بلا شكّ. سأجدها قربي بلا شكّ، جنبًا إلى جنب، نُجري امتحان الكفاءة الثانويَّة. أحسستُ بأنَّني لا أطيق هذا الاحتمال؛ والأسوأ من هذا أنَّني اكتشفتُ هذا الإحساس في أعماقي. خجلتُ من نفسي، فاندفعتُ لأصف لها سعادتي لو عدنا إلى الدراسة معًا، وشدَّدتُ على أن تستعلم عن الإجراءات اللازمة. وحين أبدت عدم اكتراثها، قلت:

«عليّ أن أذهب الآن حقًّا».

لم تلحّ عليّ للبقاء هذه المرّة.

٢٢

كالعادة، وأنا أنزل السلالم، تفهمّتُ أسباب ليلا، أو بدا لي الأمر كذلك: فهي كانت منعزلة في الحيّ الجديد، متقوقعة في البيت الحديث، تتعرَّض لتعنيف ستيفانو، مشغولة بمعركة غامضة ضدّ جسمها للحيلولة من دون الحمل، وتحسدني على نجاحاتي المدرسيَّة، حتى إنَّها نوّهت بذلك الرهان المجنون إلى إمكان عودتها إلى الدراسة. ومن الممكن أنَّها كانت تراني حرَّة أكثر منها؛ وما انفصالي عن أنطونيو والصعوبات التي أكابدها في الدراسة سوى أهون المصائب بالنسبة إليها، إذا ما قورنتْ بما تعانيه يوميًّا. وشيئًا فشيئًا، وعلى غفلة منِّي، أحسستُ بأنَّني أكنّ تجاهها تعاطفًا مشؤومًا يتطوَّر إلى مرحلة التقدير المتجدِّد دومًا. وكيف لا؟ كم جميلٌ لو عادت إلى الدراسة! فهكذا نعود معًا إلى زمان المدرسة الابتدائيَّة، حيث كانت الأولى وأنا الثانية دائمًا؛ وتُعيد إلى الدراسة اعتبارها، فهي قادرة على ذلك؛ وأعاود أنا اللحاق بظلِّها فأشعر بالثقة والقوَّة. أجل، أجل، أجل. بداية جديدة.

وفجأة، وأنا أمشي صوب البيت، راود ذهني ما بدا لي خليطًا من الألم والرعب والتقزُّز الذي ساد وجهَها. لماذا؟ فكَّرتُ ثانية في جسد المعلِّمة المنهار وجسد ميلينا المضطرب. ورحتُ أركِّز النظر، من دون

Telegram: Somrlibrary

سببٍ يُذكر، في النساء اللواتي يمشين في الشارع العامّ. وشعرتُ على حين غرّة، بأنّ نظرتي محدودة الأفق: إذ كنت قادرة على تسليط الضوء على الفتيات فقط، كآدا وجيليولا وكارميلّا وماريزا وبينوتشا وليلا ورفيقاتي في المدرسة، وأنا نفسي؛ لكنّني لم أركّز من قبل في جسد ميلينا أو جسد جوزيبينا، وجسد نونتسيا شيرولّو، وجسد ماريّا كارّاتشي. فالجسد الأنثويّ الوحيد الذي حاز اهتمامي، وأثار مخاوفي بازدياد، كان جسد والدتي العرجاء، وكانت هذه هي الصورة الوحيدة التي أرّقتني وعذّبتني. وكم خشيتُ أن تطغى على مظهري بغتة. أمّا، في تلك المناسبة، فقد رأيتُ الأمّهات وربّات الأُسَر في الحيّ القديم بوضوح جليّ. كنّ عصبيّات وذليلات. يسكتن بزمّ شفاههنّ وحني أكتافهنّ، أو يشتمن أولادهنّ المشاكسين بأشنع الألفاظ وبصياحٍ شديد. كنّ يمشين بخطوات ثقيلة وأجساد هزيلة، وعيونٍ مستضعَفَة وعظام وجه ناتئة، ومؤخّراتٍ مفلطحة وكواحلَ منتفخة، والهمُّ يثقل صدروهنّ؛ يجرُرْنَ حقائب التسوُّق وأطفالُهنّ الصغار يتشبَّثون بأذيال تنانيرهنّ ويطالبونهنّ بحملهم بين أذرعهنّ. رحماك يا الله، كنّ يكبرنني بعشرة أعوام، أو بعشرين عامًا كحدٍّ أقصى. وعلى الرَّغم من هذا، يبدو أنَّهنَّ فقدن مزايا الأنوثة التي كانت شغلنا الشاغل، نحن الفتيات، فنسعى لإبرازها بالملابس والتبهرج. ويبدو أنّ أزواجهنّ وآباءهنّ وإخوتهنّ قد التهموا شخصيّاتهنّ إلى درجة أنَّهنّ تشرّبن طباع الرجال حتى صارت طباعَهنّ، أو ربَّما بسبب الفاقة أو دنوّ الشيخوخة أو استفحال المرض. متى تبدأ هذه التحوُّلات؟ وهل سببها الاستنزاف في أعمال المنزل؟ أم تبدأ مع الحمل؟ أم مع التعنيف الزوجيّ؟ هل ستتحوَّل ليلا لتصبح مسخًا عن أمّها؟ هل سيتآكل وجهها الناعم ليظهر فرناندو من بين أطلاله؟ هل ستصبح مشيتها الأنيقة كمشية شخص ذي

Telegram: Somrlibrary

ساقين غليظتين وساعدين متباعدين عن الجذع، كرينو مثلًا؟ وجسمي، هل سيتحطَّم يومًا ما لتبرز عليه ليست صفات أمِّي فحسب، بل صِفات أبي أيضًا؟ وما مصير كلّ ما كنت أتعلَّمه في المدرسة؟ هل سيتبخَّر مفسحًا المجال لطبائع أهل الحيّ وعاداتهم وعامِّيَّتهم الوضيعة؟ هل سيختلط كلّ شيء، بعضُه ببعض، في بوتقة سوداء، فينصهر الفيلسوف أناكسيماندر في والدي، والشاعرُ فولغوري في الدون آخيل، وتغرق القيم التكافُئِيَّة في المستنقعات، ويضيع أثر تصريف الأفعال الإغريقيَّة وأشعار هسيود لتطغى بذاءة الأَخَوَين سولارا وغطرستُهما، كما حدث بطبيعة الحال لهذه المدينة عبر آلاف السنين، ما جعلها عرضة للانحطاط والانحلال دائمًا؟

اقتنعتُ فجأة، من دون وعي، بأنّ أفكاري تقاطعت مع مشاعر ليلا، وأنّني كنت أضمُّها إلى مشاعري. أهذا ما جعل ذلك التعبير يهيمن على وجهها ويكدِّر مزاجها؟ هل لمست خاصرتها وساقها، كأنَّها تقول لنفسها وداعًا؟ هل كانت تتفحَّص جسمها، وهي تتحدَّث عن آلام جوزيبينا وميلينا، لتتأكَّد ممَّا إذا كانت حدود جسمها محاصرة بصفات تينك المرأتين، فارتعدتْ واشمأزّتْ؟ هل كانت تبحث عن أصدقائنا لحاجتها إلى استرداد الحيويَّة؟

تذكَّرتُ نظرتها، وهي صغيرة، تصوّب نحو أوليڤييرو التي سقطت عن الطاولة كدمية هشَّة. تذكَّرتُ نظرتها إلى ميلينا التي كانت تمضغ قطعة الصابون الطريّ في الشارع العام. تذكَّرتُها هي نفسها حين كانت تروي علينا مقتل الدون آخيل وسيلانَ دمائه في القِدر النحاسيَّة، وادِّعاءَها أنّ المجرم لم يكن رجلًا بل امرأة، كأنَّها شعرتْ ورأت، في الحكاية التي سردتها علينا، جسمًا أنثويًّا يتحطَّم بدافع الحقد، وبضرورة العدالة والانتقام، ليفقد خصائصه الجوهريَّة.

Telegram: Somrlibrary

٢٣

بدأتُ الذهاب مع الصغيرات إلى سي غاردن منذ الأسبوع الأخير من يوليو، كلَّ يوم بما فيها أيَّامُ الأحد. ووضعتُ في الحقيبة النسيجيَّة كثيرًا من الأغراض المفيدة لبنات بائعة القرطاسيَّة، إضافة إلى الكتب التي أعارتني إيَّاها الأستاذة غالياني، عبارة عن مجلَّدات صغيرة تُعنى بالتفكير في الماضي والحاضر، والعالم كما هو عليه وكما ينبغي له أن يكون. وكان الإنشاء يشبه إنشاء الكتب المدرسيَّة، لكنّه يفوقه في الصعوبة والأهمِّيَّة. لم أكن معتادة على مثل ذلك النوع من القراءات، لذا كنت أملّ بسرعة. فضلًا عن أنّ الطفلات في حاجة إلى اهتمام كبير؛ وكان البحر هائجًا، ووهج الشمس يسحق الخليج والمدينة، ناهيك بالرغبة في اللهو والتسلية، والميلِ الدائم إلى كسر رتابة السطور وأيّ نظام يتطلَّب بذل الجهد، وانتظارِ اكتمالٍ وشيك، والجنوحِ إلى ما كان في متناول اليد وسهل المنال، والحياةِ الطبيعيَّة لطيور السماء وحيوانات البرِّ ومخلوقات البحر. كنت أوشك على إتمام عامي السابع عشر، أتابع بعينٍ بنات البائعة، وبأخرى كتابَ «في منشأ عدم المساواة» لجان جاك روسُّو.

وذات يوم أحد، أغلقتْ يدا أحد ما عينيَّ، وسمعتُ صوتًا أنثويًّا. يسألني:

Telegram: Somrlibrary

«خمِّني من أنا!»

تعرَّفتُ إلى صوت ماريزا، وتمنَّيتُ أن يكون نينو معها. كم كان جميلًا لو رآني أزداد رونقًا بحرارة الشمس ومياه البحر، مشغولةً بقراءة كتاب صعب! هتفتُ مبتهجة: «أنت ماريزا» والتفتُّ بخفَّة. لكنّ نينو لم يكن هناك، كان معها ألفونسو حاملًا منشفة زرقاء على كتفيه، والولَّاعةَ والسجائر والمحفظة بين يديه، ويرتدي سروال سباحة أسود بعصبة بيضاء. كان ناصع البياض، كأنَّ الشمس لم تلسعه بأشعَّتها في حياته كلّها.

تعجَّبتُ لوجودهما هناك معًا، إذ كان ألفونسو قد رسب في مادَّتين وعليه إعادة الامتحان في أكتوبر، فكنت أتصوَّر أنَّه يدرس يوم الأحد ما دام يعمل في الملحمة كما جرت العادة. أمَّا ماريزا، فكنت أتخيَّل أنَّها تمضي الإجازة في بارانو بصحبة العائلة. لكنَّها قالت لي إنَّ أبويها تشاجرا مع نيلا صاحبة النزل في الصيف الماضي، فاتَّجها إلى ڤيلَّا صغيرة في كاستلفولتورنو برفقة زملاء والدها في صحيفة «روما»؛ وقد عادت هي إلى ناپولي منذ بضعة أيَّام فقط. كانت في حاجة إلى الكتب المدرسيَّة ـ لتستأنف دراسة ثلاث موادّ ـ ولا بدّ من أن تلتقي شخصًا ما. ابتسمتْ بغنج لألفونسو: كان هو ذلك الشخص.

لم أصمد طويلًا، فسألتها عن نتائج نينو في امتحانات الكفاءة، فتأفَّفتْ مستاءة.

«نجح بثماني علامات في جميع الموادّ، عدا مادَّتين حصل فيهما على تسع علامات. وما إن عرف النتيجة حتى انطلق بمفرده إلى بريطانيا، من دون قرش واحد. يقول إنَّه سيجد عملًا هناك، وسيبقى إلى أن يتعلَّم الإنكليزيَّة جيِّدًا».

«وماذا بعد؟»

Telegram: Somrlibrary

«لا أعرف. ربَّما يتسجَّل في كلِّيَّة التجارة والاقتصاد».

كان رأسي يلهج بألف سؤال، وكنت أبحث عن وسيلة لأسألها من تكون تلك الفتاة التي كانت في انتظاره خارج المدرسة، وإن كان قد انطلق بمفرده حقًّا أم معها، فإذا بألفونسو يقول مرتبكًا:

«ستأتي لينا أيضًا»، ثم أردف: «جاء بنا أنطونيو بالسيَّارة».

أنطونيو؟

لا بدّ من أنّ ألفونسو أحسّ بأنَّني اضطربتُ، واشتعل وجهي محمرًّا، وامتطى الذهول نظرتي غيرةً واشتياقًا. فابتسم، وسارع إلى القول:

«ستيفانو كان مشغولًا بتأثيث الملحمة الجديدة، ولم يستطع المجيء. لكنّ لينا كانت تتوق إلى رؤيتك لتقول لك شيئًا ما، لذا طلبت من أنطونيو أن يرافقنا».

«أجل، عليها أن تخبرك بأمر عاجل»، أكّدتْ ماريزا وهي ترفرف يديها ابتهاجًا، لتُريني أنَّها كانت على علم بذلك الأمر.

أيّ أمر؟ كان يبدو أمرًا جميلًا بالنظر إلى تعابير ماريزا وسماع نبرتها. لعلّ ليلا استطاعت أن تطيِّب خاطر أنطونيو، فقرَّر أن يعود إليّ. ربَّما استطاع الأخَوان سولارا التوسُّط في الناحية ليُعفياه من تأدية الخدمة. هذه هي الافتراضات التي بنيتُها حينذاك، وسرعان ما استبعدتُها حين رأيتهما يأتيان. فمن الواضح أنّ أنطونيو كان هناك لأنَّ الانصياع لليلا يعطي معنًى لعطلته الأسبوعيَّة الفارغة، فهو يرى التقرُّب منها نافعًا وضروريًّا. لكنّ وجهه لا يزال تعيسًا، وعينيه غارقتان في القلق. حيّاني بفتور. سألته عن والدته، فزوّدني بمعلومات مقتضبة. نظر حوله متضايقًا، وغطس في المياه مع الصغيرات اللواتي سُررن برؤيته كثيرًا. أمَّا ليلا، فكانت شاحبة الوجه ونظراتها متجهِّمة، ولم

Telegram: Somrlibrary

تضع أحمر الشفاه أيضًا. لم يبدُ لي أنَّها تحمل أنباءً عاجلة لتذيعها عليّ. جلستْ على الأرضيَّة، أمسكتِ الكتاب الذي كنت أقرأه، وتصفَّحتْه من دون أن تقول كلمة واحدة.

ارتبكت ماريزا حيال هذا الصمت الثقيل، وحاولتْ أن تستعرض حماستها لأيِّ شيء في الدنيا، ثم سئمتْ ولاذت بالسباحة هي أيضًا. اختار ألفونسو أبعد مكان ممكن عنَّا، وتسمَّر تحت الشمس مركِّزًا نظره في السابحين، كما لو أنّ مشاهدة الناس شبه العراة يسبحون في البحر عرضٌ ممتعٌ لا يُفوَّت.

«مَن أعطاك هذا الكتاب؟» سألتني ليلا.

«أستاذة اللاتينيَّة والإغريقيَّة في المدرسة».

«ولماذا لم تخبريني بهذا؟»

«لم أكن أعلم بأنّ هذا يهمّك».

«وهل تعلمين أنت ما يهمّني وما لا يهمّني؟»

لجأتُ إلى نبرة مسالمة على الفور، لكنَّني شعرتُ بضرورة الدفاع عن نفسي.

«سأعيرك إيَّاه حالما أنتهي منه. الأستاذة تعير هذه الكتب للتلاميذ المتفوِّقين. حتى نينو يقرأها».

«ومَن نينو هذا؟»

هل كانت تفعل ذلك عنوة؟ هل كانت تتظاهر بعدم تذكّر اسمه كي تقلِّل من شأنه في عينيّ؟

«ذاك الشابّ الذي ظهر في فيلم العرس؛ شقيق ماريزا؛ نجل سارّاتوري».

«الشابُّ القبيح الذي يعجبك؟»

Telegram: Somrlibrary

«سبق وقلت لك إنَّه لم يعد يعجبني، لكنَّه يفعل أشياء مثيرة للاهتمام».

«ماذا يفعل؟»

«إنَّه الآن في بريطانيا مثلًا. يعمل ويسافر ويتعلَّم الإنكليزيَّة».

تأثَّرتُ بمجرّد سرد تلخيص ماريزا. قلت لليلا:

«تخيَّلي لو كان في وسعنا أنا وأنت أن نفعل هذه الأمور. أن نسافر، وأن نعمل نادلات كي نحصل على قُوْتِ يومنا. نتعلَّم التحدُّثَ بالإنكليزيَّة أفضل من البريطانيين أنفسهم. لماذا يمكنه أن يفعل هذه الأمور، ونحن لا؟»

«هل أنهى دراسته؟»

«أجل، لقد حصل على الكفاءة. لكنَّه سيسجّل في الجامعة باختصاص في منتهى الصعوبة».

«هل هو متفوِّق؟»

«متفوِّق مثلك».

«أنا لا أدرس».

«بلى ستدرسين. لقد خسرتِ الرهان، وعليك أن تنكبِّي مجدَّدًا على الكتب».

«كفاك مزاحًا يا لينو».

«ستيفانو لا يريد؟».

«ثمَّة الملحمة الجديدة، وعليّ أن أُديرها».

«ستدرسين في الملحمة».

«لا».

«لقد قطعتِ وعدًا. قلتِ إنَّنا سنجري امتحان الكفاءة معًا».

Telegram: Somrlibrary

«لا».

«لِمَ لا؟»

مرَّرتْ ليلا يدها غير مرَّة على غلاف الكتاب كملمس المكواة.

«إنَّني حامل»، قالت. ثم أردفت، من دون أن تنتظر ردَّة فعلي: «كم أنَّ الطقس حارّ»، وتركت الكتاب واتَّجهتْ إلى حافَّة الأرضيَّة، ووثبتْ في المياه بلا تردُّد وهي تصرخ لأنطونيو الذي كان يلاعب ماريزا والصغيرات برشّ المياه: «أنقذني يا طوني».

جذَّفتْ بضع لحظات بذراعين مفتوحتين، ثم اصطدم وجهها بسطح المياه بسذاجة. لم تكن تعرف السباحة.

Telegram: Somrlibrary

٢٤

في الأيَّام اللاحقة، دخلتْ ليلا في مرحلة من النشاط المفرط. بدأت تنشغل في الملحمة الجديدة كأنَّها أهمّ شيء في العالم. كانت تستيقظ مبكرًا، قبل ستيفانو. تتقيّأ، تحضِّر القهوة، تتقيّأ ثانية. أصبح حريصًا عليها، ويعرضُ أن يوصلها بالسيَّارة، لكنّها ترفض وتقول إنَّها ترغب في التنزُّه، فتخرج في ساعات الصباح المنعشة، قبل أن يتدفّق القيظ، إلى الشوارع الخاوية وتجول بين البنايات حديثة التشييد، والمقفر أكثرها، حتى تصل إلى المحلّ الذي كان في طور التجهيز. كانت ترفع الستار المعدنيّ، تنظِّف الأرضيَّة المتَّسخة بالطلاء، وتنتظر العمّال وسائقي الشاحنات الذين يزوِّدون المحلّ بالموازين وآلات تقطيع اللحوم والأدوات الأخرى. وكانت تنسِّق معهم أماكن تثبيت المعدَّات، وتعمل بنفسها في تحريك الأشياء لتجرِّب أفضل الترتيبات وأكثرها عمليَّة. كان أولئك العمَّال رجالًا ضخامًا وأفظاظًا، وشبَّانًا أجلافًا، توجِّههم ليلا بالعصا فينصاعون لأهوائها من دون أيّ اعتراض. وكانت أحيانًا تُصدر بعض الأوامر وتنهمك بمفردها في أعمال مرهقة، فيصرخ عليها الرجال متخوِّفين: سيِّدة كارّاتشي؛ ويهرعون جميعًا لمساعدتها.

Telegram: Somrlibrary

ولم تكتفِ بالمحلِّ في الحيّ الجديد، على الرَّغم من ارتفاع الحرارة إلى درجة تسلب القوى، فكانت غالبًا ما ترافق نسيبتها إلى المحلّ الصغير في ساحة الشهداء، والذي يُدير تجهيزه ميكيلي بشكل عام، ورينو أيضًا الذي يشعر بأحقِّيَّته في متابعة الأعمال ما دام صانع أحذية شيرولو وصهر ستيفانو شريك الأَخَوَين سولارا. ولم تقف ليلا مكتوفة اليدين في ذلك المحلّ أيضًا. كانت تتفقَّد كلّ شيء، تصعد سلّم البنّائين، وتراقب الأجواء من الأعلى، ثم تنزل إلى الأسفل وتشرع في تغيير أماكن بعض الأغراض. في البدء أثارت استياء الجميع، وسرعان ما صاروا يرضخون على مضض واحدًا تلو الآخر. وبدا ميكيلي أكثر المتفهِّمين لنصائح ليلا المفيدة، بعد أن كان أكثرهم انتقادًا ساخرًا.

«يا سيِّدة»، يقول بازدراء، «تعالي وغيِّري تنظيم المقهى، وأدفع لك أجرك».

وبالطبع، لم تكن تفكِّر، ولو للحظة، في العمل في مقهى سولارا، لكنَّها بعد أن ارتكبت ما يكفي من الفظائع في ساحة الشهداء، انتقلت إلى مملكة عائلة كارّاتشي، الملحمة القديمة، ووضعت كامل يدها عليها. فرضتْ على ألفونسو أن يبقى في المنزل كي يتفرَّغ لتحضير الامتحانين اللذين رسب بهما، ودفعتْ ببينوتشا إلى المجيء غالبًا، مع أمِّها، لتُقحم أنفها في المحلِّ في ساحة الشهداء. وهكذا، صارت حياتها يومًا هنا ويومًا هناك. استطاعت أن ترتِّب الملحمة القديمة، بقسميها المتلاصقين، بطريقة جعلت العمل أيسر وأكثر مردودًا. وفي غضون وقت قصير، أثبتتْ أنّ وجود كلٍّ من ماريّا وبينوتشا كان اعتباطيًّا وبلا معنى، وعمدتْ إلى ترسيخ دور آدا، وضغطت على ستيفانو كي يرفع راتب الفتاة.

Telegram: Somrlibrary

وحين كنت أخرج في فترة العصر من سي غاردن وأُعيد البنات إلى أمّهنّ، كنت غالبًا ما أعرِّج إلى الملحمة لأطمئنّ على ليلا، وأتفحَّص بطنها في حال انتفخت أم لا. كانت عصبيَّة، ولون بشرتها لم يكن على ما يرام؛ ثم إنَّها كانت تتحفَّظ عن أسئلتي بشأن الحمل، أو تسحبني إلى الخارج وتمطرني بترّهات، مثل: «لا أريد الحديث عن الحمل. إنَّه مرض. أشعر بفراغ ثقيل ينمو في داخلي». ثم تلجأ إلى الكلام على الملحمتين، الجديدة والقديمة، والمحلّ في ساحة الشهداء بتقنيَّتها الحماسيَّة المعهودة، التي تجعلني أتخيَّل تلك الأماكن مسارحَ تجري على خشبتها أحداث عجيبة، وأنا، يا لخيبتي، كنت أفوِّتها.

لكنَّني بتّ ضليعة في حِيَلها، فكنت أصغي إليها ولا أصدِّقها، حتى لو كانت تستطيع إغوائي باستغلال طاقتها في أداء دور الخادمة والسيِّدة على حدّ سواء. وكانت في الوقت نفسه قادرة على الحديث معي ومع الزبائن ومع آدا، ولم تكن تخبو لوهلة، بل تقشّر وتقطّع وتقيس الوزن وتستلم النقود وتُرجع الباقي. كانت تبدِّد نفسها في الكلام وحركات اليدين، وتنهمك في العمل، وتبدو حقًّا كأنَّها تخوض حربًا بلا هوادة كي تتناسى ثقل ما كانت تعرّفه بعبارة متناقضة: «فراغ ينمو في داخلها».

ما أثار ذهولي أكثر كان خفَّة تعاطيها مع المال. كانت تذهب إلى الصندوق وتسحب منه ما تشاء. كان ذلك الصندوق يمثِّل المال بالنسبة إليها، ما يشبه صندوق الطفولة الذي يُفتح ليعرض ما يحتوي من كنوزَ وثراء. وفي حالات نادرة، حين تنفد النقود من الصندوق، كانت تكتفي بتوجيه نظرة إلى ستيفانو، الذي كان قد عاد، كما يبدو، إلى عطفه وسخائه كأيَّام الخطوبة؛ فيهرع إلى نزع المئزر والتفتيش في جيب بنطاله الخلفيّ ليُخرج محفظته المنفوخة، ويسألها: «كم يلزمك؟».

Telegram: Somrlibrary

وتشير ليلا بأصابعها إلى المبلغ، فيمدّ زوجها ذراعه اليمنى ويده المقبوضة، فتمدّ بدورها يدها الطويلة والناعمة.

وكانت آدا، من خلف المصطبة، تنظر إليها النظرة نفسها التي كانت تخصّها لمشاهدة نجمات السينما على صفحات المجلّات. وأعتقد أنّ شقيقة أنطونيو، في تلك الآونة، كانت تشعر بأنّها تعيش أحداث خرافة ما، إذ تلمع عيناها حين تفتح ليلا الصندوق وتعطيها بعض النقود. كانت ليلا توزّع النقود يمينًا ويسارًا ما إن يدير زوجها ظهره. أعطت آدا بعض النقود لتوصلها إلى أنطونيو الذي كان يستعدّ للالتحاق بالعسكريَّة؛ وأعطت باسكوالي حين اضطرّ إلى خلع ثلاث أسنان بشكل مستعجل. وفي أوائل سپتمبر، أخذتني على انفراد، أنا أيضًا، وسألتني إن كان يلزمني المال لشراء الكتب.

«أيّ كتب؟»

«كتب المدرسة، والكتب التي لا شأن لها بالمدرسة أيضًا».

قلت لها إنّ المعلّمة أوليڤييرو لم تعد من المستشفى بعد، ولم أكن متأكّدة من أنّها ستساعدني على تأمين الكتب المدرسيَّة كالعادة، بينما كانت ليلا تريد أن تُدخل النقود في جيبي. ابتعدتُ إلى الوراء، ورفضتُ. لم أكن أريد الظهور كإحدى الأقارب المضطرِّين إلى تسوّل المال. قلت لها إنَّه يجب انتظار بداية المدرسة، وإنَّ بائعة القرطاسيَّة قد مدَّدتْ مهمَّتي في سي غاردن إلى منتصف سپتمبر. وأخبرتها بأنَّني سأتقاضى مبلغًا أكبر من المعتاد، وقد أستطيع توفير ما يلزمني بمفردي. تأسَّفت ليلا، وألحّت على أن أتَّجه إليها في حال لم تقوَ المعلِّمة على تأمين الكتب.

وبالتأكيد، لست أنا وحدي من ساورته الشكوك جرّاء سخائها هذا، إذ رفض باسكوالي أيضًا تغطيتها تكاليف طبيب الأسنان، وشعر

Telegram: Somrlibrary

بالمذلَّة، ولم يقبل مساهمتها إلَّا بعد أن انتفخ وجهه والتهبت عينه، ولم تعد كمّادات الخسّ تُجدي نفعًا. وأنطونيو أيضًا أبدى انزعاجًا مماثلًا؛ توهَّم أنَّ المال الذي تعطيه صديقتنا لأخته كان بمثابة تعويض عن الراتب الشحيح الذي تتقاضاه من ستيفانو. كنَّا نادرًا ما نرى النقود، لذلك كنَّا نُعطي أهمِّيَّة للعشر ليرات أيضًا، والدليل أنَّنا كنَّا نُقيم حفلة إذا ما صادفنا عملة حديديَّة في الطريق. لذا، كان يبدو لنا أنّ ليلا تقترف إثمًا عظيمًا في توزيع المال، كما لو أنَّه معدنٌ صدئ لا قيمة له، أو ورقٌ بالٍ. كانت تجود بصمت، بإيماءة آمرة ناهية تشبه إيماءاتها حينما كانت تنظِّم الألعاب في طفولتها، وتوزِّع الأدوار؛ ثم تتطرَّق إلى الحديث في موضوع آخر، كأنَّها لم تقدِّم هبة منذ قليل. ومن جهة أخرى ـ كما قال باسكوالي بأسلوبه الغامض ـ المورتديلا والأحذية تُباع جيِّدًا، ولينا كانت وما زالت صديقتنا، تنحاز إلى صفِّنا، فهي حليفتنا، ورفيقتنا. وإن أصبحتْ غنيَّة، فهذا لأنَّها تستحقّ ذلك؛ أجل تستحقّ ذلك؛ فهي لا تحصل على المال لأنَّها صارت تُدعى السيِّدة كارّاتشي، وستكون أمًّا لابن اللحَّام، بل لأنَّها هي التي ابتكرت أحذية شيرولُّو؛ ولئن عمد الجميع إلى تجاهل هذه النقطة، فنحن أصدقاءَها لن ننسى أبدًا.

وهذا صحيح. فكم من الأمور نجحت بفضل ليلا في غضون سنوات قليلة! على الرَّغم من أنَّنا حينئذ كنَّا في السابعة عشرة، ولم نعد نعتبر جوهر الزمن مادَّةً سائلة، بل أصبح شكله كمادَّة صمغيَّة يلتفّ حولنا كما تدور القشدة الصفراء في آلة صنع المثلَّجات. تحقَّقتْ ليلا بنفسها من هذا التوصيف، وبنقمة عارمة، حين ظهرت أمامي فجأة في سي غاردن، حوالى الثالثة ظهرًا من يوم أحد كان البحر فيه هادئًا والسماء بيضاء. كان الحدث غريبًا حقًّا؛ إذ وصلتْ بمفردها بعد أن

Telegram: Somrlibrary

استقلّت المترو وحافلتين؛ وها هي قبالتي بلباس السباحة، ولون جلدها مائل إلى الاخضرار، وبعض البثور تعلو جبينها. «سبعة عشر عامًا خرائيَّة»، قالت بالعاميَّة، بمرح مزيَّف وعينين تطفحان بالسخرية.

تشاجرتْ مع ستيفانو. وصلت المحادثات اليوميَّة مع الأَخوَين سولارا إلى ضرورة إيجاد حلٍّ نهائيٍّ لمسألةٍ عالقة، ألا وهي إدارة المحلّ في ساحة الشهداء. حاول ميكيلي أن يفرض جيليولا، وكان رينو ساخطًا لأنَّه كان يدعم بينوتشا؛ ودخل في مفاوضات مرهقة للأعصاب مع ستيفانو، وكاد الشابَّان يتشاجران. فماذا حدث في النهاية؟ لا غالب ولا مغلوب شكليًّا. ستعمل جيليولا وبينوتشا «معًا» في إدارة المحلّ، شرط أن يتراجع ستيفانو عن قرار قديم.

«أيّ قرار؟» سأل.

«فلنرَ إن كنت تتكهَّن».

فشل في التكهُّن. طلب ميكيلي من ستيفانو، بنبرته المزدرية المعهودة، أن يوافق على تعليق صورة زوجته بفستان العرس؛ فرضخ زوجها هذه المرَّة.

«حقًّا؟»

«حقًّا. ألم أقل لك ما علينا سوى الانتظار. سيعرضوا صورتي داخل المحلّ. أنا من فاز في الرهان أخيرًا، وليس أنت. ادرسي جيِّدًا، فهذا العام عليك أن تُحرزي نتائج عالية».

ثم غيَّرتْ نبرتها، وتكلَّمتْ بجدِّيَّة. قالت إنَّها لم تأتِ من أجل الصورة. كانت تعلم منذ زمن بأنَّها ليست سوى بضاعة يتاجر بها ذلك الحقير. جاءت من أجل الحمل. حدَّثتْني عن هذا الموضوع طويلًا، بعصبيَّةٍ كأنَّها تدقّ شيئًا ما بالمهراس، وكانت واجمة وصارمة. لا معنًى للحمل، قالت وبرز الهمّ على وجهها. الذكور يُدخلون قضبانهم في

جوفكِ، فتصبحين أشبه بعلبةٍ من لحم، وفي داخلك دمية حيَّة. أشعر بالدمية، إنَّها هنا، وتُثير اشمئزازي. أتقيَّأ باستمرار، وبطني نفسها لا تحتمل هذا العبء. أعلم بأنَّه يجدر بي التفكير في أمور جميلة، وأنَّني ملزمة ببذل ما بوسعي للتصالح مع هذا الأمر، لكنَّني لا أستطيع، لا أرى أيّ داعٍ لهذا ولا أيّ جانب جميل. ناهيك بأنَّني لا أشعر بالقدرة على العنايةً بالأطفال. أمَّا أنتِ فبلى، يكفيني أن أرى كيف تعتنين ببنات بائعة القرطاسيَّة. أنا لم أُولد بهذه الميزة.

أحزنتْني بهذا الكلام. بِمَ عساني أجيبها؟

«لا برهان على امتلاكك هذه الميزة أم لا. ما عليك سوى أن تجرِّبي»، حاولتُ أن أطمئنها، وأشرتُ إلى بنات البائعة اللواتي يلعبن بالقرب من هناك، «اجلسي معهنّ قليلًا، وتكلّمي معهنّ».

ضحكتْ، وقالت بلؤم إنَّني تعلَّمتُ صياغة الكلام المعسول ككلام أمَّهاتنا. لكنَّها حاولتْ بعد ذلك، محرجةً، أن تتكلَّم مع البنات، ثم انسحبتْ وعادت إليّ. فابتعدتُ عنهنّ، وأجبرتها على الانشغال بليندا، أصغر بنات البائعة. قلت لها:

«هيَّا، حاولي أن تلعبي معها لعبتها المفضَّلة، ليندا تحبّ أن تشرب من المياه التي تتدفَّق من صنبور النافورة هناك، أو أن ترشّ الماء حولها بالضغط بإبهامها على الصنبور».

رافقتْ ليندا على مضض، وهي تمسك بيدها. ومرّ بعض الوقت ولم تعودا. قلقتُ بشأن الصغيرة. ناديت الطفلتين، وذهبنا لنرى ما الذي حدث. كلّ شيء على ما يرام، حازت ليندا كامل اهتمام ليلا وأسعدت الأخيرة بهذا. كانت تحمل الطفلة فوق الصنبور لتشرب أو ترشّ الماء حولها. وكانت ضحكاتهما تصدح بالفرح.

تنفَّستُ الصعداء. تركتُ الطفلتين معها، وذهبتُ لأجلس في البار،

Telegram: Somrlibrary

في زاوية تسمح لي بالقراءة ومراقبتهنّ جميعًا في آنٍ واحد. وفكَّرتُ وأنا أنظر إلى صديقتي: ستصبح هكذا بلا شكّ. فما كان يبدو لها عسيرًا بات يملأها فرحًا. ربَّما كان عليّ أن أقول لها إنّ الأشياء التي لا معنًى لها هي أجمل الأشياء على الإطلاق. يا لها من جملة مُحكمة، ستعجبها حتمًا. هنيئًا لها على حصولها على كلّ الأشياء ذات الأهمِّيَّة.

حاولتُ أن أتابع أفكار روسّو سطرًا سطرًا، ثم رفعتُ بصري، ورأيتُ أنّ شيئًا ما لم يكن كما يجب. صياح. ربَّما كان غنج ليندا الزائد، ربَّما دفعتها أختها، ولا بدّ من أنَّها أفلتت من يدَيْ ليلا فارتمت واصطدم ذقنها بحافَّة الحوض. هرعتُ مذعورة. وما إن رأتني ليلا حتى سارعت إلى الصراخ بنبرة صبيانيَّةٍ لم أسمعها تنطق بها يومًا، ولا حتى عندما كانت صغيرة:

«أختها هي التي دفعتها، ولست أنا».

كانت تحمل ليندا بين ذراعيها، والطفلة تبكي وتصيح والدماء تقطر من وجهها؛ بينما كانت الطفلتان تنظران إلى جهة أخرى وتتحرَّكان بانفعال وابتسامة متشنِّجة، كما لو كان الأمر لا يعنيهما، أو لا تسمعان ولا تبصران.

انتزعتُ الطفلة من بين ذراعيها، وانحنيتُ بها نحو تدفّق المياه، ومسحتُ وجهها بلمسات كفٍّ غاضبة. فظهر خدش أفقي أسفل ذقنها. سأخسر مكافأة البائعة، فكَّرتُ، وستغضب أمِّي. ركضتُ نحو المنقذ، فهدّأ الطفلة بمداعبات رقيقة، ثم وضع الكحول على الجرح، في غفلة منها، ما جعلها تصيح من جديد. وثبّت لاصقًا طبِّيًّا على ذقنها، وعاد يهدِّئ روعها. لا خطر في المحصّلة. اشتريتُ المثلَّجات للبنات الثلاث، وعدتُ إلى الأرضيَّة الرخاميَّة.

وكانت ليلا قد انصرفت.

Telegram: Somrlibrary

٢٥

لم تبدُ بائعة القرطاسيَّة مصدومة إلى حدّ كبير بجرح ليندا، لكنْ حين سألتها إن كان عليّ المرور في اليوم اللاحق في الموعد المعتاد لاصطحاب البنات، أجابتني بأنّ صغيراتها سبحن بما فيه الكفاية خلال ذلك الصيف، وبالتالي لا حاجة إليّ بعد الآن.

أخفيتُ على ليلا أنَّني خسرتُ العمل. وهي لم تسألني أبدًا كيف جرت الأمور في ما بعد، ولا عن أحوال ليندا وجرحها. وعندما التقيتُها ثانية، كانت منهمكة في افتتاح الملحمة الجديدة، وتركتْ لديَّ انطباعًا بأنَّها كأولئك الرياضيِّين الذين يقفزون على الحبل بهيستيريا متزايدة في أثناء تدريبهم.

أخذتني معها إلى المطبعة، حيث طلبتْ نسخ عدد كبير من المنشورات الصغيرة التي تعلن افتتاح المحلّ الجديد. وأرادت منِّي أن أذهب إلى القسّ ليحدِّد موعدًا لمجيئه كي يبارك المكان والبضاعة. وأخبرتني بأنَّها عيّنتْ كارميلّا بيلوزو براتب يفوق كثيرًا ما كانت تتقاضاه عند الخيَّاطة. وحدَّثتني بأنَّها كانت تخوض حربًا على كلّ شيء، تمامًا على كلّ شيء: حربًا ضارية ضدَّ زوجها وبينوتشا وحماتها وشقيقها رينو. لكنَّها لم تبدُ لي عدائيَّة جدًّا. كانت تتكلَّم بصوت

Telegram: Somrlibrary

منخفض، بالعامِّيَّة دومًا، وفي الوقت نفسه تقوم بأمور أخرى كثيرة أهمّ من موضوع كلامها على ما يبدو. عدّدتِ المساوئ التي كان أهلها وأقرباؤها الجدد قد ارتكبوها بحقّها وما زالوا يرتكبونها. «أَرضوا ميكيلي» قالت، «كما أرضوا مارتشيلّو. يستخدمونني لمصالحهم. أنا بالنسبة إليهم غرض ولست إنسانًا. نعطيهم لينا، نعلّقها على الجدار، فهي صِفرٌ في النهاية، صِفرٌ لا قيمة له». كانت عيناها تلمعان وتهتزّان وهي تتحدَّث، واكتسب ما حول عينيها لونًا بنفسجيًّا، وكانت بشرتها متشنِّجة جدًّا عند صدغيها، وتكشف عن أسنانها بومضات وابتسامات قصيرة ومتوتِّرة. لكنَّها لم تُقنعني. كان يبدو لي أنّ خلف هذا النشاط الهائج شخصًا يقسو على نفسه بحثًا عن مَخرجٍ من محنته.

«ما الذي تنوين فعله؟» سألتها.

«لا شيء، لكنَّني أعلم بأنّ عليهم أن يقتلوني قبل أن يفعلوا ما يشاؤون بصورتي».

«دعي ذلك يا ليلا. فكِّري في إيجابيَّات المسألة. الممثِّلات وحدهنّ مَن تُعلّق صُوَرهنّ».

«وهل أنا ممثِّلة؟»

«لا».

«إذن؟ إن كان زوجي قد قرَّر أن يبيع نفسه لأبناء سولارا، فهل يحقّ له أن يبيعني أنا أيضًا؟»

حاولتُ أن أُطمئنها. كنت أخشى أن يفقد ستيفانو صوابه ويضربها. وحين أعربتُ لها عن مخاوفي، ضحكتْ بشدَّة: فمنذ أن عرف زوجها أنَّها حامل، لم يجرؤ حتى على صفعها. إلَّا أنّ الشكوك ساورتني، وهي تقول تلك الجملة تحديدًا، واعترفت بأنَّها كانت تستخدم تلك الصورة ذريعةً، وأنَّها كانت تنوي في الحقيقة استفزازهم

Telegram: Somrlibrary

جميعًا، ليجتمعوا كلّهم على قتلها: ستيفانو والأخَوان سولارا ورينو أيضًا. تستفزّهم إلى درجة أن يساعدوها على محو ألمها ومعاناتها بضرباتهم؛ أي أن يزيلوا ذلك الشيء الحيّ الذي ينمو في بطنها.

وحصلتْ شكوكي على ما يؤكِّدها في المساء الذي افتتحت فيه الملحمة الجديدة. ارتدتْ ليلا أسوأ ثياب لديها؛ وعاملتْ زوجها أمام الجميع كما لو كان عبدًا عندها. وصرفت القسّ، الذي طلبت منِّي أن أدعوه، قبل أن يبارك المحلّ، بل دسّتْ في يده بعض النقود باحتقار شديد. ثم عرّجتْ إلى تقطيع اللحم المقدَّد وحشو الشطائر وتوزيعها مجّانًا على الراغبين مع كأس نبيذ أيضًا. وكان لخطوتها هذه أثرٌ جيِّدٌ، إذ سرعان ما ازدحمت الملحمة التي افتُتحت للتوّ، الأمر الذي باغتها هي وكارميلًا، وفاجأ أيضًا ستيفانو الذي كان قد ارتدى ثيابًا أنيقة، فاضطُرَّ إلى الانغماس في العمل، بلا مئزر، ليساعدهما على تلبية طلبات الزبائن.

وحين عادا إلى البيت منهَكَيْن، راح زوجها يلومها على ما فعلتْ به، فجرّبتْ ليلا كلّ السبل كي تزيد في غيظه غيظًا. صرخت في وجهه قائلة إنَّه ارتكب خطأً فادحًا إذا كان يتوهَّم أنَّه اختار امرأة لا همّ لها سوى تقديم طقوس الطاعة. وأضافت أنَّها ليستْ أمّه ولا أخته، ولن يلقى منها سوى المقاومة. وانتقلتْ إلى الحديث عن الأَخَوَين سولارا، ومسألة الصورة، فأهانته شرّ إهانة. تركها ستيفانو تفرّغ ما عندها، ثم ردّ بأقذع الشتائم، لكنّه لم يضربها. وفي اليوم التالي، حين أخبرتني بما جرى، قلتُ لها إنّ ستيفانو، بغضّ النظر عن أخطائه، فهو يحبُّها كثيرًا، ولا شكّ في مودَّته لها. لكنَّها نفتْ كلامي. «لا يودّ إلَّا هذا»، أجابت وهي تحكّ إبهامها بسبّابتها. وفعلًا، فإنّ الملحمة الجديدة حظيتْ بنجاح ملحوظ في الحيّ الجديد كلّه، واكتظَّت بالزبائن منذ

Telegram: Somrlibrary

صباح اليوم التالي. «الصندوق يغصّ بالمال، وهذا بفضلي. أحمل له مالًا وبنين، فماذا يريد أكثر من ذلك؟»

«ماذا تريدين أنت أكثر من ذلك؟» سألتها بنبرة لا تخلو من الغضب، فوجئتُ بها بنفسي، فعمدتُ إلى ابتسامة على الفور آملة أنَّها لم تنتبه إلى غضبي.

أذكر أنَّها عبّرتْ بملامح مشتَّتة، تلمَّستْ جبينها بأصابعها. ربَّما لم تكن هي نفسها تعلم بما تريد، وتشعر بأنَّها لا تقوى على إيجاد السَّكِينة.

وبحجَّة الافتتاح الآخر، أي افتتاح المحلّ في ساحة الشهداء، باتت ليلا لا تُطاق. وربَّما أبالغ قليلًا في هذا الوصف. فلنقل إنَّها كانت تفرّغ اضطرابها الداخليّ في وجوه الجميع، ولم يسلم أحد من ذلك بمن فيهم أنا. فمن جهة، كانت تقلب حياة ستيفانو جحيمًا، وتتشاجر مع حماتها ونسيبتها، وتذهب إلى رينو فتتشاجر معه أمام العمَّال، وعلى مرأى فرناندو الذي كان ينكبُّ على شغله متظاهرًا بأنَّه لم يسمع شيئًا؛ ومن جهة أخرى، كانت هي نفسها تشعر بأنَّها تذوب في دوَّامة غضبها من دون أن تستسلم، وأحيانًا كنت أجدها في ملحمة الحيّ الجديد، في اللحظات النادرة التي تكون فيها خاليةً من الزبائن، أو لا تكون مشغولة مع موزِّعي البضائع، فتكون في حالة ذهول، ويدها على جبينها وشعرها منسدل بينهما، كأنَّها توقف نزف جرح ما، وتشبه من يحاول التقاط أنفاسه.

ذات مساء كنت في البيت، والطقس حارّ على الرَّغم من أنّنا نودِّع شهر سپتمبر، والمدرسة توشك أن تفتح أبوابها، وأنا تحت رحمة الأيَّام. كانت أمِّي لا تكفّ عن توبيخي، لأنَّني أمضي الوقت من دون فعل أيّ شيء. ونينو، لا أحد يدري أين أضحى، في بريطانيا أم في

Telegram: Somrlibrary

ذلك المكان الغرائبيّ الذي يُسمّى الجامعة. لم يعد هناك أنطونيو، ولا حتى الأمل بإعادة الارتباط به؛ التحق بالخدمة العسكريَّة مع إنتسو، وودَّع الجميع إلَّا أنا. سمعتُ أحدًا يناديني من الشارع. ليلا. كانت عيناها تشتعلان كأنَّها تعاني الحمّى، قالت إنَّها وجدت الحلّ.

«أيّ حلّ؟»

«الصورة. إن أصروّا على تعليقها، فعليهم أن يتقيَّدوا بما أقول».

«وماذا تقولين أنت؟»

لم تحدِّثني عن الفكرة، لعلَّها لم تكن واضحة لها. لكنَّني كنت أعرفها حقّ المعرفة. تبدّت على وجهها تلك الملامح التي تتَّخذها حين تصل إليها إشارة ما، من أعمق أعماقها المظلمة، لتشتعل في رأسها. طلبتْ منِّي أن أرافقها إلى ساحة الشهداء لاحقًا؛ هناك حيث سنلتقي الأَخَوَين سولارا، وجيليولا وبينوتشا وشقيقها. كانت تريد منِّي أن أساعدها، وأدعم موقفها. فأدركتُ أنّ في ذهنها فكرة قادرة على حملها أبعد من تلك الحرب المستمرَّة: تفريغ عنيف، لكنَّه صارم، بالنسبة إلى حجم التوتُّر الذي تراكم عليها؛ أو مجرّد طريقة لتحرٍّر رأسها وجسمها من طاقات مكبوتة.

«حسنًا»، قلت، «شرط أن تعديني بألَّا تتصرَّفي كالمجانين».

«أجل».

بعد إغلاق المحلَّين، مرّ ستيفانو وليلا لاصطحابي بالسيَّارة. وفهمتُ، من تلك الكلمات القليلة التي تبادلاها، أنّ زوجها نفسه لم يكن يعلم بما كان يجول في رأسها، وأنّ وجودي حينذاك لم يكن يُريحه، بل يثير قلقه. وصلت ليلا أخيرًا إلى حلٍّ وسط. قالت له إنَّها تريد أن تُبدي رأيها على الأقلّ في كيفيَّة عرض الصورة، إن لم يكن في الإمكان التخلّي عن هذا الأمر.

Telegram: Somrlibrary

«هل هي مسألة إطار، أم جدار، أم إضاءة؟» سألها زوجها.

«عليّ أن أرى».

«لا بأس. لكنَّ هذا يكفي يا لينا».

«أجل، يكفي».

كان المساء جميلًا ودافئًا، وأضواء المحلّ الباهرة تشعّ في مدار الساحة كلّها. وكانت صورة ليلا العملاقة، بفستان العرس، واضحة من مسافة بعيدة أيضًا، وهي معلَّقة على الجدار الأوسط داخل المحلّ. ركن ستيفانو السيَّارة، ودخلنا بين علب الأحذية التي لا تزال مبعثرة هنا وهناك، إضافة إلى أوعية الطلاء والسلالم الخشبيَّة. كان الاستياء طاغيًا على وجوه مارتشيلُّو ورينو وجيليولا وبينوتشا، إذ لم يكن أيٌّ منهم راغبًا في الخضوع لنزوات ليلا، كلٌّ وفق أسبابه الخاصَّة. وكان ميكيلي الوحيد الذي استقبلنا بحفاوة هزليَّة، ثم توجَّه إلى صديقتي ضاحكًا:

«سيِّدتي الجميلة، هلَّا أطلعتنا على ما يدور في رأسك وأرحتنا، أم ترغبين في تكدير صفو هذه الأمسية لا غير؟»

نظرت ليلا إلى اللوحة المسنودة إلى الجدار، وطلبت منهم أن يبسطوها على الأرض. فقال مارتشيلُّو متردِّدًا، بحياءٍ اعتاد أن يُظهره في محادثاته مع ليلا:

«من أجل ماذا؟»

«سأريكم».

تدخّل رينو:

«لا تكوني حمقاء يا لينا. أتعلمين كم كلّفنا هذا الشيء؟ ويلٌ لكِ إن ألحقتِ به ضررًا».

Telegram: Somrlibrary

بَسَط الأَخَوان سولارا الصورة على الأرضيَّة. نظرت ليلا إلى ما يحيط بها، بجبين معقود وعينين كثقبين صغيرين. كانت تبحث عن شيء ما متأكِّدة من وجوده، وربَّما أوصتْ بشرائه بنفسها. في إحدى الزوايا، عثرت على لفافة من الورق الأسود المقوّى، ثم أخذت من فوق أحد الرفوف مقصًّا كبيرًا وعلبة من الدبابيس الصغيرة الصالحة للتعليق؛ وعادت إلى اللوحة، بهيئةٍ تنمّ عن تركيز شديد يعزلها عن كلّ ما يحيط بها. قصّتْ شرائط من الورق الأسود ـ تحت حيرة أعيننا وعبوس بعضنا ـ بدقَّةٍ لطالما امتازت بها يداها، ثبّتت الشرائط على نواحٍ مختلفة من الصورة، وهي تطلب مساعدتي بإيماءات سريعة أو نظراتٍ محدَّدة.

ساعدتُها بالحماسة ذاتها التي جمعتْ بيننا منذ كنَّا صغيرتين. كم كانت لحظات جيَّاشة، وكم كنت أحبّ العمل معها، والانصياعَ لأوامرها واستباقَها أحيانًا! شعرتُ بأنَّها كانت ترى شيئًا ليس موجودًا، وأنَّها كانت تنهمك لتراه أعيننا. وسُعدتُ بذلك على الفور، وأحسستُ بهمّتها التي تحثّها على بذل المزيد، وتسري بين أصابعها، وهي تضغط المقصّ وتثبّت الشرائط السود بتلك الدبابيس.

وفي النهاية، حاولتْ بنفسها أن ترفع اللوحة، كما لو كانت وحيدة في ذلك المكان، لكنَّها لم تستطع. فتدخّل ميكيلي فورًا، وأنا أيضًا، وأسندنا اللوحة إلى الجدار. ثم ابتعدنا جميعًا إلى الخلف حتى وصلنا إلى عتبة المحلّ، وكان منَّا مَن يضحك ساخرًا، ومنّا مَن ينظر متجهِّمًا، ومنّا مَن يرنو مسحورًا. ظهر جسد ليلا العروس ممزَّقًا إربًا إربًا في الصورة. اختفت أبرز معالم رأسها وبطنها أيضًا. ولم تظهر سوى عين واحدة، ويد تسند ذقنها، وفمها الجميل، وثنايا مائلة من جذعها، وساقها الملفوفة فوق الساق الأخرى، والحذاء.

Telegram: Somrlibrary

قالت جيليولا، وهي تضبط أعصابها عبثًا:

«لا أستطيع أن أدع شيئًا كهذا في «محلِّي»».

«أوافقك الرأي»، انفجرت بينوتشا، «ينبغي لنا أن نبيع هنا، لا أن نُفزع الناس بهذا المنظر المريب. قل شيئًا لأختك يا رينو، أرجوك».

تظاهر رينو بتجاهلها، وقال موجِّهًا الحديث إلى ستيفانو، كما لو أنَّ صهره يتحمَّل بمفرده ذنب كلّ ما كان يجري:

«قلت لك إنّ النقاش لا ينفع معها. عليك أن تقول لها نعم أو لا، نقطة وانتهى. وإلَّا فانظر ماذا يحدث. نهدر وقتنا ليس إلَّا».

لم يُجبه ستيفانو. كان يركِّز النظر في اللوحة المسنودة إلى الجدار، ومن الواضح أنَّه يبحث عن منفذٍ للخروج. سألني:

«ما رأيك يا لينو؟»

قلت بالإيطاليَّة الفصحى:

«يبدو لي في منتهى الجمال. لم أكن لأعرض شيئًا كهذا في الحيّ طبعًا، لأنَّه لا يلائم أهواء سكّانه. لكنَّنا هنا في وسط المدينة. سيلفت الانتباه، سيلقى إعجابًا. على صفحات مجلَّة «أسرار»، العدد الفائت تحديدًا، رأيتُ أنّ الممثِّل روسانو براتسي يقتني لوحة من هذا النوع في منزله».

استشاطت جيليولا غاضبة حين سمعت رأيي.

«ماذا تقصدين؟ أنّ روسانو براتسي يفهم في كلّ شيء، وأنّك أنت وليلا تفهمان في كلّ شيء، وأنا وبينوتشا لا نفهم شيئًا؟»

استشعرتُ الخطر حينئذ. كان كافيًا إلقاء نظرة على ليلا لإدراك ذلك. كيف لا وهي التي حينما دخلتْ، كانت تبدو ميَّالة إلى التنازل حقًّا في حال لم تؤتِ هذه التجربة أكلها؛ لذا لم تكن لتتنازل قيد أنملة

Telegram: Somrlibrary

بعد أن أُجريت التجربة وأدّت إلى تشويه الصورة بهذا الحجم. فكَّرتُ في أنَّها كانت تقطع كلّ الروابط خلال تلك الدقائق التي عملتْ فيها على الصورة: إذ بدت لي في تلك اللحظات في أوج تعبيرها عن ذاتها الحقيقيَّة، وكانت في حاجة إلى بعض الوقت لتعود إلى شخصيَّة زوجة اللحَّام. وهكذا، لم تكن لتقبل بأيٍّ إشارةٍ عن عدم الرضا، حتى لو كانت شبه تنهيدة. بل، بينما كانت جيليولا تتحدَّث، كانت ليلا تغمغم: إمَّا هكذا وإمَّا فلا. وكان يبدو أنَّها تنحو إلى العراك والتكسير والتحطيم، أو أنَّها سترمي في وجه جيليولا ذلك المقصّ بكلٍّ سرور.

أملتُ أن يتضامن معها مارتشيلُّو؛ لكنَّه ظلَّ صامتًا مطأطئ الرأس، فأدركتُ أنّ بقايا عواطفه تجاه ليلا كانت تتبدَّد في تلك اللحظة، ولم يعد قادرًا على إبداء اهتمامه بها كما كان أيَّام الشغف والوَلَه. فتدخّل أخوه ليسحق جيليولا، خطيبته، بصوت عصبيّ. «اخرسي أنت»، قال لها. وما إن حاولت أن تعترض حتى فرض عليها السكوت مهدّدًا، ولم ينظر إليها، لأنَّه كان يتمعَّن في الصورة: «اخرسي يا جيليولا»، ثم التفت إلى ليلا:

«أمَّا أنا، فيعجبني يا سيِّدة. محوتِ نفسك عمدًا، وقد فهمتُ السبب. كي تسلِّطي الضوء على فخذيك، كي تلفتِي الانتباه إلى أنّ هذا الحذاء يلائم فخذَيْ امرأة بشكلٍ غير مسبوق. أحسنتِ. أنت فطَّة بعض الشيء، لكنَّك حين تصنعين شيئًا ما، تصنعينه على أسس الفنّ».

هيمن الصمت.

مسحت جيليولا برؤوس أصابعها دموعها الصامتة، والتي لم تنجح في كبتها. وحدّقت بينوتشا إلى رينو، ثم إلى أخيها، كما لو أنَّها تقول لهما: تكلَّما، دافعا عنّي، لا تسمحا لتلك اللعينة بأن تتشاوفَ عليّ. لكنّ ستيفانو غمغم بهدوء:

Telegram: Somrlibrary

«أجل، هذا يُقنعني أنا أيضًا».

فسارعت ليلا إلى القول:

«لم تنته بعد».

«وماذا ستفعلين بها بعد؟»، انفجرت بينوتشا.

«عليّ أن أضع بعض الألوان».

«ألوان؟» قال مارتشيلّو وقد ازداد ذهنه تشتُّتًا. «علينا أن نفتتح المحلّ خلال ثلاثة أيّام».

قهقه ميكيلي:

«إن توجّب علينا الانتظار قليلًا، فلننتظر. هبّي إلى العمل يا سيِّدة، وافعلي ما يحلو لك».

لكنّ هذه النبرة السلطويَّة، لمن يحلّ ويربط كما يشاء، لم تعجب ستيفانو.

«ثمَّة الملحمة الجديدة»، قال قاصدًا إنَّه يحتاج إلى زوجته هناك.

«تدبّرْ أمورك»، أجابه ميكيلي، «فهنا، علينا أن ننجز أمورًا أكثر أهمِّيَّة».

٢٦

أمضينا آخر أيَّام سپتمبر داخل المحلّ، أنا وليلا وثلاثة عمَّال. كانت تلك ساعات رائعة عشناها بين اللهو والإبداع والحرِّيَّة، وربَّما لم نعش مثلها معًا منذ الطفولة. سحبتني ليلا إلى عالم جنونها. اشترينا الصمغ والطلاء وريشات الرسم. وألصقنا ثنايا الورق الأسود المقوَّى بعناية فائقة (ليلا كانت حريصة جدًّا). ورسمنا حدودًا حمراء وزرقاء بين بقايا الصورة وتلك السحب السود التي تلتهمها. لطالما كانت ليلا بارعة في استخدام الألوان ورسم الخطوط، لكنَّها حينذاك فعلتْ شيئًا إضافيًّا ما زال يذهلني، مع أنَّني لم أفهمه جيِّدًا.

بدا لي لوهلة أنَّها أحدثتْ تلك المناسبة كي تُتمّ، بشكل مثالي، تلك السنوات التي بدأت بتصاميم الأحذية، حين كانت لا تزال الفتاة لينا شيرولُّو. ولا أزال حتى الآن أعتقد أنّ كثيرًا من متعة تلك الأيَّام مردّها عودة وضعها، أو وضعنا معًا، إلى نقطة الصفر تمامًا؛ مردّها قدرتنا على السموّ فوق شخصيَّتينا، وانعزالنا ببساطة في تحقيق ذلك الشيء الذي يشبه الخلاصة المرئيَّة. نسينا أنطونيو، ونينو، وستيفانو، والأَخَوَين سولارا، ومشكلاتي في الدراسة، وحملها، والتوتُّرات بيننا. علّقنا مرور الزمن، وعزلنا المكان، ولم يبق سوى اللعب بالصمغ

Telegram: Somrlibrary

والمقصّ والورق المقوّى والألوان: لعبة الإبداع المتوائم.

أكثر من ذلك. عاد إلى ذهني سريعًا الفعل الذي استخدمه ميكيلي: «محو». من المحتمل، أجل، من المحتمل جدًّا، أنّ وظيفة الخطوط السود كانت لعزل الحذاء وجعله مرئيًّا أكثر؛ فسولارا الشابّ لم يكن غبيًّا، بل كانت له نظرة بعيدة. لكنَّني، شيئًا فشيئًا، أدركتُ أنّ تلك لم تكن غايتنا في أثناء التصميغ والتلوين. كانت ليلا سعيدة، وتدفعني إلى خوض سعادتها الضارية أكثر فأكثر، ولاسيما أنَّها وجدت فجأة ـ ربَّما من دون أن تنتبه لذلك أصلًا ـ مناسبةً تسمح لها بتوجيه غضبها ضدَّ نفسها، تزامنًا مع بروز حاجتها إلى «محو نفسها» ـ للمرَّة الأولى في حياتها ربّما ـ وهذا ما قد يثبت صحَّة الفعل الذي استخدمه ميكيلي.

واليوم، في ضوء الكثير من الوقائع التي حدثت في ما بعد، أكاد أجزم بأنّ الأمور سرت على ذلك النحو تمامًا. باستخدام الورق الأسود، ورسم الدوائر الخُضْر والبنفسجيَّة حول بعض أطراف جسدها، وبالخطوط الحُمْر ـ القانية كالدماء ـ التي كانت ليلا تفتّت بها كينونتها، وتطلب من الآخرين أن يفعلوها أيضًا؛ حقَّقتْ ليلا ما قد يُعرَّف بالتدمير الذاتي «في الصور»، وقدّمتْ حطامها على مرأى الجميع، في المكان الذي اشتراه الأَخَوان سولارا ليعرضا أحذيةً من بنات أفكارها، ويبيعاها.

ومن الوارد أن تكون هي نفسها من أمدَّني بهذا الانطباع وتسبَّب لي به. ففي الوقت الذي كنَّا نعمل فيه، راحت تحدِّثني عن كيفيَّة إدراكها للوهلة الأولى أنَّها أصبحت السيِّدة كارّاتشي. في البدء بالكاد فهمتُ ما كانت تقوله، إذ بدت لي مجرَّد ملاحظات تافهة. من المعلوم، أنَّنا نحن الفتيات، حين نقع في الغرام، فإنّ أوّل ما نتأكّد منه

Telegram: Somrlibrary

هو رنين اسم كلٍّ منّا مقترنًا بكنية المحبوب. أنا، على سبيل المثال، لا أزال أحتفظ بدفتر يعود إلى المرحلة الثانويَّة، ويحتوي على صفحاتٍ كنت أتمرَّن فيها على الإمضاء بإيلينا سارّاتوري؛ وأذكر جيِّدًا أنَّني كنت أُسمّي نفسي، بنفخة من شفتين مزمومتين، ذلك الاسم. غير أنّ ليلا كانت تقصد شيئًا آخر. وسرعان ما تأكَّدتُ من أنَّها كانت تعترف لي بالعكس تمامًا: لم تفكِّر يومًا في إجراء أيٍّ من تماريني. كما لم تُعِر انتباهًا لصيغة تسميتها الجديدة: «*التحوّل من رافايلا شيرولُّو إلى كارّاتشي*». لا إثارة في الأمر ولا خطورة. في البدء، بالكاد انشغلت بتمارين إعراب ومنطق لغويّ، كتلك التي أضنتنا بها المعلِّمة أوليڤييرو في المرحلة الابتدائيَّة. «*إلى كارّاتشي*»! ما هذا؟ هل هو ظرف مكان؟ هل يعني ببساطة أنَّها لم تعد تسكن عند أهلها، بل انتقلت إلى بيت ستيفانو؟ هل يعني أنّ البيت الجديد، حيث ستذهب للعيش، ستُعلَّق على بابه لافتة مكتوب عليها «كارّاتشي»؟ هل يعني أنّ صيغة «*رافايلا شيرولو إلى كارّاتشي*» ستفقد «*شيرولُّو إلى*» سريعًا، بناءً على الاستخدام اليوميّ، وأنَّها ستعرّف نفسها بنفسها، وتوقّع بـ «رافايلا كارّاتشي» فقط، وسيبذل أولادها جهدًا ليتذكَّروا كنية أمِّهم، وسينسى أحفادها كنية جدَّتهم نهائيًّا؟

أجل. بحكم العادة، كلّ شيء وفق الأصول، إذن. لكنّ ليلا، كعادتها، لم تتوقَّف عند ذلك الحدّ، وسرعان ما ذهبتْ أبعد من ذلك. ففي حين كنَّا نعمل بالريشة والطلاء، روت عليّ أنَّها بدأت ترى تلك الصياغة على أنَّها ظرف مكان مجرور، كما لو أنّ «شيرولو إلى كارّاتشي» تعني «*شيرولو تذهب إلى كاراتشي: تسقط فيه، تنصهر فيه، تنحلّ فيه*». ومنذ تلك اللحظة المشؤومة التي أُوكِل فيها الإشبين إلى سيلڤيو سولارا، ومنذ دخول مارتشيلُّو سولارا صالة المطعم وهو ينتعل

Telegram: Somrlibrary

الحذاء ذاته، الذي أوهمها ستيفانو بأنَّه يعتبره مقدَّسًا أكثر من رفات شخص عزيز، ومنذ رحلة شهر العسل والصفعات واللكمات، إلى ذلك الحصار الذي فرضته على نفسها، إلى ذلك الفراغ الذي تشعر به ينمو في داخلها، ذلك الشيء الحيّ الذي وضعه ستيفانو في جوفها، وهي تشعر بأنَّها محكومة من سطوة إحساس لا يرحم؛ من قوَّة تضغط أكثر فأكثر كي تفتِّتها وتسحقها. تعزّز ذلك الانطباع وهيمن عليها. ففقدت رافايلا شيرولو شكلها، بعد أن هدّها الإعياء، وذابت في هيئة ستيفانو، لتصبح أشبه بتدفّقٍ نابعٍ منه: *السيِّدة كارّاتشي*. وهكذا، بدأتُ أرى في الصورة آثار ما كانت تقوله. «هذا ما يجري حتى الآن»، قالت هامسة. في تلك الأثناء، كنَّا نلصق الورق ونوزِّع الألوان. لكن ما الذي كنَّا نفعله حقًّا؟ فِيمَ كنت أساعدها؟

وفي النهاية، علَّق العمَّال اللوحة على الجدار، وكانوا قلقين للغاية. شعرنا بالحزن، لكنَّنا لم نفشِ شعورنا، فاللعبة قد انتهت. نظَّفنا المحلّ من أعلاه إلى أسفله. وما زالت ليلا تفكِّر في وضعيَّة الأرائك وبعض الكراسيّ الأخرى. ثم تراجعنا معًا نحو المدخل، لنتمعَّن في عملنا الذي على الجدار. انفجرت ليلا ضاحكة، تفرقع، كما لم أسمعها منذ زمن طويل، ضحكةً وقحة، تنمّ عن استهزاء ذاتيّ. أمَّا أنا، فكنت أركِّز في الجانب الأعلى من اللوحة، حيث اختفى رأس ليلا، ولم أستطع أن أرى كامل اللوحة. هناك في القمَّة، تنتأ عينٌ في غاية الحيويَّة، محاطة باللونين الكحليّ والأحمر.

Telegram: Somrlibrary

٢٧

في يوم الافتتاح، وصلت ليلا إلى ساحة الشهداء جالسة في السيَّارة المكشوفة إلى جانب زوجها. وحين نزلت، رأيتُ في نظراتها اضطراب مَن يخشى وقوع أحداث شنيعة. زالت عن وجهها معالم الهيجان التي رافقت قصَّة الصورة، ليتَّخذ تقاسيمَ امرأة أعياها الحمل الذي لا ترغب فيه. ومع ذلك، كانت قد اعتنت بهندامها وبدت كأنَّها خارجة من صفحات مجلَّة تُعنى بآخر الصيحات. ابتعدتْ عن ستيفانو فورًا وأخذتْ يدي لتريني واجهات المحالّ في شارع الألف مقاتل.

تمشَّينا قليلًا. كانت متوتِّرة وتسألني باستمرار إن كان مظهرها لائقًا أم لا.

«هل تذكرين الفتاة المتَّشحة كلّها باللون الأخضر، وترتدي القبَّعة؟» قالت فجأة.

كنت أذكرها. وكنت أذكر الضيق الذي اعترانا برؤيتها في ذلك الشارع نفسه منذ أعوام خلت، والشجارَ بين شبَّاننا وشبَّان تلك المنطقة، وتدخّلَ الأَخَوَين سولارا، وهراوةَ ميكيلي الحديديَّة، والرعبَ. فهمتُ أنَّها كانت تريد أن تسمع كلامًا قادرًا على تهدئتها، فارتجلتُ:

Telegram: Somrlibrary

«كانت مسألة نقود ليس إلّا يا ليلا. أمّا اليوم، فقد تغيّر كلّ شيء، وأنت تبدين أكثر جمالًا من تلك الفتاة التي ترتدي اللون الأخضر».

ثم قلت في سرّي: ليس صحيحًا، إنَّني أكذب عليك. ثمَّة شيء همجيّ يُفضي إلى عدم المساواة، وانتبهتُ إليه حينذاك. كان يعيش في أعماقنا، ويحفر أبعد من المال. لم يكن الصندوق في الملحمتين أو صندوق ورشة الأحذية أو محلّ بيع الأحذية، قادرًا على إخفاء أصولنا. ليلا نفسها لم تكن قادرة على ذلك، حتى لو أخذت من الصندوق أكثر ممَّا كانت تأخذ منه، وحتى لو أخذت ملايين من الليرات، ثلاثين أو خمسين، لم تكن قادرة على إخفاء أصلها. انتبهتُ لذلك؛ وأخيرًا: شيء ما أفهمه أفضل منها، شيء لم أتعلَّمه في تلك الطرقات، بل تعلَّمته في المدرسة حين رأيتُ الفتاة التي كانت تأتي لترافق نينو. كانت في درجة أعلى منَّا، هكذا، بالفطرة. وكان هذا الأمر لا يُطاق.

عدنا إلى المحلّ. انقضت فترة العصر بما يشبه فعاليَّات الزفاف: الطعام والحلويات والكثير من النبيذ؛ وقد ارتدى الجميع الثياب نفسها التي جاؤوا بها إلى زفاف ليلا؛ فرناندو ونونتسيا ورينو وجميع أفراد عائلة سولارا وألفونسو والفتيات وأنا وآدا وكارميلَّا. ازدحمت السيَّارات في الموقف، واكتظّ المحلّ، وارتفعت الأصوات. وراحت جيليولا وبينوتشا تتنافسان، وتتصرَّفان طوال الوقت على أنَّهما سيِّدتا المكان، وكلٌّ واحدة منهما تحاول الظهور كسيِّدة أكثر من الأخرى، وكاد التوتُّر يقضي عليهما معًا. وصورة ليلا تتربَّع فوق كلّ الأشخاص والأشياء. وفي المكان، ثمَّة من يتوقَّف وينظر إليها باهتمام، وآخر يلقي نظرة تشكُّك، وثالث يهمّ بالضحك أيضًا. وأنا لم أستطع أن

Telegram: Somrlibrary

أحيد ببصري عنها، إذ لم تكن ليلا واضحة الملامح في الصورة؛ كانت أشبه بشكل يُغوي ويُرعب، صورة لإلٰهة بعين واحدة، تدفع بقدميها، المنتعلتَيْن حذاءً أنيقًا، إلى وسط الصالة.

وفي زحمة الناس، لفت ألفونسو انتباهي أكثر من أيٍّ أحد آخر. كان متَّقد الحيويَّة، مبتهجًا وأنيقًا. لم أَرَه يومًا هكذا، لا في المدرسة ولا في الحيّ، ولا في الملحمة. وليلا نفسها رمقته طويلًا متشكِّكة. قلت لها ضاحكة:

«كم تغيّر».

«ما الذي حدث له؟»

«لا أعلم».

كان ألفونسو من أبرز الإيجابيّات الحقيقيَّة في ذلك اليوم؛ كأنَّما فيه شيءٌ هامدٌ وانتفض في تلك المناسبة، في المحلّ المضاء بنور الشمس. كما لو أنَّه اكتشف فجأة أنَّ تلك المنطقة من المدينة تبعث في نفسه الارتياح، وأصبح يتحرَّك بشكل لافت للنظر. رأيناه يرتِّب هذا الغرض وذاك، ويدردش مع الناس المتأنِّقين الذين يدخلون لإشباع فضولهم وتفحّص البضاعة، أو لالتهام المعجَّنات واحتساء نبيذ الفرموت. ثم جاء إلينا، وامتدح الدقَّة والعفويَّة اللتين أنجزنا بهما الصورة. كان في حالة من الحرِّيَّة الذهنيَّة، جعلته يتغلَّب على طبعه الخجول، قال لنسيبته: «لطالما عرفتُ أنَّك خطيرة» وقبّل وجنتها. خطيرة؟ ما الذي فطن إليه وفاتني في تلك الصورة؟ هل كان ألفونسو قادرًا على عدم الاكتراث للمظاهر؟ هل كانت نظرته ثاقبة وخصبة الخيال؟ هل من الممكن أن يبني مستقبله الحقيقيّ بمعزلٍ عن الدراسة، في هذه المنطقة من المدينة بالذات، حيث سيستخدم ذاك القليلَ الذي تعلَّمه في المدرسة خيرَ استخدام؟ آه، أجل، كان يُخفي في أساريره

Telegram: Somrlibrary

شخصًا آخر. كان مختلفًا عن كلّ شبّان الحيّ، ولاسيَّما عن أخيه ستيفانو الذي كان يقبع في إحدى الزوايا، جالسًا بصمت على إحدى الأرائك، لكنَّه مستعدّ لإجابة أيّ أحد يتوجَّه إليه بالكلام بابتسامات رزينة.

هبط المساء، فانبلج فجأة ضوء مشعّ في الخارج. هرع الأَخَوان سولارا، وجدّهما ووالدهما وأمّهما، إلى الخارج، متأثّرين بحماستهم الغوغائيَّة حبًّا باسم العائلة. خرجنا جميعًا إلى الشارع. ثمَّة لافتة في قمَّة الواجهة والمدخل، تشعّ بأحرف منيرة: سولارا.

تنهَّدت ليلا، وقالت لي:

«لقد تنازلوا لهم عن هذا الأمر أيضًا».

دفعتني مستاءة نحو رينو، وقد بدا أكثر الحاضرين سعادة، وسألته:

«إن كانت الأحذية من صنع شيرولُّو، فلماذا يُسمّى المحلّ سولارا؟»

لفّها رينو بذراعه، وقال لها بصوت خفيض:

«لينا، لماذا تحبّين دومًا أن تصدّعي رؤوسنا؟ هل تذكرين المعركة التي رميتني فيها منذ سنوات في هذه الساحة تحديدًا؟ ماذا عليّ أن أفعل، هل أخوض معركة أخرى؟ تحلّي بالرضا لمرَّة واحدة فقط. نحن، هنا، سادة في وسط ناپولي. هل ترين أحدًا من أولئك الذين أرادوا ضربنا قبل أقلّ من ثلاث سنوات؟ إنَّهم يتوقَّفون، ينظرون إلى الواجهة، يدخلون، يتناولون الحلويات. ألا يكفيك هذا؟ أحذية شيرولو في محلّ سولارا. ما الذي تريدين كتابته في الأعلى، كارّاتشي؟»

تملَّصتْ من تحت ذراعه، وقالت له بلهجة خالية من العدائيَّة:

Telegram: Somrlibrary

«إنّني هادئة. إيّاك أن تطلب منّي شيئًا بعد اليوم. ماذا دهاك؟ تستدين المال من السيِّدة سولارا؟ هل ستيفانو يستدين منها أيضًا؟ هل كلاكما مَدينٌ لهم، ألهذا ترضخان دومًا؟ من اليوم فصاعدًا، كلٌّ منّا في طريق يا رينو».

تركتنا، نحن الاثنين، ومضت مباشرة نحو ميكيلي سولارا بأسلوب احتفاليّ وغنج زائد. رأيتها تبتعد معه صوب الساحة، دارا حول تماثيل الأُسود الصخريَّة. رأيتُ زوجها يتبعهما بنظراته؛ ولم يُشِح عينيه عنهما طوال الوقت، بينما كانا يتمشّيان غارقين في محادثة ما. رأيتُ جيليولا تكاد تنفجر غاضبة، وتهمس في أذن بينوتشا، ثم ينظران إليها معًا.

في تلك الأثناء، فرغ المحلّ، وأطفأ أحدهم اللافتة العملاقة والمشعَّة. ساد الظلام للحظات في الساحة ريثما استفاقت أعمدة الإنارة. تركت ليلا ميكيلي وهي تضحك، لكنَّها دخلت المحلّ، وشحب وجهها فجأة كأنَّه فقد الحياة، وأغلقت على نفسها الباب في الغرفة الضيِّقة حيث كان المرحاض.

وبدأ ألفونسو ومارتشيلُّو، وبينوتشا وجيليولا، يرتِّبون المحلّ. فانضممتُ إليهم لأساعدهم.

خرجت ليلا من المرحاض، فانقضّ عليها ستيفانو، كأنَّه كان يحضّر لها كمينًا، وأمسك بذراعها. استطاعت التملُّص منه مستاءة، وجاءت إليّ. كانت مصفرّة الوجه كثيرًا، وهمستْ في أذني:

«نزفتُ قليلًا من الدماء. ماذا يعني هذا؟ هل مات الجنين؟»

Telegram: Somrlibrary

٢٨

دام حمل ليلا أقلّ من عشرة أسابيع، ثم جاءت القابلة وأزالت كلّ شيء. وفي اليوم التالي، عادت فورًا لتنشغل بالملحمة الجديدة مع كارمن بيلوزو. وهكذا، استخدمت اللطف تارة والقسوة تارة أخرى في الشروع في مرحلة طويلةٍ، استغنت خلالها عن المراوغة هنا وهناك، وضغطت حياتها كلّها بصرامةٍ في نظام ذلك المكان الذي تضوع منه رائحة الكلس والجبن، ويغصّ باللحوم المقدَّدة والخبز وجبن الموتزاريلّا، والسردين المملَّح، والشحوم المغلَّفة، والأكياس المليئة بالحبوب المجفَّفة، وأمعاء الخنزير السميكة والملتفّة.

قدّر الجميع لها هذا الموقف، وخصوصًا ماريّا والدة ستيفانو. وكما لو أنَّها رأت في كنّتها شيئًا منها، أصبحتْ تحنّ عليها فجأة، وأهدتها أقراطها القديمة ذات الذهب الأحمر. قبلت ليلا الهديَّة بكلِّ سرور وتزيَّنت بتلك الأقراط غالبًا. ولوقتٍ لا بأس به، ظلّ الشحوب يكتنف وجهها، والبثور تملأ جبينها، وعلامات الأرق بادية حول عينيها الغائرتين، وصدغاها يشدّان على الجلد فكاد يبدو شفًّافًا. ثم استعادت رونقها، وبذلت طاقة أكبر للنجاح في عملها في المحلّ. وقُبيل عيد الميلاد، تضاعفت الأرباح؛ وفي غضون أشهر قليلة، تخطّت أرباح

Telegram: Somrlibrary

الملحمة في الحيّ القديم.

ازداد تقدير ماريًا لها. وكانت غالبًا ما تذهب لتساعد كنّتها، وليس ابنها الذي اكتأب نتيجة انعدام أبوّته وانشغاله بمشكلات العمل، ولم تساعد ابنتها التي بدأت العمل في المحلّ في ساحة الشهداء، وكانت قد منعت أمّها، منعًا باتًّا، من الاقتراب منه كي لا تترك انطباعًا سيِّئًا لدى الزبائن. ووصل التعاطف بالسيِّدة كارّاتشي الناضجة إلى الاصطفاف مع السيِّدة كارّاتشي الشابّة، حينما يُلقي ستيفانو وبينوتشا اللوم عليها، لأنَّها لم تحسن، أو لم تشأ الحفاظ على الجنين في أحشائها.

«إنَّها لا تريد إنجاب الأولاد»، تذمَّر ستيفانو.

«أجل»، ساندته بينوتشا، «تريد أن تظلّ فتاة، لا تحسن التصرُّف كزوجة».

فأنَّبتهما ماريّا بقسوة:

«إيَّاكما والتفكير في هذه الأمور. ربّنا هو الذي يهبنا الذرِّيّة، وهو الذي إذا شاء اصطفاها له. لا أريد أن أسمع ترّهات في هذا الشأن».

«اسكتي أنتِ»، زعقت ابنتها في وجهها غاضبة، «لقد أعطيتِ تلك الحقيرة القرطين اللذين أحبّهما».

وسرعان ما أصبح جدالهم، وردود فعل ليلا، موضوعًا دسمًا للثرثرة بين سكّان الحيّ بأكمله، وتواترت من لسان إلى آخر حتى وصلت إليّ. لكنَّني لم أُعر تلك الأحاديث اهتمامًا كبيرًا، إذ كان العام الدراسيّ قد بدأ للتوّ.

وفي المدرسة، سارت الأمور على نحوٍ فاجأني كثيرًا. بدأتُ، منذ الأيَّام الأولى، بالتفوُّق على الجميع، كما لو أنّ التحاق أنطونيو بالجيش، واختفاء نينو، وربّما انشغال ليلا التامّ بإدارة الملحمة، أمور

Telegram: Somrlibrary

ساعدت عقلي على التخلُّص من بعض التساؤلات المضنية. واكتشفتُ أنَّني أتدارك بدقّةٍ كلّ الأخطاء التي وقعتُ فيها في العام المنصرم، ورحت أُجيب الأساتذة عن أسئلتهم بتلخيصٍ ذكيّ. بل أكثر من ذلك، تقرَّبت منِّي الأستاذة غالياني، ربّما لأنَّها خسرت نينو تلميذها النجيب، وأبدت استلطافًا في تعاملها معي، حين دعتني إلى المشاركة في مسيرة من أجل السلام في العالم، لما في ذلك من أهمِّيَّة تربويَّة. وكانت المسيرة تنطلق من ناحية ريزينا لتحطّ في وسط ناپولي. فقرَّرتُ المشاركة لإشباع الفضول من جهة، ولخشيتي من إغضاب غالياني من جهة أخرى، كما أنّها ستمرّ في الشارع العام الملاصق لحيّنا، فلم يكن ذلك ليكلِّفني شيئًا. لكنَّ أمِّي أرادت أن أصطحب إخوتي؛ فتشاجرتُ معها بالصياح، وتأخَّرتُ. وصلتُ مع إخوتي إلى جسر المحطَّة، ورأيت الناس في الأسفل يملأون الشارع متسبِّبين بأزمة مرور للسيَّارات. كانوا أُناسًا طبيعيِّين، ولم يكونوا يسيرون، بل يتنزَّهون وهم يحملون الرايات واللافتات. كنت أودّ الذهاب للبحث عن غالياني كي تراني، فأوصيتُ إخوتي بانتظاري عند الجسر. وكانت فكرة سيِّئة، إذ لم أعثر على الأستاذة، وما إن أدرتُ ظهري حتى انضمّ إخوتي إلى صِبْية آخرين، وراحوا يرشقون الحجارة على المتظاهرين، ويمطرونهم بأرذل الشتائم. فعدتُ كي آخذهم إلى البيت مسرعة، والعرق يتصبَّب منِّي، إذ خشيتُ أن تحدِّدهم غالياني بنظرتها الثاقبة، وتعرف أنَّهم إخوتي.

كانت الأسابيع تمرّ على عَجَل، وثمَّة دروس جديدة وكتب مدرسيَّة لا بدّ من شرائها. وبدا لي من غير المجدي أن أعدِّد تلك الكتب لأمّي، كي تذهب وتفاوض والدي لتسحب منه بعض النقود، فقد كنت أعلم بأنَّنا لا نملك المال. وفي المقابل، لم تردنا أنباء

جديدة عن المعلِّمة أوليڤييرو. ذهبتُ لأزورها مرَّتين في المستشفى، بين أغسطس وسپتمبر، لكنَّني وجدتها في المرَّة الأولى نائمة، وفي الثانية بلّغوني بأنَّها خرجت، لكنَّها لم تعد إلى البيت. وحين ضاقت بي السبل، في مطلع نوڤمبر، اتَّجهتُ إلى جارتها لأسأل عنها، فعرفتُ أنّ أخت المعلِّمة التي تسكن في بوتينسا أنزلتها عندها، بسبب تردّي أوضاعها الصحِّيَّة، ومن يدري إن كانت ستعود يومًا إلى ناپولي والحيّ، وتستأنف عملها! حينذاك، فكَّرتُ في أن أطلب من ألفونسو أن ننظِّم وقتنا كي نتناوب على الدراسة في الكتب التي سيشتريها له أخوه. تحمّس ألفونسو كثيرًا، واقترح أن ندرس معًا، في بيت ليلا مثلًا؛ فمنذ أن بدأت الأخيرة العمل في الملحمة، ظلّ بيتها خاليًا من السابعة صباحًا إلى التاسعة مساءً. وقرَّرنا أن نطبّق هذه الفكرة.

غير أنّ ألفونسو قال لي بلهجة فاترة، ذات صباح: «مرّي اليوم إلى الملحمة، تودّ ليلا أن تراك». كان يعرف السبب، لكنَّها جعلته يقسم على عدم نطق أيِّ حرف، فكان من المستحيل أن أسرق السرّ من فمه.

ذهبتُ إلى الملحمة الجديدة بعد الظهر. أرادت كارمن، بين الحزن والفرح، أن تُريني بطاقة من مدينةٍ ما في بييمونتي، شمال إيطاليا، أرسلها إليها صديقها إنتسو سكانو. وليلا، وصلت إليها أيضًا بطاقة، لكن من أنطونيو، حتى إنّني توهّمتُ أنَّها طلبتْ منِّي المجيء إلى هناك، لا لشيء سوى لتُريني إيّاها. غير أنَّها لم تُرني البطاقة ولم تقل ما الذي كُتب فيها. سحبتني إلى المخزن الخلفيّ وسألتني بابتهاج:

«هل تذكرين رهاننا؟»

أومأتُ بنعم.

«وهل تذكرين أنَّك خسرتِ؟»

Telegram: Somrlibrary

أومأتُ بنعم.

«وهل تذكرين أنَّك ملزمة بالنجاح بمعدّلٍ لا يقلّ عن ثماني درجات؟»

أومأتُ بنعم.

أشارت إلى طردين ضخمين مغلّفين بلاصق الشحن. كانا يحتويان على الكتب المدرسيَّة.

Telegram: Somrlibrary

٢٩

كم كانت تلك الكتب ثقيلة! غمرتني السعادة في البيت، حين اكتشفتُ أنَّها ليست كالكتب المستعملة ذات الرائحة السيِّئة غالبًا، كتلك التي كانت تمدُّني بها المعلِّمة في الماضي؛ بل كانت خارجة للتوّ من المطبعة، تضوع منها رائحة طيّبة توحي بلذَّة الأغراض الجديدة، بينها قواميس زنغاريللي، روتشي، وكالونغي ـ جورج التي لم تستطع المعلِّمة تأمينها لي أبدًا.

أمَّا أمّي، التي اعتادت على التأنيب حيال أيّ شيء يحدث لي، فما إن رأتني حينذاك أُزيل غلاف الطردين حتى انفجرتْ بالبكاء. فإذا بي أُذهَل من ردَّة فعلها الغريبة تلك. ذهبتُ إلى جوارها، وحنوتُ على ذراعها. من الصعب التكهُّن بالشيء الذي أثَّر فيها، ربَّما لشعورها بالعجز إزاء الشقاء الذي نمرّ فيه، وربَّما تأثَّرتْ بسخاء زوجة اللحَّام. لا أدري. كفكفتْ دموعها على عَجَل، وتمتمتْ عبارات مبهمة المغزى، ومضت إلى أعمالها.

كان لديّ، في الغرفة التي أنام فيها مع إخوتي، منضدة مفكَّكة صغيرة، استباحها العثّ نخرًا، وكنت أنهي عليها واجباتي عادة. رتّبتُ عليها تلك الكتب، وشعرتُ بِطاقتي تتجدَّد بمجرّد رؤيتها مصطفَّة على المنضدة.

Telegram: Somrlibrary

وراحت الأيَّام تنقضي بأسرع ما يمكن. أعدتُ إلى غالياني كتبها التي أعارتني إيَّاها في الصيف، فأعطتني غيرها، وتفوقها صعوبة. وكنت أقرأها في عطلة يوم الأحد، بعناية فائقة، وبالكاد أفهم منها شيئًا. وأفصّل السطور، سطرًا سطرًا، بعينيّ، وأقلِّب الصفحات ببطء. ومع هذا لم أكن أستسيغ ما أقرأ، فيفلت المعنى من بين يديّ. في ذلك العام، كنت في الصفّ المتقدِّم من المرحلة الثانية، وقد هدّني الإعياء بين الدراسة وتلك القراءات الغامضة، لكنَّني كنت راضية بذلك الإرهاق ومقتنعة به.

ذات يوم، سألتني غالياني:

«أيّ جريدة تقرئين يا غريكو؟»

أصابني ذاك السؤال بالإحراج ذاته الذي انتابني في أثناء نقاشي مع نينو في حفل زفاف ليلا. كانت الأستاذة ترى أنَّ من الطبيعيّ أن أزاول ذلك النشاط الذي لم يكن طبيعيًا البتَّة في بيتي وأجوائي. كيف أقول لها إنّ والدي لا يشتري الجرائد، وإنَّني لم أقرأ جريدة واحدة حتى ذلك الحين؟ لم أجرؤ على قول الحقيقة، وحاولتُ بارتباكٍ ملحوظ أن أتذكَّر إن كان باسكوالي، وهو الشيوعيّ، يقرأ جريدة ما. عبثًا. فخطر في بالي دوناتو سارّاتوري، وتذكَّرتُ إيسكيا، وشاطئ مارونتي، تذكَّرتُ أيضًا أنَّه يكتب في صحيفة «روما». أجبتُ:

«أقرأ «روما»».

ارتسمت شبه ابتسامة متهكِّمة على وجه الأستاذة، وراحت منذ اليوم التالي تمرِّر إليَّ جرائدها. كانت تشتري جريدتين، وأحيانًا ثلاثًا، وبعد المدرسة تهبني إحداها، فأشكرها، وأعود إلى البيت ممتعضة ممَّا كان يبدو لي حينها واجبًا مدرسيًا إضافيًا.

في البدء، كنت أترك الجريدة في مكان ما من البيت، وأؤجِّل

Telegram: Somrlibrary

قراءتها ريثما أُنهي واجباتي. وفي المساء، تختفي الجريدة، لأكتشف أنّ والدي استحوذ عليها ليقرأها، إمّا على السرير وإمّا في المرحاض. فاعتدتُ أن أخفيها بين كتبي، وأخرجها في الليل فقط، حين ينام الجميع. وتارة، تكون من نصيبي جريدة الاتّحاد «أونيتا»، وتارة «ال ماتينو» و«كوريري ديلا سيرا» أحيانًا؛ لكنّني كنت أواجه صعوبة في الجرائد الثلاث معًا، كما لو كنت شغوفة، رُغمًا عنّي، بقصّة مصوَّرة مسلسلة لا أعرف شيئًا عن حلقاتها السابقة. فأنتقل من عمودٍ إلى آخر اضطرارًا أكثر من كونه اهتمامًا حقيقيًّا؛ وهكذا، حتى تعاملتُ مع الأمر كأيّ فرضٍ من الفروض المدرسيَّة: ما لا أستطيع إدراكه اليوم، من شدَّة الإلحاح، أُدركه على مهلٍ في الغد.

وفي تلك الفترة، كنت نادرًا ما ألتقي ليلا. وفي بعض الأحيان، كنت أذهب إلى الملحمة الجديدة، في الفترة الفاصلة بين انصرافي من المدرسة والإسراع لإنجاز الواجبات. وكنت أشعر بالجوع، وهي تعي ذلك فتهمّ بتحضير شطيرة محشوّة بسخاء. وبينما ألتهم الشطيرة، كنت أرميها بعباراتٍ مغزولة بإيطاليَّة فصيحةٍ، كنت قد صادفتُها في كتب غالياني أو جرائدها. فعلى سبيل المثال، كنت أشير إلى «فظاعة معسكرات الإبادة النازيَّة»، وإلى «ما استطاع البشر ارتكابه وما قد يرتكبونه اليوم»، وإلى «التهديد النوويّ ووجوب السلام»، وإلى «أنَّنا، بسبب التغلُّب على قوى الطبيعة بالأدوات التي نبتكرها، نجد أنفسنا اليوم في مواجهة قوى أدواتنا الأشدّ خطورة من قوى الطبيعة». وأشير إلى «حاجتنا إلى ثقافة تواجه المعاناة وتتغلَّب عليها»، وإلى فكرة أنّ «الدين سيضمحلّ من وعي البشر حين نقتنع أخيرًا ببناء عالمٍ تسوده المساواة، لا يعرف التمييز الطبقيّ، ويوظّف العِلم في إدراكِ قضايا المجتمع والحياة». كنت أحدِّثها بهذه الأمور، لأنَّني أردتُ إظهار

Telegram: Somrlibrary

طاقاتي في نجاح متفوِّق (معدّل فوق الثمانية)، ولأنَّني لم أجد أحدًا غيرها أُتحفه بهذه العبارات، أو كنت آمل أن تردّ بفكرة ما، فنستعيد طقسنا القديم القائم على النقاش بيننا. لكنَّها كانت تكتفي بكلمات قليلة، بل تبدو حائرة، كأنَّها لا تفهم عمّا أتحدَّث بالضبط. وكان كلامها يُفضي بها إلى بعث الحياة في موضوع قديم، لطالما سبَّب مخاوفها في الماضي، ولم أكن أفهم سرّ رجوعها إليه وأنا أراها تستعيده وتنشط في تحليله. فكانت تسترسل في الحديث عن مصدر أموال الدون آخيل وأموال سولارا، في حضور كارمن أيضًا التي تومئ موافقةً الرأي. لكنْ، ما إن يدخل زبون ما، كانت ليلا تسكت وتصبح في منتهى اللطف والفاعليَّة، تقطّع اللحم وتزين المقدار، وتضع النقود في الصندوق.

وذات مرَّة، ظلَّت تركِّز أنظارها في ذلك الصندوق المفتوح، وقالت بنبرة متشائمة:

«هذه النقود، أحصل عليها بتعبي وتعب كارمن. لكنَّني لا أملك شيئًا منها يا لينو، كلّها لستيفانو. وستيفانو يكدّس هذه الأموال فوق أموال أبيه. ولولا تلك الأموال التي ظفرها الدون آخيل بالربا والحقيبة السوداء، وخبّأها في فراشه، لما كان لهذه الملحمة وجودٌ اليوم، ولا حتى ورشة الأحذية. ليس هذا فحسب، بل لم يكن ستيفانو ورينو ووالدي، ليبيعوا حذاء واحدًا لولا أموال آل سولارا ومعارفهم، وهم مرابون أيضًا. أترين حجم المصيبة التي أقحمتُ نفسي فيها؟»

واضح، لكنَّني لم أفهم الفائدة من هذه الأحاديث.

«هذه أمورٌ مضت»، قلت لها، وذكّرتها بالخلاصة التي وصلتْ إليها في إبَّان خطوبتها بستيفانو، «ما تقولينه بات خلف ظهرنا، نحن مختلفون».

Telegram: Somrlibrary

لكنَّها لم تبدُ مقتنعة بكلامي، مع أنَّها هي التي ابتكرتْ هذه النظريَّة. قالت لي، ولا أزال أذكر جملتها، بالعاميَّة:

«لا يعجبني ما فعلتُ، ولا ما أفعله الآن».

ظننتُ أنَّها عادت لتلتقي باسكوالي، فرأيه مطابقٌ دومًا لما كانت تقول. وظننتُ أنّ علاقتهما توطَّدت، لأنّ باسكوالي كان مرتبطًا بآدا، البائعة في الملحمة القديمة، وهو شقيق كارمن التي تعمل معها في الملحمة الجديدة. انصرفتُ عنها مكتئبة، أبذل كلّ جهدي لإخماد شعورٍ عانيتُ بسببه في طفولتي، في الفترة التي توثَّقت فيها صداقة ليلا بكارميلًا لتستبعداني. هدّأتُ خاطري بالدراسة حتى ساعة متأخِّرة.

وفي إحدى الليالي، كنت أقرأ «إل ماتينو»، وعيناي المنهكتان تقاومان النعاس، فإذا بنظري يقع على تعقيبٍ صغير بلا إمضاء باغتني بصعقة كهربائيَّةٍ أيقظتني. لم أصدِّق. التعقيب يتحدَّث عن المحلّ في ساحة الشهداء، ويُثني على اللوحة التي أنجزناها أنا وليلا.

قرأته ثم قرأته، وما زلتُ أذكر بعضًا من سطوره: «الفتاتان اللتان تعملان في ذلك المحلّ الرحيب في ساحة الشهداء، فضّلتا عدم ذكر اسم الفنَّان. خسارة. أيًّا يكن مبدع ذلك المزيج العجيب من الصورة والألوان، فإنَّه صاحب مخيِّلة طليعيَّة حداثيَّة تمسك بناصية المادَّة، ببراءة ربَّانيَّة، وقدرة خارجة عن المألوف أيضًا، فتصقلها وفقًا لمتطلِّبات ألم حميميّ وجبَّار». ويُكمل التعقيب، فيمتدح محلّ الأحذية بشكل واضحٍ، «إنَّه دلالة مهمَّة على الديناميَّة التي استحوذت عليها أسواق المدينة في السنوات الأخيرة».

لم يغمض لي جفن.

بعد الانصراف من المدرسة، هرعتُ أبحث عن ليلا. كان المحلّ مقفرًا، وكارمن عادت إلى البيت لتعتني بأمِّها، جوزيبينا، التي لم تكن

Telegram: Somrlibrary

بخير، وليلا تتكلَّم هاتفيًا مع موزِّع من إحدى الضواحي لم يأت لتسليم جبن الموتزاريلّا أو البروفولون، لم أعد أذكر. سمعتها تصيح، وتتفوَّه بكلمات نابية، وذُعرتُ لهذا. وفكَّرتُ في أنَّ الرجل، الذي تتكلَّم معه، قد يكون متقدِّمًا في السنِّ، وقد يشعر بالإهانة، فيرسل أحد أبنائه لينتقم منها. لأنَّها تبالغ دومًا، قلت لنفسي. وحين أنهت المكالمة، تأفَّفتْ باستياء، واتَّجهتْ إليّ لتبرِّر لنفسها:

«لا يسمعون الكلام إن لم أخاطبهم بهذه الطريقة».

أعطيتها الجريدة. ألقت عليها نظرة شاردة، وقالت: «أعرفه مسبقًا». وشرحتْ لي أنّ التعقيب مبادرة من ميكيلي سولارا، وقد فعل ذلك من دون أن يستشير أحدًا كالعادة. انظري، قالت، وذهبت إلى الصندوق لتخرج منه زوجًا من الصفحات المقتطعة، وأعطتني إيَّاهما. حتى هاتان المقالتان تتحدَّثان عن المحلِّ في ساحة الشهداء. المقالة الأولى القصيرة منشورة في جريدة «روما»، ويُفرط فيها الكاتب بالثناء على آل سولارا، لكنَّه لا يدلي بأيِّ إشارة إلى اللوحة. والثانية، مقالة مطوَّلة نُشرت على ثلاثة أعمدة في جريدة «ناپولي نوتي»، وتتحدَّث عن المحلّ كأنَّه قصر ملكيّ؛ وتصف المكان بإيطاليَّة موغلة في التنميق لتُظهر محاسن التأثيث والإضاءة الصارخة والأحذية العجيبة، بل تصل إلى ذكر «لباقة الحوريَّتين الجذَّابتين، الآنسة جيليولا سبانيولو والآنسة جوزيبينا كارّاتشي، ولطفهما وجمالهما. وهما شابّتان رائعتان مزهرتان تُديران مشروعًا رائدًا على صعيد كلّ النشاطات التجاريَّة الواعدة في مدينتنا». وكان لا بدّ من الغوص حتى نهاية المقالة للعثور على إشارة إلى اللوحة، لكنَّها إشارة موجزة في سطور قليلة. كان كاتب المقالة يعرّف اللوحة على أنَّها «إحدى الخزعبلات الهابطة، ونغمة ناشزة في مكان ينعم بانسجام وأناقة لا مثيل لهما».

Telegram: Somrlibrary

«هل رأيت توقيع الكاتب؟» سألتني ليلا مستاءة.

كانت المقالة الصغيرة في جريدة «روما» موقّعة بعلامة د. س، ومقالة «ناپولي نوتي» تحمل توقيع دوناتو سارّاتوري، والد نينو.

«أجل».

«وما قولك؟»

«وماذا عليّ أن أقول؟»

«أبٌ كهذا ينجب ابنًا كذاك، هذا ما عليك قوله».

ضحكتْ من دون بهجة، ثم شرحت لي أنّ ميكيلي، نظرًا إلى النجاح المتصاعد الذي تشهده أحذية شيرولو ومحلّ سولارا، قرَّر أن يُعطي صدًى أوسع للمشروع، راح يوزِّع الإكراميّات هنا وهناك، فتهافتت صحف المدينة على تقديم المديح بكلٍّ سخاء. دعايةً وإعلانًا، مدفوعَي الأجر أيضًا. لا داعي لقراءتها. تلك المقالات لا تحتوي على كلمة صدق واحدة، قالت لي.

شعرتُ بالأسف. لم يعجبني أسلوبها في الاستخفاف بالجرائد التي كنت أسهر على قراءتها مضحِّية بلذّة النعاس. ولم يعجبني تشديدها على صلة الدم بين نينو وكاتب تينك المقالتين. ما ضرورة أن تربط نينو بأبيه، صانع العبارات المزوَّقة والمزيَّفة؟

Telegram: Somrlibrary

٣٠

في كلِّ الأحوال، حملتْ تلك العبارات اهتمامًا متزايدًا لمحلِّ سولارا وأحذية شيرولُّو في غضون زمن قصير. وكانت جيليولا وبينوتشا تتفاخران بالمديح الذي أغدقتْه الصحف عليهما، لكنّ النجاح لم يخفِّف النديَّة بينهما، وسرعان ما راحت كلٌّ منهما تنسب نجاح المحلّ إلى نفسها، وتعتبر الأخرى عقبة في وجه نجاحات أخرى. لكنَّهما اتَّفقتا دومًا على نقطة واحدة: لوحة ليلا عارٌ على المحلِّ. وكانتا تُسيئان معاملة أولئك الذين يُطلُّون برؤوسهم، ويتهامسون بأصواتهم الخفيضة، ليلقوا نظرة على اللوحة ليس إلَّا. ووضعتا مقالة جريدة «روما» ومقالة «نابولي نوتي» في إطارين أنيقين، وأهملتا مقالة «إل ماتينو».

حصل آل سولارا وآل كارّاتشي على أرباح كثيرة، بين عيد الميلاد وعيد الفصح. وستيفانو، على وجه الخصوص، تنفَّس الصعداء. فالملحمة الجديدة وتلك القديمة تدرّان الأرباح أيضًا، وورشة الأحذية تعمل في وتيرة متسارعة؛ والمحلُّ في ساحة الشهداء أكَّد ما كان يتوقَّعه دائمًا، وهو أنّ الأحذية التي صمَّمتها ليلا منذ أعوام لم تكن تُباع جيِّدًا في ريتيفيلو وشارع فوريا وشارع غاريبالدي فحسب، بل

Telegram: Somrlibrary

كانت أيضًا تلقى تقدير السادة الأثرياء، أولئك الذين يضعون أياديهم على محافظهم من دون خجل أو وجل. إنَّها سوق في غاية الأهمِّيَّة إذن، ويجب أن ينتهز الفرصة لتثبيت قدميه وتوسيع أعماله فيها.

وكدليل على النجاح، ما إن هلّ الربيع حتى بدأوا يصادفون أحذية مزوَّرة عن علامة شيرولّو تتربَّع في واجهات المحالّ في الضواحي. وكانت نسخة طبق الأصل عن تصاميم ليلا، مع بعض التعديلات الطفيفة عليها والزينة الإضافيَّة. وسرعان ما تدخّل ميكيلي ليضع حدًّا لرواجها، بالاعتراض تارة، وبالتهديد تارة أخرى. لكنَّه لم يكتف بهذا، بل خلص إلى ضرورة ابتكار تصاميم جديدة. ولهذا السبب، دعا ميكيلي إلى المحلِّ في ساحة الشهداء، ذات مساء، كلًّا من شقيقه مارتشيلُّو والزوجين كارّاتشي ورينو، وبالطبع جيليولا وبينوتشا. وللمفاجأة، جاء ستيفانو بمفرده، وقال إنّ زوجته تعتذر لأنَّها مرهقة.

لم ينظر الأَخَوان سولارا إلى تغيُّب ليلا بعين الارتياح. إن لم تكن ليلا معنا فعن أيِّ شيء نتحدَّث، قال ميكيلي، فاحتقنت جيليولا. وسرعان ما تدخّل رينو. أعلن أنَّه وأباه كانا قد فكّرا مسبقًا في تصاميم جديدة، وفي عرضها في أحد المعارض المزمع افتتاحه في مدينة أريتسو، وسط إيطاليا، في شهر سپتمبر؛ وكان يكذب بطبيعة الحال. حتى إنّ ميكيلي لم يصدِّقه، وازداد انفعاله. قال إنَّه لا بدّ من ضخّ منتوجات إبداعيَّة حقًّا، وليس أيّ بضاعة عاديَّة. ثم اتَّجه إلى ستيفانو:

«زوجتك المحترمة، وجودها ضروريّ. عليك أن تجبرها على المجيء إلى هنا».

فأجاب ستيفانو بلهجة عدائيَّة مثيرة للدهشة:

«زوجتي المحترمة تشقى طوال النهار في الملحمة، وفي المساء تبقى في المنزل كي تهتمّ بشؤوني».

Telegram: Somrlibrary

«حسنًا» قال ميكيلي متأفِّفًا، فاضطرب جمال وجهه الفتيّ بضع ثوانٍ، «لكن حاول أن تجعلها تهتمّ قليلًا بشؤوننا أيضًا».

تسبَّبت تلك الأمسية باستياء الجميع، لكنَّها لم تعجب بينوتشا وجيليولا تحديدًا. وكانت كلٌّ منهما، لأسباب مختلفة، لا تحتمل الأهمِّيَّة التي يعزوها ميكيلي إلى ليلا؛ فتحوّل استياؤهما في الأيَّام اللاحقة إلى مزاج متكدّر، يسبِّب الشجار بينهما حيال أيِّ مشكلة صغيرة.

وفي تلك الفترة ـ من شهر مارس على ما أظنّ ـ وقع حادثٌ لا أعرف تفاصيله كاملةً. في عصر أحد الأيَّام، وجّهت جيليولا صفعة إلى بينوتشا، خلال أحد مشاجراتهما اليوميَّة؛ فاشتكت بينوتشا إلى رينو الذي كان حينئذ يحسب نفسه أعلى من بناية شاهقة. دخل المحلّ بزهوّ، ووبّخ بشدَّة جيليولا، فردّت عليه بعدائيَّة فبالغ رينو وهدَّدها بتسريحها من العمل.

«منذ الغد»، قال لها، «تعودين إلى حشو المعجَّنات بالجبن».

وبعد قليل، ظهر ميكيلي. سحب رينو وهو يضحك إلى الخارج، إلى الساحة، ليريه لافتة المحلّ.

«يا صديقي»، قال له، «هذا اسمه محلّ سولارا. ليس لك الحقّ في المجيء إلى هنا لتقول لمحبوبتي: أنا أسرِّحك من العمل».

فانطلق رينو بهجمة مرتدَّة، ليذكِّر ميكيلي بأنّ كلّ بضاعة المحلّ كانت لصهره، وأنّه يصنِّع الأحذية شخصيًّا، وبالتالي له الحقّ. وكيف لا. في تلك الأثناء، عاودت جيليولا وبينوتشا الصياح بأشنع الكلمات في الداخل، حين شعرتا بالأمان الذي يوفِّره عشيق كلّ منهما. دخل الشابَّان على عَجَل، وحاولا أن يهدِّئا الفتاتين، لكنَّهما لم ينجحا. ففقد ميكيلي صبره حينئذ، وصرخ بأنَّه سيسرِّح كلتيهما. ليس هذا

Telegram: Somrlibrary

فحسب، بل أضاف متعمِّدًا أنَّه سيعيِّن ليلا في إدارة المحلّ.

ليلا؟

إدارة المحلّ؟

أُصيبت الفتاتان بالخَرَس فجأة، وصُدِمَ رينو أيضًا من تلك الفكرة. ثم استعادوا النقاش، وهذه المرَّة، مركِّزين في ذلك التصريح المريع. اتَّحدت جيليولا وبينوتشا، ومعهما رينو، ضدّ ميكيلي ـ ما مشكلتك، بِمَ تفيدك لينا؟ نحن هنا نُدرّ أرباحًا لا يمكنك انتقادها؟ أنا فكَّرتُ في التصاميم كلّها، وهي كانت طفلة حينذاك؛ ما الذي في وسعها ابتكاره. وازداد التوتُّر أكثر فأكثر. وكان للمشكلة أن تستمرّ طويلًا لولا وقوع الحادث الذي أشرتُ إليه. فجأة، لا أحد يعلم كيف! أصدرت لوحة ليلا صوتًا مبحوحًا ـ اللوحة بأشرطتها الكرتونيَّة السوداء، والصورة، والبقع المشبعة بالألوان ـ أشبه بتنهيدة مريض، واشتعلت بلسان لهب. بينوتشا كانت تُدير ظهرها للصورة حين وقع الحادث. ارتفع اللهيب خلفها، كأنَّه آتٍ من موقد سرِّيّ ولامس شعرها، فشبّ نارًا، وكاد يشتعل كلّه لولا تدخّل رينو مباشرة وإطفاؤه الحريق الذي شبَّ في رأسها بيديه العاريتين.

Telegram: Somrlibrary

٣١

اتَّفق رينو وميكيلي على إلقاء اللوم على جيليولا، لأنَّها كانت تدخِّن خلسة، ولديها منفضةٌ صغيرة. كان رينو واثقًا بأنَّ جيليولا تعمّدت هذا الحريق: ففي حين كانوا جميعهم منهمكين في العراك، دسَّت جيليولا النار في اللوحة، فاشتعلت في أقلِّ من ثانية بسبب امتلائها بالورق والصمغ والألوان. أمَّا ميكيلي، فكان أكثر اعتدالًا: من المعلوم أنّ جيليولا كانت تلهو بالولَّاعة باستمرار، ولم تنتبه للشعلة القريبة كثيرًا من الصورة، أي أنَّها لم تتعمَّد الحريق، وكانت مركِّزة في الجدال. لكنّ الفتاة أنكرت الفرضيَّتين، وألقت اللوم ـ بعدائيَّة مسعورة ـ على ليلا نفسها؛ أي على صورتها المشوَّهة التي اشتعلتْ من تلقاء نفسها، كما كان يحدث للشيطان حين يعمد إلى حرف القدِّيسين عن جادَّة الصواب فيتجلَّى في هيئة امرأة، لكنّ القدِّيسين يستعيذون بالمسيح، فيتحوَّل الشيطان إلى لهب ويتلاشى. ثم أردفت، لتدعم روايتها، بأنّ بينوتشا نفسها أخبرتها بأنّ نسيبتها قادرة على عدم الحمل، وإن لم تنجح في ذلك، كانت تسعى للإجهاض لتنكر هبات الربّ.

وازداد الحديث عن هذه الأباطيل، حين أخذ ميكيلي سولارا يتردَّد إلى الملحمة الجديدة بشكل شبه يوميّ. وكان يمضي وقتًا طويلًا

Telegram: Somrlibrary

في ممازحة ليلا وكارمن، حتى توهَّمت الأخيرة أنَّه كان يأتي لأجلها، فخشيت أن يبلغ أحدُ المغرضين حبيبَها إنتسو، الذي كان في الخدمة العسكريَّة في بيمونتي. ومن جهة أخرى، أُعجبتْ بالأمر، فأكثرت من غنجها أمامه. أمّا ليلا، فقد كانت تسخر من سولارا الشابّ، إذ تناهتْ إليها الإشاعات التي نشرتها حبيبته، وقالت له:

«من الأفضل أن تنصرف من هنا. فنحن ساحرتان، وخطيرتان جدًّا».

لكنَّني، في تلك الآونة، حين كنت أذهب لرؤيتها، لم أكن أجدها سعيدة أبدًا. كانت تتَّخذ لهجة مصطنعة، وتتحدَّث عن أيٍّ شيء بازدراء. هل هناك رضوض على ذراعيها؟ هل قسا عليها ستيفانو بلمسة وَلَهٍ مفرطة. هل عيناها حمراوان من شدَّة البكاء؟ ليس بكاء حزن بل دموع فرح. هل تَحْذَر من ميكيلي لأنَّه يستمتع في إيذاء الناس؟ كلَّا، كانت تقول، لأحرقنّه لو لمسني. أنا مَن يؤذي الناس.

ولطالما تمَّ التوافق على هذه النقطة الأخيرة. لكنّ جيليولا، تحديدًا، قطعتِ الشكّ باليقين: ليلا عاهرة مشعوذة، سحرتْ حبيبها؛ ولهذا، كان ينوي أن يوكل إليها إدارة المحلّ في ساحة الشهداء. انقطعت عن العمل لأيّام، تتقاذفها رياح اليأس والغيرة. ثم قرّرت التوجُّه إلى بينوتشا، فاتَّحدتا وانتقلتا إلى هجمة مباغتة. راحت بينوتشا تزدري شقيق ليلا وتصرخ في وجهه أكثر من مرَّة، وتنعته بالديُّوث السعيد بقرنيه. ثم قست عليه، وهو خطيبها، ووصفته بالعبد الذليل لسيّده ميكيلي. وهكذا، اتَّفق ستيفانو ورينو ذات مساء على انتظار سولارا الشابّ خارج المقهى؛ وحين ظهر أثارا معه نقاشًا عامًّا، لكنّ مغزاه كان كالتالي: دع ليلا وشأنها، عليها أن تعمل، وأنت تضيِّع وقتها. تلقَّف ميكيلي الرسالة على الفور، وردّ صارمًا:

Telegram: Somrlibrary

«إلامَ ترميان؟»

«إن لم تفهم المغزى، فهذا يعني أنَّك لا تريد أن تفهم».

«لا، يا صديقيَّ العزيزين، فأنتما لا تريدان أن تفهما ضروراتنا التجاريَّة. وإن كان الأمر كذلك، فعليّ أن أفكِّر فيها بنفسي».

«ماذا تقصد؟» سأل ستيفانو.

«زوجتك في الملحمة طاقة مهدورة».

«بأيّ معنى؟»

«زوجتك، في ساحة الشهداء، قادرة في غضون شهر على الوصول إلى نتائج لن تصل إليها أختك وجيليولا في مئة عام».

«وضِّحْ أكثر».

«شخصيَّة لينا قياديَّة يا ستيفانو. تطمح إلى تسلّم مسؤوليَّة ما. لا بدّ من أن تخترع الأشياء بنفسها. ولا بدّ من أن تفكِّر حالًا في تصميم أحذية جديدة».

تناقشوا طويلًا. وفي النهاية، توصَّلوا إلى اتِّفاق يحمل في طيّاته ألف خلاف. إذ استبعد ستيفانو بشكل مطلق أن تذهب زوجته للعمل في ساحة الشهداء، فالملحمة الجديدة كانت في أحسن حال بفضلها، ومن الغباء تسريحها من هناك؛ لكنَّه تعهّد أن يقنعها بالعمل على تصاميم جديدة، في أسرع وقت، تناسب الموسم الشتويّ على الأقلّ. فردّ ميكيلي بأنّ من الغباء ألّا توكل إدارة محلِّ الأحذية إلى ليلا، وأُجِّل النقاش ـ بنفور يوحي بالتهديد نوعًا ما ـ إلى ما بعد الصيف، واعتُبر تفرُّغ ليلا لتصميم أحذية جديدة أمرًا واقعًا.

«لا بدّ من أن تكون التصاميم راقية»، أوصى ميكيلي، «عليك أن تلحّ على هذه النقطة».

Telegram: Somrlibrary

«ستصنع كما يحلو لها كالعادة».

«في وسعي أن أنصحها، فهي تسمع منّي»، قال ميكيلي.

«لا لزوم لهذا».

مررتُ بليلا بعد هذا الاتّفاق بفترة قصيرة، وحدّثتني عنه بنفسها. كنت خارجة للتوّ من المدرسة، وكان الطقس حارًّا، وأشعر بالتعب. كانت وحيدة في الملحمة. وللوهلة الأولى، بدت لي في حالة جيِّدة. قالت إنَّها لن تصمِّم شيئًا، ولا حتى صَنْدلًا، أو خفًّا منزليًّا.

«سيغضبون».

«وما شأني بهم؟»

«إنَّها أموال يا ليلا».

«لديهم أموالٌ بما فيه الكفاية».

بدتْ مصمِّمة على موقفها كالعادة. لقد وُلدتْ هكذا، ما إن يأمرها أحد بالتركيز في شيءٍ ما حتى تتبدَّد الرغبة من قلبها. لكنَّني أدركتُ حالًا أنّ الموضوع ليس متعلِّقًا بشخصيَّتها، ولا حتى باشمئزازها من أشغال زوجها ورينو والأَخَوَين سولارا، ولعلّ الدردشات عن الشيوعيَّة مع باسكوالي وكارمن كرّست اشمئزازها ذاك. كان ثمَّة أمر آخر، حدّثتني عنه بهدوء وجدِّيّة.

«لا يخطر في بالي أيّ شيء»، قالت.

«هل جرّبتِ؟»

«أجل. لكنّ الحالة لم تعد كما كانت في سنّ الثانية عشرة».

فهمتُ أنَّها أبدعتْ ذلك الحذاء تلك المرَّة فقط، ولن تخرج بمثله أو أفضل منه. انتهت تلك اللعبة، ولم تعد قادرة عليها ثانية. كانت تنفر من رائحة الصمغ والجلود أيضًا، ولم تعد تستطيع تكرار ما فعلتْ

في الماضي. ثم إنّ كلّ شيء تغيّر. فمحلّ فرناندو الصغير غرق في الأجواء الجديدة، ومقاعد العمّال والآلات الثلاث. وبات والدها مستضعَفًا، لم يعد يتشاجر حتى مع ابنه الكبير، ويكتفي بالعمل ساكتًا. حتى الألفة تبدَّدت. لم تعد تشعر بأيّ رباط برينو، مع أنَّها كانت تعطف على أمِّها التي تأتي إلى الملحمة لتملأ حقائب التسوُّق مجّانًا، كما لو كانوا لا يزالون في زمن الشقاء، ومع أنَّها كانت لا تَني تقدِّم الهدايا إلى إخوتها الصغار. لقد فسدت طباعه، وتهشَّمت شخصيَّته، وخمد شعورها بضرورة مساعدته وصونه. فانعدمتْ كلّ الأسباب التي دفعتْ خيالها إلى ابتكار الأحذية، وأصاب القحل تلك التربة الخصبة التي نبت فيها ذلك الحلم. كانت فكرة مباغتة، قالت، أو بالأحرى وسيلة لأثبت لكِ أنَّني أُجيد فعل الكثير من الأشياء حتى لو انقطعتُ عن المدرسة. ثم قهقهتْ، ورمتني بنظرة ملتوية لتفهم انطباعي عن كلامها.

لم أُجبها، شعرتُ بعاطفة جيّاشة تمنعني من الجواب. هل كانت ليلا هكذا حقًّا؟ ألم تكن تتحلَّى باجتهادي العنيد؟ هل كانت تبدع في طرح الأفكار والأحذية والكلمات، كتابيَّة كانت أم شفويَّة، والخططِ المعقَّدة والغضب والإبداع. وكلّ هذا لتُظهر لي شيئًا يثبت جدارتها؟ وهل تبعثرتْ قدراتها حين انعدم ذلك السبب؟ وهل كانت عاجزة عن تكرار ما فرضته على صورتها أيضًا؟ هل كلّ ما تفعله ما هو إلَّا ثمرة فوضى المناسبات؟

بدا لي أنّ إحساسًا قديمًا بالتوتُّر، في أعماقي، يخمد. وتأثَّرتْ عواطفي بعينيها البرّاقتين وابتسامتها الحزينة. لكنّ هذه الحالة لم تدم طويلًا. تابعتْ كلامها، وتلمَّست جبينها بحركتها المعتادة، وقالت مكتئبة: «عليّ أن أثبت دومًا أنَّني ماهرة»، وأضافت بعبوس: «علّمني

Telegram: Somrlibrary

ستيفانو، حين افتتحنا هذا المحلّ، كيف أغشّ بالوزن. في البدء، صرختُ في وجهه، واتّهمته بأنّه لصّ. وقلت له: هكذا تنمّي أموالك إذن. لكنّني لم أقوَ على الصمود، وأظهرتُ له أنّني تعلّمتُ أساليبي الخاصّة وابتكرتُها بالغشّ سريعًا، وأريته إيّاها، ولا يكلّ ذهني عن التفكير في أساليب جديدة. إنّني أغشّكم كلّكم، أغشّ بالوزن وبأمور أخرى كثيرة. أغشّ الحيّ بأكمله. لا تثقي بي يا لينو، لا تثقي بما أقول ولا بما أفعل».

أشعرتْني بالضيق. كانت تتبدّل في غضون بضع ثوان، ولم أعد أعلم بما تفكّر. لماذا تحدّثني بهذه الطريقة الآن؟ لم أفهم إن كانت قد قرّرت ذلك أم أنّ الكلمات كانت تخرج من فمها لاإراديًا، كَبوحٍ متدفّقٍ يجرف في طريقه نيّتها الصادقة في توطيد علاقتنا، جرّاء حاجتها ـ الصادقة أيضًا ـ إلى تفريغ علاقتنا من أيّ ميزة خاصّة: انظري، إنّني أتعامل مع ستيفانو كما أتعامل معك، وأفعل الشيء ذاته مع الجميع، أفعل ما يحلو لي، سواءً أكان جميلًا أم قبيحًا، خيّرًا أم شرّيرًا. وشبكت يديها الناعمتين والطويلتين، إحداهما بالأخرى، وشدّت عليهما، وسألتني:

«هل سمعتِ ما تقوله جيليولا، عن الصورة، وكيف أنّها قد اشتعلت من تلقاء نفسها؟»

«ترّهات. جيليولا حانقة عليك».

صدحتْ بضحكة تليق بالمغفّلين، وكان شيء ما في داخلها يتلوّى بشدّة.

«لديّ ألمٌ هنا، خلف عينيّ، شيء ما يضغط بقوّة. أترين تلك السكاكين؟ إنّها حادّة جدًّا، لقد سننتُها منذ قليل على المشحذ. حين أقطّع السلامي، أفكّر في كمّيّة الدماء الموجودة في جسم الإنسان. أيّ

Telegram: Somrlibrary

شيء تُحقنينه سيأتيه يوم وينفجر، أو ربّما يشتعل من تلقاء نفسه ويحترق. كم أنا سعيدة بأنّ الصورة التي أظهر فيها بفستان العرس قد احترقت! كان عليها أن تحرق معها كلّ شيء: الزواج والمحلّ والأحذية والأَخَوَين سولارا، وكلّ شيء».

أحسستُ بأنَّها تخفق في الإفلات من ذلك الضيق، على الرَّغم من كلّ نقاشاتها وتصريحاتها وأفعالها. كانت تبدو ضحيَّة حزنٍ يصعب السيطرة عليه، ويضغط عليها يوميًّا منذ ليلة العرس. تأسَّفتُ لحالها، وقلت لها أن تهدأ، فأومأتْ بنعم.

«حاولي أن تستريحي».

«ساعديني».

«كيف؟»

«ابقي قربي».

«هذا ما أفعله».

«ليس صحيحًا. إنَّني أطلعك على كلّ أسراري، بما فيها الأكثر سوءًا، وأنت لا تقولين لي شيئًا».

«تُخطئين. فأنت الشخص الوحيد الذي لا أُخفي عنه شيئًا».

أومأتْ نافية بانفعال، وقالت:

«لا تتركيني، حتى لو كنت أفضل منِّي، حتى لو كنت متعلِّمة أكثر منِّي، لا تتركيني».

Telegram: Somrlibrary

٣٢

ضغطوا عليها حتى أضجروها، فتظاهرت بالخضوع لرغبتهم. قالت لستيفانو إنَّ من الممكن أن تصمِّم أحذية جديدة، فنقل الكلام إلى ميكيلي عند أوَّل مناسبة. وبعد ذلك استدعت رينو، وخاطبته تمامًا بما كان يتوق إلى سماعه منها منذ زمن:

«ابتكر التصاميم أنت، فأنا لست بقادرة. ابتكرها بمساعدة أبي، فأنتما ابنا المهنة وتُجيدان الشغل حقًّا. لكنْ، لا تخبرا أحدًا بذلك قبل أن تُعرَض التصاميم في السوق، وتحقِّق بيعًا عظيمًا. أخفيا الأمر حتى على ستيفانو».

«وإن فشلت التصاميم؟»

«سأتحمّل الذنب وحدي».

«وإن نجحت؟»

«سأعترف بالأمر، وأنت ستتقاضى مستحقَّاتك كاملة».

أُعجب رينو بتلك الكذبة كثيرًا. وبدأ العمل مع فرناندو، لكنَّه كان يمرّ إلى ليلا بسرِّيّة تامَّة ليُريها كيف خطرت الأفكار في باله. فتتفحَّص بنفسها التصاميم. كانت في البدء تتظاهر بالإعجاب، لأنَّها لا تحتمل تعابير وجهه المضطربة، وكي ترسله بعيدًا على عَجَل. وسرْعان

Telegram: Somrlibrary

ما ذُهلتْ بجودة الأحذية الجديدة، إذ كانت مبتَكرةً ومنسجمة مع تلك التي ملأت الأسواق، في آن واحد. وذات يوم، قالت لي ببهجة غير متوقَّعة: «ربَّما لم أبتكر ذلك الحذاء بنفسي، ربَّما كان من وحي خيال رينو حقًّا». وحينها، شعرتْ بثقل ينزاح عن عاتقها. استعادت الألفة تجاه أخيها، أو بالأحرى أدركتْ أنَّها بالغت معه في التجريح: لم يكن ممكنًا أن يتلاشى ذلك الرابط، ولن يتلاشى أبدًا، مهما فعل أخوها، حتى لو ذاب جسمه ليحلّ مكانه جرذٌ قبيح أو حصانٌ أرعن، أو أيّ حيوان آخر. افترضتْ أنّ الكذبة مكّنت رينو من كسب الثقة بنفسه، وهذا ما أعاده إلى أفكاره حينما كان يافعًا، فاكتشف أنَّه صاحب مهنة، وأنَّه ماهر حقًّا. وبالنسبة إليه، فقد كان سعيدًا كلَّما هنّأتْه شقيقته على عمله. وفي نهاية كلّ لقاء تشاوريّ، كان يهمس في أذنها طالبًا مفاتيح البيت ليمضي فيه ساعة من الوقت مع بينوتشا، بسرِّيَّة تامَّة أيضًا.

أمَّا أنا فحاولت أن أُظهر لها أنَّني سأكون دومًا صديقتها، ورحت أدعوها إلى الخروج يوم الأحد. ذات مرَّة، تمشَّينا حتى معرض «ما وراء البحر» مع اثنتين من رفيقاتي في المدرسة. غلب الحياء رفيقتيّ حين عرفتا أنّ ليلا متزوِّجة منذ أكثر من عام، وتصرّفتا باحترام ورصانة، كأنَّني أُجبرهما على الخروج مع والدتي. سألتْها واحدةٌ منهما متردِّدة:

«هل أنجبتِ طفلًا؟»

أومأت ليلا بلا.

«لا تحملين؟»

أومأتْ أيضًا بلا.

ومنذ تلك اللحظة، تكدَّرت الأمسية.

وفي منتصف مايو، أخذتها معي إلى منتدًى ثقافيّ، حيث شعرتُ

Telegram: Somrlibrary

بضرورة حضور ندوة لعالِم يُدعى جوزيبي مونتالنتي؛ فقط لأنّ غالياني هي التي نصحتني بالحضور. كانت تلك المرَّة الأولى التي نخوض فيها تجربة من هذا النوع، إذ كان مونتالنتي يُلقي ما يشبه الدرس، ليس علينا نحن الشبّان، بل على أناس أكبر منَّا جاؤوا خصِّيصًا لسماعه. وبقينا نستمع، وقد جلسنا في آخر الصالة العارية، ومللتُ بسرعة. فالأستاذة أرسلتني إلى تلك المحاضرة، ولم تكن موجودة هناك. همستُ لليلا: «فلننصرف»، لكنَّها رفضت، وهمستْ بأنَّها لا تمتلك شجاعة لتنهض، خشية أن تزعج الحاضرين. كانت تلك الخشية غريبة عن طباعها، وأعتقد أنّ شعورًا بالدونيَّة باغتها، أو ربَّما كانت مهتمَّة بموضوع المحاضرة ولم تشأ الاعتراف بذلك. بقينا حتى النهاية. تحدّث مونتالنتي عن داروين، ولم نكن نعرف مَن يكون. وعند الخروج، قلت لها ممازحة:

«تكلَّم على أمر أعرفه مسبقًا: أنتِ قردة».

لكنَّها لم تشأ المزاح.

«لا أريد أن أنسى هذا الأمر أبدًا»، قالت.

«أنَّك قردة؟»

«أنَّنا حيوانات».

«أنا وأنت؟»

«الجميع».

«لكنَّه قال إنَّ ثمَّة فروقًا كثيرة بيننا وبين القردة».

«حقًّا؟ وما هي؟ أمِّي ثقبتْ شحمتَي أذنيَّ كي أتزيَّن بالأقراط منذ وُلدتُ، بينما أنثى القرد لا تثقب آذان صغيراتها ولا تزيّنها بالأقراط؟»

استسلمنا لموجة ضحك وقهقهة، ورحنا نعدِّد فروقًا من هذا

Telegram: Somrlibrary

النوع، واحدًا تلو الآخر، واستمتعنا كثيرًا بابتكار فروق لا أصل لها أيضًا. وما إن عدنا إلى الحيّ، حتى زال صفاء مزاجنا. التقينا باسكوالي وآدا اللذين كانا يتمشّيان على طول الشارع العام، وعرفنا منهما أنّ ستيفانو لم يترك مكانًا إلّا بحث فيه عن ليلا، وكان قَلِقًا للغاية. اقترحتُ عليها أن أرافقها إلى البيت، فرفضتْ. وارتضت أن يوصلها باسكوالي وآدا بالسيَّارة.

لم أعرف السبب وراء بحث ستيفانو عنها إلّا في اليوم التالي. لم يكن لأنَّنا تأخَّرنا، ولا لأنَّه امتعض من زوجته التي تميل أحيانًا إلى قضاء وقتها الفارغ معي وليس معه. كان السبب أمرًا آخر. لقد تناهى إلى مسمعه للتوّ أنّ بينوتشا غالبًا ما تكون برفقة رينو في بيته. لقد عرف للتوّ أنَّهما يتعانقان على سريره، وأنّ ليلا هي التي تعطيهما المفتاح. وعرف للتوّ أيضًا أنّ بينوتشا كانت حاملًا. لكنْ، ما أفقده صوابه هو أنّ بينوتشا، ما إن صفعها على فسقها مع رينو، حتى صرخت فيه قائلة: «أنت تحسدني لأنَّني أنثى، ولينا لا، وتحسد رينو لأنَّه يعرف ما يفعله مع الإناث، وأنت لا». حين رأته مهتاجًا إلى ذلك الحدّ، وبعد أن أصغت إليه، وتذكَّرت الحشمة التي أظهرها ستيفانو تجاهها في فترة الخطوبة، انفجرتْ ليلا ضاحكة؛ فآثر زوجها الخروج للتنزُّه بالسيَّارة، كي لا يقتلها. تعتقد ليلا أنَّه خرج بحثًا عن عاهرة ما.

Telegram: Somrlibrary

٣٣

تمّ التحضير لزفاف رينو وبينوتشا على عَجَل. لم أنشغل به كثيرًا، فكان لديّ كثير من الدروس والتحضير للامتحانات النهائيَّة. وإضافة إلى هذا، حدث معي أمرٌ وضعني في حالة ارتباك شديد. كان من مواصفات الأستاذة غالياني أنَّها تخرق النهج الذي يسير عليه بقيَّة المدرِّسين، بلباقة قلّ مثيلها. إذ دعتني ـ أنا من دون سائر التلاميذ في المدرسة ـ إلى بيتها حيث يُقيم أبناؤها حفلًا.

لم يكن من المألوف حتى إنَّها تعيرني الكتب والجرائد، وأنَّها اقترحتْ عليّ المشاركة في مسيرة السلام وحضور ندوة علميَّة صعبة. تجاوزتْ كلّ الحدود حينذاك: أخذتْني على انفراد، وقدَّمت إليّ تلك الدعوة. «تعالي كما يحلو لك»، قالت لي، «بمفردك، أو برفقة أحد ما، مع خطيبك أو من دونه. ما يهمّ أن تحضري الحفل». هكذا، بلا مقدِّمات، قُبيل أيَّام من نهاية العام المدرسيّ، من دون أن تهتمّ بحجم ما عليّ دراسته، ولًا أن تعي خطورة الزلزال التي أحدثتْه في قلبي.

قبلتُ الدعوة على الفور، لكنَّني سرعان ما اكتشفتُ أنّ الشجاعة تنقصني للذهاب إلى بيتها. كان حضور حفل في بيت أستاذٍ ما يُعَدّ حدثًا مستحيلًا، فتخيلّوا أن يكون الحفل في بيت الأستاذة غالياني! شعرتُ كأنَّني في صدد المثول في القصر الملكيّ، والإعراب عن

إجلالي للملكة، والرقص مع الأمراء. كانت فرحة ورعدة في الآن ذاته، كهزّة عنيفة مفاجئة: كأنَّ أحدًا يسحبكِ من ذراعك؛ كأنَّكِ مرغمة على القيام بشيءٍ تعلمين جيِّدًا بأنَّك لا تصلحين له، ومع ذلك يجذبك وترغبين فيه، وتعلمين بأنَّك قد تتجنَّبين القيام به بكلِّ سرور، لو أنَّ الظروف تسمح لكِ بتجنُّبه. لا يبدو أنّ غالياني فكّرت، ولو لوهلة، في أنَّني لا أملك ثوبًا يليق بمناسبة كهذه. ففي الصفّ، كنت أرتدي مئزرًا مهلهلًا أسود اللون. وماذا كانت الأستاذة تتوقَّع أن تجد تحت ذلك المئزر: ثيابًا وسروالًا تشبه ثيابها وسروالها؟ تحت ذلك المئزر ثمَّة عَوَزٌ وشقاءٌ وتربية سيِّئة. كان لديّ حذاءٌ واحد قديم للغاية. واللباس الوحيد الذي بدا لي صالحًا لتلك المناسبة كان ذاك الذي ارتديته في عرس ليلا، لكنّ الطقس كان حارًّا، وذاك الفستان يصلح لشهر مارس وليس لأواخر مايو. وفي كلِّ الأحوال، لم تكن المشكلة في اللباس فقط، بل كانت في عزلتي، وارتباكي من أن أجد نفسي بين غرباء، وشبّان لهم أسلوبهم في النقاش والمزاح، ولهم أذواقهم التي كنت أجهلها كلِّيًا. فكَّرتُ في الطلب من ألفونسو أن يرافقني، لأنَّه كان لطيفًا معي دومًا. لكنَّني تذكَّرتُ أنَّه رفيقي في الصفّ، وغالياني لم تدعُ أحدًا من التلاميذ غيري. ما العمل؟ ظلّ القلق يحاصرني لأيَّام، وكدت أتكلَّم مع الأستاذة، وأختلق عذرًا ما. ثم خطر في ذهني أن أستشير ليلا.

كانت ليلا تمرّ في مرحلة متأزِّمة كالعادة، وقد لاحت على أحد خدَّيها بعض الرضوض المصفرّة. لم تتلقَّ النبأ بارتياح.

«لماذا تريدين الذهاب؟»

«لأنَّها دعتني».

«أين تسكن هذه الأستاذة؟»

«في شارع فيتوريو إيمانويلي».

«هل يشرف بيتها على البحر؟»

Telegram: Somrlibrary

«لا أدري».

«وماذا يعمل زوجها؟»

«طبيبٌ في مستشفى كوتونيو».

«وهل لا يزال أبناؤها يدرسون؟»

«لا أدري».

«أتريدين ثوبًا من ثيابي؟»

«تعلمين بأنَّ ثيابك لا تناسب جسمي».

«صدرك أكثر انتفاخًا من صدري، فقط».

«كلّ أطرافي أكثر انتفاخًا من أطرافك يا ليلا».

«لا أعرف ما أقول لك إذن».

«هل أعتذر عن الذهاب؟»

«هذا أفضل».

«حسنًا، لن أذهب».

كانت السعادة بقراري واضحة على وجهها. ودّعتها وخرجتُ من الملحمة، ودخلتُ في طريقٍ ذبلت أزهار الدفلى على جانبيها. سمعتُ ليلا تناديني، فعدت إلى الخلف.

«سأرافقك أنا»، قالت.

«إلى أين؟»

«إلى الحفلة».

«لن يدعك ستيفانو تذهبين».

«لا عليك بهذا. أخبريني إن كنت تودِّين أن أرافقك أم لا».

«أودّ بالتأكيد».

سُرَّتْ، حتى إنَّني لم أجرؤ على تغيير فكرتها. وفي طريق عودتي إلى المنزل، أحسستُ بأنّ وضعي يزداد سوءًا؛ إذ لم أستطع التغلُّب

Telegram: Somrlibrary

على أيِّ عقبة تعترض طريقي للذهاب إلى ذلك الحفل، كما أنّ ليلا أربكتني باقتراحها أكثر. اختلطت عليّ أسباب توتُّري، ولم أكن قادرة على تصنيفها؛ وحتى لو استطعت ذلك، كنت سأجد نفسي أمام إرهاصات متناقضة. فكنت أخشى أن يمنعها ستيفانو من الحضور. كنت أخشى أن يسمح لها بالحضور. خشيتُ أن ترتدي زيًّا صارخًا كما حين ذهبت إلى مقهى سولارا. وخشيتُ أنّ جمالها، تحت أيِّ رداء، سيسطع كالنجم ليثير رغبة الشبّان في لمس أيّ تفصيل من تفاصيله. كنت أخشى أن تعبِّر عن نفسها بالعامِّيَّة، وأن تتلفَّظ بعبارات سمجة، وأن يدركوا عدم نيلها سوى الشهادة الابتدائيَّة. وكنت أخشى أنَّها، ما إن تفتح فمها، حتى تسحر الجميع بذكائها، وعلى رأسهم غالياني. كنت أخشى أنّ الأستاذة ستجدها دعيّة وساذجة في آن واحد، وستقول لي: مَن تكون صديقتك هذه، لا تلتقيها بعد الآن. وكنت أخشى أن تفهم أنَّني لست سوى ظلّها المظلم، ولن تعتني بي بعدئذ، بل ستعتني بها وستودّ لقاءها ثانية، وستحثّها على العودة إلى الدراسة.

قرَّرتُ أن أتجنَّب الذهاب إلى الملحمة بعض الوقت. وأملتُ أن تنسى ليلا الحفل، وأن يحين الموعد وأذهب إليه خلسة عنها، وأقول لها بعد ذلك: لم تتواصلي معي بهذا الشأن؛ غير أنَّها جاءت تبحث عنِّي، الأمر الذي انقطعتْ عنه منذ زمن. كانت قد أقنعت ستيفانو ليس بتوصيلنا فقط، بل بإعادتنا لاحقًا أيضًا؛ وأرادت أن تعرف منِّي متى ينبغي لنا الوصول إلى بيت الأستاذة.

«ماذا سترتدين؟» سألتها بقلق.

«ما ترتدينه أنت».

«أنا سأرتدي قميصًا خفيفًا وتنُّورة».

«وأنا كذلك إذن».

«وهل أنت واثقة بأنّ ستيفانو سيوصلنا ويُعيدنا لاحقًا؟»

Telegram: Somrlibrary

«أجل».

«وكيف استطعت إقناعه؟»

أصدرت تنهيدة مشوبة بالفرح، وقالت إنَّها باتت تعرف جيِّدًا كيف تسيطر عليه.

«إن أردتُ شيئًا ما»، همستْ بصوت منخفض جدًّا كأنَّها لا تريد، هي نفسها، أن تسمع ما تقول، «يكفي أن أتصرَّف قليلًا كالعاهرة».

قالت هكذا حرفيًّا، وبالعامِّيَّة، وأضافت كلمات أكثر سوقيَّة، مبطَّنة بسخرية ذاتيَّة، كي تُريني اشمئزازها من زوجها، واشمئزازها من نفسها أيضًا. تضاعف قلقي. عليّ أن أُخبرها بأنَّني لم أعد أريد الذهاب إلى الحفل، قلت لنفسي. عليّ أن أخبرها بأنَّني غيَّرتُ فكرتي. كنت أعرف بالطبع أنّ ليلا المنضبطة، والتي تعمل منذ الصباح حتى المساء، كانت تخفي ليلا أخرى ليست طيِّعة وخاضعة، بل متمرِّدة وحرون تثير مخاوفي، وخصوصًا حينذاك وأنا أتحمَّل مسؤوليَّة اقتيادها إلى بيت غالياني. وكان يبدو أنّ رفضها تقبُّلَ الهزيمة هو الذي يُفسد طباعها أكثر. ما الذي قد يحدث إذا انتفضت بفعل أمر ما، في حضرة الأستاذة؟ ما الذي قد يحدث إذا قرَّرتْ أن تستخدم هذه اللغة التي استخدمتها معي حينها؟ قلت بحذر:

«لكنْ أرجوك ألَّا تتكلَّمي هكذا هناك».

نظرتْ إليّ بحيرة.

«ماذا تقصدين بـ «هكذا»؟»

«كما تتكلَّمين الآن».

صمتت لحظة، ثم سألتني:

«هل تخجلين بي؟»

Telegram: Somrlibrary

٣٤

أقسمتُ لها إنَّني لا أخجل بها، لكنَّني أخفيتُ عنها خشيتي من انطباعٍ سيِّئ قد تسبِّبه لي.

أوصلنا ستيفانو بسيَّارته المكشوفة حتى بوَّابة البناية التي تسكن فيها الأستاذة. كنت أجلس في الخلف، وهما في المقعدين الأماميَّيْن، وقد لفت انتباهي خاتماهما الغليظان حول إصبع كلٍّ منهما. وبينما كانت ليلا ترتدي تنُّورة وقميصًا خفيفًا كما وعدتْ، ولم تبالغ في التبرُّج، اللهم القليل من أحمر الشفاه، كانت ثياب ستيفانو تصلح للسهرات، وقد تزيّن بكثير من الذهب، ومسح ذقنه بعطر ما بعد الحلاقة الثاقب، كأنَّه كان يأمل أن نقول له في اللحظة الأخيرة: تعال معنا إلى الحفل. لم ندعُه طبعًا. اقتصرتْ كلماتي على عبارات الإطراء والشكر الجزيل، في حين نزلتْ ليلا من السيَّارة من دون أن تودّعه. فانطلق ستيفانو بسرعة، وأصدرت العجلات أنينًا مؤلمًا.

ذُهلنا بوجود المصعد، ولم نستخدمه. لم يحدث أن استخدمناه مطلقًا، حتى البناية الجديدة حيث تسكن ليلا لم تكن مزوَّدة بالمصعد، لذا خشينا أن نواجه مشكلة ما. وقد أخبرتني غاليانى بأنَّها تسكن في الطابق الرابع، وعلى باب بيتها لافتة باسم «د. أ. فريجيريو»، زوجها

Telegram: Somrlibrary

الطبيب والأستاذ المحاضر؛ لكنَّنا رحنا نتأكَّد من اللافتات في كلّ الطوابق. كنت أتقدَّم على السلالم، وليلا خلفي، بصمت، عتبة وراء عتبة. كم كانت البناية راقية، ومقابض الأبواب واللافتات النحاسيَّة عليها تلمع كالبريق، وكم كان قلبي ينبض خافقًا.

تعرّفنا إلى باب البيت بسهولة، إذ كانت الموسيقى المرتفعة تدلّ على البيت بوضوح، إضافة إلى غمغمة الحاضرين. رتّبتْ كلٌّ منَّا تنُّورتها، وأخفضتُ جورَبَيَّ اللذين كانا يطولان على ساقيّ، وعدّلتْ ليلا تسريحة شعرها برؤوس أصابعها. كان من الواضح أنّ كلتينا تخشى أن تغفل نفسها في لحظة شرودٍ عابرة، فيسقط قناع الرزانة الذي وضعناه على وجهينا. ضغطتُ على زرّ الجرس. انتظرنا، فلم يأت أحد ليفتح لنا. نظرتُ إلى ليلا، وضغطتُ مطوَّلًا من جديد. سمعنا صوت خطوات سريعة، وانفتح الباب. ظهر شابٌّ أسمر البشرة، قصير القامة، ذو وجه جميل ونظرة حيويَّة. وللوهلة الأولى، خمَّنتُ أن يكون في العشرين من عمره. قلت له متأثِّرة إنَّني تلميذة لدى الأستاذة غالياني؛ فلم يدعْني أكمل كلامي، وهتف ضاحكًا:

«إيلينا؟»

«أجل».

«كلّ مَن في البيت يعرفك، فأمِّي لا تفوّت مناسبة إلَّا وعذّبتنا بقراءة إنشاءاتك».

الشابّ يُدعى أرماندو، وكانت جملته تلك حاسمة لتحقنني بجرعة مباغتة من الثقة بالنفس. لا أزال أذكره إلى يومنا هذا، واقفًا هناك عند العتبة، وحضوره يضجّ باللطف واللباقة. وكان هو الشخص الأوَّل الذي أثبت لي عمليًّا جدوى الدخول إلى جوٍّ غريب لا حدود لصعوبة التوغُّل فيه، واكتشفتُ بفضله قيمة الشهرة الطيِّبة التي تسبق وصولك،

Telegram: Somrlibrary

وأنه لا يجدر بك فعل شيء كي يتقبّل الآخرون وجودك، فاسمك ملحوظ عندهم مسبقًا ويعرفون عنك شيئًا ما، وأنّ على الآخرين، الغرباء، أن يبذلوا جهدًا لينهلوا من مزاياك، وليس العكس. وإن كنت معتادة على انعدام المزايا، فإنّ تلك الميزة قد أمدّتني بالطاقة، وجعلتْ تحرُّكاتي عفويَّة. تلاشت كلّ أنواع القلق، ولم يعنِني بعد ذلك ما ستفعله ليلا من عدمه، بل نسيتُ حتى أن أقدِّم صديقتي إلى أرماندو، وأنا مشدوهة بحظوتي غير المتوقَّعة. وفي المقابل لم يبدُ أنّ أرماندو قد انتبه لوجودها. أفسح لي الطريق كما لو كنت آتية بمفردي، وما لبث يكلِّمني بسرور عن أمِّه التي تذكر اسمي باستمرار وتشيد بي دومًا. لحقتُ به متوخِّية الحذر، وأغلقت ليلا الباب.

كانت الشقَّة واسعة، والغرف مضاءة ومفتوحة بعضها على بعض، والسقوف عالية ومزوّقة بزخارف مزهرة. ذُهلتُ بالكتب الموجودة في كلّ مكان. كان في ذلك البيت كتب أكثر من مكتبة الحيّ، وثمَّة جدران مغطَّاة بأكملها بالرفوف حتى السقف. ناهيك بالموسيقى؛ والشبّان الذين يرقصون باهتياج في غرفة واسعة جدًّا وصارخة الإنارة. وبعضهم يدردش ويدخِّن. ومن البديهي أنَّهم يدرسون، وأنّ آباءهم درسوا أيضًا، مثل أرماندو: والدته أستاذة، ووالده طبيب جرَّاح، لم يكن حاضرًا ذلك المساء. اقتادنا الشابّ إلى شرفة صغيرة، مفتوحة على سماء رحبة وجوّ دافئ، ورائحة كثيفة من ورد الغليسين وزهور أخرى، ممزوجة برائحة نبيذ الفيرموت وحلويّات اللوز. رأينا المدينة تشعّ بالأضواء، أمام البحر المظلم. نادتني الأستاذة باسمي مبتهجة، وهي التي ذكّرتني بليلا التي كانت خلفي.

«هل هي صديقتك؟»

تلعثمتُ بشيء ما، وأدركتُ أنَّني لم أكن أعرف تقديم

Telegram: Somrlibrary

الأشخاص. «هذه أستاذتي. هي تدعى لينا. درسنا المرحلة الابتدائيَّة معًا» قلت. فأشادت غاليانِي بالصداقات الطويلة وبجّلتْها، وقالت إنَّ هذه الصداقات مهمَّة، وراسخة، وهلمّ جرًّا، مستخدمة عبارات عامَّة وهي تحدِّق إلى ليلا التي نجحت أخيرًا في نطق كلمات مختصرة، وحين انتبهتْ إلى أنّ الأستاذة تركِّز نظرها في خاتم الزواج، أخفتْه باليد الأخرى فورًا.

«هل أنت متزوِّجة؟»

«أجل».

«أنت في عمر إيلينا؟»

«أنا أكبر منها بأسبوعين».

نظرتْ غاليانِي حولها، وقالت لابنها:

«هل عرّفتهما إلى ناديا؟»

«لا».

«وماذا تنتظر؟»

«اهدئي يا ماما، لقد وصلنا للتوّ».

قالت لي الأستاذة:

«ناديا تودّ التعرُّف إليك. هذا محتال، لا تثقي به، لكنّ ناديا فتاة ذكيَّة، سترين كيف ستصبحان صديقتين، ستنال إعجابك حقًّا».

تركناها تدخّن وحيدة. فهمتُ أنّ ناديا شقيقة أرماندو الصغرى: ستَّة عشر عامًا من تقريع الرأس ـ عرَّفها بعدائيَّة مصطنعة ـ لقد نغّصت عليّ طفولتي. فأشرتُ بسخرية إلى المشكلات التي يُقحمنني فيها إخوتي الصغار، والتفتُّ إلى ليلا أبحث عن تأكيد لكلامي وأنا أضحك. لكنَّها ظلَّت بملامح جدِّيَّة، لم تتفوَّه بكلمة. عدنا إلى غرفة

Telegram: Somrlibrary

الرقص، وقد خفَّفوا من مستوى إنارتها حينذاك. ثمَّة أغنية لباول أنكا، أو ربَّما «يا لتلك السماء». من عاد يذكر! كان الراقصون يلتصق أحدهم بالآخر، كظلال منهَكة تتلوّى. انتهت الأغنية. وقبل أن ينير أحدهم الغرفة على مضض، شعرتُ بغصَّة في قلبي. تراءى لي نينو سارّاتوري. كان يشعل سيجارة، ووهج الجمرة انبلج من وجهه. لم أرَه منذ عام تقريبًا، وبدا لي أكبر سنًّا وأطول قامة، وشعره بات بتسريحة أكثر إهمالًا؛ بدا لي وسيمًا أكثر من أيِّ وقت مضى. وحينها، انتفض الضوء الكهربائيّ في أرجاء الغرفة، فعرفتُ الفتاة التي كانت ترقص معه. كانت الفتاة نفسها التي رأيتها تنتظره خارج المدرسة؛ فتاة رقيقة ووجهها منير، وهي التي أرغمتني على إدراك ظلّي الثقيل.

«ها هي»، قال أرماندو.

ناديا، كانت تلك الفتاة هي ابنة الأستاذة غالياني.

Telegram: Somrlibrary

٣٥

قد يبدو الأمر غريبًا، لكنّ ذلك الاكتشاف لم يفسد عليّ المتعة بوجودي بين أُناس محترمين، في ذلك البيت. كنت أعشق نينو. لم أكن أشكّ في هذا حينذاك ولا في السابق أبدًا. وبالتأكيد، كنت سأتألّم في مواجهة الدليل القاطع المتكرِّر مرارًا على أنَّني لن أحظى به يومًا. لكنّ هذا لم يحدث. فكنت أعلم مسبقًا بأنَّه مرتبط، وأنّ عشيقته أفضل منِّي في كلّ المستويات. أمَّا النبأ الطارئ، فكان أنّ عشيقته هي ابنة غالياني، وهي التي نشأت في ذلك البيت وترعرعت بين الكتب. وبدلًا من أن أتألَّم من هذا الأمر، أراني هدأتُ، فهذا ما يبرِّر اختيار أحدهما للآخر، ويجعل ارتباطهما حتميًّا ومنسجمًا مع التسلسل الطبيعيّ للأحداث. وفي المحصِّلة، شعرتُ بأنَّني قبالة مثال نموذجيّ في التكامل والتناسق، لا بدّ من أن أستمتع برؤيته من دون إبداء أيِّ تعليق.

وعلاوة على ذلك، حدث أنّ ناديا قفزتْ فجأة حين قال لها أخوها: «هذه إيلينا يا ناديا، تلميذة ماما»، وهبّتْ نحوي لتعانقني وتقول: «كم أنا سعيدة بمعرفتك يا إيلينا». ولم تُتِح لي الفرصة لأقول شيئًا، إذ راحت تُثني ـ بنبرة تخلو من هزليَّة شقيقها ـ على كتاباتي

Telegram: Somrlibrary

وأسلوبي في الكتابة، بلهجة حماسيَّة أشعرتني بأنَّني في الصفِّ أستمع إلى مديح أمِّها على إنشائي. وربَّما شعرتُ بسرور أكبر يومها، لأنَّ نينو وليلا كانا يستمعان إليها، وهما أكثر شخصين أتلهَّف إلى معرفة رأييهما في عملي. كانا هناك، وفي وسعهما التأكُّد من أنَّني مُحاطة بالتقدير والإعجاب في ذلك البيت.

كان الجوّ العام قائمًا على أحاديثٍ كتلك التي تجري بين الزملاء، لم أكن أحسبني قادرة على المشاركة فيها، وإذا بي غارقة في محادثة لائقة جعلتني أستعرض مستواي الرفيع باللغة الفصحى، والذي لا يشوبه أيّ تكلُّف كما يحدث عادة في المدرسة. سألتُ نينو عن رحلته إلى بريطانيا، وسألتُ ناديا عن الكتب التي تقرأُها والموسيقى التي تهواها. رقصتُ مع أرماندو تارة ومع شبَّان آخرين تارة أخرى، بلا توقُّف؛ وأحسستُ بمقدرتي على رقصة الروك أند رول من دون أن أهشِّم نظَّارتي التي فلتت منِّي أكثر من مرَّة. يا لها من أمسية عجيبة! في لحظةٍ ما، رأيتُ نينو يتجاذب أطراف الحديث مع ليلا ويدعوها إلى الرقص. لكنَّها رفضتْ، وخرجتْ من الغرفة وغابت عن الأنظار. ومضى كثير من الوقت ريثما عادت صديقتي إلى ذهني. وذلك بعد أن رقصنا كثيرًا، وفتحنا حوارًا مكثَّفًا مع أرماندو ونينو وشابَّين آخرين في عمريهما، وانتقلنا مع ناديا نحو الشرفة، للابتعاد عن حرارة الطقس، وأيضًا لإشراك غالياني في حوارنا، وقد كانتْ وحيدة هناك، تدخِّن وتنعم بالهواء المنعش. «تعالي»، قال لي أرماندو ممسكًا بيدي، فأجبته: «سأنادي صديقتي» وابتعدتُ عنه. رحت أبحث عن ليلا بين الغرف، والحرّ يُزعجني كثيرًا، إلى أن وجدتها وحيدة قبالة جدار مليء بالكتب.

«فلنذهب إلى الشرفة، هيَّا»، قلت.

Telegram: Somrlibrary

«وماذا نفعل هناك؟»

«نتنفَّس هواء منعشًا، وندردش».

«اذهبي أنت».

«هل مللتِ؟»

«لا، أنظر إلى الكتب».

«أرأيت ما أكثرها؟»

«أجل».

أحسستُ بأنَّها لم تكن سعيدة، لأنَّهم تجاهلوها. كلّ ذلك بسبب خاتم الزواج، قلت لنفسي، أو ربَّما لأنَّ جمالها غير معترف به في ذلك الوسط، حيث يهيمن جمال ناديا؛ بل ربَّما لأنَّها، على الرَّغم من زواجها، وحملها وإجهاضها، ومهارتها في تنمية الأموال، وابتكارها الأحذية، لم تكن معروفة في ذلك البيت؛ ولا تستطيع أن تُعلي من شأنها كما تفعل في الحيّ. أمَّا أنا، فبلى. وفجأة، أدركتُ أنَّني تخلَّصتُ من عقدة الاغتراب التي راودتني في يوم زفاف ليلا. فكنت أُجيد التعامل مع هؤلاء، وأشعر بالراحة معهم أكثر ممَّا أكون عليه مع أصدقاء الحيّ. والقلق الوحيد كان ما تسبِّبه لي ليلا بانعزالها وإصرارها على البقاء مهمّشة. سحبتها عن الكتب، وجررتُها إلى الشرفة.

وبينما كان أكثر المدعوِّين يتابعون رقصهم، وجدتُ مجموعة صغيرة، تتكوَّن من ثلاثة شبَّان أو أربعة مع شابَّتين، يُحيطون بالأستاذة. انفرد الذكور بالكلام، والأنثى الوحيدة التي كانت تعلِّق ساخرة هي غاليياني نفسها. فهمتُ فورًا أنّ الشبَّان الكبار، نينو وأرماندو وآخر يُدعى كارلو، لا يجدون بدًّا في مجابهتها. كانوا راغبين بالأحرى في المواجهة في ما بينهم، ولا يعتبرونها سوى المقدِّم المخوَّل تسليم سعفة النصر. كان أرماندو يجادل أمَّه، لكنَّه في الواقع

Telegram: Somrlibrary

يوجِّه كلامه إلى نينو. وكارلو يميل إلى مواقف الأستاذة، لكنَّه يسعى لتمييز أسبابه عن أسبابها وهو يجادل الآخرين. ونينو يردّ باحترامٍ مخالفًا رأي غالياني، ويشنّ هجومه على أرماندو من جهة، وعلى كارلو من الجهة الأخرى. أغواني النقاش، وكنت آذانًا صاغية. كانت كلماتهم كالبراعم التي تزهر في رأسي، فأتحمَّس وأقوم بإيماءات توحي بالمشاركة، أو لا أفهم معظمها، فأتراجع لإخفاء جهلي. وهذا الأمر جعلني أشعر بالغضب، لأنَّني لا أعرف عمّا يتحدَّثون، ولا من يكون فلانٌ، ولا أفهم الموضوع بالمجمل. كان ذاك النقاش أشبه بمقاطع صوتيَّة لا تحمل أيّ معنى، تثبت لي أنّ عالم الأشخاص والوقائع والأفكار معرّض للزوال، وأنّ قراءاتي الليليَّة لم تكن كافية، ويجدر بي أن أجتهد أكثر لأصل إلى درجة تسمح لي بالقول لكلٍّ من نينو وغالياني وكارلو وأرماندو: أجل، أفهم رأيك، أعرف. التهديد يطال الكوكب بأسره. الحرب النوويَّة. الاستعمار، والاستعمار الجديد. المستوطنون الأوروبيُّون في أفريقيا، ما يُعرف بالأقدام السوداء. منظَّمة الجيش السرِّيّ (أ.و.س.) وجبهة التحرير الوطنيَّة. حمّى القتل الجماعيّ. الديغوليَّة، الفاشيَّة. فرنسا وجيشها وعظمته وشرفه وإخلاصه. سارتر متشائم، لكنَّه يعوّل على الجماهير العاملة الشيوعيَّة في باريس. النهاية الفرنسيَّة البائسة، وتلك الإيطاليَّة أيضًا. الانفتاح على اليسار. جوزيبي سارغات وبييترو نيني. أمنتوري فانفاني ووجوده في لندن. ماكميلان. مؤتمر الديموقراطيِّين المسيحيِّين في مدينتنا. أتباع فانفاني، مورو واليسار الديموقراطيّ المسيحيّ. تورُّط الاشتراكيِّين في مستنقع السلطة. نحن الشيوعيِّين، نحن والطبقة البروليتاريَّة، سنلغي القوانين التي سنَّها يسار الوسط. وإن حدث هذا، فسينشأ حزب ماركسيّ/لينينيّ لترسيخ الديموقراطيَّة الاشتراكيَّة. هل رأيتم كيف

Telegram: Somrlibrary

تصرّف ليوني في افتتاح العام الدراسيّ؟ كان أرماندو يهزّ رأسه مشمئزًّا: ليس بالتخطيط وحده يتغيّر العالم. لا بدّ من سفك الدماء. العنف ضروريّ. فيجيبه نينو بهدوء: التخطيط أداة لا غنى عنها. يا له من نقاش مكثّف وعميق. كانت غالياني تحاول تهدئة الوضع. كم كانوا واسعي الاطّلاع على ما يجري في العالم كلّه! وفي لحظة ما، أشار نينو إلى أميركا بلطف، وتفوّه بكلمات إنكليزيّة كما لو كان بريطانيًّا. لاحظتُ أنَّ صوته تضخّم في غضون عام واحد، وأصبح أجشّ وأقلّ حدّة ممّا كان عليه حين تحدَّثنا في عرس ليلا، ثم في المدرسة. أشار إلى بيروت أيضًا كأنّه زارها، وتحدَّث عن دانيلو دولتشي ومارتن لوثر كينغ وبرتراند راسل. أظهر تأييده تشكيلًا يسمّيه «الكتيبة العالميَّة من أجل السلام»، وانتقد أرماندو الذي تحدّث عنها بازدراء. ثم اتَّقَدَ حماسةً ورفع نبرته. كم كان وسيمًا! قال إنّ العالم لديه القدرات التقنيَّة اللازمة لمحو الاستعمار والجوع والحروب عن وجه الأرض. أصغيتُ إليه وعواطفي تلتهب. شعرتُ بالحاجة، كما منذ وقت مضى، إلى العناية به وحمايته والدفاع عنه ومساندته في أيِّ شيء قد يفعله خلال حياته؛ على الرَّغم من أنَّني كنت أشعر بالتيه بين مفاهيم كثيرة لا أعرف عنها شيئًا. فما هي الديغوليَّة، وال «أ.و.س.»، والديموقراطيَّة الاشتراكيَّة، والانفتاح على اليسار؟ ومن هم دانيلو دولتشي وبرتراند راسل والأقدام السوداء وأتباع فانفاني؟ وما الذي حدث في بيروت وما الذي حدث في الجزائر؟ في تلك اللحظة بالذات، حسدتُ ناديا التي كانت جالسة قربه كإلٰهة صغرى ومشرقة في آن واحد. ثم وجدتُ نفسي أتلفّظ جملًا كما لو لم أكن قد قرَّرتُ فعل ذلك بنفسي، كما لو أنّ شخصًا آخر، أكثر وثوقًا بنفسه وأكثر علمًا منِّي، قرَّر التكلُّم عبر لساني. أخذتُ الفرصة بالكلام من دون أن

Telegram: Somrlibrary

أعرف ما الذي سأقوله. لكنَّ بعض الأفكار استيقظت في رأسي حين سمعتُ الآخرين يتناقشون. أفكار كنت قد قرأتها في كتب غاليانى وجرائدها؛ فغلبت الرغبة في التعبير الحياء. تكلَّمتُ بإيطاليَّة رفيعة، كنت قد تدرَّبتُ عليها بالترجمة من الإغريقيَّة واللاتينيَّة. انحزتُ إلى جانب نينو. قلت إنَّني لم أعد أريد العيش في عالم تسوده النزاعات والحروب مجدَّدًا. نحن، قلت، علينا ألَّا نكرِّرَ أخطاء الأجيال السابقة. يجب أن تكون الحرب ضدّ الترسانات النوويَّة، ضدَّ الحرب نفسها. وإن سمحنا لهم باستخدام تلك الأسلحة، فسنكون مذنبين أكثر من النازيِّين أعينهم. آهٍ، كم تأثَّرتُ وأنا أتكلَّم! وأحسستُ بأنَّ الدموع تغرورق في عينيّ. ثم ختمتُ بالقول إنَّنا في حاجة طارئة إلى تغيير العالم، وإنّ هنالك كثيرين من الطغاة يستعبدون شعوبهم. لكنّ التغيير يتمّ بوسائل سلميَّة.

لا أعلم إن قدّر الجميع كلامي. بدا لي أرماندو ممتعضًا، وثمَّة فتاة شقراء لا أعرف اسمها ترمقني بابتسامة متهكِّمة. لكنّ نينو كان يهزّ برأسه موافقًا حينما كنت أتكلَّم. وغاليانى حين عبّرت عن رأيها بعدي، أشارت إليّ مرَّتين، وكان من المؤثِّر أن أسمعها تقول: «وكما أحسنتْ إيلينا القول...». عمومًا، قامتْ ناديا بأجمل ردّة فعل. ابتعدت عن نينو، وجاءت لتهمس في أذني: «كم أنت ذكيَّة، وكم أنت شجاعة». أمَّا ليلا، فكانت إلى جانبي، لم تنبس ببنت شفة. ووكزتني عندما كانت الأستاذة تتحدَّث، وهتفت بالعامِّيَّة:

«أكاد أموت من الضجر، هلّا سألتهم أين الهاتف كي أتَّصل بستيفانو؟»

Telegram: Somrlibrary

٣٦

لم أقدِّر حجم إحباط ليلا في تلك الأمسية إلَّا حين قرأتُ دفاترها. أقرّت بأنَّها هي التي طلبتْ أن ترافقني. كانت تظنُّ أنَّها ستخرج من جوّ الملحمة لتستمتع معي، وتشارك في عالمي الغامض الآخذ في الاتِّساع، وتتعرَّف إلى الأستاذة غالياني وتتحدَّث إليها. كانت تقرّ بأملها في إيجاد وسيلة كي لا تترك انطباعًا سيِّئًا بأنَّها متيقِّنة من أنَّها أثارت إعجاب الذكور، كالعادة. غير أنَّها سرعان ما فقدتْ صوتها، وشعرتْ بثقل ظلّها وانعدام لباقتها وغياب جمالها. عدَّدتْ بعض التفاصيل: حتى عندما كنَّا جالستين، إحدانا إلى جانب الأخرى، رأت أنّ الجميع يتوجَّه بالكلام إليّ فقط؛ وجاؤوني بالحلويّات والمشروبات، ولم يهتمّ أحدٌ بوجودها؛ أرماندو أطلعني على لوحة عائليَّة تعود إلى القرن السابع عشر، وكلّمني عليها لمدَّة ربع ساعة: شعرتْ بأنَّه يعاملها كأنَّها غير قادرة على الفهم. لم يرحِّبوا بوجودها، ولم يرغبوا في معرفة أيِّ شيء عن شخصيَّتها. وضَّحتْ لها تلك الأمسية للمرَّة الأولى أنّ حياتها ستبقى رهن ستيفانو والملحمتين وزواج شقيقها ببينوتشا وحواراتها مع باسكوالي وكارمن وحربها البائسة مع الأَخَوَين سولارا. كتبتْ ليلا هذه التفاصيل وغيرها في الليلة نفسها،

Telegram: Somrlibrary

ربّما، أو في الصباح التالي في المحلِّ. كانت، طوال تلك الأمسية، تشعر بالضياع الحقيقيّ.

لكن، بينما كنَّا عائدين بالسيَّارة إلى الحيّ، لم تشر ولا بكلمة واحدة إلى هذا الشعور، بل استطاعت أن تُعبِّر عن لؤمها وشرورها لا غير. بدأت الهجوم في اللحظة التي جلست فيها في المقعد الأماميّ، حين سأل زوجها على مضض إن كنَّا قد أمضينا وقتًا ممتعًا. تركتُ الإجابة لها، لأنَّني كنت منهكة من التعب والتأثُّر والمتعة. وحينذاك، أخذتْ تهاجمني لتفسد عليّ بهجتي. قالت بالعامِّيَّة إنَّها لم تعرف الملل في حياتها قبل تلك السهرة. كان من الأفضل لو ذهبنا إلى السينما، قالت لزوجها شاكية، وقامت بحركة غريبة عنها، لم يكن القصد منها سوى جرحي وتذكيري: انظري، بغضّ النظر عن كلّ شيء، فأنا لديّ رجل وأنت ليس لديك شيء. ما زلتِ عذراء. تعرفين الكثير، لكنَّك تجهلين هذا الأمر. وراحت تداعب يده التي كانت تتحكَّم في مغيِّر السرعة. حتى مشاهدة التلفاز قد تكون أفضل من مؤانسة أشخاص خرائيِّين، قالت. لم يكدحوا للحصول على أيِّ شيء من مقتنيات بيوتهم، لا غرض ولا لوحة. الأثاث عمره مئة عام. والبيت ثلاثمئة عام على الأقلّ. والكتب أيضًا، بعضها حديث، لكنّ معظمها قديم جدًّا، يتراكم عليها الغبار، لأنَّهم لا يتصفَّحونها منذ زمن بعيد، وكلّها كتب بائدة عن القانون والتاريخ والعلوم والسياسة. جميعهم قرأوا ودرسوا في ذلك البيت، الآباء والأجداد وآباء الأجداد. منذ مئة عام لم يعملوا أقلّ من محامين وأطبَّاء وأساتذة. لهذا السبب يتكلَّمون بتلك الطريقة، ولهذا يلبسون ويأكلون ويتحرَّكون هكذا. إنَّهم يتصرَّفون على هذا النحو، لأنَّهم وُلدوا هكذا. لكنّ رؤوسهم تخلو من أيِّ فكرة تعنيهم هم؛ لم يبذلوا أيّ جهدٍ للوصول إلى تلك الأفكار. يعرفون كلّ

شيء ولا يعرفون شيئًا. قبّلت عنق زوجها، وداعبتْ شعره برؤوس أصابعها. لو أتيت معنا يا عزيزي ستيفانو، لما وجدت سوى ببغاوات لا تنقطع عن الصياح: كوكو، كوكو. لا يمكنك أن تفهم أيّ كلمة ممَّا يقولون، ولا يفهم أحدهم الآخر أيضًا. هل تعلم أنت ما هو الـ «أ.و.س.»؟ مثلًا، هل تعلم ما هو الانفتاح على اليسار؟ في المرَّة القادمة، لا تأخذيني معك يا لينو، بل خذي باسكوالي، سترين كيف ينال منهم جميعًا. إنَّهم ليسوا سوى قرود تتبوَّل وتتغوَّط في المرحاض بدلًا من الأرض، ولهذا ترينهم يتفاخرون بأنفسهم، ويدَّعون معرفة ما يجب فعله في الصين وألبانيا وفرنسا وكاتانغا. اسمعي منِّي يا لينو: حذار، فأنتِ أصبحت ببَّغاء الببَّغاوات. ثم توجَّهتْ إلى زوجها ضاحكة: كان عليك أن تراها يا ستيفانو، وتسمع صوتها: تشو تشو تشو. هلَّا أسمعتِ ستيفانو كيف تتكلَّمين معهم؟ أنت وابن سارّاتوري، متطابقان. «*الكتيبة العالميَّة من أجل السلام؛ نحن لدينا القدرات التقنيَّة والجوع والحروب*». هل تكدحين في المدرسة حقًّا لتتعلَّمي كيفيَّة الكلام بشأن تلك الترّهات، كما يفعل هو؟ «*من يستطِعْ حلّ المشكلات يعملْ من أجل السلام*». أحسنتَ يا هذا. هل تذكرين كيف كان ابن سارّاتوري يحلّ المشكلات؟ تذكرين، أليس كذلك؟ وتقتدين به؟ هل أنت أيضًا تتطلَّعين لتكوني أضحوكة الحيّ ويستقبلك أولئك القِماء في بيوتهم؟ تريدون أن تتركونا وحدنا نكابد الشقاء ونحطّم رؤوسنا، وأن تكتفوا أنتم بالببَّغائيَّة: كوكو، كوكو، الجوع والحروب والطبقة العاملة والسلام والسخافات الأخرى؟

صعقتني غوغائيّتُها، في الرحلة من شارع فيتوريو إيمانويلي إلى البيت، وشعرتُ بسمّها يحوّل ما بدا لي لحظة مهمَّة في حياتي إلى خطوة مزيَّفة تجعلني مُضحكة. قاومتُ كي لا أصدِّق كلامها. شعرتُ

Telegram: Somrlibrary

بأنَّها عدوٌّ حقيقيّ لي، عدوٌّ غاشم قادر على فعل أيٍّ شيء. كانت بارعة في إتلاف أعصاب الناس الطيِّبين، وإشعال صدورهم بنار الضغينة. أعدتُ تقويم ما قالته جيليولا وبينوتشا: في صورتها، كانت تحترق بنفسها كالشيطان. كرهتُها كثيرًا، وانتبه ستيفانو لذلك أيضًا؛ فحين توقَّف عند بوَّابة البناية وأنزلني من جانبه، قال مسترضيًا: «وداعًا يا لينو، ليلة سعيدة، لينا تمزح»، فغمغمتُ: «وداعًا» وانصرفتُ. وحين انطلقت السيَّارة ثانية، سمعتُ ليلا تصرخ موجِّهة الكلام إليّ، وهي تقلِّد ما بدا لها طبقة الصوت التي استخدمتُها في بيت غالياني: «وداعًا، ها، وداعًا!»

Telegram: Somrlibrary

٣٧

افتتحتْ تلك الأمسيةُ فترةً طويلة ومضنية من القطيعة الأولى بيننا.

بذلتُ جهدًا في استعادة توازني. ثمَّة ألف سبب للتوتُّر حتى تلك اللحظة، فكآبتها وإيغالها في التجريح قد ظهرا مرارًا. لكنَّها لم تذلَّني أبدًا بمثل ذلك الوضوح. أوقفتُ زياراتي لها في الملحمة. وعلى الرَّغم من أنَّها اشترت لي الكتب المدرسيَّة، وقمنا بذلك الرهان، فإنَّني لم أذهب لأخبرها بأنَّني نجحتُ بثماني علامات في شتّى الموادّ، عدا مادّتين بتسع علامات. بدأتُ بالعمل، بعد نهاية المدرسة مباشرة، في مكتبة في شارع ميتسوكانوني، واختفيتُ من الحيّ من دون أن أُعلمها بذلك. فكلَّما تذكَّرتُ نبرتها المتهكِّمة التي انبرتْ بها ذلك المساء، انزعجتُ وازددتُ كرهًا لها. بدا لي أن لا شيء يبرِّر لها ما قالتْ. لم يخطر في بالي، كما حدث في مناسبات أخرى، أنَّها قد شعرتْ بضرورة إهانتي كي تستطيع احتمال الإهانة التي وجَّهتها إليَّ.

حصلتُ على تأكيد بأنَّني أبليتُ بلاءً حسنًا في تلك الأمسية، كي أخفِّف إحساسي بالانقطاع عنها. كنت أتجوَّل في شارع ميتسوكانوني خلال استراحة الغداء، فإذا أحدهم يناديني. إنَّه أرماندو، كان ذاهبًا لإجراء امتحان. اكتشفتُ أنَّه يدرس الطبّ وأنّ الامتحان صعب. وقبل

Telegram: Somrlibrary

أن يتَّجه نحو سان دومينيكو ماجوري، بقي بعض الوقت معي على الرَّغم من استعجاله، وغمرني بالتهاني، وعاد يتحدَّث بالسياسة. وفي المساء، عاد إلى المكتبة، حصل على ثمانٍ وعشرين درجة من أصل ثلاثين، وكان سعيدًا. طلب منّي رقم الهاتف، فقلت إنَّني لا أملك هاتفًا. فطلب منِّي أن نقوم بنزهة الأحد المقبل، فأخبرته بأنّ عليّ مساعدة أمِّي في المنزل. فراح يتكلَّم على أميركا اللاتينيَّة حيث ينوي الذهاب، حالما يتخرَّج ليشارك في معالجة أبناء الطبقة المحرومة، ويقنعهم بحمل السلاح ضدَّ المغتصبين حقوقهم، وظلَّ ينفش ريشه، حتى اضطررتُ إلى إخراجه قبل أن يغضب صاحب المكتبة. كنت سعيدة في المحصَّلة، لأنَّ من الواضح أنَّه كان معجبًا بي، وكنت لطيفة معه، لكنْ ليس إلى حدّ فتح الأبواب أمامه؛ فكلام ليلا أثّر فيّ سلبًا في كلِّ الأحوال. كنت أشعر بأنَّني لا أرتدي ملابس لائقة، ولا أسرّح شعري بشكل لائق، وأنّ نبرتي مصطنعة، وأنَّني جاهلة أيضًا. زد على ذلك أنَّني مع نهاية المدرسة، وغياب غالياني، فقدتُ الرغبة في قراءة الجرائد، ولم أشعر بحاجةٍ إلى إنفاق النقود في شرائها بسبب تردِّي الحال. وسرعان ما باتت نابولي، وإيطاليا والعالم، كغَوْرٍ ضبابيّ لا أعرف السير في مجاهله. كان أرماندو يتكلَّم، وأنا أهزّ رأسي بنعم، لكنَّني بالكاد فهمتُ شيئًا ممَّا قال.

وفي اليوم ذاته، تعرَّضتُ لمفاجأة أخرى. بينما كنت أكنس أرض المكتبة، ظهر أمامي نينو وناديا. عرفا من أرماندو مكان عملي فجاءا يُلقيان عليّ التحيَّة. واقترحا عليّ المجيء معهما إلى السينما الأحد المقبل. فاضطررتُ إلى الإجابة نفسها التي قدّمتها لأرماندو: لا أستطيع. أنا أعمل طوال الأسبوع، وأبي وأمِّي يريدانني في البيت يوم العطلة.

Telegram: Somrlibrary

«لكنَّكِ تستطيعين التنزُّه في الحيّ قليلًا؟»

«بالتأكيد».

«سنأتي إليك نحن إذن».

وانصرفا في الحال، حينما ناداني مالك المكتبة فاقدًا صبره أكثر من المعتاد. كان رجلًا يناهز الستِّين، قذر الملامح، سريع الغضب، ودنيء النظرات.

وفي ضحى يوم الأحد التالي، سمعتُ مَن يناديني من الفناء، وعرفتُ صوت نينو. أطللتُ برأسي، كان بمفرده. حاولتُ ببضع دقائق أن أبدو بمظهر مقبول، وهرعتُ إلى الأسفل، من دون أن أخبر أمِّي، وأنا أشعر بالسعادة والقلق معًا. وحين رأيته قبالتي، انقطعتْ أنفاسي. «معي عشر دقائق فقط»، قلت له بنبرة حزينة. لم نخرج للتنزّه في الشارع العام، بل اكتفينا بالتسكُّع بين البنايات. لماذا أتى من دون ناديا؟ ولماذا كلّف نفسه عناء المجيء إلى هناك مع أنَّها لم تكن تستطيع القدوم؟ أجاب عن تساؤلاتي من دون أن أطرحها عليه. لقد وصل أقرباء أبيها لزيارتهم، فاضطرّت إلى البقاء في المنزل، بينما جاء هو لأنَّه كان يرغب في رؤية الحيّ، ولأنّه أراد أن يعطيني شيئًا أقرأه أيضًا: العدد الأخير لمجلَّةٍ تُسمّى «وقائع جنوبيَّة». أعطاني المجلَّة مقطّب الأسارير، شكرتُه، وانبرى على نحو متناقض بانتقاد المجلَّة، حتى إنَّني تساءلتُ لماذا قرَّر أن يهديني إيَّاها. «إنَّها محدودة الأفق» قال، وأردف ضاحكًا: «مثل غالياني وأرماندو». ثم عاد إلى جدِّيَّته، وتحدّث بنبرةٍ أظهرته متقدِّمًا في السنّ. قال إنَّه اكتسب، بفضل أستاذتنا، كثيرًا من الإيجابيَّات، وإنّه من دونها كان ليعتبر المرحلة الثانويَّة مضْيعة للوقت، لكنْ لا بدّ من أن يحترس منها ويضع مسافة بينه وبينها. «سلبيّتها الأكبر» أكَّد، «أنَّها لا تحتمل مَن لديه رأس

Telegram: Somrlibrary

مختلف عن رأسها. احصلي منها على كلّ ما تقدِّمه لك، لكنْ اتَّخذي طريقك الخاصّ بعد ذلك». ثم عاد إلى المجلَّة. قال إنّ غاليانِي أيضًا تكتب فيها. وفجأة، ومن دون أيِّ رابط، أشار إلى ليلا: «وإن لم يكن من مشكلة، مرِّري المجلَّة إليها أيضًا». لم أقل له إنّ ليلا لم تعد تقرأ شيئًا، وإنَّها تؤدِّي دور السيِّدة كارّاتشي حاليًّا، ولم تحتفظ من صفاتها الطفوليَّة سوى باللؤم. غيَّرتُ الموضوع. سألته عن ناديا، فقال لي إنَّها قد تقوم برحلة طويلة مع عائلتها، بالسيَّارة حتى النرويج، ثم قد تُمضي ما يبقى من إجازة الصيف في أناكابري، حيث لدى والدها منزل عائليّ هناك.

«هل ستذهب للقائها؟»

«مرَّة أو مرَّتين فقط. عليّ أن أدرس».

«كيف حال أمّك؟»

«في أفضل حال. ستعود هذا العام إلى بارانو، بعد أن تصالحت مع مالكة النزل».

«هل ستمضي الإجازة مع عائلتك؟»

«أنا؟ مع والدي؟ مستحيل. سأبقى في إيسكيا، لكن لمتابعة شؤوني الخاصَّة».

«أين ستذهب؟»

«لديّ صديق لديه بيت في فوريو، يتركه له والداه طوال الصيف. وسنبقى فيه للدراسة. وأنتِ؟»

«سأظلّ أعمل في ميتسوكانوني حتى سبتمبر».

«حتى في عطلة منتصف أغسطس؟»

«لا، في منتصف أغسطس لا».

Telegram: Somrlibrary

ابتسم:

«تعالي إلى فوريو إذن، البيت كبير، وربَّما تبلغنا ناديا ليومين أو ثلاثة».

ابتسمتُ متأثِّرة. إلى فوريو؟ في إيسكيا؟ في بيت ليس فيه راشدون؟ هل يتذكَّر شاطئ مارونتي؟ هل يتذكَّر أنَّنا تبادلنا القبلات هناك؟ أنذرتُ بوجوب العودة. «سأمرّ ثانية» وَعَدني، «أريد أن أعرف رأيك في المجلَّة»، أضاف بصوت منخفض، ويداه غارقتان في جيبيه: «يعجبني الحديث معك».

كم تكلَّم حينذاك، بالفعل. أشعرني بالفخر، وتأثَّرتُ بسعادته. غمغمتُ: «ويعجبني أيضًا»، مع أنَّني لم أقل إلَّا كلمتين أو ثلاثًا. وبينما كنت أعود إلى البناية، وقع أمرٌ أرعب كلًّا منّا. إذ سمعنا في الفناء صوتًا يقضّ سكينة يوم الأحد، ورأيتُ ميلينا من خلال النافذة، تلوّح بذراعيها لتلفت انتباهنا. وحين التفت نينو لينظر إليها، مرتبكًا، أطلقتْ صرخة أقوى من سابقتها، صرخة مدوِّية بين فرحةٍ وأسًى. صرخت: دوناتو.

«مَن هذه؟» سأل نينو.

«ميلينا» قلت، «ألا تذكرها؟»

تأفَّف متكدّرًا.

«هل هي مستاءة منِّي؟»

«لا أدري».

«إنَّها تقول دوناتو».

«أجل».

التفت مرَّة أخرى لينظر نحو النافذة التي تتلوَّى عليها الأرملة، وتتابع صراخها بذلك الاسم.

Telegram: Somrlibrary

«هل يبدو لك أنَّني أشبه أبي؟»

«لا».

«متأكِّدة؟»

«أجل».

قال منفعلًا:

«سأذهب».

«هذا أفضل».

ابتعد بخطوات رشيقة، وقامة منحنية، بينما ظلَّ يتعالى نداء ميلينا، والتوتُّر ينال من صوتها: دوناتو، دوناتو، دوناتو.

لذت بالفرار أنا أيضًا، وعدت إلى البيت وقلبي يخفق بشدَّة، وذهني محمَّل بألف فكرة وفكرة. لم يكن نينو يشبه أباه ولا في أيّ ملمح بسيط: لا القامة، ولا الوجه، ولا الأسلوب، ولا حتى الصوت أو النظرة. كان طفرة شاذَّة، رقيقًا وعذبًا للغاية. كم كان غريبًا عن أيِّ شكل ذكوريّ آخر: في نابولي كلّها لا يوجد أحد يشبهه. وكان يقدّرني، مع أنَّني ما زلت تلميذة تنتظر امتحان الكفاءة، أمَّا هو فكان طالبًا في الجامعة. اهتمَّ بالمجيء حتى الحيّ في يوم الأحد. كان يقلق بشأني، جاء لينصحني بالاحتراس. أراد أن ينوِّه لي بأنّ غاليانى كانت طيِّبة ورائعة، إنَّما لديها أخطاؤها هي أيضًا. كما حمل إليّ تلك المجلَّة مقتنعًا بأنَّني قادرة على قراءتها والنقاش في موضوعاتها، ووصل به الاهتمام إلى دعوتي إلى فوريو في إيسكيا، لقضاء عطلة منتصف الصيف. فكرة صعبة، لم تكن دعوة حقيقيَّة، فهو كان يعلم جيِّدًا بأنّ أَبَوَيَّ ليسا كوالديْ ناديا. لم يكونا ليرسلاني هكذا؛ ومع هذا، دعاني بكلِّ الأحوال. لقد سمعتُ في كلماته التي قالها كلماتٍ أخرى لم يقلها، مثل: *أعوّل على رؤيتك، كم يسعدني لو استعدنا*

Telegram: Somrlibrary

نقاشاتنا في الميناء وعلى شاطئ مارونتي. أجل، أجل، سمعتُ صوتًا يجيبه في رأسي: وهذا يسعدني أيضًا، سآتي إليك، سأهرب من البيت في منتصف أغسطس، وليقعْ ما يقع.

أخفيتُ المجلَّة بين كتبي. لكنَّني في المساء، ما إن هجعتُ إلى السرير، حتى ألقيتُ نظرة على الفهرس، ففوجئتُ. ثمَّة مقالة لنينو. مقالة باسمه في تلك المجلَّة التي تعطي انطباعًا بالجدِّيَّة: كانت كأنَّها كتاب حقيقيّ، لا مجرَّد مجلَّة صغيرة للتلاميذ ذات ألوان كالحة وإخراج بائس، كالتي اقترحها عليّ لأنشر مواجهتي مع الراهب منذ عامين، بل كانت مجلَّة مهمَّة تكتب فيها أقلام بارزة وموجَّهة إلى قرّاء مثقَّفين. وها هو ذا، أنطونيو سارّاتوري، بالاسم الأصليّ والكنية. وأنا كنت أعرفه. وكان أكبر منِّي بعامين فقط.

قرأتُ مقاله، لم أفهم شيئًا، قرأته ثانية. كان المقال يناقش الحديث عن البرنامج السياسيّ والتخطيط الاجتماعيّ، يا إلٰهي، وكان مكتوبًا بأسلوب معقَّد أيضًا. لكنَّه كان جزءًا من ذكائه الخارق، وجزءًا من شخصيَّته اللامعة، وقد أهداني إيَّاه بلا غرور أو ادّعاء.

لي أنا.

انهمرت دموعي، ولم أترك المجلَّة حتى آخر الليل. هل أحدِّث ليلا عن الأمر؟ هل أعيرها المجلَّة؟ كلَّا، هذا شيء يخصُّني. لم أعد أريد أيّ علاقة تجمعني بها. مرحبًا، أهلًا، وكفى. ثرثرة عامَّة كحدٍّ أقصى. لأنَّها لم تكن تقدّرني. أمَّا الآخرون فبلى: أرماندو وناديا ونينو. هؤلاء هم أصدقائي، وإن أردت البوح بُحتُ لهم. لقد رأوا فيّ، في زمنٍ قياسيّ، ما صمَّمتْ هي على عدم رؤيته. لأنّها ترى الأمور بمنظور الحيّ. كانت رؤيتها لا تتعدّى رؤية ميلينا، الأرملة المجنونة، والتي ظنّت أنّ نينو كأبيه دوناتو، عشيقها السابق.

Telegram: Somrlibrary

٣٨

لم أكن أودّ حضور زفاف بينوتشا ورينو في البدء، لكنّ بينوتشا جاءت بنفسها لتسلِّمني الدعوة، وعاملتني بألفة مفرطة، وطلبتْ مشورتي في كثير من الشؤون، فكان يعزّ عليّ أن أردّها خائبة، مع أنّ الدعوة لم تشمل والديّ وإخوتي. عدم احترام، لكنْ ليس من جانبي، علّلتْ، بل من جانب ستيفانو. إذ لم يرفض شقيقها أن يمنحها بعضًا من أموال العائلة لتشتري بيتًا جديدًا فحسب (قال لها إنّ استثماراته في الأحذية والملحمة الجديدة تركته بلا سيولة)، بل قام شخصيًّا أيضًا بمحو نصف سكّان الحيّ من قائمة المدعوِّين، متذرِّعًا بأنّه أنفق من حسابه على فستان العرس وخدمة التصوير وحفل الاستقبال أيضًا. كان تصرُّفًا في غاية السوء، جعل رينو يغضب منها أكثر. إذ كان يحلم بعرسٍ أكثر أُبَّهة وتنظيمًا من عرس شقيقته، كما كان يريد بيتًا جديدًا يشرف على المحطَّة، كبيتها. وعلى الرَّغم من أنَّه أصبح مديرًا لورشة تصنيع الأحذية، فإنَّه لم يتحمَّل التكاليف بمفرده، لأنَّه كان مبذِّرًا كبيرًا، فقد اشترى للتوّ سيَّارة «فيات ألف ومئة»، ولم يعد في حوزته قرش واحد. لذا، وبعد إلحاح شديد، اتّفقا على الانتقال إلى السكن في بيت الدون آخيل القديم، وإجلاء ماريًّا من غرفة نومها. كانا يقصدان توفير ما

Telegram: Somrlibrary

أمكن ليشتريا بسرعة شقَّة أجمل من شقَّة ستيفانو وليلا. أخي حقير، ختمتْ بينوتشا بضغينة. حين يتعلَّق الأمر بزوجته، ترينه ينفق ويسرف بلا وازع، وحين يتعلَّق الأمر بأخته يدّعي عدم وجود المال.

امتنعتُ من إبداء أيِّ تعليق. ذهبتُ إلى العرس بصحبة ماريزا وألفونسو الذي بدا يترقَّب المناسبات الزاهية ليتحوَّل إلى شخص آخر، وتزول ملامح رفيق المقعد الدراسيّ عن وجهه، فيظهر شابًّا حسن الهيئة والسلوك، شعره أسود حالك، ووجهه يتلألأ بزرقة لحيته الكثيفة التي نبتتْ حتى وجنتيه، وعيناه ذابلتان، ولباسه يُبرز تفاصيل جسمه النحيف، وليس كبقيَّة الذكور ذوي الملابس الفضفاضة.

كنت آمل أن يضطرّ نينو إلى مرافقة أخته، فتحضَّرت للأمر، وقرأت مقالته وكلّ ما يتضمَّنه ذلك العدد من «وقائع جنوبيَّة». لكنّ ألفونسو بات يؤدِّي دور الفارس، فهو الذي يصطحبها في الذهاب وفي العودة. لم يأت نينو إذن. وبقيتُ ملتصقة بألفونسو وماريزا للحيلولة دون اللقاء بليلا وجهًا لوجه.

رأيتها في الكنيسة جالسة في الصفِّ الأوَّل، بين ستيفانو وماريزا، وكانت الأجمل، ومن المستحيل أن يغفلها البصر. في ما بعد، وفي أثناء وليمة الغداء التي أُقيمت في المطعم نفسه الذي استضاف وليمة عرسها في شارع أوراسيو، تصادفنا مرَّة واحدة وتبادلنا كلمات حذرة. ثم جلستُ إلى طاولة منعزلة مع ألفونسو وماريزا وفتى أشقر في الثالثة عشرة من العمر؛ وجلستْ ليلا مع ستيفانو إلى طاولة العروسين، مع المدعوِّين من علِّيَّة القوم. كم تغيَّرت أمور كثيرة في وقت قصير! لم يكن هناك أنطونيو ولا إنتسو، فهما لا يزالان في الخدمة العسكريَّة. تمَّت دعوة البائعتين في الملحمتين، كارمن وآدا، لكنّ باسكوالي لم يُدعَ، أو ربَّما اختار عدم الحضور كي لا ينضمّ إلى أولئك الذين كان

Telegram: Somrlibrary

يخطِّط لقتلهم بنفسه، كما صرّح خلال نقاشاته في مطاعم الپيتزا، ممازحًا تارة وجادًّا تارة أخرى. لم تُدعَ أمُّه أيضًا، جوزيبينا بيلوزو، كما تغيّبت ميلينا وأبناؤها. أمَّا آل كارّاتشي وآل شيرولُّو وآل سولارا، الشركاء بمسمَّيات متعدِّدة في الأعمال، فكانوا يجلسون معًا إلى مائدة العروسين مع القريبين الآتيين من فلورنسا، أي تاجر المعادن وزوجته. لاحظتُ أنّ ليلا تتكلَّم مع ميكيلي، وتبالغ في قهقهاتها. وكانت تنظر نحوي كلّ حين، فالتفت على عجل إلى الناحية الأخرى بمزيج من الانزعاج والألم. كم كانت تبالغ في الضحك. خطرت أمّي في ذهني. كانت مثلها تتقمّص المرأة المتزوِّجة، سمجة الأسلوب واللهجة العامِّيَّة. كانت تحوز اهتمام ميكيلي على الرَّغم من أنَّه كان إلى جانب خطيبته جيليولا، فأثار استياءها وغضبها لأنَّه كان يتجاهلها. وحده مارتشيلُّو، كان يتكلَّم معها بين الحين والآخر كي يُطمئنها. أمَّا ليلا، فكانت تريد أن تبالغ كي تؤلمنا جميعًا. انتبهتُ إلى أنّ نونتسيا وفرناندو كانا يرميان ابنتهما بنظرات طويلة تنمّ عن قلقهما.

انقضى النهار على خير، ما عدا حدثين لم يكن لهما أيّ عواقب شكليًّا. أوّل الحدثين: كان بين المدعوِّين أيضًا جينو، ابنُ الصيدلانيّ، لأنَّه ارتبط مؤخَّرًا بقريبة من الدرجة الثانية لآل كارّاتشي، فتاة هزيلة، شعرها كستنائيّ اللون وملتصق برأسها، وعيناها محاطتان بلون بنفسجيّ. كلَّما كبر جينو أصبح كريهًا أكثر من ذي قبل، ولم أكن أغفر لنفسي ارتباطي به في المراهقة. كان لئيمًا، وظلّ كذلك. ولكثرة تبجُّحه رسب ثانية. وكان قد استثناني من إلقاء التحيَّة منذ زمن، لكنَّه ظلَّ يلهث خلف ألفونسو، تارة يصبح صديقه وتارة ينهال عليه بإهانات ذات طابع جنسيّ. في تلك المناسبة، ربَّما من شدَّة الحسد (ألفونسو نجح بمعدَّل سبع علامات، وكان يرافق ماريزا وهي فتاة مشرقة الوجه

Telegram: Somrlibrary

وعيناها تضجّان حيويَّة)، تصرَّف بسفاهةٍ قلّ مثيلها. كان ذلك الفتى، الذي أسلفتُ ذكره، يجلس معنا إلى الطاولة، وكان وسيمًا وشديد الحياء. وهو ابن أحد أقارب نونتسيا الذي هاجر إلى ألمانيا وتزوَّج بألمانيّة. وبينما كنت أشعر بالتوتُّر ولا أُعير الفتى أيّ اهتمام، كان ألفونسو وماريزا يحدّثانه ليشعر بالارتياح، وخصوصًا ألفونسو الذي أخذ يتكلَّم معه مطوَّلًا، ويجود عليه إن أهمله الخدم، بل رافقه إلى الشرفة ليريه البحر. وحين عادا إلى الطاولة وهما يتمازحان، ترك جينو محبوبته التي حاولت أن تبقيه عندها وهي تضحك، وجاء ليجلس معنا. توجَّه بالكلام إلى الفتى بصوت منخفض، مشيرًا إلى ألفونسو:

«حذار من هذا اللعين، إنَّه لوطيّ. لقد رافقك للتوّ إلى الشرفة، وسيرافقك في المرَّة المقبلة إلى المرحاض».

تضرّج وجه ألفونسو دهشةً، ولم يردّ. ارتسمت على وجهه شبه ابتسامة محايدة، ولم يعبّر بأيّ كلمة. فثارت ثائرة ماريزا:

«كيف تسمح لنفسك؟»

«أسمح لنفسي لأنَّني أعرف».

«هات، أسمعني ما تعرف».

«متأكِّدة؟»

«أجل».

«حذارِ، فلا مشكلة لديَّ في قولها».

«قلها إذن».

«شقيق صديقتي كان ضيفًا عند آل كارّاتشي ذات مرَّة، وناما في السرير معًا».

«وبعد؟»

«لقد لمسه».

«من؟»

«هذا».

«أين محبوبتك؟»

«ها هي هناك».

«قل لتلك السفيهة إنّ في وسعي إثبات أنّ ألفونسو يحبّ الفتيات، بينما هي لا تستطيع أن تثبت هذا الشيء عنك».

حينذاك، التفتت نحو صديقها ولثمت ثغره: قبلة علنيَّة وطويلة، لم أتخيَّل نفسي شجاعة لفعل مثلها على مرأى الجميع.

كانت ليلا لا تزال تنظر نحوي كأنَّها تراقبني، وكانت أوَّل من انتبه لتلك القبلة، وصفّقت بيديها بحماسة عفويَّة. ثم صفّق ميكيلي ضاحكًا، وهتف ستيفانو مهنِّئًا أخاه بصوت مرتفع، ففعل مثله تاجر المعادن. وضجّت الصالة بالصفير، لكنّ ماريزا تظاهرت كأنَّ شيئًا لم يكن. وصرختْ في وجه جينو الذي ظلّ يشاهد القبلة بتعبير بليد، وهي تشبك يدها بيد ألفونسو بقوَّة حتى ابيضّ ظاهرها:

«والآن، اغرب عن وجهي وإلَّا صفعتُ وجهك».

نهض ابن الصيدلانيّ من دون أن يقول كلمة واحدة، وعاد إلى طاولته، حيث همستْ صاحبته غاضبة بأذنه شيئًا ما. فرمتهما ماريزا بنظرة أخيرة تعبِّر عن اشمئزازها.

ومنذ تلك اللحظة، غيّرتُ رأيي فيها. قدّرتُ شجاعتها، لقدرتها على إثبات حبّها أو لجدِّيَّة العلاقة التي تجمعها بألفونسو. ها قد عرفتُ شخصًا آخر كنت أتجاهله، فكَّرتُ بمرارة، وكنت مخطئة. كم كانت تبعيّتي لليلا تحجب عنّي الرؤية! وكم كان تصفيقها مبتذلًا، وكم كان

Telegram: Somrlibrary

متجانسًا مع سوقيّة كلٍّ من ميكيلي وستيفانو وتاجر المعادن!

وكانت ليلا بطلة الحدث الثاني. كنّا في ختام الحفل تقريبًا. نهضتُ لأذهب إلى المرحاض، ومررتُ أمام طاولة العروسين، فإذا بي أسمع زوجة ذلك التاجر تقهقه بشدَّة. استدرتُ، فرأيتُ بينوتشا واقفة متأهِّبة تحترس من تلك المرأة التي كانت تسحب فستان العرس بقوَّة إلى الأعلى، لتكشف عن ساقَيِ العروس الممتلئتين، وتقول لستيفانو:

«انظر ما أروع فخذَيْ شقيقتك، انظر إلى إستها وبطنها. في هذه الأيَّام، تعجبكم النساء النحيلات كمكنسة المرحاض، لكنّ الربّ خصّ النساء، كبينوتشا العزيزة، بالقدرة على الإنجاب».

كانت ليلا تُدني الكأس إلى فمها، فرشقتْها بالنبيذ على وجهها وفستانها المنسوج من حرير الشانتونغ، من دون أن يرفّ رمشها. وكالعادة، انتابني القلق: تظنّ أنَّها قادرة على فعل أيِّ شيء، وها نحن موشكون على الوقوع في مصيبة. اتَّجهتُ إلى المرحاض، وأغلقتُ على نفسي وبقيتُ هناك ما أمكنني من الوقت. لم أكن أريد رؤية ليلا غاضبة، ولا سماع صوتها. أردتُ البقاء في معزل عن مشكلاتها، وكنت أخشى أن تجرّني إلى معاناتها، وخفتُ أن أشعر بالواجب، وأصطفّ إلى جانبها كما اقتضت العادة منذ زمن. وحين خرجتُ، رأيت كلّ شيء على ما يرام. ستيفانو يثرثر مع تاجر المعادن وزوجته التي بقيتْ بفستانها المبقّع. والفرقة الموسيقيَّة تعزف، والأزواج يرقصون. إلَّا أنّ ليلا لم تكن هناك. رأيتُها خلف الباب الزجاجيّ، على الشرفة، تنظر إلى البحر.

Telegram: Somrlibrary

٣٩

رغبتُ في الذهاب إليها، وسرعان ما غيّرتُ رأيي. لا بدّ من أنَّها كانت غاضبة جدًّا، ولا شكّ في أنَّها ستعاملني بطريقة سيِّئة من شأنها أن تفاقم الوضع سوءًا بيننا. قرَّرتُ العودة إلى طاولتي، فإذا بفرناندو، أبيها، يدنو منِّي ويطلب منِّي الرقص معه بحياء شديد.

لم أجرؤ على الرفض، فرقصنا الفالس بصمت. اقتادني واثق الخطى إلى وسط الصالة، بين الأزواج المتألِّقين، وهو يشبك يدي بيده التي تتصبَّب عرقًا. لا بدّ من أنّ زوجته أوصته بأن ينقل إليّ رسالة ما، لكنَّه لم يتحلَّ بالشجاعة اللازمة. وحين انتهى الفالس، غمغم قائلًا، بصيغة احترام مفاجئة: «هلَّا تحدّثتِ قليلًا مع ليلا، من فضلك، فأمّها قلقة في شأنها». ثم أردف متعجرفًا: «حين ترغبين في اقتناء حذاء ما، لا تتردَّدي في المجيء إليّ»، وعاد مستعجلًا إلى طاولته.

أزعجني التلميح بمكافأة ما في حال كرّستُ وقتي للاعتناء بابنته. طلبتُ من ألفونسو وماريزا أن ننصرف، فوافقا على الفور. وظلَّتْ نظرات نونتسيا تتربَّص بي حتى غادرنا المطعم.

وفي الأيَّام اللاحقة، خاب أملي: كنت أظنَّ أنّ العمل في المكتبة يعني وجود كثير من الكتب تحت تصرّفي، ووجود الوقت لقراءتها،

Telegram: Somrlibrary

لكنّ حظّي كان عاثرًا. فمالك المكتبة ما انفكّ يعاملني كخادمة؛ وكلّما رآني واقفة، أمرني بحمل الصناديق الضخمة وتكديسها واحدًا فوق الآخر، ومسح الغبار عنها، ثم يطلب منّي الصعود والنزول مرارًا على سلّم خشبيّ كي يسترق النظر إلى ما تحت تنّورتي. ولم يَزُرْني أرماندو ثانيةً، بعد مجيئه تلك المرَّة التي أظهر فيها خالص المودَّة تجاهي. ونينو، على وجه الخصوص، لم يكرِّر زيارته، لا بصحبة ناديا ولا بمفرده. هل ذبل اهتمامه بي سريعًا؟ بدأتُ أشعر بالعزلة والضجر. كنت منهكة من الحرّ والتعب والنفور من نظرات مالك المكتبة وتلميحاته المشينة. والساعات تمرّ ببطء شديد. ما الذي أفعله في ذلك الكهف المظلم، بينما يتمشّى الشبّان برفقة الفتيات على الرصيف متوجِّهين إلى ذاك المبنى الغرائبيّ المسمّى الجامعة؛ ذاك المكان الذي كنت متأكِّدة من استحالة ذهابي إليه؟ أين نينو؟ هل ذهب إلى إيسكيا ليدرس؟ ترك لي المجلَّة، ومقالته، فقرأتُها مرَّةً، واثنتين، وثلاثًا، كأنَّني أُحضِّر لامتحان ما، فهل سيعود ليسألني عنها؟ فيمَ أخطأتُ؟ هل أبدو متحفِّظة؟ هل كان يتوقَّع أنَّني سأبحث عنه، ففضَّل عدم البحث عنّي؟ هل يجب أن أتكلَّم مع ألفونسو، ليُبقيني على تواصل مع ماريزا، ولأسألها عن شقيقها؟ ولماذا؟ نينو مرتبط بناديا، فما معنى أن أسأل أخته عنه؟ سأبدو مثيرة للسخرية.

يومًا بعد يوم، كنت أشعر بأنَّني أتحوَّل إلى نكرة، وقد ترسَّخ هذا الشعور لديَّ بعد الحفل بشكل غير متوقَّع، فشعرتُ بإحباط شديد. أستيقظ باكرًا، أهرع إلى موتسيكانوني، أكدّ طوال اليوم، ثم أعود إلى البيت متعبة، وتضغط على رأسي آلافُ الكلمات التي تعلَّمتها في المدرسة، ولا أقوى على تحريرها. تراودني التعاسة كلَّما تذكَّرتُ نقاشاتي مع نينو، وروعةَ الصيف في سي غاردن مع بنات بائعة

القرطاسيَّة، وأنطونيو. يا لقصَّتنا! كيف انتهت بغباء، كان هو الوحيد الذي أحبَّني حقًّا، لم يكن له مثيل. كنت، في الليل قبل أن أنام، أستذكر الرائحة التي تفوح من جلده، ومواعيدَنا عند المستنقعات، وقبلاتنا ولمساتنا في مصنع الكونسروة المتهالك.

وكنت أعصر الحزن على ذلك المنوال، حتى جاء باسكوالي وآدا وكارمن، ذات مساء بعد العشاء، يبحثون عنِّي. كان باسكوالي يشدّ يده بلفافة، لأنَّه أُصيب خلال العمل. اشترينا المثلَّجات وتناولناها في الحديقة الصغرى. سألتني كارمن من دون مقدِّمات، بعصبيَّة نوعًا ما، لماذا لم أعد أتردَّد إلى الملحمة، فأجبتها بأنَّني أعمل في موتسيكانوني، ولم يكن لديّ وقت. فقالت آدا، بفتور، إنَّنا نجد الوقت إذا كان يهمّنا أمر أصدقائنا، لكنْ لا بأس إن كنت هكذا. سألتها: «ماذا تقصدين؟». فأجابتني: «هكذا، بلا عواطف، ويكفي أن نتذكَّر كيف عاملتِ أخي». فذكّرتها، بنبرة حادَّة، بأنّ أخاها هو الذي تركني، فردّت: «أجل، هنيئًا لمن يصدِّقك. ثمَّة فارق بين من يترك ومن يُرغِم الآخر على تركه». فوافقتها كارمن: «حتى الصداقة» قالت، «يبدو أنَّها تُقطع من طرف ما، لكن إذا ركّزنا قليلًا نرى أنّ الطرف الآخر هو الذي قطعها». فغضبتُ ورفعتُ صوتي: «اسمعا، ليس ذنبي إن تباعدنا أنا ولينا». وهنا تدخّل باسكوالي: «لا يهمّ ذنب من، يا لينو. المهمّ أن نبقى قرب لينا». وراح يحدِّثني عن أسنانه وكيف ساعدته ليلا، وعن النقود التي كانت تعطيها لكارمن من تحت الطاولة، وكيف أنَّها كانت تُرسلها إلى أنطونيو الذي يمرّ في مرحلة عصيبة في الخدمة العسكريَّة. عليّ أن أعرف هذا، شئت أم أبيت. سألتُ بارتباكٍ عن أحوال محبوبي السابق، فأخبروني باستياء بأنَّه يعاني نوبات صرع، وأنَّه كان في أسوأ حالاته، لكنَّه رجل عنيد لا يُقهَر، وسيتجاوز المحنة. . . أمّا لينا؟

Telegram: Somrlibrary

«ما بها لينا؟»

«يريدون أخذها إلى الطبيب».

«من يريد أن يأخذها؟»

«أهلها وستيفانو وبينوتشا».

«لماذا؟»

«كي يعرفوا لماذا حملتْ مرَّة واحدة، ثم انقطع عنها الحمل».

«وهي؟»

«تعاند كالمجانين. لا تريد الذهاب».

أبديتُ عدم اكتراثي.

«وما الذي يمكنني فعله؟»

قالت كارمن:

«خذيها أنت إلى الطبيب».

٤٠

تكلَّمتُ مع ليلا. أخذتْ تضحك، وقالت إنَّها ستذهب إلى الطبيب في حال أقسمتُ إنَّني لست غاضبة منها.

«حسنًا».

«احلفي».

«أحلف».

«احلفي بإخوتك، احلفي بإيليزا».

قلت لها إنّ الذهاب إلى الطبيب ليس بالأمر المخيف، أمّا إذا كانت لا ترغب في الذهاب، فهذا لا يهمّني. فلتفعل ما يحلو لها. قالت بلجهة جدِّيَّة:

«لا تحلفين إذن».

«لا».

صمتت لوهلة ثم أخفضتْ عينيها، وأقرّت:

«حسنًا، أنا أخطأت».

تأفَّفتُ بانزعاج.

«اذهبي إلى الطبيب وأخبريني بالنتيجة».

Telegram: Somrlibrary

«ألن تأتي معي؟»

«إن تغيّبتُ طردني مالك المكتبة».

«أعيّنك عندي»، قالت ساخرة.

«اذهبي إلى الطبيب يا ليلا».

ذهبتْ إلى الطبيب برفقة ماريّا ونونتسيا وبينوتشا اللواتي صمّمن على المجيء، وكانت ليلا طيّعة ومؤدَّبة: لم تقم بزيارةٍ من هذا النوع من قبل. أطبقتْ شفتيها طوال الوقت ووسّعتْ عينيها. كان الطبيب متقدِّمًا في السنّ، رشّحته لهنّ قابلة الحيّ؛ وقال بكلمات حكيمة إنّ كلّ شيء على ما يرام، فارتاحت أمّها وحماتها، وتجهّم وجه بينوتشا، فقالت:

«ولماذا لا تحمل إذن، لماذا يموت الجنين إن حملت؟»

قطّب الطبيب جبينه، واستشفّ البغض في كلماتها.

«السيِّدة لا تزال صغيرة جدًّا»، قال، «عليها أن تتقوّى قليلًا».

تتقوَّى؟ لست متأكِّدة إن كان الطبيب قد نطق بهذه الكلمة تحديدًا، كان هذا ما وصل إلى مسمعي وأذهلني. هذا يعني أنّ ليلا ضعيفة على الرَّغم من القوَّة التي تُظهرها في كلّ لحظة. ويعني هذا أنَّها لا تُنجب الأطفال، أو لا يعيشون في رحمها، ليس لأنَّها تمتلك طاقة غامضة تبيدهم بها، بل لأنَّها على العكس لم تصبح امرأة بعد. خمدتْ نقمتي عليها. وفي الفِناء، حدّثتني عن العذاب الذي قاستْه بسبب تلك الزيارة الطبِّيَّة بعبارات سوقيَّة، سواء بحقّ الطبيب أو بحقّ مرافقاتها الثلاث. لم أُبْدِ أيّ علامة انزعاج، بل أثار الموضوع اهتمامي، إذ لم أكن قد ذهبتُ إلى عيادة طبيب أبدًا، ولا حتى إلى القابلة. ختمتْ كلامها بسخرية:

«كاد يمزِّقني بأداة حديديَّة، وأعطيته كثيرًا من النقود، كي

Telegram: Somrlibrary

أستخلص ماذا في النهاية؟ إنَّني في حاجة إلى التقوية».

«أيُّ نوع من التقوية؟»

«عليّ أن أسبح في البحر».

«لم أفهم».

«الشاطئ يا لينو، والشمس، والمياه المالحة. يبدو أنّ النساء إذا ذهبن إلى البحر تقوى أجسامهنّ وينجبن الأطفال».

تودّعنا بمزاج معتدل. كان لقاءً جيِّدًا في المحصِّلة.

ظهرتْ ثانية في اليوم التالي، كانت ودودة معي ومستاءة من زوجها. أراد ستيفانو أن يستأجر منزلًا في توري آنونتسياتا ليرسلها إلى هناك طوال شهرَيْ يوليو وأغسطس بصحبة نونتسيا وبينوتشا التي أرادت أن تتقوَّى هي أيضًا مع أنَّها لم تكن مضطرَّة. وكانوا يفكِّرون بشأن المحالّ. قد يعيّن ألفونسو في المحلّ في ساحة الشهداء مع جيليولا، ريثما تفتح المدرسة أبوابها، وقد تحلّ ماريّا مكان ليلا في الملحمة الجديدة. قالت لي محبطة:

«قد أنتحر إن بقيت شهرين كاملين مع أمِّي وبينوتشا».

«لكنَّك ستسبحين وتستحمّين تحت الشمس».

«لا أحبّ السباحة ولا أحبّ حمّام الشمس».

«لو كان لي أن أتقوَّى بدلًا عنك، لذهبتُ صباح الغد».

نظرتْ إليّ باستغراب، ثم قالت بهدوء:

«تعالي معي إذن».

«عليّ أن أعمل في موتسيكانوني».

تحمَّستْ، وكرَّرتْ استعدادها لتوظيفي عندها، من دون سخرية هذه المرَّة. «استقيلي» بدأتْ تعذّبني، «وسأدفع لك مقدار ما تحصلين

Telegram: Somrlibrary

عليه في المكتبة». ولم تتوقَّف، قالت إنّ كلّ شيء سيكون مقبولًا إذا وافقتُ على عرضها، حتى نكد بينوتشا ذات البطن الآخذة بالانتفاخ. رفضتُ بلطف. تخيّلتُ ما الذي سيحدث خلال هذين الشهرين في المنزل المتهالك في توري دل غريكو: شجار مع نونتسيا، وبكاء؛ شجار مع ستيفانو الذي كان ينوي المجيء مساء، كلّ مساء؛ شجار مع رينو الذي سيرافق صهره ليطمئنّ على بينوتشا؛ وشجار مستمرّ مع بينوتشا خصوصًا، ونميمة ومشاحنات نابعة من الحسد الساخر والإهانات الشنيعة.

«لا أستطيع»، قلت في النهاية صارمةً، «أمّي لا تسمح لي بذلك».

انصرفت ليلا غاضبة، بطريقة أوضحت أنّ التفاهم بيننا لا يزال هشًّا. وفي صباح اليوم التالي، فوجئتُ بنينو يظهر في المكتبة، شاحب الوجه هزيل الجسم. كان قد خضع لامتحان في إثر امتحان، أجرى أربعة امتحانات. وأنا التي كنت أشطح بخيالي لأتصوَّر فسحات طليقة خلف أسوار الجامعة، حيث يتناقش فيها الطلبة المجدِّون مع الشيوخ الحكماء طوال اليوم عن أفلاطون ويوهانس كيبلر. أصغيتُ إليه مسحورة، واقتصرتُ على القول مرارًا: «كم أنت مجتهد»! وحين سنحت لي الفرصة، هنّأته بكلمات كثيرة تخلو من أيّ معنى عن مقالته في «وقائع جنوبيَّة». ظلّ يسمعني جادًّا، من دون أن يقاطعني، حتى إنَّني لم أعد أعرف ما الذي يسعني قوله، لأثبت معرفتي التامَّة بمقالته. بدا سعيدًا في النهاية، وهتف بأن لا أحد قرأ المقالة بتلك العناية، لا غالياني ولا أرماندو ولا ناديا. وراح يحدِّثني عن أنَّه يفكِّر في مداخلات أخرى عن الموضوع نفسه، آملًا أن يسمحوا له بنشرها. بقيتُ أصغي إليه على عتبة المكتبة، متظاهرة بأنَّني لا أسمع مالك

Telegram: Somrlibrary

المكتبة وهو يناديني. وبعد صيحة همجيّة ابتلعت كلّ ما قبلها، غمغم نينو: ماذا يريد هذا اللعين؟ بقي هناك لا يكترثْ لشيء، وقال إنَّه سينطلق إلى إيسكيا في اليوم التالي، ومدّ يده مصافحًا، فصافحته، وشعرتُ برقَّة يده ونعومتها، فجذبني إليه وانحنى، ولثم شفتيّ بخفَّة. لحظة سريعة، ثم تركني بهدوء، تلمّس بأصابعه كفّ يدي، ومضى نحو ريتيفيلو. بقيتُ أنظر إليه وهو يبتعد من دون أن يلتفت خلفه، يمشي كزعيم شارد لا يخشى شيئًا في هذا العالم، لأنّ العالم كان موجودًا فقط ليركع أمامه.

لم يغمض لي جفن تلك الليلة. وفي الصباح، نهضتُ باكرًا، وهرعتُ إلى الملحمة الجديدة. وجدتُ ليلا وهي ترفع الستار المعدنيّ، ولم تكن كارمن قد وصلتْ بعد. لم أبح لها بشيء عن نينو، لكنَّني قلت لها، بصوت مَن يعرف أنّه يطلب المستحيل:

«إن ذهبتِ للسباحة في إيسكيا بدلًا من توري آنونتسياتا، قدّمتُ استقالتي وأتيتُ معك».

Telegram: Somrlibrary

٤١

رَسَوْنا على الجزيرة في الأحد الثاني من شهر يونيو، ستيفانو وليلا، رينو وبينوتشا، نونتسيا وأنا. كان الذَّكَران محمَّلين بالحقائب، ومتوجِّسين كما الأبطال القدامى حين يجدون أنفسهم في أراضٍ مجهولة. كانا متضايقين لأنَّهما لم يأتيا بسيَّارتيهما المزوَّدتين بعربة، ومستاءين من الاستيقاظ فجرًا والتخلِّي عن متعة الخمود التي تشلّ الحيّ في أيَّام العطل. وكانت زوجتاهما ترتديان ملابس تصلح للحفلات، وممتعضتين منهما، كلّ واحدة على طريقتها: بينوتشا، لأنّ رينو حمل كثيرًا من الحقائب ولم يترك لها أيّ شيء تحمله؛ ليلا، لأنّ ستيفانو كان يدّعي معرفة الطريق والمكان، بينما كان من الواضح أنَّه لا يعرف شيئًا. أمَّا نونتسيا، فكانت تشعر بأنَّهم بالكاد يحتملون وجودها، لذا كانت تدرس كلماتها باحتراس كي لا تزعج أحدًا. وأنا كنت الشخص الوحيد الذي يشعر بالسعادة حقًّا، حقيبتي على كتفي مليئة بأغراضي القليلة، تثيرني رائحة إيسكيا وأصواتها وألوانها التي جعلتني أستعيد ذكريات إجازتي الماضية ما إن رسوْنا.

جلسنا في عربتين آليَّتين، بالكاد اتَّسعت لنا، متكدِّسين نحن وحقائبنا بعضنا فوق بعض، يتصبَّب منَّا العرق. استأجروا المنزل على

Telegram: Somrlibrary

عَجَلٍ بوساطة موزِّع لحوم من سكّان الجزيرة، وكان المنزل يقع على طريقٍ تُفضي إلى مكان يُسمّى كووتو. كان عبارة عن مبنًى متواضع تملكه قريبة المؤجِّر، وهي امرأة هزيلة جدًّا تجاوزت الستِّين عامًا، عزباء، استقبلتنا بفظاظة واضحة. جرّ ستيفانو ورينو الحقائب على سلّم حجريّ ضيِّق وهما يتمازحان، كما كانا يجدّفان من شدَّة التعب. اقتادتنا مالكة المنزل في أجواء مظلمة، تغصّ بالصور المقدَّسة والفوانيس المشتعلة. وما إن فتحنا النوافذ على مصاريعها، حتى رأينا شريط البحر الطويل، خلف الشارع، خلف كروم العنب، خلف النخيل وأشجار الصنوبر. أو بالأحرى: كانت غرفتا النوم، اللتان صارتا من نصيب بينوتشا وليلا بعد مشاحنة قصيرة على طريقة «غرفتك أكبر، لا بل غرفتك هي الأكبر»، تشرفان على البحر؛ بينما نصيب نونتسيا غرفةٌ لها شبّاك صغير في الأعلى، لم نعرف أبدًا على ماذا يطلّ بصراحة. أمّا غرفتي، فقد كانت في منتهى الصغر، بالكاد تتَّسع للسرير، مطلّة على خمّ دجاج، يقع خلفه حقل قصبٍ صغير.

لم يكن ثمَّة طعامٌ هناك. وبناءً على اقتراح مالكة المنزل، وصلنا إلى مطعم شعبيّ مظلم ليس فيه زبائن غيرنا. جلسنا بارتياب، كي نملأ بطوننا لا أكثر. لكنْ في النهاية، حتى نونتسيا التي لم تكن تثق بأيِّ مطبخ غير مطبخها، وجدت الطعام لذيذًا، وأرادت أن تحمل معها شيئًا ما كي تتدبَّر أمر العشاء مساءً. لم يُدلِ ستيفانو بأيِّ إشارة تلمّح إلى طلب الحساب، إلى أن استسلم رينو، بعد طول تهرُّبٍ ومراوغة، ودفع الحساب عن الجميع. وحينها، اقترحنا نحن الفتيات أن نذهب لرؤية الشاطئ، لكنَّ الرجلين قاوما، وتثاءبا، وقالا إنَّهما منهكان. ازددنا إلحاحًا، ولاسيَّما ليلا. «لقد أكلنا كثيرًا» قالت، «ومن الصحّيّ أن نتمشَّى، والشاطئ قريب من هنا، هل ترغبين في المشي يا أمَّاه؟».

Telegram: Somrlibrary

انحازت أمَّها إلى الذَّكَرين، فعدنا جميعًا إلى المنزل.

وبعد تسكُّع مملٍّ بين الغرف، قال ستيفانو ورينو، بصوت واحدٍ تقريبًا، إنَّهما يريدان النوم قليلًا. ضحكا، تهامسا، ثم ضحكا مجدَّدًا، ثم أومآ إلى زوجتيهما، فتبعت كلٌّ واحدة منهما بعلَها إلى الغرفة على مضض. بقينا أنا ونونتسيا وحدنا ساعتين تقريبًا. تحقَّقنا من حالة المطبخ، وجدناه قذرًا، ما حدا بنونتسيا إلى الكدّ في تنظيف كلّ شيء بعناية فائقة: الأطباق، الكؤوس، أدوات الطعام، القدور. وكان عليّ أن أصارع كي أفرض عليها مساعدتي. فأوصتني بأن أحفظ عن ظهر قلب بعض الحاجات الضروريَّة لنسأل عنها مالكة المنزل، وحين اختلط عليها رقم الأغراض الناقصة، فوجئتْ بأنَّني تذكَّرتُ كلّ شيء، وقالت: «لهذا تحقِّقين نجاحًا في المدرسة إذن».

ظهر الأزاوج أخيرًا؛ في البدء ستيفانو وليلا، ثم رينو وبينوتشا. أعدتُ اقتراح الذهاب لرؤية الشاطئ، لكنّ الوقت مرَّ سريعًا بين شرب القهوة، ومزاح هذا، وثرثرة تلك، ونونتسيا التي تحضّر العشاء، وبينوتشا التي جلست في حضن رينو ودعته إلى تلمُّس بطنها، ثم همست في أذنه البقاء معها وتأجيل سفره إلى صباح الغد... وهكذا، لم نفعل شيئًا. وفي النهاية، راح الرجلان يلهجان بالعجلة. خشيا التأخُّر عن المركب، وراحا يجدِّفان لأنَّهما لم يأتيا بالسيَّارة، ركضا مسرعين بحثًا عن أحد يوصلهما إلى المرفأ. وانصرفا بلا وداع. فاغرورقت عينا بينوتشا بالدموع.

بدأنا، نحن الفتيات، نُفرغ الحقائب بصمت، ونرتِّب أغراضنا، بينما استبسلت نونتسيا في تلميع المرحاض. ولم نسترح إلَّا حين تأكَّدنا من أنّ الرجلين وصلا إلى المركب ولن يعودا، وبدأنا ندردش ونمزح. كان أمامنا أسبوع طويل لا ينبغي لنا خلاله إلَّا أن نعتني

بأنفسنا. قالت بينوتشا إنَّها تخاف البقاء وحيدة في غرفتها ـ كان في الغرفة صورة للعذراء المتألِّمة مع الكثير من السكاكين في القلب تلمع تحت ضياء الفانوس ـ وراحت لتنام مع ليلا. أغلقتُ على نفسي باب غرفتي لأستمتع بسرِّي: نينو في فوريو، ليس بعيدًا، وربَّما ألتقيه على الشاطئ في الغد. شعرتُ بأنَّني مجنونة، بلا وعي، لكنَّني ابتهجتُ بكلِّ الأحوال. كان جزءٌ منِّي قد ضجر من تأدية دور الشخص المهذَّب.

كان الطقس حارًّا، ففتحتُ النافذة. وجلستُ أصغي إلى نقنقة الدجاج وحفيف القصب، ثم انتبهتُ لوجود البعوض. أغلقتُ النافذة على عَجَل وأمضيتُ نحو ساعة أحدِّد مكان البعوض وأسحقه بأحد الكتب التي أعارتني إيَّاها غالياني، «الأعمال المسرحيَّة الكاملة»، لكاتبٍ يُدعى صموئيل بيكيت. لم أكن أريد أن يراني نينو على الساحل والندوب الحمر تملأ وجهي وجسمي؛ لم أكن أريد أن يقبض عليّ ومعي كتاب عن المسرح؛ مكان لم تكن قدماي قد وطأته أبدًا. وضعتُ بيكيت جانبًا، بعد أن تلوَّث بدماء البعوض السود، وبدأتُ أقرأ كتابًا في منتهى التعقيد يتحدَّث عن فكرة الأمَّة... حتى غفوتُ.

Telegram: Somrlibrary

٤٢

في الصباح، خرجت نونتسيا بحثًا عن مكان تتسوَّق فيه، بما أنَّها كانت تعتبر نفسها منتخبة للاعتناء بنا، بينما نزلنا نحن إلى الشاطئ، شاطئ شيتارا، الذي ظنَنَّاه يدعى شاتارا خلال إجازتنا الطويلة.

ما أزهى ملابس السباحة التي لاحت تحت فستانَي ليلا وبيونتشا الخفيفين: كانتا ترتديان فستانين خفيفين طبعًا، لأنّ زوجيهما، على الرَّغم من تحرُّرهما في أثناء الخطوبة، وخصوصًا ستيفانو، بَدوَا في ما بعد مناهضين لملابس السباحة السافرة؛ لكنّ ألوان النسيج الجديد كانت تلمع بحيويَّة، وطراز اللباس على الصدر والظهر ينسجم بأناقة مع بشرتيهما. ارتديتُ لباس السباحة المعتاد، تحت ثوب سماوي بالٍ طويل الكمّين، وقد أمسى فضفاضًا، وخاطته لي نيلا إنكاردو منذ عدَّة أعوام في بارانو. نزعتُ الثوب على مضض.

تمشَّينا طويلًا تحت أشعَّة الشمس، حتى وصلنا إلى منابع المياه الحارَّة، ثم عدنا إلى الخلف. سبحنا أنا وبينوتشا كثيرًا، خلافًا لليلا، مع أنَّها كانت هناك بقصد السباحة. لم يظهر نينو بالطبع، وأسفتُ لهذا، كنت مقتنعة بوجوب ظهوره كما يحدث في المعجزات. وحين أرادت الفتاتان العودة إلى المنزل، بقيتُ على الشاطئ، ومشيتُ على

Telegram: Somrlibrary

مضرب الأمواج نحو فوريو. وقد اسمرّ جلدي من شدَّة تعرُّضه لأشعَّة الشمس، حتى إنَّني في المساء ظننتُ أنَّني أصبتُ بالحمّى وبقيتُ في المنزل في الأيَّام التالية، وبرزت بقع الفطر على كتفيّ. فكرَّستُ نفسي لتنظيف البيت والطبخ والقراءة. تأثَّرتْ نونتسيا بنشاطي، ولم تفعل شيئًا سوى امتداحي. وكلّ مساء، بحجَّة أنَّني بقيتُ حبيسة المنزل هربًا من الشمس، كنت أرغم ليلا وبينا على الذهاب سيرًا إلى فوريو، للقيام بمسيرة طويلة. كنَّا نتسكَّع وسط البلدة ونتناول المثلَّجات. ما أجمل هذا المكان، تحسّرتْ بينوتشا، بينما كان حيّنا أشبه بالمقبرة. لكنَّني كنت أرى فوريو مقبرة أيضًا، لأنَّني لم أصادف نينو.

وقبل نهاية الأسبوع، اقترحتُ على ليلا زيارة بارانو وشاطئ مارونتي. وافقت ليلا بسرور، ولم تشأ بينوتشا أنَ تبقى مع نونتسيا لتشعر بالملل. انطلقنا باكرًا. وارتدينا ألبسة السباحة تحت ثيابنا، وكنت أحمل مناشف الجميع في كيس، مع الشطائر وقارورة الماء. كانت غايتي المعلنة هي استغلال تلك الرحلة لزيارة نيلا، قريبة المعلِّمة أوليڤييرو التي استضافتني خلال إقامتي في إيسكيا. أمّا الهدف المبطَّن، فهو لقاء عائلة سارّاتوري والحصول على عنوان صديق نينو في فوريو من ماريزا. وبالطبع كنت أخشى أن أصادف دوناتو، وآمل أن يكون في العمل؛ ومن جهة أخرى، لا بأس بسماع نكاته الملغومة، إن كنت سألتقي نينو.

اغرورقت عينا نيلا بالدموع، وذُهلتْ بفم مفتوح، حين فتحت الباب وظهرتُ أمامها كالشبح.

«دموع الفرح» علَّلتْ.

ليس هذا فقط. ذكّرتها بقريبتها، فقالت لي إنَّها لم تكن على ما يرام في بوتينسا حيث كانت تعاني ولا تُشفى. اقتادتنا إلى الشرفة،

Telegram: Somrlibrary

وعرضتْ علينا الكثير من الأشياء، واعتنت خصوصًا ببينوتشا الحامل. أجلستها قربها، وأرادت تلمّس بطنها الناتئة. وأنا أجبرتُ ليلا على ما يشبه الحجّ: أظهرتُ لها الزاوية في الشرفة حيث أمضيتُ كثيرًا من الوقت تحت الشمس؛ المكان الذي جلستُ فيه إلى الطاولة؛ الزاوية حيث نمتُ في الليل. ولجزء من الثانية، رأيتُ دوناتو وهو ينحني نحوي، ويده تنزلق تحت الغطاء، ويلمسني. شعرتُ بالاشمئزاز، لكنّ هذا لم يمنعني من طرح السؤال على نيلا بكلِّ لباقة:

«وعائلة سارّاتوري؟»

«إنَّهم عند البحر».

«وكيف الحال هذا العام؟»

«لا أعرف».

«هل هم متطلِّبون؟»

«أجل، منذ أن صار يعمل في الصحافة أكثر من السكك الحديديَّة».

«هل هو هنا؟»

«ادّعى أنَّه مريض».

«وماريزا معهم؟»

«جميعهم هناك ما عدا ماريزا؟»

«جميعهم؟»

«فهمتِ قصدي».

«لا، أقسم إنَّني لم أفهم شيئًا».

ضحكتْ باستمتاع.

«اليوم يوجد نينو أيضًا يا لينو. عندما يحتاج إلى المال يظهر لنصف نهار، ثم يعود إلى بيت صديقه في فوريو».

٤٣

غادرنا نيلا، ونزلنا نحو الشاطئ محمّلات بأغراضنا. سخرتْ منّي ليلا بتملُّقٍ خلال الطريق. «يا لك من محتالة» قالت، «أتيتِ بي إلى إيسكيا لأنّ نينو هنا، اعترفي». لم أعترف، بل راوغتُ. فانحازتْ بينوتشا إلى نسيبتها، واتّهمتني، بنبرة جدِّيَّة، بأنَّني أرغمتها على رحلة طويلة ومتعبة حتى بارانو، لأسباب تخصُّني فقط، ولم آخذ في الحسبان كونها حاملًا. ومنذ تلك اللحظة، نفيتُ الأمر بثبات، بل هدَّدتُ كلتيهما. وقطعتُ عهدًا بالصعود إلى المركب، والعودة في المساء إلى ناپولي، إن تفوّهتا بأيِّ كلمة شاذَّة في حضور عائلة سارّاتوري.

وسرعان ما عرفتُ تلك العائلة. كان أفرادها موجودين في المكان نفسه الذي كانوا يلعبون فيه منذ أعوام، وكانت لديهم المظلّة الكبيرة ذاتها، وألبسة السباحة نفسها، والحقائب نفسها، وطريقة الاستجمام بالشمس نفسها. كان دوناتو متمدِّدًا فوق الرمل الأسود، وبطنه مرفوعة، يسند نفسه بمرفقيه. وزوجته ليديا جالسة على منشفة تتصفَّح مجلّة أسبوعيَّة. لم أرَ نينو تحت المظلَّة، فخاب رجائي. بحثتُ عنه في الماء، ولاحظتُ نقطة صغيرة غامقة اللون تظهر ثم تختفي على سطح

Telegram: Somrlibrary

البحر المتحرِّك، وتمنَّيتُ أن يكون هو؛ ثم أفصحتُ عن وجودي وأنا أنادي بصوت مرتفع على بينو وكليليا وشيرو الذين كانوا يلعبون على الشاطئ.

كَبُرَ شيرو. لم يعرفني، وابتسم متردِّدًا. أمَّا بينو وكليليا فهرعا إليّ بحماسة، فالتفت الأَبَوان لينظرا. قفزتْ ليديا وصرختْ باسمي، وحيّتني بيدها، وسارّاتوري جاءنا راكضًا بذراعين مفتوحتين وابتسامة عريضة ومرحِّبة. أعفيتُ نفسي من عناقه، واكتفيتُ بصباح الخير. كيف الحال. وكان أفراد عائلته محترمين جدًّا. قدّمتُ إليهم ليلا وبينوتشا، وذكرتُ أبويهما، وقلت إنَّهما متزوِّجتان. فركَّز دوناتو في الفتاتين فورًا، وراح يناديهما بتهذيب: السيِّدة كارّاتشي، السيِّدة شيرولو، وتذكَّرهما حين كانتا طفلتين، وتحدّث بشجنٍ عن العمر الذي يمضي بسرعة. وأنا تحدَّثتُ مع ليديا، وطرحتُ عليها أسئلة مهذَّبة عن الأولاد، وعن ماريزا بصورة خاصَّة. بينو وكليليا وشيرو كانوا بخير، هذا واضح. جلسوا حولي على الفور في انتظار اللحظة المناسبة لإدخالي في ألعابهم. أمّا ماريزا، فقالت لي أمّها إنَّها بقيتْ في ناپولي عند عمومتها، كانت قد رسبتْ في أربع موادّ وعليها أن تحضِّر لامتحانات سپتمبر. «تستحقّ ذلك» عبستْ، «لم تدرس شيئًا طوال العام، والآن تستحقّ العذاب».

لم أقل شيئًا، واستبعدتُ في سرّي أن تكون ماريزا تعاني؛ لا بدّ من أنَّها تمضي الصيف كلّه مع ألفونسو في المحلّ في ساحة الشهداء، وكنت سعيدة لأجلها. لكنَّني لاحظتُ أنّ ليديا تحمل آثار رضوض بادية على وجهها المدوّر وعينيها وصدرها المنفوخ وبطنها السمينة. وخلال الوقت الذي أمضيناه في الثرثرة، كانت تراقب زوجها مرارًا، بنظرات مذعورة؛ زوجها الذي فرّغ نفسه لليلا وبينوتشا ليستعرض

Telegram: Somrlibrary

ظرافته. لم تعد تنتبه إليّ، ولم تُحِد نظرها عنه، حينما عرض نفسه لمرافقتهما للسباحة، وهو يَعِد ليلا بأنّه سيعلّمها السباحة. «علّمتُ كلّ أبنائي» سمعناه يقول، «والآن سأعلّمكِ».

لم أسألها عن نينو، ولم تذكر اسمه هي أيضًا. فإذا بتلك النقطة الصغيرة غامقة اللون في البحر اللازورديّ البرّاق تقترب أكثر فأكثر. غيّر اتِّجاهه، وأخذت معالمه تتَّضح، حتى ميّزتُ بياض الزبد الذي ينهال على أحد جانبيه.

أجل، إنَّه هو، قلتُ لنفسي بارتباك كبير.

وبالفعل، بعدها بقليل، خرج نينو من الماء وهو ينظر بفضولٍ إلى أبيه الذي يرفع ليلا على مستوى السطح بذراعه، وبالذراع الأخرى يبيّن لها ما عليها فعله. حين رآني وعرفني، لم يغب التجهُّم عن وجهه.

«ماذا تفعلين هنا؟»، سأل.

«إنَّنا في رحلة استجمام»، أجبتُ، «وقد مررتُ لزيارة السيِّدة نيلا».

رمى نينو نظرة أخرى نحو والده والفتيات، مضاعفًا نفوره.

«هذه لينا؟»

«أجل، وتلك نسيبتها بينوتشا، لا أعلم إن كنت تذكرها».

جفَّف شعره جيِّدًا بالمنشفة، وما زال يحدِّق في الأشخاص الثلاثة وهم في الماء. قلت له بطريقة تُثير الشفقة إنَّنا سنبقى في إيسكيا حتى آخر سپتمبر، وقد نزلنا ليس بعيدًا عن فوريو، وإنّ والدة ليلا معنا أيضًا، وسيأتي زوج ليلا وزوج بينوتشا الأحد المقبل. كنت أتكلَّم ولا يبدو لي أنَّه يسمعني أساسًا، لكنَّني ارتجلتُ وأخبرته بأنَّني، على الرَّغم من وجود ليديا، سأكون حرّة في نهاية الأسبوع.

Telegram: Somrlibrary

«نراك إذن»، قال وتوجّه إلى أمّه، «عليّ أن أذهب».

«أليس باكرًا؟»

«إنَّني مشغول».

«إيلينا هنا».

فنظر إليّ كما لو أنَّه انتبه لوجودي حينها فقط. بحث في قميصه المعلَّق على المظلَّة، أخرج قلم رصاص ودفترًا صغيرًا، كتب شيئًا ما، ونزع الورقة وأعطاني إيَّاها.

«إنَّني في هذا العنوان»، قال.

واضح، وصارم كممثِّلي السينما. أخذتُ الورقة كما لو كانت وصيّة ميّت.

«كلْ شيئًا قبل أن ترحل» توسَّلتْ إليه أمّه.

لم يُجبها.

«ودِّعْ أباك بتحيّة على الأقلّ».

غيّر لباس السباحة بعد أن لفّ المنشفة حول خصره، وابتعد على طول الشاطئ من دون أن يودّع أحدًا.

٤٤

أمضينا النهار كلّه على شاطئ مارونتي، أنا ألاعب الأطفال، وبينوتشا وليلا تفرَّغ لهما دوناتو، واصطحبهما في نزهة إلى منابع المياه الحارَّة. وحين تعبتْ بينوتشا، دلّنا ساراتوري على طريق العودة بأريحيّة وظُرف. وصلنا إلى فندقٍ يكاد ينتأ من بين المياه كالأكواخ المتاخمة للبحيرات، وهناك استأجرنا قاربًا، ببضع ليرات، وأوصينا بحّارًا عجوزًا بأن يوصلنا.

ما إن خُضنا في البحر، علَّقتْ ليلا ساخرة:

«نينو لم يُعرْكِ اهتمامًا».

«كان عليه أن يدرس».

«ولم يكن لديه الوقت ليقول وداعًا؟»

«هذه طباعه».

«هذه طباع سيِّئة» تدخَّلتْ بينوتشا، «والده لطيف بقدر ما هو غليظ».

كانتا مقتنعتين بأنّ نينو لم يعاملني بلطف، ولم يُعرني أدنى انتباه، وتركتهما تعتقدان ذلك، وفضّلتُ أن أتّخذ الحيطة في حفظ أسراري لنفسي. ثم بدا لي أنَّهما لو فكَّرتا في أنّ طالبة ذكيَّة مثلي لا تحظى ولو

Telegram: Somrlibrary

بنظرة منه، فلن تكترثا لأنَّه أهملهما، وربَّما تغفران له هذا التصرُّف. كنت أريد أن أحميه من حقدهما، ونجحتُ في هذا: بدا أنَّهما نسيتاه سريعًا؛ فبينوتشا كانت متحمِّسة للطف ساراتوري النبيل، وليلا قالت راضية:

«علَّمني كيف أطفو على السطح، وكيف أسبح أيضًا. إنَّه ماهر».

كانت الشمس تغرب. عادت إلى ذهني تحرُّشات دوناتو، فاقشعرّ بدني. وكانت النسائم الباردة تُحلِّق في السماء القرمزيّة. قلت لليلا:

«هو الذي وصف اللوحة في محلِّ ساحة الشهداء بالقبيحة».

تنهَّدتْ بينوتشا، وأومأتْ بموافقتها ورضاها، ثم قالت:

«معه حقّ».

انفعلتُ:

«وهو الذي قضى على ميلينا».

أجابت ليلا ضاحكة:

«أو ربّما هو الذي جعلها تشعر بالسعادة، مرّة واحدة على الأقلّ».

جرحتني سخريَّتها هذه. كنت أعلم بما عانته ميلينا، وبما يعانيه أبناؤها. كنت أعرف آلام ليديا أيضًا، وكيف أنّ سارّاتوري يستخدم اللطف والنبل في إخفاء شهوته التي لا تحترم شيئًا ولا أحدًا. ولم أكن لأنسى كيف اضطربتْ ليلا وهي صغيرة حين شهدت آلام الأرملة كابوتشو. ولماذا اختار هذه العبارات المتهكِّمة؟ هل هي إشارة إليّ؟ هل كانت تقصد: لا تزالين فتاة صغيرة، لا تعلمين شيئًا عن حاجات المرأة؟ فغيّرتُ رأيي بشأن سرِّيّة أسراري. أردتُ أن أثبت أنَّني امرأة مثلهما، وأعرف الكثير.

Telegram: Somrlibrary

«نينو أعطاني عنوانه» قلت لليلا، «إن لم يكن يؤسفك، حين يأتي ستيفانو ورينو، سأذهب لزيارته».

عنوانه، والذهاب لزيارته. عبارات جريئة. ضيّقتْ ليلا عينيها، وتقطّب جبينها الكبير بخطٍّ ناعم جدًّا. ورمتني بينوتشا بنظرة خبيثة، ربَّتت على ركبة ليلا، وقالت لها:

«هل فهمت؟ لينوتشا لديها موعد غدًا. ولديها العنوان أيضًا».

اشتعل وجهي.

«حسنًا، ماذا أفعل حين تكونان مع زوجيكما».

طغى علينا هدير المحرِّك لحظة طويلة، وسادت هيئة البحّار الصامت على المقود.

قالت ليلا بفتور:

«تبقين مع أمّي. فأنا لم آت بك إلى هنا كي تتسلّي».

لجمتُ لساني عن الردّ. كان لدينا أسبوع من الحرِّيَّة. وفي ذلك اليوم تمامًا، على الشاطئ، تحت الشمس، وخلال السباحة مطوَّلًا، وبفضل كلمات سارّاتوري الضليع في التغزُّل وإضحاك النساء، نسيتْ ليلا وبينوتشا نفسيهما. جعلهما دوناتو تشعران بأنّهما مثل النساء الصغيرات يصونهما أبٌ غريب الأطوار، من أولئك الآباء النادرين الذين لا يعاقبونكِ، بل يشجِّعونكِ على التعبير عن رغباتك من دون أن تشعري بالذنب من ذلك. وحين انتهى هذا النهار، وبينما كنت أعلن أنّ طالبًا جامعيًّا سيكون في انتظاري يوم الأحد، هل أذكِّر كلتيهما بأنّ الأسبوع الذي تخلّتا فيه عن وضعهما الزوجيّ كان قد انقضى، وأنّ زوجيهما يوشكان على الوصول؟ إنَّني أبالغ حقًّا. اعقدي لسانك، قلت لنفسي، ولا تثيري غضبها.

Telegram: Somrlibrary

٤٥

عجّل الزوجان في الوصول. كنَّا ننتظر عودتهما صباح الأحد، فإذا بهما يظهران مساء السبت، وكانا في غاية البهجة، غداة استئجار كلٍّ منهما درَّاجة ناريَّة، من طراز لامبريتا على ما أعتقد، من ميناء إيسكيا. حضّرتْ نونتسيا عشاءً غنيًّا بالمأكولات الشهيَّة. وتحدَّث الزوجان عن الحيّ والمحالّ والأحذية الجديدة. امتدح رينو نفسه على التصاميم التي كان ينفِّذها مع والده، لكنَّه استغلّ فرصة مناسِبة ليعرض على ليلا عدَّة مسودّاتٍ تفحّصتها على مضض، واقترحتْ بعض التعديلات عليها. ثم جلسنا إلى الطاولة والتهم الشابّان كلّ شيء، كأنَّهما يتنافسان في الشراهة. ولم تمض الساعة العاشرة حتى جرّ كلٌّ واحد منهما امرأته إلى غرفة النوم.

ساعدتُ نونتسيا على تنظيف الطاولة وغسل الأطباق. ثم انعزلتُ في غرفتي، وقرأتُ بعض الوقت. كنت أحترق من الحرارة المرتفعة، لكنَّني خشيت هجوم البعوض فلم أفتح النافذة. تقلَّبتُ في السرير يمينًا ويسارًا، وأنا أتصبَّب عرقًا: كنت أفكِّر في ليلا، وكيف كانت تتراخى شيئًا فشيئًا. لم تكن تُظهر أيّ ودّ تجاه زوجها؛ تبدّد كلّ الحنان الذي طغى على تصرُّفاتها في زمن الخطوبة؛ وغالبًا ما أبدتْ اشمئزازها من طريقة ستيفانو في ابتلاع الطعام وطريقته في الشرب خلال العشاء؛

Telegram: Somrlibrary

لكنْ من الواضح أنَّهما توصّلا إلى توازن ما، لا أحد يعرف مدى تماسكه. وبعد أن روى نكاتٍ موحية، اتَّجه نحو غرفة النوم، فتبعته ليلا من دون تأخير ومن دون أن تقول مثلًا: سآتي بعد قليل، بل كانت كمن يدمن عادةً لا نقاش في شأنها. لم تتَّسم علاقتهما بالفرح الكرنڤاليّ الذي كان يؤدِّيه رينو وبينوتشا؛ وفي المقابل، لم تكن تُبدي أيّ اعتراض أو مقاومة. وحتى آخر الليل، تناهت إلى مسمعي حركات الأزواج، ضحكاتهم وتأوّهاتهم، وفتح الأبواب، والماء المنهمر من الصنبور، والدوَّامة التي يُحدثها في المغسلة، ثم غلق الأبواب، إلى أن غفوتُ أخيرًا.

يوم الأحد، تناولتُ الفطور مع نونتسيا. وانتظرتُ حتى العاشرة أن يظهر أحد من غرفته، لكن هيهات، فمضيتُ إلى الشاطئ. وبقيتُ هناك حتى منتصف النهار، ولم يأت أحد، فعدتُ إلى المنزل، وقالت لي نونتسيا إنّ الأربعة ذهبوا في نزهة إلى الجزيرة على الدرَّاجتين الناريَّتين، وأوصوها بألَّا تنتظرهم على الغداء. وعادوا فعلًا نحو الثالثة بعد الظهر، سعداء، متألِّقين، محمرِّين من أشعَّة الشمس، مسرورين بجمال الطبيعة في كازاميشولا ولاكو آمينو، وفوريو، وخصوصًا الفتاتين. كانت عيونهما تبرق. توجّهتا إليّ بنظرة لئيمة.

«لينو»، كادت بينوتشا تصرخ، «خمّني ما الذي حدث!»

«ماذا؟»

«لقد التقينا نينو عند البحر»، قالت ليلا.

تشنّج قلبي.

«آه».

«حمته العذراء، يا له من سبّاح ماهر»، وقلّدتْ سباحته ملوّحة بذراعيها.

قال رينو:

«ليس فظًّا. أبدى اهتمامه بكيفيَّة صنع الأحذية».

وعقب ستيفانو:

«لديه صديق يدعى سوكافو، وهو ابن سوكافو ملك صناعة المرتديلًا. والده مالك مصنع للحوم المقدَّدة في سان جوفاني آتيدوتشو».

أضاف رينو:

«ذاك من يمتلك الأموال حقًّا».

فعاد ستيفانو:

«دعي عنك الطالب يا لينو، فهو مفلسٌ؛ ركِّزي اهتمامك في سوكافو، فإنَّه يناسبك».

وبعد ثرثرة مزعجة، مثل: (هل فهمتم، لينوتشا ستصبح أغنى منَّا جميعًا، تحسبونها طيِّبة ومسكينة، فإذا هي تُخفي دهاءً؛ ويلاه)، ذهب كلّ ثنائيّ إلى غرفة نومه مجدَّدًا.

شعرتُ بالغمِّ. لقد التقوا نينو، وسبحوا معه، وتحدَّثوا إليه، وأنا لم أكن موجودة. ارتديتُ فستاني الأفضل ـ المعتاد، الذي لبسته في الأعراس، على الرَّغم من حرارة الطقس ـ وصفَّفتُ شعري بعناية، بعد أن بات أشقر بفعل الشمس، وقلت لنونتسيا إنَّني سأخرج للنزهة.

ذهبتُ إلى فوريو سيرًا على قدميَّ، وكنت غاضبة من ذلك المسير الطويل وحيدة؛ من ذلك القيظ، ومن مصير مشواري المجهول. وصلتُ إلى عنوان صديق نينو، وناديته من الطريق مرارًا، وأنا أخشى ألَّا يردّ.

«نينو، نينو».

أطلّ برأسه.

«اصعدي».

Telegram: Somrlibrary

«سأنتظرك هنا».

انتظرتُ، وخشيتُ أن يُسيء معاملتي. لكنَّه خرج من البوَّابة الصغيرة بهيئة ترحيب غير معهودة. كم كان وجهه الحادّ يبثّ القلق في قلبي! وكم كنت أشعر بأنَّني لا شيء مقارنةً بقامته الطويلة وكتفيه العريضتين وصدره الضيِّق، وجلده المشدود كوشاح أسمر يغطِّي جسمه النحيل بارز العظام وأوتار العضلات! قال إنّ صديقه قد يلحق بنا في ما بعد، وذهبنا نتمشَّى في وسط فوريو، بين عربات الباعة المتجوِّلين في يوم الأحد. سألني عن المكتبة في موتسيكانوني، فأخبرته بأنّ ليلا طلبت منِّي مرافقتها في رحلة الاستجمام هذه، فاستقلتُ من المكتبة. لم أَقُل إنَّها كانت تعطيني أجرًا، كما لو أنّ مرافقتها تبدو عملًا، وكأنَّني موظَّفة عندها. سألته عن ناديا، فاكتفى بالقول: «كلّ شيء على ما يرام». «هل تتراسلان؟».

«أجل».

«كلّ يوم؟».

«كلّ أسبوع».

كانت هذه هي محادثتنا، ولم يعد لدينا ما نقول. لا يعرف أحدنا شيئًا عن الآخر، فكَّرتُ. ربَّما في وسعي أن أسأله عن حال علاقته بوالده، لكنْ أيّ نبرة أستخدم؟ ثم ألم أَرَ بعينيّ كيف كانت الحال سيِّئة؟ فلذتُ بالصمت وارتبكتُ.

لكنّه انتقل بسرعة إلى المجال الوحيد الذي قد يبرِّر لقاءنا. قال إنَّه كان سعيدًا برؤيتي، لأنَّه مع صديقه لا يتكلَّم إلَّا على كرة القدم وامتحانات بعض الموادّ. أثنى عليّ. أصابت السيِّدة غالياني في تكهّناتها، قال، أنت التلميذة الوحيدة التي يدفعها الفضول نحو أمور لا شأن لها بالدراسة والنتائج والعلامات. وراح يتحدَّث عن أمور مهمَّة، وتكلَّمنا بلغة إيطاليَّة بليغة وفصيحة، كنَّا متمكِّنين منها. انطلق في حديثه

عن مسألة العنف؛ وأشار إلى مظاهرة من أجل السلام أُقيمت في كورتونا، ثم ربطها بمرونةٍ بأحداث العنف التي طالت المتظاهرين في إحدى ساحات تورينو. قال إنَّه كان مصمِّمًا على فهم العلاقة بين الهجرة والصناعة. فوافقتُ على كلامه. لكنْ ما أدراني أنا بتلك الأمور؟ لا شيء. انتبه نينو لهذا، وقصّ عليّ بالتفصيل عن انتفاضةٍ قام بها شبّانٌ من الجنوب، وعن القسوة التي استخدمتها الشرطة لقمعهم. «يسمّونهم نابوليتانيِّين، يسمُّونهم مغاربة، يسمُّونهم فاشيِّين ومحرِّضين، أو شيوعيِّين فوضويِّين. بينما هم مجرّد شبَّان لا تهتمّ بهم أيٌّ من مؤسَّسات الدولة، يشعرون بالإهمال، ثم الغضب، فالرغبة في تحطيم كلّ شيء». بحثتُ عمّا أقوله لأسترعي إعجابه، فارتجلتُ: «من البديهيّ أن تنفجر الفوضى، ما لم نمتلك معرفة ملمّة بالمشكلات، وما دمنا لا نجد حلولًا طارئة لها. لكنّ اللوم لا يقع على من ينتفض، بل على من لا يعرف كيف يحكم». وجّه إليّ نظرة تقدير وقال: «هذا تمامًا ما أفكِّر فيه».

أُسعدتُ كثيرًا بردِّه، وشعرتُ بالشجاعة، فانتقلتُ بحذرٍ إلى التمعُّن في كيفيَّة المصالحة بين الفردانيَّة والمجتمع، باستراق بعض الكلمات من روسو، وذكريات أخرى من قراءاتٍ فرضتها عليّ غالياني. ثم سألته:

«هل قرأتَ فدريكو شابو؟»

رميتُ اسم هذا المؤرِّخ، لأنَّه مؤلِّف الكتاب الذي يتحدَّث عن فكرة الأمَّة، والذي قرأتُ منه بعض الصفحات. لم أكن أعرف أيّ شيء آخر، لكنَّني تعلَّمتُ في المدرسة كيف أُقنع الآخرين بأنَّني أعرف الكثير. «هل قرأتَ فدريكو شابو؟» كانت تلك هي اللحظة الوحيدة التي أبدى فيها نينو خيبته. ففهمتُ أنَّه لم يكن يعرف مَن يكون شابو، وهذا ما أمدّني بشعور متأجِّج بالثقة بالنفس، ورحتُ ألخِّص له القليل الذي تعلَّمته، لكنَّني أدركتُ أنّ المعرفة، وعرض المعلومات، يشكِّلان نقطة

Telegram: Somrlibrary

قوَّته وضعفه في آن واحد. كان يشعر بالقوَّة إذا تفوَّق، وبالضعف إذا نقصته الكلمات. وبالفعل تجهَّم وجهه، واستدركني فورًا. دفع النقاش إلى طرق جانبيَّة، في حديثه عن المقاطعات الإيطاليَّة وعن الحاجة الملحَّة إلى دعمها؛ عن الحكم الذاتيّ وتقويض المركزيَّة؛ عن البرنامج الاقتصاديّ القائم على قاعدة المقاطعات. ولم أكن قد سمعتُ كلمة واحدة عن هذه الأمور من قبل. لا يعرف شابو إذن. أفسحتُ له المجال ليعرف عنه شيئًا. كنت أحبّ الإصغاء إليه، وقراءة الشغف على وجهه. كانت عيناه تتَّقدان بالحيويَّة كلَّما ازداد تحمُّسًا.

استغرقنا أكثر من ساعة، على هذا النحو من المناقشة، وشعرنا بأنَّنا متفوِّقان لانعزالنا عن الناس الذين يُحيطون بنا، إذ كنَّا نتكلَّم بإيطاليَّة فصحى، وسط عامِّيَّتهم السمجة، وكانت حواراتنا تخصُّنا وحدنا وليس أحدًا آخر. ما الذي كنَّا نفعله؟ نقاش؟ تمارين قد تفيدنا في المستقبل حين يتوجَّب علينا محاورة أُناس تعلَّموا استخدام الكلمات مثلنا؟ تبادل إشارات يُثبت وجود أواصر تدعم صداقة طويلة ومثمرة؟ تغطية ثقافيَّة تُخفي شهوة جنسيَّة؟ لا أعلم. بالتأكيد، لم أكن أتلهَّف إلى تلك المواضيع وما تحويه من أشياء وأشخاص. لم تكن ثمَّة غاية تربويَّة، أو عادة ما، لم تكن سوى رغبتي في ترك انطباع جيِّد. لكنّ الموقف كان جميلًا إلى درجة أنَّني شعرتُ كما حين كنت أنظر إلى قوائم نتائج الامتحانات الطويلة وأقرأ: ناجحة. وسرعان ما أدركتُ أن لا مجال لمقارنة ذاك بتبادل الآراء الذي كنت أفعله مع ليلا منذ أعوام، والذي كان يلهمني، حين كانت الواحدة منَّا تسعى لنزع الفكرة من فم الأخرى، وكنَّا خلالها نعيش حالة من الهيجان تبدو كإعصار من الصعقات الكهربائيَّة. كان الوضع مختلفًا مع نينو؛ لأنَّني شعرتُ بضرورة التيقُّظ لأقول ما كان يريد أن يسمعه منِّي، وأُخفي عليه جهلي ومعرفتي بتلك الأمور القليلة التي لم يكن يعرفها. فعلتُها

Telegram: Somrlibrary

وأحسستُ بالفخر، لأنَّه كان يبوح لي بقناعاته الأساسيَّة. إلى أن حدث أمر مفاجئ: قال كفى، بغتة، وأمسك يدي، وصرّح بما يشبه التوضيح المنير: «الآن سآخذك لرؤية منظر لن تنسيه أبدًا»، وسحبني معه إلى ساحة سوكورسو من دون أن يترك يدي، بل شبك أصابعه بأصابعي، حتى إنَّني لا أذكر شيئًا من البحر الأزرق خلف أقواس الساحة، من شدَّة هيامي بوجوده قربي.

هذا ما أذهلني حقًّا. حدث أن سحب يده مرَّتين ليصفِّف شعره، ثم عاد ليشبكها بيدي. تساءلتُ لوهلة كيف يمكن له أن يجمع بين تلك الحركة الحميميَّة معي وبين علاقته بابنة غالياني. فأجبتُ نفسي: لعلَّها طريقته في عقد صداقة ما بين ذكر وأنثى. وماذا عن القبلة التي رسمها على شفتيّ في موتسيكانوني؟ لا تعني شيئًا، ربَّما هذه تقاليد جديدة، أو طرائق جديدة لعيش سنّ الشباب؛ وبالفعل، كانت القبلة خاطفة، مجرّد تماسّ قصير للغاية. عليَّ أن أكون ممتنَّة لهذه السعادة التي تمنحني إيَّاها الحياة الآن؛ لهذه الإجازة المحظوظة التي أردتها بنفسي؛ قد يضيع منِّي في ما بعد، وربَّما يمضي في شأنه، فمصيره لم يكن مُعَدًّا ليتقاطع مع مصيري.

بينما كنت ألهج بتلك الأفكار المتذبذبة، إذا بصوتٍ يدوّي خلف ظهري، وصرخات سفيهة جدًّا. اجتازتنا درّاجتا ستيفانو ورينو، تنفثان الدخان علينا، كلٌّ خلفه زوجته. أبطأوا ثم انعطفوا ببراعة وعادوا إلينا. سحبتُ يدي من يد نينو.

«أين صديقك؟» سأله ستيفانو، وهو يُثير زئير المحرِّك.

«سينضمّ إلينا بعد قليل».

«أبلغه تحيَّاتي».

«حسنًا».

Telegram: Somrlibrary

سأل رينو:

«هل تريد أن تأخذ لينوتشا في نزهة؟»

«لا شكرًا»

«هيَّا، ألا ترى كم هي سعيدة؟»

احمرّ نينو حياءً، وقال:

«لا أعرف قيادة الدرَّاجة الناريَّة».

«إنَّها سهلة، مثل قيادة الدرَّاجة الهوائيَّة».

«أعرف، لكنَّها لا تناسبني».

ضحك ستيفانو:

«دعك منه يا رينو، إنَّه من أولئك الذين يدرسون».

لم أَرَ ستيفانو مبتهجًا كما كان حينها. كانت ليلا تحضنه بشدَّة من الخلف، وتشبك ذراعيها حول خصره. وكزتْه بقوَّة:

«فلنذهب، قد يفوتكما المركب إذا تباطأنا».

«أجل، أجل. هيَّا»، صرخ ستيفانو، «فنحن نعمل في الغد، ولسنا مثلكم نقضي الوقت في السباحة تحت الشمس. وداعًا لينو، وداعًا نينو، كونا بخير».

«سُررتُ بمعرفتك»، قال رينو بلهجة مؤدَّبة.

وانطلقوا.

حيَّت ليلا نينو وهي تلوِّح بذراعها، وتهتف:

«أوصيك بأن ترافقها إلى المنزل».

تتصرَّف مثل والدتي، قلت لنفسي ممتعضة، تتصرَّف على أنَّها ناضجة.

شبك نينو يده بيدي ثانية وقال:

«رينو لطيف. لكنْ لماذا تزوجَّتْ ليلا بذلك الأحمق؟»

Telegram: Somrlibrary

٤٦

بعد قليل، تعرَّفتُ إلى صديقه برونو سوكافو. كان شابًّا في العشرين من عمره، قصير القامة، وشعره مجعَّدٌ حالك السواد، ووجهه جميل لكنَّه مليء ببثور قديمة، سببها مرض الجدريّ، الذي يبدو أنَّه أصابه بشدَّة في طفولته.

أوصلاني حتى المنزل، على طول البحر المصبوغ بالغروب القرمزيّ. لم يمسك نينو بيدي خلال المسير، على الرَّغم من أنّ برونو تركنا على راحتنا: كان إمّا يمشي أمامنا وإمَّا خلفنا، كأنَّه لا يودّ إزعاجنا. لم أتكلَّم إليه، بما أنَّه لم يتكلَّم إليّ، فحياؤه الشديد أيقظ حيائي. لكنَّنا حين افترقنا، تحت المنزل، بادر بنفسه فجأة: «هل نلتقي في الغد؟». سألني نينو عن المكان الذي نسبح فيه عند الشاطئ، وألحّ على طلب معلومات دقيقة. أعطيته إيَّاها.

«هل تذهبان في الصباح، أم بعد الظهر؟»

«في الصباح وبعد الظهر أيضًا. على لينا أن تسبح كثيرًا».

وعدني بأنَّهما سيمرَّان لرؤيتنا.

صعدتُ السلالم بسرعة وفرحة كبيرة. لكنْ ما إن دخلتُ المنزل حتى أخذتْ بينوتشا تسخر منِّي.

Telegram: Somrlibrary

«أمّاه»، قالت لنونتسيا على العشاء، «لينوتشا ارتبطت بابن الشاعر، وهو شابٌّ ذو شعر طويل، هزيل وجلف، يحسب نفسه أفضل من الجميع».

«ليس صحيحًا».

«بل صحيح، رأينا يده تشبك يدك».

فضَّلتْ نونتسيا ألّا تغوص في المهاترات، وأخذت القصَّة على محمل الجدّ، كما تملي عليها طباعها.

«ماذا يعمل ابن سارّاتوري؟»

«طالبٌ في الجامعة».

«عليكما أن تنتظرا إن كنتما متحابّين إذن».

«لا شيء بيننا كي ننتظر يا سيِّدة نونتسيا، نحن مجرَّد صديقين».

«فلنفترض أنَّكما ارتبطتما، عليه أن يُنهي دراسته أوَّلًا، ثم عليه أن يبحث عن عمل يليق به. وبعد أن يجده، في وسعكما أن تتزوَّجا».

تدخَّلتْ ليلا بلهجة ساخرة:

«أمِّي تقصد أنَّك ستعفِّنين ريثما تتزوَّجين به».

زجرتها نونتسيا: «لا تتكلَّمي بهذه الطريقة مع لينوتشا». وكي تواسيني، قصّتْ أنَّها تزوَّجت بفرناندو وعمرها واحد وعشرون عامًا، وأنجبت رينو في الثالثة والعشرين من عمرها. ثم توجَّهت إلى ابنتها، وقالت لها، من دون لؤم، إنَّما لتوضِّح كيف جرت الأمور: «أمَّا أنت، فتزوَّجتِ في سنٍّ صغيرة جدًّا». غضبت ليلا من هذه الجملة، وانسحبت لتنعزل في غرفتها. وحين طرقت بينوتشا الباب كي تنام عندها، صرختْ بألَّا تزعجها، «لديكِ غرفة». كيف في وسعي أن أقول، في هذه الأجواء، إنّ نينو وبرونو وعدا بالمجيء إلى الشاطئ

Telegram: Somrlibrary

للقائنا؟ عدلتُ عن هذا. وقلت لنفسي: إن حدث فلا بأس، وإن لم يحدث فما فائدة أن أُخبرهما بذلك. وحينذاك، أدخلتْ نونتسيا كنّتها إلى غرفتها وهي تتوسَّل إليها، بفارغ الصبر، ألَّا تتضايق من ابنتها العصبيَّة.

لم يكن الليل كافيًا لتستعيد ليلا هدوءها. بسبب غياب زوجها، علَّلتْ نونتسيا؛ لكنَّنا أنا وبينوتشا لم نقتنع بكلامها. ثم اكتشفتُ أنَّها كانت غاضبة منِّي تحديدًا. أمرتني خلال ذهابنا إلى الشاطئ بأن أحمل حقيبتها. وحين وصلنا، أرسلتني إلى الخلف مرَّتين، في الأولى كي آتيها بالشال، وفي الثانية كي آتيها بمقصّ الأظفار. وحين أبديتُ اعتراضي، كادت تصفعني بالنقود التي أتقاضاها. ضبطت نفسها قبل أن تفعلها، لكنَّني فهمتُ المغزى. كانت كما لو أنَّ أحدًا يومئ بتوجيه صفعة إليكِ ثم يتراجع عن ذلك.

كان النهار حارًّا جدًّا، فلم نفارق المياه أبدًا. تمرَّنت ليلا على الطفو مرارًا، وأمرتني بالبقاء إلى جانبها في حال احتاجت إلى مساعدة. وما برحتْ تنفث من شرر لؤمها عمومًا. غالبًا ما أنَّبتني، وقالت إنَّها كانت غبيَّة حين وثقتْ بي: لم أكن أعرف السباحة أنا أيضًا، فكيف لي أن أعلِّمها. وتحسَّرتْ على موهبة التعليم التي يمتاز بها سارّاتوري، وجعلتني أقسم أن أعود بها إلى مارونتي في اليوم التالي. لكن قدرتها على السباحة تطوَّرتْ من كثرة التجريب. كانت تتَّسم بقدرتها على حفظ أيِّ حركة. وبفضل تلك الموهبة، استطاعت أن تتعلَّم مهنة الإسكافيّ، وتقطّع اللحوم والجبن بمهارة عالية، وتغشّ في الوزن والمقدار أيضًا. لقد وُلدتْ هكذا، في وسعها أن تتعلَّم حرفة النقش بمجرَّد التمعُّن في حركات صائغ ما، ثم كانت لتصنع الذهب أفضل منه أيضًا. وبالفعل، ها هي الآن تكفّ عن الشهيق المضطرب،

Telegram: Somrlibrary

وتعمل على صقل حركاتها؛ كانت كما لو أنَّها ترسم جسدها على سطح البحر الشفَّاف. وكانت ساقاها وذراعاها، الطويلة والرشيقة، تضرب المياه بإيقاع وانسيابيَّة، من دون رفع الزبد مثلما يفعل نينو، ومن دون هياجٍ استعراضيّ يختصّ به سارّاتوري الأب.

«هل تتحسَّن سباحتي؟»

«أجل».

وكان صحيحًا. ففي غضون بضع ساعات، باتت تسبح أفضل منِّي، ناهيك ببينوتشا التي كانت تسخر من غبائنا.

تبدَّد هذا الجوّ المحموم حين ظهر نينو وبرونو نحو الرابعة عصرًا. كان نينو طويلًا، وبرونو بالكاد يصل إلى كتفه، وتزامن وصولهما مع هبوب نسائم منعشة تنزع عنكِ الرغبة في السباحة.

كانت بينوتشا أوَّل من رآهما في البعيد، يتقدَّمان على مضرب الأمواج، بين أطفالٍ يلعبون بمجارف وسطول صغيرة. انفجرتْ ضاحكة بتلك المفاجأة، وقالت: «ها قد وصل الرقم عشرة»، كدلالة ساخرة على عدم تناسق جسميهما معًا. كان نينو وصديقه، يتقدَّمان بخطوات مدروسة، يبحثان عنَّا بنظرات خاطفة نحو السبّاحين، ويحملان المناشف على الكتفين، وعلبة السجائر والولّاعة باليدين.

اجتاحني شعورٌ بالثقة. صرختُ ولوَّحتُ بذراعيّ كي يحدِّدا موقعنا. لقد اشتاق إليّ بسرعة إذن. جاء عمدًا من فوريو، ساحبًا وراءه زميله الصامت، لأجلي فقط، ما دام لا يوجد شيء يجمعه بليلا وبينوتشا. فمن البديهيّ أنَّه قام بذلك المسير الطويل كي يراني أنا الوحيدة التي لم تكن متزوِّجة، ولا حتى مرتبطة. شعرتُ بالسعادة، وبدوتُ أكثر ألفة وترحيبًا كلَّما لاحت بشارة تؤكِّد سعادتي: بسط نينو منشفته قربي، وجلس عليها، ثم أشار إلى طرفٍ من منشفته السماويّة،

Telegram: Somrlibrary

وأنا الوحيدة التي أجلس على الرمل، انتقلتُ للجلوس إلى جانبه بسرعة.

تجهَّم وجه ليلا، ووجه بينوتشا أيضًا. كفّتا عن المزاح معي، وعن الشجار في ما بينهما، وجلستا لتصغيا إلى نينو الذي كان يقصّ بعض الحوادث الطريفة التي وقعت حين قرَّر هو وصديقه تنظيم حياتيهما الدراسيَّتين.

استغرق الأمر بعض الوقت كي تغامر بينوتشا بكلمات قليلة تمزج بين العامِّيَّة النابوليتانيَّة والإيطاليَّة الفصيحة. قالت إنّ المياه دافئة، وإنّ الرجل الذي يبيع جوز الهند الطازج لم يمرّ بعد، وإنَّها ترغب في تناول تلك الفاكهة. لكنّ نينو لم يُعرها انتباهًا، إذ كان مهووسًا بسرد أقاصيصه المضحكة، الأمر الذي دعا برونو، الأكثر انتباهًا، إلى وجوب الردّ على كلام سيِّدة حامل. قلق على الجنين الذي قد يولد متلهِّفًا إلى تناول جوز الهند، فتطوَّع للذهاب والبحث عن تلك الفاكهة بنفسه. أُعجبت بينوتشا بصوته المبحوح من شدَّة الحياء واللطف، صوت رجل لا يريد إلحاق الأذى بأحد، فانغمستْ معه في دردشة، بصوت منخفض، كأنَّها لا تريد إزعاج الحاضرين.

أمَّا ليلا، فواظبتْ على سكوتها. أنصتت قليلًا إلى المحادثة اللطيفة بين بينوتشا وبرونو، وصبّتْ جلّ اهتمامها على الحوار بيني وبين نينو. أربكني إنصاتُها إلينا، وقلت مرَّتين إنَّه يسعدني التنزُّه في الينابيع الحارَّة، آملة أن يُجيب نينو: فلنذهب. لكنَّه بدأ للتوِّ بالحديث عن الإسكان العشوائيّ في إيسكيا، وسرعان ما استرسل في خطابه. استدعى انتباه برونو، ربَّما لأنَّه انزعج من أنّ صديقه انسجم مع بينوتشا، وطلب منه شهادةً عن بعض المناظر المشوَّهة إلى جانب منزل أبويه تمامًا. كان لديه حاجة كبرى إلى التعبير عن نفسه، والحديث عن قراءاته، وترجمة ملاحظاته المباشرة. هذه كانت طريقته في وضع

Telegram: Somrlibrary

أفكاره على نسق منتظم، الكلام، الكلام، الكلام، لكنَّني فكَّرتُ في أنّها دلالة واضحة على العزلة التي يعيشها. وانتابني شعور بالفخر، لأنَّني أشبهه في هذه النقطة، ولديّ الرغبة نفسها في الكشف عن الوعي الذاتيّ، والتصريح بأنّني أعرف هذا وذاك، وأنّني سأصبح يومًا ما هكذا. لكنّ نينو لم يفسح لي المجال، قوّض كلّ محاولاتي بالتعبير. فبقيتُ أصغي إليه، كالآخرين؛ وحين هتف برونو وبينوتشا: «حسنًا، سنقوم بنزهة إذن، سنبحث عن جوز الهند»، نظرتُ بإلحاح إلى ليلا، لعلّها ترافق نسيبتها لتتركني مع نينو وحيدَيْن نتحادث وجهًا لوجه ونحن جالسان على تلك المنشفة. لكنَّها لم تنبس ببنت شفة. وحين أدركتْ بينا أنَّها ستتسكَّع بمفردها مع رجل محترم، لكنَّه يظلّ غريبًا عنها، سألتني بفظاظة: «تعالي يا لينو، ألم تقولي إنَّك تودّين التنزُّه؟». أجبتها: «أجل، لكنَّني أودّ الإصغاء إلى هذا النقاش، قد نتبعكما لاحقًا». فابتعدتْ حزينة مع برونو، نحو الينابيع الحارَّة، وكانت قامتاهما متساويتين تمامًا.

بقينا نتمعَّن في أحوال نابولي وإيسكيا وأنحاء مقاطعة كامبانيا، وكيف أنَّها باتت في أيادي أسوأ الناس الذين يتظاهرون بأنَّهم الأفضل. «لصوص»، عرّفهم نينو بانتقاد متصاعد، «مخرِّبون، استغلاليُّون، لديهم صناديق من المال، ومع ذلك لا يدفعون الضرائب: متعهِّدو بناء، محامون عن المتعهِّدين، مافيويُّون، فاشيُّون وأنصار الملكيَّة وأتباع الحزب الديموقراطيّ المسيحيّ، الذين يتصرَّفون كما لو أنّ الإسمنت يُعجن في السماء، وأنّ الله بنفسه هو الذي يرميه، بجرَّافة كبيرة، فوق التلال والسواحل». أبالغ إن قلت إنَّنا تمعّنَّا في الموضوع، فقد كان نينو يتمعَّن بمفرده، بينما كنت أستلهم أحيانًا بعض المعلومات التي قرأتها في «وقائع جنوبيَّة». أمَّا ليلا، فتدخَّلتْ مرَّة واحدة وبحذر شديد، حين ذكر نينو مالكي المتاجر بين أولئك المتغطرسين. سألته:

Telegram: Somrlibrary

«من تقصد بمالكي المتاجر؟»

قطع نينو جملته، ونظر إليها مستغربًا:

«التجّار».

«ولماذا تسمّيهم «مالكي المتاجر»؟»

«هكذا يُسمّون».

«زوجي مالك متجر».

«لم أقصد إهانتك».

«لم أشعر بالإهانة».

«هل تدفعون الضرائب؟»

«هذه هي المرّة الأولى التي أسمع فيها بالضرائب».

«حقًّا؟»

«أجل».

«الضرائب ضروريَّة لتنظيم الحياة الاقتصاديَّة في مجتمع ما».

«أصدِّقك. هل تذكر باسكوالي بيلوزو؟»

«لا».

«إنَّه عامل بناء. لولا كلّ هذا الإسمنت لأصبح عاطلًا عن العمل».

«آه».

«لكنَّه شيوعيّ. والده، الشيوعيّ أيضًا، قتل والد زوجي، بحسب ما قضت المحكمة، وقد جنى أمواله بالسوق السوداء والربا. وباسكوالي يشبه أباه، لم يوافق يومًا على مسألة السلام، حتى مع رفاقه الشيوعيِّين. وعلى الرَّغم من أنّ أموال زوجي ورثها من أبيه، فإنَّنا أنا وباسكوالي صديقان ودودان».

«إلامَ ترمين؟ لم أفهم بعد».

Telegram: Somrlibrary

أطلقتْ ليلا تنهيدة مشوبة بالسخرية الذاتيَّة.

«ولا أنا، كنت آمل أن أفهم شيئًا بالإصغاء إليكما».

هذا كلّ شيء، لم تقل أيّ كلمة بعدئذ. لكنَّها، حينما كانت تتكلَّم، لم تستخدم نبرتها العدائيَّة المعهودة، وبدت كأنَّها تريد منَّا جدِّيًا أن نساعدها في الفهم، بما أنَّ الحياة في الحيِّ كانت عبارة عن بَكَرة معقَّدة. واستخدمت العامِّيَّة دومًا، كأنَّها تلمّح بتواضع: لا أتقنَّع ولا أتخفَّى، أتكلَّم كما أكون. قالت أشياء مبعثرة، من دون أن تحاول الربط بينها، كما تفعل عادة. والحقّ يُقال إنَّنا، أنا وهي، لم نسمع يومًا بذلك المصطلح المشحون بالاشمئزاز الثقافيّ والسياسيّ: مالكي متاجر. كما أنَّنا كنَّا نجهل كلّ شيء يخصّ الضرائب: فآباؤنا، وأصدقاؤنا، وعشّاقنا، وأزواجنا، وأقاربنا، كانوا يتعاملون مع الضرائب كما لو أنَّها غير موجودة، بينما لا تعلِّمنا المدرسة، حتى ولو بشكل عام، أنَّ للضرائب علاقة بالسياسة. ومع هذا، استطاعت ليلا أن تشوِّش ذلك العصر الذي بدا يبشِّر بالخير، حتى تلك اللحظة. حاول نينو، بعد تلك الممازحات، أن يستعيد موضوعه، لكنَّه تلعثم وعاد يسرد من أقاصيصه المضحكة عن الحياة المشتركة مع برونو. قال إنَّهما لا يتناولان سوى البيض المقليّ واللحوم المجفَّفة، ويشربان الكثير من النبيذ. ثم بدا مرتابًا هو نفسه من أقاصيصه، وانتشى بعودة بينوتشا وبرونو وهما يتناولان جوز الهند، كما بدا شَعر برونو مبلَّلًا كأنَّه خرج للتوِّ من المياه.

«لقد استمتعتُ كثيرًا»، هتفت بينوتشا، وكأنَّها كانت تقصد: يا لكما من حقيرتين، أرسلتماني بمفردي للتنزُّه مع رجل لا أعرف من يكون.

وعندما انصرف الشابَّان، رافقتُهما لمسافة قصيرة، لا لشيء سوى لتوضيح أنَّهما صديقاي، وأنَّهما أتيا لأجلي.

Telegram: Somrlibrary

قال نينو مقطّب الأسارير:

«لينا تغيَّرت، مع الأسف».

أومأتُ بنعم. ودَّعتهما، وبقيتُ واقفة وقدماي في الماء لعلِّي أهدأ.

حين عدنا إلى المنزل، كانت البهجة تغمرنا أنا وبينوتشا، في حين كانت ليلا سارحة في أفكارها. روت بينوتشا زيارة الشابَّين لنونتسيا، وبدت سعيدة من برونو على غير المتوقَّع، لأنَّه بذل قصارى جهده كي لا تنجب طفلًا راغبًا في جوز الهند. إنَّه شابٌّ لطيف، قالت، وطالبٌ، لكنَّه ليس مملًّا؛ يبدو أنَّه لا يعتني بمظهره، لكنّ لباسه ـ القميص ولباس السباحة والصندل ـ غالي الثمن. وأبدت فضولها بشأن كيفيَّة امتلاك الأموال بطريقة مختلفة عن طريقة أخيها ورينو والأَخَوَين سولارا. وقالت جملة أثارت استغرابي: في مقهى الشاطئ، اشترى لي من هذا وذاك من دون مباهاة.

كانت الحماة تصغي إلى كنّتها كما لو حدّثتها عن عالم مسحور، وهي التي لم تذهب إلى البحر أبدًا، طوال تلك الإجازة، بل اهتمَّت بشراء الحاجيّات وأمور المنزل وتحضير العشاء والغداء الذي كنَّا نأخذ منه جزءًا إلى الشاطئ في اليوم اللاحق. وبالطبع، انتبهتْ لابنتها الشاردة بعيدًا، ورمتها بنظرات استقصائيَّة. لكنّ ليلا كانت سارحة فقط. لم تُثر مشكلة من أيِّ نوع. استقبلتْ بينوتشا في سريرها، وتمنَّت للجميع ليلة سعيدة. ثم قامت بخطوة مفاجئة. ما إن تجهَّزتُ للنوم حتى أطلَّتْ برأسها في غرفتي الصغيرة.

«هلَّا أعطيتني واحدًا من كتبك؟» سألتني.

نظرتُ إليها بارتياب. هل تريد أن تقرأ؟ متى فتحت كتابًا آخر مرَّة، منذ ثلاث سنوات، أربع؟ ولماذا قرَّرت أن تعود إلى القراءة الآن؟ أمسكتُ بكتاب بيكيت، ذاك الذي كنت أستعمله لسحق البعوض، وأعطيته لها. بدا لي أسهل كتاب موجود.

Telegram: Somrlibrary

٤٧

انقضى الأسبوع بين انتظار طويل ولقاءات تنتهي على عَجَل. كان الشابَّان يحترمان مواعيدهما بدقَّة. يستيقظان في السادسة صباحًا، يدرسان حتى ساعة الغداء، وفي الثالثة ظهرًا ينطلقان لموعدهما معنا، ويعودان أدراجهما في السابعة مساء، يتعشَّيان ويدرسان ثانية. لم يأت نينو بمفرده أبدًا. وعلى الرَّغم من الاختلاف الكبير بينهما، فإنّ نينو وبرونو كانا في غاية الانسجام، ويبدوان قادرين على مقابلتنا، وخصوصًا إذا استمدّ أحدهما القوَّة من حضور الآخر.

لم توافق بينوتشا على نظريَّة الانسجام بين الشابَّين. ورأت أنَّهما ليسا صديقين تمامًا، وليسا متضامنين بشكل ملحوظ. وبالنسبة إليها، كانت العلاقة بينهما قائمة على صبر برونو الذي كانت طباعه الحسنة تستوجب منه أن يصبر على تذمُّر نينو منذ الصباح حتى المساء، بكلّ الترَّهات التي يتلفَّظ بها باستمرار. «أجل، إنَّها ترّهات» كرَّرتْ، ثم اعتذرت بلهجة ساخرة من تعدِّيها على تلك النقاشات التي أعجبتني كثيرًا. «أنتم طَلَبة» قالت، «ومن المنطقيّ أن تتفاهموا في ما بينكم، لكنْ اسمحي لي بالقول إنَّنا نملّ بعض الشيء».

أسعدني اعتذارها كثيرًا، لأنَّه يثبت في حضور ليلا، الشاهدة

Telegram: Somrlibrary

الصامتة، أنّ العلاقة التي تجمعني بنينو كانت استثنائيَّة، وليس من السهل اقتحامها. لكن، ذات يوم، قالت بينوتشا لبرونو وليلا، بازدراء: «فلنترك لهذين الاثنين دور المثقَّفين، ولنذهب للسباحة، فالمياه منعشة». من الواضح أنَّ القصد من «دور المثقَّفين» أنّ تلك الأمور التي نناقشها لم تكن تهمّنا جدِّيًا، وأنَّنا كنَّا نؤدِّي دورًا ما، وندَّعي المعرفة. وبينما لم تجرحني تلك العبارة، استاء منها نينو كثيرًا، كأنَّه غصّ ولم يكمل جملته. نهض واثبًا، وركض ليغطس قبلهم من دون أن يكترث لحرارة المياه، وراح يرشّنا ونحن نرتعش ونتوسَّل إليه أن يكفّ عن هذا، ثم أخذ يصارع برونو كأنَّه أراد أن يُغرقه.

ها هو ذا، قلت لنفسي، محمّلًا بالأفكار العظيمة، لكنَّه يلهو مبتهجًا وقتما يشاء. فلماذا لا يُظهر معي إلَّا جانبه الجدِّيّ؟ هل أقنعته غالياني بأنَّني لا أهتمّ سوى بالدراسة؟ أم كنت أنا من يوحي إليه بهذا الانطباع، بسبب النظَّارة أو طريقتي في الكلام؟

ومنذ تلك اللحظة، انتبهتُ بقلق متزايد إلى أنّ وقت الظهيرة يتبدَّد بين رغبته العارمة في التعبير عن نفسه وبين رغبتي العارمة في منافسته في مصطلحٍ ما لأنال رضاه وموافقته على رأيي. لم يحدث أن شبك يدي منذئذ، ولم يدعُني إلى الجلوس على حافَّة منشفته بعدئذ. كنت أحسد بينوتشا وبرونو، لأنَّهما يضحكان على أشياء تافهة، وأفكِّر: كم يسعدني لو ضحكتُ مع نينو بهذا الشكل؛ لا أريد شيئًا، ولا أتطلَّع إلى شيء. كلّ ما أرغب فيه هو الحصول على علاقة ودِّيَّة، ولو قليلًا، ولو تضمَّنت الاحترام كما الحالة بين بينوتشا وبرونو.

كان يبدو أنّ ليلا مشغولة بقضايا أخرى. تصرّفت بسلوك هادئ طوال الأسبوع. وكانت تمضي معظم النهار في المياه تسبح ذهابًا إيابًا، وفق خطٍّ موازٍ للساحل على بعد بضعة أمتار عن مضرب

Telegram: Somrlibrary

الأمواج. وكنّا نرافقها، أنا وبينوتشا، ونلحّ على أن نعلّمها حتى لو باتت تسبح أفضل منّا في الواقع. لكنْ سرعان ما نشعر بالبرد، ونهرع للاستلقاء على الرمال الساخنة، بينما تتابع ليلا التمرُّن بتجذيف الذراعين بهدوء، بدفع خفيف للقدمين، بتنفُّس منتظم كما علّمها سارّاتوري الأب. تريد أن تبالغ دومًا. كانت بينوتشا تغمغم وهي تتلمّس بطنها. وغالبًا ما أنهض وأصرخ: «كفاك سباحة، أنت في المياه منذ وقت طويل، قد تُصابين بالزكام هكذا». لكنَّها لم تكن تصغي إليّ، ولا تخرج إلّا حين تتجمَّد بشرتها، وتبيضّ عيناها، وتزرقّ شفتاها، وتتشنَّج أناملها. كنت أنتظرها عند الشاطئ بمنشفتها التي سخنت تحت حرارة الشمس، وأضعها على كتفيها، وأجفّفها بقوَّة.

وحين يصل الشابَّان، اللذان لم يتغيّبا يومًا، إمَّا نسبح معًا مرَّة ثانية ـ لكنّ ليلا كانت ترفض بشكل عام، وتجلس على المنشفة لتنظر إلينا من الشاطئ ـ وإمَّا نتنزَّه جميعنا، فتبقى هي خلفنا لتجمع الصَّدَف، أو تستمع إلى نقاشاتي مع نينو عن العالم بانتباه شديد، ونادرًا ما تدلي بدلوها. صعقتني ليلا بأنَّها تحرص على احترام العادات الصغيرة التي نشأتْ مع الأيَّام. مثلًا، كان برونو يأتي بمشروبات باردة يشتريها في طريقه إلينا من أحد الأكشاك الصيفيَّة، وذات مرَّة نبَّهتْه إلى أنَّه اعتاد أن يقدّم لي عصير البرتقال، في حين أنَّه اشترى لي يومها المياه الغازيَّة. قلت: «شكرًا برونو، لا بأس بهذا»، لكنّها أمرته بالذهاب ليشتري لي مشروبي المعتاد. مثلًا، اعتاد برونو وبينوتشا على الذهاب للبحث عن جوز الهند الطازج؛ وعلى الرَّغم من أنَّهما يطلبان أن نرافقهما، فما من مرَّة خطر في بال ليلا أو نينو أو أنا، أن نذهب معهما. وهكذا، بات من الطبيعيّ جدًّا أن يذهبا ببشرة جافَّة، ويعودا مبلَّلين ومعهما جوز الهند ذو الجوف ناصع البياض. وإذا نسيا أمر هذه الفاكهة أحيانًا،

Telegram: Somrlibrary

تقول ليلا لهما: «وأين جوز الهند اليوم؟»

كانت تبدي حرصها على متابعة نقاشاتي مع نينو أيضًا. حين كنَّا ندردش في قضايا عامَّة، ينفد صبرها وتقول له: «ألم تقرأ شيئًا مهمًّا اليوم؟». فيبتسم نينو متأثِّرًا، ويراوغ قليلًا، ثم يعاود الكلام على المواضيع المحبَّبة إلى قلبه. يتكلَّم ويتكلَّم، ولم يكن بيننا اختلاف أبدًا. فكنت أجد نفسي دومًا أوافقه الرأي؛ وإذا تدخَّلتْ ليلا لتعترض على أمر ما، كانت تقول ما عندها باختصار، وبحذر، ومن دون أن تزيد في الخلاف.

ذات عصر، كان يشير إلى مقال ينتقد أداء المدارس العامَّة انتقادًا لاذعًا، وانتقل بلا رابط إلى ذكر مدرستنا الابتدائيَّة بالسوء. اقتنعتُ برأيه، وذكرتُ العصيّ التي كنَّا نتلقَّاها من المعلِّمة أوليڤييرو على ظاهر أيادينا إذا أخطأنا، وذكرتُ المنافسات الضارية التي كانوا يُخضِعوننا لها لإثبات جدارتنا. لكنّ ليلا، كي تفاجئني، قالت إنّ المدرسة الابتدائيَّة كانت في غاية الأهمِّيَّة بالنسبة إليها، وامتدحتْ معلِّمتنا باللغة الفصحى التي لم أسمعها منها منذ زمن، لغة بليغة ومركَّزة وجزلة. لم يجرؤ نينو على مقاطعتها ليقول رأيه، بل ظلَّ جالسًا يصغي بانتباه. ثم ختمت كلامها بعبارات عامَّة عن احتياجاتنا المختلفة وكيف أنّ التجربة ذاتها قد تكفي ضرورات فردٍ ما، بينما لا تكفي ضرورات فردٍ آخر.

وكان هنالك حَدَث آخر، أظهرتْ فيه ليلا اختلاف رأيها بطريقة مهذَّبة، وبالإيطاليَّة الفصحى. كنت أشعر بأنَّني أؤيِّد دومًا تلك النقاشات التي تفترض تدخّلات ناجعة، ومن شأنها أن تضع حدًّا للمشكلات، إن طُبِّقتْ في أوانها، وتمحو الظلم والجور وتحول دون النزاعات. وكنت قد تعلَّمتُ هذا المنهج في التفكير، فأردت أن أُظهر مهارتي في تطبيقه كلَّما استعرض نينو تلك المسائل، التي قرأ عنها هنا

وهناك: الاستعمار، والاستعمار الحديث، وأفريقيا. لكنْ ذات عصر، قالت له ليلا: حذار، ما من شيء يستطيع إلغاء الصراع بين الأغنياء والفقراء.

«لماذا؟»

«أولئك الذين في الأسفل يريدون الصعود إلى الأعلى، وأولئك الذين في الأعلى يريدون البقاء في الأَعلى؛ وبطريقة أو بأخرى، نصل دومًا إلى تراشق البصاق والركل على الوجوه».

«تمامًا، لهذا السبب علينا أن نحلّ المشكلات قبل أن نصل إلى العنف».

«وكيف؟ أن نصعد بالجميع إلى الأعلى، أن ننزل بالجميع إلى الأسفل؟»

«أن نوجِد نقطة توازن بين الطبقات».

«أين هذه النقطة؟ أولئك الذين في الأسفل يلتقون في منتصف الطريق مع أولئك الذين في الأعلى؟»

«فلنقل ذلك».

«وهل ينزل أولئك الذين في الأعلى طواعية؟ وهل يتخلّى أولئك الذين في الأسفل عن الطموح إلى الصعود إلى نقطة عليا؟»

«أجل، إن استطعنا العمل جيِّدًا على حلّ جميع المسائل. لست مقتنعة؟»

«لا. الطبقات لا تلهو بلعب ورق الشدَّة، بل تعتزم النضال، والنضال حتى الرمق الأخير».

«هذا ما يفكِّر فيه باسكوالي»، قلتُ.

«وهذا ما أفكِّر فيه الآن أنا أيضًا» أجابت بهدوء.

Telegram: Somrlibrary

وبغضّ النظر عن تلك المبارزات النادرة بينهما، كان من النادر ألَّا أكون وسيطة في حواراتهما. لم تكن ليلا تبادر بالكلام معه مباشرة، ولا يبادر نينو بالحديث إليها، ويبدو كلاهما خجولًا من الآخر. بل رأيتها تشعر بالارتياح مع برونو أكثر، على الرَّغم من سكوته الدائم، استطاعت بفضل لطفه، ونبرته المحبَّبة حين يناديها أحيانًا بالسيِّدة كارّاتشي، أن توطِّد ألفة معه. مثلًا، ذات مرَّة كنَّا نسبح لوقت طويل، كلّنا معًا، حتى إنّ نينو فاجأني بعدم انعزاله في السباحة، كما كان يفعل دائمًا ويجعلني قلقة على حياته. توجَّهتْ ليلا إلى برونو، وليس إلى نينو، لتسأله عن مدَّة التجذيف بالذراعين والرأس فوق السطح للتنفُّس. فوضَّح لها الشابّ فورًا. لكنّ نينو استاء من أنَّها لم تأخذه بعين الاعتبار على الرَّغم من براعته في السباحة، فتدخّل ليسخر من برونو وتجذيفه القصير وإيقاعه المتخبِّط. ثم أراد أن يُظهر لها الطريقة الصحيحة بنفسه. أولته كامل اهتمامها، وقلّدته في الحال. وفي النهاية، صارت تسبح بأسلوب إستر ويليامز، وفقًا لتعبير برونو؛ بمعنى أنَّها أصبحت ماهرة مثل إستر ويليامز، السبّاحة المشهورة ونجمة الأفلام.

وحين اقتربنا من نهاية الأسبوع ـ أذكر أنَّه كان صباح يوم سبت مشرقًا، أجواؤه منعشةٌ ورائحة الصنوبر المكثَّفة ترافقنا على طول الطريق حتى وصلنا إلى الشاطئ ـ هتفت بينوتشا بنبرة حازمة:

«ابن سارّاتوري لا يُحتمل حقًّا».

دافعتُ عن نينو برفق. قلت بنبرة موزونة إنّ المرء حين يدرس، ويرتبط بقراءاته بشغف كبير، يشعر بالحاجة إلى نقل شغفه إلى الآخرين، وإنّ الأمر كان كذلك في ما يخصّ نينو. لم تبدُ ليلا مقتنعة، قالت جملة بدت لي مهينة:

Telegram: Somrlibrary

«إذا محونا من رأس نينو الأشياء التي قرأها، يغدو فارغ الرأس».

انتفضتُ:

«ليس صحيحًا. إنَّني أعرفه جيِّدًا، لديه الكثير من المزايا».

اصطفَّت بينوتشا إلى جانبها متحمِّسة. لكنّ ليلا قالت إنَّها أساءت التعبير، ربَّما لأنَّها لم تَرَ انحياز بينوتشا إليها بعين الارتياح، فقلبت معنى الجملة فجأة، كأنَّها صاغتها في سبيل التجربة، ثم ندمتْ عليها حين سمعتها، وراحت تراوغ كي تعالج ما أفسدتْ. أوضحتْ: إنَّه يعتقد أنّ المسائل العظمى تحظى بمفردها بكلِّ الأهمِّيَّة؛ وإن استطاع، فقد يكرِّس حياته لتلك المسائل حصرًا، من دون أن يضيّع وقته في أمور أخرى؛ وليس مثلنا نحن الذين نفكِّر في شؤوننا فقط، كالمال والبيت والزوج وإنجاب الأولاد.

ولم يستهوِني المعنى الآخر أيضًا. ما الذي تقصده؟ إنّ نينو لا يهتمّ بالعواطف تجاه شخصٍ بعينه، وإنّ مصيره أن يعيش بلا حبّ، بلا أولاد وبلا زواج؟ تجرَّأتُ على الردّ:

«أتعلمين بأنَّه مرتبط بفتاة يكنّ لها خالص المودَّة؟ يتراسلان مرّة في الأسبوع».

تدخَّلتْ بينوتشا:

«برونو ليس مرتبطًا، لأنَّه يبحث عن المرأة المثاليَّة، وما إن يلتقيها سيتزوَّج بها ويريد إنجاب الكثير من الأولاد». ثم تنهَّدتْ، وقالت من دون رابط منطقي: «لقد مضى هذا الأسبوع سريعًا».

«ألست سعيدة؟ سيعود زوجك مبكرًا»، أجبتُها.

ولعلَّها شعرتْ بالإهانة من احتمال أنَّني تصوّرتها متضايقة من عودة رينو. فهتفتْ:

Telegram: Somrlibrary

«أنا سعيدة بالتأكيد».

سألتني ليلا حينذاك:

«وهل أنت سعيدة؟»

«بعودة زوجيكما؟»

«لا، فهمتِ قصدي جيِّدًا».

فهمتُ قصدها، لكنَّني لم أقرّ. كانت تعني أنَّني، في الغد، يوم الأحد، ما إن ينشغلا مع ستيفانو ورينو، سأجد وسيلة لألتقي الشابَّين وحدي، بل من شبه المؤكَّد، كما حدث الأسبوع الماضي، سينشغل برونو بشوؤنه فأُمضي الظهيرة كلّها مع نينو. وكانت محقَّة، كان ذاك ما آمله تمامًا. فمنذ أيَّام، قبل أن أغفو، كنت لا أفكِّر سوى في نهاية الأسبوع. ليلا وبينوتشا ستستمتعان بحياتيهما الزوجيَّتيْن؛ وأنا سأرتضي بفُتات السعادة كأيٍّ عانس، والعدسات قابعة على وجهها، تفني عمرها في الدراسة: نزهة قصيرة، ويدان مشبوكتان. ومن يدري، ربَّما أحصل على أكثر من ذلك. فارتجلتُ ضاحكة:

«ما الذي عليّ أن أفهمه يا ليلا؟ هنيئًا لكما لأنَّكما متزوِّجتان».

Telegram: Somrlibrary

٤٨

انقضى النهار ببطء شديد. بينما كنَّا، أنا وليلا، نستجمّ تحت الشمس في انتظار وصول نينو وبرونو محمَّلين بالمشروبات المنعشة، تكدَّر مزاج بينوتشا بلا سبب. راحت تتلفَّظ بعبارات قصيرة بعصبيَّة ووقفات موجزة. تارة تخشى ألَّا يأتي الشابَّان، وتارة تصرخ بأنَّنا لا يمكننا أن نضيِّع وقتنا في انتظار وصولهما. وحين ظهرا على الموعد، ومع المشروبات المعتادة، أصبحتْ فظَّة، وقالت إنَّها تشعر بالتعب. لكنْ بعد دقائق، من دون أن يعتدل مزاجها، غيَّرتْ فكرتها، ونوَّهت بتأفُّفٍ إلى الذهاب للبحث عن جوز الهند.

أمَّا ليلا، فقامت بشيء لم يعجبني. طوال الأسبوع لم تكلِّمني بشيء عن الكتاب الذي استعارته منِّي، حتى نسيتُ أمره. وما إن ابتعدت بينوتشا مع برونو، لم تنتظر ليلا أن يأسرنا نينو بنقاشاته، فسألته من دون مقدِّمات:

«هل ذهبت إلى المسرح يومًا؟»

«بعض المرّات».

«وهل أعجبك؟»

«أحيانًا».

Telegram: Somrlibrary

«أنا لم أدخل المسرح في حياتي، لكنَّني شاهدته في التلفاز».

«ليس الأمر ذاته».

«أعرف، لكن أفضل من لا شيء».

وحينذاك، أخرجت الكتاب من حقيبتها، أعمال بيكيت المسرحيَّة، وأرته لنينو.

«هل قرأت هذا؟»

أخذ نينو الكتاب، عاينه، واعترف مستاءً:

«لا».

«ثمَّة شيء لم تقرأه إذن».

«أجل».

«عليك أن تقرأه».

وبدأت ليلا تحدِّثنا عن الكتاب. وفوجئتُ بأنَّها تصبّ كامل طاقتها في الكلام، كما كانت تفعل في الماضي، تختار الكلمات بعناية لتجعلنا نشعر بوجود الأشياء، ونرى الشخصيَّات، التي تتكلَّم عليها، وتستلهم عواطفها للتأثير في رسم أحاديثها وتضخّ فيها الحياة. قالت إنَّه لا ينبغي لنا أن ننتظر نشوب الحرب النوويَّة؛ ففي الكتاب، كانت تلك الحرب كأنَّها نشبت وخمدت منذ حين. وقصّت علينا مطوَّلًا عن سيِّدة تُدعى «ويني» تهتف في لحظة معيَّنة: «وهذا نهارٌ إلٰهيٌّ آخر»، وليلا نفسها ذكرتْ تلك الجملة، باهتياجٍ ارتعش في إثره صوتها: «وهذا نهارٌ إلٰهيٌّ آخر». وشرحتْ لنا أنّ تلكَ الكلمات لا تُحتمل، لأن لا وجود لشيء إلٰهيّ أبدًا، أبدًا، في حياة ويني، لا في حركاتها ولا في رأسها، لا وجود لأيّ شيء إلٰهيّ، لا في ذلك النهار ولا في الأيَّام السابقة. وأضافت أنّ ويني تأثَّرتْ برجلٍ يُدعى دان روني. وقالت إنَّ

Telegram: Somrlibrary

دان روني كان أعمى، لكنَّه لا يتذمَّر من عاهته، لأنَّه يعتقد أنّ الحياة أفضل إن لم نرها، بل وصل به الأمر إلى التساؤل عمَّا إذا كانت الحياة أفضل بألف مرَّة لو أصبح المرء أصمّ وأبكم؛ كم ستكون حياة نقيّة، محض حياة، حياة لا تحتوي إلَّا على الحياة.

«ما الذي أعجبكِ فيه؟» سأل نينو.

«لست أعلم إن كان قد أعجبني».

«لكنّه أثار فضولك عمومًا».

«أثار أفكاري بالأحرى. ما الذي يعنيه بأنّ الحياة تكون حياة حقيقيَّة إذا استغنينا عن البصر والسمع، والكلمات أيضًا؟»

«لعلّه مجرّد استنتاج».

«لا، لا، أيّ استنتاج؟! ثمّة حكمة تثير آلافًا مثلها، ليست مجرَّد استنتاج».

لم يردّ نينو. اكتفى بالقول، وهو يحدِّق إلى غلاف الكتاب كما لو كان لغزًا مبهمًا:

«هل انتهيتِ منه؟»

«أجل».

«هلَّا أعرتني إيَّاه؟»

هزّني ذلك الطلب، وآلمني. كنت أذكر أنّ نينو قال لي ذات مرَّة إنّه لا يهتمّ بالأدب، وإنّ قراءاته مختلفة. وقد أعطيتُ كتاب بيكيت لليلا، لأنَّني كنت على يقين بأنَّه لن يُفيدني في محادثتي معه. الآن، وقد كلّمتْه بشأن الكتاب، لم يكتف بالإصغاء إليها، بل طلب استعارته أيضًا. قلت:

«هذا الكتاب لغالياني، هي التي أعطتني إيَّاه».

Telegram: Somrlibrary

«هل قرأته أنت؟» سألني نينو.

كان لا بدّ من أن أعترف بأنَّني لم أقرأه، لكنَّني أضفتُ على الفور:

«كنت أفكِّر في البدء بقراءته هذا المساء».

«هلَّا أعرتنيه حالما انتهيت منه؟»

«إن كان يهمّك كثيرًا» سارعتُ إلى القول، «اقرأه أنت أوَّلًا».

شكرني نينو، حكّ بظفره آثار بعوضة على الغلاف، وقال متوجِّهًا إلى ليلا:

«سأقرأه الليلة، ونتناقش في شأنه غدًا».

«في الغد لا، لن نلتقي».

«لماذا؟»

«سأكون مع زوجي».

«آه».

بدا لي ممتعضًا، وانتظرتُ بفارغ الصبر أن يسألني إن كان من الممكن أن نلتقي أنا وهو. لكنَّه صُدَّ متألِّمًا، وقال:

«وأنا أيضًا لا أستطيع في الغد. سيصل والدا برونو هذا المساء، وعليّ أن أنام في بارانو. أعود يوم الاثنين».

بارانو؟ يوم الاثنين؟ أملتُ أن يدعوني إلى اللحاق به إلى شاطئ مارونتي. لكنَّه كان مشوَّشًا، ربَّما لا يزال يفكِّر في أقوال روني الذي لم يكن سعيدًا بكونه أعمى، فأراد أن يصيبه الصمّ والبكم أيضًا. لم يقل لي نينو شيئًا.

Telegram: Somrlibrary

٤٩

في طريق العودة إلى المنزل، قلت لليلا:

«إن أعرتُك كتابًا ما، ليس لي بالمناسبة، فأرجوك ألّا تحمليه معك إلى الشاطئ. لا أستطيع إعادته إلى غالياني مليئًا بالرمل».

«عذرًا» قالت، وقبّلتْ خدِّي بفرح. وأرادت أن تحمل حقيبتي وحقيبة بينوتشا، لعلِّي أسامحها.

اعتدل مزاجي شيئًا فشيئًا، وفكَّرتُ في أنّ نينو لم يُشِر إلى ذهابه إلى بارانو بشكل اعتباطيّ، لعلَّه أراد منِّي أن ألتقط الرسالة وأقرِّر من تلقاء نفسي اللحاق به إلى هناك. إنَّه هكذا، حدَّثتُ نفسي بطمأنينة، يريد أن يلحق به الآخرون، سأستيقظ باكرًا في الصباح وأنطلق إليه. أمَّا بينوتشا فقد ظلّ مزاجها متكدِّرًا. كانت في العادة تغضب ثم تهدأ بسرعة، وخصوصًا في تلك الآونة، إذ ليَّن الحمل جسمها وحدَّة طباعها أيضًا.

«هل أساء إليك برونو في شيء ما؟» سألتها.

«لا، أبدًا».

«ما الذي حدث إذن؟»

«لا شيء».

Telegram: Somrlibrary

«هل أنتِ بخير؟»

«أجل، إنَّني بخير، لكن لا أدري ما الذي دهاني».

«حضِّري نفسك، هيًّا، فرينو على وشك الوصول».

«حسنًا».

لكنَّها ظلَّتْ بلباس السباحة المبلَّل تتصفَّح رواية مصوَّرة. تزيَّنَّا أنا وليلا، ولاسيَّما ليلا، فقد تبهرجتْ كأنَّها مدعوَّة إلى حفل ما، وبينوتشا لا شيء. وحينها، قالت نونتسيا الحنون، وهي تحضِّر العشاء بصمت: «ها يا بينو الحلوة، ما بك؟ ألا تغيِّرين ملابسك؟». لم تجب. وما إن سمعتْ صوت الدرَّاجة الناريَّة تقترب، حتى وثبتْ وركضت لتنعزل في غرفتها وهي تصرخ: «لا تسمحن له بالدخول، من فضلكنّ».

أمضينا سهرة مشوَّشة، تسبَّبتْ بتشويش الزوجين أيضًا. ستيفانو، وكان معتادًا على صراع مستمرّ مع ليلا، فوجئ بأنّ أمامه فتاة تجود عليه بالودّ والألفة، تسمح له بمداعبتها وتقبيلها من دون أن تُبدي اعتراضها المعهود؛ في حين أنّ رينو، الذي كان معتادًا على غنج بينوتشا ولهفتها إلى حضنه، ولاسيَّما خلال الحمل، استاء، لأنَّ زوجته لم تركض إلى السلالم لملاقاته، وتوجَّب عليه الذهاب إليها في غرفة النوم. وعندما عانقته أخيرًا، أحسَّ بأنَّها تبذل جهدًا لتتصنَّع سعادتها برؤيته. ليس هذا فحسب، بل بينما كانت ليلا تضحك، بعد كأسين من النبيذ، بسبب تلميحات الشابَّين الجنسيَّة والمثيرة والتي تعبِّر عن الشهوة، همس رينو في أذن زوجته شيئًا ما، فانتفضتْ وهتفتْ بفصحى مزعزعة: «كفّ عن ذلك أيُّها الجلف». غضب رينو: «جلف؟ أنا جلف؟»، قاومتْ بينوتشا عدَّة دقائق، ثم ارتعشت شفتها السفلى، ولاذت في غرفة النوم.

«هذا بسبب الحمل»، قالت نونتسيا، «عليك أن تتحلَّى بالصبر».

Telegram: Somrlibrary

هيمن الصمت. أنهى رينو طعامه، ثم تأفَّف وذهب إلى زوجته، ولم يعد بعدها.

قرَّر ستيفانو وليلا القيام بنزهة على متن اللامبريتا لرؤية الشاطئ خلال الليل، وانصرفا ضاحكين وهما يتبادلان القبلات الخاطفة. نظَّفتُ الطاولة وأنا أعاند نونتسيا كالعادة، لأنَّها لا تريد منِّي أن أحرِّك إصبعًا. وتحدَّثنا قليلًا عن لقائها الأوَّل بفرناندو وغرامهما. قالت جملة أثَّرتْ فيّ كثيرًا: «تظلّ المرأة طوال حياتها تودّ شخصًا لا تعرفه حقّ المعرفة». كان فرناندو طيِّبًا وشرِّيرًا على حدّ سواء، وكانت تكنّ له خالص المودَّة، لكنَّها أضمرتْ له بعض الحقد أيضًا. وشدَّدت: «لذا، لا ينبغي لنا أن نقلق بشأن بينوتشا، فإذا تكدَّر مزاجها اليوم فلا بدّ من أن يعتدل غدًا. أتذكرين كيف عادت لينا من شهر العسل؟ وانظري إليهما الآن. الحياة هكذا، تتلقَّين الضربات تارة، والقبلات تارة أخرى».

ذهبتُ إلى غرفتي، وحاولتُ إنهاء قراءة شابو، لكنَّني تذكَّرتُ كيف أغوت ليلا نينو بكلامها على روني الأعمى، ولم يعد لديّ رغبة في هدر الوقت في النظريَّة القوميَّة. نينو يصعب فهمه، فكَّرتُ: من الصعب الإمساك به. كان يبدو غير مهتمّ بالأدب، فإذا بليلا تقرأ كتابًا عن المسرح، وتتفوَّه ببعض الترّهات، فتثير ولعه بالمسرح. بحثتُ بين الكتب عن شيء أدبيّ، ولم أجد. بل اكتشفتُ أنَّ ثمَّة كتابًا ناقصًا. هل يعقل؟ غالياني أعطتني ستَّة كتب. أحدها عند نينو، والآخر أقرأه أنا، وهناك ثلاثة كتب على الرفّ الرخاميّ. فأين السادس إذن؟

بحثتُ في كلّ مكان، تحت السرير أيضًا، وتذكَّرتُ أنّ الكتاب كان عن هيروشيما. شعرتُ بالارتياب، لا بدّ من أنّ ليلا أخذته بينما كنت أستحمّ. ما الذي يحدث لها؟ بعد أعوام من الانخراط في صناعة

Telegram: Somrlibrary

الأحذية، والخطوبة، والحبّ، والملحمة، والأشغال مع الأَخَوَين سولارا، هل قرَّرت أن تعود إلى ما كانت عليه في الابتدائيَّة؟ بالتأكيد. وثمَّة إشارة إلى هذا: أرادت أن نقوم بذلك الرهان الذي لم يكن سوى وسيلة لإظهار رغبتها في العودة إلى الدراسة، بغضّ النظر عن نتائجه. وكان لهذا الأمر ما يعقبه. هل التزمت بالرهان حقًّا؟ لا. بل اكتفتْ بالدردشات مع نينو، ستَّة أيَّام على الرمل تحت الشمس، كي تلتهب رغبتها في التعلُّم مجدَّدًا، فهل كانت تسعى للمنافسة في لقب الأكثر جدارة؟ ألهذا امتدحت المعلِّمة أوليڤييرو؟ ألهذا أُعجبتْ بأن يُولع المرء بالمسائل العظمى طوال حياته، ويتجنَّب الغوص في صغائر الأمور؟ خرجتُ من غرفتي على رؤوس أصابعي، متجنِّبة إحداث صريرٍ للباب.

كان المنزل هادئًا. خلدت نونتسيا إلى النوم، وستيفانو وليلا لم يعودا بعد. دخلتُ غرفتهما، فوجدتُها غارقة في فوضى الملابس والحقائب والأحذية. ووجدتُ الكتاب على كرسيٍّ ما، كان بعنوان «هيروشيما في اليوم اللاحق». أخذَتْه من دون استئذان، كأنَّ أغراضي أغراضها؛ كأنَّني مَدينة لها بكلِّ ما كنت عليه؛ كأنَّ اهتمام غالياني بدراستي كان بفضلها؛ كأنَّها هي التي منحتني ذلك الشرف بإحدى حركاتها العابرة أو بإحدى عباراتها المرتجلة. فكَّرتُ في أن أستعيد الكتاب، ثم خجلتُ من نفسي. غيّرتُ الفكرة، وتركته هناك.

Telegram: Somrlibrary

٥٠

كان يوم أحد مملًّا كثيرًا. عانيت بسبب القيظ طوال الليل، ولم أجرؤ على فتح النافذة خوفًا من البعوض. غفوتُ، استيقظتُ، ثم غفوت. هل أذهب إلى بارانو؟ وبأيِّ نتيجة يا ترى؟ هل أمضي النهار في اللعب مع شيرو وبينو وكليليا، بينما يمضي نينو نهاره في سباحته الطويلة، أو يجلس تحت الشمس من دون أن يقول كلمة واحدة، كأنَّه يجادل والده بالصمت؟ استيقظتُ في وقت متأخِّر، في العاشرة، وما إن فتحتُ عينيّ حتى خامرني إحساس بالحرمان آتٍ من بعيد، ليُثقلني بغمامته.

أخبرتني نونتسيا بأنّ بينوتشا ورينو ذهبا إلى البحر، بينما لا يزال ستيفانو وليلا ينعمان بالنوم. غمّستُ الخبز بالقهوة والحليب بلا رغبة، وقرَّرتُ عدم الذهاب إلى بارانو، ومضيتُ إلى الشاطئ غاضبة وحزينة.

وجدتُ رينو هناك يستجمّ تحت الشمس، مبلَّلَ الشعر ومستلقيًا بجسمه الثقيل على بطنه فوق الرمل، وكانت بينوتشا تروح وتغدو على مضرب الأمواج. دعوتها إلى التنزُّه حتى الينابيع الحارَّة، فرفضتْ بفظاظة. تمشّيتُ بمفردي في اتِّجاه فوريو لعلِّي أنعم بالطمأنينة.

انقضى الصباح على ضَجَر. وحين عدت، سبحتُ قليلًا، ثم

Telegram: Somrlibrary

استلقيتُ تحت الشمس. وسمعتُ رينو وبينوتشا يتناقشان، كأنَّني لست موجودة، بعبارات من هذا النوع:

«لا تذهب».

«لديّ عمل. على الأحذية أن تكون جاهزة لفصل الخريف. لقد رأيتِها. هل أعجبتكِ؟»

«أجل، لكنّ إضافات ليلا كانت قبيحة. انزعها».

«لا، بل إنَّها جيِّدة».

«أرأيت؟ أفكاري لا تحظى بأيّ أهمِّيَّة لديك».

«ليس صحيحًا».

«بل صحيح، أنت لم تعد تودّني».

«بل أودّك، وأنت تعلمين كم تعجبينني».

«ماذا تقول؟ انظر إلى بطني كيف أصبحتْ».

«أودّ تقبيل هذه البطن مئة ألف قبلة. طوال الأسبوع، لا أفكِّر إلَّا فيك».

«لا تذهب إلى العمل إذن».

«لا أستطيع».

«إذن، سأغادر هذا المساء أنا أيضًا».

«سبق أن دفعنا ما علينا. لا بدّ من أن تكملي الاصطياف».

«لم أعد أريد».

«لماذا؟»

«لأنَّني كلَّما نمتُ رأيتُ أحلامًا مزعجة، فأظلّ مستيقظة طوال الليل».

«حتى عندما تنامين مع أختي؟»

«مع أختك أرى الكوابيس، لو كان في وسعها قتلي لفعلتْها».

«نامي مع أمِّي إذن».

«شخير أمّك لا يُطاق».

كانت نبرة بينوتشا مستفزَّة. ولم أفهم طوال النهار ما سبب تلك الشكاوى. صحيح أنَّها لم تكن تنام جيِّدًا؛ لكنَّها بدت لي كاذبة، حين طلبتْ منه البقاء أو المغادرة معه على حدّ سواء. فاقتنعتُ أخيرًا بأنَّها كانت تحاول أن تخبره بشيءٍ ما تجهله هي نفسها، فلم تجد أمامها وسيلة للتعبير سوى السفاهة. لكنَّني نسيتُ أمرهما حين انشغلتُ بأمر آخر: الهناء المفرط الذي أحاط بليلا.

حين وصلتْ إلى البحر مع زوجها، بدت لي أكثر سعادة من الليلة السابقة. كانت تريد أن تُظهر له كيف تعلَّمت السباحة، اندفعا معًا بعيدًا عن الشاطئ ـ إلى عرض البحر، صاح ستيفانو ـ وفي الحقيقة لم يبتعدا سوى أمتار قليلة. تقدَّمتْ عليه ليلا، بحركات ذراعيها المنسجمة والدقيقة، وبإيقاع متوازن يسمح لها بالالتفات يمينًا ويسارًا، لتتنفَّس برفع فمها عن سطح المياه؛ ثم توقَّفتْ لتنتظره ضاحكة، بينما كان يجذِّف كالمغفَّلين، ورأسه مستقيم فوق عنقه، وينفخ المياه التي ترتطم على وجهه.

وتعاظمت بهجتها بعد الظهر، حين ذهبا في نزهة على الدرَّاجة الناريَّة. ورينو أيضًا أراد المضيّ على جناح السرعة. وبما أنّ بينوتشا رفضت مرافقته، لخشيتها من السقوط والإجهاض، قال لي: «تعالي أنتِ يا لينو». قمت بتلك التجربة للمرَّة الأولى، وكان ستيفانو يسبقنا ورينو يتبعه، جرّبتُ لسعة الريح والخوف من السقوط والتأذِّي، وتصاعدتْ نشوتي بالسرعة، ورائحة العرق المتصبِّب من ظهر زوج بينوتشا، وغروره بنفسه حتى الانتفاخ الذي كان يدفعه إلى انتهاك كلّ

Telegram: Somrlibrary

القواعد، والردّ على أيّ معترضٍ بسُوقيّة حيّنا، وهو يزمجر ويهدِّد متأهِّبًا للعراك في أيِّ لحظة، كي يثبت حقَّه في فعل ما يحلو له. كانت نزهة ممتعة، أعادتني إلى عواطفي المضطربة في مراهقتي العصيبة. عواطف تختلف شكلًا ومضمونًا عن تلك التي يؤجِّجها نينو، عندما يظهر على الشاطئ في فترة ما بعد الظهر مع صديقه.

ذكرتُ اسميهما مرارًا في يوم الأحد ذاك، وكنت أحبّ ذكر اسم نينو خصوصًا. ولاحظتُ أنّ ليلا وبينوتشا كانتا تتصرَّفان كأنَّني الوحيدة التي التقت هذين الشابَّين. ترتّب على هذا أنَّ ستيفانو أوصاني بإبلاغ ابن سوكافو تحيَّاته كما لو كنت الوحيدة التي في إمكانها لقاؤه. وقبل أن يغادرا للحاق بالمركب، مازحني رينو قائلًا: «من يعجبك أكثر، ابن الشاعر أم ابن ملك المرتديلّا؟ من هو الأجمل في رأيك؟» كما لو أنّ زوجته وشقيقته غير قادرتين على تكوين رأي لعدم حصولهما على العناصر اللازمة.

وفي النهاية، أزعجتني الفتاتان في كيفيَّة التصرُّف حيال مغادرة زوجيهما. غمرت البهجة قلب بينوتشا، وقالت بصوت مرتفع إنَّها ستغسل شعرها المليء بحبَّات الرمل. وتسكَّعت ليلا في المنزل على مضض، ثم قامت لتستلقي على سريرها بلا اكتراث للفوضى التي تجتاح غرفتها. وحين أطللتُ برأسي لأتمنَّى لها ليلة سعيدة، رأيت أنَّها لم تنزع ثيابها بعد، كانت تقرأ الكتاب عن هيروشيما بعينين ضيِّقتين وجبين مقطَّب. لم أؤنِّبها، لكنَّني قلت بحدّة نوعًا ما:

«ما الذي حدث لتعود إليك الرغبة في القراءة فجأة؟»

«هذا ليس من شأنك»، أجابتني.

٥١

في يوم الاثنين، وصل نينو، كطيفٍ تناديه رغبتي، في العاشرة صباحًا، منتهكًا عادته بالمجيء إلينا في الرابعة عصرًا. كانت مفاجأة كبيرة، إذ كنَّا قد وصلنا نحن الثلاث إلى الشاطئ للتوّ، نتبادل اللوم في ما بيننا على من أطالت المكوث في المرحاض، ولاسيّما بينوتشا التي غضبت من أنَّ تسريحة شعرها تبعثرت خلال النوم. وكانت هي أولى المتحدِّثات في الموضوع، بجفاء وعصبيَّة. سألتْ نينو، قبل أن يشرح لنا الانقلاب الذي ألمّ بدقَّة مواعيده:

«لماذا لم يأت برونو، هل لديه أمور مهمَّة تشغله عنَّا؟»

«لا يزال والداه في البيت، سيغادران منتصف النهار».

«وهل سيأتي في ما بعد؟»

«أعتقد ذلك».

«إن تغيَّب برونو فسأعود إلى المنزل، كي لا أموت ضجرًا معكم أنتم الثلاثة».

وبينما كان نينو يحدِّثنا عن يوم الأحد التعيس الذي أمضاه في بارانو، وكيف أنَّه غادر في الصباح الباكر، وجاء إلينا مباشرة لأنَّه لا يستطيع بلوغ برونو، تدخَّلتْ بينوتشا مرَّة أو اثنتين وهي تسأل متذمِّرة:

Telegram: Somrlibrary

من يأتي للسباحة معي؟ وحين تجاهلناها، أنا وليلا، مضت حانقة إلى الماء بمفردها.

صبرًا. نحن فضَّلنا الإصغاء، بانتباه شديد، إلى لائحة الشتائم التي راح نينو يعدِّدها بحقّ أبيه. إنَّه محتال، وصفه هكذا، وكسول. لقد مدَّد إجازته في بارانو بإذن تغيُّب عن العمل بحجَّة مرض مزيَّف، لكنَّه استطاع توثيقه بتقرير طبّيّ من أحد أصدقائه الأطبَّاء. «أبي» قال لنا مشمئزًّا، «أيقونة عن هدر الصالح العام، قولًا واحدًا». وإذا به، من دون رابط منطقيّ، يفعل شيئًا مفاجئًا. انحنى أمامي، بحركة مباغتة اقشعرّ منها بدني، وقبّل وجنتي بقبلة قويَّة ومدوِّية، ألحقها بهذه الجملة: «إنَّني سعيد بلقائك حقًّا». ثم قال، بحياء طفيف، كما لو أنَّه انتبه إلى أنّ أريحيّته معي قد تُثير استياء ليلا:

«هل في إمكاني أن أقبِّلك أنتِ أيضًا؟»

«بالتأكيد» أجابت ليلا بترحيب، فقبّلها قبلة خاطفة، مكتومة، بالكاد لامست وجنتها. وبعد ذلك، بادر بالكلام مولَعًا بنصوص بيكيت المسرحيَّة: يا إلٰهي، كم أُعجب بتلك الشخصيَّات المدفونة حتى عنقها تحت التراب؛ وكم كانت الجمل بالمضارع تشعل اللهيب في قلبه؛ وعلى الرَّغم من أنَّه وجد صعوبة في تحديد العبارة التي أشارت إليها ليلا بين آلاف الجمل المعبِّرة التي يقولها مادي ودان روني، فإنّ ذلك المفهوم ـ أنّ الحياة لها نكهة أشهى إذا فقدنا حاسَّة البصر والسمع والكلام، واللمس والتذوُّق أيضًا ـ كان في غاية الأهمِّيَّة في حدّ ذاته؛ وكان يرى مغزاه هكذا: فلنتخلَّصْ من أيّ غربال يمنعنا من التمتُّع بحياتنا الحقيقيَّة ضمن زماننا ومكاننا.

أبدت ليلا ارتيابها. قالت إنَّها فكَّرتْ في هذا، لكنّ الحياة في حالتها النقيَّة تُثير مخاوفها. عبّرتْ عن رأيها بتهويل الأمور، وهي

Telegram: Somrlibrary

تهتف: «الحياة بلا بصر، وبلا كلام، بلا كلام وبلا إصغاء، الحياة بلا شكل وبلا مضمون، لا شكّ في أنَّها مسخ حياة». لم تقل تلك الجملة بالضبط، لكنَّها لجأت بالتأكيد إلى مفردة «مسخ» بملامح يشوبها النفور. غمغم نينو مكرِّرًا: «مسخ، مسخ»، كما لو أنّ هذه الكلمة نابية. ثم عاود الكلام، لكنْ بطريقة أكثر إثارة، حتى إنَّه نزع قميصه القطنيّ فجأة ليظهر جسمه الهزيل، وأمسك بيد كلٍّ منَّا، وسحبنا في اتِّجاه الماء، بينما كنت أصرخ بسعادة: «لا، لا، أشعر بالبرد، لا» وهو يجيبني: «وأخيرًا هذا نهارٌ إلٰهيٌّ آخر»، وليلا تضحك.

قلت لنفسي إنّ ليلا كانت مخطئة إذن؛ من الواضح أنّ نينو لديه جانب آخر لا يحمل صفات ذلك الشابّ الضبابيّ المهووس بالتمعُّن في حالة الكون العامَّة؛ فها هو نينو «آخر»، شابٌّ يحبّ اللهو، يجرّنا ممازحًا نحو المياه، يداعبنا ويدفعنا ويجذبنا إليه، يسبح بعيدًا كي نصل إليه ونمسك به، ونُغرقه في الماء، ويتظاهر بأنَّه اختنق ومات.

وحين وصل برونو، تحسَّنت الأوضاع بشكل أفضل. تمشّينا كلّنا معًا، واعتدل مزاج بينوتشا شيئًا فشيئًا. أرادت السباحة مجدَّدًا، وتناول جوز الهند. ومنذ ذلك اليوم، صرنا طوال الأسبوع ننتظر وصول الشابَّين في العاشرة صباحًا بشكلٍ اعتياديّ، ومغادرتهما عند الغروب، حين نقول نحن الفتيات: «علينا العودة وإلَّا غضبت نونتسيا» فيُرغَمان على العودة إلى الدراسة بعض الوقت.

ساد بيننا الوئام. فإذا ما مازح برونو ليلا بمناداتها بالسيِّدة كارّاتشي، لكمتْه بقبضة يدها على كتفه، ولحقت به وهي تصرخ. وإذا تعامل مع بينوتشا برصانة مفرطة بسبب حملها، كانت تنسلّ تحت ذراعه، وتقول: «فلنركض. هيّا، أريد المياه الغازيَّة». وبالنسبة إلى نينو، كان غالبًا ما يشبك يدي، أو يضع ذراعه على كتفي، وذراعه

Telegram: Somrlibrary

الأخرى على كتف ليلا ويشبك سبَّابتها وإبهامها. تقلَّصت المسافات الرزينة بيننا، حتى التلاشي، وأصبحنا مجموعة من خمسة شبّان نلهو بأيٍّ شيء، وننتقل من لعبة إلى أخرى، ومن يخسر فعليه أن يدفع الثمن. وغالبًا ما كان الثمن عبارة عن قبلات، على سبيل المزاح طبعًا. برونو قبَّل قدمي ليلا الملطَّختين بالرمل، ونينو قبَّل يدي وخدِّي، وجبيني، ثم أعطاني قبلة مدوِّية في صيوان الأذن. وتبارينا في قذف الكرة بالدفّ، فكانت الكرة تحلِّق في الهواء من اندفاعها عن جلد الدفّ المشدود. كانت ليلا بارعة في هذه اللعبة، ونينو أيضًا. لكنّ برونو كان الأكثر براعة ودقَّة. كان يفوز هو وبينوتشا دومًا، سواء ضدّي أنا وليلا، أو ضدّ ليلا ونينو، أو ضدّي أنا ونينو. لكنَّهما كانا يفوزان بفضل قاعدة رسَّخناها تدريجيًّا تسنّ بالتعامل بلطف مع بينا. كانت تركض وتقفز وتتدحرج على الرمل ناسية أنَّها حامل، فما كان منَّا إلَّا أن نتركها تفوز، وهكذا تحافظ على هدوئها، فنفوز نحن براحة البال. وكان برونو يؤنِّبها بالمزاح، ويُرغمها على الجلوس، ويقول كفى، ثم يصرخ: «نقطة لمصلحة بينوتشا، الشاطرة».

وهكذا، كان المرح يُطيل ساعات السعادة وأيَّامها. لم أعد أستاء إذا أخذت ليلا كتبي، بل بدا لي الأمر جميلًا. ولم أعد أستاء كيف أنّ نينو، حين تندلع المجادلات وتعبِّر ليلا عن رأيها، كان يصغي إليها بانتباه، ولا تُسعفه الكلمات المناسبة للردّ عليها. بل أسعدني أنَّه في تلك الحالات كان يكفّ عن الكلام معها، ويلتفت للتحدُّث إليّ، كما لو أنّ هذه الحركة تساعده على ترتيب أفكاره.

وهكذا، حدث ذات مرَّة أنَّ ليلا استعرضت قراءتها للكتاب عن هيروشيما. ونشأ عن هذا جدال حادٌّ جدًّا، لأنَّني فهمتُ أنّ نينو كان ينتقد الولايات المتّحدة كثيرًا، وكان يعارض تشييدها قاعدة عسكريَّة في

Telegram: Somrlibrary

نابولي، لكنَّه كان معجبًا بأسلوب حياة الأميركيِّين، ويقول إنَّه يأمل دراسة عاداتهم، ولهذا امتعض حين قالت ليلا، ما معناه، إنّ إلقاء القنابل النوويَّة على اليابان كان بمثابة جريمة حرب، بل أكثر من جريمة حرب. ليس بسبب الحرب وحدها أقدموا على هذا الفعل، بل كانت جريمة تنمّ عن غطرسة واستعلاء لا مثيل لهما.

«أذكّركِ ببيرل هاربر»، قال نينو بحذر.

لم أكن أعرف ما الذي يعنيه «بيرل هاربر»، واكتشفتُ أنّ ليلا كانت تعرف المعنى. قالت له إنَّ من المستحيل المقارنة بين مأساة هيروشيما وحادثة بيرل هاربر؛ وإنّ بيرل هاربر تندرج كعمل حربيّ جبان، بينما تُعَدّ هيروشيما خطأً جسيمًا وخطوة انتقاميَّة فظيعة، أسوأ كثيرًا من الإبادات النازيَّة. وختمتْ: يجب أن تتمَّ محاكمة الأميركيِّين على أنَّهم أخطر المجرمين، كأولئك الذين يُقْدِمون على أفعال رهيبة لا هدف منها سوى ترهيب من ينجو منها وتركيعه. أفرغتْ ما عندها بشدَّة، حتى إنّ نينو، بدلًا من أن يردّ عليها، سرح في البعيد ولجأ إلى الصمت، ثم اتَّجه إليّ بالكلام، كما لو أنّ ليلا ليست معنا. قال إنّ المشكلة لم تكن في الفظاعة ولا في الانتقام، بل في ضرورة إنهاء حربٍ ضاهت أكثر الحروب ضراوة، باستخدام ذلك السلاح الجديد والخطير، لعلّه يضع حدًّا لكلِّ الحروب بشكل عام. تكلَّم بنبرة منخفضة، وهو يركِّز نظره في عينيّ، كما لو كان لا يهمّه سوى أن أوافقه الرأي. وكانت تلك لحظة جميلة جدًّا. إقدامه على تلك الحركة يجعله في غاية الوسامة. تأثَّرتُ حتى اغرورقت عيناي بالدموع، ومنعتُها من الانهمار بصعوبة.

ثم جاء يوم الجمعة، وكان نهارًا حارًّا جدًّا، ما حدا بنا إلى البقاء في المياه معظم الوقت. وفسد شيء ما فجأة مرَّة أخرى.

كنّا نصعد نحو المنزل، وقد تركنا الشابَّين للتوّ، والشمس تنخفض في المدى لتصبغ البحر اللازورديّ بغيابها القرمزيّ، فإذا بينوتشا، التي أُصيبت بالبكم فجأة بعدما أمضت النهار في صياح بهيج، ترمي حقيبتها أرضًا، وتجلس على حافَّة الشارع، وتنبري غاضبة في صرخات حادَّة تشبه العويل.

ضيَّقتْ ليلا عينيها، وحدّقتْ إليها، كما لو أنّها لا تنظر إلى نسيبتها بل إلى شيءٍ خبيث تلبّسها على حين غرّة. عدتُ إلى الخلف مذعورة، وسألتُ:

«ما بك يا بينا؟ هل أنتِ بخير؟»

«لا أطيق هذا اللباس المبتلّ».

«كلّ ملابسنا مبلَّلة».

«لكنّ هذا الأمر يزعجني».

«اهدئي. هيّا. تعالي، ألست جائعة؟»

«لا تقولي لي اهدئي. إنَّك تزعجينني حين تقولين اهدئي. لم أعد أطيقك يا لينو، لم أعد أطيق هدوءك».

وعاودت نواحها وهي تضرب على فخذيها.

رأيتُ ليلا تبتعد من دون أن تنتظرنا. أحسستُ بأنَّها اتَّخذت هذا القرار، ليس لأنَّها انزعجتْ أو لأنَّها لا تكترث، بل لشيء آخر أشدَّ وطأة، يوحي بأنَّها كانت تشمئزّ من البقاء قربنا. ساعدتُ بينوتشا على النهوض، وحملتُ حقيبتها.

٥٢

هدأتْ رويدًا رويدًا، لكنَّها أمضتِ السهرة حانقة، كأنَّنا تسبَّبنا لها بالسوء. وحين امتعضت من نونتسيا أيضًا، وانتقدت طهوها للباستا، تأفَّفتْ ليلا وباغتتها بعاميَّة سُوقيَّة شرسة وأمطرتها بشتائم من بنات أفكارها الخصبة. فقرَّرتْ بينا أن تنام معي تلك الليلة.

كانت تتخبَّط في نعاسها، وتعاني صعوبة في التنفُّس من شدَّة الحرّ، وازداد الأمر سوءًا كوننا تقاسمنا تلك الغرفة الصغيرة. أُرغمتُ على فتح النافذة، بعدما أضناني العرق المتصبِّب، وخشيتُ أن يغزوني البعوض. وهكذا، جفاني النوم كليًّا، فانتظرتُ الفجر ونهضتُ.

انتقلتْ إليّ عدوى المزاج المتكدِّر، ناهيك بانزعاجي من ثلاث لسعات بعوض في وجهي. ذهبتُ إلى المطبخ. كانت نونتسيا تغسل ثيابنا المتَّسخة. وليلا أيضًا مستيقظة، تشرب الحليب، وتقرأ كتابًا آخر من كتبي، ومَنْ يدري متى سرقته من غرفتي. وعندما رأتني، رمتني بنظرة متحرِّية، وسألتني بتخوُّفٍ عفويّ لم أتوقَّعه منها:

«كيف حال بينوتشا؟»

«لا أدري».

«هل أنت غاضبة؟»

«أجل، لم يغمض لي جفن، انظري إلى اللسعات في وجهي».

Telegram: Somrlibrary

«لا يوجد شيء».

«بل أنت مَن لا يرى شيئًا».

«حتى نينو وبرونو لن يريا شيئًا».

«ما شأنهما في هذا؟»

«ألا تودِّين نينو؟»

«أجبتك ألف مرَّة بالنفي».

«اهدئي».

«إنَّني هادئة».

«علينا أن نعتني ببينوتشا».

«اعتني بها أنت، فهي نسيبتك وليست نسيبتي».

«هل أنت غاضبة؟»

«أجل، أجل، أجل».

اشتدّ قيظ النهار أكثر من النهار السابق. ذهبنا إلى الشاطئ متخوِّفات، فما لبث المزاج المتقلِّب ينتقل من الواحدة إلى الأخرى كالعدوى.

وفي منتصف الطريق، أدركتْ بينوتشا أنَّها لم تجلب منشفتها، فأصابتها نوبة عصبيَّة أخرى. تقدَّمت ليلا مطأطئة الرأس من دون أن تلتفت.

«سأذهب لآتيك بالمنشفة»، عرضتُ المساعدة.

«لا، سأعود إلى المنزل، فليس لديّ رغبة في الذهاب إلى البحر».

«هل أنت بخير؟»

«أجل، إنَّني بخير».

«ما بكِ إذن؟»

Telegram: Somrlibrary

«انظري إلى بطني كيف تنتفخ».

نظرتُ إلى بطنها، فقلت لها من دون أن أفكِّر في ما أقول:

«وأنا؟ ألا ترين اللسعات على وجهي؟»

شرعت في الصياح، ووصفتني بالحمقاء، وتقدَّمت بخطوات سريعة لتصل إلى ليلا.

حين وصلنا إلى الشاطئ، اعتذرت منِّي وغمغمت قائلة إنَّني طيِّبة القلب إلى درجة تغضبها أحيانًا.

«لست طيِّبة القلب».

«أردت أن أقول إنَّك ذكيَّة».

«ولست بذكيَّة».

قالت ليلا بفتور، وهي تحاول تجاهلنا بكلِّ الوسائل، وتنظر إلى البحر في اتِّجاه فوريو:

«كفّا عن ذلك، لقد جاءا».

قفزتْ بينوتشا. «الرقم عشرة» غمغمتْ بهدوء مفاجئ غلب على نبرتها المتكدِّرة منذ لحظات، ومرَّرتْ أحمر الشفاه على فمها، على الرَّغم من أنَّه كان أحمر بما فيه الكفاية.

وكان الشابَّان في مزاج مكدَّر أيضًا. قال نينو لليلا، بنبرة متهكِّمة:

«هل سيصل زوجاكما هذا المساء؟»

«طبعًا».

«وكيف ستستمتعون بالوقت؟»

«نأكل، نشرب، ونخلد إلى النوم».

«وفي الغد؟»

«في الغد، سنأكل، ونشرب، ونخلد إلى النوم».

«هل يبقيان حتى مساء الأحد أيضًا؟»

Telegram: Somrlibrary

«لا، يوم الأحد، نأكل، نشرب، وننام معهما بعد الظهر فقط».

فأرغمتُ نفسي على القول، وأنا أختبئ خلف سخرية ذاتيَّة:

«أنا حرّة. لا آكل، ولا أشرب، ولا أخلد إلى النوم».

نظر إليّ نينو، كما لو أنَّه ينتبه لشيء لم يكن قد رآه من قبل، ومرَّر يده على خدِّي الأيمن حيث التهبت إحدى لسعات البعوض. وقال لي بجدِّيَّة:

«جيِّد، سنلتقي هنا في السابعة صباحًا، ثم نصعد إلى الجبل. وفي العودة، نسبح حتى وقت متأخِّر. ما رأيك؟»

أحسستُ بالسعادة تسري في عروقي، فقلت بلهفة مفضوحة:

«حسنًا، في السابعة. سأجلب معي ما نأكله».

فقالت بينوتشا بحزن:

«ونحن؟»

«أنتما ستكونان مع زوجيكما» غمغم نينو، ولفظ «زوجيكما» كأنَّه يقول «ضفادع، ثعابين صغيرة، عناكب». حتى إنَّها نهضتْ بغتة واتَّجهت إلى الشاطئ.

«إنَّها حسَّاسة جدًّا في هذه الآونة» برَّرتُ لها، «وهذا بسبب الحمل، في العادة لا تكون هكذا».

قال برونو بصبر جميل:

«سأرافقها بحثًا عن جوز الهند».

تبعناه بالنظر، وهو يمشي على الرمل بخطوات واثقة، كأنَّ الشمس نسيت أن تُلهب حبَّات الرمل التي يدوسها؛ كان قصير القامة، لكنَّه حسن البنية، صدره عريض وساقاه قويَّتان. وحين اتَّجه برونو وبينوتشا نحو الكشك، قالت ليلا:

«فلنذهب للسباحة».

Telegram: Somrlibrary

٥٣

كنَّا نمشي نحن الثلاثة معًا نحو البحر، أنا أتوسَّطهما. من الصعب عليّ أن أصف الشعور بالكمال الذي باغتني، حين قال نينو: نلتقي هنا غدًا في السابعة. وطبعًا، كنت متأسِّفة بشأن بينوتشا ومزاجها المتقلِّب، لكنّ أسفي كان حالة طارئة، ولم يكدِّر مزاجي ولم ينجح في خدش حالة الصفاء التي راودتني. وأخيرًا، كنت سعيدة من نفسي، ومن يوم الأحد الطويل والمليء بالأحداث والذي كان في انتظاري؛ وكنت سعيدة بوجودي هناك، في تلك اللحظة، وأنا محاطة بأهمِّ شخصين كان لهما أثرٌ في حياتي، وأهمِّيَّة قد تفوق أهمِّيَّة أبوَيّ وإخوتي مثلًا. أمسكتُ بيد كلّ منهما، وأطلقتُ صرخة سعادة، وسحبتهما إلى المياه الباردة، فانهالت علينا شظايا الزبد، وغطسنا كما لو أنَّنا نحن الثلاثة كينونة واحدة.

وحين غطسنا تحت الماء، أفلت كلّ منَّا أصابعه من يد الآخر. لم أكن أحبّ أن يجلدني برد المياه على شعري ورأسي وأذنيّ. لكنَّني رأيتهما يهمّان بالسباحة، فبدأتُ أسبح كي لا أضيِّع أثرهما. وسرعان ما شعرتُ بصعوبة المهمَّة: لم أكن قادرة على السباحة بانسجام، بتجذيف هادئ، ورأسي في الماء، إذ كانت ذراعي اليمنى أقوى من

Telegram: Somrlibrary

اليسرى، فينحرف مساري تزامنًا مع خشيتي من ابتلاع المياه المالحة. حاولتُ أن أبقى خلفهما، وألّا يغيبا عن عينيّ على الرَّغم من قصر النظر. سيتوقَّفان، قلت لنفسي. كان قلبي ينبض بشدَّة على نحو جعلني أبطئ السرعة حتى بقيتُ أطفو في مكاني وأنا أغبطهما للقدرة على التقدُّم نحو الأفق بثقة، جنبًا إلى جنب.

ربَّما يوغلان في الابتعاد. وأنا أيضًا، في المحصِّلة، إذ دفعتني الحماسة، فوجدتُ نفسي بعد الخطِّ الأحمر الافتراضيّ الذي يسمح لي بالعودة إلى الشاطئ بقليل من التجذيف، ولم تكن ليلا قد اجتازت ذاك الخطّ يومًا. أمَّا الآن، فها هي هناك، تنافس نينو. لم تكن لتستسلم على الرَّغم من خبرتها المتواضعة. كانت تريد اللحاق به، وأن تجذِّف أكثر نحو البعيد.

راودني القلق. ماذا لو انهارت قواها. ماذا لو شعرتْ بالإنهاك. نينو سبّاح ماهر، سيساعدها. لكن ماذا لو تشنَّجتْ عضلاته، أو انهار هو الآخر. نظرتُ حولي، كان التيَّار يقذفني إلى الجهة اليسرى. لا يمكنني انتظارهما هنا، عليّ العودة إلى الخلف. رميتُ بنظرة إلى الأسفل، وكان خطأً فادحًا. إذ تبدَّل اللون اللازورديّ الصافي إلى أزرق غامق، ثم اشتدّ زرقةً مائلةً إلى السواد كليلةٍ ظلماء، على الرَّغم من سطوع الشمس وبريق سطح البحر واتِّساع السحاب الأبيض في أعالي السماء. تراءت لي الهاوية، أحسستُ بلزوجتها التي تبتلع النجاة؛ تصوّرتها كلجّة سحيقة ملؤها الغرقى، ومن يدري ما الذي قد يثب من ظلماتها، بطرفة عين، لينقضّ عليّ ويمسك بي وينهش أضلعي، ثم يجرّني نحو أعماق العدم.

حاولتُ أن أهدأ. صرختُ: ليلا. كانت عيناي، من دون النظَّارة، لا تساعدني البتّة، وقد تغلَّب عليهما بريق المياه. فكَّرتُ في

Telegram: Somrlibrary

الرحلة مع نينو في اليوم اللاحق. عدتُ إلى الخلف ببطء، أطفو على ظهري، وأجذِّف بساقيّ وذراعيّ حتى بلغتُ الشاطئ.

جلستُ هناك، بين المياه والرمل، وبالكاد رأيتُ رأسيهما الغامقين كطوّافتين منسيَّتين على سطح البحر، فتنفَّستُ الصعداء. لم تكن ليلا بخير فحسب، بل نجحت في تحدّي نينو أيضًا. يا لعنادها! يا لشططها! يا لشجاعتها! نهضتُ، وبلغتُ برونو الذي كان جالسًا قرب أغراضنا.

«أين بينوتشا؟» سألتُ.

رسم ابتسامة حياء على وجهه، فبدا لي أنَّه يخفي مكروهًا ما.

«لقد ذهبت».

«إلى أين؟»

«إلى المنزل، قالت إنَّها ستوضّب حقائبها».

«توضِّب حقائبها؟»

«تريد أن ترحل. تشعر بالندم، لأنَّها تركت زوجها وقتًا طويلًا بمفرده».

لملمتُ أغراضي، وأوصيته بأن يراقب نينو، وخصوصًا ليلا، وركضتُ وأنا أقطر بللًا كي أفهم ما الذي جرى لبينوتشا ثانية.

Telegram: Somrlibrary

٥٤

كان ذلك العصر في غاية التعاسة، تلاه مساءٌ أسوأ كثيرًا. وجدتُ بينوتشا توضِّب حقائبها فعلًا، بينما تحاول نونتسيا عبثًا أن تهدِّئ روعها.

«لا يجب أن تقلقي على رينو» كانت تقول لها بسكينة، «فهو يعرف كيف يغسل سراويله، وكيف يطبخ. ثم إنّ أباه موجود، وأصدقاءه أيضًا. إنَّه يُدرك أنّك لا تضيِّعين وقتك هنا، ويعرف جيِّدًا أنَّك في حاجة إلى الراحة لتنجبي طفلًا وسيمًا معافًى. هيَّا، سأساعدك في ترتيب الأغراض. أنا لم أجرِّب الاصطياف يومًا، لكنَّنا الآن نملك النقود، والحمد لله. ولئن كان محرَّمًا أن نبذِّر الأموال، فما المانع من التمتُّع بالرخاء بعض الوقت؟ لذا أرجوك أن تهدِّئي روعكِ يا بينو يا ابنتي. إنّ رينو يعمل طوال الأسبوع، وهو متعب جدًّا، ويوشك على الوصول. لا تستقبليه هكذا، فأنت تعرفينه جيِّدًا، سيقلق بشأنك، وإذا قلق غضب، وإذا غضب تعرفين ما النتيجة. النتيجة أنَّك تريدين المغادرة لتبقي قربه، وهو آتٍ ليبقى قربك، والآن ستلتقيان وتتعاركان بدلًا من أن تكونا سعيدين. هل يبدو لك الأمر جميلًا؟»

غير أنّ بينوتشا لم تقتنع بنصائح نونتسيا. فرحتُ أكرِّرها على

Telegram: Somrlibrary

مسمعها بنفسي، حتى وصلنا إلى أن ننزع ثيابها من الحقائب، فتُعيد هي الثياب إليها. تصرخ ثم تهدأ ثم تعاود الكرّة.

عادت ليلا في لحظة ما. استندت إلى مرفق الباب، وظلّت تراقب حركات بينوتشا المشوَّشة، مقوِّسة حاجبيها، بينما تخطّ تجعيدة أفقيَّة طويلة على جبينها.

«أكلَّ شيء على ما يرام؟» سألتُها.

أومأت بنعم.

«لقد أصبحتِ بارعة حقًّا في السباحة».

لم تقل شيئًا.

كانت ملامحها تعبِّر عن اضطرارها إلى كبت الفرحة والذعر في آن واحد. من الواضح أنَّها لم تَرَ لوثة بينوتشا بعين الارتياح، إذ كانت نسيبتها تعاود التقريع بقرارات الرحيل والوداع والتحسُّر، لأنَّها نسيتْ هذا الغرض أو ذاك، وتطلق تنهيدات شوق إلى حبيبها رينوتشو، في مشهدٍ يتناقض كلِّيًا مع شكواها من البحر وروائح الحدائق والشاطئ. ومع هذا، لم تقل ليلا شيئًا، ولا أيّ جملة من جملها اللئيمة، ولا واحدة من نكاتها المتهكِّمة. في النهاية، اكتفت بقول جملة واحدة، لا تعبِّر عن دعوةٍ إلى النظام فحسب، بل كإيذان عن واقعةٍ وشيكة تهدِّدنا جميعًا:

«سيصلان الساعة».

حينذاك، هوت بينوتشا خائرة القوى على السرير، إلى جانب الحقائب المغلقة. تأفَّفتْ ليلا، وانسحبت لتهيّئ نفسها. ثم عادت بعد قليل، مرتدية فستانًا أحمر ضيِّقًا جدًّا، وشعرها حالك السواد مضمومٌ. وكانت أوّل من ميَّز ضوضاء الدرَّاجتين الناريَّتين. أطلَّت من النافذة، ولوّحت بيديها بحماسة، ثم توجَّهت إلى بينوتشا بنظرة جدِّيَّة، وقالت بنبرة تزداد تعاليًا:

Telegram: Somrlibrary

«اذهبي واغسلي وجهك، وانزعي هذا اللباس المبلَّل».

نظرتْ إليها بينوتشا من دون أيّ ردَّة فعل. كانت ليلا ترشق الفتاة بسهامٍ لا تراها العين، لكنَّها تنفذ حتى مشاعرها الخفيَّة، في لحظةٍ طويلةٍ لا تنتهي، كهزّة عنيفة وارتعاش محتدم، وترجِمُها بصعقات متناهية الصغر تنبع من أعماقها؛ الأمر الذي أبقاني في حيرة لا أفهم شيئًا؛ لكنّ كلتيهما تفهم ما يجري. أجل، أدركتْ بينوتشا أنّ ليلا تعرف سرّها وتتفهَّمها، وتريد مدّ يد العون حتى لو أنَّها تثير اشمئزازها. لهذا السبب، انصاعت لأوامرها.

Telegram: Somrlibrary

٥٥

دخل ستيفانو ورينو بحماسة. وبدت ليلا أكثر ألفة ممَّا كانت عليه في الأسبوع السابق. عانقتْ ستيفانو، وسمحت له بعناقها، وأطلقتْ صرخة فرح حين أخرج من جيبه علبة صغيرة، وفتحتها، لتجد طوقًا ذهبيًّا تتدلّى منه حلية على شكل قلب.

وبالطبع، رينو أيضًا أحضر لبينوتشا هديَّة صغيرة، وقد بذلتْ أقصى ما عندها لتتفاعل مثلما فعلت نسيبتها، لكنّ الأسى والضعف كانا باديين في عينيها. ولم تفلح قبلات رينو وعناقه وهديَّته، في مساعدتها على الصمود كزوجة سعيدة، كما أرادت أن تظهر على عَجَل. أخذت شفتاها ترتجفان، وانفتحتْ نافورة الدموع على أشدّها، وقالت بصوت ممزَّق:

«لقد وضَّبتُ حقائبي. لم أعد أريد البقاء هنا لحظة واحدة، أريد أن نبقى معًا دائمًا».

ابتسم رينو، وتأثَّر بهذه الدَّفْق الفائض من الحبّ، ثم ضحك. وقال: «وأنا أيضًا أريد أن نبقى معًا دائمًا». وفي النهاية، أدرك أنَّ زوجته لم تكن تبلغه شوقها الفائض فحسب، بل كانت تريد الرحيل حقًّا، وأنَّها جهَّزت كلّ شيء للرحيل، وكانت تلحّ على قرارها هذا

Telegram: Somrlibrary

ببكاء حقيقيّ لا يُطاق.

انعزلا في غرفة النوم يتناقشان، لكنّ النقاش دام وقتًا قصيرًا، وخرج رينو إلينا وهو يصرخ في وجه أمِّه: «أمّي، أريد أن أعرف ما الذي حدث». وقبل انتظار الجواب، توجَّه ناقمًا إلى أخته أيضًا: «إن كنتِ السبب في الموضوع، أقسم بالله سأحطِّم رأسك». ثم صرخ على زوجته، التي كانت في الغرفة: «يكفي، لقد سئمتُ بكاءك، تعالي إلى هنا حالًا، فأنا متعب وأتضوَّر جوعًا».

ظهرت بينوتشا بعينين منتفختين. وحين رآها ستيفانو، أراد أن يمازحها كي يخفِّف وطأة الحالة. عانق أخته وتنهَّد: «آه من الحبّ، أنتنَّ الفتيات تدفعننا إلى الجنون». ثم لثم ثغر ليلا، كأنَّه تذكَّر فجأة سبب جنونه، وشعر بالسعادة، لأنَّه وزوجته كانا متراضِيَيْن على نحو غير متوقَّع، مقارنةً مع الثنائيّ الآخر.

جلسنا إلى الطاولة جميعًا. قدّمت إلينا نونتسيا الطعام واحدًا واحدًا بصمت كئيب. إلى أن حان دور رينو الذي بدت عليه أمارات الغضب. نفد صبره، وراح يصرخ بأنَّه لم يعد جائعًا، ودفع الطبق المليء بالسباغيتي والمحار إلى وسط الطاولة، فبثّ الرعب في قلبي، وعاودت بينوتشا نواحها. فَقَدَ ستيفانو نبرته الرصينة، وقال لزوجته: «فلنذهب من هنا، سآخذك إلى المطعم». وخرجا من المطبخ وسط اعتراضات نونتسيا وبينوتشا أيضًا. وحين ساد الصمت، سمعنا دويّ اللامبريتا وهي تنطلق.

ساعدتُ نونتسيا على تنظيف الأرض. نهض رينو وذهب إلى غرفة النوم. وهرعت بينوتشا لتغلق على نفسها في المرحاض، وسرعان ما خرجت لتلحق بزوجها، وأغلقت باب الغرفة. وحينها فقط استطاعت نونتسيا أن تتأفَّف، ونسيتْ دورها كحماة ذليلة:

«أرأيت تلك اللعينة كيف تحرق أعصاب رينوتشو؟ ما الذي أصابها؟»

Telegram: Somrlibrary

أخبرتُها بأنَّ لا علم لي حقًّا، وكان هذا صحيحًا، لكنَّني أمضيتُ السهرة وأنا أواسيها وأخترع الحجج لإرضاء بينوتشا. قلت لو كنت أنا من أحمل طفلًا في رحمي، لأردتُ مثلها أن أبقى إلى جوارِ زوجي كي يصونني وأكون واثقة بأنَّه يقاسمني مسؤوليَّة الأمومة. وأخبرتها بأنَّ ليلا كانت هناك من أجل الحَمْل، ومن الواضح أنَّ العلاج فعَّال، وأنَّ البحر يجعلها في أحسن حال. يكفي أن نرى السعادة على وجهها ما إن يصل ستيفانو. أمَّا بينوتشا، فكانت متيَّمة بزوجها أساسًا، وترغب في أن تعبِّر له عن حبِّها في كلّ دقيقة من الليل والنهار، وإلَّا ضاق هيامها في صدرها، وتألَّمتْ.

أمضينا ساعة صفاء، أنا ونونتسيا، في المطبخ بعد أن رتّبناه، وباتت الأطباق والقدور لامعة بعد أن نظَّفناها بعناية، فقالت لي: «يا لبديع كلامك يا لينو، من الواضح أنَّ لك مستقبلًا زاهرًا». اغرورقت عيناها بالدموع، وتمتمت بأنّ ليلا كان يجدر بها أن تكمل الدراسة، فهذا كان مصيرها. «لكنّ زوجي لم يشأ» أردفتْ، «وأنا لم أستطع أن أعارضه. في تلك الأيَّام، لم يكن لدينا نقود، لكنّ ليلا كان عليها أن تصبح مثلك. أمّا وقد تزوَّجتْ، وأخذت مسارًا آخر، فلم يعد في إمكانها العودة إلى الوراء، الحياة تأخذنا حيث تشاء». تمنَّتْ لي الكثير من السعادة «مع شابّ وسيم متعلِّم مثلك» قالت، وسألتني إن كنت معجبة حقًّا بابن سارّاتوري. نفيتُ، لكنَّني بحتُ لها بأنَّني في اليوم التالي سأذهب معه إلى الجبل. أُسعدتْ بذلك، وساعدتني على تحضير بعض الشطائر من لحوم السلامي وجبن البروفولون. غلَّفتُ الشطائر ووضعتها في الكيس مع المنشفة، تحسُّبًا للسباحة، وجهَّزتَ سائر الأغراض اللازمة. وأوصتني بأن أكون رزينة كما كنت دومًا، وتبادلنا الأمنيات بليلة سعيدة.

ذهبتُ إلى غرفتي. قرأتُ قليلًا، لكنَّني كنت شاردة. كم جميلٌ أن أخرج في الصباح الباكر، في الجوِّ المنعش والروائح العطرة. كم أحبّ

Telegram: Somrlibrary

البحر! وكم أحببتُ بينوتشا، وبكاءها وشجارها ذلك المساء، وكم أحببتُ الحبِّ الذي كان يكبر أسبوعًا في إثر أسبوع بين ليلا وستيفانو. وكم كنت أرغب في نينو. وكم كان جميلًا قضاء الوقت معه، كلّ يوم، معه ومع صديقتي، والسعادة تغمرنا نحن الثلاثة، على الرَّغم من سوء الفهم والأفكار الشرِّيرة التي لم تكن هامدة طوال الوقت في أعماقنا المظلمة!

سمعتُ دخول ستيفانو وليلا. كانا يتهامسان ويتضاحكان بصوتين منخفضين. انفتحت الأبواب، وانغلقت، ثم انفتحت ثانية. سمعتُ الماء يتدفَّق من الصنبور، ثم أطفأتُ الضوء، وأصغيتُ إلى حفيف القصب الواهن، وخشخشة خمّ الدجاج، وغفوتُ قريرة العين.

ولم تمض لحظة، وإذ بي أستيقظ. ثمَّة أحد ما في الغرفة.

«هذه أنا»، همست ليلا.

أحسستُ بأنَّها تجلس على حافَّة السرير، فتأهَّبتُ لإضاءة النور.

«لا» قالت، «سأبقى للحظات فقط».

لكنّي أضأتُ النور، وأنهضتُ جذعي.

كانت قبالتي في ثياب النوم باللون الأحمر الفاتح. اسمرَّت بشرتها من الشمس حتى بدت عيناها بيضاوين.

«هل رأيت كيف سبحتُ في البحر بعيدًا؟»

«لقد كنت ماهرة، وقلقتُ بشأنك».

هزَّتْ رأسها بفخر، وارتسمت ابتسامة قصيرة على وجهها، كأنَّها تقول إنَّ البحر بات مُلكًا لها؛ ثم غلبت الجدِّيَّة على تقاسيمها.

«عليّ أن أخبرك شيئًا».

«ماذا؟»

«نينو قبّلني» قالت، بنَفَسٍ واحد، كمن يبدأ الاعتراف بعفويَّة ثم يحاول أن يخفي، حتى على نفسه، شيئًا يصعب الاعتراف به. «لقد قبّلني، لكنَّني أغلقتُ شفتيّ بإحكام».

Telegram: Somrlibrary

٥٦

روت لي الحكاية بالتفصيل. حين شعرتْ بالتعب من السباحة الطويلة، وبالرضا أيضًا كونها استطاعت أن تُثبت مهارتها، اتّكأتْ عليه لتبذل جهدًا أقلّ في الطفو. لكنَّ نينو استغلَّ دنوّها، وضغط شفتيه على شفتيها بقوَّة. وقد سارعتْ إلى إغلاق فمها. وعلى الرَّغم من أنَّه حاول فتحه برأس لسانه، فإنَّ ليلا تمكَّنتْ من عدم التفاعل. «أنت مجنون» قالت له وهي تدفعه عنها، «إنَّني متزوِّجة». لكنّ نينو أجابها: «إنَّني أودُّك قبل زواجك بكثير، منذ أن أجرينا تلك المنافسة في المدرسة». أمرته ليلا بألَّا يحاول مجدَّدًا، وعاودا السباحة حتى الشاطئ. «لقد آلم شفتيّ من شدَّة ضغطه» ختمتْ، «ولا تزالان إلى الآن تؤلمانني».

كانت تنتظر منِّي أن أتفاعل معها، لكنَّني لم أطرح أيّ سؤال أو تعليق. بل حين أوصتني بعدم الذهاب معه إلى الجبل ما لم يرافقنا برونو، قلت لها بفتور إنَّني لا أجد ضيرًا في أن يقبِّلني نينو، فأنا لست متزوِّجة ولا مرتبطة أصلًا. وأضفتُ: «ما يؤسفني في الأمر أنَّه لا يعجبني، وقد تعطيني قبلته انطباعًا بأنَّني أضع فمي على جيفة فأر». ثم تظاهرتُ بأنَّ النعاس يغلبني، وتثاءبتُ، فانصرفتْ لتنام، بعد أن غمرتني بنظرة تنمُّ عن حنانها وإعجابها بي. ولم أفعل شيئًا، منذ أن

Telegram: Somrlibrary

خرجت من الغرفة حتى بزوغ الفجر، سوى البكاء.

واليوم، أشعر بالإحراج عندما أذكر كم عانيتُ، ولا أستطيع أن أفهم دوافعي حينذاك. لكنَّني، طوال تلك الليلة، شعرتُ بأن لا معنى لحياتي على الإطلاق. لماذا كان نينو يتصرّف على ذلك النحو؟ يقبّلِ ناديا، ويقبِّلني، ويقبِّل ليلا. كيف يمكن أن يكون الشخص نفسه، الذي أحبّه، جدِّيًّا ومشبعًا بالأفكار إلى هذه الدرجة؟ مرَّت الساعات، ولم أستطع أن أصدِّق كيف يمكن له أن يكون عميقًا في مواجهته مسائل العالم الكبرى، وفي الوقت نفسه سطحيًّا في مشاعره العاطفيَّة. أحلتُ نفسي على محاكمة عقليَّة أوَّلًا. لقد وقعتُ في خديعة، كنت متوهِّمة. هل يُعقل أنَّني حسبت نفسي قادرة على نيل إعجابه في غضون إجازة قصيرة، وأنا قصيرة القامة، وبدينة، وأضع نظَّارة مقعَّرة، مجتهدة لكنِّي لست ذكيَّة، وأتظاهر بأنِّي مثقَّفة ومُلمَّة بالأمور، في حين أنِّي لم أكن كذلك البتَّة؟ وهل حسبتُ أنَّني سأنال إعجابه يومًا؟ تفحَّصتُ تصرُّفاتي بدقَّة. كلَّا، لم أكن قادرة على التعبير عن رغباتي بوضوح. كنت أشدِّد على إخفائها عن الآخرين. ليس هذا فحسب، بل أعترف فيها لنفسي بشكل غامض وغير مقنع. لماذا لم أَبُح لليلا بمشاعري تجاه نينو أبدًا؟ والآن، لماذا لم أصرخ في وجهها عن ألمي الذي تسبَّبتْ لي به عبر إفشائها ذلك السرَّ في منتصف الليل؟ لماذا لم أُخبرها بأنَّه قبَّلني قبل أن يقبِّلها؟ ما الذي كان يدفعني إلى التصرُّف هكذا؟ هل كنت أُخفي مشاعري لأنَّني أخشى العنف الذي كنت أستخدمه في التطلُّع، في قرارة نفسي، إلى الأشياء والأشخاص والثناء والانتصارات؟ هل كنت أخشى، في حال لم أظفر بما رغبتُ فيه، أن ينفجر ذلك العنف في صدري لأنحوَ درب المشاعر السيِّئة، كالشعور الذي دفعني إلى وصف فم نينو الجميل بجيفة فأر؟ ألهذا السبب كنت

Telegram: Somrlibrary

أميل إلى التراجع إلى الخلف، حتى لو كنت أتقدَّم إلى الأمام؟ ألهذا السبب كانت ابتسامتي الزاهية، وضحكتي البهيجة، حاضرتين دومًا، حتى عندما تتدهور الأحوال؟ ألهذا السبب كنت أستطيع تكوين التبريرات المقنعة، عاجلًا أم آجلًا، لأولئك الذين يجرحونني؟

تساؤلاتٌ ودموع. طلع الفجر، حينما بدا لي أنَّني فهمتُ ما الذي حدث. كان نينو يظنُّ بصدق أنَّه يحبُّ ناديا. وبالتأكيد، كان قد نظر إليّ، بفضل شهرتي الطيِّبة عند الأستاذة غالياني، بالاستلطاف والتقدير الصادق. لكنَّ الآن، في إيسكيا، التقى ليلا، وأدرك أنَّها حبُّه الحقيقيّ والوحيد منذ الطفولة، وإلى المستقبل ربَّما. حسنًا، لا بدّ من أنّ الأمور جرت على هذه الشاكلة. فكيف لي أن ألومه؟ بأيِّ ذنب؟ في قصَّتهما، ثمَّة شيء مكثَّفٌ ومتعالٍ وتشابهاتٌ منتقاة. استحضرتُ بعض الأشعار والروايات لعلِّي أهدأ. ربَّما أفادتني الدراسة في هذه الحالة فقط: أن أهدأ. أشعلتْ ليلا لهيب الحبِّ في صدره، وهو كان يكتمه من دون أن ينتبه، وها هو اللهيب الآن يتأجَّج. ما الذي يمكنه فعله سوى أن يحبّها؛ مع أنَّها لا تحبّه، مع أنَّها كانت متزوِّجة ومستحيلة المنال، بل ممنوعة عليه: فالزواج رباطٌ أبديّ، إلى ما بعد الموت، إلّا إذا انحلَّ الرباط وواجه زوابع الجحيم، في انتظار يوم الحساب. وحين تكشَّف الصبح، بدا لي أنَّني وصلتُ إلى نقطة واضحة. حبّ نينو لِليلا كان حبًّا مستحيلًا، يشبه حبّي له. ولولا هذا المشهد المبنيّ على الاستحالة، لما كان في إمكاني أن أستسيغ لفظ القبلة التي أعطاها لها في عرض البحر.

وها أنا ذا أقولها: «القبلة».

لم تكن خيارًا، بل كانت حدثًا واقعًا: ليلا كانت قادرة على التحريض. أمَّا أنا، فلا. ماذا سأفعل الآن؟ أذهب إلى الموعد. نصعد

Telegram: Somrlibrary

جبل إيبوميو، أم لا. سأنطلق هذا المساء مع ستيفانو ورينو. سأتحجَّج بأنّ أمّي راسلتني، وكانت في حاجة إليّ. كيف لي أن أتسلَّق الجبال معه، بعد أن عرفتُ أنَّه يحبّ ليلا، وأنَّه قبَّلها؟ وكيف لي أن أراهما معًا كلّ يوم، بينما يتدافعان في البحر نحو الأفق البعيد. انهارت قوايَ، وغفوت. وعندما استيقظتُ على حين غرّة، وجدتُ أنّ النتيجة التي عصرها رأسي قد خفَّفت الآلام حقًّا. هرعتُ إلى الموعد راكضة.

Telegram: Somrlibrary

٥٧

كنت على يقين بأنَّه لن يأتي، لكنَّني حين وصلتُ إلى الشاطئ وجدتُه ينتظرني هناك، بمفرده وليس مع برونو. وعلى الرَّغم من هذا، شعرتُ بأنَّه لم يكن راغبًا في البحث عن طريق الجبل، والضياع في دروب مجهولة. قال إنَّه مستعدٌّ للذهاب لو كان الأمر يعنيني، لكنَّه صوَّر لي الإرهاق الذي سنكابده، إذا استعر القيظ، واستبعد أن نجد ما يضاهي السباحة في البحر. اضطربتُ، ظننتُه سيقول لي إنَّه عائد إلى الدراسة. لكنَّه، للمفاجأة، اقترح عليّ أن نستأجر قاربًا. أحصى نقوده مرَّة واثنتين، وأخرجتُ ما كان في حوزتي من نقود حديديَّة. ابتسم، وقال بلطف: «أنتِ أعددتِ الشطائر، دعي الأمر لي». وبعد دقائق، كنَّا فوق الماء. هو يجذِّف، وأنا أجلس في مؤخِّرة القارب.

شعرتُ بأنَّني على ما يرام. وفكَّرتُ في أنّ ليلا قد كذبتْ عليّ ربَّما، وأنَّه لم يقبِّلها إطلاقًا. لكنَّني، في قرارة نفسي، كنت أعلم بأنَّ الأمر لم يكن كذلك: أجل، أنا أكذب أحيانًا، ولاسيَّما على نفسي؛ أمَّا هي، فلم تكذب في حياتها على ما أذكر. وفي نهاية الأمر، لم أنتظر طويلًا حتى حصلتُ على توضيحٍ من نينو. عندما صرنا في عرض البحر، ترك المجذافين وغطس، ففعلتُ كما فعل. لم يسبح كعادته،

Telegram: Somrlibrary

حتى يصعب تمييزه من أمواج البحر الخفيفة. بل غاص في الأعماق، اختفى، ثم ظهر من جديد، وغطس ثانية. أنا كنت أخشى العمق، فاكتفيتُ بدورة واحدة حول القارب، ولم أجرؤ على الابتعاد عنه، ثم تعبتُ وصعدتُ بمشقَّة. وبعد قليل، عاد نينو. جلس بين المجذافين، وراح يجذِّف بقوَّة، على خطٍّ موازٍ للساحل، نحو بونتا إمبراتوري. وحتى تلك اللحظة، لم نتحدَّث بأكثر من السخرية من الشطائر والحرارة والبحر، وكيف أحسنّا صنعًا بالتخلِّي عن فكرة صعود جبل إيبوميو. وفاجأني بتغاضيه عن فتح النقاش عن المواضيع التي قرأها في الكتب والصحف والمجلَّات، على الرَّغم من أنَّني كنت، بين الفينة والأخرى، خوفًا من هيمنة الصمت، أتفوَّه بجملةٍ قد تصلح فتيلًا يُشعل وَلَعَه بتلك الأفكار. لكنْ عبثًا، كأنَّ شيئًا مختلفًا كلِّيًّا يجول في رأسه. وبالفعل، ترك المجذافين في لحظة ما، وركّز نظره في جدارٍ صخري، وسربٍ محلّق من النوارس. ثم قال:

«ألم تحدِّثك لينا بشيء ما؟»

«بِمَ تحديدًا؟»

شدّ شفتيه مستاءً، وقال:

«حسنًا، سأخبرك بما جرى. لقد قبّلتها البارحة».

كانت تلك هي البداية. وأمضينا النهار نتكلَّم عليهما. سبحنا قليلًا، واتَّجه بمفرده لاكتشاف صخور الشواطئ والمغارات، ثم تناولنا الشطائر، وشربنا كلّ المياه التي أتيتُ بها، وأراد أن يعلِّمني التجذيف أيضًا، لكنَّنا لم نتحدَّث بأيِّ شيء سوى ذلك الموضوع. وما جرحني أكثر هو أنَّه لم يحاول، ولو لمرَّة واحدة، أنْ يعمِّم حالته الخاصَّة، كما كان يفعل عادة. هو وليلا، ليلا وهو، فقط. لم يقل شيئًا عن الحبِّ. لم يُفصح عن الأسباب التي تُفضي بنا إلى الوقوع في غرام شخصٍ بعينه

Telegram: Somrlibrary

من دون غيره. بل راح يستجوبني عنها، وعن علاقتها بستيفانو.

«لماذا تزوَّجت به؟»

«لأنَّها أحبّته».

«مستحيل».

«أؤكِّد لك أنَّها أحبَّته».

«تزوَّجت به حبًّا بالمال، لتساعد عائلتها، ولتنهض بنفسها».

«لو كان الأمر كذلك، لتزوَّجتْ بمارتشيلُّو سولارا».

«من هو؟»

«شابٌّ أغنى من ستيفانو، وكاد يُجَنّ ليتزوَّج بها».

«وماذا عنها؟»

«لم تكن راغبة فيه».

«وأنتِ ترين أنَّها تزوَّجت باللحَّام حبًّا به».

«أجل».

«وماذا عن فكرة أنَّ عليها القيام بالسباحة كي تصبح قادرة على الإنجاب؟»

«نصحها الطبيب بذلك».

«وهل هي تريد الإنجاب؟»

«في البدء نعم، أمَّا الآن فلا أعرف».

«وهو؟»

«هو يريد الأولاد، أجل».

«هل هو مغرم بها؟»

«كثيرًا».

«وهل ترين، من خلال النظر إليهما من الخارج، أنّ علاقتهما على ما يرام؟»

Telegram: Somrlibrary

«لا شيء على ما يرام مع لينا».

«ماذا تقصدين؟»

«بدأت المشكلات بينهما منذ أوَّل يوم من الزواج؛ بسبب لينا طبعًا، لأنَّها لا تستطيع التأقلم».

«والآن؟»

«الحال أفضل».

«لا أعتقد ذلك».

أثارت لديه هذه النقطة شكوكًا متزايدة، لكنَّني كنت أُلحّ: ليلا لم تحبُّ زوجها كما كانت في تلك الآونة. وكلَّما أبدى شكوكه رفعتُ العيار. قلت له بوضوح إنَّه لا يمكن أن يحدث شيء بينهما. لم أشأ أن يبني أوهامًا من سراب. لكنّ هذا لم ينفع في تورية الموضوع. اتَّضح لي أنَّه كان يحبّ ذلك النهار، ما بين البحر والسماء، لأنَّني أكلِّمه على ليلا بالتفصيل. كان يهمّه أن أروي عليه كلّ ما كنت أعرف عنها: مزاياها وأخطاءها، وأن أملأ ساعاتنا باسم ليلا فقط. وفعلتُ هذا. ولئن تألَّمتُ في البدء، فإنَّ الأمور تغيّرت شيئًا فشيئًا. وفي ذلك النهار، تكهَّنتُ بأنّ الحديث عن ليلا مع نينو سيصبح الصيغة الجديدة لعلاقتنا، نحن الثلاثة، في الأسابيع القادمة. لم نكن، لا أنا ولا هي، لنحظى به أبدًا. لكنَّنا قد نحظى باهتمامه، خلال تلك الإجازة: هي بكونها غاية لولعٍ مجهول المآل، وأنا بكوني مستشارة نصوحة أراقب طيشها وتهوُّره. فارتضيتُ بهذه الفرضيَّة التي تضعني في مركز العلاقة. ليلا هرعت إليّ لتخبرني عن قبلة نينو؛ وهو ينفرد بي يومًا كاملًا منطلقًا باعترافه بتلك القبلة. كان كلٌّ منهما في حاجة ماسّة إليّ.

وبالفعل، لم يكن نينو يعرف ماذا يفعل من دوني.

«في رأيكِ، هل يمكن أن تحبّني؟» سألني في لحظة ما.

Telegram: Somrlibrary

«لينا اتَّخذت قرارًا يا نينو».

«ما هو؟»

«أن تحبّ زوجها وتنجب منه طفلًا. إنَّها هنا من أجل هذا تحديدًا».

«وحبِّي لها؟»

«كلَّما نهلنا من مياه الحبّ ازددنا عطشًا. من الوارد أنَّها ستكون ممتنَّة لك على هذه المشاعر. لكنْ، لا ينبغي لك أن تنتظر أكثر من ذلك، إن كنتَ لا تريد أن تتألَّم يا نينو. فهي كلَّما أحاطها الحبّ والتقدير، باتت أكثر شراسة. ولطالما كانت هكذا».

تودّعنا بعد الغروب، وكان أوَّل انطباع حصلتُ عليه أنَّني أمضيتُ نهارًا رائعًا؛ لكنَّني لمَّا مشيتُ نحو المنزل، تكدَّر مزاجي ثانية. كيف استطعتُ احتمال هذا العذاب كلِّه: أن أتكلَّم على ليلا مع نينو، وأتكلَّم على نينو مع ليلا، بل أشهد منذ اليوم التالي على مناوشاتهما ولهوهما وعناقهما ومداعبتهما؟ وصلتُ مصمِّمة على أن أقول للجميع إنّ أمِّي كانت تحتاج إليَّ في الحيّ؛ غير أنَّ ليلا داهمتني بضراوة، ما إن وطأت قدماي المنزل:

«أين كنتِ؟ جئنا نبحث عنك. كنّا في حاجة إليكِ، كان عليك أن تساعدينا».

علمتُ بأنَّهم لم يمضوا نهارًا جميلًا. بسبب بينوتشا التي أغرقت الجميع بعذاباتها. في النهاية، راحت تصرخ بأنّه إذا كان زوجها يرفض عودتها إلى البيت، فهذا يعني أنَّه لم يعد يحبّها؛ وبالتالي، فإنّها تفضّل الموت مع الجنين. حينذاك، استسلم رينو، وحملها معه إلى ناپولي.

٥٨

في اليوم التالي اتَّضحت لي محاسن غياب بينوتشا. كانت السهرة من دونها إيجابيَّة بالنسبة إليّ: لم يعد ثمَّة نواح أو تباكٍ. حلَّ الهدوء على المنزل، وكان الزمن يمضي بعذوبة. حين انعزلتُ في غرفتي وتبعتني ليلا، بدت المحادثة بيننا خالية من التوتُّرات. وحافظتُ على عهدي ألَّا أقول شيئًا ممَّا كنت أشعر به حقًّا.

«هل عرفتِ لماذا أرادتْ أن تغادر؟» سألتْني ليلا في الحديث عن بينوتشا.

«لأنَّها تريد البقاء إلى جانب زوجها».

هزَّت رأسها نافية، وقالت بجدِّيَّة:

«لأنَّها خافت من عواطفها».

«ماذا تعنين؟»

«لقد أُغرمت ببرونو».

تعجَّبتُ، لم أفكِّر في هذا الاحتمال أبدًا.

«بينوتشا؟»

«أجل».

«وماذا عن برونو؟»

Telegram: Somrlibrary

«لم ينتبه للأمر، لا من قريب ولا من بعيد برمّته».

«هل أنت متأكِّدة؟»

«أجل».

«وكيف عرفتِ ذلك؟»

«برونو معجبٌ بك».

«هراء».

«نينو أخبرني بهذا البارحة».

«لكنّه لم يخبرني بهذا اليوم».

«وماذا فعلتما؟»

«استأجرنا قاربًا».

«أنت وهو وحدكما؟»

«أجل».

«وعمَّ تحدَّثتما؟»

«عن كلّ شيء».

«حتى عن الأمر الذي أطلعتك عليه؟»

«أيُّ أمر؟»

«تعلمين».

«عن القبلة؟»

«أجل».

«لا، لم يقل لي شيئًا».

نجحتُ في الكتمان، على الرَّغم من أنَّني كنت مرهقة من السباحة والبقاء تحت الشمس ساعات طويلة. وحين انصرفت ليلا للنوم، بدا لي أنَّني أطفو على السرير، وأنَّ الغرفة المظلمة كانت تضجّ بالأضواء

Telegram: Somrlibrary

الزرق والحمر. هل رحلت بينوتشا على عَجَل لأنَّها كانت مغرمة ببرونو؟ وبرونو كان يصوِّب مشاعره نحوي وليس نحوها؟ استحضرتُ العلاقة بين بينوتشا وبرونو، وتذكَّرتُ المحادثات وطبيعة النبرات. أعدتُ تصوُّر حركاتهما، وخلصتُ إلى أنّ ليلا كانت محقّة في رأيها. استلطفتُ شقيقة ستيفانو فجأة، واحترمتُ تصميمها على المغادرة. لكنَّني لم أقتنع بأنّ برونو كان معجبًا بي. لم يكن يجود عليّ حتى بنظرة، فضلًا عن أنَّه، لو كان مهتمًّا كما تقول ليلا، لأتى هو في الموعد وليس نينو. أو لجاءا معًا على الأقلّ. وبغض النظر عن صحَّة كلامها من عدمه، برونو لا يعجبني: قصير القامة، وشعره مجعَّد للغاية، ليس له جبين، وأسنانه كأنياب الذئب. كلَّا، وألف كلَّا. سأحافظ على المسافة بيننا، فكَّرتُ. سأفعل ذلك.

في اليوم التالي، وصلنا إلى الشاطئ في العاشرة صباحًا، واكتشفنا أنَّ الشابَّين كانا هناك منذ حين، يتمشّيان على طول الشاطئ ذهابًا إيابًا. علَّلت ليلا غياب بينوتشا بكلمات محدودة: كان عليها أن تعود إلى العمل، فذهبتْ مع زوجها. لم يُظهر نينو، ولا برونو، أيّ استياء من غيابها؛ وهذا ما أزعجني. هل يُعقل أنَّها اختفت هكذا، من دون أن تُحدث فراغًا؟ بينوتشا بقيت معنا طوال أسبوعين. وكم تمشَّينا نحن الخمسة معًا، وكم تحدَّثنا وتمازحنا وسبحنا معًا. لا بدّ من أنّ شيئًا ما حدث خلال الأيَّام الخمسة عشر الماضية أثار امتعاضها؛ لن تنسى رحلة اصطيافها الأوّل في حياتها أبدًا. لكن، ماذا عنّا نحن؟ فبعد أن أوليناها اهتمامًا، كلٌّ على طريقته، لا نشعر بغيابها إطلاقًا. نينو مثلًا، لم يُدلِ بأيِّ تعليق عن غيابها المفاجئ. وبرونو اكتفى بالقول جدِّيًا: «للأسف أنَّنا لم نتودَّع». ولم تمض دقيقة واحدة إلَّا وكنَّا نتكلَّم في موضوع آخر، كما لو أنَّها لم تأتِ إلى إيسكيا، إلى شيتارا، أبدًا.

Telegram: Somrlibrary

لم يعجبني أيضًا توزيع الأدوار بتلك السرعة؛ إذ كان نينو يتوجَّه بالحديث إليّ وإلى ليلا (غالبًا إليّ فقط)؛ أمَّا الآن، فباتَ يتكلَّم مع ليلا فقط، كما لو أنَّه تخلَّى عن التزامه بالحديث إلى كلتينا بعد أن أصبحنا أربعة أشخاص فقط. وبرونو الذي كان، حتى السبت الماضي، لا يفعل شيئًا سوى الاهتمام ببينوتشا، انتقل ليهتمّ بي بالطريقة ذاتها التي يُظهر فيها حماسته وحياءه معًا، كما لو أنّ شيئًا لم يميِّز بيننا، حتى لو كانت بينوتشا متزوِّجة وحاملًا، وأنا لا.

في أوَّل نزهة قمنا بها على طول الشاطئ، انطلقنا نحن الأربعة جنبًا إلى جنب. وفجأة، عثر برونو على صَدَفةٍ قذفتها الأمواج، وقال: «جميلة»، وانحنى ليلتقطها. فوقفتُ أنتظره، من باب السلوك المهذَّب، فأهداني الصَّدَفة التي لم تكن مميَّزة في الواقع؛ بينما تابع نينو وليلا السير، ما قَسَمنا إلى ثنائيَّين يتسكَّعان عند مضرب الأمواج، هما الاثنان أمامنا ونحن خلفهما، هما يتكلَّمان بحيويَّة، وأنا أحاول أن أفتح حديثًا مع برونو، بينما كان يحاول أن يفتح معي موضوعًا ما. عزمتُ على إسراع الخطى، فظلّ يمشي ببطءٍ خلفي. كان من الصعب أن نوطِّد تواصلًا حقيقيًّا بيننا. فلطالما تكلَّم على أمور عامَّة: على البحر مثلًا، على السماء والنوارس. وكان من الواضح أنَّه يؤدِّي دورًا معيَّنًا، دورًا يناسبني على حدّ تفكيره. لا بدّ من أنَّه تحدَّث مع بينوتشا عن أمور أخرى، وإلَّا فمن المستحيل أن نفهم كيف استطاعا أن يمضيا معًا كلّ تلك الأوقات ببهجة. وفي المحصّلة، حتى لو استطاع أن يتكلَّم على أمور مهمَّة، كان من الصعب فكّ طلاسم ما يقول. إذا أراد أن يسأل عن الساعة، أو يطلب سيجارة أو قارورة الماء، كان يلجأ إلى نبرةٍ صافية ولفظ واضح. أمَّا إذا أدّى دور الشابّ المخلص (*تعجبك الصَّدَفة، انظري ما أجملها، سأهديكِ إيَّاها*)، فكان يتلعثم،

Telegram: Somrlibrary

ولا يتكلَّم بالفصحى ولا بالعامِّيَّة، بل بلغةٍ مرتبكةٍ خفيضة النبرة ومكسَّرة العبارات، كأنَّه يخجل ممَّا يقول. وكنت أهزّ رأسي بنعم، وبالكاد أفهم كلامه، بينما أحاول أن أميل بأذني كي أسترق السمع إلى ما يدور بين نينو وليلا.

كنت أتخيّل أنَّه ينبري في الكلام على المسائل الجدِّيَّة التي درسها، أو أنَّها تُفرغ ما علق في رأسها من أفكارٍ تصيّدتْها من الكتب التي سلبتني إيَّاها، وكنت غالبًا ما أحاول أن أتقدّم وأتدخّل في نقاشاتهما. لكنَّني كنت دائمًا أُصاب بالتشتُّت كلَّما نجحتُ في الاقتراب كفاية، كي أسمع ما يقولان. بدا لي أنَّه كان يكلِّمها على طفولته في الحيِّ، بلهجة مركَّزة، ودراماتيكيَّة نوعًا ما؛ وكانت كلّها آذان صاغية، لا تقطع عليه سيل ذاكرته. شعرتُ بالضياع، وفقدتُ الفرصة في المشاركة، فعدتُ إلى الخلف كي أعاني الملل مع برونو.

حتى عندما قرَّرنا أن نسبح معًا، لم يحالفني الوقت في تكوين الثلاثيّ الذي كنَّاه سابقًا. دفعني برونو إلى المياه، بلا أيّ إشارة أو تنبيه، فغصتُ وابتلّ شعري، ولم أكن أريد لشعري أن يتبلَّل. وحين صعدتُ إلى سطح الماء، وجدتُ نينو وليلا يطوفان بعيدًا عنَّا أمتارًا قليلة، ويتابعان حديثهما بجدِّيَّة تامَّة. بقيا في الماء وقتًا أطول منَّا، من دون أن يبتعدا كثيرًا عن الشاطئ. لا بدّ من أنَّهما مندمجان كثيرًا في موضوع الدردشة حتى آثرا عدم التوغُّل في السباحة.

وفي آخر العصر، توجَّه إليّ نينو بالكلام للمرّة الأولى. قال بأسلوب فظّ، كأنَّه متأكِّد من ردٍّ إيجابيّ:

«لماذا لا نلتقي بعد العشاء؟ سنأتي لاصطحابكما ثم نرافقكما إلى المنزل».

لم يطلبا منّا الخروج بعد العشاء من قبل. رميتُ ليلا بنظرة

Telegram: Somrlibrary

استجوابيَّة، لكنَّها أشاحتْ بنظرها بعيدًا. قلت:

«والدة ليلا في المنزل، ولا يسعنا أن نتركها وحيدة دومًا».

لم يجب نينو، ولم يتدخَّل صديقه لمساندته. لكن بعد السباحة الأخيرة، وقبل أن نفترق، قالت ليلا:

«مساء الغد، سنأتي إلى فوريو كي أتّصل بزوجي. قد نتناول المثلَّجات معًا».

انزعجتُ من كلمتها الأخيرة، لكنَّني انزعجتُ أكثر ممَّا حدث بعد ذلك. ما إن اتَّجه الشابَّان نحو فوريو، بدأت ليلا تؤنِّبني، وهي تلملم أغراضها، كما لو كنت مذنبة بما يصعب وصفه أو غفرانه، منذ بداية النهار، ساعةً في إثر ساعة، وتفصيلًا تلو تفصيل، حتى سؤال نينو والتناقض الواضح بين إجابتي وإجابتها:

«لماذا أمضيتِ الوقت كلّه مع برونو؟»

«أنا؟»

«أجل، أنت. لا تحاولي أن تتركيني بمفردي مع نينو أبدًا».

«ما الذي تقولينه؟ أنتما من سبقنا، ولم تتوقَّفا لانتظارنا».

«نحن؟ نينو هو الذي مشى بسرعة».

«كان في وسعك أن تطلبي منه التوقُّف لانتظاري».

«وأنتِ كان في وسعك أن تقولي لبرونو: هيَّا، تحرّكْ وإلَّا أضعنا أثرهما. أَسدي إليّ معروفًا يا لينو: ما دام يعجبك كثيرًا، فاخرجا في المساء لشؤونكما الخاصَّة. وهكذا تكونين حرَّة لقول ما يحلو لك وفعله».

«إنَّني هنا لأجلك، لا لأجل برونو».

«لا يبدو لي أنَّك هنا لأجلي إطلاقًا، فأنتِ تتصرَّفين على هواك دائمًا».

Telegram: Somrlibrary

«إن كنتِ لا ترين فائدة من وجودي، أغادر صباح الغد».

«ها؟ وهل أذهب بمفردي لتناول المثلَّجات مساء الغد مع هذين الشابَّين؟»

«ليلا، أنت من قال إنَّك ترغبين في تناول المثلَّجات معهما».

«لأنَّني مضطرَّة. عليّ أن أذهب للاتِّصال بستيفانو، ويا لسواد الوجه إن التقيناهما في فوريو!»

تابعنا النقاش بتلك النبرة حتى عندما وصلنا إلى المنزل، وبعد العشاء، في حضرة نونتسيا. لم تكن مشاجرة حقيقيَّة، بل أشبه بمبارزة غامضة نحاول من خلالها، عبر تبادل الإشارات الخبيثة، أن توصل إحدانا رسالة إلى الأخرى، من دون أن نفهم شيئًا. قالت نونتسيا، بعد أن أصغت إلينا، بحيرة:

«غدًا، نتعشَّى، ثم آتي معكما لتناول المثلَّجات أنا أيضًا».

«الطريق طويلة» قلت. فتدخّلتْ ليلا بخشونة:

«ومن قال إنَّنا سنذهب سيرًا على الأقدام؟ سنستقلّ سيَّارة، فنحن أثرياء».

٥٩

في اليوم التالي، أردنا أن نعتاد على التوقيت الجديد لنينو وبرونو، فوصلنا إلى الشاطئ في التاسعة بدلًا من العاشرة، لكنَّنا لم نجدهما. غضبت ليلا. انتظرنا، لكنَّهما لم يظهرا لا في العاشرة ولا في ما بعد، ولم يصلا إلَّا في أوَّل الظهيرة، بهيئة تنمّ عن الاستخفاف والتواطؤ. قالا إنَّهما قرَّرا الدراسة باكرًا، كي يتفرّغا للقائنا في المساء. وكانت ردَّة فعل ليلا مفاجئة، وصُعقتُ بها أنا تحديدًا: طردتْهما. صرختْ، بعامّيّة شرسة، بأنّ لهما الحرِّيَّة في الدراسة متى يريدان، بعد الظهر، في المساء، في الليل، حالًا، لا أحد يُجبرهما. وحين بذل رينو وبرونو جهدًا في عدم حمل غضبها على محمل الجدّ، وابتسما كما لو كان اهتياجها أمرًا طريفًا يثير الضحك، ارتدتْ ملابس السباحة، وتأبَّطتْ حقيبتها، وتوجَّهتْ نحو الطريق بخطوات سريعة. ركض نينو خلفها، وسرعان ما عاد بوجه يصلح للعزاء. لا شيء. كانت غاضبة، ولم تشأ سماع التبريرات.

«أزمة وتمرّ» قلتُ متظاهرة بالسكينة، وسبحتُ معهما. جفَّفتُ جسمي تحت الشمس، وتناولتُ شطيرة، وتكلَّمتُ على مضض، ثم أعلنتُ العودة إلى المنزل أنا أيضًا.

Telegram: Somrlibrary

«وهذا المساء؟» سأل برونو.

«لينا تريد الاتّصال بستيفانو، سنأتي».

لكنّ ثورانها في ذلك الشكل هزّني كثيرًا. ماذا تعني تلك النبرة، وذلك السلوك؟ كيف يحقّ لها أن تغضب من عدم احترام موعد ما؟ لماذا لا تستطيع أن تضبط نفسها، وتعامل الشابّين كما لو كانا باسكوالي وأنطونيو، بل الأخَوَين سولارا أيضًا؟ لماذا تتصرّف كأنّها صبيّة مغناج، وليست السيِّدة كارّاتشي؟

وصلتُ إلى المنزل منهكة. كانت نونتسيا تغسل المناشف والثياب، وليلا في غرفتها، جالسة في السرير، وتفعل شيئًا يثير الاستغراب: كانت تكتب. كان الدفتر يرقد في حضنها، وقد ضيّقتْ عينيها وتجعّد جبينها، وأحد كتبي مرميٌّ فوق الغطاء. منذ متى لم أرَها تكتب!

«كانت ردّة فعلكِ مبالغًا فيها»، قلت لها.

أبدت عدم اكتراثها، من دون أن ترفع بصرها عن الدفتر، وواصلت الكتابة طوال فترة العصر.

وفي المساء، تأنّقتْ مثلما حين تستقبل زوجها، وركبنا العربة إلى فوريو. أدهشتني نونتسيا، التي حافظت على بياض بشرتها بسبب عدم استجمامها تحت أشعَّة الشمس مطلقًا، أنّها استعارت أحمر شفاه ابنتها عمدًا كي تعطي لونًا لشفتيها ووجنتيها. قالت إنَّها لا تريد الظهور كميِّتة.

وسرعان ما صادفنا الشابّين. كانا واقفين أمام الحانة كحارسين عند أبراج القلاع. بقي برونو في بنطاله القصير، وغيّر قميصه فقط. ونينو كان يرتدي بنطالًا طويلًا، وقميصًا ناصع البياض، وكان شعره منفوشًا إلى درجة أنّه بدا أقلّ وسامة في عينيّ. حين انتبها لوجود

نونتسيا، اتّخذا هيئة صارمة. جلسنا تحت سقيفة، عند مدخل البار، وطلبنا مثلَّجات السبوموني. فوجئنا بنونتسيا التي همّت بالكلام ولم تعد تكفّ. تحدّثتْ إلى الشابَّين فقط. أثنت على والدة نينو بسبب ما كانت تذكره عن جمالها. وروت علينا كثيرًا من قصص الحرب، والأحداث التي وقعت في الحيّ، وسألت نينو إن كان يذكرها أم لا. وكلّما أجاب بلا، ردّت عليه تلقائيًّا: «اسأل أمّك إذن، سترى أنَّها تتذكَّر هذا». أبدت ليلا امتعاضها سريعًا، وقالت إنّ الوقت حان للاتِّصال بستيفانو، ودخلتْ الحانة حيث كبائن الهاتف في الداخل. صمت نينو، وساعده برونو على تحمُّل المحادثة مع نونتسيا. ولاحظتُ مستاءةً أنَّه لا يعبِّر عن اضطرابه كما يحدث له معي.

«اعذروني لحظة واحدة» قال نينو فجأة، ثم نهض ودخل الحانة.

ارتبكت نونتسيا، وهمست في أذني:

«هل ذهب ليدفع الحساب؟ أنا الأكبر سنًّا هنا، ويتعيَّن عليّ ذلك».

سمعها برونو وقال إنَّه دفع كلّ شيء سلفًا؛ لا يُعقل أن تدفع الحساب سيّدة محترمة. سلَّمت نونتسيا بالأمر، وراحت تسأله عن مصنع والده للحوم، وافتخرت بزوجها وابنها، لأنَّهما كانا مالكَي ورشة هما أيضًا، كانت لديهما ورشة أحذية.

لكنّ ليلا لم تعد، فقلقتُ بشأنها. تركتُ نونتسيا وبرونو يتحادثان، ودخلتُ الحانة أنا أيضًا. منذ متى تُطيل ليلا اتِّصالها بستيفانو؟ اتَّجهتُ إلى الزاوية حيث كبائن الهاتف، وكانت جميعها خاوية. نظرتُ حولي، وكنت واقفة في المنتصف، بطريقة أزعجت أولاد مالك الحانة الذين كانوا يخدمون الطاولات. رنوتُ إلى بابٍ مفتوح لتمرير الهواء، وكان يُفضي إلى فناء ما. أطللتُ برأسي متردِّدة،

Telegram: Somrlibrary

ففاحت رائحة الغاز المضغوط ممزوجة مع الروائح المنبعثة من خمِّ الدجاج. وكان الفناء فارغًا، لكنَّني انتبهتُ إلى أنّ أحد جوانب السور الحجريّ يوجد فيه منفذٌ يؤدِّي إلى حديقة. اجتزتُ الفسحة التي تغصّ بالحديد الصدئ. وقبل أن أعبر إلى الحديقة رأيتُ ليلا ونينو. كان الشعاع الليليّ الصيفيّ ينير النباتات. وكانا متعانقين في دوّامة من القبلات الحارّة؛ هو يمسك بيدها من تحت التنُّورة، وهي تحاول أن تبعدها عنه، لكنَّهما يتابعان القبلة.

تراجعتُ على عَجَل، محاولة ألّا أُحدث الضجَّة. عدت إلى الحانة، وقلت لنونتسيا إنّ ليلا لا تزال تتكلَّم عبر الهاتف.

«هل يتشاجران؟»

«لا».

شعرتُ بأنَّني أحترق، لكنّ اللهيب كان باردًا، ولم أتألَّم. إنّها متزوِّجة، قلت لنفسي، متزوِّجة منذ عام تقريبًا.

عادت ليلا من دون نينو. كانت كاملة التبرُّج، ومع هذا، أحسستُ بالفوضى تظلِّل ثيابها وجسمها.

انتظرنا قليلًا، ولم يظهر نينو، أدركتُ أنَّني أكرههما معًا. نهضتْ ليلا، وقالت: «تأخّر الوقت، فلنعدْ». وحين كنَّا في العربة التي ستنقلنا إلى المنزل، وصل إلينا نينو راكضًا، ودّعنا ببهجة. «إلى الغد» صرخ بكلِّ احترام، لم أرَه يُبديه في السابق أبدًا. ففكَّرتُ: أن تكون ليلا متزوِّجة، فهذا لَا يقف عائقًا لا له ولا لها. انتابني اشمئزازٌ شنيع من هذه الفكرة، حتى تشنَّجت معدتي وكدت أتقيَّأ، فوضعتُ يدي على فمي.

خلدتْ ليلا إلى النوم حالًا، وانتظرتُها أن تأتي لتعترف لي بما فعلت، وبما تنوي فعله. لكنْ عبثًا. واليوم، أعتقد أنَّها لم تكن تعرف هي أيضًا ما الذي كانت ناوية عليه.

Telegram: Somrlibrary

٦٠

اتَّضحت الصورة أكثر في الأيَّام اللاحقة. كان نينو يصل عادة ومعه جريدة أو كتاب؛ فتخلَّى عن هذه العادة. وخمدت الحوارات المتَّقدة عن القضايا الإنسانيَّة، واستحالت إلى عبارات فارغة تبحث عن منفذٍ لمحادثة خاصَّة. عزف نينو وليلا عن السباحة المطوَّلة معًا لمسافة لا تُدركها العين من الشاطئ؛ وأرغمانا على نزهاتْ طويلة، وطَّدت الانقسام إلى ثنائيَّيْن. ولم يحدث أبدًا أن مشى نينو معي، ولا ليلا مع برونو. بل أصبح من الطبيعيّ أن يمشيا خلفنا. وكلَّما استدرتُ فجأة، تولَّد لديَّ انطباعٌ بأنَّني أتسبَّب بشرخٍ أليم بينهما؛ فتنفصل اليدان وتُغلَق الأفواه بغتةً.

آلمني ذلك، لكنَّني أعترف بأنّ الآلام تناوبت عليّ على مراحل، كالأمواج، لأنَّني لم أكن أصدِّق ما أرى. بدا لي أنَّني أشاهد تأديتهما مسرحيَّةً لا تنتهي: كانا يتمازحان بتأدية دور المرتبطين رسميًّا، مع أنَّهما يعلمان علم اليقين بأنَّهما لم ولن يكونا كذلك يومًا. فهو كان مرتبطًا في الأساس، وهي كانت متزوِّجة علاوة على ارتباطها. كنت أنظر إليهما كما لو كانا إلٰهين في طور الانحطاط: فبعد أن كانا في السابق شاطرين وذكيَّيْن، أصبحا غبيَّيْن ومنهمكين في لعبة غبيَّة. كنت

Telegram: Somrlibrary

أفكِّر في أن أقول لهما: من تحسبان نفسيكما، عودا إلى أرض الواقع.

ولم أتمكَّن من التصريح بذلك. ففي غضون يومين أو ثلاثة، تغيَّرت الأمور أكثر فأكثر. أخذا يشبكان يدًا بيد من دون أن يتستَّرا كما في السابق، بل يفعلانها بسفاهة تُثير الاستياء، كما لو أنَّهما قرَّرا أنَّ ما من جدوى لإخفاء الحقيقة عنَّا. وكانا غالبًا ما يتشاجران على سبيل المزاح، لا لشيء سوى ليمسك بها فتدفعه، ثم يتعانقان ويتدحرجان معًا على الرمال. وحين نتمشَّى، ما إن يصادفا كوخًا مهجورًا، أو مبنًى متهالكًا عند أحد المستنقعات، أو دربًا يتيه بين النباتات البرِّيَّة، حتى يقرّرا كطفلين الذهاب لاستكشافه، ولا يدعواننا إلى المجيء معهما. ويبتعدان بصمت، هو يسبقها وهي تتبعه. وحين يستلقيان تحت الشمس، يقلِّصان المسافة بينهما قدر الإمكان. في البدء، كانا يكتفيان بتجاورٍ طفيف بين كتفيهما وذراعيهما وساقيهما وقدميهما، ثم تطوَّرت الحالة إلى درجة أن يستلقيا متلاصقين على منشفة ليلا الواسعة، بعد العودة من السباحة اليوميَّة التي لا تنتهي. وسرعان ما اعتاد نينو بعفويَّة أن يشبك كتفيها بذراعه، بينما تسند رأسها على صدره. حتى وصل بهما الأمر ذات مرَّة إلى قبلة حارَّة على الشفاه، وهما يتضاحكان، قبلة بهيجة وسريعة. وكنت أقول لنفسي: يا لها من مجنونة، يا لهما من مجنونين! ماذا لو رآهما أحد النابوليتانيِّين من معارف ستيفانو؟ ماذا لو مرّ الموزِّع الذي دبَّر لنا المنزل؟ ماذا لو قرَّرت نونتسيا فجأة أن تقوم بنزهة إلى البحر؟

لم أكن أصدِّق انعدام وعيهما، وكانا في كلّ مرَّة يتجاوزان الحدود بلامبالاة. لم يعد يكفيهما اللقاء في النهار فقط، إذ قرَّرت ليلا أن تتَّصل بستيفانو كلّ مساء، ورفضتْ بوقاحةٍ أن ترافقنا نونتسيا. كانت تجبرني على الذهاب إلى فوريو بعد العشاء. تجري اتِّصالًا قصيرًا

Telegram: Somrlibrary

بزوجها، ثم نسرح في التنزُّه، هي برفقة نينو، وأنا برفقة برونو. ولا نعود إلى المنزل قبل منتصف الليل، وكان الشابّان يرافقاننا على الأقدام على طول الشاطئ المظلم.

في مساء يوم جمعة، أي قبل مجيء ستيفانو بيوم، تعاركتْ مع نينو فجأة، ليس مزاحًا بل حقيقة. كنَّا نتناول المثلَّجات نحن الأربعة جالسين إلى الطاولة، وذهبت ليلا للاتِّصال. أخرج نينو من جيبه عددًا معيَّنًا من الأوراق المكتوبة على الجانبين، وراح يقرأ ممتعضًا، ومن دون أن يقدِّم أيّ تفسير، منعزلًا عن المحادثة الباهتة بيني وبين برونو. وحين عادت ليلا، لم يُعرها نينو أيّ انتباه، ولم يُرجع الأوراق إلى جيبه، بل تابع القراءة. انتظرتْ ليلا نصف دقيقة، ثم سألته بنبرة مرحة:

«هل الموضوع مهمّ إلى هذا الحدّ؟»

«أجل»، قال نينو من دون أن يرفع نظره.

«فاقرأ بصوت مرتفع إذن، نودّ أن نسمع».

«إنَّها شؤوني الخاصَّة، لا تعنيكم».

«وما هي؟» سألت ليلا، وكان من الواضح أنَّها تعرف الموضوع مسبقًا.

«رسالة».

«ممَّن؟»

«من ناديا».

انحنت ليلا، وانتشلت الأوراق من بين يديه، بحركة مباغتة وسريعة كالبرق. جفل نينو، كما لو أنّ حشرة ضخمة لسعته، لكنَّه لم يفعل شيئًا ليستردّ الرسالة. حتى عندما بدأت ليلا تقرأها علينا بلهجة خطابيَّة وصوت جهوريّ. كانت رسالة حبّ، صبيانيَّة بعض الشيء،

Telegram: Somrlibrary

تتكلَّم سطورها على ثيمة الاشتياق بتنويعات حلوة. أصغى نينو ملتزمًا الصمت، بابتسامة حائرة. وحين رأيتُ أنّه لا يأخذ القصَّة على سبيل المزاح، بل كان عابسًا يركِّز نظره في قدميه السمراوين المنتعلتين الصندل، همستُ لليلا:

«يكفي. أعيدي إليه الرسالة».

توقَّفت عن القراءة عندما كلّمتها، لكنّ وجهها ما زال مغمورًا بأمارات اللهو؛ ولم تعطه الرسالة.

«ألا تخجل من نفسك، ها؟» قالت له، «الذنب ذنبك. كيف لك أن ترتبط بفتاة تكتب بهذه الطريقة؟»

لم يردّ نينو، وظلّ ينظر إلى قدميه. تدخّل برونو، بنبرة مرحة هو أيضًا:

«عندما يُغرم المرء بشخص ما، لا يُخضعه لامتحان كي يتأكَّد من قدراته على كتابة رسالة حبّ».

لكنّ ليلا لم تتكرَّم على برونو بالتفاتة، وظلّت ترمق نينو كما لو كانا يخوضان نقاشًا سرِّيًا بينهما على مرأى أعيننا:

«هل تكنّ لها المودّة؟ ولماذا؟ اشرح لنا. هل لأنَّها تسكن في شارع ڤيتوريو إيمانويلي، في بيت يغصّ بالكتب واللوحات القديمة؟ هل لأنَّها تتكلَّم بغرور؟ هل لأنَّها ابنة الأستاذة؟»

تحرَّك نينو أخيرًا، وقال بفتور:

«أعطني هذه الأوراق».

«أعطيك إيَّاها شرط أن تمزِّقها حالًا. هنا، أمامنا».

واجه نينو نبرتها الميَّالة إلى العبث بكلمات مختصرة، ولهجة جدِّيَّة، وصوت واضح الشراسة:

Telegram: Somrlibrary

«وماذا بعد؟»

«بعد ذلك، نكتب جميعًا رسالة إلى ناديا، تصرّح فيها بأنَّك ستهجرها».

«وبعد؟»

«ثم نرسلها هذا المساء».

ظلّ صامتًا لحظات، ثم وافق.

«فلنفعل ذلك».

فوجئتْ ليلا بإجابته، وقالت مشيرة إلى الأوراق:

«هل تمزّقها جدِّيًا؟»

«أجل».

«وتهجرها؟»

«أجل، لكن بشرط».

«فلنستمع».

«أن تنفصلي عن زوجك. الآن. نذهب معًا إلى الهاتف جميعًا، وتخبريه بقرارك أمامنا».

عصفتْ بي كلماته عصفًا عنيفًا، ولم أفهم سبب ذلك. لقد لفظ كلماته بصوت ارتفع فجأة حتى تشرّخ. وحين سمعته ليلا، ضيَّقت عينيها كثقبين غائرين على الفور، كعادتها. ستغيِّر نبرتها الآن. ستصبح شرِّيرة، فكَّرتُ. وبالفعل، قالت له: كيف تسوِّل لك نفسك؟ وأضافت: مَن تظنّني. وأعقبت: «كيف يخطر في بالك أن تضعني في المستوى نفسه، أنا وزوجي وحياتي بكلٍّ ما فيها، مع هذه الرسالة وعلاقتك السخيفة بتلك الوضيعة سليلة النبلاء؟ تحسب نفسك رجلًا عظيمًا، لكنّك لا تفهم المزاح، بل لا تفهم شيئًا. هل سمعت جيِّدًا؟ أنت لا تفهم شيئًا. لا تنظر إليّ هكذا. فلنذهب للنوم يا لينو».

Telegram: Somrlibrary

٦١

لم يأبه نينو بانصرافنا، بينما قال برونو: «نلتقي غدًا». استقللنا عربة آليَّة، وعدنا إلى المنزل. وفي الطريق، كانت ليلا ترتجف. أمسكتْ بيدي، وشدَّت عليها بقوَّة. وشرعت تعترف لي، بطريقة فوضويَّة، بكلِّ ما جرى بينها وبين نينو. رغبت في أن يقبِّلها، وسمحتْ له بتقبيلها. رغبت في أن تشعر بيديه تجسّان جسمها، وسمحت له بذلك. «لا أستطيع أن أنام. وإن غفوتُ استيقظتُ من الفزع، أنظر إلى الساعة، وأتمنَّى أن يكون النهار قد طلع كي نذهب إلى البحر. فإذا الليل لا يزال حالكًا، ولا أتمكَّن من النوم ثانية. فرأسي يلهج بالكلمات التي قالها، والكلمات التي أتلهَّف لأقولها أمامه. قاومتُ. قلت لنفسي: لستُ مثل بينوتشا، في وسعي أن أفعل ما يطيب لي. في وسعي الشروع في أمرٍ والكفّ عنه متى أردتُ، لقضاء الوقت ليس إلَّا. عزمتُ على غلق شفتيّ، ثم قلت لنفسي: هيَّا، ليست سوى قبلة، ما تأثيرها؟ ثم اكتشفتُ تأثيرها لاحقًا. أقسم لك إنَّني لم أكن أعرف القبلة، ومن بعدها لم يعد في وسعي العيش من دونها. سلّمته يدي، شبكتُ أصابعي بأصابعه، وشعرتُ بألم يجتاحني. كم من المشاعر فاتتني لتصل إليّ كلّها دفعة واحدة. أعيش مباهج الخطوبة بعد أن

Telegram: Somrlibrary

تزوَّجتُ. أنفعل، قلبي ينبض وخفقانه يصل إلى حلقي وصدغيّ. ويعجبني هذا التوتُّر. يعجبني أن يأخذني إلى أماكن منعزلة، ويعجبني الخوف من أن يرانا أحد ما، وتعجبني فكرة أن يكتشفوا سرّنا. هل كنت تفعلين هذه الأمور مع أنطونيو؟ هل كنت تعانين حين تتركينه وتتلهَّفين إلى لقائه ثانية؟ هل هذا طبيعيّ يا لينو؟ هل عايشت الوضع نفسه؟ لا أعرف كيف بدأ، ومتى؟ في البدء، لم يكن يعجبني: كانت تعجبني طريقته في الكلام، ويعجبني ما يقول، لكنْ لم أفكِّر فيه جسديًّا. كنت أقول لنفسي: كم يعرف من الأمور، هذا الشابّ، عليّ أن أصغي إليه وأتعلَّم. أمَّا الآن، حين يتكلَّم، لا أستطيع حتى أن أركِّز معه. أنظر إلى فمه، وأستحي من ذلك، فألتفت إلى الجهة الأخرى. في غضون وقت قصير، بتّ أحبّ أيّ شيء ينتمي إليه: يديه، أظفاره الناعمة، هزال جسده، عظام صدره الناتئة، عنقه النحيف، لحيته التي يحلقها بشكل سيِّئ فتبقى خشنة دومًا، أنفه، الزغب على صدره، ساقيه الطويلتين والنحيفتين، ركبتيه. أودّ أن أتلمَّسه. وتخطر في بالي أشياء أتقزَّز منها، أتقزَّز منها حقًّا يا لينو، لكنّي أودّ أن أقوم بها كي أدعه يستمتع ويكون سعيدًا».

بقيتُ أستمع إليها، لجزء طويل من الليل، في غرفتها، والباب مغلق والنور مطفَأ. كانت مستلقية إلى جانب النافذة، وضوء القمر يضفي بريقًا على شعرها عند رقبتها، وعلى ردفها العالي؛ وأنا كنت مستلقية من جهة الباب، جهة ستيفانو، وأفكِّر: زوجها ينام هنا كلّ نهاية أسبوع، على هذا الجانب من السرير، ويضمّها إليه، بعد الظهر، في الليل، ويعانقها. ومع ذلك، كانت تحدِّثني عن نينو، على السرير نفسه. كلماتها عنه تشوّش ذاكرتها، وتمحو عن السرير أيّ أثر للحبّ الزوجيّ. تتحدَّث عنه، وحين تتحدَّث عنه تناديه ليأتي إليها، تتخيَّله

Telegram: Somrlibrary

يعانقها. وكلّما هامت بذاكرتها انعدم إحساسها بالذنب أو الندم. تستلقي إلى جانبي، تبوح لي بأمور من الأفضل أن تحتفظ بها لنفسها، وتفعل ذلك على الرَّغم من استخفافها بي، وعدم تقديرها لسماتي؛ ربّما لأنَّني عديمة الإحساس، أو بلهاء، أو لستُ لبيبة مثلها. لا أعلم إن كانت تفعل ذلك عن سوء نيَّة أو عن اقتناع، الذنب ذنبي، إذ جنحتُ دومًا إلى الكتمان. فمنذ المرحلة الابتدائيَّة إلى ذلك اليوم، كنت صمّاء بكماء، حتى تطلَّب الأمر تدخُّلًا منها كي تكتشف، هناك في إيسكيا، مدى الإغواء الذي يتمتَّع به ابن سارّاتوري. آه، كم أكره تبجُّحها هذا، وأشعر به كالسمّ يسري في عروقي. وعلى الرَّغم من ذلك، لا أستطيع إيقافها عند حدّها، لا أستطيع الانزواء في غرفتي كي أصرخ بصمت؛ بل أبقى معها، أقاطعها من حين إلى حين، وأحاول أن أطمئنها.

لجأتُ إلى منطقٍ يناقض ما أفكِّر فيه، قلت لها: «هذا بسبب البحر، والهواء الطلق، والإجازة. ثم إنّ نينو يعرف كيف يخدعك، يتكلَّم بأسلوبٍ يُبديه قادرًا على انتزاع كلّ شيء. لكن لحسن الحظّ، سيصل ستيفانو غدًا، وسترين كيف يبدو لك نينو صبيًّا. وهذه حقيقة، فأنا أعرفه جيِّدًا. يبدو لنا رجلًا متمكِّنًا، لكن لو رأيتِ كيف يعامله ابن غالياني، أتذكرينه؟ تفهمين في الحال أنَّنا نبالغ في الإعلاء من شأنه. بالتأكيد، إذا قارنّاه ببرونو فسيبدو شابًّا استثنائيًّا، لكنّه في المحصّلة ليس سوى ابن موظَّف في السكك الحديديَّة عزم على الدراسة. تذكّري أنّ نينو ابن الحيّ، وهو ينحدر من هناك. تذكَّري أنَّك كنت أشطر منه في المدرسة، مع أنَّه أكبر منك. ثم ألا ترين كيف يستغلّ صديقه في شراء كلّ شيء، المشروبات والمثلَّجات؟».

كلَّفني خروج تلك الكلمات منِّي ثمنًا باهظًا، وكنت أعتبرها كذبًا

في كذب، ولاسيَّما أنَّها لم تُجدِ نفعًا كبيرًا: ليلا تلعثمتْ وعارضتْ بحذر؛ فهاجمتُها من جديد، إلى أن غضبت حقًّا، وأخذت تدافع عنه بنبرة مَن يقول: لا أحد يعرف طباعه مثلي. سألتْني لماذا أحاول تقزيمه. ثم سألتْني ما الذي يجعلني أمتعض منه. «لقد ساعدكِ» قالت لي، «وكان يسعى لنشر مقالك الغبيّ ذاك في إحدى المجلّات. في بعض الأحيان لا تعجبينني يا لينو، تستخفِّين بكلِّ شيء وبكلِّ الناس، بمن فيهم أولئك الذين يرتاح إليهم القلب ما إن تراهم العين».

فقدتُ أعصابي، لم أعد أحتملها. تكلَّمتُ بالسوء على الشخص الذي أحبّ كي أرفع معنويَّاتها، فإذا بها تهينني. تمكَّنتُ من قول التالي أخيرًا: «افعلي ما يحلو لك، أنا ذاهبة للنوم». لكنَّها غيَّرت لهجتها حالًا، وعانقتني، وضمّتني إليها بقوَّة كي تُبقيني قربها، وهمستْ في أذني: «قولي لي ما الذي عليّ فعله». أبعدتها عنِّي بانزعاج، وهمستُ بأنّها هي من عليها القرار، ولم يكن في وسعي اتِّخاذ قرار بدلًا عنها. «ماذا فعلتْ بينوتشا؟» قلت لها، «في النهاية، بدا أنَّها تصرَّفتْ أفضل منك».

اقتنعتْ بهذا، ورحنا نعدِّد خصال بينوتشا، حتى تنهَّدتْ فجأة:

«حسنًا، غدًا لن أذهب إلى الشاطئ. وبعد غد، سأعود إلى ناپولي مع ستيفانو».

٦٢

كان أسوأ يوم سبت على الإطلاق. لم تذهب إلى الشاطئ حقًّا، وعزفتُ عن الذهاب أنا أيضًا، لكنَّني لم أفعل شيئًا آخر سوى التفكير في نينو وبرونو. ربَّما كانا ينتظراننا بلا جدوى. ولم أجرؤ على القول: سأمرّ بالشاطئ، أسبح قليلًا وأعود. ولم أجرؤ حتى على السؤال: ماذا أفعل؟ أوضِّب الحقائب؟ نغادر أم نبقى؟ ساعدتُ نونتسيا في تنظيف المنزل، وتحضير الغداء والعشاء، وأنا أراقب ليلا التي لم تنهض من على سريرها، وظلَّت فيه تقرأ وتكتب في دفترها، وعندما نادتها أمّها للطعام لم تُجبها؛ وعندما نادتها مرَّة أخرى، أغلقت باب غرفتها بعنفٍ اهتزّت في إثره أرجاء المنزل كلّها.

«الإكثار من الذهاب إلى البحر يؤلّب العصبيَّة»، قالت نونتسيا، بينما كنَّا نتناول الغداء وحدنا.

«أجل».

«ناهيك بأنّها ليست حاملًا».

«تمامًا».

وفي آخر العصر، نهضتْ ليلا عن السرير، أكلت شيئًا ما، ثم قضت ساعات في المرحاض. غسلت شعرها، تزيَّنت، ارتدت فستانًا

Telegram: Somrlibrary

أخضر زاهيًا، لكنّ ملامح وجهها ظلَّت مستاءة. في كلِّ حال، رحّبت بزوجها بأسلوب ودود؛ وحين رآها هكذا، قبَّلها، كما يفعل نجوم السينما، قبلة حارَّة وطويلة، بينما أدّينا أنا ونونتسيا دور المشاهدتين الخجولتين. أبلغني ستيفانو تحيَّات عائلتي، وقال إنّ بينوتشا كفّت عن نزواتها، وقصّ بالتفصيل سعادة الأَخَوَين سولارا بالتصاميم الجديدة التي أنجزها رينو وفرناندو. لكنّ ذلك التنويه لم يعجب ليلا، فساءت الأمور بينهما. كانت تقاوم حتى تلك اللحظة رغبتها في إبداء ابتسامة قسريَّة على وجهها، وما إن سمعت باسم الأَخَوَين سولارا حتى زالت تلك الابتسامة، وقالت إنَّها لا تهتمّ بشأنهما، ولا تريد أن تعيش فقط لتعرف ما يفكِّران فيه وما لا يخطر في بالهما. انزعج ستيفانو، وتجهَّم وجهه. أدرك أنّ بهجة الأسبوعين الأخيرين ولّت، لكنّه أجابها بابتسامته اللطيفة المعهودة، وقال إنَّه كان يقصّ عليها ما يحدث في الحيّ بشكل عام، وما من ضرورة لتلك اللهجة. لكنْ هيهات! سرعان ما حولّت ليلا السهرة إلى نزاع بلا هوادة. لم يستطع ستيفانو أن يلفظ كلمة واحدة، من دون أن تجد ليلا ردًّا عنيفًا عليها. وذهبا إلى السرير وهما يتشاجران، وبقيتُ أسمع شجارهما حتى غفوتُ.

استيقظتُ فجرًا. احترتُ في ما عليّ فعله: أجمع أغراضي؛ أنتظر أن تتَّخذ ليلا قرارًا ما؛ أتَّجه إلى البحر؛ وقد أصادف نينو، الأمر الذي لن تغفره لي ليلا؛ أنغمس في عملٍ ما طوال النهار، كما كنت أفعل عادة، منعزلة في الغرفة. قرَّرتُ أن أترك رسالة أقول فيها إنَّني ذاهبة إلى مارونتي، وقد لا أعود قبل العصر. كتبتُ أنَّني لا أستطيع مغادرة إيسكيا من دون توديع نيلا. كتبت ذلك بحسن نيَّة، لكنَّني الآن أعرف جيِّدًا آليَّة عمل رأسي: أردت أن أسلِّم أمري للقدر؛ فلن تستطيع ليلا أن تلومني لو صادفتُ نينو، إذا ذهب ليطلب المال من أبويه.

Telegram: Somrlibrary

ترتَّب على قراري نهارٌ معقَّد وتبذير غير مسؤول للنقود. استقلْلْتُ قاربًا حملني إلى مارونتي. اتَّجهتُ إلى المكان حيث ينزل فيه أفراد عائلة سارَّاتوري عادة، ولم أجد سوى مظلَّتهم الكبيرة. نظرتُ حولي، فرأيت دوناتو، الذي كان يسبح، ورآني. لوَّح بيديه محيِّيًا، وركض نحوي. قال إنّ زوجته وأولاده ذهبوا لقضاء النهار في فوريو، مع نينو. كم تألَّمتُ لهذا، إذ لم يكن القدر ساخرًا فحسب، بل كان مزدريًا أيضًا: سلب منِّي الابن، وأودعني في ثرثرة أبيه السمجة.

لم يتركني دوناتو حينما حاولتُ المغادرة للذهاب إلى نيلا، بل جمع أغراضه على عَجَل، وأراد مرافقتي. وفي الطريق، اتَّخذ نبرة عذبة، وراح يحدّثني، بلا خجل، عمّا جرى بيننا منذ زمن. طلب منِّي السماح، وغمغم قائلًا إنْ لا شيء في وسعه التحكُّم في أهواء القلب. حدَّثني بكلمات معسولة عن جمالي في الماضي، وجمالي حينئذ على وجه الخصوص.

«يا للمبالغة» قلت، ورحت أضحك من شدَّة الضغط، مع أنَّه كان ينبغي لي أن أحافظ على الجدِّيَّة والترفُّع.

وعلى الرَّغم من حمله المظلَّة الكبيرة وأغراضه المشتَّتة، لم يتخلَّ عن حديثه المسهب والمملّ بعض الشيء. وخلاصة كلامه أنّ المشكلة في مرحلة الشباب تكمن في عدم امتلاكنا عينين تريان ذواتنا، ومشاعرَ تحسّ بأساريرنا بموضوعيَّة.

«ثمَّة المرآة» أجبتُ، «المرآة موضوعيَّة».

«المرآة؟ إنَّها آخر ما يمكن الوثوق به. أراهن على أنَّك تشعرين بأنَّك أقلّ جمالًا من صديقتيك».

«أجل».

«مع أنَّك أجمل منهما كثيرًا. ثقي بي. انظري إلى جمال شعرك

Telegram: Somrlibrary

الأشقر، وحسن سلوكك. ما عليك سوى أن تواجهي نفسك وتجدي حلًّا لمشكلتين لا غير: أُولاهما لباس السباحة، لا يلائم تفاصيل جسدك؛ وثانيتهما طراز النظّارة. فهذا الطراز الذي تلبسينه ليس موفَّقًا يا إيلينا، إنَّه ثقيل جدًّا. وأنت لديك وجه ناعم، وملامحه بارزة. تلزمك نظّارة أخفّ من هذه».

كان استيائي منه يضمحلّ، وبقيتُ أصغي إليه. يبدو عالِمًا في الجماليّات النسائيَّة، ولاسيَّما أنَّه تكلَّم بكفاءة وحياديَّة حَدَتا بي إلى التفكير: ماذا لو كان محقًّا؟ ربَّما عليّ أن أقدِّر ذاتي. ومن جهة أخرى، من أين لي النقود لشراء الثياب المناسبة والنظّارة الملائمة؟ وكدتُ أنفجر بالشكوى من العَوَز، فإذا هو يقول لي بابتسامة:

«في المحصّلة، إن لم تثقي برأيي، فلعلَّك انتبهت للطريقة التي كان ينظر فيها ابني إليك حين أتيتنّ لزيارتنا».

حينها، أدركتُ أنَّه كان يكذب عليّ. اختار كلماته هذه لتُشعرني بالغرور، وهي لا تنفع إلَّا كي أشعر بالرضا، وأندفع نحوه امتنانًا. أحسستُ بأنَّني غبيَّة، ومجروحة ليس منه ومن أكاذيبه، بل من غبائي نفسه. أوقفته عند ذلك الحدّ بوقاحةٍ خاف منها.

وحين وصلنا إلى المنزل، تكلَّمتُ قليلًا مع نيلا، قلت لها إنَّنا سنعود إلى نابولي في المساء، وأردت أن أودِّعها.

«متأسِّفة لأنَّك ستغادرين».

«لا بأس».

«تناولي الغداء معي».

«لا أستطيع، عليّ أن أعود بأقصى سرعة».

«لكنْ، عديني بأن تأتي لزيارتي مرَّة ثانية وقتًا أطول، إذا لم تغادري اليوم. تبقين معي طوال النهار، والليل أيضًا، فالسرير موجود

Telegram: Somrlibrary

كما تعلمين. وعليّ أن أقصّ عليك كثيرًا من الأمور».

«شكرًا».

تدخَّل سارّاتوري قائلًا:

«نعوِّل على وجودك، فنحن نكنّ لك الودّ كما تعلمين».

هربتُ بعيدًا، كان هناك أحد أقارب نيلا، وأراد الذهاب إلى الميناء بالسيَّارة، فلم أرفض أن يوصلني في طريقه.

وطوال الطريق، عادت كلمات سارّاتوري تراودني، على غفلة منِّي، على الرَّغم من محاولتي الحثيثة إقصاءها عنِّي. لا، ربَّما لم يكذب عليّ. بل كانت له نظرة تنفذ إلى العمق، متجاوزة المظاهر. وكانت لديه طريقة في مراقبة نظرة ابنه إليّ. قد أكون جميلة، وقد يراني نينو جذَّابة حقًّا - وأنا كنت على يقين بهذا: فهو لثم ثغري، وشبك يده بيدي - وحان الوقت لأنظر إلى الأحداث كما كانت عليه: ليلا سلبته منِّي؛ وأرادت أن تُقصيه عنِّي كي تحتفظ به لنفسها. وربَّما لم تتعمَّد ذلك، لكنَّها فعلتْه بكلِّ الأحوال.

قرَّرتُ فجأة أن أبحث عنه، وأن ألقاه بأيِّ ثمن. الآن، وقد اقتربت ساعة الرحيل، ولم يكن إغراء ليلا ليفعل فعله به كي تحظى به؛ الآن وقد قرَّرت بنفسها أن تعود إلى حياتها الخاصَّة، من الممكن أن تحظَ علاقتنا ببداية جديدة، في نابولي، على هيئة صداقة. ولعلَّنا نلتقي للتحدُّث عنها، ثم نعود إلى نقاشاتنا وقراءاتنا. كنت سأُظهر له قدرتي على التكيُّف مع أفكاره أفضل منها بالتأكيد، وربَّما أفضل من ناديا أيضًا. أجل، لا بدّ من أن أتحدَّث إليه حالًا، وأُعلمه بمغادرتي، وأقول له: فلنلتقِ في الحيّ، في الساحة الوطنيَّة، في شارع ميتسوكانوني، حيثما أردت، لكنْ في أقرب وقت ممكن.

استقللتُ عربة آليَّة، واتَّجهتُ إلى فوريو، إلى بيت برونو. ناديتُ،

Telegram: Somrlibrary

ولم يظهر أحد. تجوَّلتُ في البلدة، وكنتُ في حالٍ تزداد سوءًا، ثم اتَّجهتُ إلى الشاطئ سيرًا. فحالفني الحظُّ تلك المرَّة ظاهريًّا. كنت أمشي منذ مدَّة، فإذا بي أجده قبالتي. نينو، في غاية السعادة، لأنَّه رآني. سعادة لا يمكن السيطرة عليها. كانت عيناه تلمعان، وحركات يديه منفعلة، وصوته يصدح.

«بحثتُ عنكما البارحة واليوم أيضًا. أين لينا؟»

«مع زوجها».

أخرج من جيب بنطاله القصير ظرفًا، ووضعه بين يديّ بقوَّة مفرطة.

«هلَّا أعطيتها هذا؟»

تجهَّم وجهي.

«لن يُجدي نفعًا يا نينو».

«أعطيها هذا».

«سنغادر هذا المساء، سنعود إلى نابولي».

تأفَّف مستاء، وقال بصوت أجشّ:

«من قرَّر ذلك؟»

«هي».

«لا أصدِّق».

«هذا ما جرى مساء البارحة».

فكَّر قليلًا، ثم أشار إلى الظرف.

«أرجوك أن تعطيها الظرف في كلِّ الأحوال، وفي أقصى سرعة».

«حسنًا».

«أَقسمي إنَّك ستعطينها الظرف».

Telegram: Somrlibrary

«قلت لك حسنًا».

رافقني مسافة طويلة وهو ينتقد أمّه وإخوته. لقد عذّبوني، قال، لحسن الحظّ أنَّهم عادوا إلى بارانو. سألته عن برونو، فاستاء، وقال إنّه كان يدرس، وانتقده هو الآخر.

«وأنت لا تدرس؟»

«لا أقوى».

ثبَّت رأسه بين كتفيه، واتَّشح بالحزن. وراح يحدِّثني عن الخديعة بحقّ أنفسنا، حين يلجأ أستاذ ما، لأسباب تخصُّه، ليُقنعك بأنّك طالبة نجيبة. أدرك فجأة أنّه لم يكن يهتمّ جدِّيًا بالأمور التي كان يريد أن يتعلَّمها.

«ماذا تقول؟ هكذا فجأة؟»

«تكفي لحظة لتتغيَّر حياتنا رأسًا على عقب».

بدا غريبًا جدًّا! ما الذي يحدث له؟ ما هذا الكلام المبتذل؟ أقسمتُ في سرّي إنَّني سأساعده كي يعود كما كان.

«ربَّما أنت متوتِّر جدًّا ولا تعي ما تقول»، ارتجلتُ بأفضل نبرة حكيمة عندي، «لكن حين تعود إلى ناپولي، فلنلتقِ، إن أردتَ، ولنتمعَّنْ في الأمر».

هزّ رأسه موافقًا، ثم انفجر صارخًا بعدها مباشرة:

«لم أعد أريد التردُّد إلى الجامعة. أريد البحث عن عمل».

Telegram: Somrlibrary

٦٣

رافقني إلى المنزل تقريبًا، حتى خشيتُ أن يلتقي ستيفانو وليلا. انصرفتُ عنه على عَجَل، وصعدتُ السلالم الحجريَّة.

«غدًا صباحًا في التاسعة»، صاح.

توقَّفتُ.

«إذا غادرنا، نلتقي في الحيّ. ابحث عنِّي هناك».

هزّ رأسه رافضًا بإصرار.

«لن تغادروا» قال، كما لو كان يُصدر أمرًا سينفِّذه القَدَر صاغرًا.

ودَّعته بآخر تحيَّة، وركضتُ على السلالم نادمةً، لأنَّني لم أُلق نظرة على محتوى الظرف.

وفي المنزل، كانت الأجواء مضطربة. ستيفانو ونونتسيا يتهامسان بينهما، وليلا إمَّا في المرحاض وإمَّا في غرفة النوم. وحين دخلتُ، رمياني بنظرة حاقدة. وقال ستيفانو غاضبًا، بلا مقدِّمات:

«هلَّا شرحتِ لي ما الذي تخطِّطان له أنت وتلك؟»

«ماذا تقصد؟»

«هي تقول إنَّها ضاقت ذرعًا بالجزيرة، وتريد أن تذهب إلى أمالفي».

Telegram: Somrlibrary

«لا أعلم شيئًا بهذا الخصوص».

تدخّلت نونتسيا، لكنْ ليس بأسلوبها العطوف المعتاد:

«لا تحرِّضيها على الأفكار السيِّئة يا لينو، فمن غير الممكن رمي النقود من النافذة. ما الذي ذكَّرها بأمالفي الآن؟ لقد دفعنا هنا إيجارة المنزل حتى سپتمبر».

صعّدتُ لهجتي قائلة:

«أنتما مخطئان. فأنا التي لا تفعل سوى ما تريد لينا، وليس العكس».

«اذهبي وقولي لها أن تفكِّر جيِّدًا» تأفَّف ستيفانو، «سأعود في الأسبوع المقبل، وسنحتفل بعطلة منتصف الصيف معًا، وسترين كم ستستمعين معي، لكنَّني لا أريد نزوات طائشة الآن. لقد ضجرتُ. هل يبدو لك أنَّني سآخذكما إلى أمالفي الآن؟ وإن لم تعجبكما أمالفي، أين آخذكما، إلى كابري؟ وبعد؟ فلنُنْهِ هذه المسألة يا لينو».

صدّعتْ نبرته صبري.

«أين هي؟» سألتُ.

فأشارت لي نونتسيا إلى غرفة النوم. واتَّجهتُ مقتنعة بأنَّني سأجد الحقائب مُعَدّة للرحيل، حتى لو خاطرتْ بتلقِّي كثير من اللكمات العنيفة. لكنَّها كانت في ثيابها الداخليَّة، نائمة في السرير، وحولها لا تزال الفوضى عارمة، لكنّ الحقائب فارغة، ومكدَّسة في إحدى الزوايا، بعضها فوق بعض. هززتُها:

«ليلا».

جفلتْ، وسألتْني على الفور بنظرة يغتالها النعاس:

«أين كنت؟ هل قابلت نينو؟»

Telegram: Somrlibrary

«أجل. هذا لأجلك».

وأعطيتها الظرف على مضض. فتحتْه، وأخرجتْ منه ورقة. قرأتها، فأشرق وجهها بسرعة البرق، كأنَّها حُقنت بموادّ منشِّطة دمّرتْ أسوار النعاس والغمّ اللذين يحاصرانها.

«ماذا يقول؟» سألتُها بحذر.

«لا يقول لي شيئًا».

«ماذا إذن؟»

«إنَّها مكتوبة لناديا، سيتركها».

أعادت الرسالة إلى الظرف، وأعطتني إيَّاه موصية بأن أُخفيه جيِّدًا.

بقيتُ مشتَّتة الذهن، والظرف في يدي. نينو سيترك ناديا؟ ولماذا؟ هل لأنّ ليلا طلبت منه ذلك؟ ليثبت لها أنَّها تغلّبتْ عليه؟ كنت محبَطة، محبَطة، محبَطة. نينو يضحّي بابنة الأستاذة غالياني في سبيل لعبة يلعبها مع زوجة اللحّام. لم أتفوَّه بحرف، وبقيتُ أنظر إلى ليلا، بينما كانت ترتدي ثيابها وتتزيَّن. سألتها في النهاية:

«لماذا طلبت من ستيفانو ذلك الطلب العجيب، أن يذهب بك إلى أمالفي؟ لا أفهمك».

ابتسمت ليلا:

«ولا أنا أفهم نفسي».

خرجنا من الغرفة. غمرت ليلا زوجها بالقبلات الخاطفة، وهي تحضنه بمرح وسعادة. وقرَّرنا أن نرافقه إلى الميناء، أنا ونونتسيا في عربة آليَّة، وهو وليلا على متن اللامبريتا. تناولنا المثلَّجات في انتظار السفينة. كانت ليلا لطيفة مع زوجها، وتوصيه بألف وصيَّة، وتعده بأن

Telegram: Somrlibrary

تتَّصل به كلّ مساء. وقبل أن يصعد إلى العبّارة، وضع ذراعه على كتفي، وغمغم في أذني:

«اعذريني، كنت غاضبًا جدًّا. لولاك، هذه المرَّة، لما عرفتُ كيف ستنتهي المعضلة».

كان اعتذاره لطيفًا، ومع ذلك رنّ في أذني كإنذارٍ نهائيّ يعني: أرجوكِ أن تقولي لصديقتك إنَّها إن شدّت على الحبل كثيرًا... فسينقطع.

٦٤

كان عنوان ناديا، في كابري، مكتوبًا في مقدِّمة الرسالة. وما إن ابتعدت السفينة عن المرفأ، حاملة معها ستيفانو، دفعتنا ليلا ببهجة إلى بائع التبغ. اشترت طابعًا؛ ونسخت العنوان على الظرف، وأودعته في صندوق البريد، بينما كنت أُلهي نونتسيا.

تجوَّلنا في فوريو، لكنَّني كنت متوتِّرة جدًّا، وتكلَّمتُ مع نونتسيا فقط. وحين عدنا إلى المنزل، سحبتُ ليلا إلى غرفتي وألقيت عليها خطابًا واضحًا. ظلَّت تُصغي إليّ بصمت، بمزاج مشوَّش، كأنَّها من جانبٍ تعي خطورة ما تُقدْم عليه، ومن الجانب الآخر تسرح في أفكارٍ تفرّغ كلامي من مضمونه. قلت لها: «لا أعلم يا ليلا ما الذي يدور في رأسك، لكنَّني أرى أنَّك تلعبين بالنار. الآن، غادر ستيفانو سعيدًا، وإن اتَّصلتِ به كلّ مساء سيكون أكثر سعادة. لكنْ حذارِ، سيعود بعد أسبوع، وسيبقى حتى العشرين من أغسطس. هل تعتقدينَ أنَّك قادرة على الاستمرار هكذا؟ هل تعتقدين أنَّك مخوّلة للعب بحياة الناس؟ هل تعلمين بأنّ نينو لم يعد يريد إكمال دراسته، وأنَّه يريد البحث عن عمل؟ ما الذي دسستِ في رأسه؟ ولماذا بذلتِ ما في وسعك ليهجر خطيبته؟ هل تريدين أن تقضي عليه؟ هل تريدان تدمير حياتيكما؟»

ارتجفت ليلا من سؤالي الأخير، وانفجرت ضاحكة، لكن بطريقة مصطنعة نوعًا ما. واتَّخذت نبرة عابثة على ما يبدو، لكن من يدري! قالت إنّ عليّ أن أفتخر بها، لأنَّها قدَّمت انطباعًا حسنًا. لماذا؟ لأنَّها ظهرت، في كلّ شيء، أكثر رقيًّا من الراقية ابنة الأستاذة. لأنّ الشابّ الأشطر في مدرستي، وفي ناپولي، وربَّما في إيطاليا كلّها، والعالم بأسره ـ وفقًا لإشادتي المتواصلة به طبعًا ـ سيترك تلك الآنسة ذات الحَسَب، لا لشيء سوى ليُرضيها هي، وهي ابنة الإسكافيّ، الحاصلة على الشهادة الابتدائيَّة فقط، والمتزوِّجة بابن كارّاتشي. كانت تتحدَّث بتهكُّم متصاعد، كأنَّها تُطلعني على خطَّة خطيرة للانتقام. وكان لا بدّ من أن أعبِّر بملامح متجهِّمة، انتبهت لذلك، لكنّها استمرَّت في تلك النبرة بعض الوقت، كما لو أنَّها تعجز عن التوقُّف. هل كانت تتكلَّم جدِّيًّا؟ هل كانت تلك حالتها النفسيَّة الحقيقيَّة في تلك اللحظات؟ هتفتُ:

«على من تقدّمين هذه المسرحيَّة؟ عليّ أنا؟ هل تريدين إقناعي بأنّ نينو مستعدٌّ لارتكاب أيِّ حماقة ليُرضيك؟»

تبدَّدت الابتسامة من عينيها، وعبست، وغيّرت لهجتها وصارت أكثر خشونة:

«لا، إنَّني ماكرة. الحقيقة عكس ما قلتُ تمامًا. أنا المستعدّة لارتكاب أيّ حماقة، ولم يحدث لي هذا من أجل أيّ أحد في الماضي، وإنَّني سعيدة بما يحدث لي الآن».

وبعدما أنهكها الإحراج، انصرفت للنوم من دون أن تقول لي: ليلة سعيدة.

وقعتُ في حالة من الأرق المتأجِّج، وأمضيتُ الوقت أُقنع نفسي بأنّ آخر جملة قالتها كانت أكثر صدقًا ممَّا سبقها.

Telegram: Somrlibrary

وطوال الأسبوع اللاحق، عثرتُ على الدليل الدامغ. وخصوصًا أنَّني أدركتُ أنّ برونو، ابتداء من يوم الاثنين، بعد مغادرة بينوتشا، كان يسعى إليّ بالفعل، واعتبر حينئذ أنّ اللحظة حانت ليتصرَّف معي كما كان نينو يتصرَّف مع ليلا. وبينما كنَّا نسبح، التصق بي بفجاجة ليقبِّلني، فابتلعتُ، نتيجة تصرُّفه هذا، كمِّيَّة من المياه المالحة، وأُرغمتُ على العودة إلى الشاطئ حالًا وأنا أسعل. كانت ردَّة فعلي مستفزَّة، وقد شعر بذلك. وعندما جاء ليستلقي تحت الشمس قربي، كأنَّه كلب مسكين، ألقيت عليه خطابًا لطيفًا، لكنّه حازم، بما معناه: برونو، أنت في منتهى اللطف، لكنْ ما بيننا لا يمكن أن يتعدَّى حدود العلاقة الأخويَّة. أصابته التعاسة، لكنّه لم يستسلم. في المساء نفسه، بعد اتِّصال ليلا بستيفانو، ذهبنا نحن الأربعة للتنزُّه على الشاطئ، ثم جلسنا على الرمال الباردة واستلقينا لمشاهدة النجوم؛ كانت ليلا تستند إلى مرفقيها، ونينو يسند رأسه إلى بطنها، ورأسي على بطن نينو، ورأس برونو على بطني. تاهت أعيننا بين المجرّات، واستعنّا بصياغات بليغة للثناء على خلق السماء العجيب. ما عدا ليلا طبعًا. كانت صامتة، إلى أن خلت جعبتنا من الدهشة والإعجاب، فقالت إنّ مشهد الليل يُخيفها، لم تكن ترى فيه أيّ هندسة جميلة، إنَّما شظايا زجاجيَّة مبعثرة عشوائيًّا على خلفيَّة إسفلتيَّة قاتمة. أسكتنا تعبيرها جميعًا، فغضبتُ من عادتها التي تطمح إلى التعليق في النهاية، ما كان يُعطيها وقتًا طويلًا لتتمعَّن جيِّدًا، ويسمح لها بالتشويش بجملة واحدة على كلّ ما تفوَّهنا به، من دون تخطيط مسبق.

«أيّ خوف» صحتُ، «إنَّها في منتهى الجمال».

ساندني برونو على الفور، بينما رآها نينو على صواب: بحركة خفيفة، أشار إليّ بأن أبتعد عن بطنه، وعدّل جلسته، وراح يناقشها

Telegram: Somrlibrary

كما لو كانا وحيدين. السماء، القدسيَّة، النظام والفوضى. ثم نهضا واختفيا في الظلام، وهما يدردشان.

بقيتُ مستلقية ومستندة إلى مرفقيّ. لم أعد أتوسَّد جسد نينو الدافئ، وكان رأس برونو يثقل على بطني. اعتذرتُ منه وأنا ألمس شعره. فنهض، وأمسك بخصري، وضغط وجهه على جذعي. غمغمتُ بالرفض، لكنَّه قلبني على الرمل، وبحث عن فمي وهو يكبس على صدري بقوَّة. فدفعته عنِّي بعنف، وأنا أصرخ به أن يكفّ عن هذا، وكنت وقحة حينئذ. قلت له: «أنت لا تعجبني، كيف عليّ أن أعبِّر لك عن رأيي؟». توقّف مرتبكًا، وجلس. قال بصوت منخفض: «هل من المعقول أنَّني لا أعجبك ولو قليلًا؟». حاولتُ أن أشرح له أنَّ هذا الأمر لا يمكن قياسه، قلت:

«ليست مسألة إعجاب قليل أو كثير، أو استلطاف كثير أو قليل؛ المسألة أنّ هناك من يجذبني وهناك من لا يجذبني، بغضّ النظر عن حقيقة طباعي».

«وأنا لا أعجبك؟»

تأفَّفتُ:

«كلَّا».

وما إن لفظتُ تلك الكلمة القصيرة حتى انفجرتُ بالبكاء؛ وبين الدموع، لم أقوَ إلَّا على لفظ كلمات مثل:

«أترى؟ إنَّني أبكي بلا سبب، إنَّني حمقاء، لا أستحقّ أن تهدر وقتك معي».

لامس بأصابعه خدّي، وحاول أن يعانقني مجدَّدًا وهو يتمتم: أودّ أن أقدِّم إليك الكثير من الهدايا، فأنت تستحقِّين ذلك، أنت جميلة حسناء. فدفعته عنِّي بعنف، وصرختُ في الظلام بصوت مشروخ:

«ليلا، عودي إلى هنا حالًا، أريد الذهاب إلى المنزل».

أوصلنا الصديقان حتى عتبة السلالم الحجريَّة، ثم انصرفا. وبينما كنَّا نصعد أنا وليلا إلى المنزل، في الظلام، قلت لها بغيظ مشتعل:

«اذهبي حيثما تشائين، افعلي ما يطيب لك، لن أرافقك بعد الآن. إنَّها المرَّة الثانية التي يتطاول فيها برونو عليّ، ويمدّ يده إلى جسدي. لم أعد أريد البقاء معه بمفردي. واضح؟»

Telegram: Somrlibrary

٦٥

في بعض الأحيان، نلجأ إلى صياغات لا معنى لها، وننشد تطلُّعاتٍ مستحيلة، كي نُخفي مشاعرنا الحقيقيَّة. فأنا، اليوم، على يقينٍ بأنَّني كنت سأنساق إلى محاولات برونو لو كنَّا في ظروف أخرى. لم يكن يعجبني بالتأكيد، لكنّ أنطونيو أيضًا لم يكن يعجبني كثيرًا. فنحن النساء نُغرَم بالرجال رويدًا رويدًا، بغضّ النظر عن مطابقتهم، من عدمها، مع مَن نعتبره، في المراحل المختلفة من الحياة، الرجلَ النموذجيّ. برونو سوكافو، في تلك المرحلة من حياته، كان شابًّا مهذَّبًا وكريمًا، وكان من الممكن أن ينشأ في قلبي نوعٌ من الألفة تجاهه. إلَّا أنّ الأسباب التي دفعتني إلى صدِّه ليس لها شأن بطباعه المقيتة. والحال، أنَّني كنت أسعى لمرافقة ليلا دومًا. كنت أريد أن أضيِّق عليها. كنت أريد منها أن تعي خطورة المأزق الذي تزجّ بنفسها وبي فيه. كنت أريد منها أن تقول لي: حسنًا، معك حقّ، إنَّني مخطئة، لن أبتعد مع نينو في الظلام بعد الآن، ولن أدعك وحيدة مع برونو؛ ومن الآن فصاعدًا، سأتصرَّف كما يليق التصرُّف بسيِّدة متزوِّجة.

وبالطبع، لم يحدث شيء من هذا، بل اكتفت بالقول: «سأفاتح

Telegram: Somrlibrary

نينو بالموضوع، وسترين كيف يكفّ برونو عن إزعاجك». وهكذا، واصلنا لقاء الشابَّين، يومًا بعد يوم، في التاسعة صباحًا لنفترق في منتصف الليل. لكن، مساء الثلاثاء، بعد مكالمة ليلا مع ستيفانو، قال نينو:

«لم تأتيا أبدًا لإلقاء نظرة على بيت برونو. هل تريدان الصعود؟»

سارعتُ إلى الرفض، واختلقتُ ألَمًا في بطني، وأردت العودة إلى المنزل فورًا. تبادل نينو وليلا نظرات مرتبكة، ولم ينطق برونو بأيِّ حرف. وحين شعرتُ بالغمّ يهيمن عليهما، أردفتُ حائرة:

«عسى أن نصعد في مساء آخر».

ظلَّتْ ليلا ساكتة؛ وما إن صرنا بمفردنا، صاحت: «لا يمكنك أن تنغِّصي عليَّ حياتي يا لينو»، فأجبتها: «لو علم ستيفانو بأنَّنا ذهبنا بمفردنا إلى بيت برونو بصحبة هذين الشابَّين، فلن يغضب منك فحسب، بل منِّي أيضًا». ولم أكتفِ بهذا القدْر. في المنزل، عمدتُ إلى تأليب نونتسيا بما يدفعها إلى توبيخ ابنتها من كثرة التشمُّس والسباحة والتسكُّع حتى منتصف الليل. وقلت، كما لو أردتُ المصالحة بين الأمّ وابنتها: «تعالي معنا مساء الغد لتناول المثلَّجات، يا سيِّدة نونتسيا؛ سترين أنَّنا لا نرتكب أيّ خطأ». ثارت ثائرة ليلا، وقالت إنَّها تستحقّ القليل من الحرِّيَّة، ما دامت تضحِّي بحياتها طوال العام، منطوية على الدوام في الملحمة. ففقدتْ نونتسيا سكينتها: «ما الذي تتفوَّهين به يا لينا؟ حرِّيَّة؟ أيّ حرِّيَّة؟ أنت امرأة متزوِّجة، عليك أن تستأذني زوجك. من حقّ لينوتشا التفكير في قليل من الحرِّيَّة؛ أمَّا أنت، فلا». فذهبت ليلا إلى غرفتها، وصفقت الباب خلفها.

لكنّ الأمور انقلبت لمصلحة ليلا في اليوم التالي: بقيت أمّها في المنزل؛ وخرجنا للاتِّصال بستيفانو. «عليكما أن تكونا هنا في تمام

الحادية عشرة» قالت نونتسيا بامتعاض، متوجِّهة بالكلام إليّ، فأجبتها: «حسنًا». رمتني بنظرة طويلة ومتقصِّية. باتت متوتِّرة؛ فهي كانت رقيبة علينا، لكنَّها لا تراقبنا؛ كانت تخشى أن نرتكب إثمًا ما، بينما كانت تفكِّر في شبابها المهدور ولم تحبّذ أن تمنعنا من لهوٍ بريء. كرَّرتُ على مسمعها كي أطمئنها: «في الحادية عشرة».

استغرق الاتِّصال بستيفانو دقيقة واحدة حدًّا أقصى. وحين خرجت ليلا من كابينة الهاتف، عاد نينو إلى ذلك السؤال:

«هل أنت على ما يرام هذا المساء يا لينو؟ هلَّا أتيتما لرؤية البيت؟»

«هيَّا» حثَّني برونو، «تشربان شيئًا ما وتنصرفان».

وافقت ليلا، وأنا لم أقل شيئًا. كان بهو المبنى متهالكًا نوعًا ما، لكنّ الداخل بدا كأنَّه مستحدَث. ثمَّة خزانة بيضاء، مضاءة بشكل جيِّد، ومليئة بضروب النبيذ واللحوم المقدَّدة؛ وثمَّة سلالم رخاميَّة بسياج من الحديد المطاوع؛ وأبواب ضخمة تلمع فيها المقابض الذهبيَّة؛ ونوافذ مسدلة بستائر مذهَّبة أيضًا؛ ناهيك بالغرف الكثيرة والأرائك الصفراء والتلفاز؛ وفي المطبخ، رفوف فيروزيَّة اللون، وفي غرف النوم، خزانات تبدو كأنَّها كنائس قوطيَّة. فكَّرتُ، بوضوح للمرَّة الأولى، في أنّ برونو ثريٌّ حقًّا، أثرى من ستيفانو. وفكَّرتُ في أنّ أمِّي ستُجهِز عليَّ لكمًا وصفعًا، إذا عرفتْ أنّ الطالب نجل سوكافو ملك المرتديلَّا حاول التقرُّب منِّي، وأنَّني كنت ضيفة في بيته أيضًا، وأنَّني رفضته مرَّتين بدلًا من أن أشكر الله على هذه الهبة التي أرسلها إليّ للزواج. ومن جهة أخرى، شعرتُ بأنَّني لا أصلح لبرونو من حيث المبدأ بسبب التفكير في أمِّي ذاته، وتذكُّر ساقها الذليلة. أحسستُ بالخجل في ذلك البيت. لماذا كنت هناك؟ وما الذي أفعله؟ كانت ليلا تتصرَّف بشكل طبيعيّ، غالبًا ما

Telegram: Somrlibrary

تضحك، بينما كنت أشعر كأنَّني مُصابة بالحمّى وجفاف الفم. ورحت أُجيب بنعم دومًا كي أتجنَّب الإحراج من الإجابة بلا. هل ترغبين في هذا المشروب؟ هل ترغبين في سماع هذه الأسطوانة؟ هل ترغبين في مشاهدة التلفاز؟ هل ترغبين في المثلَّجات؟ ولم أنتبه لاختفاء نينو وليلا إلّا بعد حين، فازداد اضطرابي. أين ذهبا؟ هل من المعقول أنَّهما انعزلا في غرفة نوم نينو؟ هل من المعقول أنَّ ليلا لا تبالي بتجاوز هذا الحدِّ أيضًا؟ هل من المعقول أن... لم أشأ حتى أن أتخيَّل الأمر. انتفضتُ واقفة، وقلت لبرونو:

«تأخّر الوقت».

كان لطيفًا معي. غمغم بصوت مجروح في العمق: «ابقي قليلًا»، وقال إنَّه في اليوم التالي، سينطلق في ساعة مبكرة جدًّا، إذ كان ملزمًا بحضور حفلة عائليَّة. وصرَّح بأنَّه سيغيب عنِّي حتى الاثنين القادم، وأنّ تلك الأيَّام ستكون بمثابة تعذيب له. أمسك يدي برفق، وقال إنَّه يودُّني كثيرًا، وأضاف جملًا أخرى من هذا القبيل. سحبتُ يدي شيئًا فشيئًا، ولم يلمسني بعدها. راح يُسهب في حديثه عن مشاعره تجاهي، وهو المقلّ في الكلام في الأحوال العاديَّة، وكان من الصعب أن أقاطعه. لكنَّني في لحظة ما، استطعتُ أن أقول: «عليّ أن أنصرف حقًّا»، ثم هتفتُ بصوت مرتفع: «تعالي يا ليلا، أرجوك، فالساعة العاشرة والربع».

ظهر نينو وليلا بعد عدَّة دقائق. أوصلنا الشابَّان إلى العربة الآليَّة، وودّعنا برونو، كما لو أنَّه لن يسافر إلى نابولي لبضعة أيَّام، بل إلى أميركا لبقيَّة عمره. وفي الطريق، حدّثتني ليلا بنبرة متحمِّسة، كأنَّها تبثّ عليّ نبأً عظيمًا:

«نينو قال لي إنَّه يقدِّرك جدًّا».

Telegram: Somrlibrary

«أمّا أنا، فلا» أجبتُ بنفور على الفور. ثم همستُ: «ماذا لو حملتِ منه؟»

فهمستْ في أذني:

«لا داعي للقلق. نحن نتعانق ونتبادل القبلات لا غير».

«آه».

«وعمومًا، أنا لا أحمل».

«سبق وحملتِ ذات مرَّة».

«قلت لك إنَّني لا أحمل. هو يعرف كيف يتصرَّف».

«من هو؟»

«نينو. قد يستعمل الواقي».

«وما هو الواقي؟»

«لا أدري. هكذا يسمِّيه».

«لا تعلمين ما هو، وتثقين به؟»

«إنَّه شيء ما يوضع في الأعلى».

«في أعلى ماذا تحديدًا؟»

أردت أن أُرغمها على تسمية الأشياء بمسمّياتها. أردت أن تعي جيِّدًا ما كانت تقوله على مسمعي. في البدء، طمأنتني إلى أنَّهما يتبادلان القبلات فقط، ثم أخذت تكلِّمني عنه كرجل يعرف كيف يجنِّبها الحمل. كنت غاضبة جدًّا، وأسعى لأجعلها تشعر بالخجل من نفسها. لكنّها كانت تبدو مسرورة من كلِّ ما حدث لها، وممَّا قد يحدث. حتى إنَّها، حين وصلنا إلى البيت، عاملتْ أمَّها بإجلال، وشدَّدتْ على تذكيرها بأنَّنا عدنا قبل الساعة المحدَّدة، ثم حضّرت نفسها للنوم. لكنّها تركت باب غرفتها مفتوحًا، وحين رأتني جاهزة

Telegram: Somrlibrary

للذهاب إلى النوم، نادتني، وقالت: «ابقي هنا قليلًا، أغلقي الباب خلفك».

جلستُ على السرير، لكنَّني عمدتُ إلى الظهور في انطباعٍ يوحي لها بأنَّني ضجرتُ منها ومن تصرّفاتها.

«ماذا تريدين؟»

همستْ:

«أريد أن أنام مع نينو».

فتحتُ فمي تعجُّبًا.

«ونونتسيا؟»

«مهلًا. لا تغضبي. لم يبق سوى القليل من الوقت يا لينو. ستيفانو سيصل السبت، وسيبقى عشرة أيَّام، ثم سنعود إلى ناپولي. وسينتهي كلّ شيء».

«ماذا تقصدين بكلِّ شيء؟»

«أقصد هذه الأيَّام، وهذه الأمسيات».

تناقشنا مطوَّلًا؛ بدت لي في غاية الحماسة. قالت إنّ شيئًا من كلّ هذا لن يحدث لها في المستقبل. همستْ بأذني بأنَّها تحبّه، وترغب فيه. استخدمت هذه الصيغة تحديدًا: «الحبّ»، صيغة لم نكن نصادفها إلَّا في الروايات والأفلام، ولا أحد في الحيِّ يستخدمها؛ أنا مثلًا، كنت أقولها في سرِّي حدًّا أقصى، وكان الجميع يفضِّلون صيغة «المودَّة». أمَّا هي فلا، كانت «تحبّ». «تحبّ» نينو، على الرَّغم من أنَّها على يقين بأنّ هذا الحبّ سينتهي مخنوقًا، ولا بدَّ من قطع أنفاسه سريعًا. وكانت مستعدَّة لفعل ذلك، ابتداءً من مساء السبت المقبل. لم يكن لديها شكّ. كانت واثقة بقدرتها على ذلك، وعليّ أن أثق بها أنا

Telegram: Somrlibrary

أيضًا. غير أنَّها كانت تنوي تكريس ذلك الوقت القصير لنينو وحده.

«أرغب في أن أنام معه في سرير واحد ليلةً كاملة ويومًا كاملًا»، قالت، «أرغب في النوم وأنا أعانقه، وأقبّله متى أردتُ، وأداعبه متى أشاء، حتى إذا كان نائمًا. ثم كفى».

«مستحيل».

«عليك أن تساعديني».

«كيف؟»

«عليك أن تقنعي أمِّي بأنّ نيلا دعتنا إلى قضاء يومين في بارانو، وأنَّنا سننام هناك».

اجتاحني الصمت لوهلة. كان لديها مشروع كامل إذن، خطَّطتْ له مسبقًا. ولا بدّ من أنّ نينو ساهم فيه، وربَّما يكون قد صرف برونو لهذا الغرض تحديدًا. ومن يدري منذ متى كانا يدرسان الكيفيَّة والمكان. انتهت النقاشات عن الرأسماليَّة الجديدة والاستعمار الجديد، وعن أفريقيا وأميركا اللاتينيَّة، وعن بيكيت وبرتراند راسل. تعقّدت المسألة. لم يعد نينو يناقش في أيّ شيء. وكان رأسه، ورأسها، لا يدرسان سوى كيفيَّة خداع نونتسيا وستيفانو واستخدامي لهذا الغرض.

«أنت مجنونة» قلت لها غاضبة، «حتى لو انطلتِ الحيلة على أمّك، فإنَّها لن تنطلي على زوجك».

«ما عليك سوى أن تقنعيها بالسماح لنا بالذهاب إلى بارانو، وأنا سأقنعها بألّا تخبر ستيفانو».

«كلَّا».

«ألسنا صديقتين؟»

«كلَّا».

«ألستِ صديقة نينو؟»

«كلّا».

لكنّ ليلا كانت تعلم جيِّدًا كيف تُقحمني في شؤونها؛ وأنا بدوري لم أكن قادرة على المقاومة: من جهة، كنت رافضة قلبًا وقالبًا؛ ومن جهة أخرى، كنت أتأسَّف لكوني لم أعد أَشْغَل جزءًا من حياتها ومن مخيّلتها. ألم تكن هذه الخدعة عبارة عن إحدى طرائقها الخياليَّة المحفوفة بالمخاطر؟ أنا وهي، مرَّة أخرى، نتعاضد في النضال ضدَّ الجميع. وهكذا، كنَّا سنكرِّس اليوم التالي للتغلُّب على ممانعة نونتسيا؛ وفي اليوم اللاحق، سننطلق معًا باكرًا؛ سنفترق في فوريو: ليلا ستتَّجه إلى بيت برونو مع نينو، وأنا سأستقلّ القارب للتوجُّه إلى شاطئ مارونتي؛ وبينما ستقضي اليوم والليل كلّه مع نينو، سأنزل عند نيلا وأنام عندها في بارانو؛ وفي اليوم التالي، سأعود إلى فوريو في ساعة الغداء؛ سنلتقي عند برونو ونعود إلى المنزل. خطَّة متقنة. وكلَّما خطَّط دماغها لأدقّ تفاصيل الخدعة، تأجَّج دماغي أيضًا، فتعانقني وتتوسَّل إليّ. وها نحن الاثنتان في مغامرة جديدة، «معًا». ها نحن معًا سنقتنص من الحياة ما لا تشاء أن تهبنا إيَّاه. أم هل كنت أفضِّل أن أحرمها تلك المتعة، لأسبِّب عذابًا لنينو، فيفقدا رشديهما بشكلٍ لا يساعدهما على إدارة الرغبة بحكمة، بل قد يقعان في شَركِها؟ حتى حانت لحظة في تلك الليلة وصلتُ فيها إلى الظنّ، لشدَّة اندماجي في سلسلة أفكارها، أنَّني إذا ساندتُها في تلك العمليَّة سأضيف حلقة مهمَّة في عقد إخائنا الطويل، بل كنت سأُظهر حبّي لنينو أيضًا، وعلى الرَّغم من أنَّها كانت تقصد صداقتي بنينو، فإنَّني كنت أفكِّر محبطة في أنَّه حبٌّ، حبٌّ، حبّ. وحينذاك، قلت لها:

«حسنًا، سأساعدك».

Telegram: Somrlibrary

٦٦

في اليوم التالي، قصصتُ على نونتسيا خرافاتٍ، شعرتُ، أنا نفسي، بالعار منها. وسط الأكاذيب التي اختلقتُها، وضعتُ المعلِّمةَ أوليڤييرو، وهي التي لا أحد يعرف أيّ ظروف حرجة تمرّ فيها حينذاك في بوتينسا؛ كانت هذه فكرتي، وليست فكرة ليلا. قلت لنونتسيا: «البارحة التقيتُ نيلا إنكاردو، وقالت لي إنّ ابنة عمّها جاءت لتمضي فترة النقاهة البحريَّة عندها لعلّ وضعها الصحّي يتحسَّن كلِّيًّا. ومساء الغد، ستنظِّم نيلا حفلة للمعلِّمة، وقد دعتني أنا وليلا إليها، بما أنَّنا كنَّا أفضل تلميذاتها. ونحن نودّ تلبية الدعوة، إلَّا أنَّنا قد نتأخَّر في العودة، لذا رفضنا. لكنّ نيلا قالت إنَّ في وسعنا النوم في بيتها».

«في بارانو؟» سألتْ نونتسيا متجهِّمة.

«أجل، الحفلة ستُقام هناك».

ساد الصمت.

«اذهبي أنت يا لينو، لأنّ ليلا لا تستطيع، قد يغضب زوجها».

قالت ليلا:

«لن نخبره بهذا».

«ماذا تقولين؟»

Telegram: Somrlibrary

«أمّاه، ستيفانو في نابولي وأنا هنا، لن يعلم بالأمر أصلًا».

«الأخبار تصل بطريقة أو بأخرى».

«لا أبدًا».

«بل نعم، وهذا يكفي. لا أريد نقاشًا يا لينا. إن أرادت لينوتشا الذهاب فلها هذا، أمّا أنت فستبقين هنا».

بقينا نتكلّم ساعة كاملة، وكنت أشدِّد على أنّ المعلِّمة في حال يُرثى لها، وقد تكون الفرصة الأخيرة لنعرب لها عن امتناننا، بينما تقدَّمت ليلا من جهة أخرى: «كم من الأكاذيب اختلقتِ على والدي؟! اعترفي، ولم تكن أكاذيب بقصد السوء بل نابعة من نيَّة حسنة، كي تتمتَّعي بلحظة عابرة، أو كي تفعلي شيئًا حميدًا لم يكن ليسمح لك بفعله». وهكذا بين كرّ وفرّ، قالت نونتسيا إنَّها لم تكذب على زوجها أبدًا أبدًا؛ ثم اعترفت بكذبة واحدة، اثنتين، والكثير الكثير؛ وفي النهاية، صرخت بمزيج من الغضب والفخر الأموميّ: «ما الذي وقع حين أنجبتك؟ حادث، غصّة، تشنُّج، انقطاع الكهرباء، احتراق ضوء ما، أم سقط الحوض المليء بالماء من على الخزانة؟ لا شكّ في أنّ أمرًا ما قد وقع، فأنت لا تُطاقين، ومَختلفة جدًّا عن الأخريات». غلبها الحزن ولانت عزيمتها. وسرعان ما عادت إلى الهجوم. قالت إنّ الأكاذيب على الزوج لا تُختلق لإخفاء اللقاء بمعلِّمة. فهتفتْ ليلا: «إنَّني مَدينة لأوليفييرو بكلِّ ما أعلم، على الرَّغم من ضآلته، فأنا لم أتردَّد إلَّا إلى مدرستها». استسلمت نونتسيا؛ لكنَّها قيَّدتنا بموعد محدَّد: السبت في تمام الثانية ظهرًا، علينا أن نكون في المنزل. لن تغفر لنا نصف دقيقة من التأخير. «ماذا لو وصل ستيفانو ولم يجدك؟ أوصيك يا لينا، حذار أن تضعيني في موقف محرج. واضح؟» «واضح؟»

ذهبنا إلى الشاطئ. كانت ليلا في قمَّة الفرح، عانقتني وقبّلتني،

Telegram: Somrlibrary

وقالت إنَّها ستظلُّ ممتنَّة لي طوال حياتها. لكنَّني كنت أشعر بتأنيب الضمير من ذكر المعلِّمة أوليڤييرو وإدخالها في حفلة ما، في بارانو، وأنا أتخيَّلها في كامل صحَّتها وعطائها كما كانت في أثناء الدروس، وليس كما كانت تعاني في تلك اللحظات حقًّا، ووضعها أسوأ ممَّا بدت عليه حين رأيتهم يرفعونها إلى سيَّارة الإسعاف، وأسوأ ممَّا رأيتها في المستشفى. تبدَّد الارتياح الذي رافقني باصطناع كذبة ناجعة، وفقدتُ لذَّة التآمر، وعدتُ إلى نقمتي. تساءلتُ لماذا كنت أساند ليلا، لماذا كنت أغطِّيها: في الواقع، كانت تسعى لخيانة زوجها، وتدنيس الرباط المقدَّس للزواج. كانت تريد أن تُزيح عن كاهلها صفة الزوجة، كانت تُقْدم على فعلةٍ لو علم بها ستيفانو لهشَّم رأسها. وبغتة، عاد إلى ذهني ما أرادت فعله بصورتها، وهي في فستان العرس، وشعرتُ بألم في المعدة. وفكرتُ: إنَّها تتصرَّف الآن على النحو ذاته، لكن ليس بصورتها، بل بصفتها السيِّدة كارّاتشي. وحتى في هذه الحالة، كانت تسحبني معها لأساعدها. نينو ليس سوى أداة. أجل، أجل. مثل المقصّ والصمغ والألوان؛ تستخدمه لتشوِّه ذاتها. إلى أيِّ فعلٍ دنيء تدفع بي؟ ولماذا أدعها تدفعني؟

وجدناه ينتظرنا عند الشاطئ. سأل مرتبكًا:

«وماذا الآن؟»

فقالت له:

«هيّا».

ركضا معًا للسباحة من دون أن يدعواني، ولم أكن لأسبح، في أيِّ حال، إذ كان جسدي يقشعرّ من التوتُّر. ثم لماذا أبلِّل نفسي، وأبقى وحيدة على الشاطئ، متخوِّفة من ولوج الأعماق؟

هبّت الريح، وارتسمت خيوط السحاب في السماء، واهتاج البحر

Telegram: Somrlibrary

قليلًا. غطسا بلا تردُّد، وصاحت ليلا طويلًا من شدَّة فرحتها. كانا سعيدين، مشحونين بقصَّتهما، وكان عنفوانهما يوحي بأنَّهما يحصلان على ما يريدان بنجاح باهر، مهما كلَّفهما الثمن. وسرعان ما تلاشيا في غمرة الأمواج، بحركات رياضيَّة متقنة.

شعرتُ بأنَّني مذعنة لشروط صداقة لا تُحتمل. يا لتشابك المسألة! كنت أنا من دفع ليلا إلى الذهاب إلى إيسكيا، وكنت أنا من استخدمها للحاق بنينو، بلا أمل يُرجى أساسًا. تخلَّيتُ عن الراتب والعمل في مكتبة موتسيكانوني، ورضيتُ بالمال الذي كانت تعطيني إيَّاه. كرّستُ نفسي لخدمتها، وكنت حينذاك كالخادمة التي تساند سيِّدتها. كنت أغطِّي فسقها؛ وأحضِّر لها الفجور. وأساعدها للحصول على نينو، لتأخذه عوضًا عنِّي، لتزني معه ـ أجل، تزني ـ ويضاجعها يومًا وليلة، وربّما تنفخ في نايه أيضًا. بدأ صدغاي ينبضان بشدَّة. ضربتُ الرمال مرَّة واثنتين وثلاثًا بكعب قدميّ، وتلذَّذتُ بأصداء مفردات الطفولة، تجول في رأسي، مشحونة بتخيُّلات جنسيَّة مضطربة. اختفت معالم المدرسة الثانويَّة، واختفى معها رنين الكتب، والترجمات من الإغريقيَّة واللاتينيَّة. صوَّبتُ نظري إلى البحر البرَّاق، إلى جمع البيوت الداكنة البعيدة، التي تصعد في آخر المدى نحو زرقة السماء، نحو سراب القيظ الأبيض، وبالكاد رأيتهما، نينو وليلا، يبدوان كنقطتين غامقتين. ولم أفهم إذا كانا يتقدَّمان نحو الغيوم المتلبِّدة في الأفق، أم يعودان إلى الخلف. تمنَّيتُ أن يغرقا، وأن يحرم الموت كليهما أفراحَ الغد.

Telegram: Somrlibrary

٦٧

سمعتُ أحدًا يناديني، فالتفتُّ مذعورة.

«لم يخيِّبني البصر إذن»، قال صوتٌ ذكوريٌّ بامتعاض.

«قلت لك إنَّها هي»، أجابه صوت أنثويّ.

عرفتُهما على الفور، فنهضتُ. كانا ميكيلي سولارا وجيليولا، يصحبهما شقيقها الصبيّ ذو الاثني عشر عامًا، ويُدعى ليلو.

رحَّبتُ بقدومهم، مع أنَّني لم أدعُهم إلى الجلوس. وكنت آمل أن يكونوا مستعجلين لسبب ما، فينصرفوا حالًا. لكنّ جيليولا بسطت منشفتها بعناية على الرمل، ومنشفة ميكيلي، ووضعت فوقها الحقيبة والسجائر والولَّاعة، وقالت لأخيها: استلقِ على الرمال الدافئة، ثيابك مبلَّلة وقد تُصيبك هذه الرياح بالزكام. ما العمل؟ أرغمتُ نفسي على عدم النظر صوب البحر، بحيث لا يخطر في بالهما النظر إلى هناك؛ وأعرتُ ميكيلي اهتمامًا مفرطًا، فإذا به يتكلَّم بنبرته المتبجِّحة عديمة العواطف. كان قد سمح لنفسه، ولها، بيوم عطلة، وكان الجوّ حارًّا جدًّا في نابولي. فقرَّرا ركوب قارب في الصباح، وقارب في المساء، لينعما بالهواء المنعش. وتركا المحلّ في ساحة الشهداء في عهدة بينوتشا وألفونسو، بل ألفونسو وبينوتشا، لأنَّها (أي بينوتشا) لم تكن

Telegram: Somrlibrary

تبذل أيّ جهد، في حين اتَّضح أنَّ ألفونسو يُحسن العمل جيِّدًا. وكانت بينا هي التي نصحتهما بالمجيء إلى فوريو. ستجدانهما، قالت لهما، ما عليكما سوى السير على الشاطئ. وبالفعل، سارا هناك حتى صرخت جيليولا: أليست تلك لينوتشا؟ وها نحن هنا. كرَّرتُ «يا لسعادتي برؤيتكما» أكثر من مرَّة، بينما كان ميكيلي يرفع قدمه المتَّسخة بالرمل شاردًا في جلسته على منشفة جيليولا، فتوبِّخه: «انتبه، انتبه»، لكن عبثًا. الآن، وقد انتهت حكاية مجيئهما إلى إيسكيا، كان السؤال الحقيقيّ آتيًا، وكنت أعلم ذلك؛ قرأته في عينيه قبل أن يصوغه بالكلمات:

«أين لينا؟»

«تسبح».

«تسبح والبحر هائجٌ هكذا؟»

«ليس هائجًا جدًّا».

وكان من الطبيعيّ أن يلتفتا لينظرا إلى البحر المعبّأ بالزبد المرتفع. لكنَّهما وجّها نظرة سارحة، فكانا مستلقيين على المنشفة. تشاجر ميكيلي مع الصبيّ، لأنَّه أراد أن يسبح مجدَّدًا. «ابق هنا» قال له، «هل تريد أن تموت غرقًا؟» وضع في يديه قصَّة مصوَّرة، وقال لخطيبته: «لن نصحبه معنا مجدَّدًا».

أمطرتني جيليولا بالتهاني:

«كم تبدين جميلة! اسمرّت بشرتك، وأصبح لون شعرك داكنًا».

ابتسمتُ ونفيتُ، ولم أكن أفكِّر إلَّا في كيفيَّة إبعادهم من هناك.

«تعالوا للاستراحة في المنزل» قلت، «نونتسيا هناك، وستكون سعيدة برؤيتكم».

Telegram: Somrlibrary

رفضا، فالمركب سينطلق بعد ساعتين، وكانا يفضِّلان البقاء تحت الشمس أطول مدَّة ممكنة، ثم التنزُّه في ما بعد.

«فلنذهب إلى الكشك إذن، لنشرب شيئًا ما» قلت.

«أجل، فلننتظر لينا أوّلًا».

وكعادتي في المواقف الحرجة، شرعتُ أمحو الوقت بالكلمات، وانطلقتُ بوابل من الأسئلة. كلّ ما لمع في رأسي: كيف حال سبانيولو الحلوانيّ؟ كيف حال مارتشيلُّو؟ وهل ارتبط بفتاة ما؟ وما رأي ميكيلي في تصاميم الأحذية الجديدة؟ وما رأي والده فيها؟ وما رأي أمِّه؟ وما رأي جدِّه؟ ثم نهضتُ قائلة: «سأنادي لينا»، واتَّجهتُ صوب مضرب الأمواج وأخذتُ أصرخ: «عودي يا لينا، ميكيلي وجيليولا هنا»، لكن هيهات! لم تكن تسمعني. عدت إلى الخلف، واستعدت خيط الثرثرة كي أشوِّش عليهما. كنت آمل أن يتنبَّه نينو وليلا، حين عودتهما إلى الشاطئ، للخطر، قبل أن يسلِّط ميكيلي وجيليولا النظر عليهما، فيتجنَّبا أيّ ملامسة حميميَّة أمامهما. لكنْ، بينما كانت جيليولا تصغي إليّ، لم يتحلّ ميكيلي بالتربية الصالحة ليتظاهر على الأقلّ بأنَّه يسمعني. كان قد جاء عمدًا إلى إيسكيا ليلتقي ليلا، ويتكلَّم معها بشأن الأحذية الجديدة. كنت متأكِّدة من هذا، وكان يرمي بنظرات طويلة نحو البحر الذي تصاعد هيجانه.

في النهاية رآها. رآها تخرج من المياه، تشبك يدها بيد نينو. كانا ثنائيًّا من الصعب تجاهله، كلاهما طويل القامة. أنيقان في طبيعتيهما، وكتفاهما متلاصقتان ويتبادلان الابتسامات. كان أحدهما هائمًا بالآخر، إلى درجة أنَّهما لم ينتبها إلى أنَّني لم أكن بمفردي. وحين رأتْ ليلا ميكيلي سحبت يدها من يد نينو، لكنّ الوقت تأخَّر على الاستدراك. ربَّما لم تنتبه جيليولا لشيء، وشقيقها كان يقرأ القصَّة

Telegram: Somrlibrary

المصوَّرة؛ أمَّا ميكيلي، فقد رآها، والتفت لينظر إليّ كما لو أراد أن يقرأ في وجهي تأكيدًا لما رآه بأمّ عينه. ولا بدّ من أنَّه رآني مذعورة. قال بجدِّيَّة، وبصوت بطيء يستخدمه حين يواجه أمرًا يتطلَّب منه قرارًا سريعًا:

«عشر دقائق، نودِّعها وننصرف».

وفي الواقع، بقيا أكثر من ساعة. عندما سمع ميكيلي كنية نينو، حين قدمّته إليه بصفته زميلنا في المدرسة الابتدائيَّة وزميلي في الثانويَّة، طرح عليه أكثر الأسئلة إزعاجًا:

«هل أنت ابن الصحافيّ الذي يكتب في «روما» و«ناپولي نوتي»؟»

أومأ نينو بإيجاب على مضض، وظلّ ميكيلي يحدِّق إليه لحظات طويلة، كما لو أراد أن يكتشف تلك القرابة بالنظر إلى عينيه. ثم لم يعد يتكلَّم معه، بل تحدَّث مع ليلا فقط.

رحَّبت ليلا بهم، وكانت ساخرة ولئيمة نوعًا ما. قال لها ميكيلي:

«شقيقك المغرور يدَّعي أنَّه صاحب أفكار التصاميم الجديدة».

«إنَّها الحقيقة».

«ولهذا، تبدو الأحذية قميئة».

«سترى كيف تغزو هذه الأحذية القميئة السوق أفضل من سابقاتها».

«ربَّما، شرط أن تأتي أنتِ إلى المحلّ».

«لديك جيليولا، وهي ماهرة في عملها».

«أحتاج إليها في المقهى».

«هذا شأنك إذن، فأنا عليّ البقاء في الملحمة».

«سترين كيف تنتقلين إلى ساحة الشهداء، يا سيِّدة. ستكون البطاقة البيضاء تحت تصرُّفك».

Telegram: Somrlibrary

«بطاقة بيضاء، أم بطاقة سوداء. انزع الفكرة من رأسك، فأنا على ما يرام في الملحمة».

وهلمّ جرًّا. كان يبدو أنَّهما يقرعان الطبول بالكلمات. حاولنا أنا وجيليولا أن نقول شيئًا بين الحين والحين، ولاسيّما جيليولا التي كانت غاضبة من خطيبها، وهو يتكلَّم على مصيرها من دون حتى أن يستشيرها. أمَّا نينو، فقد انتبهتُ إلى أنَّه كان سارحًا، أو ربّما معجبًا بجسارة ليلا، وقدرتها على إيجاد الكلمات الملائمة للردّ على كلمات ميكيلي بالعامِّيَّة.

وأخيرًا، صرّح سولارا الشابّ بأنَّه ينوي الانصراف، وكانت لديهم مظلَّة في البعيد مع أغراضهم الأخرى. ودَّعني، وودَّع ليلا بحرارة، وهو يكرِّر أنَّه سيكون في انتظارها في المحلّ ابتداءً من سپتمبر. وحين اقترب من نينو، قال له بجدِّيَّة، كما لو كان مرؤوسًا يأمره بالذهاب لشراء علبة من السجائر الوطنيَّة:

«قل لأبيك إنَّه أخطأ حين عبَّر عن عدم إعجابه بأثاث المحلّ. عندما يتقاضى المال، عليه أن يقول إنَّ كلّ شيء جميل، وإلَّا فلن يرى قرشًا واحدًا».

صُعق نينو من هول المفاجأة، أو ربّما من المذلَّة، ولم يردّ. مدَّت جيليولا يدها إليه، فصافحها بعفويَّة. وابتعد الخطيبان، ومعهما الصبيّ الذي تابع قراءة القصَّة وهو يسير.

٦٨

كنت غاضبة ومذعورة، ومستاءة من كلّ كلماتي وحركاتي. ما إن ابتعد ميكيلي وجيليولا بما فيه الكفاية، حتى قلت لليلا، وأسمعتُ نينو أيضًا:

«لقد رآكما».

سأل نينو ممتعضًا:

«مَن هذا؟»

«مافياويٌّ خرائيٌّ يحسب نفسه سيِّد السادة»، قالت ليلا باشمئزاز.

فصحَّحتُ لها على الفور، إذ كان لا بدّ لنينو من أن يعرف مَن يكون:

«إنَّه شريك زوجها، وسينقل كلّ شيء إلى ستيفانو».

«ماذا تقصدين بكلِّ شيء؟» انفعلت ليلا، «لا شيء لينقله».

«تعلمين جيِّدًا بأنَّه سوف يَشي بك».

«حقًّا؟ ومن يكترث لهذا؟»

«أنا».

«صبرًا إذن. في كلِّ الأحوال، ستجري الأمور على ما يرام، من دون مساعدتك أيضًا».

وكأنَّني لم أكن موجودة، راحت تتَّفق مع نينو للغد. لكنْ، في

Telegram: Somrlibrary

حين أنّ طاقاتها تضاعفت بسبب لقائها بميكيلي تحديدًا، بدا نينو دميةً مقطوعة الحبال. غمغم قائلًا:

«هل أنت متأكِّدة من أنَّك لا تعرِّضين نفسك للخطر بسببي؟»

حَنَتْ ليلا على خدِّه بلمسة:

«لم تعد ترغب فيَّ؟»

وكأنَّ تلك اللمسة أحيته من جديد:

«لست إلَّا قلقًا بشأنك».

تركناه وعدنا إلى المنزل. وفي الطريق، أخذتُ أعرض عليها أسوأ السيناريوهات الكارثيَّة: «مساء اليوم، سينقل ميكيلي إلى ستيفانو كلّ ما رآه، وستيفانو سيهرع إلى هنا صباح الغد، لن يجدك في المنزل، ونونتسيا سترسله إلى بارانو، ولن يجدك حتى في بارانو، ستخسرين كلّ شيء يا ليلا، أصغي إليّ جيِّدًا، لن تقضي على نفسك فحسب، بل ستقضين عليّ أيضًا. أمّي ستهشّم عظامي». لكنّها اكتفت بالإصغاء سارحة، وتبسَّمت، وقالت لي مفهومًا واحدًا بعدّة صياغات: إنَّني أكنّ لك كلّ الخير يا لينو، وسأظلّ هكذا دومًا؛ لذا أتمنَّى لك أن تجرِّبي ولو مرَّة واحدة في حياتك ما أجرِّبه في هذه اللحظة.

قلت في سرِّي: افعلي ما شئت بنفسك. بقينا في المنزل مساءً. وكانت ليلا لطيفة مع والدتها، حضّرت العشاء بنفسها، وأرادت أن تخدمها، فقد نظَّفت الطاولة، وغسلت الأطباق، ووصل بها المطاف إلى الجلوس في حضنها. عانقتها طويلًا، وأسندت جبينها إلى جبين أمِّها، كأنَّ الشوق باغتها. أمَّا نونتسيا، التي لم تكن معتادة على تلك الملاطفات، فاستغربت الأمر برمَّته وانفجرت باكية، وقالت لها، بين الدمعة والأخرى، جملة بصوتٍ يجهش اضطرابًا:

«أرجوك يا لينا، إنَّك ابنة تحلم بها كلّ الأمَّهات، لا تجعليني أموت كمدًا».

Telegram: Somrlibrary

سخرت منها ليلا بودٍّ، ورافقتها إلى النوم. وفي الصباح، جاءت بنفسها لتسحبني من السرير، وكان جزءٌ منّي يعاني إلى درجة أنّه لا يريد الاستيقاظ لمباشرة ذلك النهار. وبينما كانت العربة الآليَّة تُقلُّنا إلى فوريو، عرضتُ عليها سيناريوهات كارثيَّة أخرى لم تأبه بها البتَّة: «نيلا سافرت»؛ «نيلا لديها ضيوف حقًّا، وليس لديها مكان شاغر لي»؛ «عائلة سارّاتوري قرَّرت أن تأتي إلى فوريو لزيارة نينو». كانت ليلا تردُّ بنبرة ممازحة: «إذا سافرت نيلا، تستقبلك والدة نينو»؛ «إذا لم يكن ثمَّة مكان شاغر، تعودين وتنامين عندنا»؛ «إذا طرق كلّ آل سارّاتوري باب برونو، فلن نفتح لهم». وهكذا حتى وصلنا إلى وجهتنا، قبل التاسعة بقليل. كان نينو على النافذة ينتظرنا، هرع ليفتح البوَّابة. وأشار إليّ بتحيَّة ثم سحب ليلا إلى الداخل.

بعد تلك اللحظة، بات أيّ محظور مسموحًا، لا يُكبَح له جماح، خلف البوَّابة. استقللتُ العربة الآليَّة نفسها، واتَّجهتُ إلى بارانو، على نفقة ليلا. وفي الطريق، أدركتُ أنَّني لا أقوى على أن أحقد عليهما حقًّا. كنت أشعر بالنقمة تجاه نينو، ولديّ مشاعر قاسية تجاه ليلا بالتأكيد، بل قد أتمنَّى الموت لكليهما، ثم بسحر ساحر ننجو نحن الثلاثة. لم أكن أحقد عليهما، بل على نفسي بالأحرى، أشمئزُّ من نفسي. كنت هناك على ظهر الجزيرة، ينفحني الهواء الذي يدوِّره المحرِّك، حاملًا معه روائح النباتات الزكيَّة التي بخَّرها الليل. لكنَّني لم أكن سوى طيفٍ مقهورٍ تتقاذفه أهواء الآخرين. كنت أعيش فيهم، ومن خلالهم. حتى إنَّني لم أقوَ على عدم تصوّر عناقهما وقبلاتهما في ذلك البيت الخاوي. كان شغفهما يجتاحني ويعذِّبني. وكنت أحبّ كليهما، ولهذا السبب لم أستطع أن أحبّ نفسي، أو أن أثبت على نفسي، وأن أشعر بضرورةٍ «خاصَّة بي» تدفعني إلى خوض الحياة بالقوَّة العمياء والصمّاء التي يتمتَّعان بها. كان يبدو لي الأمر هكذا.

Telegram: Somrlibrary

٦٩

استقبلتني نيلا، وعائلة سارّاتوري، بترحيب معتاد. وضعتُ على وجهي القناع الأكثر بشاشة؛ قناع والدي حين يهمّ بجمع الإكراميَّة؛ القناع الذي ارتداه أجدادي لتجنُّب المخاطر، إذ لطالما كانوا متضرِّعين وخانعين، يُظهرون كامل طيبتهم. ورحت أنتقل من كذبة إلى أخرى بخفّة ظلّ. قلت لنيلا إنّ الاضطرار دفعني إلى إزعاجها، ولم يكن خيارًا، وإنّ ضيوفًا قد نزلوا عند كارّاتشي، ولم يعد لديّ مكان أهجع إليه في تلك الليلة. وأضفتُ: آمل ألّا أكون ضيفة ثقيلة الظلّ تأتي بلا موعد؛ وإن كان ثمَّة صعوبة ما، فكنت سأعود إلى ناپولي بضعة أيَّام.

عانقتني نيلا، وعرضت عليّ الطعام وهي تقسم إنّ وجودي في بيتها يزيدها سرورًا. رفضتُ الذهاب إلى البحر مع عائلة سارّاتوري، على الرَّغم من احتجاج الأطفال. أصرَّت ليديا على أن ألحق بهم، وصرَّح دوناتو بأنَّه سينتظرني لنسبح معًا. بقيتُ مع نيلا، ساعدتُها في ترتيب المنزل وتحضير الغداء. كنت أهجس بما سيحدث، وفي الوقت ذاته أخفِّف قليلًا من وطأة هذه الهواجس: تخيُّل الفجور الذي كان يحدث حينذاك؛ تواطُئي؛ وغيرةٌ لم أقوَ على تعريفها، لأنَّني كنت أشعر بغيرة مزدوجة: من ليلا التي وهبت نفسها لنينو، ومن نينو الذي وهب

Telegram: Somrlibrary

نفسه لليلا. وبدا من كلام نيلا أنَّها لم تعد ناقمة من ضيوفها. قالت إنّ الزوج والزوجة توصَّلا إلى توازن ما؛ وكلَّما كانا على ما يرام، حصلتْ على راحة البال. حدّثتني عن المعلِّمة أوليڤييرو: كانت قد اتَّصلت بها لتخبرها بأنَّني جئت لزيارتها، ولاحظتْ أنّ المعلِّمة لا تزال متعبة، لكنّها أكثر تفاؤلًا. في المحصِّلة، مرَّت مدَّة قصيرة نعمتُ فيها بالهدوء خلال تدفُّق الأخبار. لكنَّني ما لبثتُ أشعر بثقل المسؤوليَّة التي حملتها على عاتقي، وأحسّ بعبئِها مجدَّدًا، وبقوَّة أكبر، من خلال جمل قصيرة وانحراف غير متوقَّع.

«لقد مدحَتْكِ كثيرًا» قالت نيلا وهي تتكلَّم على أوليڤييرو، «لكّنها ما إن علمت بأنَّك جئت لزيارتي مع صديقتيك المتزوِّجتين حتى أمطرتني بالأسئلة، وخصوصًا عن السيِّدة لينا».

«ماذا قالت؟»

«قالت إنَّها لم تحظَ بتلميذة شاطرة مثلها، خلال كلّ مسيرتها التعليميَّة».

أزعجتني ذكرى الثناء القديم لليلا.

«هذا صحيح»، اعترفتُ.

لكنّ نيلا تأفَّفتْ بما يدلُّ على عدم موافقتها، وقدحت عيناها.

«ابنة عمّي معلِّمة استثنائيَّة» قالت، «ومع هذا، فقد أخطأتْ هذه المرَّة».

«لا، لم تخطئ».

«هل في إمكاني أن أبوح لك بما أفكِّر؟»

«بالتأكيد».

«لن يؤسفك، أليس كذلك؟»

«لا».

«لم تعجبني السيِّدة لينا. إنَّك أفضل منها بكثير، وأجمل منها وأذكى. تحدَّثتُ بهذا الأمر مع عائلة سارّاتوري أيضًا، ووافقوني الرأي».

«تقولون هكذا، لأنّ لي عندكم معزّة خاصَّة».

«لا. حذار يا لينو. أعلم بأنَّكما صديقتان حميمتان، أخبرتني ابنة عمّي بهذا. ولا أريد أن أُقحم أنفي في شؤون لا تخصّني. لكنْ تكفيني نظرة واحدة كي أحكم على الأشخاص. السيِّدة لينا تعلم بأنَّك أفضل منها، ولهذا لا تودّك كما تودّينها».

ابتسمتُ متظاهرة بالتوجُّس.

«هل تريد بي شرًّا؟»

«لا أعلم. لكنّها ضليعة في صنع الشرّ، وهذا مكتوب على وجهها، يكفي أن تنظري إلى جبينها وعينيها».

هززتُ رأسي، ولجمتُ ارتياحي. آهٍ لو كان كلّ شيء بهذا الوضوح. لكنَّني كنت أعرف منذئذ، بإحاطة أقلّ من الآن، أنّ ما بيننا شائكٌ ومعقّد. أخذتُ أمزح وأضحك، وأضاحك نيلا. قلت لها إنَّ ليلا لا تعطي انطباعًا حسنًا من الوهلة الأولى. وكانت منذ طفولتها تبدو كالشيطان، وكان هذا صحيحًا، لكنْ بالمعنى الإيجابيّ. كان ذكاؤها خارقًا، وتنجح في تطبيق أيّ شيء يقع بين يديها: لو أنَّها استطاعت إكمال دراستها لغدت عالِمة مثل مدام كوري، أو روائيَّة فذّة مثل جراتسيا ديليدا، بل ربَّما مثل نيلدا إيوتّي، أو السيِّدة تولياتّي. وحين سمعت نيلا الاسمين الأخيرين، صاحت: يا سيِّدتنا العذراء! وصلّتْ بإشارة الصليب ساخرةً. ثم انتابتها ابتسامة خبيثة، وأتبعتها بأخرى، ولم تعد قادرة على كتم ضحكتها. أرادت أن تهمس في أذني

Telegram: Somrlibrary

عن أمرٍ سرّيٍّ مثيرٍ للضحك أخبرها به سارّاتوري. بالنسبة إليه، كان جمال ليلا قبيحًا. جمالٌ يسحر الرجال، لكنّهم يخشونه كثيرًا.

«أيُّ خوف؟» سألتُها بصوت خفيض. فأجابتني بصوت أكثر انخفاضًا:

«الخوف من ألّا يعمل القضيب، أو قد يقع، أو قد تسحب سكّينًا وتقطعه».

ضحكتْ، وبدأ صدرها يرتجّ، وعيناها تفيضان بالدموع. ولم تستطع أن تتمالك نفسها، وسرعان ما استبدّ بي استياءٌ لم أشعر به من جانبها من قبل. لم تكن ضحكتها كضحكة والدتي، أي الضحكة السفيهة التي تصدر عن المرأة العارفة. في ضحكة نيلا ثمَّة عفَّةٌ وسماجة في آن واحد؛ كانت ضحكتها ضحكة عذراء طاعنة في السنّ، ضحكةً حاصرتني ودفعتني إلى الضحك أنا أيضًا، لكن على مضض. كيف لامرأة طيِّبة مثلها أن تلهو على هذا النحو؟ تساءلتُ، بينما أرى نفسي أشيخ بتلك الضحكة، التي تعبِّر عن نقاوة نفسٍ خبيثة... سينتهي بي المطاف إلى ضحكة مماثلة.

٧٠

عادت عائلة سارّاتوري في ساعة الغداء، تفوح من أفرادها رائحة البحر والعرق. وتركوا على الأرض أذيالًا من الرمل؛ وعاتبني الصغار، لأنَّهم انتظروا وصولي بلا جدوى. حضّرتُ المائدة، ثم نظَّفتها وغسلتُ الأطباق، وتبعتُ بينو وكليليا وشيرو إلى حدود حقلٍ من القصب كي أساعدهم في قطع القصب وصنع طائرة ورقيّة. انتابني السرور لوجودي مع الأطفال. بينما كان والداهما يستريحان، ونيلا تغطُّ في قيلولة على الأريكة في الشرفة. مرّ الوقت سريعًا، وانشغلتُ بالطائرة كلِّيًّا، حتى إنَّني لم أفكِّر في نينو وليلا أبدًا.

وفي وقت متأخِّر من الظهيرة، ذهبنا إلى البحر لنجرِّب الطائرة، أتت معنا نيلا أيضًا. ركضتُ إلى الأمام وإلى الخلف على طول الشاطئ، يتبعني الأطفال كأنَّهم أُصيبوا بالبكم انبهارًا بتلك الطائرة وهي تحلِّق، ثم يطلقون صيحات طويلة حين يرونها ترتطم بالرمل بعد استدارة سريعة. حاولتُ عدَّة مرَّات، ولم أفلح في جعلها تطير جيِّدًا، على الرَّغم من تعليمات دوناتو التي كان يصرخ بها من تحت المظلَّة الكبيرة. استسلمتُ في النهاية، وأنا أتصبَّب عرقًا، وقلت للأطفال: «اطلبوا مساعدة أبيكم». فجاء سارّاتوري وأبناؤه يدفعونه، وتفحّص

Telegram: Somrlibrary

دواليب القصب، والورق الأزرق الشفَّاف، والحبل، ثم درس اتِّجاه الريح وراح يركض إلى الخلف، بقفزات حيويَّة على الرَّغم من جسمه الثقيل. وراح الأطفال يركضون إلى جانبه، متَّقدين بالحماسة، فتشجَّعتُ أنا أيضًا وركضتُ خلفهم، فإذا بهم يشحنونني بسعادةٍ تتدفَّق منهم. وأخذت طائرتنا تحلِّق في الأعالي، حتى لم نعد في حاجة إلى الركض، واقتصر الأمر على إمساك الحبل جيِّدًا. كان سارّاتوري أبًا رائعًا. أثبت بمساعدته لأبنائه، أنّ حتى شيرو الصغير قادر على قيادة الطائرة بالحبل، وكليليا وبينو، وأنا أيضًا. أعطاني الحبل فعلًا، وظلّ واقفًا خلفي، حتى شعرتُ بأنفاسه تلفح رقبتي، وهو يقول: «هكذا. شدّي قليلًا. أرخي. ممتاز»، إلى أن حلَّ المساء.

تناولنا العشاء، وخرجت عائلة سارّاتوري للتنزُّه في البلدة، الزوج وزوجته وأبناؤهما الثلاثة، وقد سمَّرت الشمس بشرة كلٍّ منهم، وارتدوا أجمل ما عندهم من ملابس. وبقيتُ مع نيلا، على الرَّغم من أنَّهم ألحُّوا على دعوتي إلى الخروج معهم. رتَّبنا المنزل، وساعدتني في تركيب السرير عند الزاوية المعتادة من المطبخ، وجلسنا في الشرفة لننعم بالهواء المنعش. لم يكن القمر حاضرًا، وفي ظلمة السماء ثمَّة غيومٌ بيضاء متلبِّدة. تكلَّمنا على ذكاء أبناء سارّاتوري، ثم هجعت نيلا. وارتخى جسمي على حين غرَّة، بعد أن همد جهد ذلك النهار، وتلك الليلة التي أوشكت للتوّ. لكنَّني خرجتُ من المنزل على رؤوس أصابعي، واتَّجهتُ نحو شاطئ مارونتي.

من يدري إن وشى ميكيلي سولارا بما رأى؟ من يدري إن كانت الأمور تسير على ما يرام؟ ومن يدري إن كانت نونتسيا تنام في ذلك المنزل عند شارع كوتو، أم أنَّها كانت تهدِّئ روع صهرها الذي فاجأها بوصوله مستقلًّا المركب الأخير، ولم يجد زوجته فجنّ جنونه؟ ومن

Telegram: Somrlibrary

يدري إن كانت ليلا قد اتَّصلت بزوجها، واطمأنَّت إلى أنَّه في ناپولي، بعيدًا عنها، في الشقَّة في الحيِّ الجديد، وكانت حينئذ في سرير الهوى تعانق نينو، بلا خوف، كثنائيّ سرِّيّ يسعى للتمتُّع بتلك الليلة؟ كلّ شيء في العالم مدانٌ بالتخبُّط، ويخوض أسوأ المخاطر، ومن لا يقبل بخوض المخاطر، فما عليه إلَّا أن يتكوَّر على نفسه في إحدى الزوايا، وألَّا يثق بالحياة. وهكذا، أدركتُ لماذا لم أحظَ بنينو، ولماذا حظيت به ليلا. لم أكن قادرة على الوثوق بالمشاعر الحقيقيَّة. لم أستطع تجاوز الحدود. لم أمتلك تلك القدرة العاطفيَّة التي دفعت ليلا إلى فعل أيِّ شيء، كي تستمتع بذلك النهار وتلك الليلة. أنا، كنت أبقى في الخلف، واقعة في شرك الانتظار. أمَّا هي، فكانت تنقضّ على الأشياء، تتطلَّع إليها حقًّا، وتستعر شغفًا بها؛ تقامر بكلِّ شيء أو لا شيء، ولم تكن لتهتمّ بأيِّ احتقار أو ازدراء أو عقوبة قاسية. في المحصِّلة، كانت تستحقّ نينو، لأنَّها تعتقد أنَّ الحبّ يعني أن تحاول الاستحواذ على قلب من تحبّ، لا أن تتمنَّى أن يرغب فيها هو.

نزلتُ الدرب المظلم كلّه، ورأيتُ القمر بين غيوم قليلةٍ، حوافّها فاتحة اللون؛ وكان المساء معطَّرًا، وكنت أسمع صوت ارتطام الأمواج الرتيب حتى النعاس. نزعتُ حذائي على الشاطئ. كانت الرمال باردة، وهنالك نور رماديٌّ لازورديٌّ يصل إلى البحر حتى ينبسط على آفاقه المضطربة. قلت لنفسي: أجل، ليلا محقّة، جمال الأشياء مزيَّف، والسماء عرش الخوف؛ إنَّني حيَّة الآن، على بعد عشر خطوات عن المياه، وهذا ليس بالأمر الجميل إطلاقًا، بل إنَّه مثير للرهبة؛ إنَّني جزء من هذا الشاطئ، وذلك البحر، واحتشاد الكائنات الحيَّة، والرهبة الكونيَّة؛ في هذه اللحظة، لست إلَّا إحدى الجزيئات متناهية الصغر التي توقظ الذعر من أيِّ شيء؛ أنا التي تصغي إلى صوت البحر،

Telegram: Somrlibrary

وتشعر بالرطوبة وبرودة الرمل؛ أنا التي تتخيَّل جزيرة إيسكيا كلّها، وما فيها، ومَنْ فيها، من جسدي نينو وليلا الجذّابين، وستيفانو الذي ينام وحيدًا في بيته الجديد، والغضب الذي يحوِّل سعادة اليوم إلى عنف الغد. آه، هذا صحيح، إنَّني خائفة جدًّا؛ ولهذا آمل أن ينتهي كلّ شيء في أقصى سرعة، وأن تنهش أشباح الكوابيس روحي. أتمنَّى أن تخرج من هذا الظلام قطعان من الكلاب الضارية، وعفاريت وعقارب ضخمة وأفاعٍ مائيَّة عملاقة. أتمنَّى أن يصل مجرمو الليل وأنا جالسة هنا، عند الشاطئ، ليمزِّقوا جسدي إربًا. أجل، أجل، فليعاقبوني على اختلالي، فلأواجه أسوأ الاحتمالات، فلتحدث لي كارثةٌ تمنعني من مواجهة تلك الليلة والغد والساعات والأيَّام التي ستأتي لتثبت عدم جدارتي، ببراهين دامغة لا غبار عليها. هذه هي الأفكار التي راودتني حينها، أفكار شنيعة لفتاة يائسة؛ وسرحتُ لمدَّة طويلة. فإذا بأحد ما يقول: «لينو»، ولمس كتفي بأصابعه الباردة. جفلتُ، وعصر الذعر فؤادي، حتى استدرتُ بانتفاض لأرى دوناتو سارّاتوري. انفجرت الأنفاس في حلقي، كأنَّني أزدرد جرعة سحريَّة، كتلك التي تبعث الطاقة والإصرار على الحياة في قصائد الشعر الملحميَّة.

Telegram: Somrlibrary

٧١

قال لي دوناتو إنّ نيلا استيقظت ولم تجدني، فقلقت عليَّ. وليديا توجّستْ أيضًا، فطلبتْ منه الخروج للبحث عنّي. وكان هو الوحيد الذي لم يستغرب عدم وجودي في المنزل. لذا طمأن المرأتين قائلًا: «اخلدا إلى النوم، لا بدّ من أنّها خرجت لتستمتع بمشاهدة القمر من على الشاطئ». لكنّه خرج ليستكشف، لإرضائهما من جهة، وليثبت ما قاله من جهة أخرى. وبالفعل، هأنذا، جالسة أصغي إلى أنفاس البحر، وأتمعّن في السماء ذات الجمال الإلٰهيّ.

قال هذا تقريبًا، وجلس إلى جانبي، وغمغم بأنّه يعرفني جيّدًا كما يعرف نفسه. إذ لدينا الحساسيَّة نفسها إزاء الأشياء الجميلة، والحاجة نفسها إلى التمتُّع بذلك الجمال، والضرورة نفسها للبحث عن كلمات مناسبة تصف حلاوة الليل وسحر القمر وبريق البحر، وتصف قدرة روحينِ على اللقاء في الأجواء العطرة، بحيث تتعرَّف الروح إلى الأخرى بسهولة مهما حلك الظلام. وبينما كان يتحدَّث، أدركتُ بوضوح كم كان مثيرًا للسخرية وهو ينطق بصوت مهذَّب، ويصقل كلامه بشاعريَّة مبتذلة، ويميل إلى النبل إخفاءً لشهوانيَّته التي تغويه بوضع يديه على جسدي. لكنَّني فكَّرتُ: لعلَّنا نحن الاثنين مخلوقان

Telegram: Somrlibrary

من الطينة نفسها حقًّا، وربَّما كنَّا محكومين بزيف مطابق من دون أن نرتكب إثمًا. وهكذا، أسندتُ رأسي على كتفه، وغمغمتُ: «أشعر بالبرد». وسرعان ما أحاط خصري بذراعه، وضمّني إليه أكثر، وهو يسألني إن كنت على ما يرام هكذا. فأجبتُه: «نعم»، وتنهّدتُ، فرفع سارّاتوري وجهي بسبَّابته وإبهامه، وطوى شفتيّ بشفتيه برفقٍ وسأل: «كيف تشعرين هكذا؟». ثم هاجمني بقبلاتٍ خفيفة تزداد رقّة، وهو يواصل الغمغمة: «وهكذا؟ وهكذا؟ هل تشعرين بالبرد الآن؟ هل أنت بخير هكذا؟». كان فمه دافئًا ورطبًا، وقد لثمتُه بفمي بامتنان متزايد، حتى باتت القبلة أطول مدّة. وكان لسانه يلامس لساني ويلويه ويغرق في فمي. شعرتُ بحال أفضل، وبأنّني أتقدَّم، وأغلب البرد حتى يتبدَّد، وأنال من الخوف حتى أنسى وجوده. شعرتُ بأنّه يزيل عنّي البرد بيديه شيئًا فشيئًا، كأنَّ البرد مكوَّنٌ من طبقاتٍ في غاية النعومة، وأنَّ يديه قادرتان على إزالتها بدقَّة وحذر، طبقةً طبقةً، من دون أن تمزِّقاها، بل كأنَّ فمه أهلٌ لهذه المهمَّة، وأسنانه ولسانه أيضًا؛ وبالتالي فهو يعرف عنّي أكثر كثيرًا ممَّا استطاع أنطونيو أن يتعلّم، بل يعرف عنّي أكثر ممَّا كنت أعرف عن نفسي. فهمتُ أنّ ثمّة نسخة من أناي تسكن باطني، ووحدها الأصابع والأفواه والأسنان والألسنة قادرة على استخراجها، طبقةً في إثر طبقة. فقدت أناي تلك أيّ وسيلة للتخفّي، وظهرتْ بكلّ ما أوتيتْ من شبق؛ وأثبت سارّاتوري مقدرته على منعها من الفرار أو الشعور بالحياء. استطاع إحكام قبضته عليها، كما لو كانت السبب الأساسيّ لليونته العاطفيَّة، والدافع الأوّل إلى هجماته الرقيقة تارة والعنيفة تارة أخرى. وطوال ذلك الوقت كلّه، لم أندم ولا مرَّة واحدة على ما كنت أفعل. لم أتحسَّر، بل شعرتُ بالفخر، إذ كنت أريد أن يحدث هذا، وقد فرضتُه على نفسي. وربّما

Telegram: Somrlibrary

ساهم سارّاتوري في أنَّه تناسى كلامه المعسول تدريجيًّا، ولم يطالبني بأيّ مبادرة ـ خلافًا لأنطونيو ـ ولم يأخذ بيدي نحو قضيبه أبدًا، إنَّما اكتفى بإقناعي بأنّ كلّ ما فيّ كان يعجبه، وانكبّ على جسدي بكلّ ما عنده من مداراة وإخلاص، ومفخرة الذكر المهووس بإثبات إلمامه التامّ بسرائر الإناث. لم أره يتفحَّص ما إذا كنت عذراء، ومن الوارد أنَّه كان متأكِّدًا من وضعي، حتى ليتعجَّب إذا ثبت العكس. وحينما بتُّ رهينة المتعة الحتميَّة، والأنانيَّة التي تستوجب منِّي أن أمحو إحساسي بالعالم كلّه، بل بجسمه الذي بدا لعينيّ عجوزًا، وما يرافقه من رسميّات كنت أصنِّفه فيها ـ «والد نينو، مراقب تذاكر، وشاعر وصحافيّ، السيِّد دوناتو سارّاتوري» ـ أَدرك الحالة فباشر الإيلاج. شعرتُ بأنَّه بدأ الأمر بنعومة، ثم مزّق جوفي بضربة دقيقة ومتقنة، وأحدث شرخًا سرعان ما محته رتابة الأمواج والحفيف والطقطقة، فضلًا عن شعوري بالتفريغ والامتلاء مجدَّدًا على وقْع شهوة متأجِّجة. وحين أخرجه منِّي فجأة، انقلب على ظهره على الرمل، وأصدر ما يشبه الزئير المكبوت.

ساد الصمت بيننا، وعاد البحر، والسماء الرهيبة، فشعرتُ بشتات الذهن. وهذا ما دفع سارّاتوري مجدَّدًا نحو وجدانيَّته العفويَّة، معتقدًا أنّ عليه إعادتي إلى رشدي بكلماته الرقيقة. لكنَّني سمحتُ له بجملتين كحدّ أقصى، ثم نهضتُ بصعوبة، ورحتُ أنفض الرمل عن شعري وجسمي، ورتّبتُ هيئتي. وعندما راوغ قائلًا: «أين في وسعنا أن نلتقي في الغد»، أجبته بالإيطاليَّة، وبنبرة واثقة ومطمئنة، بأنَّه كان مخطئًا، عليه ألَّا يبحث عنِّي ثانية، أبدًا، لا في شيتارا ولا في الحيّ. وبما أنَّه اصطنع ابتسامة مشكّكة، قلت له إنّ ما كان سيفعله أنطونيو كابوتشو، نجل ميلينا، لا يُعَدُّ شيئًا مقارنةً بما قد يُقدْم عليه ميكيلي سولارا، وهو

Telegram: Somrlibrary

شخصٌ أعرفه جيِّدًا، وسيكتفي بكلمة واحدة منِّي كي ينغِّص عليه حياته. قلت له إنّ ميكيلي ينتظر بفارغ الصبر أنَّ يهشّم وجهه، لأنّه دفع له النقود كي يكتب مقالًا يمدح فيه المحلّ في ساحة الشهداء ولم يقم بعمله على المستوى المنشود.

وبقيتُ أهدِّده طوال طريق العودة، لأنَّه عاد يراوغ بعباراته القصيرة والمعسولة من جهة، ولأنَّني أردت أن يفهم مشاعري بوضوح من جهة أخرى، ولأنَّني أيضًا كنت متعجِّبة من مقدرتي على صياغة التهديدات بإيطاليَّة فصيحة، وأنا التي لم أكن أنطق بها إلَّا بالعاميَّة منذ طفولتي.

Telegram: Somrlibrary

٧٢

خشيتُ أن أجد المرأتين مستيقظتين، لكنّهما كانتا نائمتين. لم يبلغ قلقهما درجة الأرق، كانتا تعتبرانني عاقلة، وتثقان بي. فغططتُ في نوم عميق.

وفي اليوم التالي، استيقظتُ على أجنحةٍ من فرح وسعادة؛ وبقيتُ على هذه الحال، حتى عندما ومض في ذهني كلٌّ من نينو وليلا، وما وقع على الشاطئ ليلة أمس. ثرثرتُ مطوَّلًا مع نيلا، وتناولتُ الفطور مع عائلة سارّاتوري، ولم أنزعج من معاملة دوناتو لي إذ حاول التظاهر بلطفٍ أبويّ. ولم أفكِّر، ولو لوهلة، في أنَّني ارتكبتُ خطأً جسيمًا بممارسة الجنس مع ذلك الرجل المنفوخ والمغرور والمهذار. وعلى الرَّغم من هذا، أصابني النفور من رؤيته هناك جالسًا إلى المائدة، وسماع أحاديثه، واعتباره الرجل الذي فضّ بكارتي. ذهبتُ إلى البحر مع أفراد العائلة، وسبحتُ مع الأطفال، وخلّفتُ ورائي استلطافًا ملموسًا. ووصلتُ إلى فوريو في الموعد.

ناديتُ نينو، فأطلّ برأسه بسرعة. رفضتُ الصعود، إذ علينا العودة على جناح السرعة، ولأنَّني لم أشأ أن أحفظ في ذاكرتي صورًا للغرفة التي سكن فيها نينو وليلا وحدهما يومين تقريبًا. انتظرتُ، وتأخَّرتْ

Telegram: Somrlibrary

ليلا. فباغتني القلق مجدَّدًا. تخيَّلتُ أنّ ستيفانو وجد طريقة للانطلاق في الصباح، وأنَّه سيصل إلى الجزيرة قبل بضع ساعات من المتوقَّع، بل إنَّه كان في طريقه إلى المنزل حينذاك. ناديتُ ثانية، فأطلّ نينو برأسه مرَّة أخرى، وأشار إليَّ بالانتظار دقيقة أخرى لا غير. نزلا معًا بعد ربع ساعة، تعانقا وتبادلا القبلات عند البوَّابة طويلًا. ركضت ليلا نحوي، ثم توقَّفت فجأة كأنَّها نسيت شيئًا ما، وعادت إلى الخلف لتغمره بالقبلات من جديد. رحت أنظر حولي مستاءة، وتعزَّز إحساسي بأنَّني سيِّئة الطباع، وتنقصني القدرة اللازمة على المشاركة. واستأتُ أكثر، حين بدا لي أنهما يستعيدان جمالهما في نظري. كانت حركاتهما متكاملة. حتى إنّ الصراخ بـ «استعجلي يا لينا» كان سيبدو خدشًا لصورةٍ يرسمها الخيالُ. بدت كأنَّ إحدى القوى الشرِّيرة تفصلها عنه، فها هي يدها تنزاح عن كتفيه ببطء لتنزلق على طول ذراعه حتى تصل إلى أصابعه، كما لو أنَّها تحاكي رقصة ما. وصلتْ إليّ، أخيرًا.

تبادلنا كلمات قليلة طوال الرحلة بالعربة الآليَّة.

«كلّ شيء على ما يرام؟»

«أجل، وأنت؟»

«وأنا أيضًا».

لم أبح لها بشيء عنِّي، ولم تبح لي بشيء عنها. لكنّ أسباب ذلك الاقتضاب كانت مختلفة جدًّا. فمن جهتي، لم تكن لديَّ أيّ نيَّة للحديث عمَّا جرى لي؛ إذ كان حدثًا صرفًا، يتعلَّق بجسدي وتفاعلاته الفيزيولوجيَّة. ولم أعطِ أيّ قيمة لفكرة أنَّ جسدي ولجه عضوٌ صغيرٌ تابعٌ لجسد آخر للمرَّة الأولى، فثقل سارّاتوري الليليّ لم يزوِّدني بأيّ إحساس سوى بالاغتراب، وكان من المريح أن يزول هذا الإحساس كأنَّه عاصفة لا تهبّ. إنَّما بدا لي من الواضح أنّ ليلا كتومة، لأنّها

Telegram: Somrlibrary

عاجزة عن التعبير. شعرتُ بأنَّها تمرّ في حالة خالية من الأفكار أو الصور، كما لو أنَّها حين افترقتْ عن نينو، نسيتْ عنده كلّ ما يخصّها، بما فيه قدرتها على سرد ما حدث معها، وما كان يحدث معها حينذاك. حزنتُ كثيرًا من هذا الفرق بيننا. حاولتُ أن أنبِّش في تجربتي على الشاطئ، لعلّي أجد شيئًا يعادل هيامها الأليم والسعيد في آنٍ واحد. وسرعان ما أدركتُ أنَّني لم أترك شيئًا في مارونتي، أو بارانو، ولا حتى أنايَ الجديدة التي انبلجتْ من أعماقي. حملتُ معي كلّ شيء، لذا لم أشعر بحاجةٍ ملحَّة إلى العودة إلى الخلف ـ ما كان واضحًا في عينيْ ليلا وفمها الموارب ويديها المنقبضتين ـ لأتّحد ثانية بمن ينبغي لي أن أتركه. ولئن كان وضعي ـ في الظاهر ـ قد يبدو أقوى وأمتن، فهأنذا، إلى جانب ليلا، أشعر بهشاشة نفسي، كأنَّني أرضٌ غزتها مياه المستنقعات.

Telegram: Somrlibrary

٧٣

لحسن الحظّ أنَّني لم أقرأ دفاترها إلّا في ما بعد. كانت هنالك صفحاتٌ وصفحات تتحدَّث عمّا دار ذلك اليوم وتلك الليلة مع نينو؛ كانت تلك الصفحات تقول ما لم يكن لديّ لقوله تمامًا. لم تكن ليلا تكتب أيّ كلمة تروي رغباتها الجنسيَّة، لم تكتب شيئًا يصلح في مقاربة تجربتها بتجربتي، إنَّما كانت تتحدَّث عن العشق، بأسلوب مدهش أيضًا. كانت تقول إنَّها، منذ يوم زفافها حتى تلك الأيَّام في إيسكيا، تعيش على شفا حفرة من الموت، من دون أن تنتبه لهذا. كانت تصف بالتفصيل إحساسها بالموت الوشيك: انخفاض في طاقة الجسم؛ غثيان؛ صداع شديد في الرأس، كما لو أنَّ ما بين الجمجمة والدماغ فقّاعةً هوائيَّةً تزداد انتفاخًا؛ الانطباع بأنّ كلّ شيء يتحرَّك على عَجَلٍ كي يمضي بعيدًا، وأنّ سرعة أيّ حركة ـ سواء حركة الأشخاص أو حركة الأشياء ـ كانت مفرطة للغاية، وتخنقها وتجرحها، وتسبِّب لها آلامًا جسديَّة في البطن وشبكيَّة العين. كانت تقول إنَّ هذا كلُّه يترافق مع تلفٍ للحواسّ، كما لو أنَّهم لفُّوا جسدها بحشو القطن، وإنّ آلامها لم تكن تأتي من العالم الواقعيّ، بل من فضاءٍ يقع بين جسمها وكتلة القطن المتشرِّب التي كانت تشعر بأنَّها ملفوفة بها. ومن جهة أخرى،

Telegram: Somrlibrary

تُقرّ بأنَّ فكرة الموت الوشيك كانت راسخة إلى درجةٍ تدفعها إلى الاستهتار بأيّ شيء، ولاسيّما ذاتها. كأنَّ كلّ شيء فقد قيمته، كأنَّ كلّ شيء يستحقّ الخراب. وفي بعض الأحيان، كان يتلبَّسها الغضب بالتعبير عن نفسها بلا أيّ وساطة: أن تعبِّر عن نفسها للمرَّة الأخيرة، قبل أن تصبح مثل ميلينا، قبل أن تعبر الشارع العام فتباغتها شاحنة مسرعة تدهسها وترميها بعيدًا. لكنّ نينو غيَّر هذه الحالة، وخلَّصها من الموت. وسبق له أن فعلها حين دعاها إلى الرقص في بيت غالياني، ورفضت الدعوة مذعورة من ذلك العرض بالنجاة. ثم في إيسكيا، يومًا بعد يوم، استلم صلاحيَّة المسعف. وأعاد إليها القدرة على الإحساس، وأحيا فيها الإحساس بوجدانها على وجه الخصوص. أجل، إحياء. ثمَّة سطورٌ وسطورٌ وسطورٌ تركّز في مفهوم الإحياء: نشوة النهوض الذاتيّ؛ نهاية أيّ التزام ترافقه متعةٌ لا توصف بالتزام جديد؛ الانتفاض والتجلّي في آن: هو وهي، هي وهو، معًا يتعلَّمان الحياة مجدَّدًا، يُزيلان منها السمّ، ويُعيدان تكوينها بمرحٍ نقيّ في العيش والتفكير.

هذا بشكلٍ عام. لا شكّ في أنّ كلماتها أجمل كثيرًا، وما كلامي سوى تلخيص موجز. وكم كنت سأعاني لو أطلعتني على كلماتها في حينها، في تلك العربة، لأنَّني كنت سأرى في امتلائها الحقيقيّ انعكاسًا لفراغي. كنت سأفهم أنَّها أقحمتْ نفسها في أمرٍ كنت أحسب أنَّني أعرفه جيِّدًا، وأنَّني أشعر به تجاه نينو، لكنَّني في الواقع كنت أجهله، ولم أكن لأعرف عنه إلَّا الفتات. كنت سأفهم أنَّها ليست في صدد التمتُّع بلعبة صيفيَّة عابرة، بل ثمَّة عاطفة عنيفة قاهرة تنشأ في صدرها. إلَّا أنَّني، خلال عودتنا إلى نونتسيا، وبعد الانتهاكات التي قمنا بها، لم أتغلَّب على إحساسي المعتاد بالتفاوت، والذي لطالما سبَّب لي الاضطراب مقترنًا بانطباعٍ معهود في حكايتنا، وهو أنَّني كلّما

Telegram: Somrlibrary

خسرتُ شيئًا حصلتْ عليه. ولهذا، شعرتُ بالحاجة الماسّة إلى التعادل، وكدت أروي عليها كيف فقدتُ عذريَّتي بين البحر والسماء، في الليل، على شاطئ مارونتي. في إمكاني ألّا أذكر اسم والد نينو، فكّرتُ، في وسعي ابتكار اسم بحّار أو مهرِّب سجائر أميركيَّة؛ وأن أقصّ عليها ما حدث لي، وعن متعتي به. لكنَّني أدركتُ أنَّها لم تكن لتهتمّ بما حدث لي، ولا بمتعتي؛ فأنا أريد أن أتكلَّم عليَّ كي أجرَّها إلى الحديث عمّا جرى لها، لأعرف مدى المتعة التي حصلتْ عليها مع نينو فأقارنها بمتعتي، لعلِّي أشعر بالتفوُّق. ولحسن حظِّي، فطنتُ إلى أنَّها لم تكن لتروي عليّ حكايتها، وأنَّني سأكون ـ بكلّ غباء ـ الوحيدة التي تتكلَّم. فبقيتُ صامتة مثلما ظلَّتْ صامتة.

Telegram: Somrlibrary

٧٤

حين وصلنا إلى المنزل، استعادت ليلا الكلام بتعبيريَّة مفرطة. استقبلتنا نونتسيا سعيدة بعودتنا، لكن بجفاء نوعًا ما. قالت إنَّها لم تغمض لها عين، وسمعتْ بعض الأصوات الغريبة في المنزل، وخافت من الأشباح والمجرمين. فعانقتها ليلا، لكنّ نونتسيا كادت تدفعها عنها.

«هل استمتعتِ؟» سألتها.

«جدًّا، جدًّا. أريد أن أغيِّر كلّ شيء».

«وما الذي تريدين تغييره؟»

ضحكت ليلا.

«سأفكِّر في الأمر، وأخبرك».

«أخبري زوجك بهذا من باب أَوْلى»، قالت نونتسيا بنبرة محتدَّة غير متوقَّعة.

نظرتْ إليها ابنتها مذهولة ذهولًا رقيقًا، كما لو أنَّها متأثِّرة، أو كأنَّ النصيحة بدت لها مناسبة وضروريَّة.

«أجل» قالت وذهبت إلى غرفتها، ثم دخلت المرحاض، وأغلقتْ على نفسها.

Telegram: Somrlibrary

خرجت بعد حين، لكنَّها ما زالت ترتدي ثيابها الداخليَّة. أشارت إليّ باللحاق بها إلى غرفتها؛ فذهبتُ مكرهة. رمتني بنظراتها الملتهبة، ونطقتْ جملًا سريعة بما يشبه الحزن:

«أريد أن أدرس كلّ ما يدرسه هو».

«إنَّه في الجامعة، ويدرس أمورًا معقّدة».

«أريد أن أقرأ كتبه، أريد أن أفهم أفكاره جيِّدًا، أريد أن أتعلَّم ليس من أجل الجامعة، بل من أجله هو».

«لا تتصرّفي كالمجانين يا ليلا. سبق واتَّفقنا على أنَّك ستلتقينه هذه المرَّة فقط، كفى. ما الذي دهاك؟ اهدئي، ستيفانو يوشك على الوصول».

«هل ترين أنَّني قادرة على فهم ما يفهمه، إن كرَّست نفسي لذلك؟»

عجزتُ في مسعاي. كنت أعرف شيئًا، وأحاول أن أُخفيه عن نفسي، لكنّه أصبح شديد الوضوح في تلك اللحظة: ليلا أيضًا باتت ترى في نينو الشخص الوحيد القادر على إنقاذها. لقد استولى عليها شعورٌ راودني في السابق، وجعلتْه ملكًا لها. وكنت لأجزم، بما أنَّني أعرف أيّ نوع من البشر هي: ستجتاز كلّ العراقيل، وستمضي حتى النهاية. فأجبتها بقسوة:

«كلَّا. إنَّها موادّ صعبة، وأنت متخلِّفة جدًّا في كلّ شيء. لا تقرئين جريدة، ولا تعرفين مَن شكَّل الحكومة، ولا تعرفين حتى مَن يحكم ناپولي».

«وهل تعرفين أنت هذه الأمور؟»

«لا».

«نينو يعتقد أنَّك تعرفينها، قلت لك إنَّه يقدِّرك كثيرًا».

شعرتُ بأنَّني أتضرَّج احمرارًا، فغمغمتُ:

«أحاول أن أتعلَّم، وحين لا أعلم أتظاهر بأنَّني أعلم».

«إذا تظاهرنا بالمعرفة نتعلَّم شيئًا فشيئًا. هلّا ساعدتِني؟»

«لا، لا. لا ينبغي لك فعل هذا يا ليلا. اتركيه وشأنه، إنّه منذ الآن يفكِّر في الكفّ عن الجامعة، بسببك».

«سيدرس. لقد وُلد من أجل الدراسة. وعمومًا، ثمَّة كثير من الأمور يجهلها هو أيضًا. إن درستُ الأشياء التي لا يعرفها، فسأطلعه عليها حين يحتاج إليها، وبهذا أكون مفيدة له. عليّ أن أتغيَّر يا لينو، وفورًا».

أفرجتُ عمّا في نفسي مجدَّدًا:

«إنَّك متزوِّجة، عليك أن تنزعيه من رأسك، فأنت لا تناسبين حاجاته».

«ومَن هي التي تناسبه؟»

قصدتُ أن أجرحها، فقلت:

«ناديا».

«لقد هجرها من أجلي».

«هل ارتحتِ الآن؟ لم أعد أريد سماعك. لقد ضرب الجنون كلًّا منكما. افعلا ما يحلو لكما».

ذهبتُ إلى غرفتي الصغيرة، متّشحة بالغمّ.

٧٥

وصل ستيفانو في الساعة المعتادة. رحَّبنا به، نحن الثلاث، بسرور مزيَّف؛ وكان مبتهجًا، لكنّه متشنِّج إلى حدّ ما، كما لو أنَّه يخفي اضطرابًا خلف وجهه العطوف. أدهشني أنَّه لم يأت بحقيبة، على الرَّغم من أنَّه كان سيبدأ إجازته الطويلة منذ ذلك اليوم. ولا يبدو أنَّ ليلا انتبهت للأمر، خلافًا لنونتسيا التي سألته: «أراك سارحًا يا ستيفانو، هل ثمّة ما يربكك؟ هل والدتك بخير؟ وبينونتشا؟ وكيف حال الأحذية؟ وماذا يقول ابنا سولارا، هل هما راضيان؟». فأجابها بأنّ كلّ شيء على ما يرام، وتناولنا العشاء، لكنّ المحادثة كانت مرهقة. في البدء، جاهدت ليلا لتظهر بمزاج جيِّد، لكنّها تضايقت، لأنَّه كان يقتضب في إجاباته بفتور واضح، فسكتت. حاولتُ، أنا ونونتسيا، بشتَّى الوسائل، أن نتجنَّب هيمنة الصمت. وعند تناول الفاكهة، قال لزوجته بنصف ابتسامة:

«هل تسبحين مع ابن سارّاتوري؟»

انقطعت أنفاسي. أجابته ليلا بانزعاج:

«بعض المرّات. لماذا؟»

«كم مرّة؟ مرّةً، اثنتين، ثلاثًا، خمسًا، كم؟ هل تعلمين أنت يا لينو؟»

Telegram: Somrlibrary

«مرّة واحدة» أجبتُ، «لقد مرّ بنا منذ يومين أو ثلاثة، وسبحنا جميعًا معًا».

ظلّ نصف الابتسامة على وجه ستيفانو، وتوجّه بالكلام نحو زوجته:

«وهل أنتِ وابن سارّاتوري صديقان إلى درجة أنّكما تعودان من السباحة يدًا بيد؟»

صوَّبت ليلا عينيها على وجهه مباشرة:

«مَن أخبرك بهذا؟»

«آدا».

«ومَن أخبر آدا بهذا؟»

«جيليولا».

«ومَن أخبر جيليولا؟»

«جيليولا رأتكِ بعينيها أيّتها الحقيرة. جاءت إلى هنا مع ميكيلي، جاءا لزيارتكنّ. وليس صحيحًا أنّك، وذاك القميء، تسبحان مع لينوتشا، كنتما تسبحان بمفردكما وتشبكان يدًا بيد».

نهضت ليلا، وقالت بهدوء:

«سأخرج، سأذهب للتنزُّه».

«لن تذهبي إلى أيِّ مكان. اجلسي وأجيبيني».

ظلّت ليلا واقفة. قالت فجأة، بالإيطاليّة الفصحى، وبتنهيدة بسبب التعب، لكنّني انتبهتُ إلى أنّها تقصد بها الاحتقار:

«كم كنت غبيّة حينما تزوَّجتُ بك، فأنت لا تساوي شيئًا. أنت تعلم بأنّ ميكيلي سولارا يريدني أن أعمل في محلِّه، وتعلم بأنّ جيليولا ــ لهذا السبب ــ قد تقتلني لو استطاعت. فماذا يكون ردّك؟

Telegram: Somrlibrary

تصدّقهما؟ لم أعد أريد أن أصغي إليك، إنّهما يتلاعبان فيك كدمية. هلّا رافقتِني يا لينو؟»

وبينما كانت تتَّجه نحو الباب، وأنا أهمّ بالنهوض، قفز ستيفانو من مكانه، وأمسك بذراعها وقال لها:

«لن تذهبي إلى أيّ مكان. عليك أن تخبريني إن سبحتِ وحدك مع ابن سارّاتوري حقًّا أم لا، وإن مشيتِ معه يدًا بيد حقًّا أم لا».

حاولت ليلا أن تحرِّر نفسها، لكنَّها فشلت. فهمست:

«دع ذراعي، فإنَّني أشمئزّ منك».

تدخَّلت نونتسيا حينذاك، ووبّخت ابنتها. قالت إنَّه لا يجوز لها أن تتفوَّه بتلك الألفاظ الشنيعة في وجه زوجها. ثم التفتت إلى صهرها، وصرختْ به، بقوَّة مفاجئة، أن يُنهي الموضوع؛ فليلا أجابته عن أسئلته، والحسد دفع جيليولا لتقول تلك الأمور، فابنة الحلوانيّ ماكرة لأنَّها تخشى أن تخسر عملها في ساحة الشهداء، وكانت تسعى للتخلُّص من بينوتشا أيضًا لتبقى سيِّدة المحلّ وحدها، وهي التي لم تكن تفقه شيئًا بالأحذية، بل لا تعرف تحضير الحلويّات أيضًا، بينما كان كلّ شيء بفضل ليلا، بما فيه التقدُّم الذي أحرزته الملحمة الجديدة؛ لذا، فإنّ ابنتها لم تكن تستحقّ منه معاملة كهذه. كلَّا، لا تستحقّها.

يا لها من غضبة حقيقيَّة: تضرَّج وجهها، وجحظت عيناها، وبدت تختنق لكثرة الأمور التي تحدَّثت بها دفعة واحدة من دون أن تلتقط أنفاسها. لكنّ ستيفانو لم يُصغ إلى أيّ كلمة. كانت حماته تتكلَّم، بينما كان يدفع ليلا نحو غرفة النوم وهو يصرخ بها: «ستجيبين الآن، حالًا»؛ وحين أهانته بشتيمة نكراء، وتشبّثت بدفّة أثاثٍ ما كي تقاومه، سحبها بشدّة حتى انفتحت الدفّة على مصراعيها، وتأرجح الأثاث

بعنفٍ هزّ الأطباق والصحون، وكادت ليلا تطير نحو المطبخ حين ارتطمت بحائط الممرّ الذي يُفضي إلى غرفتهما. وبعد برهة، أحكم الزوج قبضته ثانية، وأمسك بذراعها، كأنَّه يمسك بمقبض فنجان، ودفعها نحو غرفة النوم، وأغلق الباب خلفه.

سمعتُ صرير المفتاح يدور في القفل، فارتعدتُ من ذلك الصوت. كنت قد رأيت بأمِّ عيني، في تلك اللحظات العصيبة، أنّ ستيفانو كان مسكونًا حقًّا بشبح والده، وأنّ ظلّ الدون آخيل كان ينفخ شرايين عنقه والتفريعات الزرقاء تحت بشرة جبينه حقًّا. وعلى الرَّغم من فزعي، شعرتُ بأنَّه لا يتوجّب عليّ البقاء مكتوفة اليدين، جالسة إلى الطاولة، مثل نونتسيا. فهاجمتُ مقبض الباب وشرعتُ أرجّه، ورحتُ أطرق الباب الخشبيّ بقبضة يدي، وأنا أتوسَّل: «أرجوك يا ستيفانو، إنَّه كلام ملفَّق. لا تؤذِها يا ستيفانو». إلَّا أنَّه بات سجينًا في قفص الغضب، سمعناه يصيح بأنَّه يريد الحقيقة؛ وما دامت ليلا لا تجيب، بل كأنَّها ليست في الغرفة أصلًا، بدا لوهلة أنَّه يتحدَّث بمفرده، ويصفع وجهه، ويؤذي نفسه، ويحطّم الأشياء.

«سأذهب لأُنادي مالكة المنزل» قلت لنونتسيا، وهرعتُ نحو السلالم. كنت أريد أن أسأل مالكة المنزل إن كان لديها مفتاحٌ آخر، أو إن كان حفيدها عندها، وهو رجل بدين في وسعه أن يخلع الباب. لكنَّني عبثًا طرقتُ بابها. لم تكن موجودة، أو أنَّها كانت هناك ولم تفتح. في تلك الأثناء، كانت صرخات ستيفانو تخترق الجدران، وتمتدّ إلى الشارع، إلى حقل القصب، في اتِّجاه البحر. وعلى الرَّغم من هذا، لم تجد آذانًا ـ على ما يبدو ـ غير أذنيّ؛ لا وجود لأحدٍ يطلّ برأسه من البيوت المجاورة. لا وجود لأحدٍ يهرع إلى المكان. لا شيء سوى توسُّلات نونتسيا، بصوت أضعف طبعًا، ممزوجة بتهديدها

Telegram: Somrlibrary

له بأنَّها ستخبر فرناندو ورينو بكلِّ شيء، إذا استمرّ في إيذاء ابنتها؛ وأنّهما، بحقِّ الربّ، سيقتلانه.

عدت إلى الأعلى راكضة، ولا أعرف ما الذي أستطيع فعله. هجمتُ بكلّ جسدي على الباب، وصرختُ بأنَّني ناديتُ الحرّاس وهم على وشك الوصول. وبما أنّ ليلا لم تعط أيّ إشارة عن حياتها، صحت: «هل أنت بخير يا ليلا؟ أرجوك يا ليلا، أخبريني إن كنت بخير». وحينها فقط، سمعنا صوتها. لم تكن تتكلَّم إلينا، بل مع زوجها، بفتور:

«أتريد الحقيقة؟ أجل، أنا وابن سارّاتوري نذهب للسباحة يدًا بيد. أجل، نسبح حتى عرض البحر ونتلامس ونتبادل القبلات. أجل، تركتُه يضاجعني مئة مرَّة، واكتشفتُ أنَّك رجلٌ خرائيّ، لا تساوي شيئًا، ولست قادرًا سوى على المطالبة بأمور مقرفة تسبِّب لي التقيُّؤ. هل أنت راضٍ الآن؟ هل ارتحت؟»

ساد الصمت. لم يتنفَّس ستيفانو بعد تلك الكلمات، وأنا توقَّفتُ عن طَرق الباب، وكفَّت نونتسيا عن البكاء. هيمنت الضوضاء الخارجيَّة مجدَّدًا، السيَّارات التي تمرّ، وبعض الأصوات البعيدة، وتصفق أجنحة الدجاجات.

مضت بضع دقائق حتى استأنف ستيفانو الكلام، لكن بنبرة منخفضة، إلى درجة أنَّنا لم نستطع سماع ما كان يقول. فهمتُ عمومًا أنَّه كان يبحث عن طريقة ليستعيد هدوءه: جملٌ قصيرة ومشرذمة، أريني ماذا صنعتُ بك، اطمأنِّي، كفِّي عن هذا. لا بدّ من أنّ اعتراف ليلا كان لا يُحتمل، حتى آثر اعتباره أكذوبة. رأى فيه أسلوبًا استخدمتْه ليلا كي تؤذيه، مبالَغة بمثابة صفعة مدوِّية تُعيده إلى الواقع، واعتبره كلامًا بمعنى: إن كنت لا تعي أنَّك تتَّهمني بأباطيل لا أساس لها، فسأبيِّن لك الأمر بنفسي إذن، اسمع.

Telegram: Somrlibrary

أمَّا أنا، فقد رأيتُ كلمات ليلا فظيعة بقدر ضربات ستيفانو. وإن كنت أرتعد من شطط العنف الذي يخفيه خلف وجهه الرقيق ومعاملته الحسنة. لاحظتُ أنَّني لا أطيق شجاعتها حينئذ، ولا سفاهتها الطائشة التي تسمح لها بأن تصرخ بالحقيقة في وجهه، كما لو كانت جملة من الأكاذيب. كلّ كلمة وجَّهتها إلى ستيفانو نجحتْ في إعادته إلى رشده، إذ اعتبرها أكذوبة، لكنّها تخطّتني بشكل مؤلم، إذ كنت أعرف الحقيقة. عندما اتَّضح صوت اللحَّام، شعرتُ أنا ونونتسيا بأنّ العاصفة قد مرّت، كان الدون آخيل ينزاح عن ابنه، ويُعيده إلى هيئته الرقيقة واللّيِّنة. وكان ستيفانو خائر القوى، بعد أن أُعيد إلى ذلك الجانب الذي جعل منه بائعًا ناجحًا، ولم يكن يفهم ما الذي حدث لصوته ويديه وذراعيه. حتى لو كان من الوارد أنّ صورة ليلا ونينو، يدًا بيد، ما برحتْ تجول في رأسه؛ فما قالته ليلا ـ بوابل كلماتها ـ قد لا يحتوي على صورٍ من وحي الخيال.

لم يُفتح الباب، ولم يتحرَّك المفتاح في القفل حتى طلوع النهار. لكنّ نبرة ستيفانو أصبحت حزينة، وبدت كأنَّها توسُّلات خائبة، وبقيتُ أنا ونونتسيا ننتظر في الخارج لساعات، نتبادل جملًا محبطة بالكاد تُسمع. غمغماتٌ داخليَّة، وأخرى خارجيَّة. «لو رويتُ ما حدث لرينو» كانت نونتسيا تغمغم، «لقتله، من المؤكَّد أنَّه سيقتله». فأهمس، متظاهرة بأنَّني أصدِّق ما تقول: «أرجوك، لا تروي له ما حدث». لكنَّني كنت أفكِّر في أثناء ذلك: رينو، وفرناندو أيضًا، لم يحرِّكا إصبعًا من أجل ليلا منذ زفافها؛ عدا عن أنَّهما لم يتردَّدا في ضربها منذ أن وُلدت، وقتما شاءا. ثم قلت لنفسي: الرجال جميعهم من طينة واحدة، نينو وحده مختلف عنهم. وأتنهَّد، بينما يتعزَّز الكدر: الآن، بات واضحًا من دون شكّ أنّ ليلا ستحصل عليه، مع أنَّها متزوِّجة؛ سيغادران معًا بعيدًا عن هذا الجوّ المقرف، بينما سأبقى فيه إلى الأبد.

٧٦

خرج ستيفانو من غرفة النوم عند أوّل خيوط الفجر، من دون ليلا. وقال:

«وضِّبا الحقائب، سنغادر».

لم تتمالك نونتسيا نفسها، وأشارت بنقمة إلى الأضرار التي خلّفها بأغراض مالكة المنزل، وقالت إنّ عليه تعويضها. فأجابها ـ كأنَّه لم ينسَ تلك الكلمات التي صرخت بها في وجهه منذ ساعات، وشعر بضرورة وضع النقاط على الحروف، فهو لطالما دفع كلّ شيء، وما زال يدفع. «أنا من دفع إيجار هذا المنزل»، عدّد بنبرة واهنة، «أنا من دفع استجمامكم، كلّ شيء تملكونه، أنت وزوجك وابنك، أنا من أعطيتكم إيَّاه. لذا لا تُرهقي قضيبي، وضِّبي الحقائب كي نغادر، هيّا».

لم تنبس نونتسيا ببنت شفة. وبعد قليل، خرجت ليلا من الغرفة بثوب مائل إلى الاصفرار، ذي كمّين طويلين، وبنظَّارة شمسيَّة سوداء لتبدو كأنَّها نجمة سينمائيَّة. لم تتكلَّم معنا، لا هناك ولا في المرفأ ولا على المركب. ولم تتحدَّث إلينا، حتى حينما وصلنا إلى الحيّ. ذهبتْ إلى منزلها، مع زوجها، بلا وداع.

أمَّا أنا، فقرَّرتُ أنَّني سأعيش لأجلي، منذ تلك اللحظة، وأهتمّ بأموري الخاصَّة. وفعلتُ ذلك منذ عودتنا إلى ناپولي. فرضتُ على

Telegram: Somrlibrary

نفسي موقفًا قائمًا على القطيعة الكلِّيَّة. لم أعد لرؤية ليلا، ولا نينو. والتزمتُ الصمت أمام سخط والدتي، إذ اتَّهمتني بأنَّني كنت أتمتَّع كسيِّدة في إيسكيا من دون أن أفكِّر في أنّ عائلتي في حاجة إلى النقود. ووالدي أيضًا لم يوفِّر المناسبة، على الرَّغم من أنَّه لم يقم سوى بامتداح هيئتي المتألِّقة، وشعري الأشقر الذهبيّ. وما إن وبَّختْني والدتي في حضوره، حتى شدّ على يدي مباشرة. «أنت كبيرة» قال، «ينبغي لك أن تفكِّري في ما عليكِ فعله».

وبالفعل، كنَّا في حاجة طارئة إلى النقود. كان في إمكاني مطالبة ليلا بما وعدتني به كمكافأة على مرافقتي لها إلى إيسكيا، لكنَّني لم أفعل، بعد قراري الانقطاع عنها، ولاسيّما بعد كلمات ستيفانو القاسية التي وجَّهها إلى نونتسيا (وإليّ بشكل أو بآخر). وللسبب نفسه، استبعدتُ كلِّيًا قبول أن تشتري لي الكتب المدرسيَّة، كما فعلتْ في العام السابق. وحين التقيتُ ألفونسو، أوصيته بأن يقول لها إنَّني أمّنتُ كتب ذلك العام، وأقفلتُ المسألة.

إلَّا أنَّني، بعد عطلة منتصف أغسطس، ذهبتُ إلى المكتبة في موتسيكانوني، لأنَّني كنت بائعة صالحة ومهذَّبة من جهة، ولأنَّني كنت أبدو في مظهر جذَّاب بفضل الشمس والبحر من جهة أخرى. وهكذا، وافق مالك المكتبة على تعييني ثانية، بعد أن تمنَّع قليلًا. لكنّه اشترط ألَّا أتسرَّح مع بداية العام الدراسيّ، بل أتابع العمل عنده، بعد الظهر على الأقلّ، طوال موسم بيع الكتب المدرسيَّة. وافقتُ، وأمضيتُ أيَّامًا طويلة في المكتبة أستقبل بعض الأساتذة الذين يأتون بحقائب مليئة بالكتب، التي حصلوا عليها مجَّانًا من دور النشر، ليبيعوها بأثمان متدنِّية؛ إضافة إلى تلاميذ يبيعون كتبهم المستعملة بأبخس الأثمان.

أمضيتُ أسبوعًا كاملًا برعبٍ حقيقيّ، لأنّ الدورة الشهريَّة لم تعاودني. خشيتُ أن أكون حاملًا من سارّاتوري، وتملَّكني اليأس،

أتصرَّف بسلوك مؤدَّب في الظاهر، بينما يستعر باطني غضبًا. نسيتُ النوم لياليَ عديدة، لكنَّني لم ألجأ إلى نصيحة أحد أو مواساته. احتفظتُ بكلِّ شيء في سرِّي. وأخيرًا، ذات عصر، عندما كنت في المكتبة، ذهبتُ إلى المرحاض القذر، ورأيتُ الدماء. بدا لي الحيض شبيهًا بالاجتثاث الرمزيّ لنجاسة سارّاتوري من جسدي.

وفي مطلع سبتمبر، خطر في ذهني أنَّ نينو قد عاد من إيسكيا، فأخذتُ أتوجَّس ـ وآمل ـ من أن يمرّ بالمكتبة للتحيَّة على الأقلّ. لكنَّه لم يظهر، لا في موتسيكانوني ولا في الحيّ. أمَّا ليلا، فلم أصادفها إلَّا مرَّتين، يوم الأحد، بينما كانت تمضي بالسيَّارة في الشارع العام إلى جانب زوجها. وكانت تلك اللحظات القصيرة تكفي لتستيقظ نقمتي. ما الذي حدث؟ كيف رتّبت أمورها؟ كانت لا تزال تمتلك كلّ شيء، وتحظى بكلِّ شيء: السيَّارة، ستيفانو، البيت المزوّد بالحمَّام والهاتف والتلفاز، الملابس الزاهية، والعيش الرغيد. ومن يدري أيّ خطَّة تدبِّرها في خفايا رأسها! كنت أعرف طباعها، وأقول لنفسي إنّها لم تكن لتتخلَّى عن نينو حتى لو تخلّى نينو عنها. غير أنَّني أزلتُ هذه الأفكار من ذهني، والتزمتُ باحترام الميثاق الذي أبرمته مع نفسي: أن أخطِّط لحياتي من دونهما، وأن أتعلّم عدم التأسُّف على ذلك. وركّزت جهودي، في سبيل هذه الغاية، في ما يشبه التمرين الذاتيّ على عدم الاكتراث لأيّ شيء. تعلَّمتُ أن أقلِّص حجم عواطفي إلى الحدّ الأدنى: إذا مدَّ مالك المكتبة يديه، صددتُه من دون سخط؛ وإذا انزعج الزبائن، اصطنعتُ ابتسامة زائفة. واستطعتُ أن أخفِّف التوتُّر مع أمِّي أيضًا. كنت أقول لنفسي كلّ يوم: أنا لست إلَّا ما أنا عليه، ولا يسعني سوى أن أقبل ذاتي كما هي؛ فقد وُلدتُ هكذا، في هذه المدينة، في هذه الطبقة المسحوقة، وبهذه اللهجة العامِّيَّة؛ سأبذل ما في وسعي، وسأحصل على ما يمكنني الحصول عليه، وسأحتمل ما أقوى على احتماله.

Telegram: Somrlibrary

٧٧

فتحت المدرسة أبوابها مجدَّدًا. ولم أنتبه إلى أنَّني كنت في المرحلة النهائيَّة من المرحلة الثانويَّة، إلَّا بعد أن دخلتُ الصفّ، في مطلع أكتوبر؛ وأنَّني أتممتُ الثامنة عشرة، وأنّ دراستي، التي استمرّت مدّة طويلة وعجيبة، كانت في نهاياتها. هكذا أفضل. تحدّثتُ كثيرًا مع ألفونسو عمّا سنفعله ما إن نحصل على شهادة الكفاءة. لم يكن يعلم أكثر منّي بهذا الخصوص. سنخوض مسابقاتٍ ما، ارتجل قائلًا؛ لكنّ أفكارنا في الواقع لم تكن واضحة في ما تعنيه المسابقة. كنَّا نقول: «إجراء مسابقة، الفوز في مسابقة»، لكنّ المفهوم كان غامضًا: هل علينا أن نُجري امتحانًا كتابيًّا، أم نخضع لمقابلة ما؟ وما الذي سنفوز به؟ راتبٌ شهريٌّ؟

أطلعني ألفونسو على نيّته الزواج حالما يفوز بمسابقة ما.

«تتزوَّج بماريزا؟»

«بالتأكيد».

سألته عن نينو بحذرٍ في إحدى المرَّات، لكنَّه لم يكن يستلطفه، ولا يتبادلان التحيّة حتى. ولم يفهم ما الذي كنت أجده مميّزًا فيه. إنَّه قبيح، كان يقول، محنيّ القامة، جِلْد على عظم. أمّا ماريزا، فكان يراها جميلة. وسرعان ما أردف، كي لا يجرحني: «وأنت جميلة

Telegram: Somrlibrary

أيضًا». كان معجبًا بالجمال، وخصوصًا العناية بالجسد. كان يعتني بنفسه أيَّما عناية، يبدو كحلَّاق، ويشتري الكثير من الملابس، ويرفع الأثقال يوميًّا. أخبرني بأنَّه استمتع كثيرًا بالعمل في المحلِّ في ساحة الشهداء. وكان العمل مختلفًا كلِّيًّا عن الملحمة. فهناك من الممكن ـ بل من الواجب ـ أن يرتدي العامل ثيابًا أنيقة. وفي وسعك التكلُّم بالإيطاليَّة، فالزبائن من عليِّة القوم، وقد أتمُّوا تعليمهم. وحتى إذا ما توجَّب عليكِ الركوع أمام الزبائن من الرجال والنساء، لتساعديهم على انتعال الحذاء، ففي إمكانك فعله بأسلوب محبّب، كما الفرسان التوّاقون إلى حبٍّ نبيل. إلَّا أن لا مكان للبقاء في المحلِّ، لسوء الحظّ.

«لماذا؟»

«مَنْ يدري!»

كانت إجابته غامضة في البدء، لكنَّني ألححتُ عليه، فروى لي أنّ بينوتشا كانت تمضي جلّ الوقت في البيت، لأنَّها لا تريد أن ترهق نفسها، فبطنها انتفخت كسمكة القرموط. وفي كلِّ الأحوال كان واضحًا أنَّها لن تجد وقتًا إضافيًّا بعد الإنجاب. وهذا كان سيمهِّد أمامه الطريق نظريًّا، فالأَخَوان سولارا كانا راضيَيْن عن أدائه، ولعلَّه سيُعيَّن في المحلِّ في حال حصوله على الكفاءة. لكن لا إمكان لذلك. وحينها ظهر اسم ليلا فجأة. شعرتُ بالتهاب في المعدة بمجرّد سماعي اسمها.

«وما شأنها هي؟»

علمتُ بأنَّها عادت من الاصطياف كالمجنونة. لم تُجدِ السباحةُ في مساعدتها على الحمل، وأصبحت تتصرَّف من دونما تبصُّر. ذات مرَّة، حطَّمت جميع أواني النباتات الموجودة على الشرفة. تقول إنَّها ستذهب إلى الملحمة، ثم تترك كارمن بمفردها، وتمضي في نزهة ما. كان ستيفانو يستيقظ في الليل فلا يجدها في السرير؛ إمّا أنَّها تطوف

Telegram: Somrlibrary

فِي البيت، وإمَّا أنَّها تقرأ وتكتب. ثم هدأ بالها فجأة؛ أو بالأحرى، ركَّزت كلّ قدراتها في تنغيص حياة ستيفانو بتصميمها على هدف واحد: أن تعيِّن جيليولا في الملحمة الجديدة، لتشغل مكانها في ساحة الشهداء.

تعجّبتُ كثيرًا.

«ميكيلي هو الذي يريدها في المحلّ» قلت، «لكنّها ترفض العمل هناك».

«هذا في السابق. أمّا الآن، فقد غيّرت فكرتها، وتخوض حربًا ضروسًا لتعمل هناك. العائق الوحيد هو ستيفانو الذي يخالفها الرأي. لكن من المعلوم أنَّ أخي في النهاية يرضخ لما تريد».

لم أطرح أسئلة أخرى، لم أعد أشاء الانغماس في شؤون ليلا إطلاقًا. لكنَّني فوجئتُ لبرهة بتساؤلي: ما الذي يخطر في ذهنها، لماذا فجأة تريد العمل في وسط المدينة؟ ثم نسيتُ الأمر، وانشغلتُ بمشكلات أخرى: المكتبة والمدرسة والدروس وكتب التمارين. اشتريتُ أحد تلك الكتب، وسرقتُ البقيّة من مالك المكتبة بلا أيِّ تأنيب للضمير. وعدت إلى الدراسة بكدٍّ، في الليل خصوصًا. وكنت مشغولة بالعمل في المكتبة، في فترة ما بعد الظهر، حتى فترة عيد الميلاد، إذ تركتُ العمل. وبعدها مباشرة، أمّنت لي الأستاذة غالياني دروسًا خصوصيَّة، ثابرتُ فيها كثيرًا. وما بين المدرسة والدراسة وتلك الدروس، لم يكن من مجال لأيِّ شيء آخر.

وكانت أمِّي، حين أعطيها ما أتقاضاه، آخر الشهر، تضع النقود في جيبها من دون أن تقول شيئًا، لكنَّها في الصباح، تستيقظ باكرًا لتحضِّر لي الفطور، والبيض المخفوق في بعض الأحيان، وهو طبق تُعِدّه بعناية لافتة ـ كنت أسمع طَرق الملعقة في الوعاء، بينما أكون غافية في السرير ـ يذوب البيض في فمي كأنَّه قشدة، مع أنّه بلا ذرَّة

Telegram: Somrlibrary

سكّر. أمّا الأساتذة في الثانويّة، فصاروا يعتبرونني أكثر التلاميذ تألُّقًا، ومردُّ ذلك ـ ربّما ـ إلى خمول الوظيفة المسندة إلى جهاز النشاط المدرسيّ المتعفِّن بأكمله. عزَّزتُ تفوُّقي على المدرسة بأسرها بسهولة تامَّة. لكنَّني فطنتُ بيسرٍ إلى أنّ غالياني، على الرَّغم من سخائها المستمرّ تجاهي، كانت تعزو إليّ إثمًا ما، يمنعها من أن تكون لطيفة معي كما في الماضي. مثلًا، حين أعدتُ إليها كتبها، أبدت استياءها، لأنَّها وجدتها مليئة بالرمل؛ وأخذتْها من دون أن تعِدني بإعارتي كتبًا أخرى. ومثلًا، لم تعد تمرِّر إليَّ جرائدها، حتى اضطررتُ إلى شراء «الـ ماتينو»، ثم عزفتُ عن هذا، ومللتُ. بدت لي أموالًا مهدورة. ومثلًا، لم تعد تدعوني إلى بيتها، مع أنَّني سأُسعد بلقاء ابنها أرماندو ثانية. وعلى الرَّغم من هذا، ما فتئتْ تمدحني على الملأ، وتمنحني علامات عالية، وتنصحني بمحاضرات وأفلام مهمَّة أيضًا، كانوا يعرضونها في مكان يخصّ الرهبان عند باب الفجر. إلى أن حدث ذات يوم، قُبيل عيد الميلاد، أن نادتني في إبَّان الانصراف من المدرسة، ومشينا بعضًا من الدرب معًا. سألتني عمّا إذا كنت أعرف شيئًا عن نينو، بلا مقدِّمات.

«لا شيء» أجبتها.

«قولي الحقيقة».

«إنَّها الحقيقة».

علمتُ منها شيئًا فشيئًا بأنّ نينو، بعد انقضاء الصيف، لم يعد يتردَّد إليها ولا إلى ابنتها.

«لقد قطع علاقته بناديا بأسلوب غير لائق» قالت بنقمة الأمّ، «أرسل إليها أسطرًا قليلة في رسالة من إيسكيا، وجعلها تعاني كثيرًا». ثم ضبطتْ أعصابها، وأضافت، بعد أن استعادت دورها كأستاذة: «لكن صبرًا، فأنتم شبّانٌ، والألم يفيدكم كي تنضجوا».

Telegram: Somrlibrary

أومأتُ بنعم، فسألتني:

«هل هجرك أنت أيضًا؟»

احمرّ وجهي.

«أنا؟»

«ألم تلتقيا في إيسكيا؟»

«بلى، لكن لم يحدث بيننا شيء».

«متأكِّدة؟»

«حتمًا».

«ناديا مقتنعة بأنَّه هجرها لأجلك».

نفيتُ بشدّة، وقلت إنَّني مستعدَّة للقاء ناديا كي أوضّح لها الأمر، فلا علاقة تجمعني بنينو، ولم يكن لأيٍّ علاقة بيننا أن تنشأ. سُرّتْ بهذا، وأكَّدت لي أنَّها ستنقل الخبر إلى ابنتها. لم آتِ على ذكر اسم ليلا، بطبيعة الحال، ليس لأنَّني قرَّرتُ أن أبقى وشأني فحسب، بل لأنّ الحديث عنها كان سيسبِّب لي الإحباط أيضًا. حاولتُ التملُّص، لكنّها عادت إلى موضوع نينو. قالت إنّ إشاعات متعدِّدة كانت تدور حوله. ثمّة من يروي أنَّه لم يكتفِ بالتغيُّب عن امتحانات الخريف فقط، بل كفّ عن الدراسة أيضًا؛ وآخرون يُقسمون إنَّهم رأوه ذات مساء في شارع آريناتشا، وحيدًا وثملًا كلِّيًّا، يترنَّح ويزدرد كلّ هنيهة من القنينة. غير أنَّها ختمتْ قائلة إنّ نينو لم يكن محطّ استلطاف الجميع، ولعلّ أحدهم كان يتعمَّد اختلاق الإشاعات عنه. وإن كان ما يُقال صحيحًا، فيا للأسف!

«لا بدّ من أنَّها أقاويل» قلت.

«نأمل ذلك. لكنْ من الصعب اللحاق بهذا الشابّ».

«أجل».

Telegram: Somrlibrary

«إنَّه شاطرٌ للغاية».

«أجل».

«أعلميني إذا وردك أيّ شيء عمّا يفعل».

افترقنا، وهرعتُ إلى إعطاء درس اللغة الإغريقيَّة لفتاة تدرس في المرحلة الثانويَّة الأولى، وتسكن في باركو مارغريتا. وكم كان الأمر شاقًّا! في الصالة الكبيرة حيث استقبلتني باحترام، والتي كان الظلّ يشغلها على الدوام، ثمَّة أثاث في منتهى الرقيّ، وبسطٌ تظهر فيها مشاهد الصيد، وصور قديمة لجنود من رُتَب عليا، وما لا يُحصى من دلالات على تقاليد من الفخامة والرخاء سبّبتْ لتلميذتي الشاحبة، ذات الأربعة عشر عامًا، بلادةً ملحوظة على جسمها وذكائها، وسبّبتْ لي شعورًا بالمعاناة. في تلك المناسبة، توجّب عليّ جهدٌ كبيرٌ بشكل استثنائيّ لتفسير تصريف الأفعال وإعرابها. وما زال طيف نينو، كما وصفته غالياني، يمرّ في ذهني: سترة تالفة، وربطة عنق تتدلّى على صدره، وساقان طويلتان تمشيان بخطوات متردِّدة، وقارورة الخمر الفارغة تهوي لتتحطَّم على الأرض في شارع آريناتشا بعد الرشفة الأخيرة. ما الذي حدث بينه وبين ليلا، بعد إيسكيا؟ ليلا تابت بالطبع، خلافًا لتوقُّعاتي، وانتهى كلّ شيء، وعادت إلى رشدها. أمَّا نينو، فعلى العكس: تحوّل من طالب شابّ نجيب، إجابته حاضرة دومًا عن أيّ سؤال، إلى متشرِّد ضالّ غلبته تباريح الهوى والغرام بزوجة اللحَّام. فكَّرتُ في أن أعود لأسأل ألفونسو إن كان لديه أخبار ما. فكَّرتُ في أن أذهب بنفسي إلى ماريزا، وأسألها عن شقيقها. وسرعان ما أرغمتُ نفسي على محوه من رأسي. أزمةٌ وسيجتازها، قلت في سرّي. هل بحث عنِّي؟ لا. وليلا، هل بحثت عنِّي؟ لا. فلماذا عليّ أن أقلق عليه أو عليها، في حين لم يهتمّ أيٌّ منهما بأمري؟ شرعتُ بتدريس الفتاة، ومضيتُ في طريقي.

٧٨

بعد عيد الميلاد، علمتُ من ألفونسو أنّ بينوتشا أنجبت ذكرًا أسموه فرناندو. ذهبتُ لأزورها، وظننتُ أنَّها أسيرة الفراش، سعيدة بمولودها وهو يرضع من ثديها. لكنّني وجدتُها واقفة على قدميها، ترتدي ثياب النوم ونعلًا منزليًا، مكفهرّة الوجه. طردت أمَّها بأسلوب مشين، بعد أن أوصتها: «استلقي على السرير يا ابنتي، لا تُرهقي نفسك». وحين اصطحبتني إلى المهد، قالت لي ممتعضة: «ليس من المعقول أنّني أفشل في كلّ شيء دائمًا، انظري كم هو قبيح، يصيبني النفور إذا لمستُه، بل حتى إذا نظرتُ إليه». غمغمتْ ماريًا، وهي واقفة عند عتبة الغرفة، بنبرة ملطِّفة: «ماذا تقولين يا بينا؟ إنَّه وسيم جدًّا»، فواصلت بينوتشا سخطها: «بل إنَّه قبيح، أكثر قبحًا من أبيه، جميع أفراد تلك العائلة قبيحون». ثم حبستْ أنفاسها وهتفتْ محبطة، وعيناها تفيضان دمعًا: «كنت مخطئة، لقد أسأتُ اختيار الزوج؛ بالفعل إنَّنا في سنّ المراهقة لا نُحسن التفكير؛ والآن؛ انظري أيّ ولد أنجبتُ! أنفه مفلطح كأنف لينا». ثم راحت، من دون أن تقطع حديثها، تهاجم نسيبتها بأشنع الإساءات.

علمتُ منها بأنّ ليلا، العاهرة، كانت تعيث فسادًا، كما يحلو

Telegram: Somrlibrary

لها، في المحلّ في ساحة الشهداء، منذ خمسة عشر يومًا، حتى رضخت جيليولا، وعادت إلى صنع الحلويّات في مقهى سولارا؛ وبينوتشا أيضًا اضطرَّت إلى الرضوخ لوجوب انشغالها بالمولود لأجَلٍ غير مسمًّى؛ وقد رضخ الجميع، وستيفانو على رأسهم، كالعادة. وهكذا، تسنّى لليلا أن تبدع في نزواتها كلّ يوم: كانت تذهب إلى العمل مرتدية ثيابًا تليق بالعارضات، في برنامج مايك بونجورنو التلفزيونيّ؛ وإن لم يرافقها زوجها بالسيَّارة، كانت تطلب توصيلة من ميكيلي من دون أيّ مشكلة؛ وأنفقتْ أموالًا باهظة لشراء لوحتين، لا يفهم أحد عن أيِّ شيء تعبّران، وعلّقتهما في المحلّ من دون أن يُدرك أحد الغاية منهما؛ واشترت كمِّيَّة هائلة من الكتب، ووضعتها على أحد الرفوف بدلًا من الأحذية؛ وجهّزت ما يشبه الصالون الصغير المؤثَّث بالدواوين والأرائك، وكأسٍ عملاقة من الكريستال ملأتها بشوكولاتة غاي أودين، ووضعتها في تصرُّف من يريد، مجّانًا، كأنَّها لم تكن هناك لتشمّ رائحة أقدام الزبائن الكريهة، بل لتؤدِّي دور النبيلة في القلعة.

«وليس هذا فحسب» قالت، «ثمَّة ما هو أسوأ كثيرًا».

«وما هو؟»

«هل تعلمين ماذا فعل مارتشيلُّو سولارا؟»

«لا».

«أتذكرين الحذاء الذي أعطاه إيَّاه ستيفانو ورينو؟»

«ذاك الذي كان مطابقًا لتصميم لينا؟»

«أجل، ذلك الحذاء القميء، الذي لطالما قال عنه رينو إنّه لا يقاوم تسرّب المياه».

«حسنًا، ما الذي حدث؟»

Telegram: Somrlibrary

صدمتني بينا بقصّة محزنة، مربكة نوعًا ما، قوامها المال والديون، وأحداثها مبنيّة على الخديعة والاحتيال. حدث أنَّ مارتشيلُّو، بعد أن أحبطته التصاميم التي قدّمها رينو وفرناندو، قرَّر أن يضع ذلك الحذاء قيد التصنيع، بعد موافقة ميكيلي طبعًا، لكن ليس في ورشة شيرولُّو، بل في مصنع آخر في أفراغولا. وبعدئذ، خلال عيد الميلاد، شرع في توزيع تصميمه على المحالّ تحت علامة سولارا، وخصوصًا في محلّ ساحة الشهداء.

«وهل يحقّ له هذا؟»

«حتمًا، فالحذاء ملكه. أخي وزوجي، هذان الوغدان، أهدياه الحذاء، وفي وسعه أن يفعل به ما يشاء».

«وبعد؟»

«وبعد» قالت، «الآن، في أسواق ناپولي، توجد أحذية شيرولُّو وأحذية سولارا. وأحذية سولارا تجد استحسانًا مذهلًا، أفضل من أحذية شيرولُّو. والأرباح بأسرها تعود إلى سولارا، ما أثار غضب رينو، إذ كان يتوقَّع منافسة من أيّ أحد، لكن ليس من الأَخَوَين سولارا، شريكَيه. إضافة إلى أنَّهما ينافسانه في حذاء من صنع يديه، وكان هو الذي تخلّى عنه بغباء شديد».

خطر في ذهني مارتشيلُّو، حين هدّدته ليلا بالسكّين. كان أكثر خمولًا من ميكيلي، وأكثر حياءً. إلامَ اضطرّ ليُقْدِم على هذه الخطوة المزعجة؟ لم تكن المشاريع تنقص آل سولارا، بعضها في وَضَح النهار، وأخرى في الخفاء، وكانت أموالهم تزداد يومًا بعد يوم. كانت لدى الأَخَوَين علاقات ودِّيَّة مع أصحاب النفوذ، منذ عهد جدّهما، يقدِّمان الخدمات ويحصلان عليها. وكانت والدتهما تُقْرض المال بالربا، ولديها دفتر يُدِبُّ الرعب في قلوب معظم أهالي الحيّ، ولعلّ

Telegram: Somrlibrary

آل شيرولو وآل كارّاتشي كانوا من بينهم. كان مشروع الأحذية والمحلّ في ساحة الشهداء، واحدًا من موارد عائلة مارتشيلّو المتعدِّدة، ولا شكّ في أنَّه ليس المورد الأكثر أهمِّيَّة. فلماذا فعل ذلك؟

بدأت قصَّة بينوتشا تزعجني: خلف حجّة الأموال، بدا لي أنّ الإذلال هو الهدف الحقيقيّ. ولئن كان حبّ مارتشيلّو لليلا قد انطفأ، فإنّ الجرح ما زال حاضرًا، وقد التهب أيضًا. فبعد أن تخلَّص من أيّ تبعيّة، شعر بأنَّه حرٌّ لإلحاق الأذى بمن أهانه في الماضي. وبالفعل، قالت لي بينوتشا: «ذهب رينو مع ستيفانو للاعتراض، من دون أيّ نتيجة». تعامل معهما الأَخَوان سولارا بغطرسة، إذ كانا معتادين على فعل ما يروق لهما؛ لذا بدا اللقاء كأنَّه نقاش في ما بينهما. وفي النهاية، قال مارتشيلُّو، بغموض، إنَّه وأخاه يفكِّران في تصنيع علامة سولارا كلِّيًّا، وإعادة إنتاج مواصفات ذلك الحذاء، الذي تمّ إنجازه كتجربة، بعد إجراء بعض التعديلات عليه. ثم أضاف، بلا أيِّ رابط منطقيّ: «سنرى كيف تسير منتوجاتكما الجديدة، وكيف يُكتَب لها البقاء في السوق». هل فهمتِ؟ أجل، فهمتُ. كان مارتشيلُّو يقصد إزالة علامة شيرولُّو، واستبدالها بعلامة سولارا، فيسبِّب بهذا ضررًا اقتصاديًّا جسيمًا لستيفانو. لا بدّ من أن أهجر هذا الحيّ، ونابولي كلّها، قلت لنفسي، فما الذي يعنيني بنزاعاتهم؟ لكنَّني سألتُ:

«ولينا؟»

قدحت عينا بينوتشا بشررٍ وحشيّ.

«المشكلة هي لينا تحديدًا».

تلقَّت ليلا تلك القصَّة بسخرية. وعندما غضب منها رينو وزوجها، احتدّت عليهما هكذا: «أنتما من أهداه ذلك الحذاء، ولست أنا. أنتما من تورَّط في أعمال سولارا، ولست أنا. أنتما وغدان، فما

Telegram: Somrlibrary

الذي يسعني فعله لأجلكما؟» لم تقدّم أيّ عون إليهما، وبات من الصعب معرفة الجانب الذي تنحاز إليه: مع عائلتيها أم مع الأَخَوَين سولارا. حتى إنَّها، حين ألحّ ميكيلي ثانية على نيّته تعيينها في ساحة الشهداء، ارتضت العمل بلا نقاش، بل سبَّبت لستيفانو العذاب كي يدعها تذهب إلى هناك.

«ولماذا رضخ ستيفانو؟» سألتُ.

تنهّدت بينوتشا طويلًا لتزداد غمًّا. رضخ ستيفانو لأنّه كان يأمل أن تساهم ليلا في إصلاح الأمور، نظرًا إلى تعويل ميكيلي عليها كثيرًا، وإلى أنَّ مارتشيلُّو لطالما كان ضعيفًا أمامها. لكنّ رينو لم يكن يثق بشقيقته، وكان متوجِّسًا، ولا ينام الليل. فالحذاء القديم، الذي تجاهله هو وفرناندو، والذي تبنّاه مارتشيلُّو وصنّعه مطابقًا للتصميم الأصليّ، كان يغزو السوق. فما الذي سيحدث إن تعامل الأَخَوان سولارا معها مباشرة، وإن انتقلت ليلا، وهي اللعينة منذ ولادتها، إلى تصميم الأحذية لهما، بعد أن رفضت تصميم أحذية جديدة لعائلتها؟

«لن يحدث هذا»، قلت لبينوتشا.

«هل هي من أخبرك بهذا؟»

«لا. فنحن لا نلتقي منذ الصيف».

«فماذا إذن؟»

«إنَّني أعرف طباعها جيِّدًا. لينا يشتعل فضولها بشيء ما، وتوليه كلّ اهتمامها، ثم ما إن تحقّق الهدف منه، حتى تزول رغبتها فيه ولا تنشغل به بعدها أبدًا».

«هل أنتِ متأكِّدة؟»

«أجل».

سُرَّتْ ماريّا بكلامي، وضمَّتْ ابنتها لتهدِّئ روعها.

«هل سمعتِ؟» قالت، «كلّ شيء على ما يرام، لينوتشا تعرف ما تقول».

لكنَّني في الواقع لم أكن أعرف شيئًا؛ إذ كنت، في جانبي الأكثر جهلًا، أعرف تصرُّفات ليلا التي تخذل التوقُّعات، لذا، كنت أتلهَّف إلى الخروج من ذلك المنزل. وكنت أفكِّر: ما شأني أنا بهذه القصص البائسة، وبالانتقام التافه الذي يحضِّر له مارتشيلّو سولارا، وبتلك المشاحنات والعيش المتوتِّر للجميع حبًّا بالمال والسيَّارات والبيوت والأثاث والتحف، والاصطياف على وجه الخصوص؟ وكيف استطاعت ليلا، بعد إيسكيا، وبعد نينو، أن تعود لتقارع هؤلاء المافياويِّين؟ سأحصل على الكفاءة، وأخوض مسابقة وأفوز فيها. سأهجر هذا القرف بعيدًا، إلى أبعد ما يمكن. قلت، وأنا أشعر بالعطف تجاه المولود الذي حملتْه ماريّا بين ذراعيها:

«كم هو وسيم».

Telegram: Somrlibrary

٧٩

إلَّا أنَّني لم أقاوم. بقيتُ أؤجِّل لمدَّة طويلة، ثم استسلمتُ في النهاية: طلبتُ من ألفونسو أن نتنزَّه يوم أحد ما، مع ماريزا أيضًا. سُرّ ألفونسو بهذا الطلب، ورحنا إلى مطعم پيتزا في شارع فوريا. استعلمتُ عن ليديا، والأطفال الصغار، وعن شيرو خصوصًا، ثم سألتُ عن أوضاع نينو. أجابتني على مضض، إذ كان الحديث عن شقيقها يُثير أعصابها. قالت إنَّه مرّ في فترة طويلة من الجنون، ما سبّب سخط والدها، الذي كانت تُجلّه كثيرًا، ووصل الأمر بنينو إلى المشاجرة بالأيدي معه. ولم يفهم أحدٌ ما سبب هذه اللوثة: لم يعد يريد إكمال الدراسة، وكان يفكِّر في الهجرة من إيطاليا. ثم زال جنونه فجأة، وعاد كما كان في السابق، وقد أجرى للتوّ بعض الامتحانات.

«فهو بخير إذن؟»

«لا أدري».

«مسرور؟»

«نسبيًّا».

«ويفرّغ وقته للدراسة؟»

«تقصدين إن كان مرتبطًا بإحداهنّ؟»

Telegram: Somrlibrary

«لا، أبدًا. قصدتُ إن كان يخرج، ويلهو، أو يذهب للرقص».

«وما أدراني يا لينو؟ يمضي طوال الوقت خارج البيت. وفي هذه الأيَّام، تلبّسه الشغف بالسينما والروايات والفنّ؛ وإذا صدف ومرّ في البيت، لا يدَّخر لحظة إلَّا وجادل فيها والدي، لا لشيء سوى للإساءة إليه والشجار معه».

شعرتُ بارتياحٍ، إذ استعاد نينو رشده، لكنَّني امتعضتُ من ناحية أخرى. السينما، الروايات، الفنّ؟ كم يتغيَّر الأشخاص في عجالة، ويتغيَّر ولعهم واهتماماتهم! يستبدلون عباراتٍ مَصوغة بعناية بعباراتٍ أخرى مَصوغة بعناية! وما الزمن سوى سيلان من الكلمات المناسبة في الظاهر ليس إلَّا، ومَن لديه أكبر عدد منها يكدِّس أكبر عدد منها. شعرتُ بأنَّني غبيَّة، إذ تجاهلتُ أشياء تعجبني كي أتلاءم مع ما يعجب نينو. أجل، أجل، فليرضَ كلٌّ بما هو عليه، وليمضِ كلٌّ في طريقه. كان أملي ألَّا تخبره ماريزا بأنَّني التقيتُها وسألتها عنه. ولم أعد أشير إلى نينو، أو ليلا، حتى مع ألفونسو، بعد تلك السهرة.

تقوقعتُ على واجباتي أكثر، وضاعفتُ حجمها كي تملأ ليلي ونهاري. في ذلك العام، درستُ كالممسوسين، بشكل معقّد، وقبلتُ عرضًا بدرس خصوصيّ جديد بمردود ماليّ مرتفع. فرضتُ على نفسي منهجًا صارمًا، لا يُقارَن بكلّ المناهج التي مشيتُ عليها منذ الطفولة. وقتٌ مضبوط، بخطّ مستقيم، يبدأ من الفجر حتى آخر الليل. في الماضي، كانت ليلا هي التي تميل بي نحو بقاعٍ غرائبيَّة، بسعادة دائمة. أمَّا حينذاك، فكنت أقصد أن أستخلص منّي كلّ ما كنت عليه. كنت ذات تسعة عشر عامًا تقريبًا، لن أتعلَّق بأحد بعد اليوم، ولن أشعر بفراغ أحد أبدًا.

وانقضى العام الأخير من المرحلة الثانويَّة، كما لو كان يومًا

واحدًا. ناضلتُ في علم الفلك، والهندسة الرياضيَّة، وحساب المثلَّثات. كأنَّني أمضي في سباق لمعرفة كلّ شيء، في حين كان توهُّمي بعدم جدارتي راسخًا ولا سبيل لمحوه. ومع هذا، كنت أحبّ القيام بما أمكنني. لم يكن لديّ وقت للذهاب إلى السينما. أطَّلع على العناوين والأحداث الرئيسة فقط. لم أدخل متحف الآثار قطّ. أذهب إليه نصف نهار على عَجَل. لم أزر المعرض الوطنيّ في كابوديمونتي. أمرّ عليه بسرعة، أتجوَّل فيه ساعتين ثم أخرج. في المحصّلة، كان وقتي مكتظًّا بالواجبات. ما الذي يهمّني بالأحذية والمحلّ في ساحة الشهداء؟ لم أذهب إليه إطلاقًا.

بعض المرّات، كنت ألتقي بينوتشا، وهي تجرّ فرناندو في عربته، وقد بدا عليها الإرهاق. أتوقَّف معها لحظاتٍ، أستمع دونما تركيز في تذمُّرها من رينو وستيفانو وليلا، وجيليولا، والجميع. وأحيانًا، ألتقي كارمن، وقد كان استياؤها يتصاعد من سير الأمور المتعثّر في الملحمة الجديدة، منذ أن تركتها ليلا تحت جور ماريّا وبينوتشا؛ وكنت أدعها تفرغ حزنها بضع دقائق بسبب اشتياقها إلى إنتسو سكانو؛ كانت تعدّ الأيَّام وهي في انتظار أن ينهي خدمته العسكريَّة، وتكلِّمني على شقيقها باسكوالي الذي يعاني بين عمله في ورشات البناء ونضاله الشيوعيّ. وأحيانًا، كنت ألتقي آدا التي بدأت تكره ليلا، بينما كانت مسرورة من ستيفانو، وتتحدَّث عنه بلطف، ليس لأنَّه رفع راتبها مرَّة أخرى فحسب، بل أيضًا لأنَّه كان عاملًا جبّارًا، يساعد الجميع، ولا يستحقّ تلك الزوجة التي تعامله بسلوك سيِّئ.

وكانت هي من أخبرني بأنّ أنطونيو تمّ تسريحه قبل الأوان، بعد أن عانى انهيارًا عصبيًّا شرسًا.

«ما السبب؟»

Telegram: Somrlibrary

«تعرفين طباعه جيِّدًا، فأعصابه انهارت منذ أن كنتما معًا».

جرحني هذا الجواب اللئيم، حاولتُ ألَّا أفكِّر في كلماتها. ذات يوم أحد شتويّ، التقيتُ أنطونيو مصادفةً، وبالكاد عرفتُه لشدّة هزاله. ابتسمتُ في وجهه، آملة أن يتوقَّف، لكنّه لم يبدُ أنَّه انتبه إليّ، وتابع سيره. ناديته، فالتفت بابتسامة مشتَّتة.

«مرحبًا يا لينو».

«مرحبًا. كم أنا سعيدة برؤيتك»!

«وأنا أيضًا».

«ماذا تفعل؟»

«لا شيء».

«ألن تعود إلى الورشة؟»

«لم يعد المكان شاغرًا».

«لكنّك ماهرٌ، وستجد عملًا في مكان آخر».

«لا، لن أستطيع العمل إذا لم أُشفَ».

«ما الذي أصابك؟»

«الخوف».

هكذا أجابني تمامًا: الخوف. ذات ليلة، في كوردينونس، بينما كان يقوم بمهمَّة الحراسة، تذكَّر لعبة كان والده يلعبها معه، حين كان حيًّا، وهو لا يزال طفلًا صغيرًا: كان يرسم بالقلم عيونًا وأفواهًا على أصابعه الخمس في يده اليسرى، ثم يقوم بتحريكها وبجعلها تتكلَّم كما لو كانت أُناسًا. كانت اللعبة ممتعة للغاية، حتى إنّ عينيه أدمعتا عندما تذكَّرها. لكنّ انطباعًا راوده في تلك الليلة، في أثناء تأدية نوبة الحراسة، بأنَّ يد والده دخلت في يده، وأنّ هناك أشخاصًا حقيقيِّين

Telegram: Somrlibrary

في أصابعه؛ أشخاصًا في منتهى الصغر، لكن جميعهم مشوَّهون، يضحكون ويغنُّون. فاعتراه الخوف من تلك الهواجس. وراح يضرب يده على كشك المراقبة حتى نزفت دمًا، غير أنّ أصابعه واصلت ضحكها وغناءها من دون أن تتوقَّف لحظة واحدة. ولم يشعر بأنَّه على ما يرام إلَّا عندما انتهت دوريَّته وخلد إلى النوم. نَعِمَ بقليل من الراحة، ولم يعد يشعر بشيء منذ الصباح التالي. لكنّه ظلّ متوجِّسًا من أنّ المرض قد يُدرك يده ثانية. وبالفعل، عاد المرض، وكان أكثر إلحاحًا، وباتت أصابعه تنفجر ضحكًا وغناءً خلال النهار أيضًا، إلى أن فقد رشده، فأرسلوه إلى الطبيب.

«لقد شُفيتُ الآن» قال، «لكنّ النوبة قد تعود دومًا».

«قل لي كيف يسعُني أن أساعدك».

فكَّر قليلًا، كما لو كان يخمِّن إمكاناتي حقًّا. ثم غمغم:

«ليس في مقدور أحدٍ أن يساعدني».

فأدركتُ حينها أنَّه لم يعد يشعر تجاهي بأيّ شيء، وأنَّني قد خرجتُ من رأسه كلِّيًا. لذا، بعد ذلك اللقاء، اعتدتُ أن أمشي تحت نوافذ بيته كلّ يوم أحد، وأناديه. كنَّا نتنزَّه في الفناء، ونثرثر في بعض الأمور، ونفترق عندما يقول إنَّه يشعر بالتعب. وفي بعض الأحيان، كان ينزل مع ميلينا، وقد أفرطت في بهرجتها، ونتمشَّى أنا وهو وأمّه. وأحيانًا، كنَّا نلتقي آدا وباسكوالي، ونوسّع نطاق النزهة؛ لكن بشكل عام، كنَّا نتحدَّث نحن الثلاثة فقط، بينما يظلّ أنطونيو صامتًا. في المحصّلة، باتت عادة مريحة. ذهبتُ معه إلى جنازة نيكولا سكانو، بائع الخُضَر، والذي وافته المنيّة فجأة بعد إصابته بذات الرئة، ما سرّح إنتسو من الخدمة من دون أن تتسنّى له رؤية والده حيًا. ومعًا، رحنا نعزِّي باسكوالي وكارمن وأمَّهما جوزيبينا، بعد أن وصلهم خبر وفاة

Telegram: Somrlibrary

والدهم، النجَّار السابق الذي قتل الدون آخيل، بعد إصابته بسكتة قلبيَّة في السجن. وكنَّا معًا، حين عرفنا أيضًا أنّ الدون كارلو ريستا، بائع الصابون والأدوات المنزليَّة الأخرى، عُثر عليه مقتولًا في مستودعه. تحدّثنا عن اغتياله مطوَّلًا، وتحدّث الحيّ بأسره في الأمر، فنتج من الثرثرة حقائق وخرافات قاسية. قال أحدهم إنّ الضربات لم تكن كافية، ما جعلهم يغرسون خنجرًا في أنفه. ونُسبت الجريمة إلى بعض المنحرفين؛ إلى أشخاص قبضوا ثمن فعلتهم. لكنّ باسكوالي، في ما بعد، قال لنا إنَّه سمع إشاعاتٍ مؤكّدة ويصدِّقها، تُفيد بأنّ الدون كارلو كان قد استدان من السيِّدة سولارا، لأنَّه كان مولعًا بالقمار، وكان يتَّجه إليها ليوفي ديون اللعب.

«وماذا بعد؟» سألته آدا التي كانت كثيرة الشكّ حين يصرِّح خطيبها بفرضيَّاتٍ خطيرة.

«هذا يعني أنَّه رفض سداد ما عليه للمرابية، فقتلوه».

«كلامك كلّه ترّهات».

من الوارد أنّ باسكوالي كان يبالغ، لكن ـ أوَّلًا ـ لم يُعرف أبدًا مَن قتل الدون كارلو ريستا؛ وثانيًا، استولى آل سولارا حقًّا على المستودع بما يحويه من بضاعة، في مقابل ثمن بخس جدًّا، مع أنَّهم تركوا فيه زوجة الدون كارلو ونجله لإدارته.

«كَرَمًا منهم»، قالت آدا.

«بل لأنَّهم حقراء أوغاد»، ردّ باسكوالي.

لا أذكر أنّ أنطونيو علّق برأيه على هذا الحادث. كان أسيرًا لتعاسته الخاصَّة، والتي كانت نقاشات باسكوالي تهيّجها بشكل أو بآخر. كان يبدو له أنّ العطب في جسمه يمتدّ ليشمل الحيّ برمّته، ويتجلّى عبر تلك الوقائع الشنيعة التي تحدث.

Telegram: Somrlibrary

إلّا أنّ أشنع ما حدث لنا وقع ذات يوم أحد ربيعيّ دافئ، حين كنت أنا وهو وباسكوالي وآدا، في الفناء، ننتظر كارمن التي صعدت إلى البيت لتلبس كنزة ما. مرّت خمس دقائق، فإذا هي تطلّ من النافذة، وتصرخ بأخيها:

«باسكوالي، لا أجد أمّي. باب المرحاض مقفلٌ من الداخل، لكنّها لا تجيب».

صعد باسكوالي درجات السلّم اثنتين اثنتين، ونحن خلفه. وجدنا كارميلا في حالة فزع، واقفة أمام باب المرحاض. طرق باسكوالي الباب مرتبكًا، بتهذيب، أكثر من مرّة، لكنّ أحدًا لم يردّ. حينذاك، قال أنطونيو لصديقه، مشيرًا إلى الباب: لا تقلق، سأصلّحه في ما بعد. وأمسك بالمقبض حتى كاد يخلعه.

فُتح الباب. كانت جوزيبينا بيلوزو امرأة تنبض حيويّة وعاملة كادحة، وبشوشة، وقادرة على مكابدة كلّ الشدائد. لم تتوان يومًا عن الاهتمام بزوجها المسجون، وكنت أتذكّر كم قاومت للحيلولة دون اعتقاله بكلّ قواها، حين اتّهموه بمقتل الدون آخيل كارّاتشي. وقد رحّبت بدعوة ستيفانو إلى الاحتفال برأس السنة، منذ أربعة أعوام، بتعقّل ورزانة. وقد ذهبت إلى الحفلة مع أبنائها، وهي سعيدة بتلك المصالحة بين العائلتين. كانت سعيدة حين وجدت ابنتها عملًا، بفضل ليلا، في ملحمة الحيّ الجديد. لكنّ قواها انهارت بالطبع، بعد وفاة زوجها، وأصبحت في غضون وقت قصير امرأة هزيلة، جِلْدًا على عظم، وفقدت عنفوانها. فكّت مصباح المرحاض، المكوّن من صحنٍ معدنيّ معلّق بسلسلة، وربطتْ حبل الغسيل الحديديّ بالدعامة المغروزة في السقف. ثم لفّت به عنقها.

كان أنطونيو أوّل من رآها، فانفجر باكيًا. وكان أسهل علينا أن

نهدّئ روع أبناء جوزيبينا، كارمن وباسكوالي، من أن نهدّئ روعه. إذ كان يكرِّر على مسمعي مرتعدًا: هل رأيتِ كيف كانت حافية القدمين وأظفارها طويلة، وكيف أنّ أظفار إحدى قدميها كانت مطليَّة بالأحمر، والأخرى لا؟ لم أكن قد انتبهت إلى ما انتبه إليه. كان قد عاد من الخدمة العسكريَّة مقتنعًا أكثر من ذي قبل، على الرَّغم من مرضه العصبيّ، بأنّ وظيفته تكمن في أداء دور الذَّكَر الذي يرمي بنفسه في المخاطر قبل الجميع، بلا خوف، ويعرف حلّ أيّ مشكلة. لكنّه كان ضعيفًا. بعد تلك الحادثة، ظلّ يرى طيف جوزيبينا لأسابيع في كلّ زوايا بيته المظلمة، وازدادت حالته سوءًا، حتى إنَّني أهملتُ أحد واجباتي لأساعده في استرداد أجواء السكينة. وكان هو الشخص الوحيد في الحيّ تقريبًا، ممَّن التقيتُهم بشكل مستمرّ، حتى أجريت امتحان الكفاءة. أمّا ليلا، فبالكاد رأيتُها من بعيد، إلى جانب زوجها، في جنازة جوزيبينا، وهي تضمّ كارمن التي كانت تجهش بالبكاء. أرسلت ليلا وستيفانو باقة أزهار كبيرة، كُتب على شريطها البنفسجيّ أسمى عبارات العزاء من الزوجين كارّاتشي.

Telegram: Somrlibrary

٨٠

ليست الامتحانات ما جعلني أكفّ عن رؤية أنطونيو؛ إنّما صادف وقوع الأمرين في الفترة نفسها. وذلك حين جاء هو يبحث عنّي، وكانت معنويّاته مرتفعة، ليخبرني بأنّه وافق على العمل في خدمة الأَخَوَين سولارا. ساءني الخبر، وبدا لي دلالة أخرى على تعاسته؛ فقد كان يحقد عليهما، ولطالما تشاجر معهما منذ أيّام المراهقة دفاعًا عن أخته. وقد تعاون مع باسكوالي وإنتسو ليُشبعوا ثلاثتهم مارتشيلّو وميكيلي ضربًا، ثم حطّموا سيّارتهما. ناهيك بأنّه تخلّى عنّي، لأنّني ذهبت عند مارتشيلّو لأطلب أن يساعده في عدم الذهاب إلى الخدمة العسكريّة. فما الذي غيّره إلى هذا الحدّ؟ أدلى بتوضيحات مضطربة. قال إنّه في الجنديّة، تعلّم كمجنّد غرّ أن يطيع على الدوام مَنْ هم أعلى منه رتبة. وأضاف أنّ النظام أفضل من الفوضى، وأنّه تعلّم كيف يهاجم أحدًا من الخلف ويقتله، من دون أن يجعله يشعر حتى باقترابه منه. فأدركتُ أنّ التعاسة كانت عاملًا مهمًّا في قراره، لكنّ المشكلة الحقيقيّة هي العَوَز؛ إذ دخل المقهى يطلب عملًا، فأساء ميكيلي معاملته بادئ الأمر، ثم عرض عليه مبلغًا في الشهر ـ على حدّ تعبيره ـ لكن من دون تكليفه بمهمّة معيّنة، إنّما ليكون رهن إشارته في حال

Telegram: Somrlibrary

أراد منه خدمة ما.

«رهن إشارته؟»

«أجل».

«لفعل ماذا بالضبط؟»

«لا أدري».

«انسَ أمرهما يا أنطونيو».

لم ينسَ أمرهما. وأدَّت به هذه التبعيَّة إلى الخصام مع باسكوالي وإنتسو، الذي عاد من العسكريَّة أكثر صمتًا وجمودًا من السابق. التعاسة أو عدم التعاسة، لم يقوَ أحدٌ منهما على أن يغفر لأنطونيو هذا الخيار، ولاسيّما باسكوالي، على الرَّغم من ارتباطه بآدا، فقد وصل به الغضب إلى تهديده، وقال: سواء أكان نسيبي أم لا، لم أعد أريد رؤيته بعد الآن.

انسحبتُ بسرعة من التفكير في تلك القضايا، وركَّزتُ في امتحان الكفاءة. وبينما كنت أدرس ليل نهار، وينهكني القيظ بعض الأحيان، كنت أفكِّر مجدَّدًا في ما حدث في الصيف المنصرم، وخصوصًا في تلك الأيَّام من يوليو، قبل أن تغادر بينوتشا، حين كنت أنا وليلا ونينو ثلاثيًّا مرحًا، أو هذا ما بدا لي على الأقلّ. أبعدتُ عنّي كلّ التخيُّلات وأصداء الكلام، ولو كانت خافتة؛ ولم أسمح لنفسي بلحظة شرود واحدة.

كان الامتحان نقطة حاسمة في حياتي. كتبتُ موضوعًا إنشائيًّا، في غضون ساعتين، عن دور الطبيعة في شعر جاكومو ليوباردي؛ وحشوتُه بعبارات راقية الأسلوب، نسختُها من كتاب تاريخ الأدب الإيطاليّ، فضلًا عن أبيات شعر كنت أحفظها عن ظهر قلب. وعلاوة على ذلك، سلَّمتُ إجابات امتحان اللاتينيَّة والإغريقيَّة، حين كان

Telegram: Somrlibrary

رفاقي، بمن فيهم ألفونسو، قد بدأوا للتوّ العمل عليها. وهذا ما لفت انتباه الممتحِنين نحوي، إحداهم الأستاذة الهزيلة العجوز، وكانت ترتدي تنُّورة زهريَّة، وشعرها مائل إلى اللون السماويّ، كأنَّها خرجت للتوّ من عند الحلَّاق، وراحت تبتسم في وجهي كثيرًا. في كلّ الأحوال، تحقَّق التحوُّل الحقيقيّ في الامتحان الشفهيّ. أثنى عليّ جميع الأساتذة، ولاسيّما الممتحِنة ذات الشعر السماويّ. كانت قد أُعجبت بموضوع الإنشاء، ليس بما كنت أقول فحسب، بل بكيفيَّة صياغته أيضًا.

«حضرتك تكتبين بطريقة جيِّدة جدًّا»، قالت لي بنبرةٍ غامضة الأصول بالنسبة إليّ، لكنَّها بعيدة بالتأكيد عن نابولي.

«شكرًا».

«هل ترين حقًّا أن لا وجود لشيء قابل للاستمرار، ولا حتى الشعر؟»

«هذا ما يراه ليوباردي».

«متأكِّدة من ذلك؟»

«نعم».

«وأنت، ما رأيك؟»

«أنا أرى أنّ الجمال خديعة».

«كالحديقة الليوبارديّة؟»

لم أكن أعرف شيئًا عن الحديقة في شعر ليوباردي، لكنَّني أجبتُ:

«أجل. كالبحر في يوم صافٍ، أو كالغروب، أو كالسماء في الليل. إنَّه كمسحوق التجميل يُخفي الفظاعة. إن نزعناه، واجهنا الرعبَ مُكرَهين».

Telegram: Somrlibrary

نطقتُ بهذه الجمل بأسلوب جيِّد، ولفظتها بصوت ملهم. لم أكن أرتجل في الواقع، إنَّما كنت أصوغُ بالقول ما كتبتُه في الموضوع.

«أيّ كلِّيَّة ستختارين، حضرتك؟»

لم أكن أعرف سوى القليل عن الكلِّيَّات، ولطالما أغفلتُ مجازيَّة هذا المصطلح. فناورتُ:

«سأجري مسابقة ما».

«لن تذهبي إلى الجامعة؟»

احمرّت وجنتاي، كما لو كنت أفشل في إخفاء فعلة ارتكبتها.

«لا».

«هل أنت في حاجة إلى العمل؟»

«نعم».

انصرفتُ، وعدتُ إلى ألفونسو والآخرين. وإذا بالأستاذة تبلغني في الممرّ. تحدّثتْ مطوَّلًا عمّا يشبه الكلِّيَّة في بيزا، حيث يُجرى امتحان كذاك الذي أجريتُه توًّا، وفي حال القبول يدرس الناجحون مجّانًا.

«إن عدتُ إلى هنا بعد يومين، أعطيتك كلّ البيانات اللازمة».

أصغيتُ إليها، لكنْ كما حين يكلِّمونكِ على أمر لا يمكن أن يعنيك أبدًا. وعندما عدت إلى المدرسة بعد يومين، لا لشيء سوى خشية أن تشعر الأستاذة بالإهانة فتعطيني علامة متدنِّية، صدمتني كمِّيَّة المعلومات الدقيقة التي أمدَّتني بها على ورقة مسطّرة. لم ألتَقِها بعدئذ، ولا أعرف حتى اسمها. وعلى الرَّغم من هذا، فإنَّني ممتنَّة لها كثيرًا. عانقتني عناق وداع دافئ وعفويّ، من دون أن تخفض الكلفة أبدًا.

انتهت الامتحانات، ونجحتُ بمعدّل تسعة من عشرة. وألفونسو أيضًا أبلى بلاءً حسنًا، بمعدّل سبعة. وقبل أن أترك المبنى المدرسيّ،

Telegram: Somrlibrary

الرماديّ والمتهالك، إلى الأبد، وبلا أيِّ حسرة، إذ كان في نظري مفيدًا لأنَّني التقيتُ نينو في ممرَّاته ليس إلَّا، رأيت غالياني من بعيد، واتَّجهتُ لأحيِّيها. هنّأتني على نتيجتي العالية، لكن بلا لهفة. لم تقترح عليّ كتبًا أقرأها في الصيف، ولم تسألني عمّا كنت أنوي فعله بعد أن حصلتُ على الكفاءة الثانويَّة. تضايقتُ من نبرتها، كنت أظنُّ أنَّ الأمور بيننا قد أُصلحَت. ما المشكلة؟ هل لأنَّها وصمتني بنينو الذي هجر ابنتها، ولم يعد يتردَّد إليها، أي لأنَّنا في رأيها، من الطينة ذاتها، فتية ذوو مبادئ مهزوزة، نفتقر إلى الجدِّيَّة، وبالتالي لا يعوّل علينا؟ شعرتُ بالأسى، لأنَّني كنت معتادة على كسب لطف الجميع، والحفاظ على ذلك اللطف حولي سلاحًا برّاقًا؛ وأعتقد أنّ لامبالاتها أعطت زخمًا أكبر لقراري الذي اتَّخذتُه في ما بعد. تقدَّمتُ بطلب قبول إلى جامعة نورمالي في بيزا، من دون أن أُطلع أحدًا على ذلك (ومَن كان ليُسدي إليَّ نصائح مفيدة مثل غالياني؟). ومنذ تلك اللحظة، رحت أكدح لكسب المال. ونظرًا إلى التقدير الذي حصلتُ عليه من العائلات النبيلة التي درّستُ أولادها طوال ذلك العام، ما جعلني معلِّمة مجتهدة ذائعة الصيت، أخذتُ أملأ أيَّام أغسطس بتدريس عددٍ كبير من التلاميذ الجدد، الذين كان عليهم إعادة الامتحانات في سبتمبر لكلّ من اللاتينيَّة والإغريقيَّة والتاريخ والفلسفة، والرياضيَّات أيضًا. وفي نهاية الشهر، لاحظتُ أنَّني بتّ ثريّة، حصلتُ على سبعين ألف ليرة دفعة واحدة. أعطيتُ خمسين ألفًا لوالدتي، التي تفاعلتْ بحركة هستيريَّة: انتزعت المال كلَّه من يدي، وأدخلته في حمّالة صدرها، كما لو أنَّها خشيت أن يسرقه أحد النشَّالين، مع أنَّنا كنَّا في مطبخ البيت لا في الشارع. وأخفيتُ عنها أنَّني احتفظتُ لنفسي بعشرين ألف ليرة.

وقبل الانطلاق بيوم واحد، أخبرتُ عائلتي بأنَّ عليّ الذهاب إلى بيزا لإجراء بعض الامتحانات. «إذا قبلوني» صرّحتُ، «فسأذهب

Telegram: Somrlibrary

للدراسة هناك من دون أن أُنفق ليرة واحدة على أيِّ شيء». تكلَّمتُ بدقَّة عالية، وبالإيطاليَّة الفصحى، كما لو كان الموضوع غير قابل للنقاش بالعامِّيَّة، وكما لو أنّه لا ينبغي لأبي وأمّي وإخوتي، أن يفهموا ما أنا ذاهبة لفعله، ولا يسعهم ذلك. وبالفعل، اكتفوا بالإصغاء ممتعضين؛ وبدا لي أنَّني لم أعد أنا نفسي في عيونهم، بل صرتُ شخصًا غريبًا جاء لزيارتهم في وقت غير مناسب. وفي النهاية، قال والدي: «افعلي ما عليك فعله، لكنْ خذي كامل حذرك، فنحن لا يمكننا مساعدتك»، وذهب لينام. وسألتني أختي الصغيرة إن كان في وسعها المجيء معي. أمّا أمّي، فلم تقل شيئًا؛ لكنَّها قبل أن تنصرف، تركت لي الخمسين ألف ليرة على الطاولة. حدّقتُ إلى المال طويلًا، من دون أن أمسّه. ثم تغلّبتُ على وساوسي، وقد تملّكني انطباعٌ بأنَّني أُسرف المال إرضاءً لنزواتي، وقلت لنفسي: إنَّها نقودي في الواقع، وأخذتُها معي.

كانت تلك المرَّة الأولى التي أخرج فيها من نابولي، ومن مقاطعة كامبانيا. اكتشفتُ أنَّني أخاف كلّ شيء: أخاف الصعود إلى القطار الخاطئ؛ أخاف عدم وجود مكان للتبوّل، إذا اقتضت الحاجة؛ أخاف أن يهبط عليّ الليل، فأخفق في تحديد وجهتي في مدينة مجهولة؛ أخاف النشّالين. وضعتُ كلّ نقودي في حمَّالة الصدر، كما كانت تفعل أمّي، وأمضيتُ ساعات في خوف وحذرٍ تعايشا مع شعورٍ متصاعد بالتحرُّر. يا للغرابة!

بدا لي أنَّ كلّ شيء يسير على ما يرام، عدا الامتحان. إذ أخفت عنّي تلك الأستاذة، ذات الشعر السماويّ، أنَّه أصعب من امتحان الكفاءة كثيرًا. امتحان اللاتينيَّة بصورة خاصَّة، بدا لي في منتهى التعقيد، لكنَّه في الواقع لم يكن سوى العقبة الأصعب: فكلّ مساءلة

Telegram: Somrlibrary

بدت كأنَّها مناسبة للتحقُّق من جدارتي. وكم أخطأتُ وتلعثمتُ، وكم تظاهرتُ بأنّ الإجابة على رأس لساني! تعامل معي بروفسور اللغة الإيطاليَّة، كما لو أنّ صوتي بالتحديد يزعجه: «حضرتكِ، يا آنسة، تُكثرين من اللغو بدلًا من الإيضاح في كتابتك. أرى أنَّك تجازفين في مناقشة مسائل، تجهلين إشكاليَّات أساساتها النقديَّة كلِّيًّا». شعرتُ بالخذلان، وسرعان ما فقدتُ الثقة بما أقول. انتبه البروفسور لهذا، ونظر إليّ ساخرًا، وطلب منّي أن أحدِّثه عن شيء ما قرأتُه مؤخَّرًا. كان يقصد شيئًا ما لكاتب إيطاليّ، على ما أعتقد، لكنَّني لم أفهم مقصده وتشبّثتُ بأوّل فكرة خطرت في ذهني وبدت لي موثوقة، أي تلك النقاشات التي أجريناها في الصيف الماضي، في إيسكيا، على شاطئ شيتارا، عن بيكيت ودان روني الذي كان يريد أن يصبح أصمّ وأبكم فضلًا عن كونه أعمى. فتحوَّل تعبير وجهه الساخر شيئًا فشيئًا إلى تأفُّفٍ مرتبك. وسرعان ما قاطعني، وأرسلني إلى بروفسور التاريخ. ولم يكن الأخير أخفّ وطأة. طرح عليّ قائمة طويلة ومُضْنِية مكوَّنة من أسئلة ذات صياغات بالغة الدقَّة. لم أشعر بأنَّني جاهلة بهذا الحجم حتى تلك اللحظة، ولا حتى في أصعب الأعوام المدرسيَّة، تلك التي تركتُ خلالها أسوأ الانطباعات عنِّي. استطعتُ الإجابة عن كلّ شيء، عن التواريخ والوقائع، لكنْ بشكل تقريبيّ دومًا. وكلَّما باغتني بسؤال أشدّ تعقيدًا، استسلمتُ. إلى أن سألني بامتعاض:

«هل سبق لكِ أنَّ قرأتِ شيئًا غير الكتب المدرسيَّة البسيطة؟»

فأجبتُ:

«قرأتُ عن مفهوم الأمَّة».

«هل تذكرين ما اسم مؤلِّف الكتاب؟»

«فيديريكو شابو».

«هاتِ ما فهمتِ منه».

أصغى إليّ باهتمام لدقائق معدودة، ثم سرّحني بقسوة ويقينٍ بأنَّني تفوّهت بالترّهات.

بكيتُ كثيرًا، كما لو أنَّني سهوتُ فأضعتُ شخصيَّتي الواعدة في مكان ما، ثم قلت لنفسي إنّ الإحباط تصرّفٌ غبيّ، فأنا كنت أعرف منذ البداية أنَّني لست شاطرة حقًّا. ليلا تستحقّ هذا اللقب، ونينو أيضًا. أمَّا أنا، فما كنت سوى دعيّة، وها قد عوقبتُ على ذلك.

غير أنَّهم أعلموني بأنَّني اجتزتُ الامتحان، وسيكون لي مقعدٌ في الجامعة، وسريرٌ لا يُفرَض عليّ تركيبه في المساء وتفكيكه في الصباح، ومنضدة، وكلّ الكتب اللازمة. أنا، إيلينا غريكو، ابنة البوّاب، في سنّ التاسعة عشرة، أوشك على الخروج من الحيّ، أوشك على مغادرة ناپولي. بمفردي.

Telegram: Somrlibrary

٨١

مضت الأيَّام العصيبة بسرعة. كان لديّ القليل من الثياب المزرية لأحملها معي، والقليل من الكتب؛ وكلمات أمِّي الكئيبة: «إن جنيتِ مالًا، أرسليه إليَّ بالبريد. والآن مَن سيُعين إخوتك في إنجاز الواجبات؟ ستسوء أوضاعهم في المدرسة بسببك. لكن هيّا، غادري، فمن يكترث لهذا. لطالما عرفتُ أنَّك تحسبين نفسك أفضل منِّي ومن الآخرين»؛ وكلمات أبي، متوهِّم الأمراض: «أشعر بألم هنا، ومن يدري السبب، تعالي واجلسي قرب والدك يا ابنتي، فلست متأكِّدًا من أنَّك ستجدينني حيًّا حين تعودين»؛ وكلمات إخوتي وإلحاحهم: «هل في إمكاننا أن ننام عندك، ونأكل معك، إذا جئنا لزيارتك»؛ ثم باسكوالي: «خذي حذرك من هذه الطريق التي تأخذك فيها الدراسة يا لينو، وتذكَّري دومًا من أنتِ وأيّ جانب تناصرين»؛ ثم كارمن، التي لم تكن تستطيع تجاوز وفاة والدتها، كانت هشّة وضعيفة، أومأت إليّ بتحيَّة وداع وانخرطت في البكاء؛ ثم ألفونسو، الذي فوجئ بالخبر، وغمغم قائلًا: «كنت أعلم بأنَّك ستتابعين الدراسة»؛ وأنطونيو الذي لم يكترث لما كنت أقول عن وجهتي وما سأفعله هناك، كرَّر أمامي غير مرَّة: «الآن، أشعر بخير يا لينو، لقد شُفيت من كلّ شيء. كانت تلك

Telegram: Somrlibrary

الآثار السلبيّة للخدمة العسكريّة»؛ وإنتسو الذي اكتفى بمصافحة يدي بيده الغليظة، فآلمتني لأيّام؛ وفي النهاية، آدا التي اكتفت بسؤال واحد: «هل أخبرتِ لينا، هل أخبرتِها بأنَّك ستغادرين؟» ثم أدلت بشبه ابتسامة، وألحّت: «أخبريها، لعلّها تغتاظ».

تصوّرتُ أنّ ليلا على دراية بذلك من ألفونسو أو كارمن، أو زوجها نفسه الذي لا بدّ من أنّه عرف من آدا أنَّني سأغادر إلى بيزا. من المحتمل أنَّ النبأ أزعجها حقًّا، فكَّرتُ، فهي لم تأت لتهنّئني. من ناحية أخرى، بدا لي من السخف بمكانٍ أن أذهب إليها خصّيصًا لأُخبرها بالأمر، على افتراض أنَّها لم تكن تعرف شيئًا. لم أشأ أن أصفعها بمسرّةٍ بعيدة عن منالها حتمًا. لذا، أجّلت الموضوع، وانشغلتُ بالترتيبات الأخيرة قبل الرحيل. كتبتُ لنيلا كي أقصّ عليها ما حدث لي، وطلبتُ منها عنوان المعلّمة أوليڤييرو كي أزفّ إليها النبأ. وقمت بزيارة أحد أقارب والدي، فوعدني بأن يعطيني حقيبته القديمة. وطفتُ ما بين البيوت التي علّمت أبناءها، لأجمع ما بقي لي من نقود.

بدت لي خير مناسبة لأودّع ناپولي. اجتزتُ شارع غاريبالدي، وصعدتُ نحو منطقة المحاكم، وركبتُ الحافلة في ساحة دانتي. صعدتُ إلى فوميرو، مرورًا بشارع سكارلاتي ثم سانتاريلا. وبعدها، نزلتُ إلى السكَّة المعلّقة إلى ساحة أماديو. استقبلتني أمّهات تلاميذي بأسف ومودّة كبيرة. قدّمن إلي القهوة، وهدايا صغيرة، إضافة إلى المال. وحين انتهت النزهة، لاحظتُ أنَّني كنت على مسافة قصيرة من ساحة الشهداء.

دخلتُ شارع فيلانجييري، وأنا متردّدة في ما عليّ فعله. عادت إلى ذهني لحظات افتتاح محلّ الأحذية، وليلا التي كانت أزياؤها تليق

Telegram: Somrlibrary

بالسيّدات الميسورات، والقلق الذي اجتاحها من كونها تغيَّرت حقًّا، وأصبح مظهرها يضاهي رهافة فتيات تلك المنطقة. أمَّا أنا، فقد تغيّرتُ حقًّا، قلت لنفسي. فعلى الرَّغم من أنَّني ما زلت أرتدي هذه الثياب البالية، فقد حصلتُ على الشهادة الثانويَّة، وسأتوجَّه قريبًا للدراسة في بيزا. تغيَّرت في الجوهر، وليس في المظهر. فالشكل يأتي لاحقًا ويناسب المضمون.

لفحتني السعادة بتلك الفكرة وذلك الإيمان. توقَّفتُ قبالة واجهة محلّ بصريَّات، وألقيتُ نظرة على أُطر النظّارات. أجل، عليَّ أن أغيِّر النظّارة، فتلك التي على أنفي تلتهم وجهي بأكمله، لا بدّ لي من إطار أكثر نعومة. وقعت عيناي على إطار مستدير، بحلقتين كبيرتين وناعمتين. يجب أن أسرِّح شعري إلى الخلف، وأعتني بزينتي. تركتُ الواجهة، واتَّجهتُ إلى ساحة الشهداء.

الكثير من المحالّ أنزلت ستائرها المعدنيَّة إلى النصف، في تلك الساعة، وستار محلّ سولارا مغلق حتى ثلاثة أرباعه. نظرتُ حولي. ما الذي أعرفه عن عادات ليلا الجديدة؟ لا شيء. حين كانت تعمل في الملحمة الجديدة، لم تكن تعود إلى البيت خلال استراحة الغداء، مع أنّ بيتها على بعد خطوات قليلة. كانت تظلّ في المحلّ، تتناول شيئًا ما مع كارمن، أو تثرثر معي إذا مررتُ بها بعد المدرسة. الآن، وقد عُيِّنتْ في ساحة الشهداء، من غير الوارد أن تعود إلى المنزل للغداء، لتبذل جهدًا لا معنى له، فضلًا عن عدم اتِّساع الوقت وكفايته. ربَّما كانت في أحد المقاهي، أو تتنزَّه على شريط البحر برفقة العاملة، لا شكّ في أنّ لديها مساعِدةً تحت إمرتها، أو لعلّها كانت تستريح في الداخل. طرقتُ على الستار المعدنيّ بكفّ يدي. لا جواب. طرقتُ مجدَّدًا. لا أحد. ناديتُها، فسمعتُ خطواتٍ آتية من الداخل، وصوت ليلا:

«مَن هناك؟»

«إيلينا».

«لينو» سمعتُها تهتف.

رفعت الستار المعدنيّ، وظهرت أمامي. لم أرها منذ وقت طويل، ولا حتى من مسافة بعيدة. بدا لي أنَّها قد تغيّرت. كانت ترتدي قميصًا أبيض خفيفًا وتنُّورة ضيِّقة زرقاء، مسرّحة الشعر، ومبهرجة بعناية معهودة. لكنّ وجهها بات عريضًا نوعًا ما، ومسطَّحًا، وبدا لي كامل جسدها أكثر عرضًا وتسطيحًا. سحبتني إلى الداخل، وأخفضت الستار. كان الجوّ العامّ قد تغيَّر كلِّيًّا، والإنارة باتت مفرطة في ترفها؛ كان يبدو أنَّه صالون حقًّا، لا محلّ أحذية. قالت بنبرةٍ تنضح بالحقيقة حتى صدّقتُها: «تهانينا على نجاحاتك يا لينو، كم أنا سعيدة لأنَّك أتيت لتودِّعيني». كانت تعلم بأنَّني سأذهب إلى بيزا طبعًا. عانقتني بشدّة، ولثمت وجنتيّ بقبلتين حارَّتين، واغرورقت عيناها بالدموع، وكرَّرت: «كم أنا سعيدة، حقًّا». ثم صاحت في اتِّجاه باب المرحاض:

«في إمكانك الخروج يا نينو، إنَّها لينوتشا».

انقطعت أنفاسي. فُتح الباب وظهر نينو حقًّا، بهيئته المعتادة ورأسه المحنيّ، ويداه في جيبيه. لكنّ التوتُّر كان محفورًا، كنقشٍ، على وجهه. «مرحبًا» غمغم. لم أعرف ماذا أقول، فمددتُ يدي. صافحني بفتور، بينما راحت ليلا تقصّ عليَّ الكثير من الأمور المهمَّة بجمل موجزة: كانا يلتقيان خلسة منذ حوالى العام؛ وقد قرَّرت ـ لمصلحتي ـ ألَّا تُقحمني في مكيدةٍ قد تسبِّب لي الأذى إذا انكشفت؛ وكانت حاملًا منذ شهرين، وستعترف بكلِّ شيء لستيفانو. كانت تريد أن تتخلَّص منه.

Telegram: Somrlibrary

٨٢

تكلَّمت ليلا بنبرةٍ أعرفها جيِّدًا؛ نبرة الحسم، نبرة تمحو بها أيّ عاطفة، لتكتفي بتعداد الوقائع والتصرُّفات بسرعة ولامبالاة، كما لو أنَّها تخشى أن ينفرط عقد قرارها ويضيع أدراج الرياح، إذا ما سمحت لرجفة صغيرة بأن تنال من صوتها أو شفتها السفلى. كان نينو جالسًا على الديوان، مطأطئ الرأس، لا يردّ سوى بإيماءة تُعرب عن موافقته. وكانت يداهما متشابكتين.

قالت إنَّ لقاءاتهما المتتالية، المثيرة للقلق، هناك في المحلّ، وصلت إلى خواتيمها، حين أجرت تحليل البول واكتشفت الحمل. وحينذاك، كانت هي ونينو في حاجة إلى بيت خاصٍّ بهما، وحياة خاصَّة بهما. كانت تريد أن تشاركه في الصداقات، والكتب، والمحاضرات، والسينما، والمسرح، والموسيقى. «لم أعد أحتمل أن نعيش متباعدين» قالت. وقد خبّأت في مكان ما بعض النقود، وكانت تفاوض لاستئجار شقَّة صغيرة في ضاحية كامبي فلاجيري، بعشرين ألف ليرة في الشهر. سيلوذان إليها بانتظار ولادة الطفل.

كيف؟ بلا عمل؟ ونينو، أليس عليه أن يدرس؟ لم أتمالك نفسي، قلت:

Telegram: Somrlibrary

«وما الحاجة إلى الانفصال عن ستيفانو؟ أنت بارعة في حياكة الأكاذيب، كم من الأكاذيب اختلقتِ في السابق، في إمكانك الاستمرار على هذا النحو جيِّدًا».

رمقتني بعينين ضيِّقتين. أحسستُ بأنَّها استوعبت سخريتي ونفوري ونقمتي التي تخفيها كلماتي تحت قناع النصيحة الودِّيَّة. وأدركتْ أيضًا كيف رفع نينو رأسه بحدّة، وفتح فمه ليقول شيئًا ما، ثم كتمه تلافيًا للجدل. ردّت:

«لقد كانت الأكاذيب مفيدة كي لا أموت قتلًا. لكنَّني، الآن، أفضِّل الموت قتلًا على أن أستمرّ على هذا المنوال».

حين ودَّعتهما، تمنَّيتُ لهما كلّ خير، وتمنَّيتُ الخير «لنفسي» بألَّا ألقاهما أبدًا بعدئذ.

٨٣

كانت الأعوام، التي أمضيتها في جامعة نورمالي، في غاية الأهمِّيَّة، لكن ليس في ما يخصّ حكاية صداقتنا. وصلتُ إلى الجامعة بسمات يتّضح فيها الخجل والسذاجة. وأدركتُ، على الفور، أنَّني أتكلَّم إيطاليَّة فصحى، خطابيَّة، تبعث على السخرية بين وقت وآخر، وخصوصًا حينما كنت أصوغ عبارة متقنة، وتنقصني كلمة ما، فألجأ إلى ملء الفراغ بإضفاء الفصاحة على إحدى المفردات العامِّيَّة؛ وهذا ما جعلني أبذل جهدًا في تصحيح ما أقول. لم أكن ملمّة بقواعد السلوك الرفيع: أتكلَّم بنبرة مرتفعة جدًّا، وأمضغ ريقي مُصدرة صوتًا غير مستحسن من فمي. انتبهتُ لذلك حين رأيتُ الوجوم على وجوه الآخرين، فحاولتُ أن أراقب نفسي مرارًا. وكنت أقطع الحوارات، بسبب اندفاعي إلى إظهار مقدرتي على المؤانسة، وأتدخَّل للكلام في شؤون لا تخصُّني، وأتصرَّف بسلوكٍ مفرط في الودِّيَة: إذ حاولتُ أن أبدو لطيفة من جانبٍ، وانطوائيَّة من الجانب الآخر. ذات مرَّة، أجابتني فتاة من روما، عن سؤال لا أذكر غايته، أجابتني ساخرة من لهجتي المحلِّيَّة، فضحكت جميع الفتيات. وعلى الرَّغم من أنَّها جرحتني، فإنَّني تفاعلتُ بالضحك أيضًا، وشدّدتُ من لهجتي العامِّيَّة،

Telegram: Somrlibrary

كي أبدو في مظهر الساخرة من نفسي بمرح.

في الأسابيع الأولى، كافحتُ رغبتي في الرجوع إلى مدينتي؛ رغبة قادتني إلى التخفّي خلف تواضعي الجليّ والمعتاد. لكنّ تواضعي دفع بي إلى التميُّز، وكسب المودَّة شيئًا فشيئًا. كسبتُ مودَّة الطالبات والطلَّاب والنواطير والأساتذة، من دون بذل أيّ جهد في الظاهر. أمَّا الحقيقة، فهي أنَّني تعبتُ على هذا الأمر كثيرًا. تعلَّمتُ أن أسمع الأصوات جيِّدًا وأتأمَّل الحركات، واستوعبتُ مجموعة من القواعد، سواء أكانت مكتوبة أم غير مكتوبة. ووضعتُ لهجتي النابوليتانيَّة تحت المراقبة ما استطعتُ، ونجحتُ في إظهار جدارتي واستحقاقي الثناء، من دون اللجوء إلى المباهاة أبدًا، بل بالسخرية من نفسي بسبب جهلي أمورًا معيّنة، وبالتظاهر بالدهشة من النتائج الموفَّقة. تلافيتُ إقامة العداوات على وجه الخصوص. فإذا أظهرت إحدى الطالبات فظاظة في التعامل معي، ازددتُ اهتمامًا بها وعاملتُها باحترام ورصانة، وقدّمتُ عوني إليها بتواضع، ولم أغيِّر سلوكي حتى بعدما أمست لطيفة معي. وفعلتُ الشيء ذاته مع الأساتذة. كنت أتعامل معهم بحذر أكبر طبعًا، لكنّ الغاية عينها: أن أحظى بإعجابهم واستلطافهم ومودَّتهم. وكنت أحوم حول أكثرهم انعزاليَّة وقساوة، بابتسامة مشرقة وإخلاص طافح.

أجريتُ الامتحانات في مواعيدها، ودأبتُ على الاعتماد على نفسي في الدراسة والتعلُّم. وكنت أرتعد من هاجس التدهور وفقدان ما بدا لعينيّ، منذ الوهلة الأولى، وعلى الرَّغم من شتَّى الصعاب، الجنَّةَ على الأرض: كان لي مجالي الخاصّ، وسريرٌ لي وحدي، ومنضدة وكرسيّ، والكثير الكثير من الكتب؛ كأنَّني في مدينة متناقضة كلِّيًا مع حيّنا في نابولي، إذ لا يُحيط بي سوى أناسٍ يدرسون، ويطيب لهم

Telegram: Somrlibrary

النقاش في ما يدرسون. ثابرتُ بكدّ وعزم، إلى درجة أنّني حصلتُ دومًا على علامة كاملة من جميع الأساتذة؛ وفي غضون عام، أصبحتُ بين الطالبات الواعدات، اللواتي يتلقّين تحيَّة تقدير إذا ما ألقين تحيَّة احترام.

واجهتُ لحظتين صعبتين فقط، وكلتاهما خلال الأشهر الأولى. ذات صباح، قست عليّ الفتاة القادمة من روما؛ تلك التي سخرت من لهجتي المحلِّيَّة، إذ صاحت بوجهي، في حضور طالبات أخريات، بأنَّها فقدت نقودًا من حقيبتها الصغيرة، وأمرتني بإعادة النقود إليها فورًا، وإلَّا قدَّمت شكوى ضدِّي لدى المديرة. شعرتُ بعدم جدوى الردّ بابتسامة عفويَّة، فصفعتُها بعنف، وأمطرتُها بوابل من الشتائم بالعامِّيّة. ذُعرت الفتيات جميعهنّ. استغربن ردّة الفعل التي أقدمتُ عليها، أنا التي كنت معروفة بالتملُّق والميل إلى التهدئة. دُهشت الفتاة، وسدَّت أنفها النازف، بينما رافقتها إحدى الصديقات إلى الحمّام. بعد بضع ساعات، جاءتا تبحثان عنِّي؛ اعتذرت الفتاة التي اتَّهمتني بالسرقة، بعد أنْ عثرت على نقودها. فعانقتها، وقلت إنّ عذرها يبدو صادقًا، وكنت متأكِّدة منه. فأنا نشأتُ على سلوكٍ لا يدفعني إلى الاعتذار، حتى لو كنت مخطئة حقًّا.

أمَّا اللحظة الصعبة الأخرى، فكانت قُبيل حفلة التعارف التي تُقام قبل عيد الميلاد. كانت عبارة عن حفلة راقصة لطالبات الدفعة الأولى، لا يمكن رفض الذهاب إليها في الحقيقة. فالفتيات لم يكنّ يتحدّثن في شيء آخر: كان من المتوقَّع حضور جميع الشبّان من ساحة الفرسان (حيث السكن الجامعيّ)، وستكون مناسبة عظيمة للتعارف بين الذكور والإناث. لم يكن لديّ ما ألبسه. كان الطقس باردًا خلال ذلك الخريف. أثلجت السماء كثيرًا، وسُحرتُ بمنظر الثلج. لكنَّني اكتشفتُ

Telegram: Somrlibrary

كيف يثير حجمُ الصقيع الإزعاجَ في الشوارع، وكيف تفقد اليدان حساسيَّتيهما من دون القفّازين، وتتجمّد أصابع القدمين. كانت خزانتي تحتوي على لباسين شتويين، جهّزتهما أمّي قبل عامين، إضافة إلى معطف قديم ورثتُه عن عمّتي، وشال أزرق كبير خيّطتُه بنفسي، وحذاء واحد ذي نصف كعب، صلّحتُه أكثر من مرَّة. وكان لديّ ما يكفي من المشكلات الأخرى، إذ لم أكن أعرف كيفيَّة التصرُّف في حفلة كتلك. هل أسأل رفيقاتي؟ جهَّزت أغلبيَّتهنَّ لباسًا خاصًّا لتلك الحفلة، ومن الوارد أنّ لديهنّ من الثياب اليوميَّة ما قد يجعلني أبدو في مظهرٍ لائق. لكنَّني لم أعد قادرة على استعارة ثياب أيّ صديقة، واكتشاف أنَّها لا تصلح لي، بعد تجربتي مع ليلا. هل أتظاهر بأنَّني مريضة؟ كنت ميّالة إلى هذا الحلّ، لكنّه حلٌّ محبط، وخصوصًا أنّني كنت معافاة، وأتوق إلى الرقص مثل ناتاشا مع الأمير أندري أو كوراجين، فأعدل عن هذا لأبقى بمفردي أحدِّق إلى السقف بينما تتناهى إلى مسمعي أصداء الموسيقى، والهمهمات والضحكات. وفي النهاية، أقدمتُ على خيار ذليل، لكنَّني كنت واثقة بأنَّني لن أندم عليه: غسلتُ شعري، وتزيَّنتُ بالقليل من أحمر الشفاه، وارتديتُ أحد ذينك اللباسين، والذي كانت ميزته الوحيدة أنّ لونه أزرق داكن.

ذهبتُ إلى الحفلة، وشعرتُ بالإحراج في البدء. لكنّ الفائدة من ذاك اللباس أنّه لا يثير الحسد، بل يحثّ على مشاعر الشفقة التي تشجِّع على التعاطف. وبالفعل، دأبت الكثير من الرفيقات الطيِّبات على مرافقتي، بينما دعاني الشباب إلى الرقص غالبًا. فنسيتُ شكل لباسي، ووضع حذائي المزري أيضًا. زد على ذلك أنّني، في تلك السهرة تحديدًا، تعرّفتُ إلى فرانكو ماري، وهو شابٌّ قبيح نوعًا ما، لكنَّه مسلٍّ جدًّا، حادّ الذكاء، سفيهٌ ومبذّر، وأكبر منّي بعام. ينحدر من

Telegram: Somrlibrary

أسرة ميسورة الحال، من مقاطعة ريجو إيميليا. وهو مناضلٌ شيوعيّ، غير أنّه ينتقد الميول الديموقراطيَّة لحزبه. أمضيتُ معه جزءًا كبيرًا من استراحاتي النادرة بمرحٍ وسرور. وقد أهداني ثيابًا وأحذية ومعطفًا جديدًا، ونظّارة أظهرتْ ملامح وجهي وعينيّ، وكتبًا عن الثقافة السياسيَّة، وهي الثقافة التي تطغى على اهتماماته. وحدّثني عن فظائع الستالينيَّة، ودفعني إلى قراءة كتب تروتسكي التي استعان بها ليكوِّن وعيًا مناهضًا للستالينيَّة، وإدراكًا بأنّ الاتِّحاد السوڤياتي لا يطبّق أيًّا من القيم الاشتراكيَّة، ولا حتى الشيوعيَّة نفسها: الثورة تعرقلت، ومن الواجب دفعها إلى الأمام مجدَّدًا.

وكانت رحلتي الأولى خارج البلاد على نفقته أيضًا. ذهبنا إلى باريس، لحضور ندوة للشبّان الشيوعيّين القادمين من جميع أرجاء أوروبا. لكنَّني لم أر الكثير من المدينة، إذ أمضينا معظم الوقت في أماكن تضيق بدخان السجائر. ولم يتكوَّن لديّ عن المدينة سوى انطباع عن شوارعها المفعمة بالألوان، أكثر من ألوان نابولي وبيزا؛ وانزعاج من أبواق سيَّارات الشرطة؛ ودهشة من حضور واسعٍ للزنوج، سواء في شوارع باريس أو في القاعات، حيث ألقى فرانكو مداخلة طويلة بالفرنسيَّة، وحظي بتصفيق حادّ. حين رويتُ تجربتي هذه على مسمع باسكوالي، لم يصدّقني ـ أنتِ، أنتِ ـ لم يصدِّق أنَّني فعلتُ شيئًا من هذا القبيل. ثم سكت مرتبكًا عندما تباهيتُ بقراءاتي، وبتّ أصف نفسي بأنَّني من أنصار تروتسكي.

أكسبني فرانكو عاداتٍ كثيرةً، عزَّزتها توجيهات بعض الأساتذة، ونقاشاتهم في ما بعد ك: استخدام فعل «درس» حتى لو قرأتُ كتبًا عن الخيال العلميّ؛ ملءِ صفحاتٍ كثيرة بملاحظات مفصّلة عن أيِّ نصٍّ أُنهي دراسته؛ الحماسةِ كلّما صادفتُ مقاطع تتحدّث بالتفصيل عن

Telegram: Somrlibrary

مساوئ التفاوت الطبقيّ والاجتماعيّ. كان يعوّل كثيرًا على ما يسمِّيه «إعادة تربيتي»، وتركتُه يعيد تربيتي بسرور. لكنَّني فشلتُ في الوقوع في غرامه، للأسف. كنت أودّه كثيرًا، وأودّ جسده المضطرب، لكنَّني لم أشعر باستحالة الاستغناء عنه مطلقًا. تبدَّدت مشاعري الضحلة في غضون زمن قصير، حين فقد مقعده في جامعة نورمالي: إذ حصل على علامة متدنِّية جدًّا في أحد الامتحانات، وتمّ استبعاده. وظللنا نتراسل بضعة أشهر. حاول أن يعود إلى الجامعة، قائلًا إنَّه سيفعلها للبقاء قريبًا منِّي لا غير. شجَّعته على خوض امتحان جديد، لكنَّه رسب. تراسلنا لمدَّة قصيرة بعد ذلك، ثم انقطعت أخباره لوقت طويل.

Telegram: Somrlibrary

٨٤

هذا ما وقع لي في بيزا، بشكل عام، منذ نهاية سنة ١٩٦٣ وحتى نهاية سنة ١٩٦٥. كم من السهل الحديث عنّي بمعزلٍ عن ليلا: يهدأ الإيقاع، وتنساب الأحداث البارزة على خطّ السنوات، كما تنزلق الحقائب على الشريط في أحد المطارات؛ تتلقّفها ما إن تصل إليك، تضعها في الصفحة، وانتهى الأمر.

إلّا أنّ السرد يتعقّد إذا تحدّثنا عمّا وقع لها خلال تينك السنتين. يتباطأ الشريط تارة، ويسرع تارة أخرى. ينعطف بخشونة، وقد يخرج عن مساره. تسقط الحقائب، تُفتَح، فتتبعثر المحتويات هنا وهناك. وتختلط أغراضها بأغراضي، فأضطرّ، لاحتوائها، إلى سرد ما يخصّني من جديد (مع أنّني لم أتعرّض لعوائق في أثناء السرد عن نفسي)، فأجنح إلى تضخيم الجُمل التي تبدو لي الآن مفرطة في عموميّتها. فعلى سبيل المثال، هل كانت ليلا ستلجأ إلى التملُّق لو أنّها ذهبت إلى جامعة نورمالي بدلًا منّي؟ إلى أيّ مدى أثّر فيّ سلوكها، حين صفعتُ الفتاة القادمة من روما؟ كيف استطاعت ـ من مسافة بعيدة ـ أن تطيح برقّتي الزائفة؟ إلى أيّ درجة أمدّتني بالحسم الضروريّ؟ إلى أيّ حدّ وشت لي بتلك الشتائم؟ وماذا عن المجازفة، حين كنت ألوذ بغرفة

Telegram: Somrlibrary

فرانكو، وأنا مُحاطة بكمٍّ هائلٍ من المخاوف والهواجس؟ من أين أتتني الشجاعة إن لم تكن من مثالها؟ وماذا عن الإحساس بالتعاسة، حين كنت أُدرك أنَّني لا أشعر بالحبّ تجاهه، وأعي فتوري العاطفيّ؟ من أين لي بهذا الإحساس، إن لم يكن من المقارنة بقدرتها على خوض غمار الحبّ، كما فعلت، وكما كانت تفعل؟

أجل، ليلا هي التي تجعل الكتابة مرهقة. وحياتي تجبرني على تصوُّر كيف يمكن أن تكون حياتها لو حصلتْ على ما حصلتُ أنا عليه، وكيف كانت ستستخدم الحظّ الذي حالفني. حياتها تُطلّ باستمرار في حياتي، في الكلمات التي لفظتُها، والتي غالبًا ما احتفظتْ بأصداء من كلماتها؛ في تلك الحركة الحازمة التي تُعَدّ استنساخًا عن حركتها؛ في إحساسي بـ «الدونيّة» خلافًا لإحساسها بـ« الفوقيّة»، ثم في كوني «فوقيّة» بما يعادل إكراهها على البقاء «دونيّة»؛ ناهيك بما لم تخبرني به علنًا، وتركتني أفهمه بمفردي، وبما لم أكن أعرفه ثم قرأته من دفاترها. وهكذا، يجب على سرد الأحداث أن يحسب ألف حسابٍ للاصطفاء والإحالات والحقائق الجزئيَّة وأنصاف الأكاذيب. وهو ما سينتج منه قياسٌ شاقٌّ للزمن الماضي، قائمٌ بأكمله على معيار الكلمات المترنِّح.

لا بدّ من أن أعترف، كمثال على هذا، بأنَّني لم أشهد على أيٍّ من آلام ليلا. كنت أعتبرها سعيدة، كونها حصلت على نينو، واتَّبعتْ حيلها السرِّيَّة لتحمل منه وليس من ستيفانو، وكانت توشك على القيام بخطوة عصيّة على التصديق في الوسط الذي نشأنا فيه: أن تهجر زوجها، وتتخلّى عن رغد العيش الذي حصلتْ عليه، وتخاطر بحياتها وحياة عشيقها، والجنين الذي كان يغفو في رحمها. كنت أعتبر سعادتها من النوع الزوبعيّ، الذي يزمجر في الروايات والأفلام

والقصص المصوَّرة، ما يعني سعادة الهوى وليس السعادة الزوجيَّة، كخليطٍ مجنون من الخير والشرّ، جاء من نصيبها وليس من نصيبي.

وكنت مخطئة. سأعود الآن إلى الخلف، إلى حيث عاد بنا ستيفانو من إيسكيا. إنَّني على يقين بأنّ ليلا استسلمت لشراسة الألم، منذ انطلق المركب وابتعد عن الميناء؛ منذ أن أدركت أنَّها لن تجد نينو في انتظارها في الصباح على الشاطئ، وأنَّهما لن يتناقشا ويتكلَّما ويتهامسا، ولن يستطيعا السباحة معًا، ولن يتبادلا القبلات والعناق والغرام. وفي غضون أيَّام قليلة، فقدت حياتُها ـ كزوجة للسيِّد كارّاتشي ـ حقيقتَها، وباتت حياة مجرّدة بكلّ ما تشمله من توازنات واضطرابات؛ من إستراتيجيَّات ومعارك؛ من نزاعات وتحالفات؛ من الضجر من النقاش مع الموزِّعين والزبائن؛ من التفنُّن في الغشّ في الميزان؛ من الالتزام بتنمية الأموال في قعر ذلك الصندوق. وحده نينو أصبح ملموسًا وحقيقيًّا، ترغب فيه وتشتهيه ليلًا نهارًا، إذ كانت تلتحم بزوجها في ظلام غرفة النوم كي تنسى عشيقها، ولو لدقائق معدودة. ويا له من جزء قبيح من الوقت! فكانت تشعر بضرورة الحصول على نينو خلال تلك الدقائق تحديدًا، وبشكل أكثر نقاءً، وبدقّة في التفاصيل، حتى تصدّ ستيفانو كما لو كان شخصًا غريبًا، فتلوذ بإحدى زوايا السرير تجهش بالبكاء وتصرخ بالشتائم، أو تفرّ إلى المرحاض وتغلق الباب على نفسها.

Telegram: Somrlibrary

٨٥

فكّرتْ في البدء في أن تهرب في الليل وتعود إلى فوريو، لكنّها فطنت إلى أنّ زوجها سيعثر عليها بسرعة. فقرَّرت أن تسأل ألفونسو إن كانت ماريزا تعلم متى يعود شقيقها من إيسكيا، لكنّها خشيت أن يُطلع نسيبُها أخاه على ذلك السؤال، فعدلت عن هذا. وجدت رقم بيت سارّاتوري في الدليل الهاتفيّ، واتّصلت. أجابها دوناتو. قالت له إنَّها صديقة نينو، فاختصر والده الحديث بنبرة مستاءة، وأغلق السمّاعة. تجيَّش إحباطها، فعادت تراودها فكرةُ الاتِّجاه إلى الجزيرة، وكادت تحسم أمرها، إلى أن ظهر نينو ذات عصر من أوائل سپتمبر، عند عتبة الملحمة المزدحمة، مطلقًا لحيته وثملًا إلى حدّ مريب.

هدّأت ليلا روع كارمن، التي انتفضت كي تطرد ذاك الشابّ المنحرف، وقد بدا لها شخصًا غريبًا فاقد الرشد. «دعي أمره لي» قالت لها، وسحبتْه بعيدًا بحركات دقيقة، ونبرة باردة، ويقين بأنَّ كارمن بيلوزو لم تعرف ابن سارّاتوري، الذي بات مختلفًا عمّا كان عليه في طفولته، حين درس معهنّ في المدرسة الابتدائيَّة.

تصرَّفت بعجالة. كانت في الظاهر تبدو كما العادة: ليلا القادرة على مواجهة أيّ مشكلة. لكنّها في الحقيقة لم تعد تعرف أين كانت.

Telegram: Somrlibrary

تبدَّل شكل الجدران المليئة بالبضائع. تغيّرت خصائص الشارع. تحلَّل شحوب أوجه المباني الحديثة؛ والأدهى من ذلك كلّه، أنَّها لم تكن تشعر بالخطر الذي يداهمها. نينو، نينو، نينو. كان وجوده يبشِّر بالمتعة والسرور فقط. وأخيرًا، وجدتْه قبالتها من جديد؛ وكلّ ملامحه تعبِّر بوضوح عن أنَّه عانى ويعاني، وأنَّه بحث عنها وكان يرغب فيها، حتى إنَّه حاول أن يعانقها ويقبِّلها وسط الشارع.

أخذته إلى بيتها، إذ بدا لها المكان الأكثر أمانًا. وماذا عن المارّة؟ لم تقابل أحدًا منهم. والجيران؟ لم تصادف أيًّا منهم. وما إن أغلقت باب الشقّة خلفها، حتى شرعا في ممارسة الحبّ. لم يراودها أيّ هاجس. كلّ ما كان يشغلها أن تشدّ نينو إليها، وحالًا، أن تضمّه وتستحوذ عليه. لم يخمد روع هذه الحاجة حتى عندما همد جسداهما؛ ثم فطنت شيئًا فشيئًا إلى الحيّ، والجيران، والملحمة، والشوارع، وضوضاء المحطَّة، وستيفانو، وكارمن التي تنتظرها بقلق ربّما. لكنّها اعتبرت تلك الأشياء أغراضًا لا بدّ من ترتيبها على عَجَلٍ، لا تجنُّبًا للاصطدام بها فحسب، وإنَّما أيضًا تخوّفًا من أن تقع منها فجأة في أثناء الفوضى العارمة.

عاتبها نينو، لأنَّها رحلت من دون أن تخبره بذلك. عانقها وأرادها ثانية. كان يشدِّد على ضرورة الذهاب بعيدًا، معًا، لكنَّه لم يقل إلى أين. وليلا كانت تجيبه بأجل، أجل، أجل. وتشاطره الجنون في كلّ شيء، مع أنَّها، خلافًا عنه، كانت تشعر بحقيقة الزمن والدقائق والثواني، التي كلّما مرّت زادت في احتمال أن يداهمهما أحد ما. لذا، كانت، وهي مستلقية معه على الأرض، تحملق في النجفة المعلّقة في السقف فوقهما على أنَّها تهديد ما. ولئن كانت في السابق لا تفكِّر إلَّا في كيفيَّة الحصول على نينو حالًا، وبعد ذلك فليكن الطوفان.

كانت حينذاك تتمعَّن في كيفيَّة الحفاظ عليه قربها، في حال انفصلت النجفة عن السقف لتشرخ الأرض، فيهوي هو من جانب، وهي من الجانب الآخر، إلى الأبد.

«ارحل».

«لا».

«أنت مجنون».

«نعم».

«أرجوك أن تذهب بعيدًا، أرجوك».

أقنعتْه. وانتظرت أن تفاتحها كارمن بشيء ما، أن يبدأ الجيران النميمة، أن يعود ستيفانو من الملحمة ليضربها. لم يحدث شيء. تنفَّست الصعداء. رفعت أجر كارمن، وعاملت زوجها بمودّة، واختلقت أعذارًا تسمح لها بلقاء نينو خلسة.

Telegram: Somrlibrary

٨٦

في البداية، لم تكن المشكلة العظمى في النميمة المتوقَّعة التي قد تدمِّر كلّ شيء؛ بل كان عشيقها هو المشكلة، لأنَّه لم يكن يُعطي اعتبارًا لأيِّ شيء آخر سوى لمداعبتها، وتقبيلها، وعضّها، ثم مضاجعتها. كان يبدو أنَّه يريد، أو يطالب بأن يمضي بقيّة حياته وفمه على فمها، وجسده على جسدها. ولم يكن يسامح تغيُّبها، بل كان يخاف ذلك، ويخشى أن تختفي عنه ثانية. وهكذا، كان يُذهِب عقله بالكحول، وينقطع عن الدراسة، ويدخِّن باستمرار، كأنَّه لم يعد يرى في العالم أيّ مسألة عدا مسألته معها؛ ولم يلجأ إلى الكلمات إلَّا ليصرخ معبِّرًا عن غيرته، ليبوح لها بهواجسه التي لا تجعله يسامحها على بقائها مع زوجها.

«لقد تخلّيتُ عن كلّ شيء»، كان يغمغم منهكًا، «وأنتِ لا تريدين التخلِّي عن أيِّ شيء».

«ما الذي تفكِّر فيه؟»، تسأله.

فإذا بالسؤال يصيبه بالبكم وشتات الذهن، أو يُخرجه عن طوره، كما لو أنّ استمرار الأوضاع على حالها يسبّب الإحراج؛ فيقول محبطًا:

Telegram: Somrlibrary

«لم تعودي ترغبين فيَّ».

بل كانت وما زالت ترغب فيه، لكنّها كانت ترغب في أمر آخر أيضًا، وفورًا. كانت تريد منه أن يعاود الدراسة، تريده أن يظلّ يحيِّر رأسها، كما كان يفعل في إيسكيا. ظهرت تلك الطفلة العبقريّة مجدَّدًا، كما كانت في الابتدائيَّة؛ تلك التي سحرت المعلِّمة أوليڤييرو؛ تلك التي ألّفت «الساحرة الزرقاء». ظهرت مجدَّدًا، وكانت تتحرّق شغفًا وعنفوانًا. وقد عثر عليها نينو في قعر هاوية سوداء، ورفعها إلى الأعلى. وكانت تلك الفتاة تضغط حينذاك كي يعود كما كان شابًّا مثابرًا، فتنشأ تحت ظلّه، لعلّها تستمدّ منه القوَّة، لتنفض عنها غبار السيِّدة كارّاتشي، الأمر الذي نجحت فيه شيئًا فشيئًا.

لا أعلم ما الذي حدث. لا بدّ من أنّ نينو أدرك أنّ عليه أن يكون أكثر من مجرّد عاشق ولهان. وربَّما أحسّ بأنّ الغرام ينهشه، ببساطة. ما يهمّ أنَّه عاد إلى الدراسة، فسُرَّت ليلا في البداية: لأنَّه استعاد كينونته تدريجيًّا، وأصبح كما عرفتْه في إيسكيا، ما جعله ضروريًّا جدًّا بالنسبة إليها. حصلت مجدَّدًا على نينو، وعلى كلماته وأفكاره أيضًا. إن قرأ أعمال سميث وانتابه الملل، حاولت ليلا قراءتها هي أيضًا. وإن قرأ أعمال جويس التي تصيبه بملل أعظم، شاركَتْه في قراءتها. اشترت الكتب التي كان يحدِّثها عنها في أثناء لقاءاتهما النادرة. كانت تريد أن تناقشه فيها. لا مناصّ من ذلك.

وكانت كارمن تُصاب بالذهول، ولا تفهم ما الطارئ الذي يحلّ بليلا، ويدفعها إلى الاختفاء بضع ساعات، بحجج مختلفة. كانت تحدِّق إليها باستياء إذا تركت لها عناء الزبائن، حتى في لحظات ذروة الاكتظاظ في الملحمة، وتبدو كأنَّها لا ترى ولا تسمع شيئًا، فهي غارقة في كتابٍ ما، أو تكتب شيئًا ما في دفاترها. كان عليها أن تقول

Telegram: Somrlibrary

لها: «أرجوك يا لينا، هلّا ساعدتِني؟»، فترفع عينيها حينذاك فقط، وتمرِّر رؤوس أصابعها على شفتيها، وتقول: أجل.

أمّا ستيفانو، فكان يتقلَّب دومًا بين المشاحنة والرِّضا. وبينما هو يجادل صهره، وحماه، والأَخَوَين سولارا، ويمتعض في قرارة نفسه لأنّ زوجته لم تنجب على الرَّغم من الرعاية ورحلات الاصطياف، فإذا بها تشمت بالفوضى التي حلّت بمشروع الأحذية، وتغلق على نفسها حتى آخر الليل، داخل الروايات والمجلّات والجرائد: عاد إليها ذلك الهَوَس، كما لو أنّها لم تعد تهتمّ بالحياة الحقيقيَّة. كان ينظر إليها ولا يفهم، أو لم يكن لديه الوقت ولا الرغبة في الفهم. بعد العودة من إيسكيا، كان جزءٌ منه، الأكثر عدائيَّة، يحاول أن يزجّ به في منازلة تُفضي إلى توضيح نهائيّ، في ما يخصّ تلك التصرُّفات التي تتَّسم بالنبذ تارة، وبالاغتراب المسالم تارة أخرى. لكنّ جزءًا ثانيًا منه، الأكثرَ تبصُّرًا، والجبانَ ربّما، كان يُطمئن الجزء الأوَّل، ويدفعه إلى التظاهر بلا شيء، ويفكِّر: هذا أفضل من أن تؤرّق قضيبي. أمّا ليلا، وقد تلقَّفت تلك الفكرة، فقد كانت تسعى لتجعلها تدوم في رأسه. لم تعامل زوجها بقسوة في المساء، حين يعودان من العمل إلى البيت. لكن، بعد العشاء والثرثرة، كانت تتقوقع في القراءة، في ذلك المجال الفكريّ الذي لا يستطيع ستيفانو الولوج إليه، وذاك الذي تسكن فيه هي ونينو فقط.

ما الذي أصبح عليه ذلك الشابّ، بالنسبة إليها، خلال تلك الآونة؟ هَوَس جنسيّ يبقيها في حالة مزمنة من التهويمات الإباحيّة؛ لهيبٌ يلحّ على رأسها بوجوب الوصول إلى مستواه الذهنيّ؛ أو بالأحرى مشروعٌ نظريّ لعلاقة سرِّيَّة، لتحبس نفسها داخل ما يُشبه الملاذ المكوَّن من نصف كوخٍ لقلبين، ونصف مختبر لتحليل الأفكار

Telegram: Somrlibrary

التي تُعنى بهذا العالم المعقّد، يكون فيه نينو حاضرًا ونشيطًا، بينما تتحوَّل فيه ليلا إلى ظلٍّ يلتصق بكعبيه، أو إلى مستشارة رزينة ومعاوِنة مخلصة. في المرّات النادرة التي تسنّى لهما اللقاء ـ ليس لبضع دقائق ـ بل لساعة كاملة، كانت هذه الساعة تصير تدفُّقًا لا ينضب من التبادلات الجنسيَّة والكلاميَّة، ساعة صفاء بالمجمل. وما إن يحين الفراق، حتى يصبح من المستحيل تقبُّل العودة إلى الملحمة، وإلى سرير ستيفانو.

«لم أعد أحتمل هذا الوضع».

«ولا أنا».

«ماذا نفعل إذن؟»

«لا أدري».

«أريد البقاء معك إلى الأبد».

أو لعدَّة ساعات كلّ يوم، على الأقلّ، كانت تضيف.

لكن، كيف من الممكن تحديد زمن ثابت وآمن؟ فلقاء نينو في بيتها كان في منتهى الخطورة، ولقاؤه في الشارع أشدّ خطورة، ناهيك بأنّ ستيفانو يتصل بالملحمة ولا يجدها أحيانًا، ومن الصعب أن تقدِّم تفسيرًا مقبولًا في كلّ مرّة. وهكذا، بعد أن ضاق الخناق بها ما بين نفاد صبر نينو وعتاب زوجها، وبدلًا أن تتقبّل الواقع من جديد وتعترف بأنَّها في موقف لا يُحمد عقباه، شرعت ليلا تتصرَّف كما لو أنَّ العالم الحقيقيّ مشهد مسرحيّ أو مجرَّد رقعة شطرنج، وكان كافيًا أن تبدِّل الخلفيَّة الملوَّنة، أو تحرِّك بعض البيادق، ما يسمح للعبة، اللعبة الوحيدة ذات الأهمِّيَّة، «لعبتها»، «لعبتهما»، بأن تستمرّ. أمّا المستقبل، فقد انحسر على ما يأتي به اليوم التالي، ثم اليوم الذي يليه، ثم الذي يليه؛ أو بات رسومًا ارتجاليَّة تجسّد مجزرة مروّعة تفيض بالدماء،

Telegram: Somrlibrary

كتلك الموجودة بكثرة في دفاترها. لم تكتب أبدًا أنَّها «ستموت قتيلة»، لكنَّها كانت تسجِّل ملاحظات عن أخبار الجرائم الموثّقة، وأحيانًا كانت تبتكرها بنفسها. قصص لنساءٍ قُتلن غدرًا. كانت مهووسة في وصف هيجان القاتل، والدماء التي تلطِّخ المكان. ثم تضيف تفاصيل لا تذكرها الصحف: عيونٌ مقتلعة من محاجرها؛ أضرارٌ ألحقتها السكِّين بالعنق أو الأعضاء الداخليَّة؛ نصلٌ يشطر الأثداء؛ حلماتٌ مبتورة؛ بطنٌ مفتوحة من السرَّة إلى الأسفل؛ نصلٌ يقشر الأعضاء التناسليَّة. كان يبدو أنَّها تسعى لزعزعة احتمال الميتة الشنيعة وواقعيّتها، وذلك بأن تحوِّلها إلى كلمات، إلى مسوّدةٍ يسهل التحكُّم فيها.

Telegram: Somrlibrary

٨٧

دخلت ليلا في صراع مع شقيقها وزوجها والأَخَوَين سولارا، عبْر سياق تلك اللعبة بكلِّ احتمالات مصائرها المرعبة. استغلَّت ثقة ميكيلي بأنَّها الشخص الأفضل لإدارة الوضع في ساحة الشهداء. كفَّت عن الوقوف في وجهه، وبعد مفاوضة شرسة، حصلت بفضلها على هيمنة مطلقة وراتب أسبوعيّ معتبر نوعًا ما. وكما لو أنَّها لم تكن السيِّدة كارّاتشي، وافقتْ على الذهاب للعمل في محلِّ الأحذية. لم تلتفت إلى شقيقها، الذي كان يشعر بأنَّه دائمًا تحت تهديد علامة سولارا الجديدة، ويعتبر حركتها الأخيرة بمثابة خيانة. لم تلتفت إلى زوجها، الذي أغضبه قرارها في البدء، وتوعّدها، ثم دفعها إلى وساطات معقّدة باسمه مع الأَخَوَين سولارا، بخصوص ديون محدَّدة عند أمّهما، ومبالغ من الأموال تفنّد ما له وما عليه. تجاهلتْ تودُّد ميكيلي بكلماته المعسولة، إذ راح يحوم حولها باستمرار، ويضغط عليها، ليحصل على تصاميم أحذية جديدة منها مباشرة، متجاوزًا بذلك رينو وستيفانو.

تنبَّهت ليلا منذ زمن إلى أنّ الأَخَوَين سولارا سيتملَّكان كلّ شيء، ويستغنيان عن أبيها وأخيها، وأنّ نجاة ستيفانو مرهونة ببقائه تابعًا

Telegram: Somrlibrary

لأعمالهما. ولئن كانت في السابق تشعر بالغيظ من تطوُّر كهذا، باتت تسجِّل عدم مبالاتها حينذاك في ملاحظاتها. كانت تشعر بالحزن على رينو بالتأكيد، ويؤسفها الانحدار الذي تعرَّض له دوره، كعرَّاب ناشئ، ولاسيّما بعد أن تزوَّج وأصبح أبًا. لكنّ أواصر الماضي أمست لديها عديمة القوَّة، في حين انتهجت قدرتُها على المودّة سبيلًا واحدًا، وتركَّزت كلّ أفكارها وعواطفها في نينو وحده. ومثلما كانت في السابق تسعى لتجعل شقيقها ثريًّا، أخذت آنئذٍ تسعى لإرضاء نينو فقط.

في المرّة الأولى لذهابها إلى المحلّ في ساحة الشهداء، كي تستطلع الوضع، صُدمت برؤية الجدار ـ الذي كان يستضيف لوحة صورتها بفستان العرس ـ لا يزال مسكونًا بالبقع الصفر والداكنة الناتجة من اللهب الذي أحرق الصورة. أزعجتها تلك الآثار. لا يعجبني شيء ممَّا جرى لي، أو فعلتُه قبل نينو، فكَّرتْ. باغتتها فكرةٌ تُفيد بأنّ ذلك المجال في وسط المدينة، شهد ـ لأسباب مبهمة ـ أبرز لحظات حربها. فهناك تعارك شقيقها مع الشبّان من شارع الألف مقاتل في إحدى الأمسيات، حين قطعتْ وعدًا على نفسها بأن تخرج من مستنقع الشقاء. وهناك ندمت على قرارها هذا؛ ما جعلها تشوِّه صورتها بفستان العرس، لاعتقادها أنّ جراحها المعنويَّة لا بدّ من أن تظهر كزينة في المحلّ. وهناك اكتشفت الدلائل على الإجهاض. وهناك، حينئذ، كان مشروع الأحذية يغرق كسفينة يدمِّرها الأَخوان سولارا. وبناء على هذا كلّه، كانت ستُنهي ـ هناك ـ زواجها، وتزيح ستيفانو عن كاهلها، فضلًا عن كنيته وكلّ ما يتعلَّق به. ما هذا التقصير؟ قالت لميكيلي سولارا، وهي تُشير إلى بقع الحريق، ثم خرجت إلى الرصيف لتنظر إلى الأُسود الصخريَّة في مركز الساحة، ما سبّب لها الذعر.

أمرت بطلاء الجدران كلّها. وفي المرحاض، منعدم النوافذ،

Telegram: Somrlibrary

أعادت فتح الباب الجداريّ الذي كان يُفضي في الماضي إلى فناء داخليّ، ثم أمرت بكسائه بورق الزجاج المصقول الذي يسمح بدخول القليل من الضوء. اشترت لوحتين من رسّام صادفتْه في أحد معارض شارع كياتاموني، وأعجبتاها. وظّفت بائعة، ليست من سكّان الحيّ، بل من ضاحية ماتيرديه، وكانت قد درست التدبير المكتبيّ. طالبت ميكيلي بأن تكون حرّة خلال استراحة الظهيرة، من الواحدة حتى الرابعة، كما أعطت لمساعِدتها الحقّ في استراحة مطلقة، ما جعل الفتاة تمتنّ لها دائمًا. حرصت على كسب هدوء ميكيلي، الذي كان يطالبها بمعرفة أدقّ التفاصيل عن أعمالها ونفقاتها، على الرَّغم من ثقته بها ودعمه التامّ لكلّ تحديثاتها.

عزَّز خيارُها الذهاب للعمل في ساحة الشهداء، عزلتَها في الحيّ أكثر من قبل. ما الذي يدفع فتاة تزوَّجت خير زواج، واكتسبت حياة مرفَّهة جاءت إليها من العدم؛ فتاة حسناء، ربّة منزلٍ، تهيمن على أملاك زوجها... ما الذي يدفعها إلى النهوض من السرير في الصباح الباكر، لتبقى بعيدة عن بيتها طوال النهار، في وسط المدينة، تعمل لدى الآخرين، وتعقِّد حياة ستيفانو، وحياةَ حماتها التي اضطرَّت بسببها، إلى أن تعود إلى الكدّ في الملحمة الجديدة؟ كان من المتوقَّع أن تنحو بينوتشا وجيليولا، كلٌّ على طريقتها، إلى اغتياب ليلا بأفظع ما عندهما. لكنّ المفاجأة أتت من جهة كارمن، التي كانت تعبد ليلا بفضل الإحسان الذي نالته منها؛ ما إن تركت ليلا الملحمة حتى قطعت كارمن مودّتها، كما تفلت يدٌ مسّتها أنياب حيوان ما. لم يعجبها التبدُّل الفظيع من صديقة ومساعِدة إلى عبدة تحت رحمة والدة ستيفانو. شعرت بأنَّها تعرَّضت للغدر، وأنّ ليلا تركتها وحيدة لتلقى مصيرها، ولم تنجح في كظم غيظها. وراحت تجادل خطيبها أيضًا، إنتسو الذي

Telegram: Somrlibrary

لم يكن يوافقها في قسوتها، فكان يهزّ رأسه، ويُدلي بكلمتين أو ثلاث، وفقًا لاقتضابه المعهود، لا يدافع عن ليلا فحسب، بل يُضفي عليها ما يشبه القداسة، واصفًا أسبابها بالمحقّة والمنزّهة عن النقاش.

«لا يعجبك أيّ شيء أفعله، بينما يعجبك كلّ ما تفعله هي»، همست كارمن بنقمة.

«من قال ذلك؟»

«أنت. لينا تفكِّر؛ لينا تفعل؛ لينا تعلم. وماذا عنِّي؟ أنا التي تركتْني وحدي وذهبتْ؟ لكنّها بالطبع أحسنت صنعًا بذهابها، وأنا أُخطئ بتذمُّري. أليس كذلك؟ أليس هذا ما تفكِّر فيه؟»

«لا».

لم تقتنع كارمن، على الرَّغم من نفيه الموجز والواضح، وكانت تتألَّم. كانت تدرك أنّ إنتسو ضاق ذرعًا بكلِّ شيء، وبها أيضًا، وهذا ما كان يُغضبها أكثر فأكثر: منذ وفاة والده، منذ عودته من الخدمة العسكريَّة، اختصر الشابّ حياته المعتادة، بفعل ما عليه، إلَّا أنَّه في الخدمة كان ينكبّ على الدراسة في الليل ليحصل على شهادة ما. وحينذاك، كان متقوقعًا على نفسه يزأر كالوحوش ـ وأخفى زئيرَ الباطن بصمت الظاهر ـ ولم تعد كارمن تحتمله، وخصوصًا أنَّها لا تطيق أن يشرق وجهه كلَّما تحدّثا عن تلك الحقيرة، فتصرخ فيه، وتجهش باكية، وهي تصيح:

«إنَّني أشمئزّ من لينا، لأنَّها لا تُقيم اعتبارًا لأيّ أحد. لكن هذا يعجبك فيها، أعلم ذلك. وإذا فكَّرتُ في أن أتصرَّف مثلها، هشّمتَ وجهي».

أمّا آدا، فقد انحازت منذ زمن إلى ربّ عملها، ستيفانو، ضدَّ زوجته التي تُسيء معاملته. وعندما ذهبت ليلا لتعمل بائعة من الطراز

Telegram: Somrlibrary

الرفيع، اقتصرت آدا على أن تُضمر لها المزيد من الغلّ. كانت تغتابها مع أيِّ أحد، بكلّ وقاحة وصراحة، ولاسيّما أنَّها تشعر بالاستياء من أنطونيو وباسكوالي. «لقد عمدتْ إلى خداعكم، أنتم الذكور جميعًا، طوال الوقت» كانت تقول، «لأنَّها تعرف كيف تغويكم، لأنَّها قحبة»، تتحدَّث هكذا تحديدًا، بسخط ونقمة، كما لو أنّ أنطونيو وباسكوالي يمثِّلان انحطاط الجنس الذكوريّ. كانت تشتم شقيقها لحياديَّته، وتصرخ في وجهه: «أنت تلتزم الصمت لأنَّك تقبض المال من الأَخَوَين سولارا. أنت وهي مجرَّد موظَّفين في الشركة نفسها. وأعلم بأنَّك تسمح لأنثى بقيادتك، تساعدها على ترتيب المحلّ، وما إن تأمرك بتحريك هذا وذاك حتى تسرع إلى إظهار طاعتك». ثم تزيد عيار الإساءة إلى خطيبها باسكوالي، الذي كانت أمورها معه لا تجري على ما يرام، فتسيء إليه باستمرار، قائلة: «أنت متَّسخ ورائحتك نتنة». وإذا اعتذر باسكوالي، مبرِّرًا ذلك بأنَّه خرج للتوّ من العمل، تابعتْ آدا إهاناتها، وتطرَّقت إلى هذا الأمر في كلّ مناسبة، حتى إنّ باسكوالي تغاضى عن النقاش بشأن ليلا ليضمن حياة مطمئنّة، وإلَّا لكان من الأَوْلَى به أن يفسخ الخطوبة. مع أنَّه ـ والحقّ يُقال ـ كان حتى تلك اللحظة يغضب من خطيبته وشقيقته على حدٍّ سواء، لتناسيهما كلَّ النِّعم التي تلقّتاها من صعود نجم ليلا. إلى أن رأى صديقتنا ذات صباح، تجلس إلى جانب ميكيلي سولارا، يوصلها بسيَّارته «جوليت» إلى ساحة الشهداء، مفرطة في بهرجتها، وترتدي أزياء عاهرة رفيعة المستوى. أقرّ عندئذ بعدم استيعابه قدرتها على بيع نفسها لرجل مختلّ كذاك، وهي التي لم يكن ينقصها المال لفعل ذلك.

وليلا، كعادتها، لم تنتبه لذلك الامتعاض الذي يتَّسع حولها، وانكبَّت على عملها الجديد. وسرعان ما ارتفع حجم المبيعات،

Telegram: Somrlibrary

وتحوَّل المحلّ إلى مكانٍ يقصده الناس، ليس للشراء فحسب، بل للتمتُّع بمحادثة فريدة مع تلك السيّدة الشابّة والحيويّة، فائقة الحسن، مرهفة الحسّ، والتي لديها كتبٌ بين الأحذية، كتبٌ تقرأها، وتعرض الشوكولاتة مع الكلمات اللمّاحة، ولاسيّما أنَّها ـ على مرأى زوجة المحامي، أو بنات المهندس، أو مراسل صحيفة «ال ماتينو»، أو المتكبِّرين شيبًا أو شبابًا من الذين يهدرون أوقاتهم وأموالهم في السيرك ـ لا تبدو كأنَّها تدعوهم إلى الجلوس على الأرائك والدواوين لتبيعهم أحذية شيرولُّو أو أحذية سولارا، إنَّما لتثرثر معهم فقط.

ميكيلي هو العقبة الوحيدة. غالبًا ما كان يظهر في وجهها خلال ساعات العمل. وذات مرَّة، قال لها بنبرته الساخرة والمغوية:

«أخطأتِ في اختيار الزوج يا لينا. كنت محقًّا في رؤيتي. فانظري كيف تتصرَّفين بشكل رفيع مع مَن قد يعود علينا بالنفع. في إمكاننا، أنا وأنت، أن نستحوذ على نابولي في غضون سنوات، ونفعل بها ما نشاء».

ثم حاول أن يقبِّلها.

دفعتْه عنها، لكنّه لم يغضب، بل قال لها مرحًا:

«لا بأس في هذا، فأنا أُحسن الانتظار».

«انتظر حيثما تشاء، لكن ليس هنا في الداخل»، أجابته، «فإذا انتظرتَ هنا، رجعتُ في الغد إلى الملحمة».

خفَّف ميكيلي زياراته، في حين كانت زيارات نينو تتزايد. وهكذا حصلا، لأشهر، في المحلِّ في ساحة الشهداء، على حياة خاصَّة بهما، تستمرّ ثلاث ساعات في اليوم، عدا أيَّام الآحاد والعطل الرسميَّة التي لم يكونا يطيقانها. كان الشابّ يدخل من الباب الصغير في المرحاض، عند الساعة الواحدة، ما إن تسدل العاملة ثلاثة أرباع

Telegram: Somrlibrary

الستار المعدنيّ، وتذهب بعيدًا؛ وينصرف من الباب نفسه في تمام الرابعة، قبل أن تعود العاملة. وفي الحالات النادرة التي شهدت مشكلة ما ـ حين جاء ميكيلي وجيليولا مرّتين، وفي مرحلة متوتِّرة جدًّا حين جاء ستيفانو أيضًا ـ كان نينو يُغلق على نفسه في المرحاض، ثم يفرّ بعيدًا من الباب الذي يُفضي إلى الفناء.

أعتقد أنّ ليلا كانت تمرّ في مرحلة حرجة، تحاول خلالها أن تستشرف بشائر مستقبل سعيد. كانت لا تزال تكرِّس نفسها لأداء دور السيِّدة الشابَّة، التي تضيف إلى تجارة الأحذية لمساتها الخاصَّة من جهة؛ ومن الجهة الأخرى، كانت تقرأ من أجل نينو، وتدرس من أجل نينو، وتتأمَّل من أجل نينو. حتى الشخصيَّات الرفيعة التي كان يحدث أن تُقيم معها علاقات ودِّيَّة في المحلِّ، كانت تبدو لها مفيدة لمساعدة نينو على وجه الخصوص.

في تلك الحقبة، نشر نينو مقالًا في صحيفة «ال ماتينو» يتحدَّث فيه عن نابولي، ما وفَّر له شهرة معقولة في الأوساط الجامعيَّة. لم أنتبه لكلّ هذا، وخيرًا فعلتُ. فلو أقحماني في قصّتهما كما حدث في إيسكيا، لتألَّمتُ إلى درجةٍ تحول بيني وبين النهوض مجدَّدًا، وخصوصًا أنَّني استهلكتُ دقائق معدودة، لأفهم أنّ بعض أسطر ذلك المقال كانت بوحيٍ من ليلا ـ لا أقصد البيانات والمعلومات، وإنَّما تلك التلميحات التي لا تتطلَّب كفاءات خارقة، بل قدرة على الربط بين أشياء متباعدة جدًّا ـ ونبرة الكتابة، كانت نبرة ليلا بلا شكّ. لم يكن نينو قادرًا على الكتابة هكذا، ولن يكون قادرًا عليها لاحقًا. وحدنا، أنا وليلا، نتقن الكتابة بتلك الطريقة.

Telegram: Somrlibrary

٨٨

ثم اكتشفتْ أنَّها حامل، وقرَّرتْ أن تضع نهاية لحيلة ساحة الشهداء. ذات يوم أحد من أواخر خريف سنة ١٩٦٣، رفضتْ ليلا الذهاب للغداء عند حماتها، كما كان يحدث غالبًا، وكرَّست نفسها للطبخ بعناية فائقة. وبينما كان ستيفانو يشتري الحلويات من عند سولارا، ويحمل منها إلى أمِّه وأخته اعتذارًا عن غيابه يوم الأحد، كانت ليلا تملأ إحدى الحقائب، التي اشترتها لرحلة زفافها، ببعض ثيابها الداخليَّة وبعض الفساتين وحذاء شتويّ؛ وخبّأتها خلف باب الصالة. ثم غسلت جميع القدور التي استعملتْها، أعدّت مائدة المطبخ بعناية، وأخرجت سكِّينًا مخصَّصة لتقطيع اللحوم من أحد الأدراج، وغطَّتها بخرقة ما، ثم وضعتها عند المغسلة. وفي انتظار عودة زوجها، فتحت النافذة لتطرد رائحة الطهو، وظلَّت هناك تنظر إلى القطارات والسكك البرّاقة. طرد البردُ دفءَ الشقَّة، لكنَّه لم يضايقها، بل كان يمنحها قوَّة وعزيمة.

عاد ستيفانو، وجلسا إلى المائدة. لم يقل كلمة استحسان واحدة في الطعام. كان ممتعضًا، لأنَّه حرم نفسه طبخ والدته الشهيّ؛ ومستاءً من صهره رينو أكثر من المعتاد، وحنونًا تجاه طفله أكثر من المعتاد

Telegram: Somrlibrary

أيضًا. وقد سمَّاه «ابن أختي» غير مرّة، كأنَّ مساهمة رينو لم تكن ذات أهمِّيَّة. وحين جاء دور الحلويّات، التهم ستيفانو ثلاث قطع، بينما لم تمسّ ليلا أيّ واحدة منها. نظّف ستيفانو فمه المتّسخ بالقشدة، وقال لها:

«هلّا ذهبنا للنوم قليلًا؟»

أجابته ليلا:

«لن أذهب مجدّدًا إلى المحلّ، بدءًا من الغد».

أدرك ستيفانو حالًا أنّ الظهيرة كانت تتكدّر.

«لماذا؟»

«لم تعد لديّ رغبة».

«هل تشاجرتِ مع ميكيلي ومارتشيلّو؟»

«لا».

«لا تتهوَّري يا لينا. فأنت تعلمين جيِّدًا بأنَّنا، أنا وأخاك، نتناحر معهما. لا تعقِّدي الأمر».

«لن أعقِّد شيئًا. لكنّني لن أعود إلى هناك أبدًا».

صمت ستيفانو، وفهمت ليلا أنَّه كان متوجِّسًا يحاول التملُّص من المسألة من دون الغوص فيها. كان زوجها يخشى أن تطلعه على إهانةٍ ما تلقَّتها من جانب الأَخَوَين سولارا، إهانة لا تُغتفر، ولا يسعه ـ إذا علم بها ـ إلَّا أن يردّ بقطيعة نهائيَّة؛ الأمر الذي لم يكن قادرًا على القيام به.

«حسنًا»، قال لها حين قرَّر أن يتكلَّم، «لا تذهبي إلى هناك، عودي إلى الملحمة».

«ليس لديّ رغبة في العمل في الملحمة أيضًا»، أجابته.

Telegram: Somrlibrary

حملق إليها ستيفانو مرتبكًا.

«هل تريدين البقاء في البيت؟ جيِّد جدًّا. أنت من أردتِ العمل، ولم أُرغمكِ عليه يومًا. أليس صحيحًا؟»

«صحيح».

«ابقي في البيت إذن، فهذا يسعدني».

«لا أريد البقاء في البيت أيضًا».

كاد يفقد السكينة، كعلاجٍ وحيد للتخلُّص من القلق.

«هل في وسعي معرفة ما الذي تريدينه؟»

أجابته ليلا:

«أريد أن أرحل».

«إلى أين؟»

«لم أعد أريد البقاء معك؛ أريد أن أهجرك».

لم يتمكَّن ستيفانو من فعل شيء سوى الانفجار ضاحكًا. بدت له تلك الكلمات فاحشة، إلى درجة أنَّه شعر بمعنويات مرتفعة لبضع دقائق. قرص وجنتها، وقال لها بنصف ابتسامته المعهودة إنَّهما زوجٌ وزوجة؛ والزوجان لا يفترقان؛ ووعدها بأن يأخذها الأحد القادم إلى شاطئ أمالفي، كي ينعما بقسط من الراحة. لكنّها أجابته بهدوء بأنَّه لا يوجد سبب منطقيّ للعيش معًا، وأنَّها أخطأتْ منذ البداية، لكن كانت تستلطفه خلال الخطوبة فقط، وكانت حينئذ متيقِّنة بأنَّها لم ترغب فيه يومًا، وبالتالي لم تعد تحتمل أن ينفق عليها، وأن تساعده في تنمية أمواله، وأن تنام معه في السرير نفسه. ومع نهاية هذا الخطاب، تلقّت صفعة أوقعتها عن الكرسيّ. وبينما كان ستيفانو يثب ليضربها، نهضت، فهرعت نحو المغسلة، وأمسكت بالسكِّين التي أخفتها تحت الخرقة،

Telegram: Somrlibrary

ووجّهتها إليه تمامًا، حين كاد يصفعها مجدَّدًا.

«افعلْها كي أقتلك كما قتلوا والدك»، قالت له.

توقّف ستيفانو، مصعوقًا بهذه الإشارة إلى مصير والده. غمغم بكلمات مثل: «هيَّا، اقتليني، افعلي ما يطيب لك». ثم انتابه ما يشبه الملل، وراوده تثاؤبٌ طويلٌ، لم يتمكَّن من إيقافه، فاغرًا فاه، ليجعل من عينيه تقدحان. أدار ظهره لها، وما زال يتمتم بجمل حزينة: «ارحلي، ارحلي، لقد أعطيتك كلّ شيء، لقد سمحتُ لك بكلِّ شيء، وأنت تكافئينني بهذه الطريقة، وأنا الذي انتشلتُك من الفقر، وجعلتُ أخاك ثريًّا، وساعدت أباك، وكلّ أفراد عائلتك الخرائيَّة». اتَّجه إلى الطاولة، والتهم قطعة حلوى أخرى. ثم غادر المطبخ، وانصرف إلى غرفة النوم، حيث صاح لها فجأة:

«ليس في إمكانك أن تتصوَّري كم أودّك».

وضعت ليلا السكِّين على المغسلة، وفكَّرتْ: لا يصدِّق أنَّني سأهجره؛ ولن يصدِّق حتى إنَّني مرتبطة بآخر. لا يستطيع أن يصدِّق. وعلى الرَّغم من ذلك تشجَّعتْ وذهبت إلى غرفة النوم لتعترف له بعلاقتها بنينو، وبأنَّها كانت حاملًا. لكنّها وجدته نائمًا، كأنَّ النعاس هبط عليه فجأة كعباءة مسحورة. فارتدت معطفها، وحملت الحقيبة، وتركت الشقّة.

Telegram: Somrlibrary

٨٩

نام ستيفانو طوال النهار. وحينما استيقظ، وانتبه لعدم وجود زوجته، لم يتكدَّر مزاجه ولا أحسَّ بأيٍّ قلق. كان يتصرَّف على هذا النحو منذ أن كان صغيرًا؛ كان والده يُخيفه بمجرّد حضوره، لذا تمرَّن على شبه الابتسامة تلك، كردّة فعل، وعلى حركات بطيئة وهادئة، وعلى إبقاء مسافة متوازنة تُبعده عن أيٍّ شيء يُحيط به، وذلك ضبطًا لذعره، وكتمًا لرغبته في شقّ صدر أبيه وتمزيقه، وانتزاع قلبه بيديه.

خرج في المساء مُقْدِمًا على أمر خطير: ذهب إلى تحت نوافذ آدا، التي تعمل بائعة عنده، وناداها، على الرَّغم من أنَّه كان يظنّ أنَّها في السينما أو في مكان آخر مع باسكوالي، ناداها أكثر من مرَّة. أطلّت آدا من النافذة، مسرورة ومتوجِّسة في آن. بقيت في البيت، لأنّ ميلينا كانت فاقدة وعيها أكثر من المعتاد، بينما كان أنطونيو في حال تسكُّع دائم منذ أن بدأ عمله لمصلحة الأَخَوَين سولارا، ولم يكن له توقيت ثابت. لكنّ خطيبها كان معها يؤانسها. وعلى الرَّغم من هذا، صعد ستيفانو، وأمضى السهرة في بيت كابوتشو، من دون أن يتفوَّه بحرف عن ليلا أبدًا، وتحدّث في السياسة مع باسكوالي، وفي مسائل تتعلَّق بالملحمة مع آدا. وحين عاد إلى البيت، تظاهر بأنّ ليلا ذهبت

Telegram: Somrlibrary

إلى بيت أهلها، وحلق لحيته قبل أن ينام، ثم غطّ في نوم عميق طوال الليل.

بدأت المضايقات في اليوم التالي، فالبائعة في ساحة الشهداء أعلمت ميكيلي بأنّ ليلا لم تأت إلى المحلّ، فاتّصل ميكيلي بستيفانو، الذي ردّ بأنّ زوجته كانت مريضة. ودام المرض أيّامًا، حتى قامت نونتسيا بزيارة لتطمئنّ على ابنتها، وتساعدها إذا اقتضت الحاجة. لم يفتح لها الباب أحد، فعادت في المساء بعد إغلاق المحالّ أبوابها. كان ستيفانو قد عاد للتوّ من العمل، وكان جالسًا قبالة التلفاز الذي اعتاد رفع صوته. جدّف بالآلهة وقام ليفتح. أدخلها. وما إن سألته نونتسيا: «كيف حال ليلا؟» حتى أجابها بأنّها هجرته، وانفجر باكيًا.

هرع أفراد العائلتين معًا: والدة ستيفانو، ألفونسو، بينوتشا وصغيرها، رينو، فرناندو. كان الجميع مذعورين لسبب أو لآخر، إلّا أنّ ماريّا ونونتسيا كانتا الوحيدتين اللتين صرّحتا بمخاوفهما حيال غياب ليلا وتساءلتا أين رحلت. أمّا سائر الأشخاص، فقد تشاجروا في ما بينهم لأسباب لا تتعلّق بليلا. رينو وفرناندو، الممتعضان من ستيفانو لأنّه لا يفعل شيئًا لمنع إغلاق الورشة، اتّهماه بأنّه عاجز عن استيعاب ليلا، وبأنّه أخطأ خطأً فادحًا بإرسالها إلى محلّ سولارا. غضبت بينوتشا، وصرختْ بزوجها وحميها بأنّ ليلا لطالما كانت تُوصَف بالمجنونة، وأنّها ليست ضحيّة ستيفانو، بل العكس صحيح. وعندما ارتجل ألفونسو أنّه يجب اللجوء إلى الشرطة، والسؤال عنها في المستشفيات، استعرت الأنفس مجدّدًا، ووبّخه الجميع كما لو أنّه أهانهم؛ رينو خصوصًا هتف بأنّ هذا ما ينقصهم: أن يغدوا أضحوكة الحيّ. وحينذاك، تدخّلت ماريًّا بنبرة مطمئنة: «ربّما ذهبت عند لينو». حصلت هذه الفرضيّة على رضا الجميع، وعادوا يتهاترون متظاهرين

Telegram: Somrlibrary

ـ جميعهم، ما عدا ألفونسو ـ بالاعتقاد أنّ ليلا أُصيبت بالإحباط، بسبب ستيفانو، بسبب الأَخَوَين سولارا، وقرَّرت الانطلاق إلى بيزا. «أجل» قالت نونتسيا، مستعيدة هدوءها، «إنَّها تفعل هكذا دومًا، ما إن تصادفها مشكلة، تبحث عن لينو». فإذا بهم يغضبون جميعًا من تلك المجازفة، كيف تسافر بمفردها، بالقطار، بعيدًا، من دون أن تُخبر أحدًا؟ وسرعان ما تحوَّلت فكرة أنّ ليلا عندي، من فرضيَّة مقنعة ومطمئنة إلى أمرٍ مؤكَّد. لكنّ ألفونسو قال: «سأنطلق غدًا وأذهب لأتأكَّد»، فاعترضته بينوتشا حالًا: «أين تذهب، عليك أن تعمل»، وغمغم فرناندو قائلًا: «فلندعها وشأنها، فلندعها تهدأ».

وراح ستيفانو، في اليوم التالي، يقصّ هذه الرواية على مسمع كلِّ مَنْ يسأله عن ليلا: «لقد ذهبت إلى بيزا ضيفة عند لينوتشا، لتأخذ قسطًا من الراحة». ولم تمرّ الظهيرة إلَّا وعاود القلق هجومه على نونتسيا، بحثت عن ألفونسو وطلبت منه عنواني. لم يكن يملكه، لا أحد كان يملكه إلَّا والدتي. فأوفدته نونتسيا إلى أمِّي، لكنّ الأخيرة، بسبب طباعها القاسية في وجه الجميع، أو لأنَّها كانت تودّ حمايتي من التشويش لأركِّز في دروسي، أعطته العنوان ناقصًا (ومن الوارد أنّها كانت تملك العنوان هكذا هي أيضًا، فأمِّي بالكاد كانت تعرف الكتابة، وكانت كلتانا تعلم بأنّ ذلك العنوان لن يستخدمه أحد). في كلّ الأحوال، كتب ألفونسو ونونتسيا رسالة يسألانني فيها، بمراوغةٍ كلاميَّة، إن كانت ليلا عندي. أرسلاها إلى جامعة بيزا، هكذا فقط، باسمي وكنيتي، ووصلتني متأخِّرة جدًّا. وحين قرأتها، استشاط غضبي من ليلا ونينو، ولم أردّ.

ومنذ اليوم الثاني على سفر ليلا المفترض، راحت آدا ـ فضلًا عن عملها في الملحمة القديمة، واعتنائها بكامل أفراد عائلتها

Telegram: Somrlibrary

ومتطلِّبات خطيبها - تمرّ لتنظيف بيت ستيفانو ولتطبخ له، ما كدّر مزاج باسكوالي. تشاجرا، وقال لها: «أنت لا تتقاضين راتبًا لتصبحي خادمة»، فأجابته: «أفضّل العمل خادمة على هدر الوقت في النقاش معك». واتّقاءً لغضب الأَخَوَين سولارا، أُرسِل ألفونسو على عَجَلٍ إلى ساحة الشهداء، وكان العمل هناك يروق له كثيرًا: يخرج في الصباح الباكر متأنِّقًا كأنَّه مدعوٌّ إلى حفل زفاف، ويعود في المساء بسرور بالغ. كان يحبّ أن يُمضي النهار كلّه في وسط البلد. أمّا ميكيلي، وقد بات نزقًا بعد غياب السيِّدة كارّاتشي، فقد استدعى إليه أنطونيو، وقال له:

«أريدك أن تجدها».

غمغم أنطونيو:

«لكنّ نابولي كبيرة جدًّا يا ميكيلي، وبيزا، وإيطاليا أيضًا. من أين أبدأ؟»

أجابه ميكيلي:

«ستبدأ من نجل سارّاتوري»، ثم رماه بنظرةٍ يخصّ بها أولئك الذين لا يساوون شيئًا في رأيه، وقال له: «إيَّاك أن تُطلع أحدًا على بحثك هذا، وإلّا أدخلتك مستشفى المجانين في آفيرسا، ولن تخرج منه أبدًا. عليك أن تخبرني، أنا فقط، بكلّ ما ستعرفه، وكلّ ما ستراه. واضح؟»

أومأ أنطونيو بنعم.

Telegram: Somrlibrary

٩٠

إنّ أشدّ ما أخاف ليلا، طوال حياتها، يكمن في انحلال أطراف الأشخاص، أكثر من انحلال هوامش الأشياء، وأن تتحوَّل أجسادهم إلى سائل لا شكل له. كان قد أرعبها انصهار شقيقها، الذي كانت تودُّه أكثر من أيِّ فرد آخر في العائلة؛ وقد ارتعدت من تفسُّخ ستيفانو خلال انتقاله من خطيب إلى زوج. ولم أعلم إلَّا عبْر دفاترها كم أثّرت فيها ليلة زفافها الأولى، وكم كانت تخشى تغيُّرًا واردًا يطرأ على جسد زوجها، وأن يتشوَّه بسبب تخبُّط الرغبات في صدره، واستِعارِ غضبه وتفشِّي حقارته، أو، ربّما العكس، بسبب شكله الزائف، وخصوصًا في الليل. كانت تخشى أن تستيقظ لتجده قد تحوَّل إلى مسخٍ في السرير، أو جمعٍ من الزوائد الورميَّة التي تنفجر بكامل ما فيها من سوائل جوفيَّة. كانت تخشى أن يتعرَّض لحمه للذوبان والسيلان، ليجرف معه كلّ شيء حوله، الأثاث، والشقَّة بأكملها، وهي نفسها، زوجته، ممزَّقة إلى أشلاء يبتلعها ذلك التدفُّق النَّجِس المكوَّن من مادَّة حيّة.

بعد أن غادرت البيت، مغلقة الباب خلفها، أحسّت كأنَّها في خضمّ بُخار أبيض يجعل منها كائنًا خفيًّا. اجتازت الحيّ بحقيبتها، واستقلَّت المترو حتى وصلت إلى كامبي فليجري، وتولّد لديها انطباع

Telegram: Somrlibrary

بأنَّها تركت خلفها مكانًا هشًّا، استولت عليه كائنات لا شكل محدَّدًا لها؛ وشعرت بأنَّها تمضي نحو بنيان قادر على احتوائها كلّها، أجل كلّها، لا تتعرّض فيه للتلف، لا هي ولا الأشخاص من حولها. وصلت إلى وجهتها عبْر دروب موحشة. حملت الحقيبة إلى الطابق الثاني من مسكنٍ شعبيّ، إلى شقَّة بغرفتين، شقَّة مظلمة، في حالة متردِّية، مزوَّدة بأثاث قديم سيِّئ الصنع، ومرحاض ليس فيه سوى الكَنيفِ من دون المغسلة. عملت على تحسين المكان بنفسها، فكان نينو ملزمًا بتحضير الامتحانات، فضلًا عن أنَّه كان يعمل على كتابة مقالة جديدة، لينشرها في «ال ماتينو» ـ وكان في صدد تحويل المقال السابق إلى دراسةٍ مستفيضة ـ بعد أن رفضت أن تنشرها مجلَّة «وقائع جنوبيَّة»، في حين أظهرت مجلَّة أخرى تُسمّى «الشمال والجنوب». استعدادها لنشرها. كانت قد ألقت نظرة على الشقَّة، واستأجرتها ودفعت كراءَ ثلاثة أشهر سلفًا. وعندما دخلت، شعرتْ بسرور بالغ يغمرها. وفوجئت باكتشاف السعادة بكونها هجرت مَنْ كان يبدو لها جزءًا لا ينفصل عنها. السعادة، أجل، هكذا كتبتْ. لم تندم ولو لثانية على خسارتها أشكالَ الرخاء في الحيِّ الجديد. لم تتحسَّس من رائحة العفونة. لم تكن لترى بقع الرطوبة في إحدى زوايا غرفة النوم، ولم يحبطها الجوّ العامّ الذي كان يوحي بعودة شقاء الطفولة. بل شعرتْ بأنَّها اختفت، بسحر ساحرٍ طيّب، من مكان عانت فيه الأمرَّين، لتظهر ثانية في مكان آخر يَعِدُها بالبهجة. أعتقد أنَّها خضعت لجولة ثانية من حالة المحو الذاتيّ: كفى لما كانت عليه؛ كفى للشارع العام، والأحذيةِ والملحمتين، وذلك الزوجِ القميء، والأَخَوَين سولارا، وساحةِ الشهداء؛ كفى لي أيضًا؛ كانت العروس، والزوجة في ما بعد، قد تبدَّدت في عالم آخر، واختفت. ولم تحمل من ماضيها إلَّا عشقَها

Telegram: Somrlibrary

نينو، الذي وصل في المساء.

كان واضحًا أنَّه مشحون العواطف. عانقها، قبَّلها، ونظر حوله مشدوهًا. راح يمترس الأبواب والنوافذ، كأنَّه يخشى مداهمة مباغتة. مارسا الحبّ، للمرَّة الأولى في سرير منذ تلك الليلة في فوريو. ثم نهض، وانكبّ على الدراسة، وغالبًا ما اشتكى من خفوت الضوء. نهضت من السرير ليلا أيضًا، وأعانته على المراجعة. خلدا إلى النوم في الحادية عشرة ليلًا، بعد أن دقّقا المقال الجديد لصحيفة «ال ماتينو»، وناما متعانقين. شعرتْ ليلا بأنَّها في مأمن، على الرَّغم من هطول الأمطار في الخارج، وارتجاج الزجاج، ووحشة المنزل. كم كان جسد نينو جديدًا، طويلًا وطريًّا! شتّان ما بينه وبين جسد ستيفانو! كم كانت رائحته مثيرة! بدا لها أنَّها جاءت من عالم مسكون بالأطياف، وأنَّها وصلت إلى مكانٍ يحتوي ـ أخيرًا ـ على الحياة الحقيقيَّة. وفي الصباح، ما إن أسندت قدميها إلى الأرض، حتى هرعت إلى المرحاض لتتقيَّأ. أغلقت الباب كي لا يسمعها نينو.

Telegram: Somrlibrary

٩١

دامت المساكنة ثلاثة وعشرين يومًا. وكان شعورها بالارتياح من أنَّها تركت كلّ شيء، يزداد ساعة في إثر ساعة. لم تتحسَّر على أيٍّ من مظاهر الرفاهيَّة التي تمتّعت بها بعد الزواج، ولم تحزن بسبب بُعدها عن أبويها، وإخوتها، ورينو وابنه الصغير. لم تقلق أبدًا من أن تنفد نقودها. بدا لها أنّ الأهمِّيَّة تنحصر في استيقاظها مع نينو والنوم معه، وأنَّها إلى جانبه في دراسته وكتابته، وأنَّهما يجريان حوارات حيويَّة، يتخلَّصان فيها من صداع الرأس. كانا يخرجان في المساء معًا، يذهبان إلى السينما، أو يختاران تقديمًا لكتاب ما، أو نقاشًا سياسيًّا ما، وغالبًا ما يبقيان لوقت متأخِّر، ويعودان إلى البيت سيرًا على الأقدام متشابكين درءًا للبرد أو المطر، وهما يتهاتران متمازحين.

ذات مرَّة، ذهبا ليستمعا إلى أديب، يؤلِّف الكتب ويُخرج الأفلام السينمائيَّة أيضًا، يُدعى بازوليني. كان حضوره يؤلِّب الجدل والضجّة، ونينو لم يكن معجبًا به، يلوي شدقه قائلًا: «إنَّه لوطيّ، ولا يتقن سوى إثارة المشكلات»، حتى إنَّه أبدى مقاومته قليلًا. كان يفضِّل البقاء في المنزل للدراسة. لكنّ ليلا كانت فضوليَّة، وأخذته معها. أُجريت المحاضرة في النادي نفسه، ذاك الذي اصطحبتُها إليه ذات مرَّة، حين

Telegram: Somrlibrary

كنت أطيع الأستاذة غالياني. خرجتْ من المحاضرة متحمِّسة، ودفعتْ بنينو نحو الأديب، كانت تريد التحدُّث معه. لكنّ نينو ثارتْ أعصابه، وبذل ما في وسعه ليسحبها بعيدًا، خصوصًا أنَّه رأى بعض الشبّان على الرصيف المقابل يصرخون بالشتائم. «فلنذهب من هنا» قال مرتبكًا، «لا يعجبني هو، كما لا يعجبني أولئك الفاشيُّون». لكنّ ليلا ترعرعت على المشاجرات، ولم تكن لديها أيّ نيَّة في الفرار، وهكذا كان نينو يحاول أن يسحبها نحو أحد الدروب، وهي تتملَّص منه، وتقهقه، وتردّ على الشتائم بالشتائم. رضختْ على مضض لأوامر نينو فجأة، حين تعرَّفت إلى وجه أنطونيو بين الشبّان الذين بدأوا بالعراك. كانت عيناه تقدحان، وأسنانه من حديد، لكنَّه لم يكن يصرخ خلافًا للآخرين. بدا لها متفرِّغًا للانغماس في المعمعة أكثر من الانتباه لوجودها، غير أنّ السهرة أُفسِدت بتلك الرؤية عمومًا. وفي الطريق، حدثت بعض المشاحنات مع نينو: لم تتوافق آراؤهما بشأن ما أبداه بازوليني، حتى بدا كأنَّ كلّ واحد منهما ذهب إلى محاضرة مختلفة لأديب مختلف. ليس هذا فحسب، كان نينو يتحسَّر على المدَّة الطويلة والمثيرة التي أَثْرَتْ لقاءاتهما الحميميَّة والسرِّيَّة في المحلّ في ساحة الشهداء، وقد انتبه في الوقت نفسه إلى أنّ شيئًا ما يزعج ليلا. انتبهت ليلا لشروده الكئيب، فأخفت عنه رؤية صديق الحيّ ابن ميلينا، بين البلطجيّة، تلافيًا لتوتُّر إضافيّ.

وقد أظهر نينو، بدءًا من اليوم التالي، عدم رغبته في الخروج معها. قال في البدء إنّ عليه أن يدرس، وكان صادقًا، ثم زلّ لسانه بأنَّها تخرج عن طورها في أغلب المناسبات العامَّة.

«ماذا تقصد؟»

«أقصد أنَّك تبالغين».

Telegram: Somrlibrary

«فِيمَ أبالغ؟»

راح يعدِّد عليها بعضًا من لوائح نقمته:

«تتفوَّهين بتعليقات بصوت مرتفع؛ وإن حاول أحد إسكاتك تجنحين إلى الشجار؛ تحرجين المحاضرين بالثرثرة. لا ينبغي لك أن تفعلي هذا».

كانت ليلا تُدرك أنَّه لا ينبغي لها فعل هذا، لكنّها باتت مقتنعة بأنّ كلّ شيء غدا ممكنًا معه، بما فيه تخطِّي الحواجز بوثبة واحدة، والتكلُّم برفع الكلفة مع الأشخاص ذوي الأهمِّيَّة. ألم تكن قادرة على اجتذاب علِّيَّة القوم في محلِّ سولارا؟ أليس بفضل أحد زبائنها نُشرت مقالته الأولى على صفحات «ال ماتينو»؟ فما المشكلة؟ «أنت خجول أكثر من اللازم» قالت له، «لم تعِ بعدُ أنَّك أفضل منهم، وستحقِّق أمورًا أكثر أهمِّيَّة منهم»، ثم قبّلتْه.

لكنّ نينو، في الأمسيات اللاحقة، راح يخرج بمفرده، متذرِّعًا بحجج متعدِّدة. وإن بقي في الشقَّة ليدرس، كان يتذمّر من كمِّيَّة الضوضاء الصادرة من ذلك السكن، أو يتأفَّف إن كان عليه أن يطلب نقودًا من أبيه، الذي سيؤرِّقه بأسئلة مثل: أين تنام، ماذا تفعل، أين تعيش، هل تدرس؟ أو تثور أعصابه أمام قدرة ليلا على ربط أمور متباعدة للغاية، بعضها ببعض، بدلًا من أنْ يتحمَّس ويهزّ برأسه كالعادة.

وبعد حين، تعكَّر مزاجه كثيرًا، وبات متخلِّفًا عن الامتحانات، وكفّ عن النوم معها ليواصل دراسته. وإذا قالت ليلا: «لقد تأخَّر الوقت، فلنخلد إلى النوم»، يجيبها شاردًا: «اذهبي أنت، سأتبعك». كان يتمعَّن في نتوء جسمها من تحت الغطاء، ويشتهي أن يلوذ بدفئها، لكنّه كان يخاف هذا. لم أتخرَّج بعد، يفكِّر، ليس لديّ عمل؛ عليّ أن

Telegram: Somrlibrary

أجتهد كثيرًا كي لا أضيِّع حياتي؛ إلَّا أنَّني هنا برفقة هذه المرأة المتزوِّجة أساسًا، والحامل، والتي تتقيَّأ كلّ صباح، وتقف عائقًا أمام انتظامي بأيٍّ شيء. وحين علم بأنَّهم لن ينشروا مقالته في «ال ماتينو»، تألَّم كثيرًا. واسته ليلا، وقالت له أن يرسلها إلى جرائد أخرى. لكنَّها أردفت:

«سأُجري اتِّصالًا في الغد».

كانت تريد الاتِّصال برئيس التحرير الذي عرفته في محلِّ سولارا، لتفهم ما الخلل. اعترض مستاءً:

«لن تتَّصلي بأحد».

«لماذا؟»

«لأنّ ذلك الوغد كان مهتمًّا بشأنك، وليس بشأني».

«ليس صحيحًا».

«بل صحيح، فأنا لست مغفَّلًا، أنت لا تجلبين لي سوى المشكلات».

«ماذا تقصد؟»

«أقصد أنَّه ما كان عليّ أن أصغي إليك».

«فِيمَ أخطأتُ؟»

«لقد شوَّشتِ أفكاري، لأنَّك كقطرات المياه: بق بق بق. لا تكفّين عن الإلحاح ما لم أقم بما يطيب لك».

«أنت من فكَّر في المقال وكتبه».

«تمامًا. فلماذا جعلتِني أعيد صياغته أربع مرَّات إذن؟»

«أنت، أنت من أراد أن يُعيد صياغته».

«فلنتكلَّم بوضوح يا لينا: اختاري أحد الأمور التي تحبِّين القيام

Telegram: Somrlibrary

بها، عودي إلى بيع الأحذية، عودي إلى بيع اللحوم؛ لكنْ لا تقضي عليّ بفعل ما ليس مخصَّصًا لك».

بقيا معًا ثلاثة وعشرين يومًا، كأنَّ الآلهة خبَّأتهما في سحابة كي يتمتَّع أحدهما بالآخر، من دون أن يتعرّضا لأيٍّ إزعاج. جرحتها كلماته في الصميم، فقالت له:

«اغرب عن وجهي».

ارتدى المعطف على عَجَل وصفق الباب خلفه.

جلست ليلا على السرير وقالت لنفسها: سيعود بعد عشر دقائق؛ لقد ترك كتبه هنا، ومدوّناته، والشفرة ومعجون الحلاقة. ثم انفجرت باكية: كيف فكَّرتُ في أن أعيش معه، وأنَّ في وسعي مساعدته؟ الذنب ذنبي: جعلتُه يكتب شيئًا خاطئًا، بهدف أن أحرِّر روحي.

استلقت على السرير، وانتظرت. انتظرت طوال الليل، لكنّ نينو لم يعد في الصباح، ولا في ما بعد.

Telegram: Somrlibrary

٩٢

حصلتُ على هذه الوقائع، التي أرويها الآن، من عدَّة أشخاص في أزمنة متفرِّقة. سأبدأ من نينو، الذي هجر الشقَّة في كامبي فليجري ليعود إلى منزل والديه. أحسنت والدته معاملته، أفضل كثيرًا من كونه الابن الضالّ. لكنّ الأمور تدهورت مع والده، في أقلِّ من ساعة، وراحا يتبادلان الشتائم. صرخ والده في وجهه، بالعامِّيَّة، مخيِّرًا إيَّاه بين أمرين لا ثالث لهما: الخروج من المنزل أو البقاء، إذ لم يكن يحتمل اختفاءه شهرًا كاملًا من دون أن يُخبر أحدًا بشيء عنه، ثم يعود ليطلب النقود، كما لو أنَّه حصل عليها بنفسه.

انصرف نينو إلى غرفته، وأخذ يتمعَّن في الأمر. وعلى الرَّغم من أنَّه كان متلهِّفًا إلى العودة مسرعًا إلى أحضان لينا، ليطلب منها السماح ويصرِّح لها بعشقه، فإنَّه قوَّم الوضع واقتنع بأنَّه وقع في فخّ. لم يكن الذنب ذنبه، ولا ذنب لينا، وإنَّما ذنب الشهوة. قال لنفسه: الآن، على سبيل المثال، أتوق شوقًا إلى الرجوع إليها، وغمرها بالقبلات، وتحمُّل مسؤوليَّاتي تجاهها؛ لكنّ جزءًا منّي يعي جيِّدًا أنّ ما أقدمتُ عليه اليوم ـ وإن كان متسرِّعًا ـ هو الصواب بعينه: لينا لا تناسبني، لينا حامل، وما في رحمها يبثّ فيّ الرعب؛ لذا لا ينبغي لي أن أعود

Telegram: Somrlibrary

إطلاقًا. عليّ أن أذهب إلى برونو وأستدين منه النقود، ثم أهاجر من نابولي، كما فعلت إيلينا، لأكمل دراستي في مكان آخر.

أمضى الليلة كلّها، والنهار التالي أيضًا، وهو يفكّر في الموضوع؛ وكان يتقلَّب بين حاجته إلى ليلا، وأفكار أخرى تستمدّ ثباتها من سذاجة عشيقته وسوء سلوكها، وجهلها المرتكز على ذكائها الخارق، وقوّتها التي تجعل منه أسيرًا لأفكار واهية، وتكهُّنات عبثيَّة ترتدي قناع الحدس الثاقب.

اتَّصل ببرونو في المساء، وخرج فاقدًا رشده ليذهب إليه. ركض تحت الأمطار حتى وصل إلى موقف الحافلة، وركب في الحافلة الصحيحة، على الرَّغم من تعجّله. لكنَّه غيّر فكرته فجأة، ونزل في ساحة غاريبالدي. استقلّ المترو إلى كامبي فليجري، كان توّاقًا إلى معانقة ليلا: ما إن يدخل الشقَّة حتى يُسندها إلى الجدار، ليلج بها واقفًا على قدميه، فورًا. كان هذا أهمّ من كلّ الأفكار العالقة في رأسه، سيفكِّر في الشؤون الأخرى في ما بعد.

كان يمشي، بخطوات طويلة، تحت المطر وفي كنف الظلام. لم ينتبه لوجود كائنٍ غامضٍ يتَّجه نحوه. تلقَّى دفعة قويَّة أردته أرضًا، ثم تلقَّى مزيدًا من العنف، ركلًا ولكمًا، لكمًا وركلًا. وكان المعتدي يكرِّر باستمرار، لكن بهدوء:

«اتركها، لا تعد إلى رؤيتها أو لمسها أبدًا. كرّر ما أقول: سأتركها. كرِّر: لن أعود لرؤيتها أو لمسها. أيُّها الوغد، يعجبك أن تستحوذ على نساء الآخرين، أليس كذلك؟ كرِّر: لقد أخطأتُ، وسأتركها».

كان نينو يردّد مطيعًا، لكنّ المعتدي لم يكفّ عن الضرب المبرّح. فأُغمي عليه، ليس من الألم، وإنَّما من شدَّة الفزع.

Telegram: Somrlibrary

٩٣

كان أنطونيو هو الذي اعتدى على نينو، لكنَّه لم يُطلع سيِّده على شيء تقريبًا. وحين سأله ميكيلي إن كان قد وجد ابن سارّاتوري، أجابه بنعم. وحين سأله، بتوتُّر ملحوظ، إن كان قد عرف مكان ليلا، أجابه بلا. وحين سأله إن سمع شيئًا عنها، قال له إنّ من الصعب العثور عليها، وإنّه متأكِّد من أمر واحد فقط، وهو استبعاد أن يكون لابن سارّاتوري أيّ صلة بالسيِّدة كارّاتشي.

كان يكذب بالطبع. عثر على نينو وليلا في وقت قصير نسبيًّا، وعن طريق الصدفة، ذات مساء، حين استوجبه عمله أن يصارع الشيوعيِّين. هشّم بعض الوجوه، ثم خرج من المعمعة ليتبع هذين الاثنين اللذين لاذا بالفرار. استدلَّ على مكان إقامتهما، وفهم أنَّهما كانا يعيشان معًا. وفي الأيَّام التالية، اطّلع على كلّ ما كانا يقومان به، وكيف يمضيان وقتيهما. وحين رآهما، أُعجب بهما وحسدهما في الآن نفسه. أُعجب بليلا، قائلًا لنفسه: هل يُعقل أنَّها تركت بيتها الرائع، وتركت زوجها والملحمتين والسيَّارات والأحذية والأَخَوَين سولارا، من أجل طالبٍ مفلسٍ يُسكنها في ضاحية أشدّ سوءًا من الحيّ؟ ما الذي أصاب هذه الفتاة: الجنون أم الشجاعة؟ ثم ركّز حسده في نينو.

Telegram: Somrlibrary

أكثر ما أشعل غيظه هو أنّ ذلك الوغد الهزيل والقبيح والذي كان يعجبني، حاز إعجاب ليلا أيضًا. ما الذي لدى ابن سارّاتوري؟ ما الذي يميِّزه؟ فكَّر في الموضوع ليل نهار. نزل به هَوَسٌ مَرَضيٌّ، اجتاح جهازه العصبيّ، ولاسيّما أعصاب يديه، حتى إنَّه كان يشبكهما باستمرار، ويشدّ يمناه باليسرى كأنَّه يصلّي. وفي النهاية، خلص إلى وجوب تحرير ليلا، حتى لو كانت لا تنوي التحرُّر في تلك اللحظة. لكنّ الناس ـ حدّث نفسه ـ يستغرقون وقتًا طويلًا في التمييز بين الخير والشرّ؛ ومساعدتهم تعني تمامًا تقديم ما يعجزون عن تقديمه إلى أنفسهم، في لحظة معيَّنة من حياتهم. لم يأمره ميكيلي سولارا بأن يضرب نينو، إطلاقًا؛ لكنّ ميكيلي لم يُخبره بجوهر الموضوع، وما من حاجة إلى التفكير طويلًا كي يفهم الأمر برمّته؛ وهكذا، فإنّ قرار الاعتداء على نينو كان قراره، لعدّة أسباب: أراد أن ينزعه من ليلا ليُعيدها إلى العالم الذي تخلَّت عنه بلا مبرِّر؛ ومن جهة أخرى، أراد أن يتلذَّذ بضربه تنفيذًا لنقمة ضيَّقت عليه خناقها، نقمة ليست بحقِّ نينو، ذلك الكائن الهشّ الذي لا معنى لوجوده، وذي البشرة الناعمة والعظام الطويلة التي يسهل سحقها، بل بحقّ إعجابنا، نحن الفتاتين، به في الماضي والحاضر.

أعترف بأنَّني تفهّمتُ دوافعه، حين روى عليّ تلك القصَّة بعد مرور زمن طويل. شعرتُ بالشفقة. حنوتُ على خدِّه بلمسة ناعمة، كي أواسيه من ضراوة تلك المشاعر. فاحمرّ خجلًا، وتشوّش، وقال، كي يُظهر لي أنَّه لم يكن متوحِّشًا: «ساعدتُه بعد ذلك». أنهضَه، ورافقه مشدوهًا إلى إحدى الصيدليَّات، وتركه عند العتبة، ثم عاد إلى الحيّ ليتحدّث مع باسكوالي وإنتسو.

لم يكن هذان الاثنان يرحِّبان بلقائه. لم يعودا يعتبرانه صديقًا،

Telegram: Somrlibrary

وخصوصًا باسكوالي، على الرَّغم من أنَّه كان خطيب أخته. لكنّ أنطونيو لم يعد يُعير اهتمامًا لهذا، وكان يتظاهر بلا شيء، ويتصرَّف كما لو أنّ استياءهما من بيع نفسه لسولارا لا يُفسد الصداقة. لم يتكلَّم بشيء على نينو، وركّز حديثه في أنَّه وجد ليلا، وأنّ عليهم أن يساعدوها.

«بِمَ نساعدها؟» سأل باسكوالي بنبرة عدائيَّة.

«بالعودة إلى بيتها. لم تذهب إلى لينوتشا، إنَّها تعيش في أحقر أحياء كامبي فليجري».

«بمفردها؟»

«أجل».

«وما الذي دفعها إلى هذا الخيار؟»

«لا أعلم، لم أتكلَّم معها».

«لماذا؟»

«لأنَّني كنت أبحث عنها بطلبٍ من ميكيلي سولارا».

«أنت فاشيّ لعين».

«أنا لست شيئًا. لقد أدَّيتُ عملًا».

«أحسنتَ، وماذا تريد الآن؟»

«لم أقل لميكيلي إنِّي عثرتُ عليها».

«وماذا بعد؟»

«لا أريد أن أخسر عملي، لا بدّ من أن أتقاضى المال. وإن عرف ميكيلي أنَّني كذبتُ عليه فقد يطردني. اذهبا إليها، وأعيداها إلى بيتها».

استأنف باسكوالي هجومه اللاذع مجدَّدًا على أنطونيو، وحافظ

Telegram: Somrlibrary

الأخير على هدوئه، هذه المرَّة أيضًا، إلَّا أنَّه انزعج من صهره المستقبليّ، حين قال إنّ ليلا أحسنتْ صنعًا في هجر زوجها وحياتها، ولم يكن ليُعيدها إلى الوراء أبدًا، إن كانت قد انسحبتْ من محلٍّ سولارا بملء إرادتها، وانتبهت إلى أنَّها ارتكبتْ خطأً جسيمًا بالزواج بستيفانو.

«هل تريد أن تتركها بمفردها في كامبي فيلجري؟» سأل أنطونيو مرتبكًا. «بمفردها، ومن دون ليرة واحدة؟»

«وهل نحن أثرياء؟ لينا راشدة، وقد خبرت الحياة، ولديها بالتأكيد ما يبرِّر هذا الخيار الذي أقدمتْ عليه. فلندعها وشأنها».

«لكنّها ساعدتنا دومًا بكلّ ما استطاعت».

شعر باسكوالي بالحياء، عندما سمع تلك الإشارة إلى النقود التي جادت بها ليلا عليه. غمغم بأحاديث عموميَّة عن الأثرياء والفقراء، وعن ظروف المرأة داخل الحيّ وخارجه، وقال إنَّه مستعدّ لتقديم المال إن كانت تمرّ في أزمة اقتصاديَّة. إلَّا أنّ إنتسو، الذي ظلّ صامتًا حتى تلك اللحظة، قاطع كلامه منزعجًا، وقال لأنطونيو:

«أعطني عنوانها، سأذهب لأرى ما الذي تنوي فعله».

Telegram: Somrlibrary

٩٤

وذهب بالفعل، في اليوم التالي. ركب المترو، ونزل في كامبي فليجري، وبحث عن الشارع، فالبناية.

كانت معلوماتي عن إنتسو، في تلك الآونة، تقتصر على أنّه يعيش في ظروف سيِّئة: نُواح والدته من جهة، وأعباء إخوته من جهة أخرى، ناهيك بمافيا سوق الخضروات، والتجوال بالعربة، والدخل الآخذ في الانحسار دومًا، ونقاشات باسكوالي الشيوعيَّة، وارتباطه المهزوز بكارمن. غير أنّ طبعه الانطوائيّ لا يساعد على تكوين فكرة عنه. عرفتُ من كارمن أنَّه كان يدرس خلسة، بهدف الحصول على شهادة في الاختصاص التجاريّ، من دون التردُّد إلى المعهد. وفي المناسبة نفسها ـ خلال عيد الميلاد على ما أذكر ـ قالت لي كارمن إنَّه لم يقبِّلها سوى أربع مرّات منذ عودته في الربيع من الخدمة العسكريَّة. وأردفت منفعلة:

«لعلّه ليس رجلًا».

غالبًا ما نصف، نحن الفتيات، الرجال الذين لا يعتنون بنا، بأنَّهم ليسوا رجالًا. هل كان إنتسو كذلك أم لا؟ لم أكن أفهم شيئًا عن طبائع الرجال الغامضة، ولم تفهم أيّ فتاة منّا شيئًا. وهكذا، كنّا نلجأ

Telegram: Somrlibrary

إلى تلك الصفة، حين يُقْدِم الرجال على تصرُّفات غير مفهومة. بعضهم، كالأخَوَين سولارا، وباسكوالي، وأنطونيو، ودوناتو سارّاتوري، وفرانكو ماري أيضًا (الشابّ الذي ارتبطتُ به في جامعة نورمالي)، كانوا يرغبون فينا بأساليب مختلفة: عنيفة، رقيقة، شاردة، مهتمّة. لكنَّهم كانوا يرغبون فينا بلا شكّ. وآخرون، كألفونسو، وإنتسو، ونينو، كانوا يرغبون فينا بأساليب مختلفة أيضًا، تنمّ عن رصانةٍ محافِظة، كما لو أنّ جدارًا يفصل بيننا وبينهم، وعلى الأنثى أن تتحمَّل مشقّة تسلّقه. وكان إنتسو، بعد أدائه الخدمة العسكريَّة، قد عزَّز هذا الطبع فيه؛ ولم يكن يكتفي بعدم فعل أيٍّ شيء ليحظى بإعجاب الإناث فقط، بل لم يكن مهتمًّا بنيل إعجاب أيٍّ شيء في هذا العالم. حتى جسده، الذي كان قصير القامة أساسًا، كان يبدو أنَّه تقزّم أكثر في ما يشبه الانضغاط الذاتيّ، وبات حاجزًا منيعًا ومشحونًا بالطاقة. تعرَّض الجلد، عند عظام وجهه، للشدّ حتى أصبح كالستار المضادّ للشمس، وتغيَّرت مشيته توافقًا مع الضغط الذي استفحل في ساقيه، ولم يكن أيّ شيء فيه يتحرَّك، لا ساعداه ولا رقبته ولا رأسه، ولا حتى شعره الذي كان كخوذةٍ صهباء اللون. وعندما قرَّر الذهاب إلى ليلا، أبلغ باسكوالي وأنطونيو قراره، ليس لغرض النقاش، بل على شكل أمرٍ مقتضبٍ يُنهي النقاش. ولم يرتبك حينما وصل إلى كامبي فليجري. وجد الشارع، ثم بوَّابة المبنى. صعد السلالم، وطرق الباب الصحيح برباطة جأش.

٩٥

ساءت حالة ليلا، بما أنّ نينو لم يعد خلال عشر دقائق، ولا خلال ساعة، ولا حتى في اليوم التالي. لم تشعر بالوحشة بل بالإهانة، وعلى الرَّغم من أنَّها كانت تعترف في سرِّها بأنَّها ليست المرأة المناسبة لنينو، فإنَّها لم تحتمل أنَّه أكَّد لها الأمر، بأقسى ما عنده، وذلك باختفائه من حياتها بعد ثلاثة وعشرين يومًا لا غير. دفعتْها النقمة إلى رمي كلّ أغراضه التي تركها: كتب، سراويل، جوارب، كنزة قطنيَّة، وعقب قلم رصاص أيضًا. ثم ندمت وانفجرت في البكاء. وحين أفرغت كلّ دموعها، وجدت نفسها قبيحة، ومنفوخة، وغبيَّة، وبائسة من هول تلك المشاعر القاسية التي ألّبها نينو، نينو تحديدًا ذاك الذي تحبّه حبًّا جمًّا؛ ذاك الذي ظنَّت أنَّه يحبّها. بدت لها الشقَّة فجأة كما كانت عليه في الحقيقة، مكانًا شاحبًا ذا جدران تخترقها كلّ ضوضاء المدينة. انتبهت للرائحة الكريهة، والصراصير التي تدخل من تحت الباب. رأت بقع الرطوبة على السقف، وشعرتْ للمرَّة الأولى بأنّ طفولتها تعود لتضيِّق الخناق عليها، ليست تلك الطفولة ذات المخيِّلة الخصبة، إنَّما طفولة القسوة والحرمان، طفولة الوعيد والتعنيف. بل اكتشفتْ فجأة أنّ إحدى أفكارها الخياليَّة، التي أوقدتْ فينا الطمأنينة ـ أي أن نصبح ثريَّتين ـ كانت حينئذ تتبخَّر من رأسها. وعلى الرَّغم من أنَّ الشقاء في كامبي

Telegram: Somrlibrary

فليجري بدا لها أشدّ فظاعة من الحيّ الذي احتضن طفولتنا؛ وعلى الرَّغم من أنّ وضعها سيزداد سوءًا بسبب الطفل الذي تنتظره؛ وعلى الرَّغم من أنَّها أنفقت في أيَّام قصيرة كلّ النقود التي أخذتها معها؛ وعلى الرَّغم من كلّ ما سبق، فإنَّ ليلا اكتشفت أنَّ الشراء لم يعد يبدو لها كمكافأة أو فدية، ولم يعد يعني لها شيئًا. باء بالفشل استبدالُ صناديق الطفولة، المليئة بالدنانير الذهبيَّة والأحجار الكريمة، بنقود المراهقة، تلك الأوراق النقديَّة المسحوقة، كريهة الرائحة، التي تتكدَّس في صندوق الملحمة، أو في العلبة المعدنيَّة السوداء لمحلّ ساحة الشهداء؛ وتبدَّد منها آخر ما تبقَّى من بريق. خاب رجاؤها في العلاقة بين المال وتملّك الأشياء. لم تكن تريد شيئًا لها، ولا لمصلحة ابنها الآتي. فالشراء بالنسبة إليها كان يعني أن تملك قلب نينو؛ وبما أنّ نينو هجرها، كانت تشعر بأنَّها فقيرة فقرًا لا يمكن لكلّ أموال الأرض أن تقضي عليه. وما دام لا يوجد علاج لوضعها هذا ـ إذ ارتكبت الكثير من الأخطاء منذ أن كانت طفلة، وقد صبّت كلّ أخطائها في ذلك الخطأ الأخير؛ أي أنَّها حسبتْ أنّ سارّاتوري الابن عاجز عن أيِّ شيء دونها، كما كانت عاجزة من دونه، وأنّ مصيرهما واحدٌ واستثنائيّ، وأنَّ الحظّ حالفهما بعشقٍ يدوم إلى الأبد، ويدحر كلّ الضرورات الأخرى ـ شعرتْ بأنَّها مذنبة، وقرَّرت ألَّا تخرج أبدًا، وألَّا تبحث عنه، وألَّا تتناول الطعام ولا الماء، بل أن تجلس في انتظار أن تفرغ حياتُها، وحياةُ الطفل، من أيّ شكل ومضمون، ويفرغ رأسها من أيّ شيء، بما فيه تلك الفكرة التي كانت تؤرّقها كثيرًا: أنّ نينو قد هجرها.

وإذا بها تسمع طَرْقًا على الباب.

ظنَّت أنَّ نينو قد عاد. فتحتْ الباب، فوجدت إنتسو. لم تُحبَط برؤيته. ظنَّت أنَّه جاء يحمل إليها بعض الفواكه، كما فعل منذ سنوات بعيدة، حين كان صغيرًا، بعد أن هزمته في المسابقة التي أقرّها المدير

Telegram: Somrlibrary

والمعلّمة أوليڤييرو، فأصاب رأسها بحجر. انفجرت ضاحكة. اعتبر إنتسو ضحكتها دليلًا على تعاستها. دخل، لكنَّه ترك الباب مفتوحًا احترامًا لسمعتها، لم يشأ أن يظنّ الجيران أنَّها تستقبل الرجال كالعاهرة. نظر حوله، وألقى نظرة خاطفة على هيئتها المكفهرّة، واستنتج أنَّها تحتاج إلى المساعدة، على الرَّغم من أنَّه لم يَرَ ما كان مخفيًّا حينذاك، أي الحمْل. قال لها، بطريقته الجادَّة والخالية من العواطف كليًّا، وقبل أن تستطيع ضبط نفسها، والكفّ عن الضحك:

«سنذهب الآن».

«إلى أين؟»

«إلى بيت زوجك».

«هل هو من أرسلك؟»

«لا».

«مَن أرسلك إذن؟»

«لم يرسلني أحد».

«لن آتي».

«سأبقى معك هنا، إذن».

«دائمًا؟»

«حتى تقتنعي».

«وعملك؟»

«سئمتُ من عملي».

«وكارمن؟»

«أنت أكثر أهمّيّة منها».

«سأطلعها على ما قلت، ستهجرك».

«سأطلعها بنفسي، فقد اتَّخذتُ قراري».

Telegram: Somrlibrary

تكلَّم بحزم، وبصوت منخفض. أجابته ليلا وهي تقهقه، بنبرة لامبالية، كما لو أنّ كلامهما لم يكن حقيقيًّا، كأنَّهما يلهوان بالكلام على عالم، وأشخاص، ومشاعر لم يعد لها وجود. فطن إنتسو لهذا، وكفّ عن الكلام بعض الوقت. تجوَّل في البيت، فوجد حقيبة ليلا، وراح يملأها بما كان في الأدراج والخزانة. تركته ليلا يفعل ما يشاء، لأنَّها لم تكن تعتبر ذلك الشخص إنتسو بلحمه وعظمه، بل كطيف ملوَّن كما في السينما، كانعكاس للضوء، على الرَّغم من أنَّه كان ينطق بالكلمات. حين جهّز الحقيبة، عاد لمواجهة ليلا، وألقى عليها خطابًا مفاجئًا إلى حدٍّ كبير. قال لها، بنبرته المركّزة والحياديَّة في آن واحد:

«لينا، إنَّني أودّك منذ أن كنّا صغارًا. لم أخبرك بهذا يومًا، لأنَّك أجمل منّي وأذكى. فأنا قصير القامة، وقبيح، ولا أساوي شيئًا. ستعودين الآن إلى زوجك. لا أعلم لماذا تركتِه ولا أريد أن أعلم. لا أعلم سوى أنَّه ليس في إمكانك البقاء هنا، لا تستحقِّين العيش ما بين القمامة. سأرافقك حتى بوَّابة البناية، وأنتظر هناك: إن أساء إليك، فسأصعد وأقتله. لكنّه لن يفعلها، بل سيكون مسرورًا بعودتك. لكن، دعينا نبرم اتّفاقًا: في حال لم تصلي إلى وفاق مع زوجك، فأنا من حملك إليه، وأنا من سآتي لأستردّك منه. موافقة؟»

كفّت ليلا عن الضحك، وضيّقت عينيها، وأصغت إليه باهتمام للمرَّة الأولى. فالروابط بينها وبينه كانت نادرة جدًّا حتى تلك اللحظة، إلَّا أنّني كنت دائمًا ما أُصاب بالذهول حين أكون حاضرة لقاء بينهما. ثمَّة شيء بينهما، يصعب تعريفه، وُلد في أثناء فوضى الطفولة. أعتقد أنَّها كانت تثق بإنتسو، أو تشعر بأنَّها تستطيع الاعتماد عليه. عندما حمل الشابّ الحقيبة واتَّجه نحو الباب، الذي ما زال مفتوحًا، تردَّدت ليلا لوهلة، ثم لحقت به.

Telegram: Somrlibrary

٩٦

وقف إنتسو ينتظر بالفعل تحت نوافذ ليلا وستيفانو، في ذلك المساء؛ وكان من المحتمل أنَّه سيصعد ليقتل زوجها، إذا ما اعتدى عليها. لكنّ ستيفانو لم يضربها، بل رحّب بعودتها، والبيت يشعّ نظافة وترتيبًا. وتصرّف كما لو أنّ زوجته قد عادت حقًّا من عندي، من بيزا، على الرَّغم من انعدام الأدلّة على ذلك. من جهتها، لم تلجأ ليلا إلى تلك الحجّة ولا إلى غيرها. في اليوم التالي، في إبَّان استيقاظهما، قالت له بفتور: «إنَّني حامل»، فغمرته السعادة، حتى إنَّه عندما أضافت: «الطفل ليس ابنك»، انفجر ضاحكًا بسرور ساذج، وراح يداعبها. وعندما ردّدت تلك الجملة بغضب متصاعد، مرَّة واثنتين وثلاثًا، وحاولت أن تضربه بقبضتيها، أخذ يقبِّلها ويغمغم: «كفى يا لينا، كفى، كفى، إنَّني في منتهى السعادة. أعلم بأنَّني أسأتُ معاملتك، لكن، فلننهِ خلافاتنا الآن، كُفّي عن إهانتي، أرجوك»، واغرورقت عيناه بدموع الفرح.

كانت ليلا، منذ زمن، تعرف أنّ الناس يتصنَّعون الأكاذيب اتِّقاءً من حقائق الأحداث، لكنَّها دُهِشت حينما رأت زوجها مستعدًّا للكذب على نفسه بكلِّ سرور واقتناع. من جهة أخرى، لم يعد يهمّها شيء،

Telegram: Somrlibrary

لا ستيفانو ولا نفسها. وبعد أن كرَّرت ثانية بنبرة خالية من العواطف: «الطفل ليس ابنك»، انكفأت في همود الحمل. إنَّه يفضِّل تأجيل آلامه، قالت لنفسها. حسنًا، فليفعل ما يشاء، سيتألَّم لاحقًا إن فضَّل ألَّا يتألّم الآن.

وهكذا، شرعت تفصِّل عليه قائمة من الأشياء التي تريدها، وتلك التي لا تريدها: لم تعد تريد العمل لا في ساحة الشهداء، ولا في الملحمة؛ لم تعد تريد أن ترى أحدًا، لا من الأهل ولا من الأصدقاء، وخصوصًا الأَخَوَين سولارا؛ كانت تريد أن تبقى في المنزل لتؤدِّي دورَي الزوجة والأمّ. فوافق ستيفانو، ظنًّا منه أنَّها ستغيِّر فكرتها في غضون أيَّام قصيرة. لكنّ ليلا انطوت على نفسها في الشقَّة حقًّا، من دون أن تُبدي أيّ فضول لأعمال ستيفانو، وأشغال أخيها وأبيها، ولا حتى لأحوال أهلها أو أهله.

جاءت إليها بينوتشا، مرَّتين، برفقة ابنها فرناندو، المسمّى دينو، لكنّ ليلا لم تفتح الباب.

وذات مرَّة جاء رينو، حانقًا وغاضبًا، فاستقبلته ليلا، وجلست تُصغي إلى ثرثرته عن امتعاض الأَخَوَين سولارا من اختفائها عن المحلّ، وعن سوء الأوضاع التي تمرّ بها أحذية شيرولُّو، نظرًا إلى أنّ ستيفانو أوقف الاستثمار ولم يكن يفكِّر إلَّا في أعماله. وحين سكت أخيرًا، قالت له: «رينو، أنت الأخ الأكبر، أنت راشد، ولديك زوجة وطفل، أَسدِ إليَّ معروفًا: عش حياتك من دون الرجوع إليّ في كلّ حين». استاء كثيرًا من كلامها، وانصرف محبطًا بعد مناحة عن كيف كان الجميع يغدون أثرياء، بينما هو ـ بسبب أخته التي لا تهتمّ بأسرتها، ولا بدماء آل شيرولُّو، إذ باتت تعتبر نفسها السيِّدة كارّاتشي وحسب ـ كان يوشك على خسارة القليل الذي حصل عليه.

Telegram: Somrlibrary

وحدث أنّ ميكيلي أيضًا سمح لنفسه، وجاء ليزورها في وقتٍ يعلم بأنّ ستيفانو لا يكون فيه هناك؛ وفي الآونة الأولى، كان يأتي مرّتين في اليوم. لكنّها لم تفتح له الباب أبدًا؛ حافظت على سكوتها، وهي جالسة في المطبخ، بالكاد تتنفّس. حتى إنَّه في إحدى المرّات، قبل أن ينصرف، صاح من الشارع: «من تظنّين نفسك أيَّتها العاهرة؟ لقد أبرمتِ اتّفاقًا معي ولم تصونيه».

لم تستقبل ليلا أحدًا بحرارة، عدا نونتسيا ووالدة ستيفانو، ماريّا، اللتين تابعتا حمْلها بعناية. لم تعد تتقيّأ، لكنّ الشحوب لم يزُل عن وجهها. راودها انطباعٌ بأنَّها باتت سمينة، ومنفوخة بطنها أكثر ممَّا يظهر، كأنَّ كلّ جهاز في أحشائها كان ينتفخ وحده. بدت لها بطنها كفقّاعة من لحمٍ يتمدَّد كلّما تنفَّس الجنين. وازدادت مخاوفها من ذلك التمدُّد، خشيت أن يحدث أكثر ما كانت تخشاه دومًا: أن تتكسَّر أطرافها، وتتدفَّق كسائلٍ ما. وفجأة، شعرتْ بأنّها تحبّ ذلك الكائن الذي ينمو في بطنها؛ ذاك الشكل الغريب المعبّر عن الحياة؛ تلك العقدة الآخذة في التمدُّد، والتي ستخرج من عانتها في لحظةٍ ما كدمية متحرِّكة. عاد إليها الإحساس بوجدانها عبْر ذلك الجنين. دفعها الخوف من جهلها أمور الحمل، ومن الأخطاء التي قد ترتكبها سهوًا، إلى قراءة كلّ ما توفَّر لديها عن شرح الحمْل، وما يحدث داخل الرحم، وعن كيفيَّة مواجهة المخاض. وكانت نادرًا ما تخرج في تلك الأشهر. أقلعت عن شراء الملابس والأغراض المنزليَّة، واعتادت على أن تطلب من والدتها شراء بعض الجرائد، ومن ألفونسو بعض المجلَّات؛ وكانت لا تنفق المال سوى على هذه الأمور. وحين جاءتها كارمن تطالبها ببعض النقود، قالت لها أن تتَّجه إلى ستيفانو، إذ لم يكن في حوزتها الكثير، فانصرفت الفتاة يائسة. لم تعد تهتمّ بأيِّ

Telegram: Somrlibrary

شيء، ولا أيّ أحد، عدا جنينها.

تأثَّرت كارمن بتلك المعاملة، وازداد حنقها. لم تكن في الأساس قد غفرت لليلا التخلّي عن العمل معها في الملحمة الجديدة. وحينذاك، لم تغفر لها إغلاق المحفظة في وجهها. لكنّها، على وجه الخصوص، لم تغفر لها تصرُّفاتها المزاجيَّة، وراحت تغتابها، لأنَّها اختفت ثم ظهرت ثانية، من دون أن تكفّ عن أداء دور السيِّدة، ومن دون أنَ تخسر بيتها الجميل، بل كانت في انتظار مولود أيضًا. كانت تقول إنّ الحظّ لا يحالف إلَّا العاهرات. أمَّا هي، التي تكدح من الصباح حتى المساء، بلا سرور أو رضا، فكانت تتعرَّض لمصائب، واحدة تلو الأخرى. توفِّي والدها في السجن، ورحلت والدتها بطريقة شنيعةٍ، لا تريد حتى أن تفكِّر فيها. والآن، إنتسو أيضًا. ذات مساء، انتظرها قبالة الملحمة، وقال لها إنَّه لم يعد قادرًا على الاستمرار في الخطوبة. هذا كلّ شيء، كلمات مقتضبة كعادته، بلا أيِّ توضيح. هرعت كارمن باكية إلى أخيها باسكوالي، فالتقى الأخير إنتسو ليطلب منه تفسيرًا لقراره. لكنّ إنتسو لم يقدِّم أيّ تفسير، ما أدّى إلى فضّ الصداقة بينهما.

عندما عدتُ من بيزا، في عيد الفصح، التقيتُها في الحديقة الصغرى، وفرّغت غلّها على مسمعي. «إنَّني حمقاء» أجهشتْ، «لأنَّني انتظرته طوال خدمته العسكريَّة. إنَّني حمقاء لأنَّني أعمل من الصباح حتى المساء، في مقابل أجر بخس». قالت إنَّها مرهقة من كلّ شيء. ومن دون أيّ رابط منطقيّ، انتقلتْ إلى قذف ليلا بوابل من الشتائم. ووصل بها الغيظ إلى افتراض علاقة تجمع صديقتي بميكيلي سولارا، الذي غالبًا ما رآه بعضهم يتسكَّع في محيط بيت كارّاتشي. «تتقاضى المال وتصمِّم قرنين لزوجها»، همستْ، «هكذا تعيش».

Telegram: Somrlibrary

لم تنبس بكلمة واحد عن نينو. غريبٌ أنّ الحيّ لم يطّلع على أيٍّ من تفاصيل تلك القصَّة. كان أنطونيو تحديدًا من روى لي، في تلك الأيَّام، كيف اعتدى على نينو، وكيف أرسل إنتسو ليعود بليلا؛ لكنّه قصّ الحكاية لي فقط، وأنا واثقة بأنَّه حرص طوال حياته على كتمانها عن أيّ أحد آخر. عرفتُ ما تبقّى من ألفونسو: بعد أن أجهدتُه بالأسئلة، قال لي إنَّه علم من ماريزا بأنّ نينو هاجر إلى ميلانو لإكمال الدراسة. وبفضلهما، انتابتني متعة مرهفة لفكرة أنَّني أعلم عن أحداث حياة ليلا أكثر ممَّا تعلم هي نفسها، وأنَّني استنتجتُ بسهولة أنّها لم تستفد من خطفها نينو منِّي. التقيتُها، صدفة، في الشارع العام، يوم السبت المقدّس/ سبت النور.

كانت بطنها منتفخة بما فيه الكفاية، وتبدو زائدة ناتئة من جسمها النحيل. حتى وجهها لم يكن مزهرًا بجمال النساء الحوامل؛ بل قد اغبرّ قبحًا، وامتقع لونًا، واشتدّت بشرتها عند صدغيها الكبيرين. حاولت كلتانا التظاهر بلا شيء.

«كيف حالك؟»

«بخير».

«هل في وسعي تلمّس بطنك؟»

«أجل».

«وماذا بشأن تلك المسألة؟»

«أيّ مسألة؟»

«مسألة إيسكيا».

«انتهت».

«مع الأسف».

«وأنت، ماذا تفعلين؟»

Telegram: Somrlibrary

«أدرس. لديّ مكان خاصّ بي، وكلّ الكتب اللازمة. ولديّ ما يشبه العلاقة».

«ما يشبه العلاقة؟»

«أجل؟»

«ما اسمه؟»

«فرانكو ماري».

«وماذا يعمل؟»

«طالبٌ هو أيضًا».

«كم تليق بك هذه النظّارة».

«لقد أهداني إيّاها فرانكو».

«وهذا اللباس؟»

«منه أيضًا».

«هل هو ثريّ؟»

«أجل».

«إنّني سعيدة لأجلك. وكيف حال الدراسة؟»

«أبذل جهدًا كبيرًا، وإلّا فصلوني من الجامعة».

«كوني حذرة».

«أفعل ما في وسعي».

«أنت محظوظة».

«ومَن يدري»!

قالت إنّ موعد الولادة في يوليو. كان طبيبها هو نفسه الذي نصحها بالذهاب إلى السباحة في البحر. طبيب، وليست قابلة الحيّ. «أخاف على الطفل» قالت، «لا أريد الإنجاب في البيت». كانت قد

Telegram: Somrlibrary

قرأت أنَّ من المستحسن الولادة في المستشفى. ابتسمتْ، وتلمّستْ بطنها؛ ثم قذفتْ بجملة غامضة نوعًا ما:

«إنَّني ما أزال هنا من أجل هذا فقط».

«هل الشعور بالطفل في الداخل رائعٌ؟»

«لا، إنَّه يثير اشمئزازي. لكنّني أحمله بكلِّ سرور».

«هل غضب ستيفانو؟»

«يفضِّل الاعتقاد بما يناسبه».

«ماذا تقصدين؟»

«أي أنّني، في وقت ما، أُصبت بالجنون وهربتُ إلى بيزا، عندك».

تظاهرتُ بأنَّني لا أعرف شيئًا عن الأمر، واصطنعتُ الدهشة:

«إلى بيزا؟ عندي؟»

«أجل».

«وهل عليّ أن أؤكِّد هذا، إن سألني؟»

«افعلي ما يحلو لك».

تودّعنا، وتعاهدنا على المراسلة. لكنَّنا لم نتراسل البتَّة، ولم أفعل شيئًا لتلقّي أنباء ولادتها. وكان ثمَّة إحساس يراودني، بين الحين والآخر، فأطرده فورًا كي لا يصبح هاجسًا: كنت أودّ أن يقع لها مكروهٌ ما؛ ألَّا يرى طفلُها النور.

Telegram: Somrlibrary

٩٧

غالبًا ما حلمتُ بليلا، في تلك الآونة. ذات مرَّة، رأيتها على السرير في ثياب النوم الخضراء المزركشة، وشعرها مسرّح بضفائر لم تكن ليلا قد فعلت مثلها في الحقيقة أبدًا، تحمل بين ذراعيها طفلة ترتدي ثوبًا زهريّ اللون، وتقول باستمرار، بصوت متألِّم: «التقطوا صورة لي فقط، لا تُظهروا الطفلة فيها». وفي مرَّة أخرى، كانت تستقبلني بسرور ثم نادت ابنتها، التي سمّتها باسمي. «لينو» قالت، «تعالي وألقي التحيَّة على خالتك». فإذا الطفلة تظهر عملاقة وبدينة جدًّا، تكبرنا في السنّ بكثير، وكانت ليلا تأمرني بنزع الثياب عنها، وتغسيلها، وتغيير حفاظها ولفافتها. وحينما استيقظتُ، أردتُ أن أبحث عن هاتف لأحاول الاتِّصال بألفونسو، لأطمئنّ على سلامة المولود، ورضا أمّه. لكنَّني كنت منشغلة بين التحضير للامتحانات وبين إجرائها، فنسيتُ. وعندما انتهيت من تلك المهمَّات في أغسطس، حدث أنَّني لم أعد إلى نابولي. كتبتُ رسالة، إلى والديّ، ملؤها الأكاذيب، وذهبتُ إلى شاطئ فيرسليا، في مقاطعة توسكانا، بصحبة فرانكو، ونزلنا في شقَّة صغيرة من ممتلكات عائلته. وللمرَّة الأولى، ارتديتُ لباس البحر المثير، البيكيني: كلّ شيء في قبضة يدي. شعرتُ بأنَّني جريئة جدًّا.

Telegram: Somrlibrary

لم أعلم بعسر المخاض الذي واجهتْه ليلا، إلَّا خلال عيد الميلاد، حين التقيتُ كارمن.

«كادت تموت» قالت، «حتى إنّ الطبيب قرَّر أن يفتح بطنها، وإلَّا لما وُلد الطفل».

«هل أنجبتْ ذكرًا؟»

«أجل».

«وهل ينعم بصحَّة جيِّدة؟»

«إنَّه وسيمٌ جدًّا».

«وماذا عنها؟»

«ازداد وزنها».

علمتُ بأنّ ستيفانو كان يريد تسمية ابنه باسم أبيه، آخيل، لكنّ ليلا اعترضتْ، حتى جلجل الزوج وزوجته المستشفى برمّتها، بصياحٍ كان قد انقطع منذ أمد، ما جعل الممرِّضات يؤنِّبنهما على ذلك. وفي النهاية، أطلق على المولود اسم «جينارو»، «رينو» تصغيرًا، على اسم شقيق ليلا.

حافظتُ على صمتي، وكنت آذانًا صاغية. كنت أشعر بالكآبة، ما دفعني إلى الحياديَّة لمواجهة ذلك الشعور. لمّحت كارمن إلى الأمر:

«أتكلَّم وأتكلَّم، وأنت لا تقولين كلمة واحدة، تُشعرينني كأنَّني أذيع نشرة الأخبار. ألم يعد يهمّك أيّ شيء عنَّا؟»

«ليس صحيحًا، إطلاقًا».

«كم غدوتِ جميلة، حتى صوتك تغيَّر»!

«وهل كان صوتي قبيحًا؟»

«كان يشبه أصواتنا».

«والآن؟»

Telegram: Somrlibrary

«تخلَّص صوتك من لهجتنا».

بقيتُ في الحيّ عشرة أيَّام، من الرابع والعشرين من ديسمبر ١٩٦٤ حتى الثالث من يناير ١٩٦٥، لكنَّني لم أذهب لزيارة ليلا. لم أشأ رؤية ابنها، كنت أخشى أن أتعرّف في فمه، في أنفه، في تقاسيم عينيه أو أذنيه، إلى شيء من نينو.

وبات أهلي يتعاملون معي، كما لو كنت شخصًا اعتباريًّا، أضطرّ إلى زيارتهم لإلقاء تحيَّة مستعجلة. كان والدي يرمقني بارتياح. وكنت أشعر بنظرته الراضية نحوي، وكلَّما بادرتُ إلى الكلام معه ارتبك كثيرًا. لم يسألني عمّا أدرس، وما فائدة دراستي، وأيّ عمل سأقوم به بعد التخرُّج؛ ليس لأنَّه لم يكن يريد معرفة هذه الأمور، بل لأنَّه كان يخشى ألَّا يفهم إجاباتي. أمّا والدتي، فقد كانت تتحرَّك في البيت بطريقةْ غاضبة؛ وكلّما سمعتُ خطواتها المميَّزة، تذكّرت كم كنت أخشى أن أغدو مثلها. لكنَّني استطعتُ الحفاظ على المسافة بيننا، لحسن الحظّ، وكانت تشعر بذلك، وتريد أن تتقرّب منِّي. كانت تُشعرني بأنَّني مذنبة بإثم عظيم، حينما كانت تتكلَّم معي في تلك اللحظات أيضًا. كنت ألتقط دلائل على عدم رضاها في نبرة صوتها؛ لكنَّها ـ خلافًا للماضي ـ لم تطلب منِّي غسل الأطباق، وترتيب الطاولة، وتنظيف الأرض. واجهتُ بعض الحرج مع إخوتي أيضًا. كانوا يبذلون جهدًا في التكلُّم معي بالإيطاليَّة الفصحى، وغالبًا ما يصحِّحون أخطاءهم بأنفسهم، ويحمرُّون خجلًا. إلَّا أنَّني حاولتُ أن أبدو معهم كما كنت دومًا، فاقتنعوا بذلك تدريجيًا.

وفي المساء، لم أكن أعرف كيف أمضي الوقت؛ فأصحاب الماضي باتوا متفرِّقين. باسكوالي كان في أسوأ علاقاته بأنطونيو، وكان يتجاهله بشتّى الطرق. وأنطونيو لم يكن يريد اللقاء بأحد، لأنّ وقته كان ممتلئًا من جهة (ما زال الأَخَوان سولارا يوفدانه إلى هنا وهناك)، ومن

Telegram: Somrlibrary

جهة أخرى لم يكن عنده ما يقوله: لم يكن يستطيع الحديث عن عمله، ولم تكن لديه حياة خاصَّة. أمّا آدا، فكانت، بعد الملحمة، إمّا تهرع إلى الاعتناء بوالدتها وإخوتها، وإمّا تخلد إلى النوم من شدّة الإعياء والإحباط. حتى إنَّها بالكاد كانت تلتقي باسكوالي، ما زاد في عصبيَّته كثيرًا. وكارمن باتت تحقد على الجميع، وتبغض كلّ شيء، بمن فيهم أنا، ربّما. كانت تكره العمل في الملحمة الجديدة، وتكره آل كارّاتشي، وإنتسو الذي فضّ ارتباطه بها، وشقيقها الذي اكتفى بالخصام مع إنتسو ولم يهشّم وجهه. وماذا عن إنتسو؟ أجل، ثمّة إنتسو. على الرَّغم من اختفائه الدائم. كانت والدته آسونتا تعاني مرضًا عضالًا حينها، ما يضطرّه إلى الاعتناء بها، حين لا يكدّ لكسب قُوْت يومه، خلال الليل أيضًا. وعلى الرَّغم من هذا كلّه، استطاع أن يحصل على تلك الشهادة الصناعيَّة. أدهشني هذا الخبر، أي أنَّه نجح في مجال صعب للغاية، ومن دون أن يذهب إلى المعهد. مَن كان يتوقَّع أمرًا كهذا؟ قلت لنفسي. لذا، قرَّرت أن ألتقيه قبل عودتي إلى بيزا. أقنعته بأن يتمشّى معي قليلًا، وهنّأته كثيرًا على النتيجة التي حازها، لكنّ ردّه اقتصر على تنهيدة تستخفّ بالموضوع. كان قد قلّص محتوى قاموسه اللغويّ، إلى درجة أنَّني تكلَّمت بمفردي. بالكاد نطق شيئًا. أذكر أنَّه قال جملة واحدة قبل أن نفترق. لم أكن قد لمَّحتُ إلى ليلا حتى تلك اللحظة، ولا بأيِّ كلمة. لكنّه قال فجأة، كما لو أنَّني لم أتكلَّم إلّا عليها:

«عمومًا، لينا أفضل أمّ في الحيّ بأسره».

تكدّر مزاجي بتلك الكلمة: «عمومًا». لم أكن قد وصفتُ إنتسو برهافة الحسّ أبدًا؛ لكنَّني أدركتُ في تلك المناسبة أنَّه، وهو يمشي إلى جانبي، سمع ـ كما لو كنت أجهر برأيي ـ القائمة الطويلة الخفيّة والمليئة بأخطاء، كنت أنسبها إلى صديقتنا، وكأنَّ جسدي ـ لاإراديًا ـ يُعرب عن امتعاضي بنقمةٍ واضحة للغاية.

Telegram: Somrlibrary

٩٨

عادت ليلا إلى الخروج من البيت، من أجل جينّارو الصغير. كانت تُلبِس الطفل أزهى الثياب الزرقاء والبيضاء، وتضعه في العربة الأثريّة المُربِكة التي أهداها إيّاها أخوها منفقًا مالًا كثيرًا؛ وكانت تتنزَّه بمفردها في الحيّ الجديد. وما إن يبكي رينوتشو الصغير، حتى تنعطف به إلى الملحمة لتُرضعه، بين تأثُّر حماتها وتهاني الزبونات المقشعرّات حنانًا، وانزعاج كارمن التي كانت تعمل مطأطئة الرأس من دون أن تنبس ببنت شفة. كانت ليلا تُغذّي طفلها كلَّما اشتكى. وتحبّ أن تضمّه إليها، وأن تُرضعه الحليب الذي يتدفَّق منها إليه، حتى يجفّ صدرها بكلّ سرور. كان ذلك هو الرابط الوحيد الذي يمنحها الهناء، فكانت تعترف في دفاترها بخشيتها من اللحظة التي ينفصل فيها الصغير عنها.

ومع قدوم الأيّام المشرقة، وبما أنّ دروب الحيّ الجديد لم تكن ممهَّدة بعد، وفيها بعض أكوام النباتات والشجيرات المستكينة، راحت ليلا تندفع نحو الحديقة الصغرى قبالة الكنيسة. وكلَّما مرَّ أحدٌ ما من هناك، توقَّف لينظر إلى الصغير، ويهنّئها به لإسعادها. وإذا توجَّب عليها تغيير لباسه، اتَّجهتْ إلى الملحمة القديمة، حيث تحتفل الزبونات

Telegram: Somrlibrary

بجينّارو كلّما دخل. أمّا آدا، بمئزرها المتّسخ بالدهون، والأحمر على شفتيها الناعمتين، ووجهها الشاحب، وشعرها المسرَّح، وكلامها الحازم حتى مع ستيفانو، فكانت تتصرّف بسفاهة كـ «الخادمة السيِّدة»، وتحاول بكلٍّ ما ما أوتيت من خبث أن تتظاهر بغزارة العمل، ملمِّحة إلى ليلا بأنَّها، هي والعربة والصغير، بمثابة عائق أمامها. لكنّ ليلا لم تكن تعيرها انتباهًا، إذ كانت تضطرب من حياديَّة زوجها العصابيَّة تجاه الطفل؛ لم يكن قاسيًا، بل تحسُّ بأنَّه متجاهل تمامًا، على الملأ، أمام الزبونات اللواتي يدمدمن بأصوات صبيانيَّة مليئة بالعذوبة، ويرغبن في حمل الطفل بين أذرعهنّ ويقبّلن وجنتيه برفق، بينما كان ستيفانو بالكاد ينظر إليه، لا بل يوحي بعدم اهتمامه أيضًا. كانت ليلا تدخل المستودع، تنظّف جينّارو، وتغيِّر ثيابه بسرعة ثم تعود إلى الحديقة. وهناك، كانت تتمعَّن في ملامح الطفل، بحنان فائض، لعلّها تعثر في وجهه على سمات نينو، متسائلة إن كان ستيفانو قد رأى فيه شيئًا لم تفلح هي في تحديده.

وسرعان ما تنسى الأمر. بشكل عام، كان النهار ينقضي من دون أن تحصل على أدنى ارتياح. كانت تعتني بالطفل بصورة خاصَّة، ما يجعلها تستغرق في قراءة كتاب واحد أسابيع طويلة، بالكاد تقرأ صفحتين أو ثلاثًا في اليوم. وفي الحديقة الصغرى، حين يغفو الطفل، كانت بين الفينة والأخرى تتفيَّأ بأغصان الشجر المحمّلة بالبراعم، وتكتب شيئًا ما في أحد دفاترها البالية.

ذات مرَّة، انتبهت لوجود جنازة في الكنيسة المواجهة، فحملت الطفل وذهبت لتتحقَّق. اكتشفت أنّها جنازة والدة إنتسو. نظرتْ إليه، مرفوع الرأس، متجهِّم الوجه، لكنَّها لم تتقدَّم لعزائه. وفي مرَّة أخرى، كانت جالسة على أحد المقاعد، والعربة إلى جوارها، غارقة في قراءة

Telegram: Somrlibrary

كتاب ضخم أخضر الغلاف، فإذا بامرأة عجوز، هزيلة للغاية، تتّكئ على عكّاز، وكأنَّ أنفاسها تبتلع وجنتيها، تظهر قبالتها فجأة.

«خمّني من أنا».

بذلت ليلا جهدًا في التعرُّف إليها، إلى أن رأت في عينيها، بغتة، المعلّمة أوليڤييرو الجليلة. فانتفضت واقفة ومرتبكة، واقتربت لتعانقها، فإذا العجوز تصدّها بانزعاج. أظهرت لها ليلا الطفل، وقالت باعتزاز: «اسمه جينّارو»، وانتظرت من المعلّمة تهنئة ما، ما دام الجميع كانوا يهنّئونها بالمولود. لكنّ أوليڤييرو تجاهلت الصغير كلّيًّا، وبدت غير مهتمّة سوى بذلك الكتاب الثقيل الذي تحمله تلميذتها السابقة بين يديها، وأحد أصابعها بين الصفحات لتمسك بالفاصل.

«ما هذا؟»

اشتعلت أعصاب ليلا. لقد تغيَّر مظهر المعلّمة، تغيَّر صوتها، وتغيَّر كلّ شيء فيها، ما عدا نظرتها ونبرتها الجلفة، النبرة ذاتها التي كانت تستخدمها في طرح الأسئلة عليها من على منضدتها. فتعمَّدت ليلا ألّا تظهر بمظهر مختلف، أجابتها بنبرة متألّمة وعدائيَّة في آن واحد:

«كتابٌ، عنوانه «أُوليس»».

«هل يتناول الأوديسة؟»

«لا. يتحدَّث عن الابتذال الحاصل في حياتنا الراهنة».

«وماذا بعد؟»

«لا شيء. يقول إنَّ رؤوسنا مليئة بالترّهات؛ وإنّنا من لحم ودم وعظام؛ وإنّ الناس متساوون؛ وإنّنا لا نسعى سوى للطعام والشراب والنكاح».

Telegram: Somrlibrary

أنّبتها المعلّمة، ما إن سمعت تلك الكلمة الأخيرة، كما في أيّام المدرسة؛ فردّت ليلا بسفاهة وقهقهت؛ فاكفهرّ وجه الشمطاء أكثر من قبل. سألتها عن مستوى الكتاب، فأجابت بأنّه صعب ولا تفهم كلّ شيء.

«لماذا تقرئينه إذن؟»

«لأنّني أعرف شخصًا قد قرأه. لكنّه لم يُعْجَب به».

«وأنت؟»

«يعجبني».

«على الرَّغم من صعوبته؟»

«أجل».

«لا تقرئي كتبًا ليس في إمكانك فهمها، فهذا يؤذيك».

«ثمّة أمور كثيرة مؤذية».

«لست سعيدة؟»

«نوعًا ما».

«كنتِ مهيّأة للقيام بأمور عظيمة».

«لقد قمت بها: هأنذا متزوّجة وأنجبتُ طفلًا».

«في وسع الجميع القيام بأمور كهذه».

«أنا مثل الجميع».

«مخطئة».

«لا، بل أنت المخطئة يا سيّدتي، ولطالما أخطأتِ في السابق».

«كنت عديمة التربية في طفولتك، ولا تزالين على حالك الآن».

«هذا يثبت أنّك لم تفلحي في عملك».

رمقتها أوليفييرو بتركيز، فقرأت ليلا في عينيها هواجس الذنب.

Telegram: Somrlibrary

كانت المعلّمة تبحث في عَيْنَيْ ليلا عن الذكاء الحادّ، الذي رأته فيهما عندما كانت صغيرة، كانت تبحث عمّا يؤكّد أنّها لم تكن مذنبة. ففكّرت ليلا: لا بدّ من أن أنزع عن وجهي حالًا أيّ دلالة على أنّها محقّة، لا أريد أن تصدّع رأسي بموعظة، لأنّني ضيّعتُ نفسي. وفي الآن ذاته، شعرت بالخضوع لامتحان عسير، وخشيت أن تنجح فيه، للمفارقة. إنّها تكتشف أنّني غبيّة، قالت ليلا في صدرها الذي كان يرتجف بدقّات قلبها المتسارعة. إنّها تكتشف أنّ عائلتي كلّها غبيّة، وأنّ أجدادي أغبياء، وأنّ سلالتي ستكون غبيّة، وأنّ جينّارو سيصبح غبيًّا. التهمها الضّيق، فوضعت الكتاب في الحقيبة، وأمسكت بمقبض العربة، وغمغمت بانفعال بأنّ عليها الذهاب. يا لها من مجنونة شمطاء، تحسب أنّها لا تزال قادرة على معاقبتها بالعصا! تركت المعلّمة في الحديقة، هزيلة، ومتمسّكة بمقبض العكّاز، أسيرة علّةٍ لا تريد أن تصدّقها.

Telegram: Somrlibrary

٩٩

تملَّكها هوسٌ بتحفيز ذكاء الطفل. لم تكن تعرف الكتب اللازمة لهذا الغرض، فطلبت من ألفونسو أن يسأل باعة الكتب، فعاد إليها بكتابين، تفرّغت ليلاً لقراءتهما باهتمام بالغ. في دفاترها، وجدتُ ملاحظات عن كيفيَّة قراءتها النصوص المعقَّدة: كانت تتقدَّم بجهد كبير صفحةً تلو صفحة، ثم سرعان ما تسرح في التفكير في شؤون أخرى، فيضيع المعنى؛ لكنَّها كانت تُلزم عينيها بمواصلة التركيز في الأسطر، وأصابعها تقلِّب الصفحات بشكل تلقائيّ، حتى يتولَّد لديها انطباعٌ بأنَّ الكلمات قد دخلت رأسها، حتى لو لم تفهمها، وقد تأتيها بفكرة ما. ومنذ تلك اللحظة، أعادت قراءة الكتاب. وفي أثناء القراءة كانت تصحِّح أفكارها وتوسّع آفاقها، إلى أن شعرت بعدم جدوى الكتاب، فتبحث عن كتب أخرى.

كان زوجها يعود في المساء، ولا يجد طعامه جاهزًا، بل يجدها تلاعب الطفل بِلُعَبٍ صمَّمتها بنفسها. كان يغضب، لكنّها لا تُجيبه بأيّ ردَّة فعل، كما كان يحدث منذ زمن. ويبدو أنَّها لا تسمعه، كما لو أنّها وطفلها يسكنان ذلك البيت وحدهما، وإذا نهضت لتعدّ الطعام، فإنَّها لا تفعل ذلك لأنَّ ستيفانو جائع، بل لأنَّها هي تشعر بالجوع.

Telegram: Somrlibrary

كانت العلاقة بينهما قد عادت إلى التدهور، بعد أن شهدت مدّة طويلة من التسامح المتبادل. ذات مساء، صرخ ستيفانو بأنَّه ضاق ذرعًا بها وبالطفل، وبكلِّ شيء. وفي مناسبة أخرى، أقرّ بأنَّه تزوَّج في سنّ مبكِّرة، ولم يكن يفهم ما كان مُقْدمًا عليه. لكنّها أجابته ذات مرَّة: «وأنا أيضًا لا أعرف ما الذي أفعله هنا، سآخذ الطفل وأرحل». وبدلًا من أن يصيح بها أن اغربي عن وجهي، فقد هدوءه كما لم يفقده منذ زمن، وضربها أمام الولد، الذي كان يرمقها جالسًا على غطاءٍ على الأرض، وكان مشدوهًا من حرارة الموقف نوعًا ما. اتَّجهت ليلا ضاحكة إلى ابنها، وأنفها يقطر دمًا، وستيفانو يصيح عليها بالشتائم، وقالت له بالإيطاليَّة (إذ كانت لا تتحدَّث إليه إلَّا بالإيطاليَّة): «لا تخف، أبوك يلاعبني، ونحن نمزح».

وفي فترة ما، راحت تعتني بابن أخيها أيضًا، ولا أعلم سبب إقدامها على هذا! ابن أخيها فرناندو الذي كانوا يسمُّونه دينو. ومن الوارد أنّ كلّ شيء بدأ حينما شعرتْ بضرورة أن تقارن ابنها جينّارو بطفل آخر. وربّما لهاجسٍ بأنّها تفرّغ نفسها للاعتناء بطفلها من دون سواه، بدا لها من الإنصاف أن تعتني بابن أخيها أيضًا. بيد أنّ بينوتشا، على الرَّغم من أنَّها كانت تعتبر دينو دليلًا ملموسًا على مصائب حياتها، ولا تنفكّ تصرخ فيه، وتعنّفه أحيانًا: «هلَّا كففت عن هذا، هلَّا كففت؟ ماذا تريد منِّي، هل تريد أن تُفقدني صوابي؟»، على الرَّغم من هذا كلّه، فقد عارضت بحزم أن تأخذه ليلا إلى بيتها، وتُدخله في ألعاب غرائبيَّة مع الطفل جينّارو. قالت لها غاضبة: «فكِّري في تربية ابنك، وأنا أفكِّر في تربية ابني. وبدلًا من أن تهدري وقتك، اعتني بزوجك، وإلَّا خسرتِه». وتظلّ ترميها بهذه الكلمات، حتى يتدخَّل رينو.

Telegram: Somrlibrary

كان شقيق ليلا يمرّ في أسوأ ظرف. كان يتشاجر باستمرار مع أبيه الذي أراد إغلاق ورشة الأحذية، لأنَّه سئم من العمل لا لشيء إنَّما لإثراء آل سولارا؛ ويتحسَّر على محلّه الصغير، من دون أن يُدرك أنَّه ما من خيار سوى متابعة العمل. وكان رينو يتشاجر مع مارتشيلُّو وميكيلي، لكنَّهما كانا يعاملانه كما لو كان فتًى نزقًا. وحين يتعلَّق الأمر بالمال، كانا يتكلَّمان مباشرة مع ستيفانو. وكان يتشاجر، ولاسيّما مع هذا الأخير، بالصياح والشتائم، لأنّ صهره لم يعد يعطيه قرشًا واحدًا، معتقدًا أنَّه دخل في مفاوضات سرِّيَّة ليسلِّم الأخَوَين سولارا كلّ مشروع الأحذية. كان يتشاجر مع بينوتشا، التي تتَّهمه بإيهامها بعظمة شخصيَّته، إلى أن تبيّن لها أنَّه ليس سوى دمية وألعوبة بأيدي الجميع: أبيه، وستيفانو، ومارتشيلُّو، وميكيلي. لذا، ما إن عرف أنّ ستيفانو كان غاضبًا من ليلا، لأنَّها تؤدّي واجباتها كأمّ وتُهمل واجباتها كزوجة، وأنّ بينوتشا لم تكن تؤمّن على ابنها عند عمَّته، ولا ساعة واحدة، راح يستفزّها باصطحاب الصغير إلى بيت ليلا شخصيًّا. وبما أنّ ورشة الأحذية كانت تمرّ في مرحلة ركود، اعتاد رينو على البقاء ساعات طوالًا في الشقَّة في الحيّ الجديد، ليرى ماذا كانت تفعل ليلا مع جينّارو ودينو. سُحر بصبرها الأموميّ، وبطريقتها في تسلية الأطفال، كما أنَّه استغرب من ابنه الذي يمضي الوقت باكيًا في البيت، أو يظلّ مكدَّر المزاج في المهد كأنَّه جروٌ تعيس، في حين كان متيقِّظًا ونبيهًا وسعيدًا مع ليلا.

«ماذا تفعلين لهما؟» سألها متعجّبًا.

«ألاعبهما».

«لكنّ ابني كان يلعب من قبل أيضًا».

«هنا يلعب ويتعلَّم».

Telegram: Somrlibrary

«ولماذا تضيِّعين جلّ وقتك معهما؟»

«لأنّني قرأتُ أنّ سنواتنا الأولى هي التي تقرِّر نشأتنا، وترسم ما سنكون عليه في المستقبل».

«وهل ابني يستفيد؟»

«ألا تراه؟»

«بلى، إنَّني أراه، إنَّه أشطر من ابنك».

«ابني أصغر منه».

«هل تعتقدين أنّ دينو ذكيّ؟»

«كلّ الأطفال أذكياء، علينا تدريبهم ليس إلَّا».

«درّبيه إذن يا لينا، لا تسأمي بسرعة كما تفعلين عادة. أريدك أن تجعليه خارق الذكاء».

ثم حدث أن عاد ستيفانو ذات مساء قبل المعتاد، وكان مزاجه متكدِّرًا جدًّا. وجد نسيبه جالسًا على أرضيَّة المطبخ، وبدلًا من أن يكتفي بالعبوس بسبب الفوضى، ولامبالاة زوجته، واهتمامها المخصَّص للطفلين فقط، قال لرينو إنّ هذا بيته، وليس راضيًا عن رؤيته يهدر وقته دومًا وكلّ يوم، وإنّ الورشة تتدهور أحوالها بسبب كسله تحديدًا، وإنّ آل شيرولّو ليسوا جديرين بالثقة. في المحصِّلة: إمّا تخرج حالًا وإمَّا طردُتك ركلًا على مؤخِّرتك.

ساد الاضطراب. صرخت ليلا بأنَّه لا ينبغي له أن يتكلَّم مع شقيقها على هذا النحو، وفرّغ رينو لصهره كلّ ما كان يكبته في صدره، أو يلمِّح إليه، تفاديًا للمشكلات. تبادلا أقذع الشتائم. وراح الطفلان، حين أهملتهما ليلا في غمرة الفوضى، يشدّ الواحد اللُّعَب من يد الآخر، ولاسيّما الأصغر سنًّا، بعد أن أنهكه الأكبر سنًّا. صاح رينو

Telegram: Somrlibrary

بستيفانو، وقد انتفخ عنقه وظهرت شرايينه كالشرائط الكهربائيَّة، بأنّ من السهل أن يقوم بدور الزعيم معتمدًا بذلك على الخيرات التي نهبها الدون آخيل من نصف سكّان الحيّ، وأردف: «أنت لا تساوي شيئًا، أنت خراء ليس إلّا، أبوك كان بارعًا في الإجرام، أمّا أنت فلا تصلح حتى لهذا».

مرّت لحظة فظيعة، شهدت عليها ليلا مذعورة. فجأة، أمسك ستيفانو خصر رينو بيديه الاثنتين، كأنَّه راقصٌ كلاسيكيّ يهيم بشريكته، وعلى الرَّغم من أنّهما كانا متساويين في القامة واكتناز البدن، وعلى الرَّغم من أنّ رينو كان يزمجر ويبصق ويصيح، فإنَّ ستيفانو استطاع رفعه بقوَّة فتّاكة، ورماه إلى الجدار. بعدها على الفور، أمسك بذراعه، وسحله على الأرض حتى الباب؛ فتحه، وأنهض صهره على قدميه، ثم رماه على السلالم؛ مع أنّ رينو كان يحاول أن يردّ، ومع أنّ ليلا تدخّلت، وشبكت زوجها وهي تتوسّل إليه أن يهدأ.

لم ينته الأمر عند ذلك الحدّ. عاد ستيفانو إلى الخلف هائجًا، ففهمت ليلا أنَّه كان يريد أن يذوِّق دينو ما ذوَّق أباه، أي أن يرميه كغرض ما على السلالم. حينذاك، طارت ليلا وأمسكت بكتفيه، وصفعته، وخدشته وهي تصرخ: «إنَّه مجرّد طفل يا ستيفانو، أرجوك». تسمّر ستيفانو، وقال بصوت واهن: «لقد ضقت ذرعًا بكلِّ شيء. لم أعد أحتمل».

١٠٠

بدأت فترة معقّدة في حياة ليلا. كفّ رينو عن المجيء إلى بيت شقيقته، لكنّ ليلا أرادت أن تعتني برينوتشو ودينو على حدٍّ سواء؛ وهكذا اعتادت على الذهاب إلى بيت أخيها، على غفلة من ستيفانو. تحلّت بينوتشا بالصبر، من دون أن تخفي استياءها؛ وحاولت ليلا، بادئ الأمر، أن تشرح لها ما الذي كان يدور في رأسها: تمارين تفاعليّة، ألعاب تطبيقيّة؛ وقالت أيضًا إنّها تفكّر في إشراك كلّ أطفال الحيّ في تلك التمارين المفيدة. لكنّ بينوتشا أجابتها ببساطة: «أنت مجنونة، ولا يهمّني أيّ شيء من كلّ سخافاتك. هل تريدين أن تأخذي صغيري؟ هل تريدين أن تقتليه، أو أن تأكليه كما تفعل الساحرات؟ افعلي ما تشائين. أنا لا أريده، ولم أرغب فيه يومًا؛ أخوك كان كارثة حلّت على حياتي، وأنتِ كارثة حلّت على حياة أخي». ثم أضافت وهي تصيح: «ذلك العبد الفقير يُحسن صنعًا في خيانتك».

لم تردّ ليلا.

ولم تطلب توضيحًا عمّا تعنيه تلك الجملة، بل قامت بحركة لاإراديَّة، كتلك الحركات التي تُستعمل لطرد الذباب. حملت رينوتشو، ولم تعد بعدئذ، على الرَّغم من أسفها على عدم رؤية ابن أخيها.

Telegram: Somrlibrary

لكنّها، في عزلتها داخل الشقّة، اكتشفت أنَّها خائفة. لم تُعِر بالًا إلى أنّ ستيفانو قد يدفع المال لعاهرة ما، إطلاقًا، بل على العكس كانت سعيدة، فهكذا لا تخضع لجسده الكريه في المساء حين يقترب منها. إلَّا أنّها، بعد جملة بينوتشا الأخيرة، راحت تخشى على طفلها: إذا صحّ أنّ زوجها يطارح الغرام امرأة أخرى، في كلّ يوم وساعة، فقد يفقد رشده ويطردها من المنزل. حتى تلك اللحظة، كانت ترى احتمال فسخ الزواج نهائيًّا بمثابة خلاصٍ، لكنّها حينئذ خافت أن تفقد البيت والسبل والوقت، وكلّ ما يساعدها في تربية الطفل، في أفضل شكل.

صارت بالكاد تنام بضع ساعات. لعلّ نوبات العصبيَّة التي تجتاح ستيفانو لم تكن دلالة على اختلال توازنه الدائم فقط، أو دلالة على طبعه الغاضب الذي يطيح بقناع الطيبة، ربّما كان مغرمًا بأخرى حقًّا، كما حدث لها مع نينو، ولم يكن يقوى على مقاومة الأسر في قفص الزوجيَّة، والأبوّة، بل حتى الملحمتين والمشاريع الأخرى. كانت ليلا تتأمَّل الأمر، لكنَّها لم تكن تعرف ما الأجدى فعله. تشعر بأنَّها لا بدّ من أن تقرِّر مواجهة الوضع، لا لشيء سوى للسيطرة عليه، ثم تراها تؤجِّل وتعدل عن قرارها، معوّلة على أنّ ستيفانو يستمتع مع عشيقته ويتركها بسلام. في النهاية، كانت تفكِّر: يكفيني أن أقاوم عامين، ريثما يكبر الطفل وينشأ.

راحت تنظِّم يومها بشكلٍ يجعله يجد البيت مرتّبًا، والعشاء جاهزًا، والمائدة محضّرة. لكنّه، بعد حفلة العنف مع رينو، لم يعد إلى أنسه القديم؛ بل ظلّ مضطربًا ومتكدِّر المزاج.

«ما الذي ليس على ما يرام؟»

«الأموال».

Telegram: Somrlibrary

«الأموال فقط؟»

يغضب ستيفانو:

«ما الذي تعنين بـ «فقط؟»».

بالنسبة إليه، لم يكن في الحياة مشكلات سوى الأموال. كان بعد العشاء، يجري الحسابات، ويجدّف بالآلهة طوال الوقت: تقلّص مردود الملحمة الجديدة عن السابق؛ والأَخَوان سولارا ـ ميكيلي تحديدًا ـ كانا يتعاملان مع الأحذية كما لو أنّ كلّ البضاعة ملكهما، ولم يعد من داع لتقسيم الأرباح؛ وقد كلّفا بعض الإسكافيِّين من الضواحي بتصنيع أطرزة شيرولُّو القديمة، بأجور زهيدة، من دون أن يرجعا إليه أو إلى رينو وفرناندو؛ وفي المقابل، كلّفا بعض الحِرفيين بتصنيع أطرزة سولارا الجديدة، والتي لم تكن في الواقع سوى تنويعات طفيفة على تصاميم ليلا؛ وهكذا كان المشروع الصغير، والذي يعمل فيه حموه وصهره، يغرق بالفعل، ويجرّانه معهما إلى الأسفل بما أنّه المموّل.

«هل فهمتِ؟»

«أجل».

«حذار أن تقرّعي رأسي إذن».

لكنّ ليلا لم تكن تقتنع. كان لديها انطباع بأنّ زوجها يتذرَّع بمشكلات حقيقيَّة، لكنْ قديمة، كي يخبِّئ الأسباب الحقيقيَّة والحديثة لاختلال توازنه، وقسوته التي تتَّضح دومًا تجاهها. كان يعزو إليها ذنوبًا من كلّ نوع، ولاسيّما اتّهامها بتعقيد العلاقات مع الأَخَوَين سولارا. ذات مرَّة صرخ بها:

«ماذا فعلتِ لذلك الأرعن ميكيلي، هل في إمكاني أن أعرف؟»

فأجابته:

Telegram: Somrlibrary

«لا شيء».

ردّ عليها:

«غير معقول. إنَّه يُقحمك في كلّ نقاش ويتجاهلني. هلّا تحدّثتِ إليه لتفهمي ماذا يريد؟ وإلّا هشَّمتُ وجهيكما معًا».

فباغتته ليلا بعصبيَّة:

«وهل أجعله يضاجعني إذا أراد ذلك؟»

بعد هنيهة، ندمت، لأنَّها صرخت هكذا في وجهه ـ حتى لو أنَّها في مناسبات أخرى كانت تبدي السفاهة على الحشمة ـ لكنّها قالت ما قالت وقُضي الأمر، فصفعها ستيفانو. لم تكن الصفعة خطيرة، وليست براحة يده، بالكاد ضربها بأصابعه. أمّا الخطورة، فقد كانت في ما أتبعه بقوله لها بنفور:

«تقرئين، تدرسين، لكنّك سُوقيّة. لا أحتمل النساء اللواتي على شاكلتك. إنَّك تثيرين اشمئزازي».

وبعد تلك الحادثة، صار يعود إلى البيت في وقت متأخِّر دومًا. وفي يوم الأحد، بدلًا من أن ينام كعادته حتى منتصف النهار، صار يخرج باكرًا، ويختفي طوال النهار. وكان يغضب من أدنى كلمة تُدلي بها ليلا عن مشكلات ملموسة من الحياة العائليَّة. مثلًا، حين هبّت أُولى نسائم الصيف، أرادت ليلا القيام برحلة بحريَّة إلى رينوتشو، وسألت زوجها عن كيفيَّة تنظيم الأمر. فأجابها:

«تستقلِّين الحافلة، وتذهبين إلى توريغافيتا».

فارتجلتْ:

«أليس من الأفضل استئجار منزل ما؟»

«لماذا؟ كي تتصرّفي كالعاهرات من الصباح إلى المساء؟»

Telegram: Somrlibrary

خرج، ولم يعد في الليل.

اتَّضح كلّ شيء بعدها بقليل. خرجت ليلا إلى وسط المدينة مع طفلها، كانت تبحث عن كتاب أُشير إليه في كتاب آخر، لكنَّها لم تعثر عليه. ساقها التجوُّل إلى ساحة الشهداء، كي تطلب عونًا من ألفونسو، الذي استمرّ في إدارة المحلّ بسرور. صادفتْ شابًّا وسيمًا جدًّا، متأنِّق الهندام، واحدًا من أوسم الشبَّان الذين رأتهم في حياتها، يُدعى فابريتسيو. لم يكن زبونًا، بل كان صديق ألفونسو. تجاذبتْ معه ليلا أطراف الحديث، واكتشفت أنَّه ملمٌّ بثقافة واسعة. تناقشا مطوَّلًا في الأدب، وتاريخ ناپولي، وكيفيَّة تدريس الأطفال، الأمر الذي كان فابريتسيو ضليعًا فيه ويعمل عليه في الجامعة. ظلّ ألفونسو صامتًا يستمع إليهما طوال الوقت؛ وعندما بدأ رينوتشو يبكي؛ اهتمّ بتهدئته. ثم دخل بعض الزبائن، فانشغل ألفونسو معهم. تكلَّمت ليلا مع فابريتسيو إلى حين. كانت منذ زمن لا تشعر بالمتعة في نقاشٍ يُلهب رأسها. وعندما أراد الشابّ أن ينصرف، قبّل وجنتيْ ليلا بحماسة طفوليَّة، وفعل الشيء ذاته مع ألفونسو، قبلتين رنَّانتين. وصاح بها من العتبة:

«أسعدتني المحادثة معكِ».

«وأنا أيضًا».

اكتأبت ليلا. وبينما كان ألفونسو يتابع عمله مع الزبائن، تذكّرت الأشخاص الذين عرفتْهم في ذلك المكان، تذكَّرتْ نينو والستار المعدنيّ المُغلَق، والعتمة، والنقاشات الممتعة، وكيف كان يدخل خلسة في تمام الواحدة، ويختفي في الرابعة، بعد ممارسة الحبّ. بدا لها ذلك الزمان من صنع الخيال، بدا لها جموحًا خرافيًّا؛ ونظرت حولها بانزعاج. لم تشعر باشتياقٍ إلى تلك المرحلة، ولا إلى نينو.

Telegram: Somrlibrary

لكنّها شعرت بأنّ الوقت انقضى، وأنّ ما كان مهمًّا لم يعد كذلك، وأنّ المتاهة في رأسها تتعقَّد أكثر فأكثر من دون أمل بالخلاص. أخذت الطفل وتهيّأت للانصراف، فإذا ميكيلي سولارا يدخل.

سلّم عليها بحرارة، ولاعب جينّارو، وقال إنَّه نسخة عنها. دعاها إلى البار، عرض عليها فنجان قهوة، وقرَّر أن يصطحبها بالسيَّارة إلى الحيّ. وعندما كانا في السيَّارة، قال لها:

«اهجري زوجك، حالًا، اليوم. أنا آخذك، أنت وابنك. اشتريتُ بيتًا في ضاحية فوميرو، في ساحة الفنَّانين. أصحبك إلى البيت الآن، إن شئت، كي تلقي نظرة. لقد اشتريتُه وأنا أفكِّر فيكِ. هناك، في إمكانك فعل ما يحلو لك: تقرئين، تكتبين، تخترعين، تنامين، تضحكين، تتكلَّمين، وتبقين مع رينوتشو. لا يهمّني شيء سوى أن أنظر إليك، وأنصت إلى كلامك».

كانت تلك أوَّل مرَّة يعبّر فيها ميكيلي في حياته من دون اللجوء إلى نبرته المستعلية. وبينما كان يقود ويتكلَّم، كان يرمقها بنظرات جانبيَّة مرتبكة، ليراقب ردود أفعالها. كانت ليلا تحدِّق إلى الطريق أمامها طوال الوقت، وهي تحاول نزع الرضَّاعة من فم جينّارو، كي لا يتعلَّق بها كثيرًا. لكنّ الطفل كان يُبعد يدها عنه بقوَّة. وحين صمت ميكيلي ـ لم تقطع عليه حديثه أبدًا ـ سألته:

«هل أنهيت ما عندك؟»

«أجل».

«وماذا عن جيليولا؟»

«وما شأن جيليولا؟ أجيبيني أنتِ بنعم أو بلا، ثم نرى بعدئذ».

«لا يا ميكيلي. الجواب: لا. لم أرغب في أخيك، ولا أرغب فيك أيضًا. أوَّلًا، لأنَّك لا تعجبني، لا أنت ولا أخوك. ثانيًا، لأنَّكما

Telegram: Somrlibrary

تحسبان نفسيكما قادرين على فعل أيِّ شيء والاستحواذ على أيّ شيء من دون احترام أحد».

لم يجبها ميكيلي حالًا، غمغم بشيء ما عن الرضّاعة: أَعطيه إيَّاها، لا تدعيه يبكي. ثم قال عابسًا:

«فكِّري في الأمر جيِّدًا يا لينا. قد تندمين في الغد، وتأتين إليّ متوسِّلة».

«أستبعد ذلك».

«حقًّا؟ أَصغي إليّ إذن».

باح لها بما كان يعرفه الجميع («حتى أمّك، وأبوك، وأخوك الأخرق، لكنَّهم لا يطلعونك على ذلك، كي لا ينغِّصوا حياتك»): ستيفانو اتَّخذ آدا عشيقة له، وليس من وقت قصير. بدأت علاقتهما قبل الإجازة في إيسكيا. «حين كنت تصطافين» قال لها، «كانت تذهب إلى بيتك كلّ مساء». ومع عودة ليلا، انقطع الاثنان لوقت لا بأس به. لكنّهما لم يصمدا، واستأنفا العلاقة مجدَّدًا، ثم انفصلا مجدَّدًا، ثم عادا مجدَّدًا حين اختفت ليلا من الحيّ. ومؤخَّرًا، كان ستيفانو قد استأجر شقَّة في ريتيفيلو، وكانا يلتقيان فيها.

«ألا تصدّقينني؟»

«بلى».

«فماذا إذن؟»

ماذا إذن. لم تكن ليلا مستاءة من امتلاك زوجها عشيقة، وأنّ العشيقة هي آدا؛ بل انزعجت من كلماته وحركاته العبثيَّة حين جاء ليعود بها من إيسكيا. تذكَّرت صراخه، وضرباته، ولحظة الانطلاق. فقالت لميكيلي:

«إنَّك تُثير اشمئزازي؛ أنت وستيفانو والجميع».

١٠١

شعرت ليلا بنفسها، فجأة، بأنَّها إلى جانب الحقّ، فهدأ روعها. وفي مساء ذلك اليوم، وضعت جينّارو في سريره، وانتظرت عودة ستيفانو. عاد بعد منتصف الليل بقليل، ووجدها جالسة إلى الطاولة في المطبخ. رفعت نظرها عن الكتاب الذي كانت تقرأه، وقالت إنَّها تعلم عن علاقته بآدا، وتعلم متى بدأت، وأنّ الأمر لا يعني لها شيئًا. «ما فعلتَه بحقِّي، فعلتُه بحقّك» قالت متبسمة، وكرَّرت على مسمعه أنّ جينّارو ليس ابنه (كم مرَّة صرّحت له بذلك في السابق، مرَّتين، ثلاثًا؟). وختمت بأنَّه يستطيع فعل ما يشاء، وأن ينام مع من يشاء وأينما يشاء، «ما يهمّ» صرخت فجأة، «ألَّا تلمسني أبدًا».

لا أعلم ما الذي جال في ذهنها، لعلَّها أرادت توضيح النقاط ليس إلَّا، أو ربَّما كانت تتوقَّع أيّ شيء. كانت تتوقَّع أن يعترف لها بكلِّ شيء، ويُرغمها، وهي زوجته، على أن تصبح خادمة عند عشيقته. كانت قد هيَّأت نفسها لأسوأ اعتداء، وتكيَّفت مع جبروت مَنْ يحسب نفسه سيِّدًا، ولديه من المال ما يسمح له بشراء أيّ شيء. إلَّا أنّها لم تتمكَّن من التوصُّل إلى كلمة واضحة تقرّ بفشل زواجهما. نفى ستيفانو. وقال بامتعاض، لكن بهدوء، إنّ آدا لم تكن سوى بائعة في ملحمته،

Telegram: Somrlibrary

وإنّ أيّ نميمة تُقال بحقِّهما عارية من الصحَّة. ثم اهتاج، وصرخ بها محذِّرًا ألَّا تنطق تلك الكلمة القبيحة ثانية، بخصوص ابنه، وإلَّا قسمًا بالربّ كان قاتلها. جينّارو نسخة عن أبيه ستيفانو، والجميع يؤكِّد ذلك، ومن غير المجدي أن تستفزّه دومًا بذلك الكلام. وفي النهاية ـ وهذا أكثر ما فوجئت به ـ صرّح لها، كما فعل في الماضي غير مرّة، ومن دون أن يغيِّر الصياغة، صرَّح لها بحبّه. قال إنَّه سيظلّ يحبّها إلى الأبد، لأنَّها زوجته، ولأنَّهما تزوّجا أمام الكاهن، ولا شيء قادرًا على إفساد ولعه بها. وعندما اقترب منها ليقبِّلها ومنعته من ذلك، أمسك بها، ورفعها كلِّيًا، وحملها إلى غرفة النوم حيث مهد الصغير؛ نزع عنها كلّ ثيابها، وولجها قسرًا، بينما كانت تتوسَّل إليه بصوت خافِت، وهي تكتم شهقاتها: «سيستيقظ رينوتشو، سيرانا، سيسمعنا، أرجوك، فلنذهب من هنا».

Telegram: Somrlibrary

١٠٢

منذ ذلك المساء، خسرت ليلا مساحة الحرِّيَّة، الضحلة أساسًا. تصرَّف ستيفانو على شكلٍ يتناقض مع تصريحاته؛ تخلَّى عن حذره، بعدما عرفت ليلا عن علاقته بآدا. كان غالبًا ما يتغيَّب عن النوم في البيت؛ ويتنزّه مع عشيقته بالسيَّارة خلال معظم أيَّام الأحد؛ وأمضى إجازة أغسطس معها أيضًا؛ ووصلا حتى ستوكهولم بالسيَّارة المكشوفة، علمًا بأنّها كانت قد ذهبت إلى تورينو، ضيفةً عند إحدى قريباتها التي تعمل في شركة فيات للسيَّارات. وعلى الرَّغم من هذا، أصابه هَوَسٌ خطير بالغيرة: لم يشأ أن تخرج زوجته من البيت، وكان يُرغمها على أن تطلب ما تحتاج إليه عبر الهاتف. وإن خرجت لساعة قصيرة كي تروّح عن نَفْس الطفل، يستجوبها: من التقت؟ ومع من تكلَّمت؟ كان يشعر بنفسه زوجًا أكثر من أيِّ وقت مضى، ويظلّ متيقِّظًا. كأنَّه يخشى أنّ خيانته لها قد تُفسَّر على أنَّها سماحٌ لها بأن تخونه. لذا حين يمارس الجنس مع آدا، في ريتيفيلو، تلتهب مخيِّلته، ويتصوَّر أنّ ليلا تمارس، بالتفصيل، الوضعيّات ذاتها وأكثر، مع عشّاقها. كان يخشى أن يغدو أضحوكة في حال خانته ليلا، بينما كان يتباهى بخيانته لها.

Telegram: Somrlibrary

لم يكن غيورًا من كلّ الرجال، بل كانت له هرميّة معيَّنة. سرعان ما أدركت ليلا أنَّه يهاب جانب ميكيلي خصوصًا، إذ كان يشعر بأنَّه احتال عليه في كلِّ شيء، وأنَّه يُبقيه في حالة من الابتزاز والتبعيَّة. وعلى الرَّغم من أنَّها لم تُطلعه على أنّ سولارا حاول أن يقبّلها ذات مرَّة، وأنَّه عرض عليها أن تصبح عشيقته مرَّة أخرى، فطن ستيفانو إلى أنّ إذلاله بالاستحواذ على زوجته قد يكون نقلة مهمَّة للقضاء عليه في التجارة. في المقابل، فإنّ قوانين التجارة تستدعي أن تُظهر ليلا بعض الليونة على الأقلّ. وبالتالي، لم يستطع أن يتقبّل أيّ شيء تفعله زوجته. وكان أحيانًا يسألها بنبرة انفعاليَّة: «هل التقيتِ ميكيلي، هل تحدّث إليك، هل طلب منك تصميم أحذية جديدة؟». وأحيانًا أخرى، يصرخ بها: «إيَّاكِ أن تردّي حتى السلام على ذلك الوغد، مفهوم؟». عدا عن أنَّه كان يفتح أدراجها، وينبِّش فيها باحثًا عن دليلٍ يؤكِّد فجورها.

وكي تزداد الأمور تعقيدًا، تدخَّل باسكوالي أوَّلًا، ثم رينو.

كان باسكوالي قد عرف، بعد ليلا، أنّ خطيبته أمست عشيقة ستيفانو. لم يبلغه أحد بذلك؛ رآهما بأمّ عينيه، بينما كانا يخرجان متعانقين من إحدى بنايات الريتيفيلو، ذات غروب يوم أحد من شهر سبتمبر. كانت آدا قد قالت له إنّ عليها التفرّغ لميلينا، ولم يكن في وسعها أن تلتقيه. وهو في المحصّلة، كان يتسكّع طوال الوقت، إمّا بسبب العمل وإمَّا بسبب التزاماته السياسيَّة، ولم يكن يكترث كثيرًا لتغيّب خطيبته واختفائها. أصابه ألمٌ عظيم برؤيتهما معًا، والأدهى من هذا أنّه بينما كانت غريزته تؤلّبه على قتل كليهما، فإنّ تأهيله كمناضل شيوعيّ يحرّم عليه ذلك. في الآونة الأخيرة، أصبح باسكوالي أمين سرّ مكتب الحزب الشيوعيّ في الحيّ؛ وإن كان في الماضي، ككلِّ الشبّان

Telegram: Somrlibrary

الذين نشأنا معهم، قد صنّفنا عاهرات، عند الضرورة، فإنَّه حينذاك ـ يعتبر نفسه مطّلعًا، ويقرأ جريدة «أونيتا/الاتّحاد»، ويدرس الكرّاسات، ويتولّى إدارة الندوات في المكتب ـ كان يترفّع عن فعل ذلك، بل كان يبذل جهدًا في اعتبارنا، نحن النساء، سواسية مع الرجال، بشكل عامّ؛ فلدينا مشاعرنا، وأفكارنا، وحرِّيَّاتنا. وهكذا، متقلِّبًا بين نقمته ورؤاه المنفتحة، ذهب في المساء التالي إلى آدا، وقال لها إنَّه يعرف كلّ شيء. شعرتْ بالارتياح وصارحته. بكت، وطلبت منه السماح. وحين سألها إن كانت قد أقدمت على فعلتها من أجل المال، أجابته بأنَّها كانت تعشق ستيفانو، وأنَّها هي وحدها التي تعرف طباعه الحسنة وكرمه ونبله. فكانت النتيجة أن باسكوالي ضرب حائط المطبخ، في بيت كابوتشو، بقبضته، وعاد إلى بيته وهو يجهش بالبكاء، وعظام يده ملتهبة. بعدئذٍ، تحدَّث مع كارمن طوال الليل؛ تألّم الأخَوان كثيرًا، هو بسبب آدا، وهي بسبب إنتسو الذي لا تقوى على نسيانه. لكنّ العقدة لم تبلغ ذروتها إلَّا حين قرَّر باسكوالي أن يدافع عن كرامة آدا، مع أنَّه تعرَّض للخيانة، وكرامة ليلا أيضًا. قبل كلّ شيء، أراد أن يوضّح المسألة، فذهب ليتكلَّم مع ستيفانو؛ قرّع رأسه بخطبة عصماء مفادها أنّه ملزم بترك زوجته في حال سبيلها، والبدء بخطوبة رسميَّة مع عشيقته. ثم ذهب إلى ليلا، ووبّخها، لأنَّها سمحت لستيفانو بأن يدوس حقوقها كزوجة ومشاعرها كامرأة. وذات صباح، نحو السادسة والنصف، اعترضه ستيفانو بينما كان خارجًا للذهاب إلى عمله؛ عرض عليه مالًا بكلِّ سخاء، شرط ألَّا يتدخّل في شؤونه وشؤون زوجته وعشيقته. أخذ باسكوالي النقود، وأحصاها ثم رماها في الهواء قائلًا: «إنَّني أعمل منذ أن كنت صغيرًا، ولست محتاجًا إليك»، ثم أضاف، كأنَّه يطلب الإذن، أنّ عليه الانصراف،

Telegram: Somrlibrary

وإلَّا تأخَّر وفصلوه من العمل. لكنّه تمعّن في الأمر وهو يبتعد، فاستدار وصرخ باللحَّام، الذي كان يجمع النقود المبعثرة في الطريق: «إنَّك أسوأ من أبيك الفاشيّ الحقير». تشاجرا، وتبادلا لكمات عنيفة، وكاد أحدهما يقتل الآخر لولا تدخُّل بعض المارّة.

ولم يُستثنَ رينو من الكآبة أيضًا، لأنَّه لم يغفر لأخته انقطاعها عن التفرُّغ لابنه، كي تصنع منه طفلًا خارق الذكاء. لم يغفر لصهره أنَّه لم يعد يعطيه قرشًا واحدًا، بل اعتدى عليه بالضرب أيضًا. لم يغفر أنّ العلاقة بين ستيفانو وآدا باتت شأنًا عامًّا، مع كلّ تداعياتها المهينة بحقّ ليلا. فجاءت ردّة فعله على نحوٍ مفاجئ. بما أنّ ستيفانو كان يضرب ليلا، شرع رينو في تعنيف بينوتشا. وبما أنّ ستيفانو كان لديه عشيقة، وجد رينو لنفسه عشيقة أيضًا. وهكذا، أخضع شقيقة ستيفانو لجَورٍ مشابهٍ للظلم الذي كان ستيفانو يُنزله بليلا.

هوت بينوتشا في هوّةٍ من اليأس لا قرار لها: كم من دموع غزيرة ذرفتها! كم توسّلت إليه وتضرَّعت بأن يكفّ عمّا يفعله بها. هيهات! كان رينو يفقد رشده ما إن تفتح زوجته فمها، مسبّبًا الذعر لنونتسيا أيضًا؛ ويصرخ: «عليّ أن أكفّ عن هذا؟ عليّ أن أهدأ؟ اذهبي إذن إلى أخيك، وقولي له أن يترك آدا، ويحترم لينا، كي نصبح عائلة متَّحدة، كي يُعيد إليّ نقودي التي سلبها منِّي مع الأَخَوَين سولارا، وما زالوا». وكانت النتيجة أنّ بينوتشا غالبًا ما تهرب من المنزل، بمظهرٍ غير مستحبّ، وتهرع إلى ملحمة أخيها، وتجهش باكية أمام آدا والزبائن. فيسحبها ستيفانو إلى المستودع، وتكرِّر عليه مطالب زوجها، لكنّها تختم نحيبها: «لا تعطِ ذلك الوغد شيئًا، تعال إلى المنزل حالًا واقتله».

Telegram: Somrlibrary

١٠٣

كانت الأوضاع على تلك الشاكلة تقريبًا، عندما عدتُ إلى الحيّ في عيد الفصح. عشت في بيزا منذ عامين ونصف العام. كنت طالبة متألِّقة للغاية، والعودة إلى ناپولي تسبِّب لي تعاسةً، أنصاع لها تجنُّبًا لإثارة الجدل مع والديّ، وخصوصًا مع والدتي. فما إن يدخل القطار في المحطَّة، حتى يستبدّ بي توتُّر عنيف. كنت أخشى أن أتعرّض لطارئٍ يمنعني من العودة إلى الجامعة مع نهاية العطلة؛ كمرض خطير يُرغمني على دخول تلك المستشفيات الفوضويَّة؛ أو مكروهٍ يُجبرني على الانقطاع عن الدراسة، في حال احتاجت عائلتي إليّ.

كنت قد وصلت إلى البيت منذ عدَّة ساعات. وقد انتهت والدتي للتوّ من استعراض الوقائع الحرجة التي ألمّت بليلا، وستيفانو وآدا وباسكوالي ورينو، وورشة الأحذية التي توشك على الإغلاق، وكيف كان الزمان غدّارًا: تحصلين على المال في عام ما، فتحسبين نفسك شخصًا عظيمًا، وتشترين سيَّارة فاخرة، ثم تضطرِّين إلى بيع كلّ شيء في العام التالي، وتخضعين لسطوة السيِّدة سولارا ودفترها الأحمر، وتعترفين بأنَّك لا أحد. فإذا هي تتوقَّف عن ابتهالاتها فجأة، وتقول لي: «كانت صديقتك تعتبر أنَّها وصلت إلى مقامٍ رفيع، فتزوَّجتْ

Telegram: Somrlibrary

كالأميرات، واقتنت سيَّارة كبيرة وبيتًا حديثًا. أمّا اليوم، فأنت أشطر منها كثيرًا، وأجمل منها كثيرًا». ثم تنهّدت كي تكبت سعادتها، وسلَّمتني رسالة، كانت قد اطَّلعت عليها بالطبع مع أنَّها موجَّهة إليّ. كانت ليلا تودّ رؤيتي، وتدعوني إلى الغداء في اليوم التالي، الجمعة العظيمة.

حصلتُ على دعوات كثيرة في تلك الأيَّام القصيرة. بعد ذلك بقليل، ناداني باسكوالي من الفناء؛ وكما لو أنَّني هبطتُ من جبل الأولمبوس، وليس من بيت والدي المظلم، راح يستعرض عليّ أفكاره عن المرأة، ويروي لي عن معاناته، ويطلب رأيي في تصرُّفاته. وكذا فعلت بينوتشا في المساء، غاضبة من رينو وليلا على حدٍّ سواء. والشيء نفسه تكرَّر مع آدا، للمفاجأة، في صباح اليوم التالي، يتَّقد في فؤادها الحقد والشعور بالذنب معًا.

اعتمدتُ نبرة محايدة مع الثلاثة جميعهم. أوصيت باسكوالي بالرصانة، وبينوتشا بالتفرّغ لابنها، وآدا باختبار حقيقة حبّها. وعلى الرَّغم من سطحيَّة الكلمات، أعترف بأنّ الأخيرة أذهلتني على وجه الخصوص. بينما كانت تتحدَّث، ركّزتُ نظري فيها، كما لو أنَّها كتاب ما. آدا هي ابنة ميلينا المجنونة، وشقيقة أنطونيو. تعرّفتُ إلى ملامح والدتها وأخيها في تقاسيم وجهها. نشأت بلا أب، وتعرّضت لمخاطر جمّة، واعتادت على الكدّ. نظّفت سلالم بناياتنا لسنوات، مع ميلينا التي كانت تخرج عن طورها بشكل مفاجئ. أجبرها الأَخوان سولارا على الركوب بالسيَّارة عندما كانت فتاة؛ وفي وسعي أن أتخيّل ما الذي ألحقاه بها. لذا، بدا لي من الطبيعيّ أن تُغرم بستيفانو، السيِّد النبيل. قالت لي إنَّها تحبّه، وإنَّه يعشقها. «قولي للينا» غمغمت بعينين تقدحان ولعًا، «من الصعب التحكّم في أهواء القلب، وإن كانت هي زوجة

Telegram: Somrlibrary

ستيفانو، فإنَّني أنا التي منحني ستيفانو كلّ شيء، ولا يزال. منحني كلّ الاهتمام والعواطف التي يملكها الرجل؛ وفي القريب، سيمنحني أولادًا أيضًا؛ لذا هو لي، ولم يعد لها».

فهمتُ أنَّها كانت تنوي الاستحواذ على ما أمكنها استحواذه: ستيفانو، والملحمتين، والأموال، والبيت، والسيَّارات. وفكَّرتُ بأنَّها محقَّة في خوض تلك المعركة؛ ألم يكن الجميع يخوضها، ولو بنسب متفاوتة؟ لكنَّني حاولتُ أن أهدِّئ روعها، لأنَّها كانت شديدة الشحوب، ملتهبة العينين. وأسعدتني، إذ قالت إنَّها ممتنّة لي، وشعرتُ بالبهجة كونهم يطلبون مشورتي، كأنَّني كاهنة ما. وكوني أوزِّع النصائح بإيطاليَّة فصيحةٍ، تشتّت تركيز آدا وباسكوالي وبينوتشا. وقلت لنفسي بسخرية: هذا ما نستفيد منه من امتحانات التاريخ، وفقه اللغة واللسانيَّات الكلاسيكيَّة، وآلاف التمارين التي أتدرَّب عليها بعناية مفرطة: أن أُطمئن قلوبهم لعدَّة ساعات. كانوا يعتبرونني نزيهة عن أيّ اصطفاف، خالية من الأهواء والمشاعر الشرِّيرة، معقّمة بالدراسة. وقد قبلتُ الدور الذي منحوني إيَّاه، من دون أن أُشير إلى ما يسبِّب لوعتي وجسارتي، أو إلى تلك المرَّات التي خاطرتُ فيها بكلِّ شيء في بيزا، كي يدخل فرانكو غرفتي خلسة أو العكس؛ لم أبح عن إجازتي معه في فيرسيليا، حيث عشنا بمفردنا معًا كما لو كنَّا متزوِّجين. شعرتُ بالسعادة بما فعلتُ.

لكنّ البهجة أفسحت مجالها للتوتُّر، كلّما اقترب موعد الغداء، حتى ذهبتُ إلى ليلا بلا رغبة. كنت أخشى أن تجد الوسيلة، في غضون دقائق، لتُعيد ترتيب الهرميَّة القديمة، فتجعلني أفقد الثقة بخياراتي. كنت أخشى أن تُطلعني على ملامح نينو في تقاسيم جينّارو الصغير، لتذكّرني بأنّ اللعبة، التي كان من الممكن أن أحصل عليها،

Telegram: Somrlibrary

باتت من نصيبها. لكنّ الأمور لم تجرِ على ذلك النحو، للوهلة الأولى. سرعان ما امتلأ قلبي حنانًا برؤية رينوتشو ـ كانت غالبًا ما تناديه بهذا التصغير ـ. كان طفلًا في منتهى الوسامة، أسمر البشرة، ولم تظهر بعد ملامح نينو في وجهه وجسده؛ إنّما كان محيّاه يذكّر بليلا، وستيفانو أيضًا، كما لو أنَّه تشكّل من الثلاثة معًا. أمّا ليلا، فقد شعرتُ بأنَّها ضعيفة، ونادرًا ما رأيتُها هكذا. ما إن رأتني حتى أبرقت عيناها، وارتعش جسمها كلّه، فعانقتها بشدَّة كي أهدّئها.

انتبهتُ إلى أنَّها سرّحت شعرها بسرعة، كي لا تبدو في مظهرٍ قبيح أمامي، وأنَّها وضعت أحمر الشفاه على عجل أيضًا، وارتدت تنُّورة مائلة إلى الرماديّ تعود إلى زمن الخطوبة، حيث كانت تلبسها مع حذاء بكعب عالٍ. كانت لا تزال محافظة على جمالها، لكنّ عظام وجهها بدت ناتئة أكثر من ذي قبل، وعيناها غَدَتَا أقلّ وسعًا، وكأنَّ تحت جلدها لا تسري الدماء بل سائلٌ كثيف. وجدتُها هزيلة جدًّا، وشعرتُ بعظامها حين عانقتُها، بينما تبيّن تنُّورتُها الضيِّقة امتلاء بطنها.

تظاهرتْ في البدء بأنّ كلّ شيء على ما يرام. وكانت سعيدة من احتفائي بطفلها، وسُرّتْ لطريقتي في ملاعبته، وأرادت أن تُظهر لي كيف كان رينوتشو يعرف قول الكثير وفعله، ثم راحت تغرقني، بأسلوب مضطرب لم أعهده منها، بتلك المصطلحات التي صادفتها خلال قراءاتها الفوضويَّة. وأشارت إلى كتّابٍ لم أسمع بأسمائهم من قبل، وأجبرت ابنها على تطبيق بعض التمارين التي ابتكرتْها لأجله. لاحظتُ شيئًا ما يشبه التشنُّج يطغى على تنهيداتها: كانت تفتح فمها فجأة ثم تزمّ شفتيها، كأنَّها تكتم مشاعرها التي تجيش في الكلمات التي تنطق بها. وعادة ما كانت التنهيدة تترافق مع احمرارٍ في العينين، بريق زهريّ يوازي تشنُّج الشفتين على الارتداد إلى عمق الرأس،

كالأداة النابضة. كرَّرت لي مرارًا أنّنا لو دأبنا على رعاية كلّ طفل صغير، لكان الحيّ سيتغيَّر في غضون جيل واحد، بحيث تنعدم الهوّة بين الأذكياء والعاجزين، ويضمحلّ الفرق بين الطيِّبين والأشرار. ثم نظرت إلى ابنها، وانفجرت باكية من جديد. «لقد مزَّق كتبي»، قالت وهي تذرف دموعها، كما لو أنّ رينوتشو هو الفاعل، وأرتني الكتب ممزَّقة ومشطورة إلى نصفين. استغرقتُ بعض الوقت، لأفهم أنّ المذنب لم يكن الصغير، بل زوجها. «بات يفتِّش بين أغراضي» غمغمت، «لا يريد أن يكون لديّ حتى فكرة تخصّني، ويضربني إذا اكتشف أنَّني خبّأتُ عنه ولو شيئًا تافهًا». اعتلت كرسيًّا ما، وأخرجت علبة معدنيَّة من على سطح الخزانة في غرفة النوم، وأعطتني إيَّاها. «هنا يوجد كلّ ما حدث بيني وبين نينو» قالت، «إضافة إلى أفكار كثيرة خطرت في بالي خلال هذه الأعوام، وأشياء تخصّنا أنا وأنت أيضًا، لم تُتَح لنا الفرصة لتبادلها. خذي العلبة بعيدًا، أخشى أن تقع بين يديه ويقرأ ما فيها. لا أريد أن يقرأها. هذه الأمور لا تخصُّه، لا تخصّ أحدًا، حتى أنتِ».

Telegram: Somrlibrary

١٠٤

أخذتُ العلبة على مضض، وفكَّرتُ: أين أخبِّئها، ماذا أفعل بها؟ جلسنا إلى الطاولة. أدهشتني قدرة رينوتشو على تناول الطعام بمفرده. كان يستخدم أدوات خشبيَّة صغيرة؛ وما لبث أن حدَّثني بالإيطاليَّة الفصحى ـ ما إن انقشع حياء اللقاء الأوّل ـ من دون أن يُنَشِّز في نطق أيّ مفردة، بل راح يُجيب عن أسئلتي بدقَّة واتزان، ويطرح عليّ الأسئلة أحيانًا. تركتني ليلا أخاطب ابنها، بالكاد أكلتْ شيئًا، وركّزتْ نظرها في الطبق. وفي النهاية، حين كنت على وشك الانصراف، قالت:

«لا أذكر شيئًا عن نينو، وعمّا جرى في إيسكيا، وفي المحلِّ في ساحة الشهداء. ومع ذلك، يبدو لي أنَّني أحببته أكثر من نفسي. لا يهمّني أن أعرف ما الذي حدث له، وأين ذهب».

ظننتُ أنَّها كانت صادقة، ولم أقل لها شيئًا عمّا كنت أعرفه.

«هذا أجمل ما في جنون الوَلَه»، ارتجلتُ، «يتلاشى بعد حين».

«هل أنتِ سعيدة؟»

«بما فيه الكفاية».

«يا لجمال شعرك».

Telegram: Somrlibrary

«لا تبالغي».

«عليك أن تُسدي إليَّ معروفًا آخر».

«هاتي».

«عليّ أن أهجر هذا البيت قبل أن يُقْدم ستيفانو على قتلي، أنا والطفل، من دون حتى أن يفهم ما الذي يفعله».

«إنَّك تخيفينني عليكِ هكذا».

«معك حقّ، أعتذر».

«قولي لي ما الذي عليّ فعله؟»

«اذهبي إلى إنتسو. قولي له إنَّني حاولتُ، لكنَّني لم أنجح».

«لم أفهم شيئًا».

«ليس مهمًّا أن تفهمي، فأنت ستعودين إلى بيزا، ولديك ما يشغلك. قولي له هذا فقط: «لينا حاولتْ ولم تنجح»».

رافقتني إلى الباب، والصبيّ بين ذراعيها. قالت له:

«رينو، أَلْقِ التحيَّة على الخالة لينو».

ابتسم الطفل، وحرّك يده مودّعًا.

Telegram: Somrlibrary

١٠٥

قبل الانطلاق، ذهبتُ أبحث عن إنتسو. وحين قلت له: لينا أوصتني بإخبارك بأنَّها حاولت، لكنَّها لم تنجح، لم يظهر على وجهه أيّ تعبير ينمّ عن شعورٍ ما، ففكَّرتُ في أنّ الرسالة لم تغيِّر فيه شيئًا. «إنَّها تعاني كثيرًا» أضفتُ، «لكنّني لا أعلم ما الذي في وسعنا فعله». زمّ إنتسو شفتيه، وتجهَّم وجهه. تودّعنا.

فتحتُ العلبة المعدنيَّة في القطار، مع أنَّني أقسمتُ على عدم فعل ذلك. كانت تحتوي على ثمانية دفاتر. بلغني الإعياء منذ الأسطر الأولى. وحين وصلتُ إلى بيزا، كبّلتني الكآبة مع مرور الأيَّام والأشهر. شعرتُ بالدونيَّة حيال كلّ كلمة. بدت لي أيّ عبارة من عباراتها، بما فيها تلك التي كتبتْها عندما كانت صغيرة، تفرّغ عباراتي من مضمونها، سواء تلك التي قلتها حينذاك أو هذه التي أكتبها الآن. كما ألهبتْ كلّ صفحة من صفحاتها أفكاري وخواطري وصفحاتي، كأنَّني حتى تلك اللحظة كنت أعيش في همودٍ دراسيّ قائم على العجز. حفظتُ تلك الدفاتر عن ظهر قلب، حتى جعلتني أشعر بأنّ عالم الجامعة، بمن فيه صديقاتي وأصدقائي الذين كانوا يقدِّرونني، ونظراتُ الأساتذة الودِّيّة التي تشجِّعني على بذل المزيد، جزءٌ من كونٍ مُحْكَمٍ

Telegram: Somrlibrary

للغاية، وبالتالي يسهل التنبُّؤ فيه، مقارنةً مع ذلك العالم الزوبعيّ الذي استطاعت ليلا أن تسبره بسطورها المستعجلة، وصفحاتها الممزَّقة والمبقَّعة، على الرَّغم من أنَّه لم يكن يتعدّى حدود الحياة في الحيّ.

بدت لي كلّ محاولاتي السابقة مجرّدة من أيّ معنى. شعرتُ بالذعر. تشتَّت ذهني عن الدراسة شهورًا. كنت وحيدة، بعد أن خسر فرانكو ماري مقعده في جامعة نورمالي، ولم أستطع أن أُزيل من رأسي الإحساس بالضحالة الذي اجتاحني. وفي لحظة ما، اتَّضح لي أنَّني سأحصل على نتيجة متدنِّية، قد أخسر بسببها فرصة الدراسة، وأعود إلى بيتي. وهكذا، حتى خرجتُ ذات مساءٍ من نهاية الخريف، من دون وجهة محدَّدة، وحملتُ معي تلك العلبة المعدنيَّة. توقَّفتُ على جسر سولفيرينو، وألقيتُها في نهر أرنو.

Telegram: Somrlibrary

١٠٦

غيّر عامي الأخير في بيزا منظوري الذي عشتُ عليه خلال الأعوام الثلاثة السابقة. انتابني جحودٌ وإنكار بحقّ المدينة؛ بحقّ زميلاتي وزملائي، والأساتذة، والامتحانات، وأيَّام البرد القارس، والندوات السياسيَّة التي تُعقد في الأمسيات الدافئة قرب الكاتدرائيَّة، والأفلام في نادي السينما؛ بحقّ كلّ المجال الحيويّ والرتيب للمدينة: معهد تيمبانو، كورنيش باشينوتي الموازي لنهر أرنو، شارع الرابع والعشرين من مايو، شارع سان فريديانو، ساحة الفرسان، شارع كونسولي دل ماري، شارع سان أورنتسو؛ مشاوير روتينيَّة، وعلى الرَّغم من هذا فإنَّها تظلّ غريبة. حتى إذا ألقى عليّ الفرّان التحيَّة، حتى إذا حدّثتني بائعة الجرائد عن الطقس، تظلّ غريبة في اللكنة التي سارعتُ إلى تقليدها، تظلّ غريبة في ألوان الحجارة والنباتات والشارات والغيوم والسماء.

لا أعلم إن كانت دفاتر ليلا هي السبب في هذه الحالة. لكنَّني متأكِّدة من أنَّني ذبلتُ بعد أن قرأتها، وقبل أن أرمي العلبة التي تحتوي عليها. زال انطباعي الأوَّليّ عن أنَّني أخوض غمار معركة ضروس. زال خفقان القلب إزاء أيّ امتحان، وبهجةُ النجاح بأعلى العلامات.

Telegram: Somrlibrary

زالت المتعة في إعادة تربيتي، من حيث الصوت والحركات والمشي واختيار الأزياء، كأنَّني أنافس للحصول على جائزة أفضل تخفٍّ خلف قناعٍ أتقنتُ وضعه حتى «كاد» يغدو وجهي الحقيقيّ.

وفجأة، انتبهتُ لهذا الفعل: «كاد». هل أحسنتُ؟ أكاد. هل انتشلتُ نفسي من ناپولي، من الحيّ؟ أكاد. هل أصبح لديّ صديقات وأصدقاء جدد، ينحدرون من أوساط مثقَّفة، غالبًا ما يضاهون وسط الأستاذة غالياني وابنيها في الثقافة؟ أكاد. هل أصبحتُ طالبة مرحّبًا بها من الأساتذة الغارقين في أفكارهم؟ أكاد. بدا لي أنَّني رأيت حقيقة الأمور، خلف هذا الفعل. كنت خائفة. كنت خائفة كما في أوّل يوم وصلتُ فيه إلى بيزا. كنت أخشى مَن في وسعه أن يكون ناجحًا بسلاسة، من دون أن «يكاد».

وكانت أعداد هؤلاء في نورمالي كبيرة. لم يكونوا فقط من فئة الطلّاب الذين يجتازون الامتحانات بتألُّق، في اللاتينيَّة والإغريقيَّة والتاريخ؛ بل كانوا شبَّانًا ـ معظمهم من الذكور، كما كان جميع الأساتذة الجهابذة والأسماء اللامعة التي عملت في تلك المؤسَّسة ـ يتفوَّقون لأنَّهم يعرفون، من دون جهد ظاهريّ، استخدام جهدهم في الدراسة، حاضرًا ومستقبلًا. كانوا معتادين على هذا بفضل أصولهم العائليَّة، أو بفضل بوصلتهم الفطريّة. كانوا يعرفون كيف تُنشأ المجلّة والصحيفة، وكيف تُقام دُور النشر؛ يعرفون ما معنى قسم التحرير الإذاعيّ والتلفزيونيّ، وكيف تُصنع الأفلام، وكيف تعمل الهرميَّات الجامعيَّة، وما الموجود خلف حدود بلداتنا ومدننا، خلف جبال الألب، وخلف البحر؛ كانوا يعرفون أسماء الأشخاص ذوي الاعتبار، والأشخاص محطّ التقدير، وأولئك محطّ الاحتقار. أمّا أنا، فلم أكن أعرف شيئًا. بالنسبة إليّ، كان أيّ امرئ يظهر اسمه على صفحات

Telegram: Somrlibrary

الجرائد بمثابة إلٰه. إذا قال لي أحدهم، بتقدير أو باحتقار، إنّ هذا فلان، وذاك علّان، وتلك حفيدة رجل ما، كنت أكتفي بالصمت أو أتظاهر بأنَّني أعرفه أو أعرفها. وكنت بالتأكيد ألاحظ أنّ كنْياتهم مهمَّة «حقًّا»، مع أنَّني لم أسمع بهم يومًا، وليس لديّ أيّ فكرة عمّا فعلوه ليصبحوا محلّ احترام. في المحصِّلة كنت جاهلة في خريطة البرستيج. مثلًا، كنت أحضِّر نفسي جيِّدًا للامتحانات، لكنْ لو أنّ الأستاذ باغتني بسؤال: «هل تعرفين أعمالي التي خوَّلتني تدريس هذه المادَّة في هذه الجامعة؟»، فما كنت لأستطيع الإجابة. أمّا الآخرون فكانوا مطّلعين على مجرى الأمور. لذا، كنت أتحرَّك بينهم وأنا أخاف أن أقول، أو أفعل أشياء خاطئة.

وحينما أُغرم بي فرانكو ماري، تقلَّصت مخاوفي من تلك الناحية. كان يُعيد تأهيلي، وتعلَّمت كيف أقلِّده. كان فرانكو في غاية المرح، ينتبه للآخرين. كان جريئًا وجسورًا، وواثقًا بقراءته الكتب المناسبة، وبالتالي وقوفه في الجانب الصحيح، إلى درجة أنَّه يتكلَّم كأنَّه صاحب مكانة ما. تعلَّمتُ الاستناد إلى مكانته في التعبير عن نفسي، على انفراد، وعلى الملأ نادرًا. وكنت شاطرة، أو أصبح كذلك على الأقلّ. أستمدّ قوَّتي من ثقته بنفسه، حتى أفوقه جرأةً في بعض الحالات، وأكون أكثر نجاعة في حالات أخرى. وعلى الرَّغم من ذلك التطوّر، فإنَّني ما زلت أخاف أنِّي لست في المستوى المطلوب، أو أخاف أن أتفوَّه بأخطاء فادحة، أو أكشف مدى جهلي وعدم خبرتي، وتحديدًا في الأمور التي يفهم فيها الجميع. وما إن خرج فرانكو، رغمًا عنه، من حياتي، حتى استعادت مخاوفي قواها. حصلتُ على الدليل على ما كنت أعرفه جيِّدًا في سرّي. لا شكّ في أنّ حالته الميسورة، وتربيته الصالحة، ومكانته كمناضلٍ يساريّ شابّ

Telegram: Somrlibrary

ذائع الصيت بين الطلبة، وقابليَّته على الاندماج مع الآخرين، بل حتى شجاعته إذا تدخَّل في نقاشات عصيّة، ليجابه أشخاصًا ذوي اعتبار داخل الجامعة وخارجها؛ لا شكّ في أنّ هذه العوامل كلّها أضفت عليه هالة من الاحترام، سرعان ما شملتني تلقائيًا، لكوني خطيبته أو صديقته أو زميلته؛ كما لو أنّ مجرّد عشقه لي دليلٌ قاطع، وتصريح علنيّ، على جدارتي. لكنّ استحقاقاته تبدَّدت، منذ أن فقد مقعده في نورمالي، ولم تعد تظلّلني بظلّها. كفّ الطلّاب المنحدرون من أُسَر عريقة عن دعوتي إلى النزهات والحفلات في أيَّام الآحاد. وعاد أحدهم إلى السخرية منّي، بسبب لهجتي النابوليتانيَّة. كلّ هدايا فرانكو، ولّى زمن صرعتها، وهرمتْ بي. أدركتُ سريعًا أنّ فرانكو، بحضوره في حياتي، أخفى مساوئي الحقيقيَّة، لكنّه لم يغيِّرها، ولم أفلح في الاندماج حقًّا. كنت من أولئك الذين يجتهدون ليلًا نهارًا، ويحصلون على علامات عالية، ويتلقّون لطف الآخرين وتقديرهم، لكنّهم لن ينجحوا في استثمار تلك الدراسات استثمارًا ملائمًا. كان عليّ أن أشعر دومًا بالخوف: الخوف من نطق جملة خاطئة؛ من استخدام نبرة خارجة عن المألوف؛ من ارتداء الثياب بشكلٍ غير مناسب؛ من الإفصاح عن مشاعر بائسة؛ من عدم امتلاك أفكار مثيرة للاهتمام.

Telegram: Somrlibrary

١٠٧

لا بدّ من أن أعترف بأنّ تلك الفترة كانت عصيبة لأسباب أخرى أيضًا. كان الجميع، في ساحة الفرسان، يعرف أنَّني أذهب في الليل إلى غرفة فرانكو، وأنَّني كنت بمفردي معه في باريس، وفيرسيليا، حتى أُشيع عنِّي أنَّني فتاة سهلة المراس. ويصعب شرح كم كلّفني الاعتياد على فكرة الحرِّيَّة الجنسيَّة، التي كان فرانكو يساندها بحرارةٍ؛ اضطررتُ أنا نفسي إلى إخفائها، كي أبدو له حرّة ولا أبالي بالأحكام المسبقة. ولم يكن في وسعي أن أطوف بين الآخرين، لأردِّد على مسامعهم تلك الأفكار التي علَّمني إيَّاها كما لو أنَّها تعاليم الإنجيل، أي أنَّ شبيهات العذارى هنّ أسوأ صنفٍ من الإناث، كبنات البرجوازيَّة الصغرى اللواتي يفضِّلن النكاح من الخلف على الممارسة كما ينبغي. ولم يسعني أن أقصّ عليهم أنَّ لي صديقة، في ناپولي، تزوَّجت وهي في السادسة عشرة من عمرها، وأنَّها اتَّخذت لنفسها عشيقًا في عامها الثامن عشر، وحملت منه، ثم عادت إلى زوجها، ومَن يدري إن اقترفت آثامًا أخرى؛ أي أنَّ الذهاب إلى فراش فرانكو لا يُعَدّ شيئًا، مقارنة مع نزوات ليلا. اضطررتُ إلى تقبُّل النكات الثقيلة من بعض الفتيات، وتلك الشرِّيرة من بعض الشبّان؛ تقبّلتُ نظراتهم المركّزة في

Telegram: Somrlibrary

صدري الضخم، واضطررتُ إلى صدّ أساليبهم الفجّة، بأسلوبٍ فجّ، إذا ما عرض أحدهم نفسه بديلًا لصديقي السابق. واضطررتُ إلى الاستسلام أمام ردودهم السُّوقيَّة إزاء رفضي. كنت أمضي قدمًا وأشدّ من عزيمتي، وأنا أقول لنفسي: ستنقضي هذه المدَّة.

ثم حدث أنّ أحدًا ممّن رفضتُ عروضهم، صاح بي جدِّيًا، ذات عصر في أحد مقاهي شارع سان فريديانو، بينما كنت خارجة مع اثنتين من زميلاتي: «يا ناپولي، تذكَّري أنَّ تُعيدي إليّ الكنزة الزرقاء التي نسيتُها عندك». علت الضحكات، وخرجتُ من دون أن أردّ. لكنَّني انتبهتُ إلى أنّ شابًّا ما يتبعني، وكنت قد لاحظتُه في أحد الدروس، بسبب مظهره المضحك. لم يكن شابًّا مثقَّفًا وضبابيًّا مثل نينو، ولا مَرِحًا مثل فرانكو، بل كان يضع نظَّارة طبِّيَّة، شديد الحياء، انعزاليًّا، وشعره الأسود ككتلة الصوف المبعثرة، ثقيل الجسم بشكل ملحوظ، وقدماه معوجتان. تبعني حتى السكن الجامعيّ، ثم ناداني أخيرًا: «غريكو».

كان يعرف كنيتي، أيًّا يكن. توقَّفتُ احترامًا. قدّم الشابّ نفسه: بييترو آيروتا، وراح يتكلَّم بأسلوب مضطرب ومرتبك جدًّا. قال إنَّه يشعر بالعار من رفاقه، لكنَّه يكره نفسه أيضًا، لأنَّه كان خسيسًا ولم يتدخّل.

«ولماذا تتدخّل؟» سألته ساخرة، ومشدوهة بعض الشيء من أنّ واحدًا مثله ـ محدودب الظهر، ونظّارته مقعّرة، وشعره مضحك، وشكله وكلامه يوحيان بأنَّه يمضي كلّ وقته في صحبة الكتب ـ يشعر بواجب الشهامة كشبّان حيّنا.

«كي أدافع عن اسمك الرائع».

«اسمي ليس رائعًا».

Telegram: Somrlibrary

غمغم بمزيج من الاعتذار والتحيَّة، وانصرف.

في اليوم التالي، بحثتُ عنه. بدأتُ بالجلوس قربه في أثناء الدرس، ثم قمنا بنزهات طويلة معًا. فوجئتُ به: كان مثلي قد باشر بتحضير أطروحة التخرُّج؛ وينوي التخصُّص بالأدب الكلاسيكيّ مثلي؛ لكنّه خلافًا لي لم يكن يسمِّيها «أطروحة» بل «العمل»، وسمَّاها مرَّة أو اثنتين «الكتاب». كتاب كان على وشك إنجازه، وقد ينشره بعد التخرُّج. عمل، كتاب؟ يا لأسلوبه في الكلام! على الرَّغم من أنَّه لم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره، كانت نبرته رخيمة، ويلجأ باستمرار إلى عبارات تنمّ عن ثقافته الواسعة، ويتصرَّف كأنَّه أستاذٌ محاضر في نورمالي، أو في جامعة أخرى.

«هل ستنشر أطروحتك حقًّا؟» سألته ذات مرّة، متعجِّبة.

نظر إليّ مستغربًا هو أيضًا:

«أجل، إن كانت مهمَّة».

«وهل تُنشَر كلّ الأطروحات المهمَّة؟»

«لمَ لا؟»

كان يدرس الطقوس الباخوسيَّة، وأنا أدرس المجلَّد الرابع من ملحمة الإلياذة. غمغمتُ:

«لعلّ باخوس أكثر أهمِّيَّة من ديدون».

«كلّ شيء له أهمِّيَّته إذا عرفتِ العمل عليه».

لم نتناقش أبدًا في شؤون يوميَّة، ولا في إمكان منح الولايات المتَّحدة الأميركيَّة ألمانية الغربيَّةَ أسلحةً نوويَّة، ولا في المفاضلة بين أفلام فيليني وأنطونيوني، كما جرت العادة مع فرانكو؛ كنَّا نتكلَّم على الأدب الكلاسيكيّ حصرًا، بشقّيه الإغريقيّ والرومانيّ. كان لبييترو

Telegram: Somrlibrary

ذاكرة مذهلة: يعرف كيفيَّة الوصل بين نصوص متباعدة، ويلقيها كما لو كانت أمام عينيه، ومن دون تكبّر أو ادِّعاء بالمعرفة، كأنَّها أكثر الأمور بديهيَّة بين شخصين متفرِّغين لتلك الدراسات. وكلَّما عاشرتُه، أدركتُ جدارته. لم أكن لأبلغ مستواه أبدًا؛ فبينما كنت حريصة على عدم الوقوع في أخطاء فادحة، كان يُبدي ما يشبه الطواعيَّة الهادئة للفكر الرزين، وللبرهان الخالي من الشكوك.

وسرعان ما شعرتُ بأنّ كلّ شيء يتغيَّر من حولي مجدَّدًا، وذلك بعد مرَّتين أو ثلاث مرَّات من التنزُّه معه في شارع إيطاليا، أو ما بين الكاتدرائيَّة والمقبرة، فقط. حتى إنّ فتاة أعرفها، قالت لي ذات صباح، بمزيج من الألفة والنقمة:

«ماذا تفعلين بالذكور؟ لقد كسبت اهتمام ابن آيروتا أيضًا».

لم أكن أعرف من يكون آيروتا الأب، لكنّ لهجة الاحترام عادت تشحذ أفواه الرفاق، ودُعيتُ مجدَّدًا إلى الحفلات والمطاعم. ولوهلة، توجَّستُ من أنَّهم كانوا يتَّجهون إليّ كي أصطحب بييترو معي، نظرًا إلى كونه منعزلًا في شؤونه بشكل عام. أخذتُ أسأل مَن حولي، كي أفهم أيّ جدارة كانت لوالد صديقي الجديد. اكتشفتُ أنَّه يدرّس الأدب الإغريقيّ في جنوا، عدا عن كونه شخصيَّة اعتباريَّة في الحزب الاشتراكيّ. لكنّ هذا النبأ ثبّط همّتي، خشيتُ أن أقول ـ أو أنَّني قد قلت ـ شيئًا في حضور بييترو، ينمّ عن جهلي أو سذاجتي. فرحت أحدِّثه عن أطروحتي أقلّ ممَّا كان يتكلَّم على أطروحته ـ كتابه.

ذات يوم أحد، وصل إلى السكن الجامعيّ مقطوع الأنفاس، أراد أن نتناول الغداء بصحبة عائلته، أبيه وأمّه وشقيقته، وقد جاؤوا لزيارته. تملَّكني القلق. حاولت أن أظهر جميلة ما استطعت. وفكَّرتُ: سأُخطئ في الجمل الشرْطيَّة، سيرونني مضطربة. إنَّهم من

Telegram: Somrlibrary

عليَّة القوم. لا بدّ من أنّ لديهم سيَّارة فارهة يقودها سائق. فِيمَ سأتحدَّث؟ سأبدو مغفَّلة. لكنَّني هدأتُ ما إن رأيتهم. كان البروفسور آيروتا متوسِّط القامة، يرتدي بذلة رماديَّة كالحة اللون، ووجهه عريض ينضح بالتعب، ونظَّارته كبيرة جدًّا. وحين نزع قبّعته، رأيت أنَّه كان أصلع كلّيًّا. آديلي، زوجته، امرأة نحيلة، ليست جميلة بقدر ما كانت ناعمة، وأنيقة من دون اختيال. وكانت سيَّارتهم شبيهة بسيَّارة الأَخَوَين سولارا «فيات ألف ومئة» قبل أن يشتريا «جولييت». واكتشفت أنّ من قادها، من جنوا إلى بيزا، لم يكن سائقًا خاصًّا، بل ماريّا روزا، شقيقة بييترو، ذات الوجه السمح والعينين اللمَّاحتين، وقد أسرعتْ إلى عناقي وتقبيلي، كما لو كنَّا صديقتين منذ زمن.

«هل قدتِ السيَّارة بمفردك من جنوا إلى هنا؟» سألتها.

«أجل، أحبّ القيادة».

«هل من الصعب الحصول على رخصة القيادة؟»

«فلننسَ الأمر!».

كان عمرها أربعة وعشرين عامًا، وتعمل في قسم تاريخ الفنّ في جامعة ميلانو، متخصِّصة بدراسة لوحات بييرو ديلا فرانشسكا. كانت تعلم كلّ شيء عنّي، أي كلّ ما كان يعرفه أخوها: اهتماماتي الدراسيَّة فقط. وكذا البروفسور آيروتا وزوجته آديلي أيضًا.

أمضيتُ معهم أصبوحة هنيئة، وكنت في أحسن حال. وخلافًا لبييترو، كان والده، وأمّه، وشقيقته، يتحدَّثون في شؤون متنوِّعة. فعلى سبيل المثال، عند الغداء في مطعم الفندق حيث نزلوا، احتدم النقاش - بوديَّة - بين البروفسور آيروتا وابنته في مواضيع سياسيَّة، كنت سمعتُ بها عن طريق باسكوالي ونينو وفرانكو، لكنَّني بالكاد أعرف عنها شيئًا. أحاديث مثل: لقد وقعتم في فخّ التعاون بين الطبقات؛ أنتِ تسمّينها

فخًا، أنا أسمّيها تفاوضًا؛ تفاوضٌ ينتصر فيه الحزب الديموقراطيّ المسيحيّ دومًا وحصرًا؛ السياسة في يسار الوسط شائكة؛ وإن كانت كذلك، فما الذي يمنعكم من العودة إلى الاشتراكيّة؟ الدولة تمرّ في أزمة، ومن الضروريّ إعادة تشكيلها؛ لكنّكم لا تعيدون تشكيل أيّ شيء؛ ماذا تفعلين لو كنت محلّنا؛ ثورة، ثورة، ثورة؛ الثورة تندلع لتُخرج إيطاليا من العصور الوسطى؛ لولا وجودنا نحن الاشتراكيّين في الحكومة، لدخل السجن كلُّ الطلبة الذين يتكلّمون على الجنس في المدرسة، وأولئك الذين يوزّعون منشورات سلميّة أيضًا؛ أريد أن أرى كيف ستتعاملون مع حلف شمال الأطلسيّ؛ لقد كنّا دومًا ضدّ الحرب وضدّ جميع الإمبرياليّين؛ وهل ستبقون مناهضين للسياسات الأميركيّة بينما تشكّلون ائتلافًا حكوميًا مع الديموقراطيّ المسيحيّ؟

عبارات سريعة، من هذا النوع: تمرين جدليّ يُسعد الطرفين في الظاهر، ولعلّه طقسٌ وديٌّ ضاربٌ في القدم. لقد رأيتُ فيهما، أبًا وابنة، ما لم أكن قد حصلتُ عليه، وكنت حينذاك على يقين بأنّني لن أحصل عليه أبدًا. ما هو؟ لم أكن قادرة على تعريفه بدقّة: ربّما هو التعوّد على تبنّي مسائل العالم؛ أو القدرة على اعتبارها مسائل حاسمة، لا مجرّد معلومات ندرسها كي نجتاز امتحانًا ما ونحصل على علامة جيّدة؛ أو تطبيق ذهنيّ لا يؤدّي إلى خوض معركة شخصيّة حيال أيّ شيء لإثبات الوجود. كانت ماريّا روزا لطيفة، وأبوها أيضًا؛ وكانت نبرة كلٍّ منهما موزونة، لا يشوبها الشطط الكلاميّ الذي يميّز خطاب أرماندو، ابن غاليان، أو نينو. كانا يحقنان بالدفء تلك الأحاديثَ السياسيّةَ التي بدت لي جامدة في مناسبات أخرى، وبعيدة عن منالي، أناقش فيها لتجنُّب الظهور غير اللائق فقط. أخذهما النقاش، من دون انقطاع، إلى الغارات على ڤيتنام الشماليّة، وإلى

الانتفاضات الطلّابيّة في هذه الجامعة وتلك، وإلى آلاف التجمُّعات التي تحتضن النضال في وجه الإمبرياليّة في كلٍّ من أميركا اللاتينيّة وأفريقيا. حتى بدت الفتاة أكثر إلمامًا من أبيها. كم كانت ماريًّا روزا تعرف الكثير، وتتكلّم كما لو أنَّها تحصل على المعلومات من المصدر، حتى إنّ آيروتا التفت في لحظة ما إلى زوجته، فقالت الأخيرة لابنتها بنبرة ساخرة:

«أنتِ الوحيدة التي لم تختر الحلوى إلى الآن».

«سآخذ حلوى الشوكولاتة»، أجابتها، وهي تقطع كلامها بتنهيدة مرحة.

نظرتُ إليها ببالغ التقدير. كانت تقود السيَّارة، وتعيش في ميلانو، وتعلِّم في الجامعة، وتعاند والدها من دون ضغينة. وأنا؟ كنت خائفة من أن أفتح فمي، وأشعر بالإهانة من البقاء صامتة في الوقت نفسه. لم أتمالك نفسي، فقلت بصوت عالٍ:

«بعد هيروشيما وناغازاكي، لا بدّ من أن يُحاكَم الأميركان بسبب جرائمهم ضدّ الإنسانيَّة».

هيمن الصمت. حملق كلّ أفراد العائلة أنظارهم نحوي. ماريًا روزا هتفت: أحسنتِ، مدَّت يدها فصافحتُها. شعرتُ بالشجاعة، فسارعتُ إلى قذف الكلمات، شظايا من قضايا قديمة حفظتُها في أزمنة مختلفة. تحدَّثتُ عن «التخطيط» و«العقلانيَّة»، وعن فراغ التحالف الاشتراكيّ ـ الديموقراطيّ ـ المسيحيّ؛ عن الرأسماليّة الجديدة؛ عن مفهوم البنية؛ عن الثورة؛ عن أفريقيا وآسيا؛ عن روضة الأطفال؛ عن جان بياجيه، عن التواطؤ الحاصل بين السياسة والقضاء؛ عن نتانة الفاشيّة التي تفوح رائحتها الكريهة من كلّ مفاصل الدولة. أحسستُ بالارتباك، وضِيق النفَس. خفق قلبي بشدَّة. نسيتُ أين كنت، ومع من

Telegram: Somrlibrary

أتحدّث. وعلى الرَّغم من هذا، فقد شعرتُ بنموّ الاستحسان حولي، وسررتُ بالتعبير عن نفسي، وبدا لي أنَّني أبليتُ بلاءً حسنًا. وأكثر ما أعجبني أن لا أحد من تلك العائلة الطيِّبة سألني، كما كان يحدث غالبًا، من أين أنتِ آتية، وماذا يعمل والدي، وماذا تعمل والدتي. كنت أنا أمثِّل نفسي، أنا وحسب.

بقيتُ معهم نتناقش حتى العصر أيضًا. وفي المساء، تنزَّهنا معًا، قبل الذهاب إلى العشاء. عند كلّ خطوة، كان البروفسور آيروتا يصادف أُناسًا يعرفونه. وقد توقّف أستاذان في الجامعة، مع زوجتيهما، لإلقاء أطيب التحايا عليه.

Telegram: Somrlibrary

١٠٨

لكنَّني شعرتُ بما لا يُطاق، منذ اليوم التالي. فالوقت الذي أمضيتُه مع أهل بيترو أثبت لي، مرَّة بعد أخرى، أنّ الجهد الذي أبذله في الجامعة كان مجرّد وهم. لم تكن الجدارة كافية، بل ثمَّة أمر آخر ينقصني، ولا أستطيع إليه بلوغًا. يا لذاك العار الناجم عن تكديس الكلمات البهيّة، بلا ضابطٍ منطقيّ، وبلا سكينة، وبلا طرافة، كما كان قادرًا على فعله كلٌّ من بيترو وماريّا روزا وآديلي. كنت قد تعلّمت المبالغة في المنهجيّة التي تأخذه على عاتقها أيُّ باحثة تُخضع حتى الفواصل للاختبار؛ أجل، وكنت أثبت قدرتي على ذلك في الامتحانات، أو في تلك الأطروحة التي هممتُ بالعمل عليها. لكنّني، في الواقع، ما كنت سوى مغفَّلة مثقَّفة أكثر ممَّا ينبغي، ولم تكن في حوزتي العجلات اللازمة للمضيِّ قُدُمًا، بخطوات متَّزنة، كما كانوا يفعلون. البروفسور آيروتا كان بمثابة إلٰه خالدٍ، سلّم أولاده أسلحةً سحريّة قُبيل المعركة. ماريًا روزا كانت لا تُهزَم. وبيترو كان متكاملًا بين ثقافة هائلة وسلوك كيِّس. وأنا؟ لم أكن قادرة سوى على الجلوس معهم، أتألَّق بفضل بريقهم ليس إلَّا.

تخوّفتُ من فقدان بيترو. رحت أبحث عنه، وأتقرَّب إليه، وأُبدي

Telegram: Somrlibrary

له ودًّا فيّاضًا. انتظرتُ أن يصارحني بحبّه، لكن من دون جدوى. حتى إنَّني ذات مساء، بادرتُ إلى تقبيل وجنته، فلثم ثغري. أخيرًا. شرعنا نلتقي في أماكن منعزلة، كلّما أقبل المساء، بانتظار حلول الظلام. بدا لي أنَّني عدت إلى زمان أنطونيو، مع أنّ الفرق بينهما كان هائلًا. فحينذاك، كنت مولعة بالخروج مساءً مع ابن آيروتا، كي أستمدّ منه القوَّة. وبين حين وآخر، يخطر في ذهني أن أتَّصل بليلا من هاتف عموميّ؛ وددتُ أن أُخبرها عن محبوبي الجديد، وأنّ أطروحتينا ستُنشَران بشكل مؤكَّد تقريبًا، وستُنشَران على هيئة كتاب، كالكتب الحقيقيَّة تمامًا، بغلاف وعنوان واسم المؤلِّف. وددتُ أن أقول لها إنَّنا لا نستبعد أنَّ واحدًا منَّا، أنا أو هو، قد يدرِّس في الجامعة، فشقيقته ماريَّا روزا كانت تدرِّس، وهي في الرابعة والعشرين عمرها. وددت أن أقول لها أيضًا: أنت محقّة يا ليلا؛ التعليم الممتاز، في الصغر، يوفِّر علينا جهدًا في الكِبَر، ويصبح المرء كأنَّه وُلد متعلِّمًا. لكنَّني عدلتُ عن هذا. لماذا أتَّصل بها؟ كي أبقى صامتة أُنصت إلى مجريات حياتها؟ وإذا تركتْني أتكلَّم، فماذا سأقول لها؟ كنت أعلم تمامًا بأنّ مصيري مختلف كلِّيًّا عن مصير بييترو، ولاسيّما أنَّني كنت واثقة بخروجه الباكر من حياتي، مثل فرانكو، وأنّ هذا سيكون أفضل بالنتيجة، فأنا لا أحبّه. كنت أرافقه في الأزقّة المظلمة، والمروج، كي أبدِّد ما استطعتُ من الشعور بالخوف.

Telegram: Somrlibrary

١٠٩

قبل عيد الميلاد سنة ١٩٦٦ بقليل، نزلتْ بي حمًّى شنيعة. اتَّصلتُ بإحدى جاراتنا ـ كانَ الهاتف قد وصل أخيرًا إلى كثير من بيوت حيّنا القديم ـ وطلبتُ منها أن تُعْلِم أهلي بأنَّني لن أعود إلى ناپولي ذلك العيد. ثم غططتُ في أيّام طويلة من السعال وارتفاع حرارتي، وحيدة، بينما يخلو السكن الجامعيّ من الطلبة، ويغدو أكثر هدوءًا. لم أكن قادرة على تناول أيّ شيء، كنت أعاني حتى في أثناء شرب الماء. وذات صباح، كنت قد استسلمتُ لغفوة من شدَّة الإنهاك، سمعتُ أصواتًا عالية، بالعامِّيَّة الناپوليتانيَّة، كما حين تتشاجر النساء من نافذة لأخرى. وتناهت خطوات والدتي المميَّزة إلى أعماق رأسي السحيقة. لم تطرق الباب، فتحتْه بقوّة، ودخلتْ محمَّلة بالحقائب.

حَدَثٌ يفوق الخيال. فأمِّي، قلّما ابتعدت عن الحيّ، للذهاب إلى وسط المدينة كحدّ أقصى. لم تغادر ناپولي يومًا، على حدّ علمي. وعلى الرَّغم من هذا، استقلَّت القطار، وسافرتْ ليلًا، وجاءت لتملأ غرفتي بأطعمة عيد الميلاد التي حضّرتْها مسبقًا، خصِّيصًا لأجلي، وغمرتني بثرثرة مشاكسة بصوتها المرتفع، وأوامرها التي ستشفيني من دون شكّ، بسحر ساحر، كي أنطلق معها في المساء؛ كان عليها أن

Telegram: Somrlibrary

تعود، فهناك أبناؤها الآخرون، ووالدي، ينتظرونها.

لم تُنْهكني الحمّى بقدر ما فعل وجودها. خشيتُ أن تصل المديرة، لكثرة ما صاحت وبدّلت موقع الأغراض ورتّبتها بلا اكتراث. وفي لحظة ما، شعرتُ بأنَّني سيُغمى عليَّ. أغمضتُ عينيّ آملة ألَّا تتبعني إلى ذلك الظلام الكريه، الذي أحسستُ بأنَّني أنقاد إليه. لكنّ شيئًا لم يفلح في اعتراضها. وما لبثت تتحرَّك في الغرفة، مقدِّمةً خدماتها بانفعال، حتى أخذتْ تحدِّثني عن والدي وإخوتي والجيران والأصدقاء، وبالطبع عن كارمن وآدا وجيليولا... وليلا.

حاولتُ ألَّا أنصت إليها، لكنَّها كانت تباغتني بجُملٍ مثل: «هل عرفتِ ماذا فعلتْ؟ هل عرفتِ ماذا حدث؟» وتنكزني من فوق الأغطية، تارة على ذراعي وتارة على قدمي. اكتشفتُ أنَّني، في حالة الضعف التي تسبَّب بها المرض، أكثر حساسيَّة من المعتاد تجاه كلّ ما كنت لا أحتمله منها. وغضبتُ ـ وأفصحتُ لها عن غضبي ـ إزاء محاولاتها إثبات سوء المصير الذي مُنيتْ به صديقاتي، مقارنة مع حسن ما صرتُ أنا عليه. «كفى يا أمّاه» غمغمتُ. لكنْ عبثًا، ظلَّت تُعيد على مسامعي: «أمّا أنتِ...».

لكن أكثر ما جرحني كان إحساسي بأنّها تُخفي، تحت فخرها كأمّ، خشيتَها من تبدّل الأحوال بين عشيّةٍ وضحاها، فأخسر ما وصلتُ إليه، وتفقد هي مناسبة جديدة لتزهو بي، فقد كانت لا تثق كثيرًا باستقرار الحياة. وهذا ما جعلها تُطعمني بصعوبة، وتمسح عرقي، وتُجبرني على قياس حرارتي مرَّاتٍ لا تُحصى. هل كانت تخشى أن أموت، فأحرمها التمتُّع بوجودي كأنَّه غنيمة؟ هل كانت تخشى أن يستبدّ بي المرض حتى أستسلم وأتقهقر، فأعود إلى البيت بلا مجدٍ يكلِّلني؟ كلّمتْني على ليلا بهوَس مفرط. وظلَّت تُلحّ، حتى أدركتُ

Telegram: Somrlibrary

فجأة كم كانت تأخذها بعين الاعتبار منذ كانت صغيرة. هي أيضًا، والدتي أيضًا، كنت أفكّر. والدتي أيضًا كانت تعلم بأنّها أفضل منّي، وها هي الآن فوجئتْ بأنّني أسبقها بمراحل، تصدّق ولا تصدّق، وتخاف أن تفقد مكانتها كـ «أكثر الأمّهات حظًّا في الحيّ». لم أصدّق كم كانت متأهّبة، وكم كان الغرور يتطاير من عينيها! لاحظتُ الطاقة التي تتأجّج حولها، وفكّرتُ في أنّ خطوتها العرجاء تطلّبت منها مقاومة أشدّ من الاعتياديّة، حتى أمدّتها بضراوة ساعدتها على التحرُّك داخل العائلة وخارجها. وماذا عن والدي؟ رجلٌ ضعيف، أتقن الطاعة ومدّ اليد بلباقة، ليحصل على إكراميّة ضئيلة؛ وبالطبع، لم يكن ليستطيع أن يتخطّى كلّ الحواجز، ويدخل السكن الجامعيّ الصارم. أمّا هي ففعلتْها.

حين غادرت وعاد الهدوء، تنفّستُ الصعداء من جهة، وحزنتُ من جهة أخرى، لأنّي لم أستطع أن أشيّعها إلى محطّة القطار بسبب ارتفاع حرارتي. تصوّرتُها وحيدة، تسأل أيّ رجل تصادفه عن الاتّجاه الصحيح إلى محطّة القطار، تسير على قدميها، بساقها الذليلة، في مدينة لا تعرفها البتّة. لم تكن لتستقلّ الحافلة، كانت تحرص على القرش الواحد. لكنّها ستنجح في كلّ الأحوال: ستشتري البطاقة الصحيحة، وتستقلّ القطار الصحيح، وتسافر في الليل على مقعد غير مريح أو واقفة، حتى نابولي. ستصل إلى الحيّ، بعد مسافة طويلة تمشيها سيرًا، لتعاود الطهو والتنظيف. ستقطّع سمك الإنقليس ببراعة، وتحضّر سلطة القرنبيط، وحساء الدجاج، وحلوى الستروفولي، احتفاءً بالميلاد. تعمل بعصبيّة، وبلا هوادة، لكنّها، في مكان ما من رأسها، تواسي نفسها بالقول: «لينوتشا أفضل من جيليولا، ومن كارمن، ومن آدا، ومن لينا. أفضل من الجميع».

١١٠

تعقَّدت ظروف ليلا، أكثر فأكثر، بسبب جيليولا، كما أخبرتني والدتي. بدأ كلّ شيء في يوم أحد من شهر أبريل، حين دعت ابنةُ سبانيولو الحلوانيّ آدا إلى سينما الكنيسة. وفي المساء التالي، بعد إغلاق المحالّ، مرّت بها وقالت لها: «ماذا تفعلين وحيدة؟ تعالي إلى بيتنا لمشاهدة التلفاز، اصطحبي ميلينا أيضًا». وبين حديث وآخر، دعتها إلى الخروج في مشاوير مسائيَّة مع خطيبها ميكيلي سولارا أيضًا. وغالبًا ما كانوا يذهبون إلى مطعم الپيتزا، كخمسة أشخاص: جيليولا، شقيقها الصغير، ميكيلي، آدا، أنطونيو. كان مطعم الپيتزا في وسط المدينة، في حيّ سانتا لوتشيا. ميكيلي يقود السيَّارة، وجيليولا في كامل أناقتها وجمالها تجلس إلى جانبه، بينما يجلس أخوها ليلو، مع أنطونيو وآدا، في المقاعد الخلفيَّة.

لم يكن يحلو لأنطونيو أن يمضي أوقات فراغه مع ربّ عمله؛ في البدء، حاول أن يخبر آدا بأنَّه مشغول، لكنّ جيلولا نقلت إليه أنّ ميكيلي كان مستاءً من تكرار تغيُّبه، فإذا أنطونيو يطأطئ رأسه وينصاع للأوامر. وغالبًا ما كانت النقاشات تدور بين الفتاتين، بينما لا يتبادل ميكيلي وأنطونيو أيّ كلمة، بل غالبًا ما كان ابن سولارا يترك الطاولة،

Telegram: Somrlibrary

ويتّجه ليدردش مع مالك المطعم، الذي يشاركه في أعمال متعدِّدة. وكان شقيق جيليولا يتناول البيتزا، ويملّ من الجوِّ بلا اعتراض.

الموضوع المفضّل بين الفتاتين هو الحبّ العاصف بين آدا وستيفانو. كانتا تتكلَّمان على الهدايا التي منحها ويمنحها، لعشيقته؛ على الرحلة العجيبة إلى ستوكهولم في أغسطس من العام السابق (وكم من الأكاذيب اضطرّت آدا إلى اختلاقها على مسمع باسكوالي المسكين)؛ على معاملته الطيِّبة لها في الملحمة كأنَّها مالكة المحلّ وليست أجيرة فيه. كانت آدا تحمرّ خجلًا، وتتكلَّم، وتتكلَّم. وجيليولا تُصغي إليها، وتقول بين الفينة والأخرى أشياءً مثل:

«الكنيسة، إذا أرادت، في إمكانها إلغاء أيّ عقد زواج».

فتضيف آدا، متجهِّمة:

«أعلم، لكنّ هذا صعب».

«صعبٌ، لكنّه ليس مستحيلًا. يجب التوجُّه إلى المحكمة الكنسيّة في روما».

«وما هي هذه المحكمة؟»

«لا أعرف بالضبط، لكنّ المحكمة الكنسيَّة فوق الجميع».

«هل أنت متأكِّدة؟»

«قرأتُ عن ذلك».

سُرّت آدا كثيرًا بتلك الصداقة غير المتوقَّعة. كانت تعيش قصَّتها، حتى تلك اللحظة، بكتمانٍ مطبقٍ، بين مخاوف كثيرة وندم شديد. أمّا حينذاك، فاكتشفت أنّ الحديث عن قصَّتها يُشعرها بأفضل حال، ويشدّ من عزيمتها، ويمحو آثامها. لكنّ قسوة أخيها أفسدت عليها فرحتها بهناء النفْس، حتى إنَّهما في طريق العودة لم يكفّا عن الشجار. كاد

Telegram: Somrlibrary

أنطونيو يصفعها بيده. صرخ في وجهها:

«لماذا تقصّين شؤونك الخاصَّة على الجميع أيَّتها الحمقاء؟ ألا تشعرين بأنَّك تبدين كعاهرة وأنا كقوّاد؟»

ردّت عليه آدا بكلٍّ ما أوتيت من سخط:

«هل تعلم لماذا يأتي ميكيلي سولارا للعشاء معنا؟»

«لأنَّه ربّ عملي».

«أجل، وكيف لا؟»

«لماذا إذن؟»

«لأنَّني مرتبطة بستيفانو، وستيفانو رجلٌ مهمّ. أمّا لو انتظرتُك، لبقيتُ ابنة ميلينا كما كنت دومًا».

فقد أنطونيو أعصابه، وقال لها:

«أنت لست «مرتبطة» بستيفانو. أنت «جارية» ستيفانو».

انفجرت آدا باكية.

«هراء. ستيفانو لا يحبّ أحدًا غيري».

ذات مساء، وصل الاحتقان أبعد من ذلك بكثير. كانا في المنزل، وقد انتهيا للتوّ من العشاء. كانت آدا تغسل الأطباق، وأمّهما تدمدم أغنية قديمة وهي تكنس الأرض بانفعال مفرط. وفي لحظة ما، مرَّرت ميلينا المكنسة ـ عن طريق الصدفة ـ على قدمي ابنتها. يا للهول! كانت ثمَّة خرافة ـ لا أعلم إن ظلّوا يؤمنون بها إلى الآن ـ تقول إنّ المكنسة، إذا مرّت على قدمَي عزباء، فإنَّها لا تتزوَّج أبدًا. تراءى لآدا مصيرُها في وميض لحظة واحدة. انتفضت إلى الخلف، كما لو أنّ صرصارًا لمس جلدها، وطار الطبق من يدها إلى الأرض.

«لقد كنستِ قدميّ»، زمجرت في وجه أمّها حتى صعقتْها.

Telegram: Somrlibrary

«لم تفعلها عمدًا»، قال أنطونيو.

«بل فعلتها عمدًا. أنتم لا تريدون أن أتزوَّج، يناسبكم أنَّني أكدح طوال اليوم لأجلكم، تريدون أن تُبقوني هنا إلى الأبد».

حاولت ميلينا أن تعانق ابنتها، نافية مزاعمها، لكنّ آدا دفعتها بطريقة سيِّئة، حتى تراجعت المرأة إلى الخلف، وهوت على كرسيّ، فوقعتْ أرضًا بين شظايا الطبق المكسور.

هرع أنطونيو ليساعد أمَّه، فإذا ميلينا تصرخ من الخوف، خافت من ابنها، وابنتها، ومن كلّ الأشياء حولها. فأخذت آدا تردّ عليها بصياح أقوى دويًّا، وتقول:

«لكنّكم سترون أنَّني سأتزوَّج، وفي القريب. إن لم تتنحَّ لينا من تلقاء نفسها، فلسوف أزيحنّها عن طريقي، ولأمحونَّها عن وجه الأرض».

خرج أنطونيو بعد أن صفق الباب وراءه. وفي الأيَّام اللاحقة، وقد اشتدّ به اليأس أكثر من المعتاد، حاول أن ينتشل نفسه من هذه الكارثة التي تدمِّر حياته، وحرص على أن يبقى أصمّ وأبكم. تجنَّب المرور قبالة الملحمة القديمة، وراح يشيح بنظره إذا التقى صدفة ستيفانو كارّاتشي، تفاديًا للرغبة في العراك معه. كان يشعر بصداع في رأسه، ولم يعد يميِّز بين الخطأ والصواب. هل أصاب في عدم تسليم ليلا إلى ميكيلي؟ هل أصاب حين طلب من إنتسو أن يُعيدها إلى بيتها؟ وإن لم تعُد ليلا إلى زوجها، فهل كان وضع شقيقته سيتغيَّر؟ كان يتأمَّل: يحدث كلّ شيء عن طريق الصدفة، بغضّ النظر عن الخير والشرّ. يزدحم دماغه بألف سؤال وسؤال، فيُصاب بالتوتّر، وما إن تتسنَّى له الفرصة حتى يتشاجر مجدَّدًا مع أخته، كأنَّه في هذا يخلّص نفسه من كوابيسه. كان يصرخ قائلًا: «إنَّه رجل متزوِّج، أيّتها اللعينة.

Telegram: Somrlibrary

لديه طفل صغير. أنتِ أسوأ من أمّنا، ليس لديك أيّ حسّ بالأمور».
فتهرع آدا إلى جيليولا، وتبوح لها: «أخي مجنون. أخي يريد أن يقتلني».

ناداه ميكيلي ذات مساء، وأوفده في عملٍ طويل إلى ألمانيا. لم يناقش، بل انصاع للأوامر بكلّ سرور، وانطلق من دون أن يودِّع أخته ولا أمّه. كان متيقِّنًا بأنَّه، إذا دخل بلادًا غريبة، يتكلَّم أهلوها كالنازيين في سينما الكنيسة، فسيلقى مصرعه طعنًا بالسكِّين، أو رشقًا بالرصاص، وهذا أقصى ما يتمنّاه. فإنّ ميْتة شنيعة كهذه أخفّ وطأة على نفسه من أن يشهد معاناة أمِّه وأخته كلّ يوم، من دون أن يقوى على وضع حدٍّ لها.

الشخص الوحيد الذي أراد أن يلقاه، قبل أن يركب القطار، هو إنتسو. وجده مشغولًا بأمور عديدة: في تلك الآونة، كان إنتسو يحاول أن يبيع كلّ شيء، الحمار والعربة ومحلّ والدته الصغير، والبستان خلف المحطَّة. كان ينوي أن يُعطي عمّته العانس جزءًا من ذلك المردود، لعلّها تعتني بإخوته.

«وماذا عنك؟» سأله أنطونيو.

«إنِّي أبحث عن عمل».

«هل تريد أن تغيِّر حياتك؟»

«أجل».

«تُحْسن صنعًا».

«إنَّني مضطرٌ».

«أمّا أنا، فسأبقى على ما كنت عليه».

«هراء».

Telegram: Somrlibrary

«هراء، لكن لا بأس. الآن، عليّ أن أنطلق ولا أعلم متى أعود. هلّا اطمأنَنْت، بين حينٍ وآخر، على أمّي وأختي وإخوتي الصغار، من فضلك؟»

«إن بقيتُ في الحيّ، فلا عليك».

«لقد أخطأنا يا إنتسو. لم يكن ينبغي لنا أن نُعيد لينا إلى بيتها».

«ربّما».

«الفوضى تعمّ كلّ شيء، ولا يمكننا التكهّن بأفضل الاحتمالات».

«صحيح».

«وداعًا».

«وداعًا».

كان الوداع فاترًا، حتى إنّهما لم يتصافحا. وصل أنطونيو إلى ساحة غاريبالدي، واستقلّ القطار. كانت رحلته طويلة وشاقّة جدًّا، استغرقت ليله ونهاره، ناهيك بالأصوات الغاضبة التي تعربد في شرايينه. شعر بالإرهاق بعد ساعات من الانطلاق. تنمّلتْ قدماه، لأنّه لم يسافر منذ عودته من الخدمة العسكريّة. كان ينزل عند كلّ محطّة ليشرب الماء من النافورة، متخوّفًا من أن ينطلق القطار ثانية من دونه. وفي ما بعد، أخبرني بأنّ الخيبة نالت منه، في محطّة فلورنس، حتى قرّر: سأتوقّف هنا، وسأذهب إلى لينوتشا.

Telegram: Somrlibrary

١١١

توثَّقت الصلة بين آدا وجيليولا بعد مغادرة أنطونيو. نصحتها جيليولا بتنفيذ ما كان يجول في ذهنها منذ زمن، أي أنّ الانتظار لن يُجدي نفعًا، ولا بدّ لحالة ستيفانو الزوجيَّة من أن تتزعزع. «على لينا أن تخرج من ذلك البيت» قالت لها، «وعليك أن تدخليهِ أنتِ. إن أطلتِ انتظارًا، تلاشى ألقكِ وخسرتِ كلّ شيء، بما فيه عملكِ في الملحمة، لأنَّها ستستعيد نفوذها وتُرغم ستيفانو على طردكِ». وصل الأمر بجيليولا إلى حدِّ القول إنَّها تتحدَّث عن سابق تجربة، فهي تعيش الأزمة نفسها مع ميكيلي. «إن انتظرتُه كي يقرِّر الزواج بي» همستْ لها، «فقد أشيخ قبل ذلك؛ لذا ألحّ عليه حتى تتعزَّز شكوكه: إمّا تزوّجنا خلال ربيع سنة ١٩٦٨، وإمّا أتركه يذهب إلى الجحيم».

وهكذا، راحت آدا تضيِّق على ستيفانو في شباك رغبةٍ آسرة وبريئة، تجعله يحسب نفسه بأنَّه رجلٌ مميَّز، بينما تغمغم بين القبلة والأخرى: «عليك أن تقرِّر يا عزيزي ستيفانو؛ إمّا معي وإمّا معها. أنا لا أقول إنَّه يجب أن ترميها على قارعة الطريق، هي وابنها، فهو يبقى ابنك وله حقوقٌ عندك؛ لكنْ في وسعك أن تفعل كما يفعل الكثير من الممثِّلين والشخصيَّات الرفيعة في هذه الأيَّام: تعطيها شيئًا من المال،

Telegram: Somrlibrary

وكفى. الجميع في الحيّ بات يعلم بأنّني زوجتك الحقيقيَّة، لذا أريد البقاء معك دومًا، دومًا، دومًا».

كان ستيفانو يجيب بنعم، ويعانقها في حميميَّة مؤثرة على ذلك السرير الصغير والمزعج في الشقَّة في ريتيفيلو، لكنّه بعد ذلك لا يفعل كلّ ما طُلب منه، سوى العودة إلى البيت عند ليلا، والصراخ، لأنَّه لم يجد جاربيه تارة، ولأنَّه رآها تتكلَّم مع باسكوالي أو أحدهم تارة أخرى.

فإذا خيبة الأمل تنهش من عزيمة آدا. ذات صباحٍ من يوم أحد، التقتها كارمن، وكلّمتها بنبرة اتِّهاميَّة عن تدهور ظروفهما في العمل في الملحمتين. ومن كلمة إلى أخرى، راحتا تلعنان ليلا، التي تعتبرانها، لأسباب مختلفة، مصدر تعاستيهما معًا. وفي النهاية، لم تصمد آدا، وأخذت تتحدَّث عن حالتها العاطفيَّة، متناسية أنّ كارمن شقيقة خطيبها السابق. أصغت كارمن بسرور، وهي التي كانت تتوق إلى الدخول في شبكة النميمة، وقاطعتها لتؤجِّج النيران فقط، وحاولت بنصائحها أن تؤذي آدا، قدر الإمكان، لأنَّها خانت باسكوالي، وأن تؤذي ليلا التي خانتها. لكنْ عليّ أن أقول إنّها، بصرف النظر عن الحقد المبيّت، كانت تستمتع بتدخّلها في شؤون شخص آخر، صديقة الطفولة التي وجدت نفسها تؤدّي دور عشيقة رجل متزوِّج، دفعة واحدة. وعلى الرَّغم من أنَّنا، نحن الفتيات في الحيّ، كنَّا نتمنَّى في صغرنا أن نصبح زوجات؛ فإنَّنا حين كبرنا، رحنا نصطفّ إلى جانب العشيقات، إذ يبدينَ لنا شخصيَّاتٍ أكثر حرِّيَّة ورباطة جأش؛ أكثر حداثة على وجه الخصوص. ومن جهة أخرى، كنَّا نتمنَّى أن يقضّ المرض العضال مضجع الزوجة حتى تلقى حتفها (لأنَّها امرأة خبيثة، أو غير وفيّة، بشكل عام)، فيتسنّى للعشيقة أن تكفّ عن أداء دورها كعشيقة، لتكلّل

Telegram: Somrlibrary

أحلامها الغراميَّة بالنجاح، وذلك بأن تغدو مجرَّد زوجة. في المحصِّلة، كنَّا ننحاز إلى جانب الخروقات، لا لشيء سوى لترسيخ قيمة القاعدة. وبالتالي، أُعجبتْ كارمن بقصَّة آدا بولَعٍ جيّاش، على الرَّغم من كلّ نصائحها المزيَّفة؛ وشرعتْ تنتابها أحاسيس صادقة، حتى قالت لها ذات يوم بكلِّ نزاهة: «لا يمكنك أن تستمرّي هكذا، عليك أن تطردي تلك اللعينة، وأن تتزوَّجي بستيفانو، وأن تنجبي له أولادك. اسألي الأَخَوَين سولارا، لعلّهما يعرفان أحدًا في المحكمة الكنسيّة».

وسرعان ما دعمت نصائحُ كارمن نصائحَ جيليولا في ذهن آدا؛ وذات مساء، في مطعم البيتزا، اتَّجهت مباشرة إلى ميكيلي:

«هل في إمكانك الوصول إلى المحكمة الكنسيّة؟»

فأجابها مستهزئًا:

«لا أعلم. في إمكاني أن أسأل، ففي كلّ مكان لديّ صديق. لكنْ عليكِ الآن أن تأخذي كامل حقوقكِ، هذا هو الأمر الطارئ. لا تخشي شيئًا؛ إن أراد بكِ أحدٌ شرًّا، أرسليه إليّ».

كانت كلمات ميكيلي في غاية الأهمِّيَّة، شعرتْ آدا بأنَّها مدعومة أكثر من أيِّ وقت مضى. لم تشعر بتأييد كهذا طوال حياتها. إلَّا أنّ إلحاح جيليولا، ونصائح كارمن، والوعد بالحماية غير المتوقَّعة من جانب سلطة ذكوريّة لها وزنها، وعلى الرَّغم من امتعاضها من ستيفانو الذي لم يفِ بعهده باصطحابها إلى رحلة خارج البلاد خلال أغسطس، كما فعل في العام الماضي، واقتصر على مرافقتها إلى سي غاردن بضع مرّات؛ كلّ تلك العوامل لم تكن كافية لدفع آدا إلى الهجوم. كان لا بدّ من حدثٍ حقيقيّ وملموس وطارئ: اكتشفتْ أنَّها حامل.

غمر نبأ الحمل قلبها بسعادة بالغة، لكنَّها كتمت النبأ في قلبها،

ولم تتكلَّم بشأنه حتى مع ستيفانو. وذات عصر أحد الأيَّام، نزعت مئزرها، وتركت الملحمة كما لو أنَّها تريد التقاط الأنفاس، لكنّها ذهبت إلى بيت ليلا.

«هل حدث شيء ما؟» سألتها السيِّدة كارّاتشي باضطراب، وهي تفتح لها الباب.

أجابتها آدا:

«لم يحدث أكثر ممَّا تعرفينه مسبقًا».

دخلت وأطلعتها على كلّ شيء، بحضور الطفل. بدأت كلامها بهدوء. تحدَّثت عن الممثِّلين، وسائقي الدرَّاجات أيضًا، وعرّفت نفسها بأنَّها كالنبيلة البيضاء، لكنّها أكثر حداثة طبعًا، وأشارت إلى المحكمة الكنسيّة، إثباتًا بأنّ الربّ والكنيسة يُلغيان الزواج في حالاتٍ معيَّنةٍ تشهد عشقًا كبيرًا. وبما أنّ ليلا أنصتت من دون أن تقاطعها، الأمر الذي لم تتوقَّعه آدا ـ بل كانت تأمل أن تسمع منها ولو كلمة واحدة تبرِّر لها سفك دمائها من شدّة اللكمات ـ تنامى غضبها. راحت تطوف في الشقَّة، أوَّلًا لتثبت أنّها دخلت هذا البيت مرارًا وتعرفه كراحة يدها، وثانيًا لتوبّخها: «ما هذا القرف، الأطباق المتَّسخة، الغبار، الجوارب والسراويل لا تزال على الأرض، لن يستطيع ستيفانو المسكين أن يعيش بهذا الشكل». وفي النهاية، أصابها توتّرٌ لا يمكن إخفاؤه، فراحت تجمع الثياب المتَّسخة عن أرض غرفة النوم، وهي تصيح: «منذ الغد، سآتي لترتيب البيت بنفسي. لا تعرفين حتى ترتيب السرير، انظري إلى هذا، ستيفانو لا يحتمل رؤية الأغطية مبعثرة هكذا، أخبرني بأنَّه شرح لك ألف مرَّة، لكن عبثًا». ثم توقَّفت فجأة، مرتبكة، وقالت بصوت خافِتٍ:

«عليك أن تغادري هذا البيت يا لينا، وإلَّا ذبحتُ طفلك».

فأجابتها ليلا من طرف لسانها:

«إنَّك تتصرّفين مثل أمّك يا آدا».

هذا ما قالته فقط. أتخيّل صوتها الآن: لم تكن قادرة يومًا على الكلام بنبرة عاطفيَّة، لا بدّ من أنَّها تكلَّمت كالعادة بنبرتها الشريرّة الجامدة، أو بحياديَّة مستفزّة؛ على الرَّغم من أنّها حدّثتني ـ بعد أعوام طويلة ـ بأنَّها، بمجرّد رؤيتها آدا وهي تجول في البيت في تلك الحال، تذكَّرت صياح ميلينا، العشيقة المهجورة، حين رحلت عائلة سارّاتوري عن الحيّ، وتراءى لها مجدَّدًا كيف كان نينو سيفقد حياته بحديد المكواة التي طارت من النافذة. لهيب المعاناة، الذي حرّك مشاعرها في الزمان الماضي، ها هو يثب مجدَّدًا على آدا؛ سوى أنّ النار لم تضرمها زوجة سارّاتوري هذه المرَّة، بل ليلا بنفسها. يا لقبح تلك اللعبة، لعبة انعكاس المرايا، التي غفلنا عنها، نحن الفتيات، في تلك الحقبة. لكنّ الأمر لا يفوت ليلا، وعليه، فمن الوارد أنّ المرارة والشفقة طغتا عليها، بدلًا من أن تزلزلها البغضاء، وبدلًا من أن تلجأ إلى حزمها المعهود في إيذاء الآخرين. لكنّها بالتأكيد حاولت أن تمسك يدها، وتقول لها:

«اجلسي، سأحضِّر لك فنجان بابونج».

غير أنّ آدا اعتبرت كلمات ليلا، من أوّلها إلى آخرها، وتلك الحركة خصوصًا، إهانةً كبيرة. جفلتْ إلى الخلف، برمتْ عينيها بشكل مريب حتى ظهر البياض، وما إن عاد البؤبؤ إلى محلّه، صرختْ:

«هل تقصدين أنّني مجنونة؟ مجنونة مثل والدتي؟ عليك أن تُحسني صنعًا بالاحتراس منِّي يا لينا. لا تلمسيني، ابتعدي عن طريقي، وحضّري البابونج لأجلك. فأنا سأنظِّف هذا البيت من قرفك».

كنست الأرض ونظّفتها، رتّبت السرير، ولم تنبس ببنت شفة طوال الوقت.

Telegram: Somrlibrary

كانت ليلا تتابعها بنظرات متوجِّسة، خشية أن تتكسّر كجسدٍ مصنّعٍ يعملٍ بسرعة مفرطة. ثم حملت ابنها وخرجت، تنزّهت طويلًا في الحيّ الجديد، وهي تتكلّم مع رينوتشو، وتشير له إلى الأشياء، وتسمّيها، وتبتكر له القصص. لكنّها فعلتْ ذلك لتنال من اللوعة التي تحرّكت في فؤادها، لا لتسلية الطفل. لم تعد إلى البيت إلّا حين رأت آدا، من بعيد، تخرج من البناية، وتركض مسرعة كما لو أنّها متأخِّرة.

Telegram: Somrlibrary

١١٢

عندما عادت آدا إلى العمل، منهكة ومنفعلة جدًّا، سألها ستيفانو متجهِّمًا، من دون أن يتخلَّى عن هدوء نبرته: «أين كنتِ؟» فأجابته، بحضور زبونات ينتظرن دورهنّ: «كنت أرتِّب بيتك، كان مقرفًا للغاية». وأضافت، متوجِّهة إلى الجمهور المتلهِّف خلف المصطبة: «على الدرج، كان ثمَّة غبار في وسعنا الكتابة عليه».

لم يقل ستيفانو شيئًا، مخيّبًا بذلك أمل الزبائن. وحين فرغ المحلّ، واقتربت ساعة الإغلاق، نظَّفت آدا المكان وكنسته، وهي ترمق حبيبها بطرف عينها. لا شيء. كان يقوم بالحسابات خلف الصندوق، ويدخِّن سجائر أميركيَّة مكثَّفة الرائحة. وما إن رمى العقب الأخير، حتى أمسك بالعصا التي تُنزل الستار المعدنيّ، وأخفض الستار من الداخل.

«ماذا تفعل؟» سألته آدا متوجِّسة.

«سنخرج من باب الفناء».

ثم صفع وجهها أكثر من مرَّة، براحة يده ثم بظاهرها، حتى استندت إلى المصطبة كي لا يُغمى عليها. «كيف تسوِّل لك نفسك الذهاب إلى بيتي؟» قال لها بصوت متهدِّج لأنَّه لم يشأ الصياح. «كيف

Telegram: Somrlibrary

تسوِّل لك نفسك إزعاج زوجتي وابني؟». انتبه لخفقان قلبه، وحاول أن يهدأ. كان يضربها للمرَّة الأولى. غمغم بصوت مرتجف: «إيَّاك أن تفعليها ثانية»، وخرج ليتركها تنزف دمًا في المحلِّ.

لم تأت آدا إلى العمل في اليوم التالي. ذهبت إلى بيت ليلا، على الرَّغم من سوء حالتها الصحِّيَّة، وحين رأت ليلا الرضوض على وجه آدا، أدخلتها على الفور.

«حضِّري لي فنجان البابونج»، قالت ابنة ميلينا.

فحضَّرتْ آدا البابونج.

«كم هو وسيمٌ طفلك»!

«أجل».

«نسخة عن ستيفانو».

«لا».

«له عيناه وفمه، تمامًا».

«لا».

«إن أردت أن تقرئي كتبك فافعلي؛ سأهتمّ أنا بشؤون البيت ورينوتشو».

حدَّقت ليلا إليها، ببهجة هذه المرَّة، ثم قالت لها:

«افعلي ما يطيب لك، لكنْ لا تقتربي من الطفل».

اندفعت آدا إلى العمل: رتَّبت، وغسلت الثياب، ونشرتها تحت الشمس، وطبخت للغداء، وحضَّرت العشاء. توقَّفت في لحظة ما، مسحورة من طريقة ليلا بملاعبة رينوتشو.

«كم عمره؟»

«سنتان وأربعة أشهر».

Telegram: Somrlibrary

«لا يزال صغيرًا، إنَّك تتعبينه كثيرًا».

«أبدًا. يفعل ما يقدر عليه».

«أنا حامل».

«ماذا تقولين؟»

«الحقيقة».

«من ستيفانو؟»

«بالتأكيد».

«وهل يعلم بالأمر؟»

«لا».

أدركت ليلا أنّ زواجها كان في نهاياته حقًّا، لكنّها ـ كما يحدث لها غالبًا في لحظة التغيير الوشيك ـ لم تشعر بالأسف، ولا بالندم، ولا حتى بالتوتُّر. حين عاد ستيفانو، وجد زوجته تقرأ في صالة الجلوس، وآدا تلاعب الطفل في المطبخ، والشقَّة تشذو برائحة زكيّة، وتلمع كأنَّها حجر كريم عملاق. فهم أنّ العنف لم يؤت أكله، شحب وجهه، وضاقت أنفاسه.

«اخرجي من هنا»، قال لآدا بصوت منخفض.

«لا».

«وما الذي تنوين فعله إذن؟»

«أن أبقى هنا».

«هل تريدين أن يصيبني الجنون؟»

«أجل، فهكذا نصبح مجنونين».

أغلقت ليلا الكتاب، حملت الطفل من دون أن تدلي بشيء، وانكفأت في الغرفة التي كنت أدرس فيها، منذ زمن مضى، حيث كان

رينوتشو ينام. همس ستيفانو لعشيقته:

«أنت تقضين عليّ بتصرُّفاتك هذه. ليس صحيحًا أنَّك تريدين بي خيرًا يا آدا. أنت تريدين أن أخسر كلّ زبائني، تريدين أن أعلن إفلاسي، مع أنَّك تعلمين بسوء الأوضاع حاليًّا. أرجوك، قولي لي ماذا تريدين كي أعطيك إيَّاه».

«أريد أن أبقى معك إلى الأبد».

«أجل، لكن ليس هنا».

«بل هنا».

«هنا بيتي، وفيه لينا، وفيه رينوتشو».

«ومن هذه اللحظة أنا فيه أيضًا. إنَّني حامل».

انهار ستيفانو جالسًا في الكرسيّ من وقع الخبر. ظلّ صامتًا يحدِّق إلى بطن آدا، الواقفة قبالته على قدميها، كأنَّما أراد لنظرته أن تعبر ثيابها، وسروالها، وجلدها؛ كأنَّما رأى الطفل في كامل هيئته، كائنًا حيًّا مستعدًّا للوثوب إليه. ثم طرق أحدهم الباب.

كان أحد الندّل في مقهى سولارا؛ فتًى في السادسة عشرة من عمره، تمَّ تعيينه مؤخَّرًا. قال لستيفانو إنّ مارتشيلّو وميكيلي يستدعيانه على جناح السرعة. تخبّط ستيفانو، واعتبر ذلك الطلب في تلك اللحظة بمثابة طوق نجاة، في خضمّ تلك الزوبعة التي تعصف في بيته. قال لآدا: «لا تتحرَّكي من هنا». ابتسمت له وأومأت بنعم. خرج، وأسرع بالسيَّارة إلى الأَخوَين سولارا. أيّ فوضى هذه التي أقحمتُ نفسي في متاهاتها، فكَّر. ماذا عليّ أن أفعل؟ لو كان والدي حيًّا لكسر ساقَيّ بالعصا الحديديَّة. النساء، الديون، دفتر السيِّدة سولارا الأحمر. شيء ما لا يسير على ما يرام. لينا، لينا هي التي دمّرت حياته. ما الذي يريده منِّي هذان الحقيران، في هذه الساعة، اضطراريًّا؟

Telegram: Somrlibrary

اكتشف أنَّهما يطمعان بالملحمة القديمة. لم يصرِّحا بذلك، بل تركاه يفهم الرسالة. اكتفى مارتشيلُّو بالحديث عن دَينٍ آخرَ كانا مستعدّين لإقراضه إيَّاه. لكن ـ قال ـ ستنتقل أحذية شيرولُّو إلينا بشكل كلِّيّ، لنضع حدًّا لحماقة صهرك المعتوه، إنَّه لا يقدِّم أيّ ضمان؛ قد نضطرّ إلى كفالة، إلى مشروع، إلى عقار، فكّر أنت في الأمر جيِّدًا. قال ما عنده ومضى، متذرِّعًا بانشغالٍ ما. فوجد ستيفانو نفسه وجهًا لوجه مع ميكيلي. تناقشا طويلًا لعلّه ينقذ ذلك المصنع الصغير، الذي يديره رينو وفرناندو، وإن كان ممكنًا الاستغناء عمّا أسماه مارتشيلُّو بالكفالة. لكنّ ميكيلي هزّ رأسه، وقال:

«الكفالة ضروريَّة، فالفضائح لا تنفع الأعمال».

«لا أفهمك».

«أمّا أنا، فأفهم نفسي جيِّدًا. من تحبّ أكثر: لينا أم آدا؟»

«ليس شأنك».

«لا يا عزيزي، حينما تتعلّق المسألة بالمال، فشؤونك تغدو شؤوني».

«وماذا حسبي أقول يا ميكيلي. نحن رجلان، وأنت تعلم كيف تسير الأمور. لينا زوجتي، وآدا شيء آخر».

«أنت تحبّ آدا أكثر؟»

«أجل».

«تدبّر أمورك إذن، ونفكِّر بعد ذلك».

مرَّت أيَّام عصيبة، سوداء، قبل أن يهتدي ستيفانو إلى سبيل للخروج من تلك المعضلة. مشاجرات مع آدا، مشاجرات مع ليلا، تدهور الأعمال، الملحمة القديمة مغلقة غالبًا، والحيّ الذي يشاهد

Telegram: Somrlibrary

ويسجّل كلّ شيء، وما زال يتذكّر. أيّام الخطوبة الرائعة. السيّارة المكشوفة. الثنائيّ المتميِّز، مثل سورايا وشاه إيران؛ مثل جون وجاكلين كينيدي. رضخ ستيفانو في النهاية، وقال لليلا:

«وجدتُ لك مكانًا في منتهى الروعة، يناسبك ويناسب رينوتشو».

«يا لسخائك».

«سآتي يومين في الأسبوع كي أزور الطفل».

«بالنسبة إليّ، حبّذا ألّا تأتي لزيارته، فهو ليس ابنك».

«يا لكِ من خبيثة. هل تريدين أن أهشِّم وجهك؟»

«هشِّمْ وجهي وقتما تشاء، فقد اعتدتُ على ذلك. لكنْ عليك أن تفكِّر في ابنك، وأنا أفكِّر في ابني».

تأفَّف وغضب، وكاد يضربها حقًّا. ثم قال لها:

«المكان في ضاحية فوميرو».

«أين تحديدًا؟»

«سآخذك إليه غدًا كي تلقي نظرة. يقع في ساحة الفنَّانين».

تذكّرت ليلا في لحظة عرض ميكيلي سولارا الذي تقدّم به منذ مدّة: («لقد اشتريتُ بيتًا في ضاحية فوميرو، في ساحة الفنَّانين. أصحبك إلى البيت الآن، إن شئت، كي تلقي نظرة. لقد اشتريتُه وأنا أفكِّر فيكِ. هناك، في إمكانك فعل ما يحلو لك: تقرئين، تكتبين، تخترعين، تنامين، تضحكين، تتكلَّمين، وتبقين مع رينوتشو. لا يهمّني شيء سوى أن أنظر إليك وأنصت إلى كلامك»). هزّت رأسها، غير مصدِّقة، وقالت لزوجها:

«يا لك من رجلٍ خرائيّ حقًّا».

Telegram: Somrlibrary

١١٣

والآن، ليلا حبيسة في غرفة رينوتشو، تفكِّر في مَخرج من هذه الورطة. لن تعود إلى بيت أبيها وأمّها أبدًا؛ فمشكلات حياتها تخصّها هي وحدها، ولم تعد تريد أن تصبح ابنة من جديد. لا يمكنها الاعتماد على أخيها: رينو فاقدٌ رشده، سينتقم من ستيفانو بصبِّ جام غضبه على بينوتشا، وقد بدأ مشاحناته مع حماته ماريّا، لأنَّه محبطٌ، وديونه متراكمة، وليس في جيبه قرش واحد. في إمكانها التعويل على إنتسو فقط: لطالما وثقتْ به، ولا تزال، مع أنَّه لم يأت للاطمئنان عليها مطلقًا، بل يبدو أنّه اختفى من الحيّ. إنَّها تقلِّب الأمر في رأسها: لقد وعدني بأن ينتشلني من هنا. لكنّها تتمنّى أحيانًا ألَّا يصون وعده، تخشى أن تتسبَّب له بالمتاعب. لا تقلق بشأن نزاع محتمل مع ستيفانو، زوجها التي لم تعد تريده، ثم إنَّه جبان على الرَّغم من تلك القوَّة الحيوانيَّة الضارية التي يمتلكها. إنَّما تخشى من ميكيلي سولارا. ليس اليوم، ولا في الغد، بل حين لا أفكِّر فيه إطلاقًا، قد يظهر أمامي من العدم، وإن لم أستسلم فسأدفع الثمن غاليًا، وسيدفع الثمن كلّ من وقف إلى جانبي. لذا من الأفضل أن أرحل من دون أن أُقحم أحدًا في الموضوع. عليّ أن أبحث عن عمل، مهما تكن طبيعته، بحيث

Telegram: Somrlibrary

أتقاضى ما يساعدني على سدّ جوع الطفل وإيوائه تحت سقف ما.

وحده التفكير في الطفل أنهك قواها. ما الذي تناهى إلى رأس رينوتشو من مشاهد وكلمات؟ إنَّها قلقة بشأن تلك الأصوات التي لم تستطع أن تصدّها عنه. ومن يدري إن سمع صوتي، عندما كنت أحمله في بطني. ومن يدري كيف نُقش في جهازه العصبيّ. ومن يدري إن شعر بالمودّة، إن شعر بالكراهية، أو إن انتبه لتوتُّري. كيف يمكننا صون الطفل، وتغذيته، وغمره بالمودّة، وتعليمه الأشياء. وتصفية كلّ المشاعر التي قد تؤثِّر فيه إلى الأبد؟ لقد فقدتُ والده الحقيقيّ، الذي لا يعلم عنه أيّ شيء، ولن يحبّه أبدًا. أمّا ستيفانو، الذي شعر بالألفة تجاهه على الرَّغم من أنَّه ليس والده الحقيقيّ، فقد باعنا حبًّا بامرأةٍ أخرى وابنٍ من نسله حقًّا. ما الذي سيحدث لهذا الطفل؟ رينوتشو بات يعلم بأنَّه لا يفقدني إذا رحت إلى غرفة أخرى، فأنا برأيه لا أزال موجودة. يتمرَّن بالأغراض وأطياف الأغراض، يتمرَّن بالداخل والخارج. يستطيع تناول الطعام بمفرده، بالشوكة والملعقة، يتلاعب في الأشياء، يشكّلها، ثم يحوّلها. انتقل من الكلمة إلى الجملة. بإيطاليَّة فصحى. لم يعد يقول: هو، بل: أنا. يعرف أحرف الأبجديّة. يستطيع تشكيل اسمه منها. يحبّ الألوان. يتمتَّع بالمرح. لكنْ ما الذي سينتج من كلّ ما رآه من عنف غاضب؟ لقد رآني وأنا أتلقّى الإهانات واللكمات. رآني وأنا أكسر الأغراض وأتفوّه بالإساءات. بالعامّيّة. لم أعد أحتمل البقاء هنا.

Telegram: Somrlibrary

١١٤

كانت ليلا تخرج خلسة من غرفتها، حين تتأكَّد من عدم وجود ستيفانو، أو آدا. تحضِّر طعام رينوتشو، وتتناول شيئًا ما. كانت تعلم بأنّ سكّان الحيّ يتحدّثون عنها، وأنّهم يحوكون الشائعات ويلوكونها.

ذات مساء من نوفمبر، رنّ الهاتف.

«سآتي بعد عشر دقائق».

عرفتْ صوته، وأجابته بلا أيِّ دهشة:

«حسنًا» ثم أردفت: «لكن، يا إنتسو...»

«ماذا؟»

«لستَ مضطرًّا».

«أعلم».

«الأَخَوان سولارا سيتدخَّلان».

«لا يعنيني أمرهما».

وصل بعد عشر دقائق بالضبط. صعد، كانت قد وضّبت أغراضها وأغراض ابنها في حقيبتين، وتركتْ كلَّ جواهرها في الدرج في غرفة النوم، بما فيها خاتم الخطوبة وخاتم الزواج.

«هذه المرَّة الثانية التي أهجر فيها البيت» قالت له، «لكنَّني لن

Telegram: Somrlibrary

أعود هذه المرّة».

نظر إنتسو حوله، لم يكن يدخل تلك الشقَّة أبدًا. أمسكتْ بذراعه:

«قد يصل ستيفانو في أيِّ لحظة، إنَّه يداهمني غالبًا».

«وأين المشكلة؟» أجابها.

راح يلمس أغراضًا بدت له ثمينة: مزهريّة، منفضة، حليًّا من الفضَّة البرّاقة. تصفّح دفترًا صغيرًا، كانت ليلا تسجِّل فيه ما يلزم شراؤه للطفل والبيت؛ ثم رماها بنظرة استقصائيَّة، وسألها إن كانت واثقة بخيارها. قال إنَّه وجد عملًا في مصنع في سان جوفاني آتيدوتشو، حيث اتّخذ بيتًا مكوَّنًا من ثلاث غرف ومطبخ مظلم نوعًا ما. «لكن، كلّ ما أعطاك إيَّاه ستيفانو» أضاف، «لن تحصلي عليه ثانية؛ ليس في إمكاني أن أوفّره لك». ثم طلب منها توضيحًا:

«لعلّك خائفة، لأنَّك لست مقتنعة تمامًا».

«إنَّني مقتنعة» قالت وهي تحمل رينوتشو بين ذراعيها، بطريقةٍ توحي بنفاد صبرها، «ولست خائفة من أيِّ شيء. فلنذهب».

توقّف إنتسو مرّة أخرى. انتزع صفحة من دفتر الحاجيّات الصغير، وكتب عليها شيئًا ما. ثم ترك الورقة على الطاولة.

«ماذا كتبت؟»

«العنوان في سان جوفاني».

«لماذا؟»

«نحن لا نلعب الغمّيضة».

حمل الحقائب أخيرًا، وراح ينزل السلالم. أوصدت ليلا باب البيت، وتركت المفتاح في القفل.

Telegram: Somrlibrary

١١٥

لم أكن أعلم شيئًا بخصوص سان جوفاني آتيدوتشو، حينما أعلموني بأنّ ليلا انتقلت للعيش هناك مع إنتسو، لم يخطر في بالي سوى أنّ مصنع برونو سوكافو، صديق نينو، الذي يُنتج لحوم المرتديلّا، يقع في تلك المنطقة تحديدًا. أزعجني الربط بين تلك الأفكار، إذ إنَّني، منذ وقت طويل، نسيتُ كلّيًا ما حدث في إيسكيا، خلال ذلك الصيف؛ وهكذا تذكَّرتُ كيف تبدَّدت المرحلة السعيدة من تلك الإجازة، ليظهر جانبها التعيس. اكتشفتُ أنَّني أشمئزّ من كلّ صوتٍ يأتيني من تلك الذكرى، ومن كلّ رائحة تصلني منها. إلّا أنّني فوجئتُ بأنّ أسوأ ما علق في ذاكرتي، وقد سبَّب لي بكاءً ونحيبًا، تمثَّل في تلك السهرة على شاطئ مارونتي مع دوناتو سارّاتوري. وما كنت لأعتبرها ممتعة لولا الألم الذي اكتنفني ممَّا كان يحدث بين ليلا ونينو في الآن نفسه. وعلى بُعد مسافة زمنيَّة طويلة، أدركتُ مدى انحطاط تجربة الإيلاج الأولى، في الظلام، على الرمل البارد، مع رجل تافهٍ، والد الشابّ الذي أحِبّ. كم شعرتُ بالخزي والعار اللذين التحما بعارٍ من أمور أخرى كنت قد جرّبتُها.

كنت أعمل ليلًا نهارًا على رسالة التخرُّج، وألحّ على قراءة ما كتبتُ بصوت مرتفع على مسمع بييترو. كان لطيفًا، يهزّ رأسه، ويصطاد

Telegram: Somrlibrary

من ذاكرته فقراتٍ من أشعار فرجيل، وأدباء آخرين، قد تكون مفيدة لأطروحتي. وكنت أسجِّل كلّ كلمة تخرج من فمه، وأعمل عليها، لكن بمزاج متكدِّر. كنت أتأرجح بين مشاعر متضادَّة. أطلب عونه، وأشعر بالمذلّة من هذا الطلب. ممتنَّة له وحاقدة عليه في آن واحد، ولاسيّما أنَّني أمتعض من كونه يفعل ما في وسعه كي لا يُشعرني بثقل سخائه. وأكثر ما كان يُقلقني أن أجد نفسي معه، قبله، أو بعده، لتسليم الأطروحة إلى الأستاذ المشرف علينا؛ وهو رجلٍ في الأربعينيَّات، ذو طباع جادّة وانتباه متيقِّظ، واجتماعيّ أحيانًا. كنت أرى كيف يعامل بييترو كما لو أنَّه أستاذ جامعيٌّ في الأساس، بينما يعاملني كأيِّ طالبة مجتهدة. وغالبًا ما كنت أرفض الحديث مع الأستاذ، بسبب انزعاجي، أو بسبب غروري، أو خشية من التأكُّد من دونيَّتي. عليّ أن أعمل أفضل من بييترو، كنت أفكِّر. صحيحٌ أنَّه يعرف أكثر منِّي بكثير، لكنّه باهتٌ وخياله محدود. كان شديد الحذر في أسلوبه بالعمل وأسلوبه اللطيف في إسداء النصح إليّ. وهكذا، كنت أمحو ما عملتُ عليه، وأبدأ من جديد، لألحق بفكرة لم تخطر في ذهن أحد. وحين كنت أعود إلى الأستاذ، كان يصغي إليّ ويقدِّر جهودي، لكنّ ثناءه بلا وزن، كما لو أنّ اجتهادي مجرَّد لعبة أتقنتُها، ما جعلني أقتنع باكرًا بأنّ بييترو آيروتا، سيكون له مستقبلٌ زاهر، عكسي.

ناهيك بسذاجتي. ذات مرّة، عاملني الأستاذ المشرف بودِّيَّة قائلًا:

«أنت تتمتَّعين بحساسيَّة عالية. هل تفكِّرين في التدريس، بعد التخرُّج؟»

ظننتُ أنَّه يقصد التدريس في الجامعة، فوثب الفرح في قلبي، واحمرّت وجنتاي. قلت إنَّني أحبّ التدريس والبحوث على حدّ سواء،

وأودّ متابعة الدراسة على المجلّد الرابع من «الإلياذة». فانتبه إلى أنَّني أسأتُ فهمه، وارتبك. تفوّه بعبارات عامَّة عن متعة الدراسة مدى الحياة، ونصحني بالتقدُّم إلى مسابقة من المتوقَّع إجراؤها في الخريف: ثمّة فرص قليلة لتأهيل المعلّمين في المعاهد العليا.

«نحن في حاجة إلى أساتذة قديرين يؤهِّلون معلِّمين قديرين»، قال رافعًا نبرته.

هذا كلّ ما في الأمر. يا للعار، يا للعار، يا للعار! أيّ تبجُّح نما في صدري، أيّ طموح أغشاني بأنَّني من مستوى بييترو. الشيء الوحيد المشترك بيني وبينه مقتصر على تلك المبادلات الجنسيَّة الطفيفة حينما يأتي المساء. كانت أنفاسه تهتاج، ويلتصق بي، ولا يطلب أكثر ممَّا كنت أسمح له به بعفويّة.

شعرتُ بالاختناق. لوقتٍ طويل، فقدتُ القدرة على العمل على الأطروحة. كنت أنظر إلى صفحات الكتب ولا أرى الأسطر. أبقى في السرير لأحدِّق إلى السقف، وأتساءل عمّا يجب فعله. الرضوخ في النهاية، والعودة إلى الحيّ. أتخرَّج، وأدرِّس في المدارس المتوسِّطة. أستاذة. أجل. مثل أوليڤييرو وأكثر. على مستوى غاليانى تقريبًا. بل ربّما أقلّ منها مرتبة. الأستاذة غريكو. كانوا سيعتبرونني في الحيّ شخصيّة رفيعة، ابنة البوّاب التي تعلم بكلٍّ شيء منذ طفولتها؛ بينما لم أكن أعرف سوى بيزا، والأساتذة المهمِّين، وبييترو، وماريًّا روزا، ووالدهما؛ وكان عليّ أن أقرّ بأنَّني لن أذهب أبعد من ذلك. جهد عظيم، آمال كبرى، ولحظات رائعة. كنت سأتحسَّر طوال الحياة على زمان فرانكو ماري. كم أمضيت أيَّامًا وأشهرًا جميلة معه! بالكاد كنت أفهم أهمِّيَّة ذاك الزمان، وأتحسَّر عليه على الرَّغم من هذا. المطر، البرد، الثلج، روائح الربيع المنبعثة على طول نهر أرنو، وفي أزقّة المدينة المسكونة بالأزهار، والدفء الذي كنَّا نتبادله. باريس، والرحلة

Telegram: Somrlibrary

المثيرة إلى بلد أجنبيّ. المقاهي، والسياسة، والأدب، والثورة التي توشك على الاندلاع، حتى لو كانت الطبقة العاملة تحاول الاندماج. هو، فرانكو ماري، وغرفته خلال الليل. جسده. انتهى كلّ شيء، كنت أتقلّب في سريري الصغير، منهَكَة الأعصاب، ولا أهتدي إلى النوم. إنَّني أكذب على نفسي، فكَّرتُ. هل كانت تلك الفترة جميلة إلى هذا الحدّ؟ كنت أعلم جيِّدًا بأنّ الخزي رافقني في تلك الفترة أيضًا، والإزعاج، والذلّ، والنفور: الرضوخ والمعاناة والإرهاق. هل من المعقول أنّ لحظات المتعة السعيدة أيضًا لا تقوى على اجتياز امتحان عسير؟ أجل، معقول. سرعان ما امتدَّت ظلمات شاطئ مارونتي لتطغى على جسد فرانكو، ثم جسد بييترو أيضًا. حاولتُ جاهدة أن أهرب من ذكرياتي.

وفي لحظة معيّنة، تقلَّصت لقاءاتي ببييترو، بحجّة أنّني متأخِّرة في العمل على الأطروحة، وأخشى أن ينفد الوقت قبل إتمام المهمّة. وذات صباح، اشتريتُ دفترًا مسطّرًا بمربَّعات، وبدأتُ أكتب ما حدث لي في تلك الأمسية على شاطئ مارونتي، باستخدام ضمير الغائب. ثم كتبتُ ما حدث لي في إيسكيا، باستخدام ضمير الغائب دومًا. ثم رويتُ أجواء نابولي والحيّ أيضًا. ثم غيّرتُ الأسماء والأماكن والأوضاع. ثم تخيَّلت أنّ قوَّة غامضة تتوارى في حياة البطلة، كينونة تتمتَّع بقدرة على تمتين أوصال العالم من حولها، بألوان اللهيب المهدرج: قبّة سماويَّة اللون تميل إلى البنفسجيّ، تشعّ وميضًا، كلّما تحسَّنت أمور البطلة، ثم سرعان ما تنفكّ الأوصال، وينفصل بعضها عن بعض كشظايا رماديَّة لا جدوى منها. استغرق الأمر عشرين يومًا لكتابة تلك القصَّة، لم أقابل أحدًا خلال تلك الأيَّام، ولم أخرج إلَّا نادرًا لتناول الطعام. وفي النهاية، أعدتُ قراءة بعض الصفحات. لم

Telegram: Somrlibrary

تنل إعجابي، فعزفتُ عن الموضوع. لكنَّني شعرتُ بأنَّني أكثر ارتياحًا، كما لو أنّ الخزي خرج منِّي وسكن في الدفتر. عدتُ إلى حياتي الطبيعيَّة، وأنهيت الأطروحة على عجل، والتقيتُ بييترو ثانية.

أثار عطفي بلطفه واهتمامه. وفي يوم تخرّجه، وصلتْ عائلته كاملةً، والكثير من أصدقاء والديه في بيزا. فوجئتُ بأنَّني لم أعد أضمر تلك الضغينة حيال مستقبل بييترو المشرق؛ بل كنت سعيدة بما سوف يلقاه من نجاح، وشكرتُ كلّ أفراد عائلته لأنَّهم دعوني إلى الحفلة التالية؛ ولاسيّما ماريَّا روزا التي اهتمَّت بي كثيرًا. خضتُ وإيَّاها نقاشًا محتدمًا عن الانقلاب الفاشيّ في اليونان.

أمّا أنا فقد تخرّجتُ في الفصل اللاحق. حرصتُ على ألّا أخبر أهلي، خشيتُ أن تشعر أمِّي بواجبها فتأتي لتحتفل بي. قدَّمتُ نفسي أمام لجنة الأساتذة، بأحد تلك الفساتين التي أهدانيها فرانكو، ذاك الذي ما زال يبدو لي مقبولًا؛ وعادت إليّ الفرحة بنفسي، بعد وقت طويل. كنت خرِّيجة جامعيّة، قبل أن أتمّ عامي الثالث والعشرين بقليل؛ ولديّ شهادة في الآداب، بمعدَّل مئة وعشر علامات مشفوعة بثناء خاصّ، أي العلامة التامّة. لم يكن أبي قد وصل أبعد من الصفّ الخامس الابتدائيّ، وأمِّي توقَّفت عند الصفِّ الثاني؛ زد أن لا أحد من أجدادي، على حدّ علمي، أتقن القراءة والكتابة. يا لعظمة المجهود الذي بذلتُه!

جاء بييترو ليحتفل بنجاحي، مع عدد محدود من الرفيقات. أذكر أنّ الطقس كان حارًّا جدًّا. وبعد الطقوس الطلَّابيَّة المعتادة، عدت إلى غرفتي كي ألتقط أنفاسي، وأضع كرّاسة الأطروحة. انتظرني في الأسفل، كان يريد أن يدعوني إلى العشاء في الخارج. نظرتُ إلى المرآة، فتولّد لديّ انطباعٌ بأنَّني جميلة. أخذتُ الدفتر الذي كتبتُ عليه

القصَّة، ووضعتُه في حقيبة اليد.

كانت المرَّة الأولى التي يدعوني فيها بييترو إلى العشاء في مطعم؛ بينما فعلها فرانكو مرارًا، وعلّمني كلّ شيء عن التصرُّف السليم بأدوات الطعام، والشرب من الكؤوس. سألني بييترو:

«هل نحن مرتبطان؟»

ابتسمتُ، وقلت:

«لا أعلم».

أخرج من جيبه علبة صغيرة، وأعطاني إيَّاها. غمغم:

«طوال هذا العام، ظننتُ أنَّنا مرتبطان. لكنْ، إن كان لديك رأي مختلف، فاعتبريها هديَّة التخرُّج».

أزلتُ الشريط، فظهرت حافظة صغيرة خضراء اللون. ووجدتُ فيها خاتمًا مرصَّعًا بجواهر دقيقةٍ وبرّاقة.

«إنَّه جميل جدًّا»، قلت.

جرّبتُه، وكان مناسبًا لقياس إصبعي. تذكَّرتُ الخواتم التي أهداها ستيفانو لليلا، لا شكّ في أنَّها أغلى ثمنًا من هذا الذي في يدي؛ لكنّه أوّل حلية أتلقّاها. صحيحٌ أنّ فرانكو أغرقني بهداياه، لكنّه لم يهدني جواهر أبدًا، والحلية الوحيدة التي كانت عندي هي سوار أمِّي الفضِّي.

«نحن مرتبطان»، قلت له، وانحنيتُ فوق الطاولة، ولثمتُ ثغره. احمرّ خجلًا، وغمغم:

«أتيتُ بهديّة أخرى».

أعطاني ظرفًا يحتوي على أطروحته ـ الكتاب. يا للسرعة، قلت لنفسي بودّ وسرور.

«وأنا أيضًا، أتيتك بهديَّة صغيرة».

Telegram: Somrlibrary

«ما هي؟»

«هديّة سخيفة، لكنَّني لا أعلم أيّ شيءٍ أهديك، ويكون منّي حقًّا».

أخرجتُ الدفتر من الحقيبة، وأعطيته إيَّاه.

«إنَّها رواية» قلت، «نسخة واحدة، محاولة واحدة، إذعان واحد. لن أكتب بعدها شيئًا». ثم أردفتُ ضاحكةً: «فيها صفحاتٌ جريئة نوعًا ما».

بدا لي مضطربًا. عبّر عن شكره، ووضع الدفتر على الطاولة. فندمتُ، لأنَّني أعطيته الرواية. وفكّرتُ: إنَّه دارسٌ جدّيٌّ، سليل تقاليد عريقة، ويوشك على نشر كتابٍ يتناول الطقوس الباخوسيَّة، سيكون حجرًا أساسًا في مستقبله العلميّ. الذنب ذنبي، ما كان عليّ أن أضعه في موقف محرج بقصَّة سخيفة، لم أستمرئ تنضيدها على الآلة الكاتبة. لكنَّني، في تلك الحالة أيضًا، لم أشعر بانزعاج، فهو كان هو، وأنا كنت أنا. أخبرته بأنَّني قدّمتُ طلبًا للمسابقة في المعاهد العليا. قلت له إنَّني قد أعود إلى نابولي، وأردفتُ ضاحكةً بأنّ ارتباطنا سيواجه ظروفًا صعبة، فأنا أعيش في مدينة جنوب البلاد، وهو في أخرى من الشمال. لكنّ بييترو ظلّ محافظًا على جدِّيَّته. كانت الأمور واضحة في ذهنه، فعرض عليّ مشروعه: سيحتاج إلى عامين اثنين كي يرسِّخ وجوده في الجامعة، ثم يتزوّج بي. حدّد الموعد أيضًا: سپتمبر ١٩٦٩. وعندما خرجنا، نسي الدفتر على الطاولة. نبّهتُه بنبرة مرحة: «أين الهديّة؟» ارتبك، وعاد مسرعًا ليأخذها.

تمشّينا طويلًا. تبادلنا القبلات والعناق على طول نهر أرنو؛ وسألته ـ بين الجدّ والمزاح ـ إن كان يريد المجيء إلى غرفتي. هزّ رأسه، وعاد يقبّلني بشغف. هنالك مكتباتٌ بأسرها تفصله عن أنطونيو؛ لكنّهما كانا متشابهين.

Telegram: Somrlibrary

١١٦

عشتُ تجربة العودة إلى ناپولي، كما عندما تغلق الريح مظلّتك الرديئة فوق رأسك بغتة. وصلتُ إلى الحيّ في ذروة الصيف. وددتُ البحث عن عملٍ سريعًا، لكنّ وضعي كمتخرِّجة جامعيّة يجعل من غير الوارد أن أطوفَ بحثًا عن عمل في أشغال صغيرة، كما في الماضي. من جهة أخرى، لم يكن لديّ مالٌ، وكنت أشعر بالإهانة إذا طلبتُ مالًا من أبي وأمّي، اللذين ضحّيا بما فيه الكفاية من أجلي. وسرعان ما استفحل التوتُّر بي. كنت أتضايق من كلّ شيء: الشوارع، واجهات المباني القبيحة، الشارع العام، الحديقة الصغرى؛ مع أنّني تأثَّرتُ في البدء بأيّ حجرة ورائحة. وكنت أفكِّر: ماذا لو وجد بييترو لنفسه فتاة أخرى؟ ماذا لو أخفقتُ في المسابقة؟ ماذا سأفعل عندئذ؟ ليس من المعقول أن أبقى سجينة في هذا المكان، وبين هؤلاء الناس، إلى الأبد.

كان والداي وإخوتي فخورين بي للغاية، لكنَّني لاحظتُ أنَّهم لا يعلمون بأسباب فخرهم بي: ما الفائدة التي سيجنونها من ورائي؟ لماذا عدتُ إليهم؟ كيف في وسعهم إقناع الجيران بأنّني رفعت رؤوسهم؟ وإذا ما نظرتُ مليًّا، وجدتُ أنّني أزيد في تعقيد حيواتهم، وأشغل حيّزًا كبيرًا في شقَّة ضيّقة، فتصعب عمليَّة تنظيم الأسرّة قبل النوم، وأخلّ

Telegram: Somrlibrary

برتابة إيقاعهم الذي لم يعد يشملني. فضلًا عن أنَّني كنت أمضي الوقت أقرأ الكتب، واقفة أو جالسة في زاوية ما، كأنَّني تمثالٌ يمجِّد الدراسة ولا طائل منه؛ كأنَّني شخصٌ يدّعي انغماسه في التفكير وعلى الآخرين ألَّا يزعجوه، لكنّهم محقُّون في تساؤلهم: علامَ ينوي هذا؟

قاومتْ أمِّي، وقتًا لا بأس فيه، قبل أن تسألني عن خطيبي، إذ استنتجت وجوده من الخاتم الملتفّ حول إصبعي، وليس من بوحي لها. كانت تريد أن تعرف ماذا يعمل، وكم يتقاضى، ومتى سيحضر إلى بيتنا مع ذويه، وأين سأذهب للعيش معه كزوجة. في البدء، أطلعتها على بعض المعلومات: إنَّه أستاذٌ في الجامعة، لا يتقاضى شيئًا حتى الآن، سينشر كتابًا حظي بتقدير الأساتذة، وسنتزوَّج بعد عامين، والداه من جنوا، ومن الوارد أن ننتقل للعيش في تلك المدينة، أو حيثما يرتّب وضعه. لكنَّني أدركتُ أنَّها لم تنصت إليّ، أسيرة بمفاهيمها البسيطة، وقد بدا ذلك واضحًا من نظراتها الشكَّاكة، ومن طرح الأسئلة ذاتها مرّة أخرى. كنت في رأيها مرتبطة بشابّ لم يأت حتى آنئذ ليطلب يدي، ويعيش بعيدًا جدًّا؛ يدرّس لكنّه لا يتقاضى أجرًا؛ سينشر كتابًا لكنّه ليس مشهورًا. ثارت أعصابها كالعادة، غير أنَّها كفّت عن الاستعراض والصياح. كانت تحاول أن تكتم عنِّي عدم رضاها، ولعلّها لم تكن تشعر حتى بأنَّها تقدر على الإدلاء بذلك. وبالفعل، حتى اللغة أصبحت دلالة على الاغتراب. كنت أعبِّر عن نفسي بطريقة معقّدة جدًّا بالنسبة إليها، مع أنَّني أجاهد كي أتكلّم بالعامِّيَّة، وكلّما انتبهتُ إلى الأمر، وحاولتُ تبسيط العبارات، أصبحت العبارات مشوَّهة ومشوَّشة. ثم إنّ الجهد الذي بذلتُه في محو أيِّ أثر للَّكْنة النابوليتانيَّة من صوتي، لم يُقنع أهل بيزا كما كان يُقنع أمِّي وأبي وإخوتي والحيّ كلّه. كان الناس، في الدروب، في المحالّ، في فناء البناية، يعاملونني بمزيج من الاحترام والازدراء. حتى إنَّهم، في الخفية، أخذوا يسمّونني «البيزاويَّة».

في تلك الفترة، كنت أكتب رسائل طويلة إلى بييترو، فيجيب بأطول منها. في البدء، كنت آمل أن ينوّه ولو بإشارة إلى الدفتر، ثم نسيتُ أمره، أنا نفسي. لم نكن نتحدَّث في أشياء ملموسة، لا أزال أحتفظ بتلك الرسائل حتى اليوم: لا تحتوي على أيِّ تفصيل مفيد في إعادة تشكيل الحياة اليوميَّة لتلك الآونة، مثلًا، ما ثمن الخبز أو تذكرة السينما؟ كم يتقاضى البوّاب أو البروفسور. كنَّا نركِّز في كتابٍ ما قرأه بييترو؛ في مقالة مهمَّة لدراساتنا؛ في بعض تأمُّلاته أو تأمُّلاتي؛ في اضطرابات طلَّابيَّة معيَّنة شهدها حرم الجامعة؛ في مواضيع حداثيَّة جديدة لم أكن أعرف عنها شيئًا بينما أدهشني اهتمامه بها، كان يراها مسلِّية إلى درجة تدفعه إلى الكتابة عنها: «أودُّ أن أؤلِّف كتيِّبًا ذا أوراق ممزَّقة، كتلك التي تبدئين بها جملة ما، لا تكتمل، فترمينها. إنَّني أجمع منها ما أمكنني، وأريد أن أطبعها هكذا على حالها، مجعّدة، تتقاطع ثناياها المقسَّمة كيفما اتّفق مع الجُمَل المسوّدة والمقتطعة. لعلّ هذا هو الشكل الوحيد الممكن للأدب في هذه الأيَّام». استوقفتني عبارته الأخيرة. أذكر أنَّني شكَّكتُ في أنّه استخدمها ملمّحًا إلى أنَّه قرأ دفتري؛ وأنّ الهديّة الأدبيَّة التي أعطيتُها له بدت في رأيه منتجًا متخلِّفًا.

في تلك الأسابيع مرتفعة الحرارة، هبط عليّ تعب السنين الماضية دفعة واحدة، وشعرتُ بأنَّني فاقدة الهمّة. جمعتُ أنباءً من هنا وهناك عن وضع المعلِّمة أوليفييرو الصحّيّ، وتمنَّيتُ أن تكون بخير، وأن أستطيع زيارتها، لعلِّي أستمدّ قوَّة من رضاها عن النتيجة العالية التي حصدتُها في دراستي. عرفتُ أنّ شقيقتها جاءت لتصطحبها وتعود بها إلى بوتينسا. كم شعرتُ بالوحدة والفراغ! وصل بي الأمر إلى التحسُّر على ليلا، ومواجهاتنا المحتدمة. خطر في بالي أن أبحث عنها لأقيس المسافة التي تفصل بيننا، لكنَّني عزفتُ عن هذا، واقتصرتُ على استقصاءٍ مُلحّ وكسول عن آراء سكَّان الحيّ فيها، وعن الشائعات التي حُيكت عنها.

Telegram: Somrlibrary

بحثتُ أوّلًا عن أنطونيو. لم أجده، قيل إنَّه بقي في ألمانيا، وادّعى أحدهم أنَّه تزوّج بألمانيَّة حسناء، شعرها أشقر وبلاتينيّ، بدينة القوام، وعيناها زرقاوان، وأنَّه أنجب منها توأمَيْن.

رحت أتكلَّم مع ألفونسو، وغالبًا ما ذهبتُ إليه في المحلّ في ساحة الشهداء. لقد أصبح وسيمًا حقًّا، يبدو كفارس نبيل رفيع الشأن، يتكلَّم بإيطاليَّة فصيحةٍ تتخلّلها ألفاظٌ عامِّيَّة محبَّبة. كان محلّ سولارا، بفضله، يسير على خير ما يرام. وراتبه كان مقنعًا؛ استأجر بيتًا في بونتي دي تابيا، ولم يكن يحنّ إلى الحيّ، ولا إلى إخوته، ولا إلى رائحة الدهون في الملحمتين. «سأتزوَّج العام المقبل»، صرّح لي بحماسة شديدة. علاقته بماريزا استمرّت، وتوطَّدت، ولم يعد أمامهما سوى الخطوة النهائيَّة. خرجتُ معهما بضع مرّات، كانا ثنائيًّا لائقًا، وقد تخلّصتْ من مبالغتها في الحيويَّة والثرثرة، وكانت تبدو حذرة في لفظ أيّ حرف قد يعارضه ألفونسو. لم أسألها عن أبيها، عن أمِّها. لم أسألها حتى عن نينو؛ ولا هي حدّثتني عنه، كأنَّه خرج من حياتها أيضًا إلى غير رجعة.

التقيتُ باسكوالي وأخته كارمن أيضًا؛ كان لا يزال يعمل في مشاريع البناء في أنحاء نابولي وضواحيها، وهي لا تزال تعمل في الملحمة الجديدة. لكنّ الأمر الذي أرادا أن يطلعاني عليه فورًا هو أنّ كلًّا منهما قد وجد حبًّا جديدًا: باسكوالي ارتبط، سرًّا في البدء، بأصغر بنات الخيَّاطة؛ وكارمن ارتبطت بالعامل في محطَّة الوقود عند الشارع العام، وهو رجلٌ صالحٌ في الأربعينيَّات يكنّ لها حبًّا جمًّا.

ذهبتُ لزيارة بينوتشا، ولم أكن لأعرفها لسوء مظهرها وشدّة عصبيَّتها، وهزالها. استسلمتْ لمصيرها، وكانت آثار الرضوض تبيّن أنّ رينو ما زال يضربها انتقامًا من ستيفانو؛ لكنّها لا تُقاس بآثار

Telegram: Somrlibrary

التعاسة المكبوتة في عينيها وحول فمها.

وفي النهاية، تشجَّعتُ واتَّجهتُ إلى آدا. تخيَّلتُ أنَّني سأجدها أكثر تعاسة من بينا، مُهانة من أداء دور الجارية. إلَّا أنَّها كانت تعيش في بيت لينا، وكانت جميلة جدًّا، وقد ازدادت بهاءً، بعد أن أنجبت للتوّ بنتًا أسمتها ماريّا. لم أكفّ عن العمل حتى خلال فترة الحمل، قالت بفخر. ورأيتُ بأمّ عيني أنَّها كانت صاحبة الملحمتين الحقيقيَّة، تركض بين الملحمة والأخرى، وتهتمّ بكلّ شيء.

كلّ واحد من أصدقائي أطلعني على أمر ما عن ليلا، لكنّ آدا كانت أكثرهم اطّلاعًا، ولاسيّما أنَّها كانت الوحيدة التي حدَّثتني عنها بتفهُّم واسع، وباستلطاف نوعًا ما. كانت سعيدة، سعيدة بطفلتها، سعيدة برغد العيش، سعيدة بالعمّال، وبستيفانو؛ حتى بدت لي ممتنَّة بصراحة لليلا على كلّ تلك السعادة. هتفتْ بإعجاب:

«أعترف بأنَّني تصرَّفتُ كالمجانين. لكنّ لينا وإنتسو أقدما على تصرُّفات أكثر جنونًا. لم يكترثا لأيٍّ شيء، حتى لنفسيهما، إلى درجة أنَّهما تسبَّبا بالخوف لي ولستيفانو، وحتى لذاك الوغد ميكيلي سولارا. أتعلمين بأنَّها لم تأخذ معها أيّ شيء؟ أتعلمين بأنَّها تركت لي كلّ جواهرها؟ أتعلمين بأنَّهما تركا لنا العنوان حيث يقيمان، العنوان بالتفصيل، لسان حالهما يقول: تعالا وابحثا عنَّا، افعلا ما تريدان، نحن لا نكترث لأمركما!».

طلبتُ منها العنوان. وبينما كنت أكتبه، قالت لي:

«إن حدث والتقيتِها، قولي لها إنَّني لست من يمنع ستيفانو من المجيء لزيارة الطفل؛ بل انشغالاته، وهذا يؤسفه حقًّا. قولي لها إنّ الأخَوَين سولارا لا ينسيان شيئًا، وخصوصًا ميكيلي. قولي لها ألَّا تثق بأحد».

Telegram: Somrlibrary

١١٧

انتقل إنتسو وليلا إلى سان جوفاني آتيدوتشو، بسيَّارة «فيات ألف وستمئة» مستعملة، كان قد اشتراها منذ مدّة. لم يتبادلا أيّ كلمة طوال المشوار، لكنّهما تغلَّبا على الصمت بالحديث إلى الطفل؛ ليلا كأنَّها تتكلَّم مع رجل بالغ، وإنتسو بكلمات مقتضبة مثل: حسنًا، ماذا، أجل. كانت ليلا لا تعرف الكثير عن سان جوفاني؛ ذات مرَّة، ذهبت إلى هناك برفقة ستيفانو، توقّفا في وسط البلدة لاحتساء القهوة، فلم يتولّد لديها أيّ انطباع عن المكان. لكنّ باسكوالي، الذي كان غالبًا ما يمرّ بهذه البلدة، سواء لعمله كبنّاء أو لنشاطه الشيوعيّ، حدّث ليلا عن ذلك المكان بتعاسة، كعامل وكمناضل على حدّ سواء. «إنَّها بؤرة قذرة» قال، «موبوءة وقميئة، كالبلاليع. كلّما ازداد الثراء اتَّسع الشقاء، لا نقوى على تغيير أيّ شيء، مع أنَّنا أقوياء». لكنّ ليلا لم تكن لتثق كثيرًا بكلام باسكوالي، وهو المفرط في نقده وشكوكه. وخلال المشوار في تلك السيَّارة، بين دروب وعرة، وأبنية متردِّية، وبنايات شُيِّدت مؤخَّرًا، فضّلت أن تُقنع نفسها بأنَّها تحمل طفلها إلى بلدة وديعة تسترخي إلى جانب البحر؛ وكانت لا تفكّر سوى في ما ستقوله لإنتسو، عند وصولهما، بكلِّ صراحة ووضوح.

Telegram: Somrlibrary

غير أنّها، لشدّة ما فكّرت في الأمر، لم تقل له شيئًا. ربّما لاحقًا، قالت لنفسها. وهكذا، وصلا إلى الشقَّة التي استأجرها إنتسو، في الطابق الثاني من بناية جديدة، لكنَّها بائسة على الرَّغم من هذا. كانت الغرف شبه خاوية، قال إنّه اشترى الضروريّ؛ لكنّه ابتداءً من الغد، سيتدبّر كلّ الأغراض اللازمة. طمأنتْه ليلا، كان قد فعل الكثير. ثم وجدت نفسها أمام سرير زوجيّ، فعرفتْ أنّ اللحظة حانت لتوضيح الأمور. قالت له بنبرة ودِّيَّة:

«إنَّني أقدّرك جدًّا يا إنتسو، منذ أن كنَّا صغارًا. وقد أقدمتَ على أمر يجعلني أكنّ لك بالغ الاحترام: درستَ بمفردك، حصلتَ على الشهادة، وأظهرتَ عزيمةً صلبة لم يكن لديّ مثلها. إضافة إلى كونك أكرم شخص عرفته، وما كان غيرك ليفعل ما تفعله الآن من أجلي أنا ورينوتشو. لكنَّني لا أستطيع النوم معك. ليس لأنَّنا تلاقينا بمفردنا مرَّتين أو ثلاثًا كحدّ أقصى. وليس لأنَّك لا تعجبني، بل لأنّني فقدتُ الإحساس. إنَّني مثل هذا الجدار أو تلك الطاولة. لذا؛ إن كان في استطاعتك أن تعيش معي في البيت نفسه من دون أن تلمسني، فذلك أمر جيِّد؛ أمّا إن لم تكن قادرًا، فإنَّني أفهمك، وسأبحث عن مكان آخر من صباح الغد. خذ بالحسبان أنَّني سأظلّ ممتنَّة لك على كلّ شيء فعلتَه من أجلي».

ظلّ إنتسو يصغي إليها من دون أن يقاطعها. ثم قال، مشيرًا إلى السرير الزوجيّ:

«ابقي أنتِ هنا، سأتدبّر نفسي على السرير المطويّ».

«أفضّل السرير المطويّ».

«ورينوتشو؟»

«رأيتُ أنّ ثمَّة سريرًا آخر».

Telegram: Somrlibrary

«وهل ينام بمفرده؟»

«أجل».

«في إمكانكِ البقاء قدر ما تريدين».

«هل أنت متأكِّد؟»

«متأكِّد جدًّا».

«لا أريد لإشكاليَّات قبيحة أن تدمِّر علاقتنا».

«كوني مطمئنّة».

«اعذرني».

«لا عليكِ. إن حدث وعاد إليك الإحساس، تعرفين أين تجدينني».

١١٨

لم يُعاودها الإحساس، بل تنامى شعورها بالاغتراب. الهواء الثقيل في الغرف. الثياب المتّسخة. باب المرحاض الذي لا يُغلق جيّدًا. أتخيّل أنّ سان جوفاني بدت لها كهاوية على تخوم حيّنا. ومع أنّها كانت في مأمن، فإنّها لم تنتبه أين تطأ قدماها، حتى وقعت في لجّة سحيقة.

أخذ رينوتشو يشغل بالها. فالطفل، الذي كان هادئًا عمومًا، بات يشاكس خلال النهار، وينادي ستيفانو، ويستيقظ باكيًا في الليل. كانت أمّه تنجح في تهدئته، بحنانها وأسلوبها في ملاعبته؛ لكنّ هذا لم يعد يغريه، بل صار يضايقه. وكانت ليلا تبتكر ألعابًا جديدة، فتلمع عيناه ذهولًا، يقبّلها ويسارع إلى وضع يديه على صدرها، وهو يصيح مبتهجًا. ثم سرعان ما يدفعها عنه، ليلعب بمفرده، أو يغفو على غطاء مبسوط على الأرض. وفي الشارع، كان يتعب بعد عشر خطوات، قائلًا إنّ ركبته تؤلمه، ويطالبها بأن تحمله بين ذراعيها؛ وحين ترفض أمّه، يرمي بنفسه أرضًا وهو يصيح ويبكي.

صمدت ليلا في البداية، ثم أذعنت له شيئًا فشيئًا. سمحتْ له بالنوم في الليل إلى جانبها، على السرير، لأنّه لم يكن يهدأ إلّا هكذا.

Telegram: Somrlibrary

وحين يخرجان لشراء الأغراض، تحمله بين ذراعيها على الرَّغم من وزنه الثقيل، إذ كان طفلًا يتغذّى بكثرة؛ تحمل الأكياس من جانب، والطفل من الجانب الآخر. وتعود خائرة القوى.

اكتشفتْ، في وقت باكر، ماذا تعني الحياة بلا نقود. لا كتب ولا مجلَّات ولا جرائد. لم يعد الطفل متمسِّكًا بكلّ ما جاءته به أمّه كي يكبر بطريقة سليمة. وهي نفسها، لم يعد لديها إلّا القليل من الثياب. لكنَّها كانت تتظاهر بعدم وجود أيّ مشكلة. كان إنتسو يعمل طوال النهار، ويعطيها من المال ما تحتاج إليه؛ لكنّ راتبه كان شحيحًا، ناهيك بأنَّه كان ينفق على أقاربه الذين تولُّوا رعاية إخوته. وهكذا، بالكاد كان يستطيع دفع الإيجار والكهرباء والغاز. لكنّها لم تكن مبالية. فالأموال التي كانت تحت تصرُّفها وأنفقتها، كانت تساوي، بالنسبة إلى مخيِّلتها، شقاء الطفولة. أموال خالية من جوهرها سواء أكانت متوافرة أم لا. كان كلّ ما يشغل بالها أن يفقد الطفل ما اكتسبه وتربَّى عليه؛ لذا كانت تحرص على أن تُعيده حيويًا، متيقِّظًا، ونبيهًا كما كان قبل فترة قصيرة. لكنّ رينوتشو بدا أنَّه في أفضل حال، عندما تتركه أمّه يلهو في الردهة مع ابن جارتها، إذ كان يتشاجر ويتّسخ ويضحك ويأكل القاذورات، ويبدو في منتهى السعادة. كانت ليلا تراقبه من المطبخ، هو وصديقه الصغير أمام باب البيت. إنَّه شاطر، كانت تفكِّر، أشطر من ذاك الولد، على الرَّغم من أنَّه أصغر منه سنًّا؛ ربّما يجدر بي ألَّا أحبسه في كوخ من زجاج، ربّما عليّ القبول بأنَّني منحتُه الضروريّ، وها هو الآن قادرٌ على تدبُّر نفسه بنفسه، ويحتاج الآن إلى أن يوسِّخ ثيابه، ويلكم الآخرين، وينتزع منهم أغراضهم.

ذات يوم، ظهر ستيفانو عند الردهة. ترك الملحمة، وقرَّر أن يأتي ليزور ابنه. رحَّب به رينوتشو بسرور، ولاعبه أبوه قليلًا. لكنّ ليلا

Telegram: Somrlibrary

أدركت أنّ زوجها يشعر بالملل، ويتوق إلى المغادرة. في الماضي، كان يبدو أنَّه لا يستطيع العيش من دونها ومن دون الطفل؛ أمَّا حينذاك، فها هو ينظر إلى الساعة، ويتثاءب، ولا بدّ من أنَّه جاء تنفيذًا لتوصية أمّه، أو آدا نفسها. أمّا عن الحبِّ، والغيرة، فيبدو أنَّه فقد هذا الهوس تمامًا.

«سآخذ الطفل في نزهة».

«احذر، فهو يريد دومًا أن يُحمل بين الأذرع».

«سأحمله بين ذراعيّ».

«لا. اتركه يمشِ».

«سأفعل ما أراه مناسبًا».

خرجا، ثم عادا بعد نصف ساعة. قال إنّ عليه الإسراع إلى الملحمة حالًا. وأقسم إنّ رينوتشو لم يبكِ أبدًا، ولم يطلب منه أن يحمله بين ذراعيه. وقبل أن ينصرف، قال لها:

«رأيتُ أنّ الجيران يعرّفونك بالسيِّدة شيرولُّو».

«هذه حقيقتي».

«لم أقتلك، ولن أقتلك، فقط لأنَّك أمّ ابني. لكنّك، وصديقك الحقير، تخاطران بحياتيكما».

ضحكتْ، واستفزّته قائلة:

«تستعرض عنتريّاتك على من لا يستطيع تهشيم وجهك، يا لك من خسيس».

ثم فهمت أنّ زوجها كان يشير إلى الأَخوَين سولارا، فصرخت به من العتبة، بينما كان ينزل السلالم:

«قل لميكيلي إنَّني سأبصق في وجهه إذا ما تجرّأ وأتى إلى هنا».

Telegram: Somrlibrary

لم يردّ ستيفانو، واختفى في الشارع. وعاد لزيارة ابنه ما لا يزيد على خمس مرّات، كما أعتقد. وفي آخر مرّة، التقى فيها زوجته، صرخ في وجهها ساخطًا:

«أنت عارٌ على عائلتك أيضًا. حتى أمّك، لم تعد تريد رؤيتك».

«واضحٌ أنَّهم لم يفهموا أيّ حياة كنت أعيشها معك».

«لقد عاملتكِ كملكة».

«أفضِّل أن أكون متسوّلة إذن».

«إن حملتِ بطفل آخر، فعليك أن تجهضي، لأنَّك تحملين كنيتي، ولا أريد لابني أن يُهان».

«لن أحمل بأطفال آخرين».

«لماذا؟ هل قرَّرتِ الكفّ عن الفُجور؟»

«اذهب إلى الجحيم».

«لقد حذّرتكِ، على أيّ حال».

«حتى رينوتشو ليس ابنك، مع أنَّه يحمل كنيتك».

«أيّتها العاهرة، ما دمتِ تكرِّرين هذه العبارة، فهذا يعني أنَّها صحيحة. لم أعد أريد رؤيتك ولا رؤيته».

لم يصدِّقها في الواقع؛ لكنّه انتهز تلك الفرصة، وتظاهر بأنّه صدّقها. كان يفضِّل أن تتغلَّب السكينة على تخبُّطه العاطفيّ الذي سبَّبته ليلا.

Telegram: Somrlibrary

١١٩

قصّت ليلا، بالتفصيل، زيارات زوجها لإنتسو. ظلّ يصغي إليها بانتباه، ولم يُدلِ بأيّ تعليق؛ بل ظلّ محافظًا على هدوئه. لم يخبرها حتى عن عمله في المصنع، إن كان على ما يرام أم لا. كان يخرج في السادسة صباحًا، ويعود في السابعة مساءً. يتناول عشاءه، يلاعب الطفل قليلًا، ويجلس ليستمع إلى أحاديثها. وكلّما كلّمته ليلا على حوائج رينوتشو الطارئة، عاد إليها في اليوم التالي بالنقود اللازمة. لم يقل لها أبدًا أن تطلب من ستيفانو مساهمة لنفقات ابنه، لم يقل لها أبدًا أن تبحث عن عمل، بل كان يكتفي بالنظر إليها، كما لو أنّه يعيش لا لشيء، إنَّما ليصل إلى ساعات المساء، ويجلس معها في المطبخ ويُصغي إليها، ثم ينهض في لحظةٍ ما، ويتمنَّى لها ليلة هانئة، ويُغلق على نفسه في غرفة النوم.

مهّد لها القدر لقاءً كانت له تداعياتٌ مهمّة. ذات عصر، خرجت بمفردها، بعد أن تركت رينوتشو في عهدة جارتها. سمعتْ صوت بوقٍ ملحًّا وراءها. بوق سيَّارة فاخرة، ورجلٌ يلوّح بيده من النافذة.

«لينا».

نظرت إليه بتركيز؛ وجهه يشبه وجه الذئب؛ عرفتْه: إنَّه برونو سوكافو، صديق نينو.

Telegram: Somrlibrary

«ماذا تفعلين هنا؟» سألها.

«أعيش هنا».

لم تخبره بالكثير عن أحوالها، في الوهلة الأولى؛ إذ كان شرحها صعبًا ويطول، في تلك الآونة. لم تشر إلى نينو، فلم يشر إليه برونو بدوره. لكنّها سألتْه عن التخرُّج، فأجابها بأنَّه قرَّر التوقُّف عن الدراسة.

«هل تزوَّجتَ؟»

«أتمزحين؟»

«هل ارتبطتَ بإحداهنّ؟»

«ليس تمامًا».

«فماذا تفعل إذن؟»

«لا شيء. هناك من يعمل لأجلي».

خطر في بالها أن تسأله، ممازحةً:

«هلّا أمّنتَ لي عملًا؟»

«لكِ؟ لماذا؟»

«كي أعمل».

«هل تريدين العمل باللحوم المجفَّفة والمرتديلَّا؟»

«ولمَ لا؟»

«وزوجكِ؟»

«لم يعد لديّ زوج. لكنْ، لديّ طفل».

نظر إليها برونو نظرة مستقصية، ليفهم إن كانت تمزح أم لا. بدا حائرًا، فعدّل نظراته. «ليس عملًا هيّنًا»، قال لها. ثم تكلّم بالتفصيل على المشكلات التي تواجه المرتبطين عمومًا؛ على أمّه التي تتشاجر

Telegram: Somrlibrary

دومًا مع أبيه؛ على حبٍّ عنيف قُضّ مضجعه مؤخَّرًا، إذ أُغرم بامرأة متزوِّجة، لكنّها تركتْه. كانت محادثة عابرة بالنسبة إلى برونو. دعاها إلى مقهًى قريب مواصلًا الكلام على نفسه. في النهاية، حين قالت ليلا إنّ عليها الانصراف، سألها:

«هل هجرتِ زوجك حقًّا؟ هل لديك طفلٌ حقًّا؟»

«أجل».

تجهَّم وجهه، سجَّل شيئًا ما على منديل.

«اذهبي إلى هذا السيّد. ستجدينه في الصباح بعد الثامنة. وأريه هذا».

ابتسمت ليلا مرتبكة:

«أريه المنديل؟»

«أجل».

«هل هذا كافٍ؟»

أومأ بنعم، وجفل فجأة من نبرتها اللامبالية. غمغم:

«كم كان ذاك الصيف جميلًا»!

فقالت:

«وأنا أراه كذلك أيضًا».

Telegram: Somrlibrary

١٢٠

علمتُ بكلّ هذا في ما بعد. كنت أودّ التوجُّه فورًا إلى العنوان، في سان جوفاني، الذي أعطتني إيَّاه آدا، لكنّ أمرًا في غاية الأهمِّيَّة حدث لي أنا أيضًا. ذات صباح، قرأتُ على مضض رسالة طويلة وصلت إليّ من بييترو؛ وفي آخرها، وجدتُ بضعة سطور يُبلغني فيها أنّه قرأ نصِّي (هكذا سمَّاه) لأمّه. رأت آديلي النصّ جيِّدًا إلى درجة أنَّها نضَّدته على الآلة الكاتبة، وأرسلته إلى دار نشر في ميلانو كانت تتعاون معها في الترجمة منذ سنوات. قدّر القائمون على الدار النصَّ، وأرادوا أن ينشروه.

كنت حينذاك في ضحى يومٍ خريفيّ، لا أزال أذكر نوره الرماديّ، جالسة إلى الطاولة في المطبخ؛ الطاولة نفسها التي كانت والدتي تستخدمها لكيّ بعض الثياب. وكان حديد المكواة القديم ينزلق على القماش بانسياب، وخشب الطاولة يرتجف تحت مرفقيّ. أطلتُ النظر إلى تلك السطور. وقلت بنبرة بطيئة، بالإيطاليَّة، إنَّما لأقنع نفسي بأنَّني أمام حدثٍ حقيقيّ: «أمّاه، هنا يقول إنّهم سينشرون رواية من تأليفي». توقَّفت والدتي، رفعت المكواة عن القماش، وأسندتْها عموديًّا.

«هل كتبتِ رواية؟» سألتْ بالعامِّيَّة.

Telegram: Somrlibrary

«أعتقد ذلك».

«هل كتبتِها أم لا؟»

«أجل».

«هل يدفعون لك أجرها؟»

«لا أعلم».

خرجتُ. هرعتُ إلى مقهى سولارا، حيث في الإمكان إجراء اتِّصالٍ خارجيّ بارتياح. وبعد عدَّة محاولات ـ كانت جيليولا تصرخ بي من على المصطبة: «هيّا، تكلّمي!» ـ أجاب بييترو، لكنّه كان مستعجلًا ومشغولًا. قال إنَّه لا يعلم عن ذلك الأمر أكثر ممَّا كتبه لي في الرسالة.

«هل قرأتَ الرواية؟» سألته بانفعال.

«أجل».

«لكنّك لم تقل شيئًا».

غمغم شيئًا ما عن وقته القصير، ودراساته، والمعوّقات الأخرى.

«كيف وجدتها؟»

«جيّدة».

«جيّدة فقط؟»

«جيّدة. اتّصلي بأمّي؛ فأنا فقيه لغويّ ولست أديبًا».

أعطاني رقم بيت أهله.

«لا أودّ الاتِّصال. أشعر بالخجل».

أحسستُ بأنَّه غاضب نوعًا ما، وهذا نادرًا ما يظهر عليه، وهو ذو النبرة اللبقة عمومًا. قال:

«لقد كتبتِ رواية؛ تحمّلي مسؤوليَّة ذلك إذن».

Telegram: Somrlibrary

كنت بالكاد أعرف آديلي آيروتا، قابلتُها أربع مرّات كحدّ أقصى، ولم نتبادل أكثر من تلك العبارات التقليديَّة. طوال ذلك الوقت، كنت على يقين بأنَّها ميسورة ومثقَّفة وربّة أسرة ـ آل آيروتا لا يتحدَّثون عن أنفسهم مطلقًا، كانوا يتصرَّفون كما لو أنَّ نشاطاتهم عديمة القيمة في الحياة، لكنّهم في الوقت ذاته متأكِّدون من أنها تنال متابعة الجميع ـ. ولم أشعر، قبل تلك المناسبة، بأنّ لديها عملًا، وأنَّها قادرة على استخدام نفوذها. اتَّصلتُ بالرقم، وأنا أكابد قلقًا شديدًا، ردَّت الخادمة ومرَّرت السمَّاعة إليها. رحَّبت بي بألفة، من دون أن تغفل صيغة الاحترام، ولا أنا طبعًا. قالت إنّ القائمين على دار النشر مقتنعون جميعًا بجودة الكتاب، وكانوا يعدّون مسوّدة عقد، على حدّ علمها.

«عقد؟»

«بالتأكيد. هل لدى حضرتكِ التزاماتٌ مع دُور نشر أخرى؟»

«لا، لكنّني لم أراجع ما قرأتُ».

«هل كتبتِها دفعة واحدة، من دون تحرير؟» سألتْني بسخرية غامضة.

«أجل».

«أؤكّد لحضرتك أنّ الرواية جاهزة للنشر».

«عليّ أن أعمل عليها مرّة أخرى».

«ثقي بي؛ لا تمسّي أيّ فاصلة ممَّا كتبتِ. فالرواية تحتوي على صدقٍ وعفويّة ولغزٍ في الكتابة، لا يوجد إلَّا في الكتب الحقيقيَّة».

عادت تهنّئني، بطرافة. قالت إنّ الإلياذة، في حدّ ذاتها، كما أعرف، لم تكن تامّة. وافترضت أنّني أكتب منذ زمن طويل، سألتني إن كان لديّ أعمال أخرى قيد التأليف. فتعجَّبتْ حين قلت لها إنَّها أوّل شيء أكتبه. «موهوبةٌ ومحظوظة» هتفتْ. ثم أطلعتني على أنّ النشر

Telegram: Somrlibrary

يشكو من فراغ مفاجئ، ما جعلهم يعتبرون روايتي ليست ممتازة فحسب، بل جاءت في أوانها أيضًا. وكانوا ينوون إصدارها في الربيع.

«أليس باكرًا؟»

«هل لديك اعتراض ما؟»

فاستعجلتُ بالنفي.

كانت جيليولا، من خلف المصطبة، تستمع إلى المكالمة؛ وفي النهاية سألتني بفضول:

«ما الذي يحدث؟»

«لا أعرف» أجبتُها، وخرجتُ على عَجَل.

تجوّلت في الحيّ، على غير هدًى، تنتابني سعادة غير معقولة، وصدغاي ينبضان. لم تكن الإجابة، التي وجّهتها إلى جيليولا، من النوع السفيه كي لا أتكلَّم معها؛ بل كنت حقًّا لا أعرف. ما هذا النبأ المباغت: بضعة سطور من بييترو، مكالمة خارجيَّة، ألم تكن هذه أكذوبة؟ ثم ماذا يعني «عقد»، هل يترتّب عليه مبلغ ماليّ، هل يترتّب عليه حقوق وواجبات، هل كنت أقحم نفسي في متاعب خطيرة؟ سأكتشف بعد أيّام أنَّهم غيّروا فكرتهم ـ قلت لنفسي ـ ولن ينشروا الكتاب أبدًا. سيقرأون قصَّتي ثانية، ومَن رآها جيِّدة في البدء فسيجدها تافهة؛ ومن لم يقرأها فسيغضب ممَّن كان يرجّح إصدارها؛ سيمتعض الجميع من آديلي آيروتا، وستغيّر آديلي نفسها رأيها، ستشعر بالإهانة، وستضع اللائمة عليّ، وستقنع ابنها بأن يتركني. مررتُ قبالة مبنى مكتبة الحيّ القديمة؛ منذ وقت طويل لم تطأها قدماي. دخلتُ، وجدتُها خاوية، ورائحة الغبار والملل تفوح منها. تحرّكت سارحة على طول الرفوف، لمستُ كتبًا تالفة من دون أن أنظر إلى العنوان أو اسم المؤلِّف، سوى للمسها بأصابعي. ورق قديم، خيوط قطنيَّة متشابكة،

Telegram: Somrlibrary

أحرف الأبجديَّة، حبر، مجلّدات، وكلمات لولبيَّة. بحثتُ عن «نساء صغيرات»، ووجدته. هل من المعقول أنّ الأمر يوشك على الحدوث؟ هل من المعقول أنَّ القدر اختارني أنا، أنا، ليحدث لي ما خطَّطنا له أنا وليلا معًا في الماضي؟ بعد بضعة أشهر، سيكون هناك ورقٌ مطبوع، ومغلّف، ومصمّغ، ومليء بكلماتي؛ وعلى الغلاف اسمي أنا، إيلينا غريكو، كنقطة فاصلة في سلسلة طويلة من الأمِّيين وأشباه الأمِّيين. كُنية مجهولة تتجهَّز لتُبصر النور، وتُسلّط عليها الأضواء إلى الأبد. بعد بضعة أعوام ـ ثلاثة، خمسة، عشرة، عشرين ـ سينتهي المطاف بالكتاب إلى هذه الرفوف، ليتربّع في مكتبة الحيّ الذي وُلدتُ فيه؛ سيوضع في القائمة، وسيستعيره الناس ليفهموا ما الذي كتبتْه ابنة البوّاب. سمعتُ صوت جريان المياه في المرحاض، وانتظرتُ ظهور المعلِّم فيرارو. على حاله منذ كنت فتاة مجتهدة: بوجهه النحيل، ربَّما كثير التجاعيد، وشعره المسرَّح إلى الخلف، والذي لا يزال كثيفًا عند جبينه على الرَّغم من الشيب. ها هو مَن في إمكانه تقدير ما يحدث، هو الوحيد الذي سيتفهَّم لهيب الحيرة في رأسي، والنبض في صدغيّ. فإذا رجلٌ غريب يخرج من المرحاض، كان مكتنزًا وقصير القامة، وفي الأربعينيَّات من عمره.

«هل تريدين استعارة كتاب ما؟» سألني، «بسرعة لو سمحتِ؛ عليّ أن أغلق المكتبة».

«أبحث عن المعلِّم فيرارو».

«فيرارو أُحيل على التقاعد».

عليّ أن أستعجل؛ عليه أن يُغلق.

انصرفتُ. في حين كنت أصبح كاتبة، لم يعد في الحيّ برمَّته من في وسعه أن يقول: يا لروعة ما نجحتِ في فعله، يا إيلينا!

Telegram: Somrlibrary

١٢١

لم أكن أتصوَّر أنَّني سأجني مالًا، لكنَّني تلقَّيتُ مسوّدة عن العقد، واكتشفتُ أنَّ دار النشر، بفضل توصيات آديلي بالتأكيد، تخصِّص لي مئتي ألف ليرة سلفًا، ومئة ألف عند التوقيع، ومئة ألف أخرى عند التسليم. ذُهلتْ والدتي، ولم تصدِّق. ووالدي قال: «أحتاج إلى أشهر كي أتقاضى هذا المبلغ كلّه من المال». وراح كلاهما يزهو فخورًا في الحيّ: ابنتنا أصبحت ثريّة، تعمل كاتبة، ستتزوَّج بابن بروفسور جامعيّ. وأنا استعدتُ صفائي، وتوقَّفتُ عن التحضير لتلك المسابقة. وما إن وصلت إليَّ أوَّل دفعة، اشتريتُ فستانًا، ومجموعة تزيين، وذهبتُ إلى الحلّاق لأوَّل مرَّة في حياتي؛ ثم انطلقتُ إلى ميلانو، التي لم أكن أعرفها.

وفي المحطَّة، وجدتُ صعوبة في الاتِّجاهات. ركبتُ المترو في النهاية، واتَّخذتُ الوجهة الصحيحة، ووصلتُ مربكة إلى بوَّابة دار النشر. ورحت أغدق على البوّاب ألف توضيح، مع أنَّه لم يطلب منِّي ذلك؛ بل ظلّ يقرأ الجريدة، بينما كنت أتكلَّم. دخلتُ المصعد، طرقتُ الباب، ودخلتُ. صُعقتُ بنظافة المكان، وشعرتُ برأسي مزدحمًا بكلّ ما درستُه وأردت أن أُلقيه، لأبرهن أنَّني أستحقّ أن يُنشر لي ذلك الكتاب، على الرَّغم من أنَّني أنثى، وعلى الرَّغم من أنّ

Telegram: Somrlibrary

أصولي واضحة على مظهري؛ وأنَّني كنت في الثالثة والعشرين من عمري، ولا أقبل أن توضع أيٌّ من مزاياي على طاولة النقاش.

حظيتُ باستقبال لائق، ورافقوني من مكتب إلى آخر. تكلّمتُ مع مدير الدار الذي كان معنيًا بمخطوطتي، كان رجلًا طاعنًا في السنّ، أصلع الرأس، لكنّ وجهه يحمل سمات طيّبة. تحدّثنا طوال ساعتين، أثنى عليّ كثيرًا، وأشار غالبًا إلى آديلي آيروتا بوقارٍ لافت، وأطلعني على التعديلات التي كان ينصحني بها، وترك لي نسخة من النصّ ومن ملاحظاته. وفي الوداع، قال بنبرة متوازنة: «القصّة بديعة؛ قصّة معاصرة ومكتوبة بأسلوب بليغ ومذهل؛ لكنّ المشكلة ليست هنا. لقد قرأت كتابك ثلاث مرّات، وفي كلّ صفحة، كنت أجد شيئًا خارقًا لم أفهم من أين تأتين به». احمررتُ خجلًا، وشكرته. هذا ما كنت قادرة على فعله، وقد حقّقته بسرعة قياسيّة. كم كنت ألقى استحسان الآخرين ورضاهم، وكم كنت أتكلّم على دراساتي بشكل جيّد، وعلى جامعتي، وعلى أطروحتي التي تناولت المجلّد الرابع من الإلياذة. كنت أردّ بدقّة لائقة على ملاحظات لائقة، مقلِّدة نبرة الأستاذة غالياني، وابنيها، وماريًا روزا. سألتني إحدى الموظّفات، وكانت لطيفة ولبقة، وتُدعى جينا، إن كنت في حاجة إلى النزول في فندق؛ وحين أجبتها بنعم، حجزتْ لي في فندق في شارع غاريبالدي. وفوجئتُ كثيرًا عندما عرفتُ أنّ كلّ النفقات كانت على حساب دار النشر: أيّ قرش سأنفقه للطعام، بل حتى ثمن بطاقات القطار. قالت لي جينا أن أسلّمها قائمة النفقات، لتسلِّمني المبلغ في ما بعد، وأوصتني بإبلاغ تحيّاتها إلى آديلي. «اتّصلت بي» قالت، «إنّها تعوّل عليك كثيرًا».

في اليوم التالي، انطلقتُ إلى بيزا. كنت أرغب في عناق بييترو. وحين كنت في القطار، أخذت أقوِّم ملاحظات مدير الدار واحدةً واحدة، وسررتُ برؤية كتابي بعين مَن أُعجب به، ويعمل عليه ليُخرجه

Telegram: Somrlibrary

في أفضل صورة. وصلتُ إلى بيزا، وكنت فخورة بنفسي. وجد لي خطيبي منامة في بيت أستاذة مساعِدة في الأدب الإغريقيّ، متقدِّمة في العمر، كنت أعرفها أنا أيضًا. وفي المساء، أخذني إلى العشاء. وللمفاجأة، أراني مخطوطي. حتى هو كان يملك نسخة من المخطوط، وقد سجَّل بعض الملاحظات، فنظرنا في أمرها، واحدة واحدة، معًا. كانت ملاحظاته تتَّسم بعنايته المعهودة، وتعنى باللغة على وجه الخصوص.

«سأفكِّر فيها»، قلت ممتنَّة.

بعد العشاء، استلقينا على أحد المروج. وفي نهاية عناقٍ هائج تحت البرد، ناهيك بثقل معطفينا وثيابنا الصوفيَّة، طلب منِّي أن أعتني بتهذيب الصفحات التي تتحدَّث عن فقدان البطلة بكارتها على الشاطئ. فقلت له مرتبكة:

«لكنّها لحظة مهمّة».

«لقد قلت بنفسك إنَّها صفحات جسورة نوعًا ما».

«في دار النشر، لم يقدِّموا أيّ اعتراض».

«سيحدِّثونك في الأمر لاحقًا».

ثارت أعصابي، قلت له إنَّني سأفكِّر في هذا أيضًا. وفي اليوم التالي، انطلقتُ إلى نابولي متكدِّرة المزاج. فإن كان بييترو، وهو الشابّ النهم على القراءة، والذي ألّف كتابًا عن الطقوس الباخوسيَّة، قد ارتبك أمام مَشاهد من ذاك النوع؛ فماذا ستقول أمِّي وأبي وإخوتي وسكّان الحيّ، إن قرأوا الرواية؟ في القطار، انغمستُ في النصّ، آخذة بعين الاعتبار كلًّا من ملاحظات المحرِّر وملاحظات بييترو، ومحوتُ ما استطعتُ محوه. كنت أريد للكتاب أن يكون جيّدًا، وألّا يُؤسِف أحدًا. كنت أشكّ في أنَّني سأؤلِّف كتابًا آخر بعده.

Telegram: Somrlibrary

١٢٢

سمعتُ خبرًا سيِّئًا، فور عودتي إلى البيت. كانت أمِّي تظنّ أنّ من حقّها النظر في بريدي حين أكون غائبة. فتحتْ طردًا بريديًّا آتيًا من بوتينسا، ووجدتْ فيه عددًا من دفاتري الابتدائيَّة، ورسالة من شقيقة المعلِّمة أوليڤييرو. قرأتُ في الرسالة أنّ المعلِّمة أسلمت الروح منذ عشرين يومًا. وغالبًا ما تذكَّرتني، في أيَّامها الأخيرة، وأوصت بأن تعاد إليّ بعض دفاتري القديمة من المرحلة الابتدائيَّة، والتي حافظتْ عليها للذكرى. اقشعرّ بدني، وتأثَّرتُ أكثر من أختي إيليزا، التي كانت تبكي منذ ساعات بلا هوادة. أغضب الأمر والدتي، فصاحتْ على ابنتها الصغيرة أوَّلًا، ثم التفتتْ إلى ابنتها الكبرى، وعلَّقتْ بصوت مرتفع، كي أسمع جيِّدًا: «تلك الحمقاء، لطالما اعتبرتْ نفسها أمًّا أكثر منِّي».

بقيتُ طوال اليوم أفكِّر في أوليڤييرو، وكيف كانت ستفتخر بنفسها لو أنَّها علمتْ بتخرُّجي بمعدَّل تامٍّ، وبالكتاب الذي سأنشره. حين خلد الجميع إلى النوم، انعزلتُ في المطبخ الهادئ، ورحت أتصفَّح الدفاتر واحدًا تلو الآخر. كم أحسنتْ تلك المعلِّمة تربيتي، وما أجمل الخطّ الذي علَّمتني إيَّاه! تحسَّرتُ لأنّ يديَّ شوَّهتا أسلوبها حينما كبرتُ، وأنَّ

Telegram: Somrlibrary

السرعة في الكتابة بسّطت الأحرف. ابتسمتُ للأخطاء الإملائيَّة المُشار إليها بخطوط غاضبة، وكلمتي التشجيع: «مرحى» و«ممتاز»، اللتين كانت تسجِّلهما بسرعة على الهامش حين تصادف تعبيرًا حسنًا أو حلًّا صحيحًا لمسألة معقّدة؛ ابتسمتُ للعلامات العالية دومًا التي كانت تمنحني إيَّاها. هل كانت أكثر أمومة من أمِّي حقًّا؟ لم أكن جازمة في هذا، منذ وقت بعيد. لكنّها أحسنتْ في تصوُّر دربٍ أسير فيه ـ لم تكن أمِّي قادرة على تصوّره ـ لا بل أرغمتني على السير فيه. كنت ممتنَّة لها على هذا.

وبينما كنت أضع الطرد جانبًا لأذهب للنوم، وقعتْ عيناي على ملفٍّ صغير وهزيل بين الدفاتر، عبارة عن عشر صفحات من أوراق مربّعة ومثنيّة ومثبَّتة بالدبُّوس. شعرتُ بفراغ مباغت يسحق صدري. إنَّها «الساحرة الزرقاء»، القصَّة التي كتبتْها ليلا منذ أعوام بعيدة، كم؟ ثلاثة عشر عامًا، أربعة عشر. كم أعجبني حينها الغلاف الملوَّن بالمعجون، والعنوان بالأحرف المنمّقة! في تلك الفترة، كنت أعتبره كتابًا حقيقيًّا، أحسدها عليه. فتحتُ الملفّ إلى الصفحة الرئيسيَّة. تعرّض الدبُّوس للصدأ، ووسم الورقة بلونٍ بنِّيّ. ولشدّة ما أذهلني أنّ المعلِّمة كانت قد كتبت على هامش جملة معيَّنة: «جميل جدًّا». هل قرأتْه إذن؟ هل أعجبها؟ قلّبت الصفحات واحدة في إثر أخرى، كانت مليئة بتلك الكلمات: «أحسنت»، «جيِّد»، «جيِّد جدًّا». غضبتُ. يا لك من خبيثةٍ عجوز، لماذا لم تقولي لنا إنّه أعجبك، لماذا حرمتِ ليلا سعادةً وشعورًا بالرضا؟ ما الذي دفعكِ إلى الاهتمام بتأهيلي وإهمال ليلا؟ هل ستبرِّرين هذا برفض الإسكافيّ إرسال ابنته إلى امتحان القبول؟ أيُّ لؤمٍ ألمّ بكِ، وحمّلتِها تبعاته؟ أخذتُ أقرأ «الساحرة الزرقاء» من البدّاية، أتابع الحبر الباهت، والخطّ الذي يشبه خطّي حينئذ. لكنَّني

Telegram: Somrlibrary

شعرتُ بألم في المعدة، منذ الصفحة الأولى، ورشح جلدي بالعرق حالًا. وفي النهاية فقط، أسلمتُ بما أدركته من الأسطر الأولى. صفحات ليلا الصبيانيَّة كانت الجوهر السرّيّ لكتابي. ومن أراد أن يعرف من أين لكتابي كلّ تلك الحرارة، ومن أين جاء الخيط المتين الخفيّ الذي يربط الجمل، كان عليه أن يعود إلى ذلك الملفّ لصاحبته الطفلة، ذي العشر صفحات من قطع صغير، وذي الدبُّوس الصَّدئ، والغلاف الملوَّن بشكل حيويّ، والعنوان، وحتى التوقيع.

Telegram: Somrlibrary

١٢٣

لم يغمض لي جفنٌ طوال الليل. انتظرتُ أن يطلع الصباح. تلاشت كلّ أسباب جفائي بحقّ ليلا؛ وبدا لي بغتة أنّ ما نزعتُه عنها أكثر بكثير ممَّا قد نزعتْه عنِّي. قرَّرتُ أن أذهب حالًا إلى سان جوفاني آتيدوتشو. كنت أريد أن أُعيد «الساحرة الزرقاء» إليها، وأن أُريها دفاتري، ونتصفَّحها معًا، ونستمتع بتعليقات المعلِّمة. شعرتُ خصوصًا بضرورة أن أُجلسها قربي، وأقول لها: انظري كم كنَّا منسجمتَين، كأنَّنا روحان في جسد واحد، روحٌ في جسدين. كنت أريد أن أثبت لها ـ بالحزم الذي بدا لي أنَّني تعلّمته في الجامعة؛ وبالمنهج اللغويّ الذي تعلّمته من بييترو ـ كيف أنّ كتابها، الذي ألّفته في صغرها، ثبّت جذوره في رأسي، إلى درجة أنَّه تطوّر مع السنوات ليصير كتابًا آخر، لا يمكن فصله عن كتابها. وعلى الرَّغم من أنَّه من بنات أفكاري، وعلى الرَّغم من أنَّه مختلف وناضج؛ لا يمكن إغفال ارتباطه بالصور الخياليَّة التي عملنا عليها معًا باللعب في الفناء، أنا وهي باستمرار، نشكّلها ونشوّهها، فنُعيد تشكيلها. كنت أرغب في أن أعانقها، وأقبّلها وأقول لها: ليلا، من الآن فصاعدًا، مهما حدث لك، ومهما حدث لي، لا يجب أن نفترق أبدًا.

Telegram: Somrlibrary

لكنّ ذلك الصباح كان عصيبًا. بدا لي أنّ المدينة تفعل كلّ شيء للحيلولة بيني وبينها. ركبتُ حافلة مكتظّة، متّجهة نحو المارينا، وكدت أختنق بين تلك الأجساد البائسة. صعدتُ حافلة أخرى مكتظّة أكثر من السابقة، وأخطأتُ الاتّجاه. نزلتُ منهكة ومشتّتة، وعالجتُ الخطأ بانتظارٍ طويل وغيظ ساخط. أرهقني ذلك التحرُّك القصير في ناپولي. بِمَ أفادتْني الأعوام التي أمضيتُها في المدرسة الثانويَّة، والسكن الجامعيّ والجامعة، في التجوُّل في هذه المدينة؟ أُرغمتُ على القهقرة للوصول إلى سان جوفاني، كما لو أنّ ليلا لم تنتقل للسكن في شارع، أو ساحة ما، بل في جدول صغير من الزمن الماضي، في زمنٍ سبق ذهابنا إلى المدرسة، زمن أسود لا ثوابت فيه ولا تبجيل. لجأتُ إلى أسفل دركٍ من العامِّيَّة، لكنة أسوأ من لكنة حيّنا. شتمتُ وتلقَّيتُ الشتائم. أطلقتُ وعيدًا وتلقَّيتُ آخر: فنّ بربريّ كنتُ قد تمرَّنت عليه. لقد أفادتني ناپولي في بيزا، لكنّ بيزا لا تفيدني في ناپولي، بل كانت تشكِّل عائقًا. الأساليب المهذّبة، الصوت الرخيم والمظهر اللائق، امتلاء الرأس واللسان بما تعلّمته من الكتب، كانت دلالات مباشرة على العجز، وتجعل منِّي فريسة سهلة كتلك التي لا تستطيع الركض. في الحافلات وفي الشوارع نحو سان جوفاني، استعدتُ رابطًا يجمع بين قدرتي المعتادة على نزع قناع اللطف في اللحظة المناسبة، وبين استعلائي بوضعي الجديد: كان لديّ شهادة جامعيَّة بمعدّل تامّ مصحوب بثناء خاصّ، تناولتُ غداءً مع البروفسور آيروتا، كنت خطيبة ابنه، وادّخرتُ قليلًا من المال في مصرف البريد، وعوملتُ في ميلانو بتقدير من أشخاص رفيعي المستوى؛ فما بال هؤلاء الخرائيين تسوّل لهم أنفسهم التهجُّم عليّ؟ شعرتُ بأنَّني مشحونة بطاقةٍ لن تسمح لي بالعودة إلى «التظاهر بلا شيء»، وهي قاعدةٌ تعزِّز صمود المرء في

Telegram: Somrlibrary

الحيّ وخارجه بشكل عام. حين كنت بين جموع الركّاب، وأحسستُ بأيادي الذكور تتلمّس جسدي غير مرّة، سمحتُ لنفسي بحقّي المقدَّس في الغضب، وأجبتُ بصياحٍ وازدراء، تفوَّهتُ بكلمات شنيعة كتلك التي كانت والدتي تستخدمها بإتقان، وليلا أيضًا. وبالغتُ إلى درجة أنَّني، حين نزلتُ من الحافلة، كنت واثقة بأنّ أحدهم نزل معي ليذبحني.

لم يحدث. لكنَّني ابتعدتُ بمزيج من الخوف والغضب، في كلّ حال. خرجتُ من البيت بكامل هندامي، وحينها كنت أشعر بالرداءة شكلًا ومضمونًا.

حاولتُ أن أستعيد توازني، وقلت لنفسي: اهدئي، ها قد وصلتِ. استعلمتُ من بعض المارّة. وتقدَّمتُ في سان جوفاني آتيدوتشو، والريح والصقيع بصفعان وجهي. بدا لي الشارع قناة مصفرّة اللون، جدرانها مهدّمة، وفتحاتها سوداء وقذرة. تجوَّلتُ، واحترتُ في تلك المعلوماتِ الطريفة عديمة الفائدة. ووجدتُ الشارع أخيرًا، ثم البناية. صعدتُ على سلالم متَّسخة، تفوح منها رائحة الثوم الثاقبة، وأصوات الأولاد. أطلّت امرأة بدينة، ترتدي كنزة خضراء، من باب مفتوح أساسًا، رأتني وصرخت: «عمّن تبحثين؟» «عن السيِّدة كارّاتشي» قلت. وحين رأيتُها محتارة، صحَّحتُ فورًا: «سكانّو» كنية إنتسو. ثم أضفت: «شيرولُّو». فردَّدت المرأة: «شيرولُّو»، وقالت وهي ترفع ذراعها الثخينة: «في الأعلى». شكرتُها، وتابعتُ الصعود، بينما كانت تطلّ برأسها من على السياج وتنظر إلى الأعلى. صاحت: «ثمَّة من يبحث عن لينا يا تيتي، إنَّها تصعد».

لينا. هنا، في هذا المكان، على لسان نساء غريبات. فأدركتُ حينها فقط أنّ ليلا التي علقت في ذهني كانت كتلك التي رأيتها آخر

Telegram: Somrlibrary

مرّة، في الشقَّة في الحيّ الجديد، ضمن أجواء أنيقةٍ كانت تمثِّل خلفيَّة لحياتها، حتى لو كانت مثقلة بالهمّ، فضلًا عن الأثاث والثلّاجة والتلفاز والطفل المدلَّل، وهي نفسها التي عانت الأمرَّين بلا شكّ، لكنَّها كانت لا تزال محافظة على هيئة السيِّدة الشابَّة ميسورة الحال.

حتى تلك اللحظة، لم أكن أعرف شيئًا عن حياتها: كيف كانت تعيش، وماذا كانت تفعل. الثرثرة توقَّفت عند هجرانها لزوجها، عند الحدث الرهيب بأنَّها تركت منزلًا جميلًا وأموالًا فائضة ورحلت مع إنتسو سكانو. لم أكن أعرف عن لقائها سوكافو. لذا، كنت قد انطلقتُ من الحيّ، وأنا متيقِّنة بأنَّني سأجدها في بيت جديد بين كتب مفتوحة ولُعَب تعليميَّة للطفل، أو أن تكون قد خرجت للتوّ لشراء الأغراض. وكنت قد وضعتُ هذه الصور - ربَّما كسلًا منِّي، أو كي لا أشعر بالحزن - في اسم الموقع: سان جوفاني آتيدوتشو، بعد غرانيلي، في نهاية المارينا. لذا، صعدتُ بهذه التوقّعات. فكَّرتُ: فعلتُها، وأخيرًا، هأنذا في الاتِّجاه الصحيح. وصلتُ إلى تيتينا، المرأة الشابَّة التي تحمل بين ذراعيها طفلة تبكي بهدوء، بشهقات خفيفة، وسيول المخاط تنحدر على شفتها العليا من أنفها المحمرّ بردًا، إضافة إلى طفلين ملتصقين على جانبَيْ تنُّورتها.

وجَّهت تيتينا نظراتها إلى الباب المقابل، وكان مغلقًا.

«لينا ليست هنا» قالت بجفاء.

«ولا إنتسو؟»

«لا».

«هل خرجت لتتنزِّه ابنها؟»

«مَن حضرتك؟»

«اسمي إيلينا غريكو، صديقتها».

Telegram: Somrlibrary

«أتعرفين رينوتشو؟ ها يا رينو، هل رأيت هذه الآنسة من قبل؟»

ربّتت على رقبة أحد الطفلين، فعرفتُه حينها. ابتسم لي الطفل، وقال بالإيطاليَّة الفصحى:

«مرحبًا يا خالة لينو. ماما ستعود في الثامنة مساءً».

حملته إليّ، وعانقته، ومدحتُ وسامته وطلاقة لسانه.

«إنَّه حادّ الذكاء» أقرَّت تيتينا، «لقد وُلد بروفسورًا».

ومنذئذ، تلاشى جفاؤها تجاهي، ودعتني إلى الدخول إلى المنزل. كدت أتزحلق بشيء ما، لا بدّ من أنَّها لعبة لأحد الطفلين، في الممرّ المعتم. كان المطبخ غارقًا في الفوضى، والأغراض غارقة في ضوء رماديّ. ثمَّة قماش لا يزال تحت إبرة ماكينة الخياطة، وقماش آخر متنوِّع الألوان في المحيط وعلى الأرض. حاولت تيتينا، بحياء مباغت، أن ترتِّب المكان، ثم عدلت عن هذا، وحضّرتْ لي فنجان قهوة، ولم تُنزل الطفلةَ من بين ذراعيها. أمَّا أنا، فحملتُ رينوتشو ووضعتُه في حضني، ورحت أطرح عليه أسئلة غبيَّةً، كان يجيبني عنها بطاعةٍ ونباهة؛ بينما شرعت المرأة تُعْلمني عن ليلا وإنتسو.

«هي تعمل في اللحوم المجفَّفة، عند سوكافو»، قالت.

صُعقتُ، وعاد إلى ذهني برونو حينذاك فقط.

«سوكافو، مالك مصنع المرتديلَّا؟»

«سوكافو، أجل».

«أعرفه».

«ليسوا أُناسًا طيّبين».

«أنا أعرف الابن».

Telegram: Somrlibrary

«الابن وأبوه وجدّه، كلّهم الخراء نفسه. صاروا مالكي مصانع، فنسوا أيّام كانوا فلّاحين قذرين».

سألتها عن إنتسو. قالت إنَّه يعمل في القاطرات، استخدمتْ ذلك التعبير، وفهمتُ أنّها كانت تظنّهما زوجًا وزوجة، إذ سمَّت إنتسو، بكلّ احترام وودّ، «السيِّد شيرولُّو».

«متى تعود لينا؟»

«في المساء».

«والطفل؟»

«يبقى عندي، يأكل ويلعب، ويفعل ما يحلو له».

لم تنتهِ رحلتي بعد، إذن. كلّما اقتربتُ من ليلا، ابتعدتْ عنِّي. سألتُها:

«كم يستغرق المشي على الأقدام للوصول إلى المصنع؟»

«عشرين دقيقة».

أمدّتني تيتينا بمعلومات عن الاتِّجاه، سجّلتها على ورقة. ثم سألني رينوتشو بتهذيب: «هل أستطيع الذهاب للعب يا خالة؟» وانتظر أن أقول له نعم، فركض في الممرِّ إلى الطفل الآخر، وسمعتُه يصرخ بشتيمة شنيعة بالعامِّيَّة. نظرت إليّ المرأة بحياء، ثم صرخت من المطبخ، بالفصحى:

«لا يجب أن تردِّد الكلمات النابية يا رينو؛ حذار، وإلَّا أتيتُ وعاقبتُك بضرب يديك».

ابتسمتُ لها، وتذكَّرتُ الرحلة بالحافلة. أنا أيضًا أستحقّ عقوبة على اليدين، فكَّرتُ، أجد نفسي في جانب رينوتشو. وحين لم يتوقَّف العراك في الممرِّ، توجّب علينا التدخُّل. كان الطفلان يتلاكمان ويتراميان بالأغراض، ويتبادلان الشتائم.

Telegram: Somrlibrary

١٢٤

وصلتُ إلى منطقة مصنع سوكافو عبْر درب ترابيّ، فيه قمامة من كلّ نوع، وثمّة عمود دخان أسود يصعد نحو صقيع السماء. وقبل أن أرى الجدار الخشن، انتبهتُ لرائحة الدهون الحيوانيّة، ممزوجة بحطب محروق، ما جعلني أشمئزّ. قال الحارس، بنبرة لامبالية، إنّ زيارة الأصدقاء ممنوعة خلال ساعات العمل. طلبتُ أن أتحدَّث مع برونو سوكافو. فتغيّرت نبرته، وغمغم قائلًا إنّ برونو نادرًا ما يأتي إلى المصنع. اتَّصلْ به إلى البيت من فضلك، قلتُ له. ارتبك، وقال إنَّه لا يستطيع إزعاجه من دون سبب. فأجبته: «إن لم تتَّصل به أنت، فسأبحث عن هاتف وأتَّصل به بنفسي». نظر إليّ ممتعضًا، واحتار في ما عليه فعله. مرّ شخصٌ ما بدرَّاجته الهوائيَّة، توقّف، وقال للحارس كلمات نابية بالعاميَّة. بدا أنّ الحارس انتشى برؤيته، وراح يدردش معه كما لو لم أكن موجودة هناك.

ثمّة نارٌ موقدة وسط الباحة. وقفتُ قرب النار، فنزع الدفء قليلًا من قسوة البرد بضع ثوانٍ. اتَّجهتُ إلى مبنًى منخفض أصفر اللون، دفعتُ بابًا ثقيلًا، ودخلتُ. كدت أختنق برائحة الدهون، التي كانت حادّة ومزعجة في الخارج أصلًا. صادفتُ شابّة غاضبة، تصفِّف شعرها بعصبيَّة. قلت لها: «لو سمحتِ...» فتجاهلتْني، وأكملت سيرها

Telegram: Somrlibrary

مطأطئة الرأس. مشت أربع خطوات، ثم توقَّفت.

«ماذا تريدين؟» سألتني بنفور.

«أبحث عن عاملة تُدعى شيرولُّو».

«لينا؟»

«أجل».

«ابحثي عنها في قسم التخزين».

سألتها أين يقع ذلك القسم، فلم تجبني وانصرفت. دفعتُ بابًا آخر، فداهمتني حرارة مرتفعة، جعلتْ من رائحة الدهون أكثر اشمئزازًا. كان المكان فسيحًا، وثمَّة أحواض مليئة بالمياه المائلة إلى البياض، تظهر فيها ـ من بين البخار ـ أجسادٌ داكنة هامدة لعمّالٍ يعملون ببطء، منحنين وغارقين في المياه حتى خصورهم. لم أجد ليلا. سألتُ أحدًا ما، مستلقيًا على البلاط الممرّغ بالوحل، كان يعمل على تركيب أنبوب ما:

«هل تعلم أين يمكنني أن أجد لينا؟»

«شيرولُّو؟»

«أجل».

«عند طاحونة اللحوم».

«قالوا لي إنَّها في قسم التخزين».

«لماذا تسألين إن كنت تعلمين؟»

«أين طاحونة اللحوم؟»

«ها هي أمامك».

«وقسم التخزين؟»

«إلى اليمين. إن لم تجديها هناك؛ فابحثي عنها في قسم السلخ، أو عند الحاويات، لأنَّهم ينقلونها من مكان إلى آخر دومًا».

Telegram: Somrlibrary

«لماذا؟»

ابتسم بمكر.

«هل هي صديقتك؟»

«أجل».

«فلننسَ الأمر إذن».

«قل لي».

«لن تشعري بالاستياء؟»

«لا».

«إنَّها مزعجة».

اتَّبعتُ الإشارات، لم يوقفني أحد. بدا لي العمّال والعاملات غارقين في حياد صارم، حتى عندما يضحكون أو يتبادلون الشتائم، يبدون منفصلين عن ضحكاتهم وأصواتهم؛ عن القاذورات التي يُعيدون تكريرها؛ عن تلك الرائحة الكريهة. تسلَّلتُ بين عاملات يرتدين بذلات زرقاء، ويعملن على اللحوم، وعازل الصوت على رؤوسهنّ. فالآلات كانت تُصدر ضجيجًا حديديًّا مع هدير الموادّ الرخوة والمقطّعة والمطحونة. لكنّ ليلا لم تكن بينهنّ. ولم أجدها حيث يحشين عجين اللحوم زهريَّة اللون والممزوجة بقطع الدهون في المصران، ولا حيث يسلخن اللحوم بالسكاكين الصغيرة والمشحوذة، ويصفّينها ويقطّعنها بالشفرات، بعصبيَّة خطيرة. لكنّني وجدتُها في قسم الحاويات، إذ خرجتْ من ثلَّاجة عملاقة مع ما يشبه هبوب الريح الباردة. كانت تحمل على كتفها، بمساعدة رجل قصير القامة، قطعة كبيرة حمراء من اللحم المجمّد. وضعا القطعة على العربة، وتهيّأتْ للعودة إلى الثلَّاجة. وانتبهتُ بسرعة ليدها المعصوبة.

«ليلا».

التفتتْ بحذر، وحدّقتْ إليّ بنظرة شكّ. «ماذا تفعلين هنا في

Telegram: Somrlibrary

الداخل؟» قالت. كانت عيناها محمرّتين، ووجنتاها أكثر تجويفًا من المعتاد، على الرَّغم من أنَّها كانت تبدو بدينة، وطويلة القامة. كانت ترتدي بذلة زرقاء هي أيضًا، لكنّها تضع عليها ما يشبه المعطف الطويل، وتنتعل جزمة عسكريَّة بالية. وددتُ أن أعانقها، لكنَّني لم أجرؤ. إذ خشيتُ أن تفتِّتني بين ذراعيها، لا أدري لماذا انتابني هذا الإحساس. وكانت هي من بادر إلى عناقي لحظاتٍ طويلة. شعرتُ برطوبة لباسها، الذي تنبعث منه رائحة أشدّ نتانة من تلك التي تهيمن على المكان. «تعالي» قالت، «فلنخرج من هنا»، وصاحت بذاك العامل: «دقيقتان». وسحبتني إلى زاوية ما.

«كيف عثرتِ عليّ؟»

«دخلتُ هنا».

«وهل سمحوا لك بالمرور؟»

«قلت لهم إنَّني أبحث عنك، وإنَّني صديقة برونو».

«أحسنتِ، فهكذا سيقتنعون بأنَّني ألعق قضيب ابن مالك المصنع ويتركونني بسلام».

«ماذا تقولين؟»

«هكذا تسير الأمور».

«هنا؟»

«في كلّ مكان. هل حصلتِ على الشهادة؟»

«أجل. لكن حدث لي أمر أجمل من التخرُّج يا ليلا. كتبتُ رواية وستصدر في أبريل».

كان لون وجهها شاحبًا، بلا دماء، ومع ذلك تحمّستْ. رأيتُ احمرار بشرتها يصعد من حلقها إلى وجنتيها، فمدار عينيها، حتى إنَّها أغمضتهما، كأنَّها تخشى أن يحرق اللهيبُ حدقتيها. ثم أمسكت يدي،

Telegram: Somrlibrary

وقبّلتْ ظاهرها ثم راحتها.

«كم أنا سعيدة لأجلك» غمغمتْ.

لكنّني لم أكترث كثيرًا لودِّيَّة حركتها، بقدر ما تأثَّرتُ بانتفاخ يديها، والجروح والخدوش القديمة والحديثة، أحدها على إبهام يدها اليسرى الذي التهبت جوانبه؛ تخيّلتُ أنّ ذلك العِصاب الذي يلفّ يدها اليمنى يُخفي ندبة أشدّ خطورة.

«ما الذي حدث لكِ؟»

تراجعتْ فورًا، وأدخلت يديها في جيبيها.

«لا شيء. حين تسلخين اللحوم، تتأذّى أصابعك».

«هل تسلخين اللحوم؟»

«يعيِّنونني حيثما يشاؤون».

«تحدَّثي مع برونو».

«برونو خرائيٌّ أكثر من الجميع. لا يأتي إلى هنا إلّا ليرى مَن في وسعه أن يضاجع في قسم تعتيق اللحوم».

«ليلا».

«إنَّها الحقيقة».

«هل أنت بخير؟»

«إنَّني في أفضل حال. في قسم الحاويات، يعطونني عشر ليرات إضافيَّة في الساعة، تعويضًا لضرر البرد».

نادى الرجل:

«شيرولُّو، انقضت الدقيقتان».

«هأنذا»، قالت.

غمغمتُ:

«توفِّيت المعلِّمة أوليڤييرو».

أبدت عدم اكتراثها، وقالت:

«كان موتها محتملًا، إذ لم تكن في صحَّة جيِّدة».

أضفتُ على عَجَل، لأنَّني رأيتُ أنّ الرجل إلى جانب العربة كان يُبدي استياءه:

«أرجعتْ إليّ «الساحرة الزرقاء»».

«وما هذه «الساحرة الزرقاء»؟»

حدّقتُ إليها لأفهم إن كانت لا تذكر حقًّا، وبدت لي صادقة في سؤالها.

«الكتاب الذي ألّفته أنت، حين كنت في سنِّ العاشرة».

«كتاب؟»

«سمَّيناه هكذا، آنئذ».

زمّت ليلا شفتيها، وهزّت رأسها. كانت في حالة استنفار، تخشى المضايقات في العمل، لكنّها في حضوري أدّت دور من يقوم بما يحلو له. عليّ أن أذهب، قلت لنفسي. ثم قلت لها:

«لقد مرّ زمن طويل على تلك القصَّة» أخذتُ أرتعش.

«هل حرارتك مرتفعة؟»

«لا، أبدًا».

بحثتُ عن الملفّ في الحقيبة، وأعطيته لها. أخذتْه، فتذكَّرتْه، لكنَّها لم تُبد أيّ تأثُّر.

«كنتُ طفلة دعيّة»، تمتمتْ.

سارعتُ إلى النفي:

«الحكاية لا تزال رائعة حتى اليوم» قلت لها، «قرأتُها ثانية،

Telegram: Somrlibrary

واكتشفتُ أنّها ظلّت عالقة في ذهني، من دون أن أنتبه لذلك. وكتابي مستلهمٌ منها».

«من هذه الترّهات؟» قهقهتْ بانفعال، «لا شكّ في أنّ من أراد نشر كتابك مجنون إذن».

صرخ الرجل بها:

«إنّني في انتظارك يا شيرولُّو».

«قرّعتَ رأسي يا هذا» أجابت.

وضعت الملفّ في جيبها، ومشينا نحو المَخرج وهي تشبك كتفي بذراعها. ففكّرتُ كم حفّزتُ نفسي للقائها، وكم من الصعوبات واجهتُ للوصول إلى ذلك المكان. كنت قد تصوّرتُ نحيبًا وبوحًا ونقاشًا واعترافاتٍ نتبادلها في أصبوحة هانئة لنستعيد علاقتنا الطيِّبة، لكنَّني كنت أجد نفسي أمشي إلى جانبها، وهي تشبكني بذراعها، ملتفَّة بمعطفها وقذارتها وخدوشها، وأنا متخفِّية بقناع آنسة من سلالة نبيلة. قلت لها إنّ رينوتشو كان وسيمًا للغاية وحادّ الذكاء. مدحتُ جارتها، وسألتُها عن إنتسو. كانت مسرورة بأنّني وجدتُ طفلها في حالة جيِّدة، وأثنتْ هي أيضًا على جارتها. غير أنّ الحديث عن إنتسو أشعل نورها، فتألّقتْ واتّقد حديثها:

«إنّه لطيف» قالت، «طيِّب القلب، ولا يخشى شيئًا. ذكيّ جدًّا، يدرس في الليل، ويعرف كثيرًا من الأمور».

لم أسمعها تتكلّم هكذا على أحد أبدًا. سألتُها:

«وماذا يدرس؟»

«الرياضيّات».

«إنتسو؟»

Telegram: Somrlibrary

«أجل. قرأ شيئًا ما عن الحاسبات الإلكترونيَّة، أو شاهد إعلانًا ما، لا أدري، فتولَّع بهذا. يقول إنّ الحاسبات ليست كما تظهر في السينما، مكوَّنة من أضواء ملوَّنة توقَد وتُطفَأ دوريًّا. بل إنّها مسألة تتعلَّق باللغويَّات».

«لغويَّات؟»

رمت نظرة جارحة، أعرفها جيِّدًا.

«ليست من تلك اللغويَّات المستخدَمة في تأليف الروايات» قالت، وأزعجتْني نبرة الاستخفاف حين لفظتْ كلمة «روايات»، وأزعجتْني الضحكة التي تلتها، «إنَّها لغة برمجة. إنتسو ينكبّ على الدراسة في المساء، ما إن ينام الطفل».

كانت شفتها السفلى جافَّة، خدشها البرد، ووجهها أنهكه التعب. ومع هذا، لفظتْ «ينكبّ على الدراسة» بفخر وزهوّ. ففهمتُ أن ليس إنتسو وحده من أُولع بتلك المادَّة، على الرَّغم من أنَّها ما فتئت تشير إليه بصيغة المفرد الغائب، وليس بصيغة المثنّى المتكلِّم.

«وأنتِ، ماذا تفعلين؟»

«أؤنسه، فهو يعود متعبًا، وإذا ظلّ بمفرده، يغلبه النعاس. أمّا معًا، فيشعر بمتعة الدراسة، أحدنا يقول شيئًا فيردّ الآخر بشيء ما، وهكذا. هل تعلمين ما معنى «الرسم التخطيطيّ البيانيّ»؟»

هززتُ رأسي. ضيّقتْ عينيها، تركتْ ذراعي، وراحت تتحدّث كي تُدخلني في شغفها الجديد ذاك. في الباحة، بين رائحة النار الموقدة ورائحة الدهون الحيوانيَّة المقزِّزة، واللحوم والأعصاب، استعادت ليلا حيويَّتها وعنفوانها، ليلا الملتفَّة بالمعطف والبذلة الزرقاء؛ ليلا ذات اليدين المجروحتين والهيئة البالية والوجه الشاحب بلا حلية أو زينة، تكلَّمتْ على تحويل أيّ شيء إلى «متغيّرة الخطأ والصواب»، مشيرة

Telegram: Somrlibrary

إلى الجبر البوليانيّ، ومزيد من تلك المعلومات التي لم أكن أعرف أيّ شيء عنها. ومع هذا، استطاعت كلماتها، كالعادة، أن توحي إليّ. بينما كانت تتكلّم، تراءى لي البيت البائس في الليل، والطفل النائم في الغرفة الأخرى؛ تراءى لي إنتسو في السرير، خائر القوى من عمله في أحد مصانع المقطورات؛ تراءت لي ليلا نفسها، بعد يوم عصيب من العمل في أحواض الطهو، أو السلخ، أو في الحاويات التي درجة حرارتها عشرون تحت الصفر، تراءت لي جالسة معه فوق الأغطية. رأيتُ كليهما مكلَّلًا ببهاء النور، مضحّيين بالنعاس، وتناهى صوتاهما إلى مسمعي: كانا يحلّان تمارين الرسم البياني التخطيطيّ، ويتدرَّبان على تنظيف العالم من التفاهات، ويحوِّلان الوقائع اليوميَّة إلى جداول قائمة على قيمتين للحقيقة، لا ثالثة لهما: الواحد والصفر. كلمات مبهمة تحوم في تلك الغرفة الفقيرة؛ همسات ووشوشة كي لا يستيقظ رينوتشو. شعرتُ بأنّني وصلتُ إلى المصنع باعتزاز لا يلين، وأدركتُ - عن طيب خاطر طبعًا - أنّني قمتُ بتلك الرحلة الطويلة، لا لشيء سوى كي أُريها حجمَ ما خسرتُه وحجم ما كسبتُه. لكنّها انتبهتْ لذلك منذ اللحظة التي ظهرتُ فيها قبالتها؛ فأرادت أن تفسِّر لي - غير آبهة بأيّ عقوبة أو مشاحنة مع زملائها - بأنّني لم أكسب شيئًا، وبأن لا شيء قابلًا للربح في هذه الحياة، وبأنّ حياتها فعلًا كانت مليئة بالمغامرات المتعدِّدة والمتهوِّرة، أكثر من حياتي، وبأنّ الوقت ببساطة يمرّ بلا معنى، وبأنّ لا شيء أجمل من أن نلتقي بين حينٍ وآخر، لتسمع الواحدة أصداء جنون عقلها في صوت جنون عقل الأخرى.

«هل تحبّين العيش معه؟» سألتها.

«أجل».

«هل ستنجبان أولادًا؟»

Telegram: Somrlibrary

تنهّدت بسخرية زائفة.

«نحن لسنا مرتبطين».

«حقًّا؟»

«أجل. لا تراودني الرغبة».

«وماذا عنه؟»

«ينتظرني».

«ربّما تشعرين بأنَّه أخٌ».

«لا. إنَّه يعجبني».

«فماذا إذن؟»

«لا أعلم».

توقّفنا قرب النار، أشارت إلى الحارس.

«خذي حذرك من هذا» قالت لي، «إنَّه قادر على اتّهامك بأنَّك سرقتِ قطعة مرتديلًا ليبتزّك ويتلّمس جسدك».

تعانقنا، وتبادلنا القبلات. قلت لها إنَّني سأبحث عنها مجدَّدًا، وإنَّني لا أودّ أن أضيّع أثرها، وإنَّني صادقة في ما أقول. ابتسمتْ وقالت: «أجل، وأنا أيضًا لا أودّ أن أضيِّعك». وشعرتُ بأنَّها كانت صادقة أيضًا.

ابتعدتُ بقلق شديد. كنت لا أقوى على فراقها، ولا زال يراودني ذاك الهاجس القديم، بأنّني لست ذات قيمة من دونها؛ وفي الآن نفسه، كنت أشعر بضرورة الفرار بعيدًا، هربًا من رائحة الدهون التي فاحت منها. بعد خطوات قليلة ومستعجلة، لم أصمد، والتفتُّ لأودّعها ثانية. فرأيتُها واقفة إلى جانب النار، لا تبدو امرأة وهي في تلك الملابس، تتصفَّح «الساحرة الزرقاء». وفجأة، رمت القصَّة في النار.

Telegram: Somrlibrary

١٢٥

لم أُخبرها عن موضوع كتابي، ولا متى يصل إلى المكتبات. لم أقل لها شيئًا حتى عن بييترو، وعن مشروع زواجنا بعد عامين. أعيتني حياتها، وتطلَّب منِّي الأمر أيَّامًا كي أُعيد حياتي إلى طبيعتها ومعالمها الواضحة. وبفضل مسوّدة الكتاب، استعدتُ شخصيَّتي كلِّيًّا؛ لكن، أيّ جانب من شخصيَّتي؟ ربّما لأنّ الكتاب، البالغ مئة وتسعًا وثلاثين صفحة، بأوراقه السميكة، حوّل كلمات الدفتر المكتوبة بخطّ يدي، إلى كلمات غريبة بشكل محبَّب، بفضل الأحرف المطبوعة.

أمضيتُ ساعات سعيدةً في القراءة والمراجعة والتصحيح. كان الطقس باردًا في الخارج، والريح الصقيعيَّة تتسلَّل من ثقوب النوافذ والأبواب. كنت أجلس إلى طاولة المطبخ، بصحبة جانّي وإيليزا اللذين يدرسان. وكانت والدتي تتسكَّع حولنا، لكن بحذر، كي لا تسبِّب الإزعاج؛ وهذا ما فاجأني.

عدت إلى ميلانو سريعًا، وسمحتُ لنفسي بركوب سيَّارة أجرة في تلك المناسبة، وكانت تلك المرَّة الأولى في حياتي. قال لي المحرِّر الأصلع، بعد يوم شاقّ من العمل على الرتوش الأخيرة: «سأطلب لك سيَّارة أجرة»، ولم أستطع أن أجيب بلا. وهكذا، حدث أنّني فكَّرتُ،

Telegram: Somrlibrary

وأنا ذاهبة من ميلانو إلى بيزا، في المحطَّة أنظر من حولي: لمَ لا، سأتصرّف كالسيِّدات النبيلات مرّة أخرى. وعادت المحاولة تغريني مرّة أخرى، حين عدت إلى ناپولي، في ضوضاء ساحة غاريبالدي. كم كان يعجبني لو وصلتُ إلى الحيّ بسيَّارة أجرة، أجلس مستريحة في المقعد الخلفيّ، والسائق الذي في خدمتي يفتح لي الباب ما إن نصل إلى تحت البناية! لكنَّني عدت إلى البيت بالحافلة، فقد عزّ عليّ التكبُّر. وعلى الرَّغم من هذا، فلا بدّ من أنّ هيئتي كانت تنمّ عن شيء يجعلني مختلفة؛ فحين ألقيتُ التحيَّة على آدا ـ وهي تنزّه طفلتها ـ نظرتْ إليّ بشرود، وتابعت سيرها، ثم توقَّفت وعادت إلى الخلف، وقالت لي: «كم تبدين في مظهر لائق، لم أعرفك في البدء. لقد أصبحتِ شخصًا آخر».

أسعدني تعليقها مبدئيًا، ثم سرعان ما أسفتُ عليه. فما نفع أن أصبح شخصًا آخر؟ كنت أريد أن أبقى أنا، مكبَّلة بليلا والفناء والدميتين الضائعتين والدون آخيل وكلّ شيء. كانت هذه الطريقة الوحيدة لأشعر بحقيقة ما كان يحدث لي. في المقابل، من الصعب الصمود أمام التغيّرات؛ ففي تلك الآونة، تغيَّرتُ رغمًا عنّي أكثر من تلك السنوات التي أمضيتُها في بيزا. صدر الكتاب في الربيع، وأضفى عليّ هويَّة جديدة أكثر من شهادة التخرُّج. حين أريتُ نسخة منه لأمّي وأبي وإخوتي، مرَّروه بينهم بصمت، من دون أن يتصفّحوه. كانوا يحدِّقون إلى الغلاف، بابتسامات مرتبكة. بدوا كأنَّهم رجال شرطة يعاينون وثائق مزيّفة. قال والدي: «هذه كنيتي»، لكنّه تحدّث بغير رضا، كما لو أنّه فجأة، بدلًا من أن يكون فخورًا بي، اكتشف أنَّني سرقتُ نقودًا من جيبه.

ثم مرَّت الأيَّام، وصدرت القراءات الأولى. تتبَّعتُها بقلق كبير،

Telegram: Somrlibrary

وجرحني أيّ نقدٍ ولو كان طفيفًا؛ بينما قرأت المقالات على أفراد عائلتي التي كانت تُثني على الكتاب بصوت مرتفعٍ، فتألّق وجه والدي. قالت إيليزا باستخفاف: «كان عليك أن توقّعي باسم لينوتشا. إيلينا اسم مقزِّز».

وفي تلك الأيَّام الهانئة، اشترت والدتي ألبوم صور، وراحت تضع فيه كلّ المقالات التي تناولتني بأسلوبٍ طيّب. سألتني ذات صباح:

«ما اسم خطيبك؟»

كانت تعرف اسمه، إلَّا أنّ شيئًا ما كان يدور في رأسها، وكي تطلعني عليه، تذرَّعتْ بذلك السؤال.

«بييترو آيروتا».

«سيصبح اسمك آيروتا إذن».

«أجل».

«وإذا ألّفتِ كتابًا آخر، ستضعين آيروتا على الغلاف؟»

«لا».

«لماذا؟»

«لأنّ إيلينا غريكو يعجبني».

«وأنا أيضًا»، قالت.

لكنّها لم تقرأ الكتاب أبدًا، ولا والدي، ولا بيبّي، أو جانّي، أو إيليزا؛ في البداية، لم يقرأه أحدٌ في الحيّ كلّه. ذات صباح، جاءنا مصوِّر، وشرع يلتقط لي الصور نحو ساعتين، في الحديقة، وعلى طول الشارع العام، وعند مدخل النفق. ثم نُشرت إحدى تلك الصور في صحيفة «ال ماتينو»؛ وانتظرتُ أن يستوقفني المارّة في الطريق، أو

Telegram: Somrlibrary

يقرأوا كتابي لإشباع فضولهم. لكن لا أحد، بمن فيهم ألفونسو وآدا وكارمن وجيليولا، وحتى ميكيلي ومارتشيلُّو سولارا اللذان ليسا أمِّيَّين، لا أحد قال لي، عند أوَّل مناسبة: كتابك جميل، أو كتابك سيِّئ، مثلًا. كانوا يكتفون بتحيَّة حارّة، ويكملون طريقهم.

وكان أوّل لقاءٍ لي مع القرّاء في إحدى مكتبات ميلانو. اكتشفتُ أنّ آديلي آيروتا هي التي أصرّت على إقامة هذا اللقاء؛ وكانت تراقب، عن كثب، ردود الأفعال على الكتاب؛ وجاءت خصِّيصًا من جنوا إلى تلك المناسبة. مرّت بي في الفندق، وظلّت بصحبتي طوال الظهيرة، محاولة أن تهدِّئ قلقي برزانتها. كانت يداي ترتجفان بلا هوادة. أتلعثم بالكلمات، وأحسّ بمرارة في فمي. وكنت غاضبة بالتحديد من بييترو، لأنَّه بقي في بيزا متفرِّغًا لانشغالاته. أمَّا ماريًّا روزا التي كانت تقيم بميلانو، فعرّجت على تهنئتي قبل اللقاء، ثم انصرفت إلى مشاغلها.

ذهبتُ إلى المكتبة بذعرٍ عنيف. وجدتُ الصالة مكتظَّة، فدخلتُ مطأطئة الرأس. كاد يُغمى عليّ من شدّة التأثُّر. حيَّتْ آديلي الكثيرين من الحاضرين، كانوا أصدقاءها ومعارفها. وجلستْ في الصفّ الأوَّل، وأمدّتني بنظراتها المحفِّزة، وكانت تلتفت ين حينٍ وآخر لتثرثر مع سيِّدة من عمرها تجلس خلفها. لم أكن قد تحدّثت على الملأ حتى تلك اللحظة، إلَّا مرَّتين اثنتين، وقد شجَّعني فيهما فرانكو، أمام جمهور مكوَّن من ستَّة أو سبعة رفاق يتبسَّمون متفهِّمين. لكنّ الوضع كان مختلفًا حينذاك. كنت قبالة نحو أربعين شخصًا، لا أعرفهم، وجميعهم مثقّفون ورفيعو المستوى، يمطرونني بنظرات صامتة، لا يتخلَّلها الاستلطاف، وأكثرهم كان مُكرهًا على المجيء ليس إلّا تشريفًا لدعوة آيروتا. كم كنت أودّ النهوض والفرار بعيدًا.

Telegram: Somrlibrary

لكنّ الندوة بدأت. ثمَّة ناقدٌ عجوز، أستاذ جامعيّ ذائع الصيت في تلك الفترة، تحدَّث بإيجابيَّة عن كتابي قدر الإمكان. لم أفهم شيئًا من خطابه، إذ كنت لا أفكِّر سوى في ما كان عليّ أن أقول. كنت أترنّح على الكرسيّ، وأشعر بألم في البطن. أحسستُ بأنّ العالم يتداعى، ويدخل في حالة فوضى عارمة؛ في حين لم أستطع العثور على ما يسمح لي باسترجاع العالم وترتيبه من جديد. ومع هذا، تظاهرتُ بالسكينة. وحين جاء دوري، تكلّمتُ من دون أن أعرف بما كنت أتفوّه. تكلَّمتُ كي لا أبقى صامتة، وبالغتُ في لغة اليدين، وأفرطتُ في استعراض كفاءاتي الأدبيَّة، وشطحتُ في المباهاة بثقافتي الكلاسيكيّة. ثم هيمن الصمت.

ماذا يجول في أذهانهم عنِّي؟ ماذا سيقول هؤلاء الجالسون قبالتي؟ كيف قوَّم الأستاذ والناقد، الجالس قربي، مداخلتي؟ وهل يُخفي استحسانُ آديلي ندمها، لأنَّها ساندتني؟ حين نظرتُ إليها، أدركتُ أنَّني أستجديها بعينيّ، أيّ دلالة على الرضا؛ فشعرتُ بالحياء. وحينها، ربّت الناقد على ذراعي، كأنَّه يحثّني على الطمأنينة، وطلب آراء الجمهور. أسدل الكثيرون أنظارهم إلى أحضانهم والأرض. أوّلَ المتكلِّمين كان سيّدًا متقدِّمًا في السنّ، يرتدي نظَّارة مقعّرة، لا أعرفه، لكنّه معروف لدى الحاضرين. بمجرّد أن سمعت آديلي صوته، تأفَّفتْ منزعجة. استرسل الرجل في الحديث عن انحطاط النشر الذي بات صنّاعه يعوّلون على المردود الماديّ أكثر من الجودة الأدبيَّة، ثم تطرَّق إلى التواطؤ التجاريّ بين النقّاد والصفحات الثقافيَّة في الجرائد. وفي النهاية، ركّز في كتابي بسخرية أوَّلًا، لينتقل إلى نقدٍ لاذع وجارحٍ، عندما أشار إلى المقاطع الجريئة. احمرّ وجهي، وبدلًا من أن أجيبَ، هذرتُ بأشياء عامَّة خارج الموضوع؛ إلى أن توقَّفتُ عن الكلام،

Telegram: Somrlibrary

وحملقتُ في الطاولة. شدّ الأستاذ الناقد من عزيمتي، بابتسامته ونظراته، ظنًّا منه أنَّني كنت أريد مواصلة الكلام. وحين فطن إلى أن لا نيَّة لديّ للمتابعة، ختم بجفاء:

«هل من أسئلة أخرى؟»

نهضتْ يدٌ في آخر الصالة.

«تفضّل».

شابٌّ طويل القامة، شعره طويلٌ ومنثور، ولحيته طليقة وفي غاية السواد، تكلّم بأسلوب جدليّ، مستخفًّا بالمداخلة السابقة، كما أدلى ببعض الانتقادات لمقدِّمة الرجل الطيِّب الجالس قربي. قال إنَّنا نعيش في بلدٍ متخلِّف جدًّا، بحيث أيّ مناسبة تصلح للتذمُّر، بينما لا يشمّر أحدٌ عن ساعديه ويُشرِع في إصلاح الوضع وترتيب الأمور. ثم امتدح القوّة الحداثيّة التي تضمَّنتها روايتي. عرفتُه... ولاسيّما من صوته. نينو سارّاتوري.

تصميم الغلاف نجاح طاهر

في الجزء الثاني من "صديقتي المذهلة"، تعمل ليلا في شركة عائلة زوجها. أمّا إيلينا فتتفوّق في دراستها بهدف الهرب من مصيرها في الحيّ النابوليتانيّ البائس. لكنّهما لا تلبثان أن تلتقيا على شاطئ البحر، حيث ينضمّ إليهما "نينو" وعائلته.

وفي خلطٍ صاعق للأحداث والأحاسيس فوق تلك الرمال الداكنة، تتابع إيلينا فيرّانتي استدراجَ القارئ إلى ملاحقة رحلة الصديقتين الجارفة.

ربّما فيرّانتي أفضلُ كاتبة عرفتها الروايةُ الحديثة. أدبُها شفّافٌ كالبلّور، وحكاياتُها غرائزيّة وعميقة في آنٍ واحد. The Economist

فيرّانتي هي، قبل كلّ شيء، ماهرة في صناعة الحبكات والمكائد. The Independent

ليس ثمّة مَنْ كتب عن إيطاليا وأحاسيسها وأحيائها ومذاقاتها وعواطفها العنيفة مثلما فعلتْ فيرّانتي.

IL Manifesto

تُحفةٌ بكلّ ما في الكلمة من معنى... قرأتُ كلّ كتبها وأنا في حالٍ من الانغماس، ووقعتُ في سحرها. لم أرغب إلّا في ملاحقة حياة ليلا وإيلينا حتى النهاية.

Jhumpa Lahiri (Pulitzer Prize Winner)

مكتبة سومر

دار الآداب

هاتف: ٨٦١٦٣٣-١-٩٦١+

٧٩٥١٣٥-١-٩٦١+

بيروت - لبنان

ISBN: 978-9953-89-550-5

9789953895505